

تفسير التابعين

قدم له وحققه وعلق حواشيه
الدكتور عبدالله خضر حمد^(١)
الجزء الأول
[المقدمة والتمهيد]- [سورة البقرة، الآية: ١٨٦]

(١) عبد الله خضر حمد بيرداود، باحث عراقي كردي، ولد في مدينة أربيل عام ١٩٧٧م، حاصل على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها/البلاغة والنقد، صدر له مجموعة من الكتب في مجال اللغة العربية والأدب والنقد والبلاغة، مارس التدريس في تخصصه، ثم أحيل إلى التقاعد، متفرغ للبحث العلمي والتأليف. «لا أنتمي لأي حزب ولا جماعة، أينما وجدت الحديث الصحيح، أخذتُ به، وأكن الاحترام والتقدير لأئمة المذاهب الأربعة، وعلماء هذه المذاهب، ولا أتعصب لأحد منها».

حقوق النسخ والطبع والنشر مسموح بها لكل مسلم

ملاحظة:

إلى الذين يرغبون بطبع التفسير من دور النشر والجهات الخيرية، يرجى
مراسلة المؤلف -أطفا وتكرما- على البريد الإلكتروني الآتي، وذلك لإرسال
التفسير بأحدث نسخة إن شاء الله، وفقنا الله تعالى وإياكم لما يرضيه
برحمته، أمين.

abdulla.khdhir@gmail.com

{بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ}

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أصح الطرق في ذلك أن يُفسَّر القرآن بالقرآن، ومن ثم بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، كما قال الشافعي-رحمه الله:- "كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا} [النساء : ١٠٥] ، وقال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل : ٤٤] ، وقال تعالى : {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِلْبَيِّنِ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النحل : ٦٤]"^(١).

وعن أيوب السخيتاني: أن رجلا قال لمطرف بن عبد الله بن الشخير -وهو من كبار التابعين (ت ٩٥ هـ): لا تحدثونا إلا بالقرآن، فقال له مطرف: "والله ما نريد بالقرآن بدلا، ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا"^(٢).

وقال مكحول الشامي -وهو من ثقات التابعين وفقهائهم- (ت ١١٣ هـ): "القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن"^(٣).

وعن حسان بن عطية -وهو أحد ثقات التابعين، مات بعد سنة ١٢٠ هـ- قال: "كان الوحي ينزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك"^(٤).
وقال يحيى بن أبي كثير -وهو من صغار التابعين الثقات الأثبات، ت ١٢٩ هـ-: "السنة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب بقاض على السنة"^(٥).

- (١) مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣٦٣/١٣، وتفسير ابن كثير: ٤/١.
(٢) أخرجه أبو خيثمة في (كتاب العلم) ص ٤١ رقم (٩٧)، وابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ص ٥٦٣.
(٣) أخرجه المروزي في (السنة) رقم (١٠٤)، وابن شاهين في (شرح مذاهب أهل السنة) رقم (٤٨)، وابن بطة في (الإبانة الكبرى) رقم (٨٩)، والخطيب في (الكفاية) ص ١٤، وأورده ابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ص ٥٦٣، وعزاه إلى سعيد بن منصور.
وجاء هذا عن الإمام الأوزاعي -راويه عن مكحول، وهو من كبار أتباع التابعين، وأئمة الفقه المشهورين، ت ١٥٧ هـ- أنه قال: "الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب". أورده ابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله) ص ٥٦٣، وعلق عليه فقال: "يريد أنها تقضي عليه وتبين المراد منه، وهذا نحو قولهم: ترك الكتاب موضعا للسنة، وتركت السنة موضعا للرأي".
وجاء أيضا عن حماد بن زيد -وهو من أتباع التابعين، مات سنة ١٧٩ هـ- قال: "إنما هو الكتاب والسنة، والكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب" أخرجه الخطيب في (الفيہ والمتفقہ) ١: ٢٣١ رقم (٢٣١).
(٤) أخرجه بهذا اللفظ: ابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ص ٥٦٣، وذكره القرطبي في تفسيره ١: ٣٩.
وأخرجه الخطيب في (الكفاية) ص ١٥، ولفظه: (كان جبرائيل ينزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- بالقرآن، والسنة تفسر القرآن).
وأخرجه الدارمي رقم (٥٨٨) في المقدمة: باب السنة قاضية على كتاب الله، والمروزي في (السنة) رقم (١٠٢) (٤٠٢)، ونعيم بن حماد في زوائد على (الزهد) ص ٤٣٩ رقم (٩١)، وابن بطة في (الإبانة الكبرى) رقم (٩٢)، واللالكاني في (شرح أصول اعتقاد أهل السنة) ١: ٨٣ رقم (٩٩) والخطيب البغدادي في (الفيہ والمتفقہ) ١: ٢٦٦ - ٢٦٧ رقم (٢٦٨) (٢٦٩) (٢٧٠)، وفي (الكفاية) ص ١٢ بنحوه. وصحح إسناده ابن حجر في (فتح الباري) ١٣: ٣٠٥.

(٥) أخرجه الدارمي رقم (٥٨٧) في المقدمة: باب السنة قاضية على كتاب الله، والمروزي في (السنة) رقم (١٠٣)، وابن شاهين في (شرح مذاهب أهل السنة) رقم (٤٧)، وابن بطة في (الإبانة الكبرى) رقم (٩٠) (٩١)، والخطيب في (الكفاية) ص ١٤. وأورده ابن قتيبة في (تأويل مختلف الحديث) ص ٣٨٠ وعلق عليه فقال: "أراد أنها مبنية للكتاب، مبنية عما أراد الله تعالى فيه". وأورده السيوطي في (مفتاح الجنة) ص ٩١، وعقب عليه فقال: "قال

وقال الإمام الطبري -رحمه الله-: "تأويلُ القرآن غيرُ مدرَك إلا ببيان من جعل الله إليه بيان القرآن" (١).

وقال ابن تيمية -رحمه الله-: "اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة الدين؛ أن السنة تُفسرُ القرآن، وتبينه، وتدل عليه، وتعبر عن مجمله" (٢).

وقال الشاطبي -رحمه الله-: "لا ينبغي في الاستنباط من القرآن الاقتصار عليه دون النظر في شرحه وبيانه، وهو: السنة" (٣).

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه" (٤)، قال ابن القيم -رحمه الله- معلقاً على الحديث: "هذا هو السنة بلا شك" (٥)، وقال ابن كثير: "يعني: السنة، والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحي، كما ينزل القرآن؛ إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن، إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن، وقد استدلل الإمام الشافعي، رحمه الله وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك.

والغرض أنك تطلب تفسيرَ القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: "بم تحكم؟" قال: بكتاب الله. قال: "فإن لم تجد؟" قال: بسنة رسول الله. قال: "فإن لم تجد؟" قال: أجتهد برأبي. قال: فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدره، وقال: "الحمد لله الذي وقَّفَ رسولَ الله لما يرضى رسول الله" (٦)،

البيهقي: ومعنى ذلك أن السنة مع الكتاب أقيمت مقام البيان عن الله، كما قال الله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، لا أن شيئاً من السنن يخالف الكتاب".

قلت -القائل السيوطي-: "والحاصل أن معنى احتياج القرآن إلى السنة؛ أنها مبينة له، ومفصلة لمجملاته، لأن في لوجازته كنوز تحتاج إلى من يعرف خفايا خباياها فيبرزها، وذلك هو المنزل عليه -صلى الله عليه وسلم-، وهو معنى كون السنة قاضية عليه، وليس القرآن مبيناً للسنة ولا قاضياً عليها، لأنها بيّنة بنفسها إذ لم تصل إلى حد القرآن في الاعجاز والإيجاز، لأنها شرح له، وشأن الشرح أن يكون أوضح وأبين وأبسط من المشروح، والله أعلم". وجاء هذا عن الأوزاعي قال: "إن السنة جاءت قاضية على الكتاب، ولم يجيء الكتاب قاضياً على السنة". أخرجه الحاكم في (معرفة علوم الحديث) ص ٦٥.

وقال الفضل بن زياد: سمعت أحمد بن حنبل -وسئل عن الحديث الذي روي أن السنة قاضية على الكتاب- قال: "ما أجسر على هذا أن أقوله، ولكن السنة تفسر الكتاب، وتعرف الكتاب، وتبينه". أخرجه الخطيب في (الكفاية) ص ١٤ - ١٥، وأورده ابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ص ٥٦٤، والقرطبي في تفسيره ١: ٣٩.

وجاء في (مسائل الإمام أحمد) رواية ابنه عبد الله رقم (١٥٨٦): "قال عبد الله: سألت أبي، قلت: ما تقول في السنة تقضي على الكتاب؟ قال: قد قال ذلك قوم منهم مكحول والزهري. قلت: فما تقول أنت؟ قال: أقول: السنة تدل على معنى الكتاب". وأخرجه الخطيب في (الفتاوى والمنقحة) ١: ٢٣٠ - ٢٣١.

وفهم ابن القيم من عبارة الإمام أحمد معنى الإنكار، فقال في (الطرق الحكيمة) ص ١٠٧: "وقد أنكر الإمام أحمد على من قال: السنة تقضي على الكتاب، فقال: بل السنة تفسر الكتاب وتبينه".

(١) تفسير الطبري ٢: ١٨١.

(٢) مجموع الفتاوى ١٧: ٤٣٢.

(٣) الموافقات ٣: ٣٦٩.

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١٣١)، وأبو داود في السنن برقم (٤٦٠٤)، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٣٣٢، والطبراني في "الكبير" (٢٠/ ٢٨٣)، والمروزي في السنة (٤٠٣، ٢٤٤)؛ والخطيب في الكفاية (١/ ٨٠)؛ وابن عبد البر في التمهيد (١/ ١٤٩ - ١٥٠)، وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان ١/ ١٨٨ رقم (١٢)، والطحاوي في (شرح معاني الآثار) ٤/ ٢٠٩، من حديث المقدم بن معدى كرب، رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في "مشكاة المصابيح" (١/ ٥٧/ ١٦٣).

(٥) التبيين في أقسام القرآن ص ١٥٦.

(٦) تفسير ابن كثير: ٧/١.

(٧) رواه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٣٠) وأبو داود في السنن برقم (٣٥٩٢) والترمذي في السنن برقم (١٣٢٨) من طرق عن شعبة عن أبي عون عن الحارث بن عمرو عن ناس من أصحاب معاذ عن معاذ به، وقال الترمذي:

وهذا الحديث في المساند والسنن بإسناد جيد، كما هو مقرر في موضعه، وحينئذ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدركوا بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اقتصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماءهم وكبرائهم، كالأنمة الأربعة والخلفاء الراشدين، والأنمة المهديين، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير حدثنا أبو كريب، حدثنا جابر بن نوح، حدثنا الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود - : والذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت؟ وأين نزلت؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم، بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته^(١).

وقال الأعمش أيضاً، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قال: "كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن"^(٢).

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: "حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبي صلى الله عليه وسلم، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً"^(٣).

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترجمان القرآن وببركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له حيث قال: "اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل"^(٤).

قال ابن مسعود: "نعم ترجمان القرآن ابن عباس"^(٥).

فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود: أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة. وقد مات ابن مسعود، رضي الله عنه، في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعمّر بعده ابن عباس سناً وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود؟

وقال الأعمش عن أبي وائل: "استخلف عليّ عبد الله بن عباس على الموسم، فخطب الناس، فقرأ في خطبته سورة البقرة، [وفي رواية: سورة النور]، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا"^(٦).

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره، عن هذين الرجلين: عبد الله بن مسعود وابن عباس، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب، التي أباحها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: "بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" رواه البخاري عن عبد الله^(٧)، ولهذا كان عبد الله بن عمرو يوم اليرموك قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك.

"هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده عندي بمتصل، وأبو عون الثقفي اسمه محمد بن عبيد الله. وللشيخ ناصر الألباني مبحث مائع بين فيه كلام العلماء في نقد الحديث. انظر: السلسلة الضعيفة برقم (٨٨١).

(١) تفسير الطبري (١ / ٨٠) وجابر بن نوح ضعيف لكنه توبع، فرواه البخاري في صحيحه برقم (٥٠٠٢) عن عمر بن حفص عن أبيه عن الأعمش به.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١ / ٨٠) من طريق الحسين بن واقد عن الأعمش به.

(٣) رواه الطبري في تفسيره (٨٢): ص ٨٠ / ١، إسناده صحيح.

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (١ / ٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٧) وأصله في صحيح البخاري برقم (٧٥).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠٥): ص ٩٠ / ١.

(٦) رواه الطبري في تفسيره (٨٥)، و(٨٦): ص ٨١ / ١، والفسوي في تاريخه: ١ / ٤٩٥، من طريق الأعمش به.

(٧) صحيح البخاري (٣٢٧٤): ص ١٢٧٥ / ٣، ومسند الإمام أحمد (٦٤٥٠): ص ١٥٩ / ٢.

وتجدر الإشارة بأن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد ، لا للاعتضاد ، كما أنها على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق ، فذاك صحيح.

والثاني : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث : ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم ، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيرا ، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك ، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعدتهم ، وعصا موسى من أي الشجر كانت ؟ وأسماء الطيور التي أحيها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذي ضرب به القنيل من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى ، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن ، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم. ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز ، كما قال تعالى : { سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كُنْتُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كُنْتُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَتَأْمِينُهُمْ كُنْتُمْ فَلْيُرَئِي رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَنَفِتْ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا } [الكهف : ٢٢] ، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا ، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث ، فدل على صحته إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما ، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته ، فقال في مثل هذا : { فَلْيُرَئِي رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ } فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ، ممن أطلعه الله عليه ، فلماذا قال : { فَلَا تُمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا } أي : لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف : أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام ، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل ، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته ، لنلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فتشتغل به عن الأهم فالأهم. فأما من حكى خلافا في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص ، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه. أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال ، فهو ناقص أيضا. فإن صحح غير الصحيح عامدا فقد تعدم الكذب ، أو جاهلا فقد أخطأ ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته ، أو حكى أقوالا متعددة لفظا ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى ، فقد ضيع الزمان ، وتكثر بما ليس بصحيح ، فهو كلابس ثوبي زور ، والله الموفق للصواب.

قال سفيان بن عيينة عن عبد الله بن أبي يزيد : "كان ابن عباس إذا سئل عن الآية في القرآن قال به ، فإن لم يكن وكان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر به ، فإن لم يكن فعن أبي بكر وعمر ، رضي الله عنهما ، فإن لم يكن اجتهد برأيه"^(١).

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة ، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين ، كمجاهد بن جبر ، فإنه كان آية في التفسير ، كما قال محمد بن إسحاق : حدثنا أبان بن صالح ، عن مجاهد ، قال : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات ، من فاتحته إلى خاتمته ، أوقفه عند كل آية منه ، وأسأله عنها"^(٢).

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا طلق بن غنام ، عن عثمان المكي ، عن ابن أبي مليكة قال : "رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ، ومعه ألواح ، قال : فيقول له ابن عباس : اكتب ، حتى سأله عن التفسير كله"^(٣).

(١) سنن الدارمي (١٦٨) : ص ٢٦٥/١ .

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٠٨) (ص ٩٠ / ١) .

(٣) تفسير الطبري (١٠٧) ص ٩٠/١ .

ولهذا كان سفيان الثوري يقول : "إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به"^(١) .
 وكسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح ، والحسن البصري ،
 ومسروق ابن الأجدع ، وسعيد بن المسيب ، وأبي العالية ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، والضحاك
 بن مزاحم ، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم ، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم
 تباين في الألفاظ ، يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً وليس كذلك ، فإن منهم من يعبر
 عن الشيء بلازمه أو بنظيره ، ومنهم من ينص على الشيء بعينه ، والكل بمعنى واحد في كثير من
 الأماكن ، فليتفطن اللبيب لذلك ، والله الهادي .

وقال شعبة بن الحجاج وغيره : "أقوال التابعين في الفروع ليست حجة ؟ فكيف تكون حجة
 في التفسير؟ ، يعني : أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم ، وهذا صحيح ، أما إذا أجمعوا
 على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة ، فإن اختلفوا فلا يكون بعضهم حجة على بعض ، ولا على
 من بعدهم ، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب ، أو أقوال الصحابة في
 ذلك"^(٢) .

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام^(٣) ، لما رواه محمد بن جرير ، رحمه الله ، بسنده عن
 ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من قال في القرآن برأيه ، أو بما لا يعلم ،
 فليتبوأ مقعده من النار "^(٤) .

وفي رواية أخرى: "من قال في القرآن برأيه فأصاب، فقد أخطأ"^(٥) .
 لأنه قد تكلف ما لا علم له به ، وسلك غير ما أمر به ، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر
 لكان قد أخطأ ، لأنه لم يأت الأمر من بابه ، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار ، وإن
 وافق حكمه الصواب في نفس الأمر ، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ ، والله أعلم ، وهكذا سمي
 الله الفذفة كاذبين ، فقال : { فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ } [النور : ١٣] ،
 فالفاذف كاذب ، ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر ، لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به ،
 ولو كان أخبر بما يعلم ، لأنه تكلف ما لا علم له به ، والله أعلم .

ولهذا تحرَّج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به ، كما روى شعبة ، عن سليمان
 ، عن عبد الله بن مرة ، عن أبي معمر ، قال : قال أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه : أي أرض
 تقلتني وأي سماء تظلني ؟ إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم"^(٦) .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : حدثنا محمد بن يزيد ، عن العوام بن حوشب ، عن إبراهيم
 التيمي ، أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله : { وَفَاكِهَةٌ وَأَبَّأ } [عبس : ٣١] ، فقال : أي سماء تظلني ،
 وأي أرض تقلتني ؟ إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم . منقطع"^(٧) .

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠٩) : ص ١ / ٩١ من طريق أبي بكر الحنفي سمعت سفيان فذكره .

(٢) تفسير ابن كثير : ١٠ / ١ ، وانظر : تفسير البيهقي : ١٧ / ١ ، ومقدمة في أصول التفسير ص : ٥٠ ،

(٣) انظر : شرح مقدمة التفسير : لابن تيمية : ١٣٩ / ١ .

(٤) تفسير الطبري (٧٤) ص ١ / ٧٧ ، وأخرجه الترمذي في سننه : (٢٩٥٢) ، وقال حديث حسن ، والنسائي في سنن
 النسائي الكبرى (٨٤ ٨٠) ، وأبو داود في سننه (٣٦٥٢) ، والحديث مداره على عبد الأعلى بن عامر قال أبو زرعة :
 ضعيف ، وتركه ابن مهدي .

(٥) تفسير الطبري (٨٠) ص ١ / ٧٩ . وانظر : سنن أبي داود برقم (٣٦٥٢) وسنن الترمذي برقم (٢٩٥٣) ، قال
 الترمذي : غريب ، وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٨٦) .

(٦) رواه الطبري في تفسيره (٧٩) : ص (١ / ٧٨) .

(٧) فضائل القرآن (ص ٢٢٧) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠ / ٥١٣) عن محمد بن عبيد عن العوام بن
 حوشب به .

وقال أبو عبيد أيضاً : "حدثنا يزيد ، عن حميد ، عن أنس ، أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر : { وَفَاكِهَةٌ وَأَبًا } [عبس : ٣١] ، فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو التكلف يا عمر"^(١).

وقال عبد بن حميد : "حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، عن ثابت ، عن أنس ، قال : كنا عند عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وفي ظهر قميصه أربع رقاع ، فقرأ : { وَفَاكِهَةٌ وَأَبًا } فقال : ما الأب ؟ ثم قال : إن هذا لهو التكلف فما عليك ألا تدريه"^(٢). وهذا كله محمول على أنهما ، رضي الله عنهما ، إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب ، وإلا فكونه نبيا من الأرض ظاهر لا يجهل ، لقوله : { فَأَنْبَأْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا } الآية [عبس : ٢٧ ، ٢٨].

وأخرج الطبري بسنده الصحيح عن ابن أبي مليكة : "أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها ، فأبى أن يقول فيها"^(٣).

وقال أبو عبيد : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، عن أيوب ، عن ابن أبي مليكة ، قال : "سأل رجل ابن عباس عن { يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ } [السجدة : ٥] ، فقال له ابن عباس : فما { يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ } [المعارج : ٤] ؟ فقال له الرجل : إنما سألتك لتحديثي. فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه ، الله أعلم بهما. فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم"^(٤).

وأخرج - أيضاً - ابن جرير الطبري : عن مهدي بن ميمون ، عن الوليد بن مسلم ، قال : "جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله ، فسأله عن آية من القرآن ؟ فقال : أحرّج عليك إن كنت مسلماً إلا ما قمت عني ، أو قال : أن تجالسني"^(٥).

وقال مالك ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب : "إنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن ، قال : لا أقول في القرآن شيئاً"^(٦). وقال الليث ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب : "إنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن"^(٧).

وقال شعبة ، عن عمرو بن مرة ، قال : "سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال : لا تسألني عن القرآن ، وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء ، يعني : عكرمة"^(٨). وقال ابن شوذب : حدثني يزيد بن أبي يزيد ، قال : "كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام ، وكان أعلم الناس ، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت ، كأن لم يسمع"^(٩).

(١) فضائل القرآن (ص ٢٢٧) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠ / ٥١٢) عن يزيد به ، ورواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥١٤) من طريق يزيد عن حميد به ، وقال : "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه".

(٢) ورواه ابن سعد في الطبقات (٣ / ٣٢٧) ، ورواه البخاري في صحيحه برقم (٧٢٩٣) عن سليمان بن حرب به مختصراً ولفظه : "نهينا عن التكلف".

(٣) تفسير الطبري (٩٨) : ص ٨٦ / ١.

(٤) فضائل القرآن : ٢٢٨.

(٥) تفسير الطبري (٩٩) : ص ٨٦ / ١.

(٦) رواه الطبري في تفسيره (٩٣) : ص ٨٥ / ١ ، من طريق ابن وهب عن مالك به.

(٧) رواه الطبري في تفسيره (٩٥) : ص ٨٦ / ١ ، من طريق ابن وهب عن مالك به.

(٨) رواه الطبري في تفسيره (١٠١) : ص ٨٧ / ١ ، وابن أبي شيبة في المصنف (١٠ / ٥١١) من طريق محمد بن جعفر عن شعبة به.

(٩) رواه الطبري في تفسيره (١٠٠) : ص (٨٦ / ١) عن العباس بن الوليد عن أبيه عن ابن شوذب به.

وأخرج ابن جرير الطبري بسنده عن عبيد الله بن عمر ، قال : "لقد أدركتُ فقهاء المدينة ، وإنهم ليعظمون القول في التفسير ، منهم : سالم بن عبد الله ، والقاسم بن محمد ، وسعيد بن المسيب ، ونافع"^(١).

وقال أبو عبيد : حدثنا عبد الله بن صالح ، عن الليث ، عن هشام بن عروة ، قال : "ما سمعت أبي تؤول آية من كتاب الله قط"^(٢).

وقال أيوب ، وابن عون ، وهشام الدستوائي ، عن محمد بن سيرين : "سألت عبيدة السلماني ، عن آية من القرآن فقال : ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن ؟ فأتق الله ، وعليك بالسداد"^(٣).

وقال أبو عبيد : حدثنا معاذ ، عن ابن عون ، عن عبد الله بن مسلم بن يسار ، عن أبيه ، قال : "إذا حدثت عن الله فقف ، حتى تنظر ما قبله وما بعده"^(٤).

حدثنا هشيم ، عن مغيرة ، عن إبراهيم ، قال : كان أصحابنا يتقون التفسير وبها بونه"^(٥).
وقال شعبة عن عبد الله بن أبي السقر ، قال : "قال الشعبي : والله ما من آية إلا وقد سألت عنها ، ولكنها الرواية عن الله عز وجل"^(٦).

وقال أبو عبيد : حدثنا هشيم ، حدثنا عمر بن أبي زائدة ، عن الشعبي ، عن مسروق ، قال : "اتقوا التفسير ، فإنما هو الرواية عن الله"^(٧).

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تخرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً ، فلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه ، وسكتوا عما جهلوه ، وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به ، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه ، لقوله تعالى : { لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُوهُ } [آل عمران : ١٨٧] ، ولما جاء في الحديث المروي من طرق : "من سئل عن علم فكتمه ، ألجم يوم القيامة بلجام من نار"^(٨).
فأما الحديث الذي رواه أبو جعفر بن جرير بسنده عن عائشة ، قالت : لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يفسر شيئاً من القرآن ، إلا آياً بعدد ، علمهن إياه جبريل عليه السلام"^(٩). فإنه حديث منكر غريب"^(١).

(١) تفسير الطبري (٩٢): ص ٨٥ / ١.

(٢) فضائل القرآن: ٢٢٩.

(٣) رواه الطبري في تفسيره (٩٧): ص ٨٦ / ١، من طريق ابن علي عن أيوب وابن عون به.

(٤) فضائل القرآن: ٢٢٩.

(٥) فضائل القرآن (ص ٢٢٩) ورواه أبو نعيم (٤/ ٢٢٢) من طريق جرير عن المغيرة به.

(٦) فضائل القرآن (ص ٢٢٩).

(٧) جاء من حديث أبي هريرة ، ومن حديث أنس ، وأبي سعيد الخدري ، رضي الله عنهم. أما حديث أبي هريرة ، فرواه أحمد في المسند (٢/ ٢٦٣) وأبو داود في السنن برقم (٣٦٥٨) والترمذي في السنن برقم (٢٦٤٩) وابن ماجة في السنن برقم (٢٦١) من طريق علي ابن الحكم عن عطاء عن أبي هريرة ، وقال الترمذي : "حديث حسن". وأما حديث أنس ، فرواه ابن ماجة في السنن برقم (٢٦٤) من طريق يوسف بن إبراهيم عن أنس ، وقال البوصيري في الزوائد (١/ ١١٧) : "هذا إسناد ضعيف". وأما حديث أبي سعيد ، فرواه ابن ماجة في السنن برقم (٢٦٥) من طريق محمد بن داب عن صفوان بن سليم عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبي سعيد ، وقال البوصيري في الزوائد (١/ ١١٨) : "هذا إسناد ضعيف".

(٨) تفسير الطبري (٢٣٧٥): ص ٨٤ / ١، ورواه أبو يعلى في مسنده (٨/ ٢٣) من طريق معن القزاز عن فلان بن محمد بن خالد ، عن هشام بن عروة به ، ورواه البزار في مسنده برقم (٢١٨٥) "كشف الأستار" عن محمد بن المثنى ، عن محمد بن خالد بن عثمة ، عن حفص - أظنه ابن عبد الله - عن هشام عن أبيه به.

(٩) تفسير الطبري (٩١): ص ٨٤ / ١.

وتكلم عليه الإمام أبو جعفر بما حاصله أن هذه الآيات مما لا يعلم إلا بالتوقيف عن الله تعالى ، مما وقفه عليها جبريل. وهذا تأويل صحيح لو صح الحديث، فإن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه ، ومنه ما يعلمه العلماء ، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها ، ومنه ما لا يعذر أحد في جهله ، كما صرح بذلك ابن عباس في رواية الأعرج عنه: " التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله" (٢).

قال ابن جرير : "وقد روى نحوه في حديث في إسناده نظر : حدثني يونس بن عبد الأعلى الصدفي ، أنبأنا ابن وهب قال : سمعت عمرو بن الحارث يحدث عن الكلبي ، عن أبي صالح ، مولى أم هانئ ، عن عبد الله بن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أنزل القرآن على أربعة أحرف : حلال وحرام ، لا يعذر أحد بالجهالة به. وتفسير تفسره [العرب ، وتفسير تفسره العلماء، ومتشابه لا يعلمه إلا الله عز وجل ، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب" (٣). والنظر الذي أشار إليه في إسناده هو من جهة محمد بن السائب الكلبي؛ فإنه متروك الحديث؛ لكن قد يكون إنما وهم في رفعه. ولعله من كلام ابن عباس ، كما تقدم، والله أعلم بالصواب.

والطريقة التي اتبعتها في التفسير:

أولاً:- أقدم تعريفا مختصرا للسورة التي وردت فيها آثارا عن التابعين في التفسير، وذلك من خلال عدد آياتها ومكان نزولها.

ثانياً:- أذكر الآية، ثم أذكر معناها العام (٤)، ثم أقوم بتفسيرها من خلال أقوال التابعين

رابعا:- أذكر أقوال التابعين في المسائل الخلافية، والترجيح بينها.

خامساً: الاهتمام باللغة وعلومها، والاحتكام كثيراً عند الترجيح والاختيار إلى المعروف من كلام العرب، والاعتماد على أشعارهم، والرجوع إلى مذاهبهم النحوية واللغوية. سادساً: اختيار مذهب السلف في إثبات الصفات وإمرارها كما جاءت من غير تكيف، ولا تشبيه، ولا تعطيل.

سابعاً: إضافة الأقوال إلى قائلها والأحاديث إلى مصنفها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله.

ثامناً: الإضراب عن كثير من القصص والاسرائيليات وأخبار المؤرخين إلا ما لا بد منه، وما لا غنى عنه للتبيين.

تاسعاً: تقدير الإجماع وإعطائه اعتباراً كبيراً في الإختيار والترجيح.

كما تولدت رغبتنا في تخصيص مهاده عام حول (علوم القرآن واتجاهات التفسير)، وذلك من خلال فصلين:

الفصل الأول: مهاده عام حول علوم القرآن، وقد اختص بشرح مفاهيم مفردات علوم القرآن الكريم، وبعد تعريف القرآن الكريم لغة واصطلاحاً تناول البحث المواضيع الآتية:

(أولاً:- مفهوم الوحي، ثانياً:- نزول القرآن، ثالثاً:- مراحل جمع القرآن الكريم وترتيبه، رابعاً:- المكي والمدني، خامساً:- أسباب النزول، سادساً:- المحكم والمتشابه في القرآن الكريم، سابعاً:- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، ثامناً:- القراءات، تاسعاً:- الإسرائيليات، عاشراً:- تفسير القرآن

(١) انظر: حاشية تفسير الطبري: ٨٤/١.

(٢) تفسير الطبري (٧١): ص ٧٥ / ١.

(٣) تفسير الطبري (٧٢): ص ٧٦ / ١.

(٤) وذلك معتمداً على كتاب: تفسير الطبري، ابن كثير، وكتاب التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - السعودية، الطبعة: الثانية، مزيدة ومنقحة، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

وشرفه، حادي عشر: إعجاز القرآن، ثاني عشر:- ترجمة القرآن الكريم بغير لغته، الثالث عشر:- فضائل القرآن).

الفصل الثاني: فقد اختص بعلم التفسير واتجاهاته، وذلك من خلال محورين:

المحور الأول: تناولنا فيه أنواع التفسير وذلك من خلال محاور:

(١- التفسير بالمأثور، ٢- التفسير بالدراية، ٣- التفسير بالإشاري).

وفي محور (التفسير بالمأثور)، فصلنا القول في تفسير التابعين، من خلال بيان أقسام التفسير بالمأثور، ومصادره، ومدارس التفسير في عصر التابعين، وخصائصها.

في حين تطرقنا في المحور الثاني الى: اتجاهات التفسير، وذلك من خلال العناوين الآتية:

(١-الاتجاه اللغوي، ٢- الاتجاه العلمي، ٣- الاتجاه الموضوعي، ٤- الاتجاه الفقهي، ٥-الاتجاه البلاغي).

وفي الخاتمة: استظهرنا أهم النتائج التي توصلنا إليها في هذا التمهيد.

أقولُ ذلك ملتَمِسًا العُدْرَ منْ عالِمٍ سَقَطَ عَلى زَلَلٍ، أو قارئٍ وَقَعَ على خَطَأٍ، فَمِثْلُ هَذَا العَمَلِ الكَبِيرِ لا بُدَّ أَنْ تَظْهَرَ فِيهِ بَعْضُ الأَخْطَاءِ المِطْبَعِيَّةِ، والأَوْهَامِ اليَسِيرَةِ، وَصَدَقَ المُرْزِيُّ - رحمه الله - حين قال : "لو عُرِضَ كِتَابٌ سَبْعِينَ مَرَّةً لَوُجِدَ فِيهِ خَطَأٌ، أَبَى اللهُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبًا غَيْرَ كِتَابِهِ" ، فالمرجُو من أهل العلم أن يُرْسِلُوا لي ما لَدَيْهِمْ من مَلاحِظَاتٍ أو اسْتِذْرَاكِ أو تَعْقِيبٍ حَتَّى أُنَادِرَكَ ذلكَ في الطَبْعَةِ اللاحِقَةِ إن شاء اللهُ.

واللهُ أسألُ أَنْ يَنْفَعَ به الجَمِيعَ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ خَالِصًا لوجهِ الكَرِيمِ ، وَأَنْ يَكُونَ من الثَّلَاثِ التي يَنْقَطِعُ عَمَلُ ابنِ آدَمَ إذا ماتَ إلا مِنْهَا ، وَأَنْ يَكْتُنِبَ لجمِيعٍ من أسْهُمَ فِيهِ الأَجْرَ والمَثُوبَةَ ، إنه وَلِيُّ ذلكَ والقَادِرُ عَلَيْهِ ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ على نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ. وكتبه:

عبدالله بن خضر بن حمد بن بيرداود

العراق / أربيل : ١٧ / جمادي الأول / ١٤٤٣ هـ

الفصل الأول مهادهام حول علوم القرآن

توطئة

لقد فصل أبو شهبة في كتابه، المدخل لدراسة القرآن الكريم، المعنى المقصود بعلوم القرآن^(١)، إذ بدأ أولاً بكلمة علوم، فذكر أن معنى العلم مفرد علوم في اصطلاح أهل التدوين، "جملة من المسائل المضبوطة بجهة واحدة"^(٢)، والعلم في اللغة نقيض الجهل، وهو مصدر مرادف للفهم والمعرفة والإدراك، ويراد به إدراك الشيء على حقيقته، ثم نُقل بمعنى المسائل المختلفة المضبوطة ضبطاً علمياً والمتعلقة بعلم ما، ومن أحسن ما قيل في كلمة العلم أنها أشهر من أن تعرف.

وإن تعريف «القرآن» عند الأصوليين والفقهاء: "هو كلام الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، المعجز بلفظه، المتعبد بتلاوته، المنقول بالتواتر، المكتوب في المصاحف، من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس"^(٣).

إن تخصيص التعريف بهذا الشكل يخرج منه الكتب السماوية الأخرى التي لم تنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وتخرج أيضاً الأحاديث القدسية التي هي أيضاً لفظاً من الله تعالى، لكنها غير معجزة ولا يتعبد بتلاوتها^(٤).

أما المركب الإضافي، «علوم القرآن»، فمكون من كلمتين: كلمة «علوم» و«قرآن». وقد عرف الكفافي والشريف علوم القرآن بأنه^(٥): علم أو دراسة تدور حول أي جانب من جوانب القرآن الكريم، وهذا يتضمن علوم كثيرة مثل علم: رسم القرآن، إعراب القرآن، تفسير القرآن، أسباب النزول، المكي والمدني، الناسخ والمنسوخ، غريب القرآن، القراءات، فضل القرآن، الأحرف السبعة، مجاز القرآن، أقسام القرآن، أمثال القرآن، حجج القرآن، نزول القرآن وتنجيمه، جمع القرآن وكتابتها، المصاحف العثمانية، فواتح السور، المحكم والمتشابه، إعجاز القرآن، تشبيه القرآن واستعاراته، الإعجاز في نغم القرآن، ترجمة القرآن، ترتيب القرآن، العام والخاص، المطلق والمقيد، المنطوق والمفهوم، جدل القرآن، قصص القرآن، وغيرها^(٦).

وأوضح الدكتور زررور^(٧) أن هذه العلوم من الأجدر أن تسمى "علوم التفسير" أو "علوم تفسير القرآن"، لأن غرضها الرئيسي إنما هو لتسهيل فهم وتفسير القرآن. وقد دعم رأيه هذا بأن كتب التفسير الكبيرة عادة ما تشتمل على مقدمة تذكر فيها أهم هذه العلوم قبل البدء بالتفسير، أمثال كتاب الطبراني و الأصفهاني. وأفضل كما ذكرت بالمقدمة، تقسيم محاور هذه العلوم الى: العلوم

(١) أبو شهبة، محمد بن محمد، المدخل لدراسة القرآن الكريم، بيروت، دار الجيل، ص ١٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم. أبو شهبة، مرجع سابق، ص ٢٠.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الكفافي، د. محمد عبد السلام و الأستاذ الشريف، عبد الله، في علوم القرآن دراسات و محاضرات، بيروت_لبنان، دار النهضة العربية، ١٩٧٢، ص ٢٧.

(٦) د. الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، الطبعة الخامسة والعشرون، بيروت_لبنان، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م، و القطان، مناع، مباحث في علوم القرآن، الطبعة الثانية، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٩٩٦/٥١٤١٧م.

(٧) د. زررور، عدنان محمد، فصول في علوم القرآن، الطبعة الأولى، بيروت_لبنان، المكتب الإسلامي، ١٩٩٨/٥١٤١٩م، ص ١٠.

للمحافظة على المحتوى، العلوم للمحافظة على القراءة، والعلوم للمحافظة على التفسير، والعلوم لإظهار الإبداع القرآني.

و«القرآن» -في اللغة- : اختلفت فيه أقوال العلماء هل هو مصدر أم وصف؟ ثم هل هو مهموز أم غير مهموز؟

والذي نختاره أنه مصدر مهموز على وزن فعلان بالضم كالغفران، والشكران، من قرأ يقرأ قراءةً ، وقرأناً ، ويشهد لهذا الاختيار ورود القرآن بمعنى القراءة في قوله تعالى {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قُرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨)} [القيامة : ١٧ - ١٨] أي: قراءته عليك حتى تعييه^(١).

ف"قرأ": تأتي بمعنى الجمع والضم والتلاوة، والقراءة : ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، وقد نقل من هذا المعنى المصدرى، وجعل اسماً للكلام المعجز، المنزل على محمد ﷺ من باب إطلاق المصدر على مفعوله، فأصبح كالعلم الشخصي له، ومنه قوله تعالى : {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس : ٣٧] .

ولعلوم القرآن معنيان :

أحدهما: معنى عام: وهو أنواع المعارف والعلوم المتصلة بالقرآن الكريم ، سواء كانت خادمة له ، أو دل القرآن على مسائلها وأحكامها^(٢).

فعلوم خادمة للقرآن كعلم التجويد ، وعلم التفسير ، وعلوم اللغة العربية ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، ونحو ذلك ، وعلوم دل القرآن على مسائلها وأحكامها ، كعلم الفقه ، وعلم التوحيد ، وعلم الفرائض ، وعلم التاريخ، ونحو ذلك .

وقد توسع بعض العلماء في ذلك حتى أدخلوا علم الطب ، وعلم الفلك، والجبر ، والهندسة ، وغيرها.

ولكن ليس هنالك شك أن كل العلوم الدينية والعربية داخلية في معنى علوم القرآن في معناه

العام .

والثاني: ومعنى خاص باعتباره علماً مدوناً:

إن علوم القرآن باعتباره فناً مدوناً عبارة عن مباحث أساسية ينبغي للإمام بها لكل مقبل على فهم ودراسة القرآن الكريم وإلا ضل عن سواء السبيل ، لذا يمكن تعريفه بأنه : "أنواع المعارف والعلوم الخادمة للقرآن الكريم كعلم النزول ، وعلم الرسم ، وعلم التجويد والقراءات، وعلم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ وعلم التفسير ونحو ذلك"^(٣).

وفي القرن الثاني بدأ تدوين هذه العلوم في كتب منفصلة، كل علم يدرس ويدون على حده، ثم جمعت هذه العلوم في كتاب واحد لتأخذ الشكل المسمى بعلوم القرآن المتعارف عليه الآن. وقد ذكر الدكتور صبحي الصالح^٤ أن بداية ظهور الشكل المعاصر لعلوم القرآن إنما بدأ في كتاب "البرهان في علوم القرآن" للحوافي (ت ٤٣٠هـ). بينما حدد كفاي والشريف بداية بلورة المفهوم المعاصر لعلوم القرآن في القرن الثامن على يد الزركشي (ت ٧٩٤هـ) في كتابه "البرهان في علوم القرآن"^(٥).

فوائد معرفة علوم القرآن:

(١) انظر: تفسير السمعاني: ١١٥٥، وتفسير الطبري: ٤٩٩/٢٣.

(٢) انظر: مناهل العرفان: ٢٣، ودراسات في علوم القرآن الكريم، فهد الرومي: ٣٢.

(٣) مناهل العرفان: ٢٣.

(٤) مباحث في علوم القرآن، د الصالح: ص ١٢٤.

(٥) في علوم القرآن، الكفاي و الشريف، مرجع سابق، ص ٣٣.

ولمعرفة علوم القرآن فوائد جمة، منها^(١):

١- أن دراسة القرآن الكريم وفهمه وتفسيره إنما تتطلب معرفة المفسر لهذه العلوم، لمعرفة أسباب النزول، لمعرفة الناسخ والمنسوخ و غيرها من علوم القرآن حتى يتفادى الخطأ والزلل، والإسلام يحث على العلم والمعرفة، وبالعلم ترقى الأمم، فكيف إذا تكون ثقافة الدارس لعلوم القرآن، فهي أشرف الثقافات والعلوم.

علوم القرآن من أهم العلوم، وأعلاها، وأنفعها، إذ هو السبيل لفهم كتاب الله، ومعرفة أحكامه ، وحكمه ، ولذا تظهر علوم القرآن الكريم من جوانب عديدة أبرزها ما يأتي :

٢- يساعد على فهم وتدبر القرآن الكريم ، واستنباط أحكامه ، ومعرفة حكمه ، وحل مشكله ، وفهم متشابهه، بصورة صحيحة دقيقة ، لأنه لا يمكن أن يفهم القرآن ويفسره من لا يعرف نطقه، ورسمه، وأوجه قراءته، وأسباب نزوله ، وناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ونحو ذلك ، فهو الأساس، والمفتاح لفهم القرآن الكريم.

٣- زيادة الثقة واليقين بهذا القرآن العظيم ، خاصة لمن يتعمق في معرفة إعجازه، وأحكامه، وحكمه، ويقف على دقيق أسرارهِ، إذ الجهل بمثل هذه العلوم يجعل المسلم عرضة للشبهات التي يقصد من ورائها زعزعة اليقين.

٤- معرفة الجهود العظيمة - الممتدة عبر التاريخ وفي كل القرون - التي بذلها العلماء لخدمة هذا الكتاب ، ودور هذه الجهود في حفظه من التغيير والتبديل، وفي تيسير فهمه .

٥- التسلح بعلوم قيمة تمكن من الدفاع عن هذا الكتاب العزيز ضد من يتعرض له من أعداء الإسلام، وبيث الشكوك والشبهات في عقائده وأحكامه، وتعاليمه، وهو من أعظم الواجبات .

٦- زيادة ثقافة الفرد المسلم بالمصدر الأول لدينه ، وأعظم ما يملكه في وجوده ، إذ ينبغي لكل مسلم أن يأخذ حظه من القرآن مهما كان تخصصه، ومهنته، وحرفته .

٧- نيل الأجر والثواب ، إذ تعلم مثل هذه العلوم من أوسع أبواب العبودية لله ﷻ.

٨- تطهير القلب ، وتهذيب النفس ، وزيادة الإيمان، إذ تعلم علوم القرآن يربط المسلم بصورة قوية بكتاب الله الذي أنزله الله شفاء للناس ورحمة .

وبعد هذه التوطئة لعلوم القرآن سوف نتناول القرآن لغة واصطلاحاً:

١- تعريف القرآن لغة

اختلف العلماء في تعريف «القرآن» لغة، على أقوال:

القول الأول : أن كلمة القرآن مهموزة على وزن : «فُعْلان»، مشتق من «القرء» بمعنى: الجمع. وهذا قول قتادة^(٢)، وأبو عبيدة^(٣)، والزجاج^(٤).

وفي سبب تسميته بـ«القرآن»، وجهان:

أحدهما: أنه سمى قرآناً، لأنه يجمع السور فيضمها، قال تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} [القيامة : ١٧]، أي: "تأليف بعضه إلى بعض، ثم قال {فَإِذَا قُرْآنُهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} [القيامة : ١٨] ، أي: فإذا ألقنا منه شيئاً، فضممناه إليك فخذ به، واعمل به وضمه إليك، وقال عمرو ابن كلثوم في هذا المعنى^(٥):

ذراعى حرّة أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا

(١) انظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم. أبو شهبة، مرجع سابق، ص ٢٦.

(٢) حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون: ٢٤/١.

(٣) انظر: مجاز القرآن: ١/١، والبرهان للزركشي: ٥٧٦/٣.

(٤) انظر: معاني القرآن: ٣٠٥/١، وتهذيب اللغة: ٢٩١٣/٣.

(٥) البيت من معلقته، وانفرد أبو عبيدة بهذه الرواية، أنظر شرح العشر للتبريزي ١١١، وهو في جمهرة الأشعار ٧٦، والأضداد للأصمعي ٦، والطبري ٢٩/١٠٢، والجمهرة ١/٢٢٨، والقرطبي ٣/١١٤، واللسان والتاج (قرأ)

أي لم تضمّ في رحمها ولدا قط،^(١)... وفي آية أخرى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ} [النحل : ٩٨]، أي: إذا تلوّت بعضه في إثر بعض، حتى يجتمع وينضمّ بعضه إلى بعض ومعناه يصير إلى معنى التأليف والجمع^(٢).

والثاني: أنه سُمي قرآنًا؛ لأن القارئ يُظهره ويبينه ويلقيه من فيه، أخذ من قول العرب: ما قرأتِ الناقة سلا قط، أي: ما رمت بولد. حكاه قطرب^(٣)، وأبو هيثم^(٤)، واللحياني^(٥)، واستشهدوا بقول الشاعر^(٦):

أراها الوليد أن الخلا فتشدرت ... مرآحًا ولم يقرأ جنينًا ولا دما
معناه: "لم ترم بجنين، وسمي قرء المرأة من هذا على مذهب أهل العراق، والقرآن يلفظه القارئ من فيه ويلقيه، فسمي قرآنًا، ومعنى قرأت القرآن: لفظت به مجموعًا"^(٧).

قال أبو إسحاق: "وهذا القول ليس بخارج من الصحة وهو حسن. قرأته، أي: جمعته"^(٨). وذكر الأشعري^(٩) -رحمه الله- هذا المعنى في بعض كتبه فقال: "إن كلام الله يسمى قرآنًا؛ لأن العبارة عنه قرن بعضه إلى بعض"^(١٠).

قال الفراء: "ظن أن القرآن سمي من القرائن، وذلك أن الآيات يصدق بعضها بعضًا، ويشبه بعضها بعضًا، فهي قرائن، فمذهب هؤلاء أنه غير مهموز"^(١١).

القول الثاني: أن كلمة القرآن مشتقة من (قرأ) بمعنى ألقى وأظهر. وهذا قول ابن عباس^(١٢). وذلك استشهاداً بقوله تعالى: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} [القيامة : ١٨] ، يعني إذا بيناه فاعمل به^(١٣).

وعلى هذا القول فإن: "القرآن مأخوذ من (قرأ) بمعنى: تلا، وهو مصدر مرادف للقراءة، وقد ورد بهذا المعنى في قوله تعالى: [إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ] [القيامة: ١٧].

(١) «أي لم تضم ... قط»: رواه أبو الطيب اللغوي عن أبي عبيدة (الأضداد ٨٠ ب) ، وهو في الأضداد للاصمعي ٦، وأخذه البخاري، وقال ابن حجر: هو قول أبي عبيدة أيضا قاله في المجاز رواية أبي جعفر المصايري عنه، وأنشد قول الشاعر: «هجان» البيت.

والسلى بفتح المهملة وتخفيف اللام. وحاصله أن القرآن عنده من «قرأ» بمعنى جمع، لا من «قرأ» بمعنى تلا. (فتح الباري ٨ / ٣٤٠)

(٢) مجاز القرآن: ٢/١-٣.

(٣) انظر: تهذيب اللغة "٢٩١٢ / ٣"، "التفسير الكبير" ٨٦ / ٥.

(٤) تهذيب اللغة "٢٩١٢ / ٣"، "اللسان" ٦ / ٣٥٦٥.

(٥) تهذيب اللغة "٢٩١٢ / ٣"، "اللسان" ٦ / ٣٥٦٥.

(٦) البيت لحميد بن ثور في "ديوانه" ص ٢١، "لسان العرب" ٦ / ٣٥٦٥ (قرأ).

(٧) تهذيب اللغة "٢٩١٢ / ٣"، "اللسان" ٦ / ٣٥٦٥.

(٨) "تهذيب اللغة" ٢٩١٢ / ٣.

(٩) هو: علي بن إسماعيل بن أبي بشر، أبو الحسن تتلمذ في العقائد على الجبائي زوج أمه، وبرع في علمي الكلام والجدل على طريقة المعتزلة، ثم رجع فرد عليهم، وشهر بمذهب ينسب إليه، وقيل إنه رجع بعده إلى مذهب السلف، له: "مقالات الإسلاميين"، و"الإبانة"، توفي سنة ٣٢٤ هـ. انظر: "شذرات الذهب" ٢ / ٣٠٣، "الأعلام" ٤ / ٢٦٣.

(٤) في (م): (كتاب).

(١٠) البرهان، للزركشي: ١ / ٢٧٨. ونقله الواحدي في التفسير البسيط: ٣ / ٥٧٦، وهذا مذهب الأشاعرة واعتقاد السلف إثبات صفة الكلام لله تعالى على الوجه اللائق به سبحانه من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكيف ولا تعطيل على حد قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١].

(١١) نقلا عن التفسير البسيط: ٣ / ٥٧٧، والتفسير الكبير: ٥ / ٨٦.

(١٢) حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون: ١ / ٢٣.

(١٣) انظر: النكت والعيون: ١ / ٢٣.

١٨}، أي: قراءته، ومنه قول حسان بن ثابت -رضي الله تعالى عنه- في رثاء عثمان بن عفان- رضي الله تعالى عنه-^(١):
صَحْوًا بِأَسْمَطٍ^(٢) عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ... يَقْطَعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنًا^(٣)
أي: قراءة^(٤).

فإن قال قائل: وكيف يجوز أن يسمى "قرآنًا" بمعنى القراءة، وإنما هو مقروء؟
قيل: كما جاز أن يسمى المكتوب: كتابًا، بمعنى: كتاب الكاتب^(٥)، كما قال الشاعر في صفة
كتاب طلاق كتبه لامرأته^(٦):

تُؤَمِّلُ رَجْعَةً مَيِّ، وفيها كتابٌ مثل ما لصيق الغراء
القول الثالث: أن "لفظ القرآن ليس مشتقًا، ولا مهموزًا، وأنه قد ارتجل وجعل علمًا للكتاب المنزل،
كما أطلق اسم التوراة على كتاب موسى، والإنجيل على كتاب عيسى صلى الله عليهما وسلم". وها
قول الإمام الشافعي-رحمه الله-^(٧):

والقول الراجح هو أن القرآن مأخوذ من (قرأ) بمعنى: تلا، وهو مصدر مرادف للقراءة
يدل على ذلك الآية السابقة: [إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ] {القيامة: ١٧-١٨} أي
قراءته - وقوله: [وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا] {الإسراء: ٧٨}، أي: قراءة الفجر^(٨).
والله أعلم.

٢- تعريف القرآن في الاصطلاح:

إن القرآن الكريم مصدر العلوم وأصل الحقائق الثابتة ومرجع العلماء يرجع إليه الفقهاء
والأصوليون لمعرفة الأحكام الشرعية إجمالاً وتفصيلاً ويرجع إليه علماء اللغة لإظهار إعجازه
والإفادة من أسلوبه ومعاني كلماته الإفرادية والتركيبية، ويرجع إليه علماء القراءات لتحقيق هدفهم
في معرفة كيفية النطق بألفاظه الكريمة.

ذكر الإمام السيوطي في الإتيان: "أن القرآن كلام الله المنزل، ثم أخذ في تفصيل معنى
الكلام وكيفية التنزيل، وعقد بعد ذلك فصلاً في تواتر نقل القرآن وذكر أن الأمة متعبدة بفهم معانيه،
 وإقامة حدوده، وحروفه على الصفة المتلقاه، ثم ذكر أن القرآن معجز، وأخذ في تفصيل القدر
المعجز منه"^(٩)، وعليه فيمكن تلخيص كلامه على مقتضى الحد الجامع المانع فيقال: هو كلام الله
المنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- بواسطة جبريل، المتواتر، المعجز، المتعبد بتلاوته
وتطبيق أحكامه.

(١) البيت لحسان بن ثابت، ديوانه: ٤١٠، وضحي: ذبح شاته ضحى النحر، وهي الأضحية. واستعاره حسان لمقتل
عثمان في ذي الحجة سنة ٣٥، رضي الله عنهما، انظر: "المغني" ١/ ٢١٨، رقم ٣٦٣، "البحر المحيط" ٢/ ٣٢،
والعنوان: الأثر الذي يظهر فتستدل به على الشيء.

(٢) الشمط: في الرَّجُلِ شَيْبٌ لِلْحِيَةِ. انظر: لسان العرب، مادة (شمط): ٧ / ٣٣٥ - ٣٣٦.

(٣) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ص ١٣٤، تحقيق: فوزي عطوى، دار صعب- بيروت،
ط/الأولى ١٩٦٨م.

(٤) لسان العرب لابن منظور ١/ ٢٩.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ١/ ٩٧.

(٦) البيت من شواهد الطبري في تفسيره: ١/ ٩٧، ولم أتعرف على قائله.

(٧) مناقب الشافعي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ١/ ٢٧٦، تحقيق أحمد صقر، مكتبة دار التراث -
القاهرة، ط/ ١٩٧١م.

(٨) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين
القرطبي ٢/ ٢٩٨، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط/ الثانية ١٣٨٤ هـ -
١٩٦٤ م.

(٩) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ١٥٨-١٧٠، بتصرف.

وقال الشوكاني^(١): "القرآن كلام الله تعالى، المنزل على نبيينا محمد -صلى الله عليه وسلم-، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا نقلًا متواترًا، المتعبد بتلاوته، المتحدى بأقصر سورة منه"^(٢)، وهذا التعريف مزيد فيه على ما سبق قوله: "المكتوب في المصاحف" وهذا قيد غير لازم، ولا يشترط في إثبات القرآن أن يكون في المصاحف؛ لأن هذا القيد لا يشمل ما كان محفوظاً في الصدور، والكل يسمى قرآنًا سواء كان مكتوباً أو محفوظاً.

وقيل القرآن: "هو الكلام المعجز، المنزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته"^(٣).

وقيل القرآن: "هو كلام الله المعجز المنزل على خاتم الأنبياء، والمرسلين محمد -صلى الله عليه وسلم- بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، والمختتم بسورة الناس، والمتحدى بأقصر سورة منه"^(٤).

وقولهم في التعريف: "كلام" جنس يشمل كل كلام، خصص هذا الجنس بالإضافة إلى لفظ الجلالة ليخرج كل كلام سوى كلام الله، بيد أن كلام الله منه ما هو متعبد بتلاوته، ومنه غير ذلك، فتكون نسبة التخصيص هنا نسبية بالنسبة لما سوى كلام الله، والكلام صفة لله قائمة به، أثبتنا ربنا عز وجل لنفسه، بدون تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل، وعُرِّف القرآن في العقيدة الطحاوية بأنه: "كلام الله، منه بدا، بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر"^(٥).

وهذا التعريف فيه زيادة تفصيل في جانب، وخلا من قيود مهمة في جانب آخر، فمثلاً قوله: "بالحقيقة": إما أن تكون صفة كاشفة، أو تأكيداً معنوياً وعلى كلا التقديرين دخولها في التعريف معيب، كما يلاحظ الباحث أن هذا التعريف خلا من وصف القرآن بالمعجز؛ فهل الإعجاز صفة مختصة بكلام الله؟ وهل في الحديث القدسي أو النبوي شيء من الإعجاز فتدخل في التعريف؟ على كلا الأمرين سيخرج غير القرآن من التعريف بقولهم: "المتعبد بتلاوته" أي: بإقامة حروفه وألفاظه، وبأنه لا يجزئ في الصلاة غيره.

وعُرِّف كذلك بأنه: "كلام الله تعالى المنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- للبيان، والإعجاز، المجموع بين دفتي المصحف، المتعبد بتلاوته، المنقول بالتواتر"^(٦).

نستنتج مما سبق أن كل التعريفات تدور في الجملة حول معنى واحد غير أن في بعضها زيادة قيود، وإسهاب، والأصل في الحدود أن تكون جامعة مانعة، وعليه فإن الباحث يرى أن التعريف المختار هو: أن القرآن كلام الله المنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- لفظاً، للبيان، والتحدي، والإعجاز، المتعبد بتلاوته، وبأحكامه، المنقول بالتواتر. شرح محترزات وقيود التعريف:

(١) هو محمد بن علي بن محمد الشوكاني، الإمام العلامة الرباني، ولد في هجرة شوكان سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف من الهجرة، تولى منصب قاضي قضاة القطر اليماني، وكان نابذاً للتقليد داعياً للاجتهد، صاحب التصانيف، توفي عام خمسين ومائتين وألف، انظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني ٢٠٧/٢، دار المعرفة-بيروت، (بدون). والأعلام للزركلي ٦/٢٩٨.

(٢) إرشاد الفحول، محمد بن علي الشوكاني ٨٦/١، تحقيق: أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، ط/الأولى ١٤١٩هـ-١٩٩٩م (بتصرف بسيط).

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني ١٥/١.

(٤) نفحات من علوم القرآن، محمد أحمد معبد ص ١٣، مكتبة طيبة- المدينة المنورة، ط/ الأولى ١٩٨٦م.

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ٢٥٤/١، القاضي علي بن علي أبي العز الدمشقي، تحقيق عبدالله عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط/ الثانية ١٤٢٠هـ.

(٦) اللآلئ الحسان في علوم القرآن ص ٩، د/ موسى شاهين لاشين، مطبعة الفجر الجديد، (بدون).

قوله: كلام الله: الكلام صفة من صفات الله أثبتتها سبحانه لنفسه، وأثبتها له رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وقولنا كلام الله الكلام جنس في التعريف يشمل كل كلام وإضافته إلى (الله) يخرج كلام غيره من الإنس والجن والملائكة، "فقد كلم سبحانه عبده ورسوله موسى بلا واسطة، بل أسمعه كلامه الذي هو صفته اللائقة بذاته كما شاء وعلى ما أراد، قال الله عز وجل: [تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ] {البقرة: ٢٥٣} [وَرَسُولًا قَدْ قُصَصْنَا عَنْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا] {النساء: ١٦٤}، فأكدته بالمصدر مبالغة في البيان والتوضيح"^(١).

وقوله: "المنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم-": خرج بقوله المنزل: كلام الله الذي استأثر به نفسه سبحانه: قال تعالى: [فَلَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَقُودَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا] {الكهف: ١٠٩}، وخرج بقوله على محمد -صلى الله عليه وسلم- الكتب السماوية السابقة لنزول القرآن كالتوراة والانجيل وغيرها، قال تعالى: [نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ] {الشعراء: ١٩٣-١٩٤}.

وقوله: "لفظاً": قيّد خرج به الحديث القدسي والنبوي، إذ لم ينزل كل واحد منهما لفظاً، وإنما نزل الحديث النبوي معنى على الصحيح، وفي الحديث القدسي خلاف مشهور. وقوله: "البيان": أي: للبيان التشريعي وغيره، وهو من مهام محمد -صلى الله عليه وسلم-، قال تعالى: [بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] {النحل: ٤٤}.

وقوله: "والتحدي": "إن القرآن قد تحدى الإنس والجن جميعاً، مكيمهم، ومدنيهم، وعربيهم، وعجميهم، أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة من سور القرآن فعجزوا أجمعين" (٢)، قال تعالى: [قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا] {الإسراء: ٨٥}، وقال تعالى: [وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] {البقرة: ٢٣}.

وقوله: "والاعجاز": "فالقرآن كتاب معجز بكليته وبجزئياته بكل وجوه الإعجاز، وهذا الإعجاز للبشرية كلها هو مقصد من مقاصد إنزال القرآن، إثباتاً لرسالة ونبوة محمد -صلى الله عليه وسلم-، كما أن إعجازه "في فصاحته وبلاغته، وأنباء الغيب، وأخبار الأمم السابقة، وما حواه القرآن من إعجاز علمي، وتشريعي محكم دقيق صالح لكل زمان ومكان"^(٣).

وقوله: "المتعبد بتلاوته": المأمور بقراءته في الصلاة، وغيرها، ومتعبد بإقامة ألفاظه، وهذا قيد خرجت به الأحاديث القدسية، وهي المسندة إلى الله عز وجل إن قلنا أنها منزلة من عند الله بألفاظها، والأحاديث النبوية، وإن كانت مما نؤجر على قراءتها، واستخراج الأحكام الشرعية منها؛ ولكن لا يصح القراءة بها في الصلاة، ولا متعبدون بإقامة ألفاظها على الصحيح.

وقوله: "المنقول بالتواتر": "المتواتر هو: ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم إلى منتهاه"^(٤)، أي: من النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أصحابه إلى التابعين وهكذا حتى

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول حافظ بن أحمد بن علي الحكمي ١/ ٢٤٧، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم - الدمام، ط/الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢١٨/١.

(٣) الواضح في علوم القرآن: ١٦٧، د/ مصطفى ديب البغا ومحى الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب ودار العلوم الإنسانية - دمشق، ط الأولى ١٤١٧ هـ.

(٤) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٢٦٤.

وصل إلينا دون نقص أو تحريف مصداقاً لقول الله تعالى: [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] {الحجر: ٩}، وهذا قيد خرجت به القراءات المنقولة إلينا بطريق الأحاد، والأحاديث القدسية، وهي المسندة إلى الله عز وجل إن قلنا إنها منزلة من عند الله بألفاظها. وسوف يتناول البحث في هذا المبحث المحاور الآتية:

أولاً:- مفهوم الوحي

الوحي لغة: مصدر وحيئت، وأوحيت وحيأ، ومعناه الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخطي، وكل ما ألقيته إلى غيرك^(١).

قال الزبيدي: "أوحى إليه: كلمه بكلام يخفيه"^(١).

قال في (المصباح): "الوحي الإشارة، والكتابة، وكل ما ألقيته إلى غيرك ليَعْلَمَهُ وَحْيٍ كَيْفٍ كان قاله ابن فارس وهو مصدر وَحَى إليه يَحِي من باب وعد وأوحى إليه بالألف مثله، وجمعه وَحْيٌ، والأصل فُعول مثل فلوس وبعض العرب يقول وحيث إليه ووحيت له، وأوحيت إليه وله ثم غلب استعمال الوحي فيما يُلقى إلى الأنبياء من عند الله تعالى ولغة القرآن الفاشية أوحى بالألف والوَحَا السرعة وَحْيٌ مثل سريع وزناً ومعنى، فعيل بمعنى فاعل، وذكاةٌ وَحِيَّةٌ أي سريعة أيضاً ويقال وحيث الذبيحة أحيها من باب وعد أيضاً ذبحتها ذبحاً وَحِيَّاً، وَوَحَى الدواء الموت توحية عَجَلَهُ، وأوحاه بالألف مثله، واستوحيت فلاناً استصرخته"^(٢).

قال في (الأساس): "وَحَى إليه، وأوحى إليه بمعنى، ووحيت إليه، وأوحيت إذا كلمته بما تخفيه عن غيره، وأوحى الله إلى أنبيائه. {وأوحى ربك إلى النحل} [النحل: ٦٨]"^(٢).

قال الراغب: "أصل الوحي: الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: "أمر وَحِيٌّ" وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وقد حُمِلَ على ذلك قوله تعالى عن زكريا: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} [مريم: ١١]"^(٣).

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: "الوحي الإعلام السريع الخفي إما في اليقظة وإما في المنام"^(٤). بهذا يظهر أن الوحي في الأصل: الخفاء والسرعة، وعلى هذا فالوحي في اللغة: "الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره"^(٥).

جاء في بيان المعاني: "واعلم أن معنى الوحي الإيماء بالتكليم خفية عن أن يفهمه الغير، وأصله الإشارة السريعة على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وبإشارة بعض الجوارح وبالكتابة، وحمل عليه قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} [المريم: ١١]، ولم يتكلم، وحمل على الإيماء قول الشاعر^(٦):
نظرت إليها نظرةً فَتَحَيَّرْتُ ... دَقَائِقُ فِكْرِي فِي بَدِيعِ صِفَاتِهَا

(١) انظر: اللسان مادة (وحي) ومختار الصحاح، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ٦ / ٩٣، مادة (وحي)، ومشكل القرآن وغريبه لابن قتيبة ٢ / ١١٢، والمفردات للراغب الأصفهاني (وحي) ٨٥٨-٨٥٩، والبرهان: ١ / ٢٨٠، وفتح الباري ١ / ٩، ١ / ١٤.

(١) تاج العروس: الزبيدي ٣٥٨/١٠، مادة: (وحي).

(٢) المصباح المنير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي المصري، مكتبة لبنان، ١٩٨٧م، ص ٢٥٠.

(٢) أساس البلاغة: ٣٢٤/٢، مادة: (وحي).

(٣) المفردات في غريب القرآن: ٨٥٨، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ.

(٤) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ج ١٢ ص ٣٩٨.

(٥) الوحي المحمدي: محمد رشيد رضا ص ٣٧.

(٦) البيتان دون نسبة في منار القاري: ٢٤/١، وبيان المعاني: ٥٤/١.

فَأَوْحَىٰ إِلَيْهَا الطَّرْفُ أَنِّي أَحَبُّهَا ... فَأَتَرَ ذَاكَ الْوَحْيُ فِي وَجَنَاتِهَا
وقول الآخر^(١):

أشارت بطرف العين خيفة أهلها ... إشارة محزون ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا ... وأهلا وسهلا بالجيب المتيم
وحمل على الإشارة قوله تعالى: {إِنَّكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا} [آل عمران: ٤١].
هذا وقد اتخذت الملوك والأمراء حروفا وكلمات بأرقام اصطلاحوا عليها وعبروا عنها باسم
شفره، كناية عن هذا المعنى، واستنباطا منه، منعا من أن يفهم الغير ما يتخابرون به، لأن الله تعالى
علم البشر كيف يتخاطبون، وكيف ينتعمون، وكيف يعذبون ويعذبون، مما وصفه من أحوال أهل
الجنة والنار، وقصه في كتابه المنزل هذا وكتبه السابقة أيضا، وجعل أوائل السور رموزا بينه وبين
حبيبه، فلا يعرف معناها إلا هما كما سنبينه في مواضعه إن شاء الله، هذا وإن القول الجامع في
معنى وحي الله للأنبياء، هو إعلام خفي سريع خاص بمن بوحيه إليه، بحيث يخفي عن غيره
الملاحق له، كما كان يوحي إليه في فراش عائشة فيعلم ما هو المراد وهي لا تدري ما هو، وكذلك
كان يوحي إليه بمحضر من أصحابه فيعلم ما يتلقاه، وهم لا يعلمون شيئا منه إلا بتغير حال الرسول
عما كان عليه قبل الوحي لأنه عليه السلام كان يعتريه ثقل وشدة حال نزوله حتى أنه ليعرق في
الوقت البارد، من عظم ما يلاقي من هيبه كلام الرب جل جلاله^(٢).

والوحي بمعناه اللغوي يتناول:

- ١- الأوامر الإلهية للملائكة، كقوله تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَبَيَّنُّوا الَّذِينَ
[الأنفال: ١٢].
- ٢- تبليغ الملائكة للأنبياء، ومنه تبليغ الآيات إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم بواسطة ملك
الوحي جبريل عليه السلام الموكل بالوحي كما ورد في قوله سبحانه: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ
إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} [النجم: ٣-٤]^(٣). وهذا الجنسان من أعلى وأعظم درجات الوحي.
- ٣- الإلهام الفطري للإنسان، كالوحي إلى أم موسى، والوحي للحواريين كما ورد في الآيات
التاليات: {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فِإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَحْزَنِي
إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [القصص: ٧]، وفي قوله تعالى: {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى
الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [المائدة: ١١١]^(٤).
- ٤- الإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلى النحل، قال تعالى: {وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ
الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} [النحل: ٦٨]^(٥). أي: "أن الله سخرها عن طريق الغريزة أن
تصنع هذه الأشياء العجيبة"^(٦).

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة في شرح ابیات مغني اللبيب: ٤٧٦/١، والأغاني: ٣٥٦/١، وشرح الشواهد الشعرية
في أمات الكتب النحوية، محمد بن محمد حسن شراب: ٢٧/٣، وغير منسوب في شرح شذور الذهب: ٣٦، والخزانة:
٢٢٦/١. وفيهما أن الإشارة نوع من الكلام، أو أن الكلام قد يكون بالإشارة.

(٢) انظر: بيان المعاني، عبد القادر بن ملا حويش السيد محمود آل غازي العاني (المتوفى: ١٣٩٨هـ)، مطبعة
الترقي - دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٥ م: ص ٥٤/١.

(٣) للتفصيل انظر: تفسير ابن كثير: ٣٩٨/٣.

(٤) انظر: أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة
والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢١ هـ: ص ١٢٣/١.

(٥) انظر: أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة
والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢١ هـ: ص ١٢٣/١.

(٦) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري: حمزة محمد قاسم: ٢٤/١.

٥- الإشارة السريعة برمز أو إيماء كما ورد رمزاً قوله تعالى: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} [مريم : ١١]، فقد ذكر ابن كثير أن زكريا أشار إلى قومه إشارة سريعة ولم يتكلم^(١١).

وأما الإيماء، فمثاله قول الشاعر^(١):

نظرت إليها نظرةً فتحيرت ... دقائق فكري في بديع صفاتها
فأوحى إليها الطرف أنني أحبها ... فأثر ذاك الوحي في وجناتها
٦- الكتابة، ومن ذلك قول لبيد^(٢):

فمدافع الرِّيَّانِ عُرِّيَ رَسْمُهَا ... خَلَقًا كَمَا ضَمَّنَ الْوَحْيَ سِلَامُهَا
فالوحي جمع وحي وهو الكتابة، وإنما سميت الإشارة والكتابة وحيًا لدالتهما على المعنى بسرعة لا يدانيهما فيها غيرهما. والعرب تسمى السرعة وحيًا، فيقولون: تَوَحَّى الرَّجُلُ إِذَا جَاءَ بِسُرْعَةٍ، فهما يرجعان إلى أصل واحد وهو السرعة^(٣).

٧- وسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان، قال تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ} [الأنعام: ١٢١]، {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [الأنعام: ١١٢]، وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحج : ٥٢]^(٤).

وإنما سمي " الإلهام " و " التسخير الغريزي " و " الوسوسة الشيطانية " وحيًا، لأنها إلام في خفاء، والعرب تسمى الإلام الخفي وحيًا^(٥).

قال الكسائي: "تقول: وحيث إليه، إذا كلمته بكلام تخفيه عن غيره"^(٦).

ولغة القرآن:(أوحى)، بالألف -ولم يستعمل مصدرها- وإنما جاء فيه مصدر الثلاثي: {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٤].

وعليه فإن المعنى المستفاد من مادة الكلمة يشتمل على السرعة والخفاء ولو نظرنا لما استخدم هذه الأيام من وسائل الاتصال الحديثة فإن فيها السرعة والخفاء، وسترى ذلك واضحاً في معنى الوحي في نظر العلم.

في العلم: وهو ما توصل إليه علماء الصناعة من اكتشافات، وما فيه من الدقة، وما اكتشف من معلومات حول النمل والنحل والمخلوقات. فمن ذلك:

التنويم المغناطيسي .

الهاتف واللاسلكي، والراديو، والفاكس، والإنترنت وغيرها.

التسجيلات الإلكترونية على أشرطة التسجيل وأسطواناته فتنتقل صوت الغائب والميت وهكذا.

أعمال النمل، والنحل وحشرات الأكسيكلوب وما فيه من الدقة والإتقان.

(١١) مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ٢٠٠٢/٥١٤٠٢/١٩٨١م، ٢م، ص٤٤٤.

(١) البيتان دون نسبة في منار القاري: ٢٤/١، وبيان المعاني: ٥٤/١.

(٢) ديوانه: ٢٩٧.

(٣) انظر: منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، حمزة محمد قاسم: ٢٤/١.

(٤) انظر: أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢١هـ:ص: ١٢٣/١.

(٥) انظر: منار القاري: ٢٤/١-٢٥.

(٦) لسان العرب(وحي).

العبقرية: ويعرفها أفلاطون بأنها حال إلهية مولدة للإلهامات العلوية للبشر. ويقرر الفلاسفة بأنها حال علوية لا شأن للعقل بها. ويقول عباد الطبيعة بأنها هبة من الطبيعة نفسها لا تحصلها دراسة، ولا يوجد لها تفكير.

الحالات الروحانية التي يفتح على الإنسان بها بما لا مقدور له عليه^(٣).
في العقل: "ما جرى للنبي محمد-صلى الله عليه وسلم- وما أخبر به. ويشهد له المعجزات التي أظهرها أو خبّر بها. وقد اعترف العقلاء بما أخبر به في زمانه وبعده، وما زال العقل مستسلماً. والعقل هو مناط التكليف"^(١).

الوحي في الاصطلاح الشرعي:

هو إعلام الله نبياً من أنبيائه أو رسولاً من رسله ما يشاء من كلام أو معنى بطريقة تفيد النبي أو الرسول العلم اليقيني القاطع بما أعلمه الله به، على وجه الخفية والسرعة^(٤). وهذا ما يسمى بالناموس وهو الوسيلة للإعلام الرباني لإبلاغ خلقه من البشر والمتمثل بملك الوحي جبريل عليه السلام^(٥).

أو أن يُعلم الله تعالى مصطفاه من عباده بما أراد إطلاع عليه من ألوان الهداية والعلم، بطريقة سرية سريعة غير معتادة للبشر^(٦).

أو إعلام الله تعالى النبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه^(٧).
أو عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت. والفرق بينه وبين الإلهام وجدان تستيقنه النفس، وتنساق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور^(٨).
أنواع الوحي الإلهي:

تكرر وورود كلمة (الوحي) في القرآن الكريم كثيراً، فبلغ ثمانياً وسبعين مرة^(٩)، والوحي جنس ونوع وصورة. فأجناسه اثنان، وأنواعه ثلاثة، وصوره أكثر من ذلك. وقد كشف، قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الشورى : ٥١]، أن أنواع الوحي متنوعة، فهذا ما يخص البشر دون غيره ، فيتنوع الوحي بتنوع الموحى إليهم ، وأما الصور فهي تنوع المثل في طريقة الوحي للنوع الواحد ، فيمكن القول: بأن الوحي منه ظاهر، وخفي . ومنه متلو، وغير متلو؛ فالقرآن متلو، والسنة غير متلو . وإذا قلنا بالتعميم فإن أنواع الوحي هي:

الإلهام الفطري للإنسان . يقذفه الله تعالى في قلب مصطفاه على وجه من العلم الضروري .

الإلهام الغريزي للحيوان .

والإشارة السريعة من الإنسان.

(٣) مناهل العرفان، محمد عبدالعظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج ١، ص ٦٣-٧٣.

(١) الوحي في القرآن الكريم، د. أمين محمد سلام المناسية، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، مجلد ٢٠، ٢٠٠٤-٢٠٠٤، ص: ٣٥٨.

(٤) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ط ٣، دار القلم، دمشق، ١٤٠٣/٥١٩٨٣م، ص ٥٢٨ يتصرف فقد قدمت النبي على الرسول لسبق النبوة للرسالة .

(٥) المصدر السابق.

(٦) مناهل العرفان، محمد عبدالعظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج ١، ص ٦٣.

(٧) ذكره محمد رشيد رضا بأنه تعريف أستاذه للوحي. الوحي المحمدي، ص ٤٥..

(٨) الوحي المحمدي، ص ٤٥..

(٩) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر- بيروت، ١٩٧٢م.

الوحي النفسي^(١٤).
 والتبليغ بطرقه المختلفة مناماً ويقظة .
 وأما صور الوحي الإلهي إلى نبيينا- صلى الله عليه وسلم- فهي:
 الرؤيا الصادقة .
 ما يلقيه الملك في روعه.
 أن يسمع كصلصلة الجرس .
 مثل دوي النحل .
 الملك بصورته الملائكية .
 الملك بصورة بشرية معروفة.
 الملك بصورة بشرية غير معروفة .
 أن يأتيه الملك مناماً.
 التكليم الإلهي يقظة (خلاف النوم). كقوله تعالى: { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } [النساء : ١٦٤].
 ومن أدلته النقلية :

قول الله تعالى: { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ
 الْوَتِينَ (٤٦) } [الحاقة : ٤٤ - ٤٦].
 ومن الحديث:

ما ورد عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- فيما رواه البخاري في صحيحه عن عائشة أم
 المؤمنين رضي الله عنها: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله-صلى الله عليه وسلم- فقال: يا
 رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: "أحياناً يأتيني مثل صلصلة
 الجرس- وهو أشده علي- فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال . وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً
 فيكلمني فأعي ما يقول"^(١٨).
 وقد روى الحديث أيضاً الربيع بن حبيب عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن عائشة رضي الله
 عنها^(١٩).

الفرق بين الوحي والإلهام

من المعلوم عند المسلمين أن الوحي الذي هو أساس الأحكام قسماً: متلو وهو القرآن الكريم،
 وغير متلو وهو السنة النبوية الشريفة، وأما الإلهام فهو نوع من أنواع الوحي لكنه لا تنبئ عليه
 الأحكام الشرعية وإليك بيان ذلك.
 إن القرآن الكريم هو الأساس الذي بني عليه دين الإسلام، فهو المعجزة الخالدة، به نزل جبريل
 عليه السلام على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغه الناس، وكونه أساس حجية الأحكام
 عند المسلمين أمر مسلم لا يحتاج إلى تبيين .
 وأما السنة النبوية الشريفة وأنها من أسس حجية الأحكام فتدل عليه الأدلة التالية:
 ثبوت عصمة النبي صلى الله عليه وسلم في التبليغ عن ربه في الكتاب والسنة.
 تقرير الله تمسك الصحابة بالسنة، في عصره صلى الله عليه وسلم^(٢٠).

(١٤) وقد تكلم عليه محمد رشيد رضا في كتابه الوحي المحمدي بما لا مزيد عليه.

(١٨) البخاري حديث رقم (٢) وطرفه (رواية بلفظ آخر) رقم (٣٢١٥).

(١٩) الجامع الصحيح (مسند الربيع بن حبيب)، ضبط وتخرىج مجمد إدريس، مراجعة وتقديم عاشور بن يوسف، دار
 الحكمة، بيروت، ومكتبة الاستقامة، سلطنة عمان، ط١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، حديث رقم ٢، واللفظ الأول للبخاري حديث
 رقم (٢).

(٢٠) أنظر حجية السنة، عبدالغني عبدالخالق، (من منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي)، ط١، دار القرآن
 الكريم: بيروت، ١٩٨٦/٥١٤٠٧م، ص ٢٨٢ وما بعدها.

الكتاب الكريم لقوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمَّا أُولَئِكَ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ
وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٨].

السنة الشريفة نفسها كإخباره- صلى الله عليه وسلم -وهو المعصوم من الكذب -بأنه قد أوحى إليه
القرآن وغيره؛ وأن ما بينه وشرعه-من الأحكام-فإنما هو؛ بتشريع الله تعالى ومن عنده؛ وليس من
عنده صلى الله عليه وسلم .

تعذر العمل بالقرآن وحده، إذ لا بد أن تبينه السنة.
السنة نفسها فإن منها ما يقصد به تشريع الأحكام ومنها ما لا يقصد به ذلك.
الإجماع^(٢٢).

وأما بالنسبة للإلهام فإنه وإن كان نوعاً من أنواع الوحي فليس له حجة في بناء الأحكام عليه .
وذلك لعدة أمور :

- ١- لم نجد في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ما يشير إلى أنه حجة.
 - ٢- لم يرد عن سلف الأمة الصالح من اعتمده حجة.
 - ٣- إجماع أمة الإسلام على عدم حجيتها.
 - ٤- لو قبل الناس الإلهام حجة لفتح باب لا يمكن إغلاقه لأن الكمال في الناس مستحيل، كما أن
دعوى الإلهام دعوى واسعة تفتح باب الكذب والتزوير .
 - ٥- قبول الإلهام يفتح باباً للشيطان على الناس.
- وهكذا فإن الإلهام ليس حجة في بناء الأحكام عليه، لكن إذا صح الإلهام مع عدم المخالفة للشرع
فقد يستفاد منه في بعض الهدايات والله أعلم .

النبي والرسول والفرق بينهما

النبوة لغة : من النبأ، وهو الإخبار؛ وأيضاً هي بمعنى العلو والارتفاع^(١)، وكلُّ رسولٍ
نبي^(٢)؛ والرسول لفظٌ مشتقٌّ من الإرسال، وتعني التوجيه والبعث^(٣).

أما اصطلاحاً : فقد اختلف أهل العلم فيها، واختلفوا على مذاهب:

أولها : أنه لا فرق بين النبي والرسول، بل هو من قبيل الترادف، فيطلق النبي على الشخص الذي
اصطفاه الله لإنذار قومه، والرسول تطلق عليه من جهة تكليفه بمهمة التبليغ والإرسال. وهو مذهب
ضعيف كما نصَّ عليه القاضي عياض وبيّنه رحمه الله^(٤).

ثانيهما : أن النبي لم يؤمر بالتبليغ، في حين أن الرسول هو المأمور بتبليغ شرعه، وهو قولٌ مخالفٌ
للأدلة أيضاً، فكلاهما مبلِّغٌ عن الله تعالى.

ثالثهما : وهو مذهب جمهور أهل العلم، والذي نرجّحه، أن الرسول هو المبعوث إلى قومٍ برسالة
جديدة وشرع جديد، في حين أن النبي هو مدكّرٌ لقومه برسالةٍ سابقةٍ، فيكون كلُّ رسولٍ نبياً، وليس
كلُّ نبيٍّ رسولا^(٥).

(٢٢) مختصراً من كتاب حجية السنة، عبدالغني عبدالخالق، ص ٢٤٣-٣٨٢.

(١) لسان العرب لابن منظور، الجزء ٧، مادة نبأ.

(٢) فالرسول أخص من النبي، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها،
فالنبوة جزء من الرسالة، إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها، بخلاف الرسل فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل
الأمر بالعكس. فالرسالة أعم من جهة نفسها، وأخص من جهة أهلها" ٢٤ ولنتنقل الآن لبيان أجناس وأنواع وصور
الوحي.

(٣) كتاب الشفا للقاضي عياض، ٧٢٦ / ٢.

(٤) المرجع السابق: ٧٢٩ / ٢ فما فوقها.

(٥) انظر: لوامع الأنوار البهية للسفاريني، المجلد الأول، ص : ٤٩.

و(الأنبياء) جمع نبي ويمد مهموزاً فيقال: نبيء ، كما هي قراءة ورش عن نافع في جميع القرآن أو في غالبه، وهو عائد إلى الاشتقاق الأول الذي تقدم في كلمة النبوة^(٢٣).
شبه الجاحدين للوحي والرد عليها^(٥٤):

لقد تفنن الحاقنون من أعداء الإسلام. وما زالوا يخططون ويجددون وضع الشبه واختلاقها، وهذا لا يؤثر على عظمة دين الإسلام فتنبه! ومن ذلك قولهم:

١- لو كان الوحي ممكناً لأوحى الله إلى أفراد البشر عامة، ولم يخص به عدداً قليلاً... ورده أن هذا من سذاجة القول فإن الأعمال العادية التي يتفاوت الناس في إنجازها لا توكل أحياناً لكل الأفراد فكيف بالوحي وهو شديد الخطورة يحتاج إلى مؤهلات لا تتوفر إلا في نواذر البشر.

٢- إن الوحي الذي تدعونه، وتدعون تنجيته جاء بهذا القرآن غير مرتب، ولا منظم، فلم يفرد كل غرض من أغراضه بفصل أو باب... وهذا كلام من لا يعرف حقيقة القرآن الذي بهر نظمه وتنسيقه أصحاب الاختصاصات والفنون المختلفة في اللغة والحساب مع أن القرآن ليس كتاب تأليف، بل كتاب وحي ومنهج حياة، وأين موقعه إذا ما قورن بالكتب السماوية التي بين أيدي المدعين عليه.

٣- اتهام النبي صلى الله عليه وسلم بمرض الهستيريا والهلوسة... ورده أن صاحب الهستيريا والهلوسة لا يستطيع أن يحل مشاكله، ولا أن يقود نفسه!! والنبي -صلى الله عليه وسلم- قاد أمة ونظم شعوباً وقضى على إمبراطوريات، وتحدى العباقرة الأصحاء.

٤- إنكم تستدلون على الوحي بإعجاز القرآن، وتستدلون على إعجاز القرآن بما فيه من أسرار، ونحن لا ندرك الإعجاز ولا تلك الأسرار... وجوابه إن قصر أفهامكم، وضعف عقولكم حجة عليكم لا لكم. وقد أدرك ذلك أهل الاختصاص واعترفوا به. كما أن في القرآن ما تعرفون من أنواع الإعجاز ولا قدرة لكم على الوقوف أمامه. ٥- إعجاز القرآن بالعربية للعرب لا يدل على أنه وحي الله بل كلام محمد نسبه إلى ربه... والرد على هذه الفرية كذبها القرآن بأسلوبه المتنوع؛ فمرة بألفاظ(قل)، وأخرى بآيات العتاب، وأخرى بالنهي. ومن غير المعقول أن يأمر الإنسان نفسه وينتقدها ويفضحها أمام الناس، بل المعروف أن الإنسان ينستر على عيوبه ونقائصه ولا يكشفها للآخرين هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن محمداً - صلى الله عليه وسلم- معروف للعرب الذين نشأ بينهم وتربى عندهم، وقام بخدمتهم فلم يشهر كتابه ومؤلفه إلا بعد هذه المدة المديدة من الزمان وكذلك إن محمداً صلى الله عليه وسلم ما كان يجيب على التساؤلات حتى يأتيه الوحي ويخبره بجواب الله عن تلك الأمور. كما أن أخبار القرآن فيها من أنواع الغيب المستقبلي فكيف يؤلف هذا؟! أو مزيداً على ذلك إعجاز الائتلاف الموجود في القرآن لم يشتمل عليه مؤلف لا قديماً ولا حديثاً ولا يمكن أن يحصل له مثيل في المستقبل. ألا تراه جمع في ثلاث وعشرين سنة دون أن يكون فيه اختلاف أو تعارض فافهم؟! {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء : ٨٢]، وأين أنت من محمد صلى الله عليه وسلم الذي اعترف بأمانته وطهره من عاصره وشب معه، فهو حرب على الكذب والخنا والفساد والجهالة.

من خلال ما تقدم يمكن استخلاص أن الحاجة الماسة لوجود الوحي ملحة جداً لقطع الطريق على المعترضين من المغرضين. وذلك أن الوحي يعطي القول الفصل والحجة التي لا مزيد عليها لبيان الإله الحقيقي الذي يستحق العبادة، وبيان الحلال والحرام وما يحتاج إليه الناس في جميع شؤونهم دون الشعور بالظلم والتحيز والكيل بأكثر من مكيال. يضاف إلى ذلك حصول القناعة

(٢٣) عقيدة المؤمن : أبو بكر الجزائري ، ص ٢٥٨.

(٥٤) انظر: مناهل العرفان للزرقاني: ٧٦/١، وما بعدها بتصرف بسيط، وللتوسع: اقرأ في المجلد العاشر من مجلة الأزهر عام ١٣٥٨هـ ما كتبه محمد فريد وجدي، وما كتبه الزرقاني في المجلد الخامس من مجلة الهدية الإسلامية عام ١٣٥١هـ وما كتبه محمد عبدالله دراز في كتابه النبأ العظيم.

والرضا المترتبة حينما يثق الإنسان بأن هذا هو حكم الله تعالى، وليس حكماً قابلاً للنقض صدر من إنسان يعتوره الهوى وحب المصالح. فالله تعالى مبرأ من التحيز والظلم بخلاف البشر.

والقيام بأمر النبوة والرسالة وظيفة ثقيلة تحتاج إلى من يقدر على حملها، ومصداق ذلك قوله تعالى {إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ فَأَوْلاً ثَقِيلًا} [المزمل : ٥]، والنبوة والرسالة يقدر عليها الرجال بصفة عامة أكثر من النساء لما يكتنفها من ظروف وأخطار المرأة في منأى عنها. وما ورد من أقوال بأن النبوة قد حصلت للنساء فأقوال فيها نظر لضعف المرأة عن هذه المهام الجسام إلا إذا اعتبرنا ذلك مقصوراً عليها وحدها. وعدم وقوعه هو الراجح عند جمهور العلماء، فالوحي إذن وظيفة شريفة يستحق من يتميز بها الطاعة والاحترام والتقدير والإجلال والنصرة والمتابعة. وهذا لا يقدره إلا من خالطت بشاشة الإيمان قلبه فاستحق بذلك المغفرة والرحمة من الله تعالى. وبعبارة من أنكر الوحي وكذب الأنبياء فعوقب بالنار والخلود الأبدي فيها وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه^(١).

ثانياً:- نزول القرآن

يطلق الإنزال في اللغة على معنيين :-

أحدهما : الهبوط من علو : يقال : نزل فلان من الجبل ، ومنه قوله تعالى {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا} [الرعد : ١٧].

الثاني : الحلول : يقال : (نزل فلان بالمدينة)، أي: حلَّ بها^(٢)، ومنه قوله تعالى : {وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ} [المؤمنون : ٢٩].

وكلا المعنيين يشعر بالمكانية والجسمية فلا مجال لتحقيقهما في كلام الله ووحيه فالتعبير إذن هو من قبيل المجاز ولا يمكن حمله على الحقيقة وقد ذهب العلماء إلى أن إنزال القرآن فيها توجيهاً :

أ- أن يقصد من إنزال القرآن إنزال حامله وهو الروح الأمين جبريل عليه السلام .

ب- أن يقصد من الإنزال لازمة وهو الإعلام فمعنى إنزال القرآن على النبي -صلى الله عليه وسلم- إيصاله إليه وإعلامه به .

واختير لفظ الإنزال أيضاً لحكمة عظيمة وهي بيان شرف هذا القرآن وعلو منزلته وأنه من العالم العلوي ومن هنا اختيرت لفظة الإنزال على لفظة الإعلام والإيصال قال تعالى {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الإسراء : ١٠٥] ^(٣) .

تنزيلات القرآن الكريم :

في هذه المسألة طرفان ، أحدهما متفق عليه ، والآخر مختلف فيه، أما الطرف المتفق عليه ، فهو أن القرآن لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من السماء جملة واحدة ، بل كان ينزل الوحي به من عند الله ، مفرقا حسب الحوادث والأحوال.

وقد جاءت الآيات تقرر ذلك بوضوح تام لا لبس فيه ، وتقرر حكمة النزول على تلك

الصفة:

١- قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَأُنزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُتَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} [الفرقان : ٣٢].

(١) انظر: مَهَجِيَّةُ الْبَحْثِ فِي التَّفْسِيرِ الْمَوْضُوعِيِّ للكلمة، والآية، والسورة القرآنية، د. أمين محمد سلام المناسبة البيطوش (بحث منشور في الشبكة الالكترونية) (بتصرف بسيط).

(٢) المعجم الوسيط - د. إبراهيم أنيس - ٩٥١/٢ .

(٣) انظر: إتيان البرهان: ص ١٤٦ وما بعدها .

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - : " لأنه كلما نزل عليه شيء من القرآن ازداد طمأنينة وثباتاً ، وخصوصاً عند ورود أسباب القلق ؛ فإن نزول القرآن عند حدوث السبب ، يكون له موقع عظيم ، وتثبيت كثير ، أبلغ مما لو كان نازلاً قبل ذلك ثم تذكره عند حلول سببه. {وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}، أي : مهلناه ودرجناك فيه تدريجاً ، وهذا كله يدل على اعتناء الله بكتابه القرآن، وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث جعل إنزال كتابه جارياً على أحوال الرسول ومصالحة الدينية" (١).

٢- قال تعالى: {وَفَرَأْنَا فَرَقَانَهُ لِنَفْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} [الإسراء : ١٠٦]. قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - : " {عَلَى مُكْثٍ} على مهل ، ليتدبروه ويتفكروا في معانيه ويستخرجوا علومه، {وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا}، شيئاً فشيئاً مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة" (٢).

ومما يؤكد نزول القرآن مفرقاً : انقطاع الوحي في حادثة الإفك التي اتهمت فيها عائشة رضي الله عنها بالزنى ، وقد انتظر النبي صلى الله عليه وسلم نزول القرآن ؛ لعظيم وقع المصيبة بتهمة زوجته حتى نزل قوله {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النور : ١١]. ومما يؤكد نزول القرآن مفرقاً - أيضاً - : الآيات الأولى من سورة " عبس " ؛ وذلك عندما أعرض النبي صلى الله عليه وسلم عن تعليم ابن أم مكتوم الأعمى طمعاً في إسلام كبار قريش. وأما الذي وقع الخلاف فيه ، فهو أول وأصل نزول القرآن : هل نزل مرة واحدة إلى السماء الدنيا ، ثم نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم مفرقاً ، أو كان نزوله على صفة واحدة ، مفرقاً حسب الوقائع ، كما سبق.

وسبب ذلك الخلاف هو فهم بعض الآيات التي تدل على نزول القرآن في وقت واحد ، مثل قوله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} [البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [القدر: ١]، مع تصريح ابن عباس رضي الله عنه بذلك الفهم.

وقد اختلف العلماء في هذا النزول على أقوال: أولها : أن القرآن قد نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة ، ثم نزل بعد ذلك منجماً في ثلاث وعشرين سنة. قاله ابن عباس وهو قول الأكثرين. وهو الراجح. قال عنه الزركشي " إنه أشهر وأصح وإليه ذهب الأكثرون" (٣). ووصفه ابن حجر بأنه: "الصحيح المعتمد" (٤). وقال ذلك عنه -أيضاً- القسطلاني في لطائف الإشارات (٥).

وذكر السيوطي أن القرطبي حكى الإجماع على أنه نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا (٦). وحكاية الإجماع في ذلك لا تصح لوجود المخالف في ذلك وتعدد المذاهب فيه. وأدلة هذا القول:

(١) تفسير السعدي: ٥٨٢.

(٢) تفسير السعدي: ٤٦٨.

(٣) البرهان: ٢٢٨/١.

(٤) فتح الباي: ٤/٩.

(٥) انظر: لطائف الإشارات: ٢٢.

(٦) الإتيقان (١ / ١٤٨)، ومناهل العرفان (١ / ٣٩)، تفسير القرطبي (٢ / ٢٩٧).

١- أنه ظاهر الآيات الثلاث في قوله تعالى: { إنا أنزلناه في ليلة القدر } [القدر: ١] وقوله سبحانه: { إنا أنزلناه في ليلة مباركة } [الدخان: ٣] وقوله جل وعلا: { شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن } [البقرة: ١٨٥].

فقد دل ظاهر هذه الآيات الثلاث أن القرآن الكريم أنزل جملة في ليلة واحدة توصف بأنها مباركة من شهر رمضان. وهذا وصف مغاير لصفة نزول القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم حيث إنه من المعلوم المقطوع به أن القرآن نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم منجماً مفرقاً في نحو ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث.

فتعين أن يكون هذا النزول الذي دل عليه ظاهر الآيات نزولاً آخر غير النزول المباشر على النبي صلى الله عليه وسلم.

٢- أنه صريح الآثار الواردة عن ابن عباس، والتي لها حكم الرفع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن الأخبار التي استند إليها أصحاب هذا المذهب :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة". ثم قرأ : {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} [الفرقان : ٣٣] ، {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} [الإسراء : ١٠٦] (١) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل عليه السلام ينزله على النبي صلى الله عليه وسلم ويرتله ترتيلاً " (٢) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "أنزل القرآن جملة واحدة حتى وضع في بيت العزة في السماء الدنيا ونزله جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم بجواب كلام العباد وأعمالهم" (٣) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا وكان بمواقع النجوم وكان الله ينزله على رسوله صلى الله عليه وسلم بعضه في إثر بعض قال

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (٣٦٨)، وانظر طبعة المغرب بتحقيق أحمد الخياطي (٢ / ٢٠٢) وأخرجه الحاكم في المستدرک (٢ / ٢٢٢) و(٢ / ٣٦٨) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (١ / ٣٦٨) وشعب الإيمان (٢ / ٤١٥) رقم ٢٢٤٩، والنسائي في التفسير (٢ / ١٣١) رقم ٣٩٢ وقال المحقق صحيح. وأخرجه ابن جرير في تفسيره (١٥ / ١٧٨) و(٣٠ / ٢٥٨). وانظر: فضائل القرآن للنسائي (٥٩)، وابن الضريس (٧٢). والمرشد الوجيز (١٤-). وذكره ابن كثير في فضائل القرآن (٦) عن أبي عبيد ثم قال: هذا إسناد صحيح.

وقال أبو عبيد : ولا أدري كيف قرأ يزيد في حديثه "فرقناه" مشددة أم لا؟ إلا أنه لا ينبغي أن تكون على هذا التفسير إلا بالتشديد "فرقناه".

وقراءة الجمهور بالتخفيف، وقرأ بالتشديد أبي، وعبد الله بن مسعود وعلي وابن عباس، وأبو رجاء وغيرهم. انظر تفسير ابن جرير (١٥ / ١٧٨)، والبحر المحيط (٦ / ٨٧). ومعجم القراءات القرآنية (٣ / ٣٤٢).

(٢) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (١ / ٣٦٨)، والطبراني في الكبير (١٢ / ٢٦) رقم ١٢٣٨١، والحاكم في المستدرک (٢ / ٢٢٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وأخرجه النسائي في فضائل القرآن (٥٩-٦٠) وزاد في آخره: قال سفيان: خمس آيات، ونحوها. وانظر المرشد الوجيز لأبي شامة (٢٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور بنحوه (١ / ٤٥٧) وزاد نسبه للفريابي وابن جرير ومحمد بن نصر وابن مردويه والضياء المقدسي في المختارة. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ١٥٧) وقال: رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم وهو ضعيف.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢ / ٢٦) رقم (١٢٣٨٢)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ١٤٠) وقال عنه: رواه الطبراني والبخاري باختصار ورجال البزار رجال الصحيح، وفي إسناد الطبراني عمرو بن عبد الغفار وهو ضعيف. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨ / ٥٦٧) وزاد نسبه لابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل.

الله تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا } [الفرقان : ٣٢] (١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " أنزل القرآن ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا جملة، ثم أنزل نجوماً " (٢).

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "أنزل القرآن إلى السماء الدنيا في ليلة القدر فكان الله إذا أراد أن يوحى منه شيئاً أوحاه أو أن يحدث منه شيئاً أحدثه" (٣).

وعن مقسم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: سأله عطية بن الأسود فقال: إنه وقع في قلبي الشك في قوله تعالى: { شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن } [البقرة: ١٨٥] وقوله: { إنا أنزلناه في ليلة القدر } [القدر: ١] وقوله: { إنا أنزلناه في ليلة مباركة } [الدخان: ٣] وقد أنزل في شوال، وذي القعدة، وذي الحجة، والمحرم، وشهر ربيع الأول؟ فقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: إنه أنزل في رمضان، وفي ليلة القدر، وفي ليلة مباركة؛ جملة واحدة، ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم رسلاً (٤) في الشهور والأيام (٥).

وعن سعيد بن جبير قال: "نزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر في رمضان فجعل في بيت العزة، ثم أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة جواب كلام الناس" (٦).

وعن سعيد بن جبير أيضاً قال: "نزل القرآن جملة من السماء العليا إلى السماء الدنيا ليلة القدر، ثم نزل مفصلاً" (٧).

وعن الربيع بن أنس في قوله: { إنا أنزلناه في ليلة القدر } قال: "أنزل الله القرآن جملة في ليلة القدر كله" (٨).

وعن إبراهيم النخعي في قوله عز وجل: { إنا أنزلناه في ليلة مباركة } قال: "أنزل جملة على جبريل عليه السلام، وكان جبريل يجيء بعد إلى محمد صلى الله عليه وسلم" (٩).

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (١ / ٣٦٧) وفي شعب الإيمان (٣ / ٣٢٠) رقم (٣٦٥٩)، والحاكم في المستدرک (٢ / ٢٢٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه. وابن الضريس في فضائل القرآن (٧٢). وذكره أبو شامة في المرشد الوجيز (١٧) وذكر السيوطي نحوه- في الدر المنثور وزاد نسبه لابن جرير وابن مردويه ومحمد بن نصر والطبراني وأخرجه النسائي في تفسيره (٢ / ٥٣٩) رقم (٧٠٩) وقال المحقق: صحيح

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١ / ٢٤٧) رقم (١١٨٣٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ١٤٠) وقال: رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفيه عمران القطان وثقه ابن حبان وغيره، وفيه ضعف، وبقيه رجاله ثقات.

(٣) أخرجه النسائي في فضائل القرآن (٥٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١ / ٣٦٨). والحاكم في المستدرک (٢ / ٢٢٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي وأخرجه ابن الضريس بنحوه في فضائل القرآن (٧١-).

(٤) رسلاً: قطعة قطعة وفرقة فرقة. انظر: حاشية تفسير الطبري (٣ / ٤٤٦).

(٥) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (١ / ٣٦٩-) وأخرجه الطبري في تفسيره بسنده (٣ / ٤٤٨) ولم يسم فيه السائل. وأخرجه الطبراني في الكبير (١١ / ٣٠٩) رقم (١٢٠٩٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٣١٦) وقال عنه: وفيه سعد بن طريف وهو متروك. وذكره السيوطي في الدر المنثور (١ / ٤٥٦) وزاد نسبه لابن أبي حاتم، وابن مردويه، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة.

(٦) أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن (٧٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (١ / ٤٥٧) ولم ينسبه لغير ابن الضريس.

(٧) أخرجه سعيد بن منصور في سننه بسنده (٢ / ٢٩٤) رقم (٧٩) وفيه حكيم بن جبير ضعيف. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧ / ٣٩٩) ولم ينسبه لغير سعيد بن منصور.

(٨) أخرجه عبد بن حميد كما ذكر السيوطي في الدر المنثور (٨ / ٥٦٧).

(٩) أخرجه سعيد بن منصور في سننه بسنده (٢ / ٢٩٢) رقم (٧٨) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧ / ٣٩٩) ولم ينسبه لغير سعيد بن منصور.

ووجه الاستدلال بهذه الأحاديث والآثار التي أخرجها الأئمة وصححوا بعضها، والتي يعضد بعضها بعضها أنها وإن كانت موقوفة في جملتها على ابن عباس رضي الله عنهما فإن لها حكم الرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأن قول الصحابي الذي لا يأخذ عن الإسرائيليات، فيما لا مجال للرأي فيه له حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وابن عباس لن يقول ما قال من هذا التفصيل والتحديد بمحض رأيه ومن عند نفسه فهو إذا محمول على سماعه من النبي صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه منه من الصحابة والصحابة كلهم عدول.

٣- عدم معارضته للقول الثاني مع توجيه أدلة هذا القول والرد عليها.

٤- ضعف الأقوال الأخرى.

٥- انتفاء المحذور العقدي بالتصريح بسماع جبريل للقرآن من الله عز وجل دون واسطة.

٦- شهرة القول وكثرة القائلين به، والمصححين له، حتى حكى القرطبي^(١) الإجماع عليه.

القول الثاني : أنه ابتدئ إنزال القرآن في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة حسب الحوادث والوقائع وحاجات الناس ، وهذا قول التابعي الجليل الشعبي^(٢)، ومحمد ابن إسحاق^(٣)، واختاره النسفي^(٤). وأدلتهم^(٥):

١- الواقع الفعلي لنزول القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه نزل منجماً مفرقاً حسب الحوادث والوقائع على نحو من ثلاث وعشرين سنة.

٢- قوله تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقَانًا لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء : ١٠٦]، فصريح القرآن، وواقع نزوله يدل على تنجيته وتفريقه.

٣- أن الآيات الثلاث الواردة في وصف نزول القرآن المراد بها ابتداء نزول القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه ابتداء نزوله في ليلة القدر من شهر رمضان وهي الليلة المباركة وفي هذا جمع بين هذه الآيات وقوله تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقَانًا لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء : ١٠٦] .

٤- أن ما جاء من الآثار الدالة على نزول القرآن جملة واحدة إلى بيت العزة في السماء الدنيا وإن كانت صحيحة الإسناد فهي موقوفة على ابن عباس وغير متواترة. وهذه مسألة غيبية عقدية ولا يؤخذ في الغيبيات إلا بما تواتر يقينا في الكتاب والسنة فصحة الإسناد لا تكفي وحدها لوجوب اعتقاده. فكيف وقد نطق القرآن بخلافه.

وهذا القول قول قوي، إلا أنه يُردّ من أوجه ثلاثة:

الأول: أن أثر الشعبي رحمه الله رواه عنه الطبري^(٦)، بإسناد ضعيف، ففيه:
أ- عمران أبو العوام، وهو صدوق يهمل^(٧).

ب- وفيه عمرو بن عاصم الكلابي، فهو صدوق في حفظه شيء^(٨).

(١) الإتيان (١ / ١٤٨)، ومناهل العرفان (١ / ٣٩)، تفسير القرطبي (٢ / ٢٩٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٥٣١/٢٤.

(٣) نسبة له الفخر الرازي في تفسيره: ٥ / ٨٥.

(٤) انظر تفسيره: ١ / ٩٤، حيث قال: " {الذي أنزل فيه القرآن}: أي ابتدئ فيه إنزاله وكان في ليلة القدر.."، وأشار إلى الإنزال جملة بصيغة التضعيف في تفسير سورة القدر (٤ / ٣٧٠) فقال: "روي أنه أنزل جملة".

(٥) انظر: مباحث في علوم القرآن. د. صبحي الصالح. (٥١) وتفسير جزء «عم» للشيخ محمد عبده ص(١٢٢) ط. بولاق.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٥٣١/٢٤.

(٧) كما في "التقريب" (٨٣/٢).

(٨) كما في "التقريب" (٧٢/٢).

الثاني: أن الثابت عن الشعبي هو ما يوافق الجمهور، رواه عنه الطبري بإسناد صحيح^(١).
الثالث: أنه مخالف لما ذكره ابن عباس رضي الله عنه، وأقوال الصحابة هي الحجة في كل باب عند انعدام النصوص.

الرابع: كما يجب على أدلة القول الثاني - على سبيل الإيجاز - بما يأتي:
١- أن صفة نزول القرآن المباشر على الرسول صلى الله عليه وسلم وكونه نزل عليه مفرقا، وكونه صريح قوله تعالى: { وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث } هو محل إجماع ولا خلاف حوله ولا يعارض النزول جملة.

٢- القول بأن المراد بالآيات الثلاث من سور البقرة، والدخان، والقدر، هو ابتداء النزول؛ هو صرف لها عن ظاهرها بغير صارف ويجعلها تحتاج إلى تقدير محذوف. فقوله تعالى: { إنا أنزلناه في ليلة القدر } أي ابتدأنا إنزاله. وهو يقتضي حمل القرآن على أن المراد به بعض أجزاءه وأقسامه^(٢) فقوله تعالى: { إنا أنزلناه في ليلة القدر } أي أنزلنا بعضه.

٣- أن القول بأن المسألة عقديّة لا بد لها من أدلة متواترة قطعية الثبوت لإفادة العلم اليقيني ولا يكفي فيها الآثار الموقوفة؛ قول غير مسلم. واستبعاد الاستدلال بأحاديث الأحاد على العقائد غير صحيح فالعبرة بصحة الحديث فمتى صح الحديث احتج به سواء كان أحادا أم متواترا وسواء كان في الأحكام أم العقائد^(٣).

القول الثالث: أنه نزل إلى السماء الدنيا في ثلاث وعشرين ليلة قدر، في كل ليلة ينزل ما يقدر الله إنزاله تلك السنة.

وهذا قول ابن جريج^(٤)، وأبو عبد الله الحسين بن الحسن الحلبي^(٥)، ومقاتل بن حيان^(٦)، وقال بنحوه مقاتل بن سليمان^(٧)، ونسبه السيوطي للفخر الرازي^(٨)، كما ينسب هذا القول في كثير من كتب علوم القرآن للماوردي^(٩).

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٨٢٠): ص ٤٤٧/٣، و: ص ٥٣٢/٢٤، ولفظه: "بلغنا أن القرآن نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا". كما عد السخاوي في جمال القراء: ٢٠/١، الشعبي من القائلين بالقول الأول مع ابن عباس وابن جبير.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٥/٥.

(٣) انظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم (٥٢).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٣ / ٤٤٧). وتفسير أبي الليث السمرقندي (١ / ٥٦٣) والدر المنثور للسيوطي (١ / ٤٥٧).

(٥) قاله في كتابه المنهاج (٢ / ٢٣٤-)، وانظر: البرهان (١٠، ٢٢٩)، ولطائف الإشارات للقسطلاني (١ / ٢٢)، والمرشد الوجيز (١٩).

(٦) انظر: الإتيان للسيوطي (١ / ١٤٨)، والزيادة والإحسان لابن عقيلة المكي (١ / ٢١٥) بتحقيق د. محمد صفاء حقي. رسالة ماجستير غير منشورة. قسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين. الرياض.

(٧) انظر: حاشية المرشد الوجيز بتحقيق طيار التي قولاج (١٨). وتفسير مقاتل بن سليمان (١ / ٢٢خ)، وتفسير أبي الليث السمرقندي (١ / ٥٦٢).

(٨) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٥/٥. وهي نسبة غير محررة فقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره هذا القول وجعله محتملا، وتوقف في الترجيح بينه وبين القول بنزوله جملة واحدة من اللوح المحفوظ ثم نزوله منجما بعد ذلك. لكنه في موضع آخر وبعد صفحة واحدة رجح القول الثاني. فقال: "التنزيل مختص بالنزول على سبيل التدرج والإنزال مختص بما يكون النزول فيه دفعة واحدة، ولهذا قال الله تعالى: { نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل } إذا ثبت هذا فنقول: لما كان المراد ههنا من قوله تعالى: { شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن } . نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا. لا جرم ذكره بلفظ الإنزال دون التنزيل وهذا يدل على أن هذا القول راجح على سائر الأقوال".

(٩) انظر: المرشد الوجيز لأبي شامة (١٨، ١٩)، والبرهان (١ / ٢٢٩)، والإتيان (١ / ١٤٨)، والزيادة والإحسان لابن عقيلة (١ / ٢١٥)، وهي نسبة غير محررة من حيث تحديد القول، وتعيين القائل.

وهذا القول ضعيف مدفوع أيضا بمذهب الصحابي. قال عنه ابن حجر: "وهذا أورده ابن الأنباري من طريق ضعيفة ومنقطعة أيضا" (١). وقال عنه القرطبي: "قلت: وقول مقاتل هذا خلاف ما نقل من الإجماع" أن القرآن أنزل جملة واحدة" (٢).

وحكاية القرطبي للإجماع هنا غير مسلمة لما علمته من الأقوال في ذلك. القول الرابع: أن القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ وأن الحفظة نجمته على جبريل في عشرين ليلة، وأن جبريل نجمه على النبي صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة. حكاها بعض المفسرين عن ابن عباس (٣).

قال ابن حجر: "وهذا -أيضا- غريب" (٤). وقال أبو شامة: "وهو قول مردود لأنه ليس بين الله وجبريل واسطة في تلقي القرآن الكريم" (٥).

وقال ابن العربي متعقبا هذا القول: "ومن جهلة المفسرين أنهم قالوا: إن السفارة ألقته إلى جبريل في عشرين ليلة وألقاه جبريل إلى محمد - عليهما السلام - في عشرين سنة وهذا باطل، ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد صلى الله عليهما واسطة" (٦).

وقد نقل أبو شامة في المرشد الوجيز عن تفسير علي بن سهل النيسابوري عن جماعة من العلماء أن جبريل هو من أملاه على السفارة. قال: "قال جماعة من العلماء: تنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى بيت يقال له بيت العزة، فحفظه جبريل عليه السلام، وغشى على أهل السماوات من هيبه كلام الله فمر بهم جبريل وقد أفاقوا فقالوا: { ماذا قال ربكم قالوا الحق { [سبأ: ٢٣] يعني القرآن وهو معنى قوله: { حتى إذا فزع عن قلوبهم { [سبأ: ٢٣] فأتى به جبريل إلى بيت العزة فأملأه جبريل على السفارة الكتبة. يعني الملائكة وهو قوله تعالى: { بأيدي سفرة { كرام بررة { [عبس: ١٥-١٦]" (٧).

وذهب إلى هذا المعنى من إملاء جبريل القرآن على السفارة علم الدين السخاوي في جمال القرآن في معرض حديثه عن حكمة إنزاله جملة فقال: ".وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبريل عليه السلام بإملائه على السفارة الكرام البررة -عليهم السلام- وإنساخهم إياه، وتلاوتهم له" (٨) فيكون قولاً خامساً.

وقد حاول ابن عقيلة المكي الإجابة عما تضمنه ذلك الخبر من عدم أخذ جبريل للقرآن من الله. فقال بعد أن ساق الخبر: "فهذا يقضي أن جبريل ما أخذه إلا عن السفارة. قلت: لا تنافي، لاحتمال أن جبريل -عليه السلام- سمعه من الله سبحانه وتعالى كما تقدم بصفة التجلي فعلمه جميعه ثم أمره الله أن يأخذه من اللوح المحفوظ فيضعه في بيت العزة عند السفارة، ثم أمر الله سبحانه وتعالى السفارة أن تنجمه على جبريل عليه السلام في عشرين ليلة لكل سنة ليلة وإنما كان التنجيم من السفارة

(١) فتح الباري (٩ / ٤)، ونقله القسطلاني في لطائف الإشارات (١ / ٢٢).

(٢) تفسير القرطبي (٢ / ٢٩٨)، وانظر الإتيان (١ / ١٤٨).

(٣) انظر الدر المنثور: ٣٤٥/٥، وحكاها الماوردي عن ابن عباس في النكت والعيون (٦ / ٣١١)، وابن كثير في تفسيره: ٥٤٤/٧، الإتيان: السيوطي: ج ١ ص ٥٤. وأخرجه - بنحوه - ابن أبي حاتم، وانظر الزيادة والإحسان (١٧٢، ٢١٨/١).

(٤) فتح الباري لابن حجر (٩ / ٤-)، ونقل القسطلاني كلام ابن حجر في كتابه لطائف الإشارات (١ / ٢٢).

(٥) المرشد الوجيز: ١٩.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي (٤ / ١٩٦١-) وانظر تفسير القرطبي (٢٠ / ١٣٠).

(٧) المرشد الوجيز (٢٣)، وانظر تفسير القرطبي (٢٠ / ١٣٠).

(٨) جمال القراء وكمال الإقراء للسخاوي (١ / ٢٠).

على جبريل لما ذكره الحكيم الترمذي : إن سر وضع القرآن في السماء الدنيا ليدخل في حدها لأنه رحمة لأهلها. فأخذ جبريل عن السفارة إشارة إلى أنه صار مخصوصا بهم فلا يؤخذ إلا عنهم^(١).

ولا يخفى ما في هذا القول الأخير من ضعف، في كون جبريل عليه السلام يأخذ القرآن إلى السفارة ثم يأخذه منهم؛ ، دون إنكار صلة السفارة بالقرآن، قال تعالى: { فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) } [عيس : ١٣ - ١٦].

والاتفاق حاصل والإجماع قائم على صفة نزول القرآن الكريم المباشر على الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه نزل منجما مفرقا من بعثته صلى الله عليه وسلم إلى قرب وفاته ينزل أحيانا ابتداء بغير سبب وهو أكثر القرآن الكريم وأحيانا أخرى ينزل مرتبنا بالأحداث والوقائع والأسباب. وأما نزوله جملة فهو ظاهر القرآن في قوله تعالى: { شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن } وقوله: { إنا أنزلناه في ليلة مباركة } وقوله سبحانه: { إنا أنزلناه في ليلة القدر } فهو أنزل في ليلة اسمها ليلة القدر، وصفتها أنها مباركة، وشهرها شهر رمضان. وهو صريح الأخبار الواردة عن ابن عباس، والتي لها حكم الرفع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

وما دام أن النزول جملة لا يعارض صراحة النزول السابق، ولا يرتبط به من خلال تلك النصوص. بل هو نزول خاص، ووجود معين حيث القرآن الكريم كلام الله ومنزل من عند الله يتلقاه جبريل عليه السلام من الله بلا واسطة عند نزوله به على الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة. وإن كان قد نزل به إلى بيت العزة فذلك نزول خاص. وأحد وجودات القرآن الكريم المتعددة. حيث يوجد القرآن الكريم في اللوح المحفوظ^(٢).

ويوجد - أيضا - في الصحف المطهرة الموجودة في أيدي الكرام البررة من الملائكة كما قال تعالى: { كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) } [عيس : ١١ - ١٦].

ويوجد - كذلك - في بيت العزة من السماء الدنيا كما دلت على ذلك الأخبار عن ابن عباس . وجائز أن يكون الوجودان الأخيران مختلفين متغايرين وجائز أن يكونا وجودا واحدا بأن يكون القرآن الكريم في تلك الصحف في بيت العزة وبأيدي أولئك الملائكة الكرام كما يوجد في الأرض بنزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم والنزول مقترن بما عدا الأول من الوجودات المذكورة. يقول البيهقي - رحمه الله - : "وقوله تعالى: { إنا أنزلناه في ليلة القدر } يريد به والله أعلم إنا أسمعنا الملك، وأفهمناه إياه، وأنزلناه بما سمع فيكون الملك منتقلا به من علو إلى سفلى"^(٣).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - بعد عرض قرر فيه أن القرآن الكريم كلام الله منزل من عند الله كما هو صريح القرآن، قال: "فعلم أن القرآن العربي منزل من الله لا من الهواء، ولا من اللوح، ولا من جسم آخر، ولا من جبريل، ولا من محمد، ولا غيرهما، وإذا كان أهل الكتاب يعلمون ذلك^(٤) فمن لم يقر بذلك من هذه الأمة كان أهل الكتاب المقرون بذلك خيرا منه من هذا الوجه.

ثم قال : "وهذا لا ينافي ما جاء عن ابن عباس وغيره من السلف في تفسير قوله: { إنا أنزلناه في ليلة القدر } أنه أنزله إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم أنزله بعد ذلك منجما مفرقا بحسب الحوادث. ولا يتنافى أنه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل نزوله، كما قال تعالى: { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ

(١) □ الزيادة والإحسان لابن عقيلة (١ / ١٧٢) بتحقيق: د. محمد صفاء حقي

(٢) عد الشيخ عبد العظيم الزرقاني هذا الوجود تنزلا. وجعله التنزل الأول والصواب أنه وجود إذ لم يرد لفظ النزول مقترنا به فلا يصح أن يعد نزولا أو تنزلا. وانظر: المدخل لدراسة القرآن للشيخ محمد أبو شهبة (٤٧).

(٣) كتاب الأسماء والصفات للبيهقي (١ / ٣٦٢).

(٤) إشارة إلى قوله تعالى: والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين الأنعام، من الآية / ١١٤.

مَجِيدٌ (٢١) {فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} [البروج : ٢١-٢٢] ، وقال تعالى: {إِنَّهُ لَفُرْقَانٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)} [الواقعة : ٧٧ - ٧٩]، وقال تعالى: {كَلَّمَآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ تَذَكَّرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)} [عبس : ١١ - ١٦]. وقال تعالى: {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ} [الزخرف : ٤]. فَإِنْ كَوْنَهُ مَكْتُوبًا فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ وَفِي صُحُفٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ لَا يَنَافِي أَنْ يَكُونَ جَبْرِيْلُ نَزَلَ بِهِ مِنْ اللَّهِ سِوَاءَ كَتَبَهُ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ يُرْسَلَ بِهِ جَبْرِيْلُ أَوْ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِذْ كَانَ قَدْ أُنزِلَ مَكْتُوبًا إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فَقَدْ كَتَبَهُ كُلُّهُ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ...^(١).

فعلَى هَذَا الْوَجْهِ لَا إِشْكَالَ فِي الْقَوْلِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ تَنْزِيلَيْنِ: نَزُولَ جُمْلَةً، وَنَزُولَ مَفْرُقًا، وَلَا يَتْرَبُ عَلَيْهِ مَحْذُورٌ. وَإِنَّمَا يَقَعُ الْمَحْذُورُ وَيَحْصُلُ الْإِشْكَالُ فِي الْقَوْلِ بِأَنَّ جَبْرِيْلَ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ مِنَ الْكِتَابِ أَوْ مِنْ بَيْتِ الْعِزَّةِ عِنْدَ نَزْوَلِهِ بِهِ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ دُونِ سَمَاعِ اللَّهِ تَعَالَى. كَمَا نَقَلَ أَبُو شَامَةَ عَنِ الْحَكِيمِ التِّرْمِذِيِّ - فِي مَعْرُضِ حَدِيثِهِ عَنِ حِكْمَةِ نَزُولِ الْقُرْآنِ جُمْلَةً - قَوْلَهُ: "ثُمَّ أُجْرِيَ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا الْآيَةُ بَعْدَ الْآيَةِ عِنْدَ نَزُولِ النَّوَابِثِ.." ^(٢).

وَكَمَا قَدْ يَفْهَمُ مِنْ ظَاهِرِ بَعْضِ الْآثَارِ فَمَثَلُ هَذَا الْقَوْلِ، وَمَثَلُ هَذَا الْفَهْمِ لِلْقَوْلِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ تَنْزِيلَيْنِ؛ لَا يَصِحُّ. فَهُوَ أَوْلَا لَمْ يَرِدْ فِي تِلْكَ النُّصُوصِ الْمَفْسُورَةِ وَالْمَفْصَلَةِ لِنَزُولِ الْقُرْآنِ جُمْلَةً. وَثَانِيًا أَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّ جَبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَسْمَعْ الْقُرْآنَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ مِنْ مَخْلُوقٍ لَا مِنْ اللَّهِ وَهَذَا بَاطِلٌ.

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَهُ مِنْ جَبْرِيْلَ، وَهُوَ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ بِهِ، وَجَبْرِيْلُ سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأُئِمَّةِ. قَالَ تَعَالَى: { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ وَهُوَ الرُّوحُ الْأَمِينُ، وَهُوَ جَبْرِيْلُ مِنَ اللَّهِ بِالْحَقِّ.." ^(٣).

وَذَكَرَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ عَنِ أَبِي حَامِدٍ الْإِسْفَرَائِينِيِّ قَوْلَهُ: "مَذْهَبِي وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَفَقْهَاءُ الْأَمْصَارِ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَمَنْ قَالَ: مَخْلُوقٌ فَهُوَ كَافِرٌ، وَالْقُرْآنُ حَمَلُهُ جَبْرِيْلُ مَسْمُوعًا مِنَ اللَّهِ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَهُ مِنْ جَبْرِيْلَ، وَالصَّحَابَةُ سَمِعُوهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الَّذِي نَتَلُوهُ نَحْنُ بِالْأَسْنَتِنَا، وَفِيمَا بَيْنَ الدَّفْتَيْنِ، وَمَا فِي صُدُورِنَا: مَسْمُوعًا، وَمَكْتُوبًا، وَمَحْفُوظًا.." ^(٤).

فَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ لَفْظُهُ وَمَعْنَاهُ سَمِعَهُ مِنْهُ جَبْرِيْلُ، وَبَلَّغَهُ عَنِ اللَّهِ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَمُحَمَّدٌ سَمِعَهُ مِنْ جَبْرِيْلَ وَبَلَّغَهُ إِلَى أُمَّتِهِ، فَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ حَيْثُ سَمِعَ، وَكُتِبَ، وَقُرِئَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: { وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَا آمَنَهُ } ^(٥).

وَيَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَيْضًا: "وَمَنْ قَالَ إِنَّ جَبْرِيْلَ أَخَذَ الْقُرْآنَ مِنَ الْكِتَابِ لَمْ يَسْمَعْهُ مِنَ اللَّهِ كَانَ هَذَا بَاطِلًا مِنْ وَجْهِ: مِنْهَا أَنْ يُقَالَ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ كُتِبَ التَّوْرَةُ لِمُوسَى بِيَدِهِ فَبَنُو إِسْرَائِيلَ أَخَذُوا كَلَامَ اللَّهِ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي كُتِبَ هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهِ فَإِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ أَخَذَهُ عَنِ جَبْرِيْلَ، وَجَبْرِيْلُ عَنِ الْكِتَابِ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَعْلَى مِنْ مُحَمَّدٍ بَدْرَجَةً" ^(٦).

(١) الفتاوى لابن تيمية (١٢ / ١٢٦ -)

(٢) المرشد الوجيز (٢٦).

(٣) الفتاوى (١٢ / ٢٩٨) باختصار.

(٤) الفتاوى (١٢ / ٣٠٦).

(٥) المصدر السابق (١٢ / ٥٦٦).

(٦) الفتاوى (١٢ / ١٢٧ -)

وقد أبان الشيخ محمد بن إبراهيم - رحمه الله - مذهب أهل السنة فقال: "فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة أن الله تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، وأن جبريل عليه السلام، سمع القرآن الكريم من الله تعالى وبلغه محمد صلى الله عليه وسلم"^(١).

وهذا الخلاف - كما ترى - ليس له كبير أثر في واقع تنزيل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد قيل إن هذا التنزيل سببه إظهار كرامة القرآن وعظيم منزلته في العالم العلوي . قال بدر الدين الزركشي - رحمه الله - : " فإن قيل : ما السر في إنزاله جملة إلى السماء ؟ قيل : فيه تخيم لأمره وأمر من نزل عليه ، وذلك بإعلان سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم"^(٢).

والراجح أن القرآن الكريم له تنزلان :-

الأول : نزوله جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة من السماء الدنيا .

الثاني : نزوله من السماء الدنيا إلى الأرض مفرقاً منجماً في نيف وعشرين سنة^(٣) .

الحكمة من تنجيم القرآن :

إن لتنجيم القرآن الكريم حكم، نذكر منها:

الحكمة الأولى : تثبيت فؤاد النبي -صلى الله عليه وسلم- وذلك من خلال الآتي :-

أ- أن في تجدد الوحي ، وتكرار نزوله من جانب الحق إلى رسوله -صلى الله عليه وسلم- يملأ قلب الرسول الكريم سروراً ، ويشعر بالعناية الإلهية .

ومما لا شك فيه أن كثرة نزول الوحي أقوى بالقلب وأشد عناية بالمرسل إليه، فيحصل للنبي ﷺ الأُنس والارتباط بالله تعالى يقول الإمام أبو شامة^(٤): "بِكَ" فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى بالقلب، وأشد عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجنب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقائه جبريل"^(٥).

ومنها تسليته ﷺ ببيان ما يثبت قلبه على الحق ويشد عزمه للمضي قدماً في طريق دعوته لا يبالي بظلمات الجهالة التي يواجهها من قومه، فما حصل للنبي محمد ﷺ قد حصل للأنبياء السابقين قال تعالى: {قَلْعُكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا حَدِيثٍ أُسْقَىٰ} [الكهف : ٦] {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)} [الأنعام : ٣٣ - ٣٤]، وكلما اشتد أذى المشركين للرسول ﷺ نزلت الآيات لطمأنة الرسول ﷺ وتسليته، وتهديد المشركين والمكذبين بأن الله يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ذلك أشد الجزاء، قال تعالى: {فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [يس : ٧٦]، {وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [يونس : ٦٥]، {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} [المزمل : ١٠]، {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَبَلَّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} [الأحقاف : ٣٥]، {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ

(١) الجواب الواضح المستقيم في التحقيق في كيفية إنزال القرآن الكريم للعلامة الشيخ محمد بن إبراهيم، مطبعة الحكومة بمكة المكرمة، عام ١٣٦٩هـ:ص٣.

(٢) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٢٣٠.

(٣) مباحث في علوم القرآن - مناع القطان - ص ١٠٤ .

(٤) أبو شامة هو العلامة عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي أبو القاسم شهاب الدين، فقيه شافعي له كتاب (المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز)، وكتب أخرى، توفي سنة ٦٦٥هـ، انظر الأعلام ٢٩٩.

(٥) انظر البرهان ١ / ٢٣١، الإيقان ١ / ١٢١.

مِمَّا يَمْكُرُونَ} [النحل : ١٢٧]، {وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [هود : ١١٥]، فكان لاتصال الوحي بالرسول ﷺ وتتابع نزول الآيات عليه تسليمة له بعد تسليمة تشد من أزره وتحمله على الصبر والمصابرة، وكان لذلك أبلغ الأثر في مواساته والتخفيف عنه، ولو أن القرآن نزل جملة واحدة لكان لانقطاع الوحي بعد ذلك أثر كبير في استشعار الوحشة والغربة.

ب- ومنها تسليته ﷺ بذكر قصص الأنبياء السابقين، قال تعالى: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [هود : ١٢٠]، {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [يوسف : ١١١]، {قَاصِرٌ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا نَسْتَعِجَلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} [الأحقاف : ٣٥].

ج- أن في التنجيم تيسيراً عليه من الله في حفظه وفهمه ومعرفة أحكامه وحكمه .
فقد نزل القرآن مفرقاً لكي يسهل حفظه وفهمه، فكانت الآيات تنزل على النبي محمد ﷺ وكان النبي يعلمها أصحابه فكلما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصحابة، وتدبروا معانيها، ووقفوا عند أحكامها^(١) بل صار الصحابة والتابعون يعلمون من بعدهم بنفس الطريقة فصارت سنة متبعة فعن أبي العالية الرياحي^(٢) أنه قال "تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن رسول الله ﷺ كان يأخذها خمسا خمسا"^(٣).

وقال عبد الله بن مسعود "كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن"^(٤).

وفي بعض الروايات أن أبا عبد الرحمن السلمي^(٥) قال حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً^(٦).

ثم إن أدوات الكتابة لم تكن ميسورة للكُتَّاب على ندرتهم، فلو أنزل القرآن جملة واحدة لعجزوا عن حفظه وكتابته، فاقتضت حكمة الله العليا أن ينزله إليهم مفرقاً ليسهل عليهم حفظه ويتهيأ لهم استظهاره^(٧).

د- أن هذا التنزيل فيه نوع من الإعجاز ، حيث تحدى كفار قريش في كل مرة أن يأتوا بمثل هذا التنزيل – ولا شك أن هذه المعجزة تقوي أزر الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- .

قال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْنُوا بِحَدِيثِ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)} [الطور : ٣٣ - ٣٤]، وقوله: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ فَلْيَأْنُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم ٧١، مباحث في علوم القرآن ٩٥.

(٢) اسمه رُقَيْع بن مهران، من رواة الحديث، ثقة كثير الإرسال، التقريب ٢١٠.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب فضائل القرآن، في تعليم القرآن كم آية ١٠ ٤٦١، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٢ ٢١٩، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٩٥٩).

(٤) المصنف ٣ ٣٨٠.

(٥) هو عبد الله بن حبيب بن رُبَيْعَة الكوفي المقرئ، مشهور بكنيته، ولأبيه صحبة، التقريب ٢٩٩.

(٦) انظر المصنف للصنعاني ٣ ٣٨٠، والمصنف لابن أبي شيبة، كتاب فضائل القرآن، في تعليم القرآن كم آية ١٠ ٤٦٠، وقال الهيثمي في المجمع، باب السؤال عن الفقه، رواه أحمد وفيه عطاء بن السائب اختلط في آخر عمره.

مجمع الزوائد ١ ١٦٥ وأخرجه الصنعاني في المصنف بنحوه، كتاب فضائل القرآن، باب تعليم القرآن وفضله ٣ ٣٨٠.

(٧) مناهل العرفان ١ ٥٦.

مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [هود : ١٣]، وقال: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة : ٢٣].
 هـ- أن في هذا النزول دحض شبهات كفار قريش ورداً على أسئلتهم ، وتسليية للرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم- وتأبيداً له .

فالمشركين تبادوا في غيهم وأسئلتهم للرسول ﷺ فكانوا يسألون الرسول ﷺ أسئلة تعجيز وتحذ ومبالغة مثل متى الساعة، {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا} [الأعراف: ١٨٧]، فينزل الجواب من الله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف : ١٨٧] .

ومثل ما المراد بالروح {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ} [الإسراء : ٨٥]، فيقول القرآن: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء : ٨٥]

فرد الله عليهم بقوله: {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} [الفرقان : ٣٣]، وحيث عجبوا من نزول القرآن منجماً بين الله لهم الحق في ذلك، فإن تحديهم به مفرقاً مع عجزهم عن الإتيان بمثله أدخل في الإعجاز، وأبلغ في الحجة من أن ينزل جملة ويقال لهم: جيئوا بمثله، ولهذا جاءت الآية عقب اعتراضهم {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِيُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} [الفرقان : ٣٢]، أي: لا يأتونك بصفة عجيبة يطلونها كنزول القرآن جملة إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا وبما هو أبين معنى في إعجازهم وذلك بنزوله مفرقاً (١).

الحكمة الثانية: التدرج في التشريع، وذلك من خلال:

أ- التدرج في انتزاع العادات الضارة، وذلك بالتخلي عنها شيئاً فشيئاً والتدرج في نقل الناس من حياة الفوضى والنقل إلى حياة النظام والتقيد بالمعايير الإسلامية الصحيحة، فقد بُعث النبي ﷺ إليهم وهم يعبدون الأصنام، ويشركون بالله ومع الله، ويسفكون الدماء ويشربون الخمر ويزنون، ويقتلون الأولاد خشية الفقر، ويتعاملون بالربا الفاحش، ويلعبون الميسر، ويستنقسمون بالأزلام، وينكحون نساء الآباء ويجمعون بين الأختين ويكرهون الفتيات على البغاء، وذكر العلماء في كتب التاريخ أن الحروب كانت تقع بين القبائل العربية لأوهى الأسباب ومجرد حب الانتقام، حتى أدى هذا إلى قطع حبال المودة بينهم وجعلهم شيعاً متباغضة يترصد كل فريق منهم بغيره الدوائر، واعتادوا على كثير من هذه الأخلاق المنحطة وتغلغت فيهم حتى صارت جزءاً لا يتجزأ منهم ومن المعلوم أنه يصعب على المرء والمجتمع ترك هذه الأمور مرة واحدة لأن للعقائد حتى ولو كانت باطلة وللعادات ولو كانت مستهجنة سلطناً على النفوس، والناس أسرى ما ألفوا ونشأوا عليه، فلو أن القرآن نزل جملة واحدة وطالبهم بالتخلي عما هم منغمسون فيه من كفر وجهل وشرك مرة واحدة لما استجاب إليه أحد ولكن القرآن نجح معهم في هدم العادات الباطلة وانتزاعها بالتدرج بسبب نزول القرآن عليهم شيئاً فشيئاً (٢).

وأبلغ دليل على ذلك هو انتزاع الخمر من ذلك المجتمع الذي كان يشربه كالماء، فعن أبي هريرة ؓ قال: "حرمت الخمر ثلاث مرات، قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويلعبون الميسر، فسألوا رسول الله عنهما فأنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} [البقرة : ٢١٩]، فقال الناس: ما حرم علينا إنما قال فيها إثم كبير، وكانوا يشربون الخمر حتى إذا كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين أم أصحابه

(١) انظر مباحث في علوم القرآن ٩٤.

(٢) انظر مناهل العرفان ١ ٥٦، المدخل لدراسة القرآن الكريم ٧٢.

في المغرب خَلَطَ في قراءته فأنزل الله فيها آية أغلظ منها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَفْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء : ٤٣]، وكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق، ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة : ٩٠]، فقالوا: انتهينا يا رب، فقال الناس: يا رسول الله ناس قتلوا في سبيل الله أو ماتوا على فرشهم كانوا يشربون الخمر ويلعبون الميسر وقد جعله الله رجساً ومن عمل الشيطان فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة : ٩٣]، فقال النبي ﷺ لو حرمت عليهم لتركوها كما تركتم " (١).

ومن هذا الحديث نستنتج أن الخمر حرمت على مراحل فتاب الناس والصحابة منها حتى جرت في سكك المدينة، ولو حرمت دفعة واحدة لاستمروا عليها، ولذلك تقول عائشة رضي الله عنها "إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل (٢) فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء (لا تشربوا الخمر) لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنا قالوا: لا ندع الزنا أبداً" (٣).

ب-التدرج في تربية هذه الأمة الناشئة علماً وعملاً، فبدأت الآيات تنزل على النبي ﷺ سالكة التدرج في تربية الأمة، فأول ما نزلت الآيات المتعلقة بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره والتوحيد وما يتعلق بذلك من أمور العقيدة، بدأت الآيات أولاً بفظامهم عن الشرك والإباحية وإحياء قلوبهم بعقائد التوحيد والجزاء، فإذا اطمأننت قلوبهم بالإيمان وأشربوا حبه انتقل بهم بعد ذلك إلى العبادات فبدأهم بالصلاة ثم الزكاة ثم الصوم ثم الحج ثم الأمور الأخرى، ولذلك كان مدار الآيات في القسم المكي على إثبات العقائد والفضائل التي لا تختلف باختلاف الشرائع، بخلاف القسم المدني فكان مدار التشريعات فيه على الأحكام العملية وتفصيل ما أجمل قبل ذلك (٤).

لذا أنزل القرآن مفرداً فحصلت النتيجة المطلوبة وهي التغيير في العادات من حسن إلى أحسن ومن شر إلى خير ومن تفرق في الكلمة إلى اتحاد واعتصام بحبل الله المتين فكانت خير الأمم.

الحكمة الثالثة: بيان بلاغة القرآن الكريم فقد نزل مفرداً في ثلاثة وعشرين عاماً، وكلما نزلت آية أو آيات قال لهم الرسول ﷺ "ضعوا هذه الآيات في موضع كذا من سورة كذا" (٥)، ومع ذلك فهو مترابط في الألفاظ والمعاني، حسن التنسيق، محكم النسيج، دقيق السبك، متناسق الآيات والسور، متين الأسلوب، قوي الاتصال، لا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك كأنه عقدٌ فريد نظمت حباته بما لم يعهد له مثيل في كلام البشر {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود : ١].

(١) أخرجه الإمام احمد في المسند، انظر الفتح الرباني، كتاب التفسير، باب قول الله (يسألونك عن الخمر والميسر) ١٨ ٨٥، ٨٦ وإسناده ضعيف، وله شواهد تقويه منها حديث عمر بن الخطاب (اللهم بين لنا في الخمر بيناً شافياً) فنزلت الآيات الثلاثة بالتدرج، حديث صحيح أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٨ ٨٦، وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأشربة، باب في تحريم الخمر ٣ ٣٢٥، وأخرجه الترمذي في سننه كتاب التفسير، باب ومن سورة المائدة ٥ ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥ وأخرجه الحاكم في المستدرک وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ٢ ٢٧٨.

(٢) سور القرآن على أربع أقسام وأنواع فمنها السبع الطوال أولها البقرة، ومنها المئون، والمثاني، والمفصل: ما وليّ المثاني من قصار السور، وسمي بذلك لكثرة الفصول التي بين السور بالبسملة، انظر الإتيقان ١ ١٧٩، ١٨٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن ص ١٠٨٧ (٤٩٩٣).

(٤) المدخل لدراسة القرآن ٧٤.

(٥) الترمذي تفسير القرآن (٣٠٨٦)، أبو داود الصلاة (٧٨٦)، أحمد (٦٩/١).

وكل ذلك فيه دلالة على أن القرآن مُنزلٌ من الله تعالى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزّل من حكيم حميد، وأنه كلام الله تعالى ولا يمكن أن يكون كلام محمد ﷺ ولا كلام مخلوق سواه، وصدق الله إذ يقول: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان : ٦].

الحكمة الرابعة: مسايرة الحوادث والطوارئ في تجدها وتفرقها:

فكانت تحدث حوادث لم يكن لها حكم معروف في الشريعة الإسلامية، فيحتاج المسلمون إلى معرفة ذلك فتنزل الآية من الله تبارك وتعالى لحكم تلك الحوادث، ومن ذلك حادثة خولة بنت ثعلبة^(١)، حين ما جاءت إلى رسول الله ﷺ تستكي زوجها، وتصف لنا ذلك عائشة رضي الله عنها ذلك فتقول "تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ إِيَّيْ لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ وَهِيَ تَسْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ تَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكَلْتُ شَبَابِي وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي حَتَّى إِذَا كَبُرَتْ سِنِّي وَأَنْقَطَعَ وَلَدِي ظَاهَرَ مِنِّي اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغُو إِلَيْكَ فَمَا بَرَحْتَ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهِؤْلَاءِ الْآيَاتِ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَسْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة : ١]"^(٢).

وكذلك حادثة الإفك فعندما حصل ما حصل من المنافقين والمشركين واتهموا السيدة عائشة رضي الله عنها أنزل الله تعالى براءتها من فوق سبع سماوات وأدان الذين رموها بدون شهود ولا بينة فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢)﴾ [النور : ١١ - ١٢]، إلى قوله تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾ [النور : ٢٠]^(٣).

والقرآن مليء بتلك القصص والمواقف المشابهة، ومما هو طبيعي ومعروف أن هذه الحوادث لم تكن لتقع في وقت واحد فنزل القرآن في هذه الحوادث مفرقا لذلك.

الحكمة الخامسة: تنبيه المسلمين من وقت لآخر لأخطائهم التي وقعوا فيها وكيفية تصحيحها، وتحذيرهم من عواقب المخالفة وبيان الامتنان عليهم بالنصر مع القلة، ولنقرأ ما قصه الله تعالى في سورة آل عمران بشأن غزوة بدر وأحد من الامتنان والتنبيه والتحذير، ففي غزوة أحد خالف الرامة نصيحة رسول الله ﷺ متأولين فكانت النتيجة أن أوتي المسلمون من جهتهم وأن شاعت الهزيمة بينهم وشج وجه النبي ﷺ وكسرت رباعيته فأنزل الله تعالى الآيات محذرا المخالفين: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَسِلْتُمْ وَنَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٥٢]^(٤).

وكذلك في غزوة حنين والأحزاب وغير ذلك كثير، ففي يوم حنين أعجب المسلمون بكثرتهم فكانت الهزيمة فقال تعالى لهم: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ

(١) خولة بنت ثعلبة الأنصارية الخزرجية، صحابية، وهي التي ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت، فنزلت فيها سورة قد سمع، الإصابة ٤ ٢٨٩، أسد الغاية ٥ ٤٤٢.

(٢) انظر ابن ماجه، كتاب الطلاق، باب الظهار ١ ١٦٦ (٢٠٦٣)، والنسائي في كتاب الطلاق، باب الظهار ٦ ١٨٦ (٣٤٦٠)، والحديث صحيح.

(٣) انظر الحديث في البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً ص ٥٣٠ (٢٦٦١)، وانظر مسلم في كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٢٧٧٠).

(٤) وانظر القصة في البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد ص ٨٣٢ (٤٠٤٣).

وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتُمْ كَثْرَتَكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَدَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جِزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) [التوبة : ٢٤ - ٢٦]، وتعلم المسلمون من ذلك أن النصر ليس بالعدد والعُدَّة فحسب، وإنما هو من عند الله {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [آل عمران : ١٢٦]"^(١).

الحكمة السادسة: توثيق وقائع السيرة النبوية المباركة والتاريخ، وذلك عن طريق معرفة الحادثة ووقتها وأين كانت ومتى، فنستطيع أن نرتب السيرة النبوية من خلال الحوادث وضمها إلى قصص الأنبياء وسير المرسلين وحياة الأمم السابقين^(٢).
الحكمة السابعة: معرفة الناسخ والمنسوخ:

إن في القرآن الكريم ناسخًا ومنسوخًا ولا يمكن أن يكون ذلك إذا نزل القرآن جملة على المصطفى عليه الصلاة والسلام، إذ لا يُتصور النسخ إلا مع التفريق ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا على تباعد الزمن فإن حكمة التربية الانتقالية قد تقتضي تشريعًا تجيء به آية إلى أجل مسمى ثم تجيء آية أخرى بتشريع آخر، ولا يكون هذا إلا مع تنجيم النزول^(٣).
الحكمة الثامنة: تفضيل القرآن الكريم على غيره من الكتب السماوية :

لقد جمع الله له النزولين : النزول جملة واحدة ، والنزول مفردًا وبذلك شارك الكتب السماوية في الأولى ، وانفرد في الفضل بالثانية ، وهذا يعود بالتفضيل لنبينا محمد ﷺ على سائر إخوانه من الأنبياء - عليهم السلام - وإن الله جمع له من الخصائص ما لغيره ، وزاد عليها^(٤) ، وكذلك تفخيم المنزل وهو القرآن الكريم، وتعظيم قدر من سوف ينزل عليه وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، وتكريم من سوف ينزل إليهم وهم المسلمون. وذلك بإعلام سكان السماوات بأن هذا القرآن آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم^(٥).

يقول السخاوي في جمال القراء: "فإن قيل: ما في إنزاله جملة إلى سماء الدنيا؟ قلت: في ذلك تكريم بني آدم، وتعظيم شأنهم عند الملائكة، وتعريفهم عناية الله عز وجل بهم، ورحمته لهم، ولهذا المعنى أمر سبعين ألفًا من الملائكة لما أنزل سورة الأنعام أن تزفها^(٦).

وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبريل عليه السلام بإملائه على السفارة الكرام البررة - عليهم السلام - وإنساخهم إياه، وتلاوتهم له وفيه أيضا إعلام عباده من الملائكة وغيرهم أنه علام الغيوب لا يغرب عنه شيء إذ كان في هذا الكتاب العزيز ذكر الأشياء قبل وقوعها"^(٧).

يقول السخاوي: "وفيه أيضا التسوية بينه وبين موسى عليه السلام في إنزال كتابه جملة، والتفضيل لمحمد صلى الله عليه وسلم في إنزاله عليه منجما ليحفظه. قال الله عز وجل: { كذلك لنثبت به فؤادك } [الفرقان: ٣٢] وقال عز وجل: { سنقرئك فلا تنسى } [الأعلى: ٦]"^(٨).

وقت نزول القرآن الكريم:

- (١) وانظر منهج الفرقان ٢٦، ٢٧.
- (٢) الواضح في أصول القرآن ٥٢.
- (٣) القرآن الكريم إبراهيم أبو الخشب ٤٤.
- (٤) المرجع السابق .
- (٥) انظر: المرشد الوجيز: ٢٤.
- (٦) قال ابن الصلاح في الخبر الوارد بذلك: وفي إسناده ضعف ولم نر له إسنادا صحيحا.. فتاوى ابن الصلاح (٢٤٨/١).
- (٧) جمال القراء للسخاوي (١ / ٢٠)، وانظر: المرشد الوجيز (٢٧) والإتقان للسيوطي (١ / ٤٩).
- (٨) جمال القراء للسخاوي (١ / ٢٠). وانظر ما استحسنته أبو شامة فنقله من كلام للحكيم الترمذي في تفسيره بهذا الشأن. المرشد الوجيز (٢٦).

أكثر نزول القرآن الكريم نهاراً حضراً، وقد نزل يسير منه في السفر وقليل منه في الليل.
 ١- الآيات والسور المتفق على نزولها ليلاً:
 لقد تتبع العلماء ذلك فذكروا ما وقفوا عليه منه، فمن ذلك:
 أولاً : أواخر آل عمران :

عن عائشة رضي الله عنها أنّ بلالاً أتى النبي ﷺ يُؤذنه لصلاة الصبح فوجده يبكي فقال: يا رسول الله ما يبكيك؟ قال: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} {آل عمران : ١٩٠} إلى قوله: {سبحانك فقنا عذاب النار}. ثم قال: {وَيَلِّ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَنْفَكِرْ فِيهَا} (١) .

وعن إبراهيم بن سويد النخعي حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء قال : دخلت أنا وعبيد ابن عمير على عائشة رضي الله عنها فقال عبد الله بن عمير : حدثينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ ؟ فبكت وقالت : قام ليلة من الليالي فقال : " يا عائشة ! ذريني أتعبد لربي " ، قالت : قلت : والله إني لأحب قربك وأحب ما يسرك قالت: فقام فطهر ثم قام يصلي فلم يزل يبكي حتى بل حجره ، ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، وجاء بلال يؤذنه بالصلاة فلما رآه يبكي قال : يا رسول الله ! تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ ! قال : " أفلا أكون عبدا شكورا ؟ لقد نزلت علي الليلة آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} {آل عمران : ١٩٠} " (٢) .
 فهذه الروايات الصحيحة تؤكد نزول هذه الآيات ليلاً على النبي ﷺ .

ثانياً: آيات الثلاثة الذين خلفوا من سورة التوبة :

فقد جاء عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : سَمِعْتُ أَبِي كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ - وَهُوَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ تَيَّبَ عَلَيْهِمْ - قَالَ : " فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَوْبَتَنَا عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ حِينَ بَقِيَ الثَّلَاثُ الْآخِرُ مِنَ اللَّيْلِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ أُمِّ سَلَمَةَ ، وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مُحْسِنَةً فِي شَأْنِي ، مَعْنِيَّةً فِي أَمْرِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " يَا أُمَّ سَلَمَةَ تَيَّبَ عَلَى كَعْبٍ ، قَالَتْ : أَفَلَا أُرْسِلُ إِلَيْهِ فَأَبْشِرَهُ ؟ قَالَ : " إِذَا يَحْطَمُكَ النَّاسُ فَيَمْتَعُونَكَ النَّوْمَ سَائِرَ اللَّيْلِ ، حَتَّى إِذَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الْفَجْرِ آذَنَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَكَانَ إِذَا اسْتَبَشَرَ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَتْهُ قِطْعَةٌ مِنَ الْقَمَرِ " (٣) .

فهذه الروايات الصحيحة التي هي في البخاري ومسلم من رواية كعب ابن مالك تؤكد نزول هذه الآيات ليلاً بما لا يجعل مجالاً للاختلاف في ذلك ، بل نزلت ليلاً في الثلث الأخير كما قال كعب بن مالك : " فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَوْبَتَنَا عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ حِينَ بَقِيَ الثَّلَاثُ الْآخِرُ مِنَ اللَّيْلِ " (٤)
 ثالثاً : أول سورة الفتح :

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ح رقم ٦٢٠، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣ / ١٧٦) "لعبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا في التفكير ، وابن المنذر ، وابن حبان في صحيحه ، وابن مردويه ، والأصبهاني في الترغيب ، وابن عساكر ، قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم . انظر: صحيح ابن حبان بأحكام الأرنؤوط (٢ / ١٣١) .

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه ح رقم ٦٢٠ ، والمنذري في الترغيب والترهيب ، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب ح رقم ١٤٦٨ ، وفي السلسلة الصحيحة ح رقم ٦٨ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : التفسير ، باب : " وعلى الثلاثة الذين خلفوا " ح رقم ٤٦٧٧ ، ومسلم كتاب : التوبة ، باب : حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ح رقم ٢٧٦٩ .

(٤) من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى لقد تاب الله على النبي .. ٦ / ٢٠٩ ، وفي المغازي باب حديث كعب بن مالك ، ٥ / ١٣٠ وأخرجه مسلم ، كتاب التوبة ، باب حديث توبة كعب ، ٤ / ٢١٢٠ رقم ٢٧٦٩ .

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَسِيرُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَعَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَسِيرُ مَعَهُ لَيْلًا فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَنْ شَيْءٍ فَلَمْ يُجِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : تَكَلَّمْتَ أَمُكَ يَا عُمَرُ نَزَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ كُلُّ ذَلِكَ لَا يُجِيبُنِي ، قَالَ عُمَرُ : فَحَرَكْتُ بَعِيرِي ثُمَّ تَقَدَّمْتُ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ وَخَشِيتُ أَنْ يَنْزَلَ فِيَّ فُرَانٌ فَمَا تَشِيتُ أَنْ سَمَعْتُ صَارِحًا يَصْرُحُ بِي ، قَالَ : قُلْتُ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ فِيَّ فُرَانٌ وَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ : " لَقَدْ أَنْزَلْتُ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةً لَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ثُمَّ قَرَأَ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا" (١) .

فهذه الرواية الصحيحة تؤكد أنها نزلت ليلاً بعد صلح الحديبية بين مكة والمدينة ، كما جاء في الحديث: " لَقَدْ أَنْزَلْتُ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةً لَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ثُمَّ قَرَأَ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا" وليس في ذلك خلاف .
رابعاً : صدر سورة العلق :

لا شك أن الآيات الأولى من القرآن نزلت ليلاً ، وقد ثبت أن ابتداء نزول القرآن كان في شهر رمضان ليلاً ، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)﴾ [البقرة : ١٨٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣)﴾ [الدخان : ٣] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣)﴾ [القدر : ١ - ٣] ، فبركة تلك الليلة ، وشرفها وسمو قدرها ؛ لأن الله تعالى جعلها مبدأ الوحي إلى رسوله الكريم.

قال ابن عاشور: " فيجوز أن يراد به القرآن كله فيكون فعل : (أنزلنا) مستعملاً في ابتداء الإنزال لأن الذي أنزل في تلك الليلة خمس الآيات الأول من سورة العلق ثم فتر الوحي ثم عاد إنزاله منجماً ولم يكمل إنزال القرآن إلا بعد نيف وعشرين سنة ، ولكن لما كان جميع القرآن مقرراً في علم الله تعالى مقداره وأنه ينزل على النبي ﷺ منجماً حتى يتم ، كان إنزاله بإنزال الآيات الأول منه لأن ما ألحق بالشيء يعد بمنزلة أوله " (٢) .

وهذا هو الذي يقتضيه حديث بدء الوحي كما جاء عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ : "أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةَ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بَغَارَ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِي دَوَاتِ الْعَدَدِ - قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَنْزَوُدَ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَنْزَوُدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ : اقْرَأْ ، قَالَ : " مَا أَنَا بِقَارِئٍ " ، قَالَ : فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأْ ، قُلْتُ : " مَا أَنَا بِقَارِئٍ " ، فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأْ فَقُلْتُ : " مَا أَنَا بِقَارِئٍ " فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجِفُ فُوَادُهُ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ : زَمَلُونِي زَمَلُونِي ، فَرَمَلُوهُ حَتَّى دَهَبَ عَنْهُ الرَّوْغُ فَقَالَ لِحَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ : لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي ... " (٣) .
فهو يدل على نزول الوحي عليه في وقت تعبه ليلاً .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: التفسير، باب : سورة الفتح (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) ح رقم ٤٨٣٣ .

(٢) التحرير والتنوير (٣٠ / ٤٥٦) اعتنى به وخرج أحاديث عبد الحميد الدخاني ، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١ ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: بدء الوحي ، باب : بدء الوحي ح رقم ٣ ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب : بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ح رقم ٢٣٠ .

وقد جاء عن وائلة بن الأسقع رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " نزلت صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأُنزِلَتِ التَّوْرَةُ لَيْسَتْ مَضِينٌ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأُنزِلَ الْإِنْجِيلُ لِثَلَاثِ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأُنزِلَ الزَّبُورُ لِثَمَانِ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ ، وَالْقُرْآنُ لِأَرْبَعِ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ " (١) .

قال ابن حجر (ت : ٨٥٢ هـ) : " فيحتمل أن تكون ليلة القدر في تلك السنة كانت تلك الليلة فأنزل فيها جملة إلى سماء الدنيا ثم أنزل في اليوم الرابع والعشرين إلى الأرض أول اقرأ باسم ربك " (٢) .

فهذه الروايات المختلفة تشير إلى أن ابتداء نزول القرآن كان ليلاً، ولا شك أن أول ما نزل من القرآن هو صدر سورة العلق .

خامساً وسادساً : المعوذتان :

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : " أَنْزَلَ أَوْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَاتُ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ الْمُعَوِّذَتَيْنِ " . وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : " أَلَمْ تَرَ آيَاتِ أَنْزَلْتُ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ (فُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) وَ (فُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) " (٣) .

فهذه الروايات الصحيحة تؤكد نزولهما ليلاً .

٢- الآيات والسور المختلف في نزولها ليلاً :

هنالك آيات تكلم العلماء في نزولها ليلاً ؛ ولكن اختلفت فيها أقوالهم بسبب ضعف الرواية وعدم صحتها ، أو لأنها محتملة ، أو لتعارضها مع روايات أخرى ، وهي على النحو التالي :

أولاً : آيات تحويل القبلة :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : بَيَّنَّا النَّاسَ بِقُبَاءٍ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ : " إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنٌ ، وَقَدْ أَمَرَ أَنْ يَسْتَقْبَلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبَلُوهَا ، وَكَانَتْ وَجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ " (٤) .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي نحو بيت المقدس فنزلت : { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ وَهُمْ رُكُوعٌ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَقَدْ صَلَّوْا رَكْعَةً فَنَادَى أَلَا إِنَّ الْقِبْلَةَ قَدْ حُوِّلتْ . فَمَالُوا كَمَا هُمْ نَحْوَ الْقِبْلَةِ " (٥) .

وعن البراء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده - أو قال أخواله - من الأنصار ، وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان يُعجبه أن تكون قبلة قبل البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قومٌ ، فخرج رجل ممن

(١) أخرجه أحمد في المسند ح رقم ١٦٩٨٤ ، والبيهقي في سننه ح رقم ١٨٤٢٩ ، وأبو يعلى في مسنده ح رقم ٢١٩٠ ، والهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ح رقم ٩٥٩ ، وقال: رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه عمران بن داود القطان ضعفه يحيى ووثقه ابن حبان . وقال أحمد : أرجو أن يكون صالح الحديث . وبقيته رجاله ثقات ، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة إسناد حسن ورجاله ثقات ح رقم ١٥٧٥ .

(٢) فتح الباري لابن حجر (٩ / ٥) تحقيق على بن عبد العزيز الشبل ، ورقم وكتبها وأبوها وأحاديثها الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، ط : دار السلام ، الرياض ، ط ١ / ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب : فضل قراءة المعوذتين ، ح رقم ٨١٤ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : التفسير باب : { وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ إِلَى قَوْلِهِ إِنَّكَ إِذَا مَنِ الظَّالِمِينَ } ح رقم ٤٤٩٠ ، ومسلم في كتاب : المساجد ومواضع الصلاة باب : تحويلة القبلة من القدس إلى الكعبة ح رقم ٥٢٦ .

(٥) أخرجه مسلم في كتاب : المساجد ومواضع الصلاة باب : تحويلة القبلة من القدس إلى الكعبة ح رقم ٥٢٧ .

صَلَّى مَعَهُ فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ رَاكِعُونَ فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ مَكَّةَ فَدَارُوا كَمَا هُمْ قَبْلَ النَّبِيِّ" (١).

قال ابن حجر: "الأقوى أن نزولها كان نهاراً ، والجواب عن حديث ابن عمر أن الخبر وصل وقت العصر إلى من هو داخل المدينة وهم بنو حارثة ، ووصل وقت الصبح إلى من هو خارج المدينة وهم بنو عمرو بن عوف أهل قباء ، وقوله قد أنزل عليه الليلة مجاز من إطلاق الليلة على بعض اليوم الماضي والذي يليه " ، وقال السيوطي بعد نقله لكلام ابن حجر " فهذا يقتضي أنها نزلت نهاراً بين الظهر والعصر" (٢).

والأرجح أنها نزلت ليلاً ؛ لأن حديث أنس لا يعارض رواية ابن عمر ، لأن حديث أنس في وقت بلوغ الخبر لبني سلمة كما في قوله : "فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ وَهُمْ رُكُوعٌ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَقَدْ صَلَّوْا رَكْعَةً فَنَادَى أَلَا إِنَّ الْقَبِيلَةَ قَدْ حُوِّلَتْ " ، وابن عمر يتحدث عن وقت نزولها، وقرينة النص تدل على ذلك: " إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ فَرَأَى ، وَقَدْ أَمَرَ أَنْ يَسْتَقْبَلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبَلُوهَا " فهو يتحدث عن نفس الليلة ، وهو يؤكد أنها نزلت ليلاً ، وهي الرواية الوحيدة التي تنص على زمان النزول ، وحديث البراء لا يتحدث عن وقت النزول ، وإنما يتحدث عن أول صلاة صلاها ، وقد تكون هي أول صلاة لراوي الحديث ، ودائماً تقلب النظر والتأمل والتفكير في السماء يكون بالليل أكثر من النهار ، كما أن نزولها ليلاً يواكب مقتضيات التحول ؛ إذ الفجر بداية يوم جديد وهو بداية تحول لعهد جديد، وهو التحول من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام ؛ ولهذا قال القاضي جلال الدين البلقيني (ت : ٨٢٤) : " والأرجح بمقتضى الاستدلال نزولها بالليل لأن قضية أهل قباء كانت في الصبح وبقاء قريية من المدينة فيبعد أن يكون رسول الله أخر البيان لهم من العصر إلى الصبح" (٣) . والله أعلم

ثانياً : آية {اليوم أكملت لكم دينكم} :

عَنْ قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ : "قَالَتِ الْيَهُودُ لِعُمَرَ : لَوْ عَلَيْنَا مَعَشَرَ يَهُودَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } (٣) {المائدة : ٣} نَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي أَنْزَلَتْ فِيهِ لِأَتَّخِذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا. قَالَ عُمَرُ: " فَقَدْ عَلِمْتُ الْيَوْمَ الَّذِي أَنْزَلَتْ فِيهِ وَالسَّاعَةَ وَأَيُّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ نَزَلَتْ . نَزَلَتْ لَيْلَةَ جَمْعٍ وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِعَرَفَاتٍ" (٤) .

وفي رواية أخرى "أنزلت بعرفة ورَسُولُ اللَّهِ ﷺ واقف بعرفة" . وفي رواية: (نزلت عشية عرفة في يوم الجمعة" (٦).

فالرواية الأولى أنها "نزلت ليلة جمع ونحن مع رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بعرفات" ، والرواية الثانية أنها "أنزلت بعرفة ورَسُولُ اللَّهِ ﷺ واقف بعرفة" ، والرواية الثالثة أنها " نزلت عشية عرفة في يوم الجمعة" فهناك اتفاق في المكان في عرفات ، واليوم وهو يوم الجمعة ، وهناك اختلاف في الزمان الذي نزلت فيه، والراجح أنها نزلت يوم عرفة عشية والرسول ﷺ واقف على الموقف لم يدفع، وكان

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : التفسير باب : { سَبَقُوا السُّفَهَاءَ مِنَ النَّاسِ مَا وَأَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } ح رقم ٤٤٨٦ ، ومسلم في كتاب : المساجد ومواضع الصلاة باب : تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة ح رقم ٥٢٥ .

(٢) الإتيان في علوم القرآن (١ / ٤٩) .

(٣) الإتيان في علوم القرآن (١ / ٤٩) .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب : التفسير ، باب (١) ح رقم ٧٧١١ .

(٥) أخرجه مسلم في كتاب التفسير ، باب (١) ح رقم ٧٧١٠ .

(٦) مسند أحمد بن حنبل ح رقم ١٨٨ ، والواحد في أسباب نزول القرآن الكريم (١ / ١٨٢) ، وإسناده صحيح على شرط الشيخين . انظر : مسند أحمد بن حنبل (١ / ٢٨) .

يوم الجمعة، وهذا ما نص عليه عدد من أهل العلم منهم ابن جرير (ت : ٣١٠ هـ)^(١) ، وشيخ الإسلام ابن تيمية^(٢) ، وابن كثير (ت : ٧٧١ هـ)^(٣) ، والسيوطي^(٤) .

قال ابن جرير بعد أن سرد جميع الروايات التي ذكرت في سبب نزولها: " وأولى الأقوال في وقت نزول الآية، القول الذي روي عن عمر بن الخطاب: أنها نزلت يوم عرفة يوم الجمعة، لصحة سنده، وَوَهِيَ أَسَانِيدُ غَيْرِهِ " ^(٥) .

وقال القرطبي " أنها نزلت في يوم الجمعة وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر ورسول الله ﷺ واقف بعرفة على ناقته العضباء ، فكاد عضد الناقة ينقد من ثقلها فبركت " ^(٦) .

وما جاء أنها نزلت ليلة جمع مراد بها عشية عرفة لأن النبي ﷺ دفع بعد المغيب، كما جاء في الحديث: " فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَدَهَبَتِ الصُّفْرَةُ قَلِيلًا حَتَّى غَابَ الْقُرْصُ وَأَرْدَفَ أَسَامَةَ خَلْفَهُ وَدَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ شَنَقَ لِلْقُصْوَاءِ الزَّمَامَ حَتَّى إِنَّ رَأْسَهَا لَيُصِيبُ مَوْزِكَ رَحْلِهِ وَيَقُولُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى : أَيُّهَا النَّاسُ السَّكِينَةُ السَّكِينَةُ " ^(٧) . والله أعلم .

ثالثًا: { والله يعصمك من الناس } من سورة المائدة :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحْرَسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ } [المائدة : ٦٧] ، فَأَخْرَجَ النَّبِيُّ ﷺ رَأْسَهُ مِنَ الثُّبَةِ فَقَالَ : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ انصُرُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ " ^(٨) .

فهذه الرواية وإن لم تنص على وقت النزول ولكن يفهم من دلالات النص أنها نزلت ليلاً ؛ لأن النبي ﷺ كان يحرس ليلاً ، قال السيوطي : " فأخرج رأسه من القبة فقال: يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله . في هذا الحديث دليل على أنها - أي الآية - ليلية نزلت ليلاً فراشية - والرسول في فراشه " ^(٩) .

رابعاً : سورة الأنعام :

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: " نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة ، حولها سبعون ألف ملك يجارون بالتسبيح " ^(١٠) ،

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن (٤ / ٢٦٩٨) .

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠ / ١٥٢) .

(٣) تفسير القرآن العظيم ابن كثير (٣ / ٢٨) .

(٤) الإتيان في علوم القرآن (١ / ٤٤) .

(٥) جامع البيان (٤ / ٢٧٠٣) .

(٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦ / ٦١) .

(٧) أخرجه مسلم في كتاب : الحج ، باب : حجة النبي ﷺ ح رقم ٣٠٠٩ .

(٨) أخرجه الترمذي ح رقم ٣٠٤٦ ، وقال : حديث غريب ، والبيهقي في السنن الكبرى ح رقم ١٨١٨٦ ، والحاكم في المستدرک ح رقم ٣٢٢١ ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وعلق الذهبي في التلخيص : صحيح ، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي .

(٩) تفسير الجلالين (٢ / ٣٣٣) ، ولباب النقول في أسباب النزول للسيوطي (١ / ٨٢) .

(١٠) أخرجه أبو عبيدة في فضائل القرآن ص ١٢٩ ح رقم ٣٧٢ ، والطبراني في المعجم الكبير ح رقم ١٢٩٣٠ ، ورواه ابن الضريس في فضائل القرآن ص ١٥٧ ، والسيوطي في الدر المنثور في التفسير بالماثور (٣ / ٢٤٣) وزاد نسبه لابن مردويه ، وابن كثير في تفسيره (٣ / ٢٣٧) وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف كما في التقريب ص ٦٩٦ برقم ٤٧٦٨ ، وله شاهد من حديث ابن عمر وأنس رضي الله عنهم أخرجهما الطبراني في الصغير (٨١ / ١) والأوسط كما في مجمع البحرين (٦ / ٢٢) ح رقم ٣٣١٦ ، ٣٣١٧ ، وضعف الهيثمي في الزوائد إسناده حيث قال : رواه الطبراني في الصغير وفيه يوسف بن عطية الصفار وهو ضعيف جدا (٧ / ٢٠) ، وقد جاء في الضعفاء الكبير للعقيلي (٩ / ٤٢٢) قال البخاري: يوسف بن عطية منكر الحديث ، وقال محققو كتاب الإتيان في مركز الدراسات القرآنية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة النبوية : " ولعله يتقوى بشواهد ،

فإن صحت هذه الرواية تكون نزلت هذه السورة جملة ليلاً . والله أعلم .

خامساً : سورة مريم :

روى الطبراني عن أبي مريم الغساني قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: ولدت لي الليلة جارية فقال: "والليلة نزلت عليّ سورة مريم سمها مريم" (١)

فالحديث ضعيف لم يصح في سنده ، ولذا لم يثبت في وقت نزولها شيء .

سادساً : أول الحج :

ذكره ابن حبيب ومحمد بن بركات السعدي في كتابه الناسخ والمنسوخ ، وجزم به السخاوي

(ت : ٦٤٣) (٢) .

قال السيوطي في الإتيان : "وقد يستدل له بما أخرجه ابن مردويه عن عمران بن حصين أنها نزلت على النبي ﷺ وقد نعس بعض القوم وتفرق بعضهم فرفع بها صوته الحديث" (٣) ، والحديث جاء عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا هذبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن الحسن، عن عمران بن حصين، قال: "نزلت هذه الآية: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) {الحج : ١} (الحج آية ١) وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ وَقَدْ نَعَسَ بَعْضُ الْقَوْمِ، وَتَفَرَّقَ بَعْضُهُمْ، فَرَفَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَوْتَهُ... " (٤) الحديث .

فلم تنص أي رواية على أن ذلك كان ليلاً إلا رواية الطبراني حيث جاء فيها : "نزلت هذه الآية يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) {الحج : ١} ونحن مع رسول الله ﷺ في سفر وقد نعس بعض القوم وتفرق بعضهم فرفع بها رسول الله ﷺ صوته " علماً بأن جميع الروايات تثبت أنها نزلت في سفر ، وما جاء فيها من قول الراوي " وقد نعس بعض القوم وتفرق بعضهم فرفع بها رسول الله ﷺ صوته" فقط هو الذي يشير للنزول الليلي .

سابعاً : آية الإذن في خروج النسوة في الأحزاب :

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : " خَرَجْتُ سَوْدَةَ بَعْدَمَا ضُرِبَ الْحَجَابُ لِحَاجَتِهَا وَكَانَتْ امْرَأَةً جَسِيمَةً لَا تَخْفَى عَلَيَّ مَنْ يَعْرِفُهَا ، فَرَأَاهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ فَقَالَ : يَا سَوْدَةُ أَمَا وَاللَّهِ مَا تَخْفَيْنَ عَلَيْنَا فَأَنْظِرِي كَيْفَ تَخْرُجِينَ ، قَالَتْ : فَأَنْكَأْتُ رَاجِعَةً وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِي ، وَإِنَّهُ لَيَنْعَسِي وَفِي يَدِهِ عِرْقٌ فَدَخَلْتُ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّي خَرَجْتُ لِيَعُضَ حَاجَتِي فَقَالَ لِي عُمَرُ كَذَا وَكَذَا ، قَالَتْ: فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ ثُمَّ رَفَعَ عَنْهُ وَإِنَّ الْعِرْقَ فِي يَدِهِ مَا وَضَعَهُ فَقَالَ: " إِنَّهُ قَدْ أَذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ " (٥)

وَعَنْ عُرْوَةَ بِنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ أَرْوَاحَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُنَّ يَخْرُجْنَ بِاللَّيْلِ إِذَا تَبَرَّرْنَ إِلَى الْمَنَاصِعِ وَهُوَ صَعِيدٌ أَفِيحٌ وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْبَبُ نِسَاءِكَ . فَلَمْ يَكُنْ

وانظر شواهد في مجمع الزوائد (٧ / ١٩ ، ٢٠) من حديث ابن عمر وأنس وأسماء بنت يزيد مع بعض الاختلاف .

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ح رقم ٨٣٤ وهو ضعيف جدا مداره على سليمان بن سلمة الخبائري ، متروك كما في المغني في الضعفاء للذهبي (٢٨٠/١) وبه ضعفه الهيثمي في المجمع (٥٥/٨) ، وفيه أيضاً : أبو بكر بن أبي مريم ضعيف كما في التقريب ص ١١١٦ برقم ٨٠٣١ . وانظر : الإتيان للسيوطي (١٤٢/١) .

(٢) جمال القراء وكمال الإقراء (١٤/١) .

(٣) الإتيان في علوم القرآن (١٤٢ /١) .

(٤) الحديث أخرجه أحمد في المسند ح رقم ١٩٩١٥ ، النسائي ح رقم ٦٠٤ ، والترمذي ح رقم ٣١٦٨ ، والحاكم في المستدرک (٣٦/١) ، الطبراني في المعجم الكبير ح رقم ٣٤٠ ، وقال الترمذي صحيح الإسناد ، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي ، وقال الحاكم : صحيح على شرطهما جميعاً ولم يخرجاه ولا واحد منهما ، وقال الذهبي: صحيح الإسناد .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : التفسير ، باب : سورة الأحزاب ح رقم ٤٥١٦ ، ومسلم كتاب : السلام ، باب : إباحة الخروج للنساء لقضاء الحاجة ح رقم ٥٧٩٦ .

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَفْعَلُ فَخَرَجَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي عِشَاءً وَكَانَتْ امْرَأَةً طَوِيلَةً فَنَادَاهَا عُمَرُ أَلَا قَدْ عَرَفْنَاكَ يَا سَوْدَةُ. حِرْصًا عَلَى أَنْ يُنْزَلَ الْحَجَابُ . قَالَتْ عَائِشَةُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْحَجَابَ" (١).

قال القاضي جلال الدين البلقيني: " وإنما قلنا أن ذلك كان ليلاً لأنهن إنما كن يخرجن للحاجة ليلاً كما في الصحيح عن عائشة في حديث الإفك" (٢).

فهذه الروايات ليس فيها ما ينص على نزولها في الليل ولكنها محتملة .

ثامناً : قوله تعالى: { وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا الْمَاءُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضَيِّفُ هَذَا ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ : أَنَا فَأَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ فَقَالَ : أَكْرَمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَتْ : مَا عِنْدَنَا إِلَّا فَوْتُ صِيبَانِي ، فَقَالَ : هَيْبِي طَعَامَكَ وَأَصْبِحِي سِرَاجَكَ وَتَوَمِّي صِيبَانِكَ إِذَا أَرَادُوا عِشَاءً فَهَيَّاتِ طَعَامَهَا وَأَصْبِحْتِ سِرَاجَهَا وَتَوَمْتِ صِيبَانَهَا ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصَلِّحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ فَجَعَلَا يَرِيَانَهُ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ فَبَاتَا طَاوِيئِينَ فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ أَوْ عَجِبَ مِنْ فَعَالِكُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ { وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) } [الحشر : ٩] (٣) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : " أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَابَنِي الْجَهْدُ ، فَأَرْسَلْ إِلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ لَامْرَأَتِهِ : ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا تَدَخِرِيهِ شَيْئًا ، قَالَتْ : وَاللَّهِ مَا عِنْدِي إِلَّا فَوْتُ الصَّيْبَةِ قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصَّيْبَةُ الْعِشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ وَتَعَالِي فَأَطْفِئِي السَّرَاجَ وَتَطْوِي بَطُونَنَا اللَّيْلَةَ فَفَعَلْتُ ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ ضَحِكَ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) } [الحشر : ٩] (٤) .

فليس فيها ما هو صريح في وقت نزولها على أنها نزلت ليلاً ، ولكنها محتملة ، لأنه قد

يكون هنالك تراخ بين سبب النزول ووقت النزول .

تاسعاً : سورة المنافقون :

عَنْ السُّدِّيِّ عَنِ أَبِي سَعْدٍ الْأَزْدِيِّ حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ قَالَ : " عَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ مَعَنَا أَنَسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ فَكُنَّا نَبْتَدِرُ الْمَاءَ ، وَكَانَ الْأَعْرَابُ يَسْبِقُونَا إِلَيْهِ ، فَسَبَقَ أَعْرَابِيٌّ أَصْحَابَهُ فَيَسْبِقُ الْأَعْرَابِيُّ فَيَمْلَأُ الْحَوْضَ وَيَجْعَلُ حَوْلَهُ حِجَارَةً وَيَجْعَلُ النَّطْعَ عَلَيْهِ حَتَّى يَجِيءَ أَصْحَابُهُ ، قَالَ : فَأَتَى رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَعْرَابِيًّا فَأَرْخَى زِمَامَ نَاقَتِهِ لِيَتَشْرَبَ فَأَبَى أَنْ يَدَعَهُ فَانْتَزَعَ قِبَاضَ الْمَاءِ فَرَفَعَ الْأَعْرَابِيُّ خَشْبَتَهُ فَضْرَبَ بِهَا رَأْسَ الْأَنْصَارِيِّ فَشَجَّهُ ، فَأَتَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَأْسٍ الْمُنَافِقِينَ فَأَخْبَرَهُ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ فَعَضِبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي تَمِّمٍ قَالَ : لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَبْفَضُوا مِنْ حَوْلِهِ . يَعْنِي الْأَعْرَابُ ، وَكَانُوا يَحْضُرُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ الطَّعَامِ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ إِذَا انْفَضُوا مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ فَأَتُوا مُحَمَّدًا بِالطَّعَامِ فَلْيَأْكُلْ هُوَ وَمَنْ عِنْدَهُ ، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ : لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، قَالَ زَيْدٌ : وَأَنَا رَدِفُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي فَاخْبَرْتُ عَمِّي فَأَنْطَلِقُ فَأَخْبِرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَلَفَ وَجَدَّ قَالَ : فَصَدَّقَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب : السلام ، باب : إباحة الخروج للنساء لِقضاء حاجة الإنسان ح رقم ٥٧٩٩ .

(٢) إتمام الدراية لقراء النقاية، للسيوطي (١ / ٢٤) ، والإتقان في علوم القرآن (١ / ١٤٤) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب : مناقب الأنصار ، باب : قول الله { وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } ح رقم ٣٧٩٨ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب : مناقب الأنصار ، باب : قول الله { وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } ح رقم ٤٨٨٩ .

وَكَذَّبَنِي ، قَالَ : فَجَاءَ عَمِّي إِلَيَّ فَقَالَ : مَا أَرَدْتَ إِلَّا أَنْ مَقَّتَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَذَّبَكَ وَالْمُسْلِمُونَ ، قَالَ : فَوَقَعَ عَلَيَّ مِنَ الْهَمِّ مَا لَمْ يَقَعْ عَلَى أَحَدٍ ، قَالَ : فَبَيْنَمَا أَنَا أُسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ قَدْ خَفَقْتُ بِرَأْسِي مِنَ الْهَمِّ إِذْ أَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَعَرَاكَ أُنْدِي وَضَحَكَ فِي وَجْهِهِ فَمَا كَانَ يَسْرُنِي أَنْ لِي بِهَا الْخُلْدُ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لِحَقْنِي فَقَالَ : مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ قُلْتُ : مَا قَالَ لِي شَيْئًا إِلَّا أَنَّهُ عَرَاكَ أُنْدِي وَضَحَكَ فِي وَجْهِهِ ، فَقَالَ : أَبْشِرْ ثُمَّ لِحَقْنِي عُمُرُ فَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ قَوْلِي لِأَبِي بَكْرٍ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سُورَةَ الْمُنَافِقِينَ " (١) .

وفي ذلك دليل على نزولها ليلاً وتلاوتها للناس بعد أن أصبحوا . والله أعلم .

عاشراً : سورة المرسلات :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَارٍ فَنَزَلَتْ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْقًا فَإِنَّا لَنَتَلَقَّاهَا مِنْ فِيهِ إِذْ خَرَجَتْ حَيَّةٌ مِنْ جُحْرٍهَا فَابْتَدَرْتَاهَا لِنَقُلَّهَا فَسَبَقَتْنَا فَدَخَلَتْ جُحْرَهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " وَقِيَّتْ شَرَّكُمْ كَمَا وَقِيئُمْ شَرَّهَا " (٢) .

وفي رواية أخرى له في البخاري : " قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَارٍ بِمِنَى إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِ وَالْمُرْسَلَاتِ وَإِنَّهُ لَيَتْلُوهَا وَإِنِّي لَأَتَلَقَّاهَا مِنْ فِيهِ وَإِنَّ فَاهُ لَرَطْبٌ بِهَا إِذْ وَتَبَّتْ عَلَيْنَا حَيَّةٌ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : اقْتُلُوهَا فَابْتَدَرْتَاهَا فَدَهَبَتْ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : وَقِيَّتْ شَرَّكُمْ كَمَا وَقِيئُمْ شَرَّهَا " (٣) .

قال السخاوي في جمال القراء : " روي عن ابن مسعود أنها نزلت على رسول الله ﷺ ليلة الجن بحراء " (٤) .

قال السيوطي : " قلت هذا أثر لا يعرف ثم رأيت في صحيح الإسماعيلي وهو مستخرجه على البخاري أنها نزلت ليلة عرفة بغار منى ، وهو في الصحيحين بدون قوله ليلة عرفة ، والمراد بها ليلة التاسع من ذي الحجة فإنها التي كان النبي ﷺ يبيتها بمنى " (٥) .
فإن صحت هذه الرواية تكون دليلاً على نزولها ليلاً . والله أعلم .

وقد ذكر أبو القاسم الحسن بن محمد النيسابوري (ت ٤٠٦) في كتابه التنبيه على فضل علوم القرآن من وجوه شرف علوم القرآن؛ معرفة تفصيل نزول القرآن الكريم زماناً، ومكاناً، وأوصافاً. فقال:

"من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة والمدنية، وما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكّي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول المكّي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكّي، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلاً، وما نزل نهاراً، وما نزل مشيعاً، وما نزل مفرداً، والآيات المدنيات، وما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة، وما حمل من المدينة إلى الحبشة، وما نزل مجملاً، وما نزل مفسراً، وما اختلف فيه فقال بعضهم: مدني، وقال بعضهم: مكّي، فهذه خمسة وعشرون وجهاً من لم يعرفها، ويميز بينها، لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى" (٦) .

(١) أخرجه الترمذي ح رقم ٣٣١٣ ، والطبراني في المعجم الكبير ح ٥٠٤١ ، وابن أبي شيبة في مسنده ح رقم ٥٢١ وقال الترمذي : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، وقال الألباني في حكمه على أحاديثه : صحيح الإسناد .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الحج ، باب : خَمْسٌ مِنَ الدَّوَابِّ قَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ فِي الْحَرَمِ ح رقم ٣٣١٧ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الحج ، باب : مَا يُقْتَلُ الْمُحْرَمُ مِنَ الدَّوَابِّ ح رقم ١٨٣٠ .

(٤) جمال القراء وكمال الإقراء (١ / ١٤٦) .

(٥) الإيقان في علوم القرآن (١ / ٥١) .

(٦) التنبيه على فضل علوم القرآن. لأبي القاسم النيسابوري. منشور في مجلة المورد العراقية. بتحقيق محمد عبد الكريم كاظم. عدد (٤)، مجلد (١٧)، عام ١٤٠٩هـ. الصفحات (٣٠٥-٣٢٢).

وقد فسرت وفصلت هذه الأنواع مع التمثيل لها بما وردت به الروايات في البرهان للزركشي، والإتقان للسيوطي، والزيادة والإحسان لابن عقيلة المكي مما لا حاجة معه لزيادة الكلام في بسطه ونقله^(١).

وما ذكره النيسابوري هنا من وجوب معرفة هذه الأنواع والتمييز بينها وجعل ذلك شرطاً للتفسير لا يسلم له وفيه نظر. فليس كله مما له أثر في التفسير.

مدة نزول القرآن الكريم:

اختلف العلماء في تحديد مدة نزول القرآن الكريم □ على الرسول صلى الله عليه وسلم على أقوال:

أحدها: أنها ثماني عشرة سنة. روي هذا القول غير المشتهر عن الحسن . وأنه كان يقول ذكر لنا أنه كان بين أوله وآخره ثماني عشرة سنة، وأنه أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ثماني سنين في مكة قبل الهجرة وعشر سنين بعدها^(٢).

وهو قول ضعيف ينتج عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم توفي عن ثمان وخمسين سنة وهو ما لم يقل به أحد.

قال ابن عطية: "وهذا قول مختل لا يصح عن الحسن والله أعلم"^(٣).

والثاني: أنها عشرون سنة. روي عن ابن عباس، وعكرمة، والشعبي وقتادة، واختاره ابن جزي الكلبي^(٤).

والثالث: أنها ثلاث وعشرون سنة. وهو قول الجمهور^(٥).

والرابع: أنها خمس وعشرون سنة. وهو قول من يذهب إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم عاش خمساً وستين سنة خلافاً للمشهور^(٦).

وتجدر الإشارة بأن منشأ هذا الاختلاف يعود إلى عدة أسباب:

أحدها: الخلاف في مدة إقامته-عليه الصلاة والسلام-بمكة بعد البعثة، فقيل: ثمان، وقيل عشر، وقيل ثلاث عشرة، وقيل خمس عشرة سنة. بناء على اختلاف الروايات في ذلك. فإذا أضيف إليها عشر سنين وهي مدة إقامته-عليه الصلاة والسلام-بالمدينة بعد الهجرة المتفق عليها كما نص على ذلك ابن كثير حيث قال: "أما إقامته بالمدينة عشراً فهذا مما لا خلاف فيه"^(٧)، فينتج عن ذلك الأقوال السابقة.

والثاني: ومن الأسباب كذلك: اختلاف الاعتبار الذي يبدأ منه حساب تلك المدة، هل هو من بداية الرؤيا الصادقة، أو من البعثة التي تلاها فتور في نزول الوحي، أو من الرسالة وتتابع الوحي بعد ذلك.

(١) انظر البرهان للزركشي (١ / ١٩٢)، والإتقان للسيوطي (١ / ٣٦-) والزيادة والإحسان لابن عقيلة المكي (١ / ٢٦٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٥ / ١٧٩-١٨٠)، والمحرم الوجيز: (١٠ / ٣٧٥)، وزاد المسير: (١ / ٥)، والبحر المحيط: (٦ / ٨٧)، فضائل القرآن، لابن الضريس: (٧٤).

(٣) المحرم الوجيز: ٣٥٧/١٠.

(٤) تفسير ابن جزي الكلبي (١ / ٦، ٤ / ٢١٠).

(٥) انظر البرهان (١ / ٢٢٨)، والإتقان ١ / ١٤٦ وانظر علوم القرآن من خلال مقدمات التفاسير، رسالة دكتوراه، د. محمد صفاء حقي، ٢ / ٤١٢.

(٦) انظر البرهان (١ / ٢٢٨)، والإتقان ١ / ١٤٦ وانظر علوم القرآن من خلال مقدمات التفاسير، رسالة دكتوراه، د. محمد صفاء حقي، ٢ / ٤١٢.

(٧) فضائل القرآن لابن كثير. بتحقيق: ابن إسحاق الحويني الأثري: ٣٦.

والثالث: ومنها ايضا: التسامح والتساهل في تحديد الوقت، وجبر الكسور في حساب السنوات اختصارا وعادة، يقول ابن كثير: "إن العرب كثيرا ما يحذفون الكسور من كلامهم"^(١). والرابع: ومنها: الخلاف في عمره -عليه الصلاة والسلام-. حيث قيل إنه ستون سنة، وقيل ثلاث وستون، وقيل خمس وستون.

والمعتمد كما يقول ابن حجر أنه صلى الله عليه وسلم عاش ثلاثا وستين سنة وأن ما ورد مما يخالف ذلك فهو محمول إما على إلغاء الكسر في السنين أو جبر الكسر في الشهور^(٢). وأضاف ابن كثير معنى جديدا في الجمع وهو: اعتبار قرن جبريل بالرسول صلى الله عليه وسلم في نزول الوحي حيث روي أنه قرن به عليه السلام ميكائيل في ابتداء الأمر. يلقي إليه الكلمة والشيء ثم قرن به جبريل^(٣).

كما أنه بعث صلى الله عليه وسلم على رأس أربعين سنة. كما قال النووي: "واتفقوا أنه صلى الله عليه وسلم أقام بالمدينة بعد الهجرة عشر سنين وبمكة قبل النبوة أربعين سنة وإنما الخلاف في قدر إقامته بمكة بعد النبوة وقبل الهجرة. والصحيح أنها ثلاث عشرة فيكون عمره ثلاثا وستين وهذا الذي ذكرناه أنه بعث على رأس أربعين سنة هو الصواب المشهور الذي أطبق عليه العلماء"^(٤).

وقد حاول الشيخ محمد الخضري اختيار تحديد دقيق للمدة فذكر أن مدة مقامه صلى الله عليه وسلم بمكة هي اثنتا عشرة سنة، وخمسة أشهر، وثلاثة عشر يوما من يوم ١٧ رمضان سنة ٤١ من ميلاده الشريف إلى أول ربيع الأول سنة ٥٤ منه.

ومدة إقامته بالمدينة بعد الهجرة هي تسع سنوات، وتسعة أشهر، وتسعة أيام من أول ربيع الأول سنة ٤٥ إلى تاسع ذي الحجة سنة ٦٣ من ميلاده الشريف، وهي سنة عشر من هجرته صلى الله عليه وسلم^(٥).

فصارت المدة بين مبتدأ التنزيل ومختمه اثنتان وعشرون سنة وشهران واثان وعشرون يوما^(٦).

وهذا التحديد هو ما أشار إليه الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه مناهل العرفان حيث ذكره وتعقبه فقال: "لكن هذا التحقيق لا يزال في حاجة إلى تحقيقات ثلاث: ذلك لأنه أهمل من حسابه باكورة الوحي إليه صلى الله عليه وسلم عن طريق الرؤيا الصادقة ستة أشهر على أنها ثابتة في الصحيح. ثم جرى فيه على أنه ابتداء نزول القرآن كان ليلة السابع عشر من رمضان وهي ليلة القدر على بعض الآراء، غير أنه يخالف المشهور الذي يؤيده الصحيح. ثم ذهب فيه مذهب القائلين بأن آخر ما نزل من القرآن هو آية: {اليوم أكملت لكم دينكم} [المائدة: ٣] وذلك في تاسع ذي الحجة سنة عشر من الهجرة، وسترى في مبحث آخر ما نزل من القرآن أن هذا المذهب غير صحيح"^(٧)^(٨).

(١) فضائل القرآن لابن كثير: ٣٦.

(٢) انظر: فتح الباري: ٤/٩.

(٣) فضائل القرآن الكريم لابن كثير: ٣٦.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي (١٥ / ٩٩)، وانظر الزيادة والإحسان (١ / ٢٥٢).

(٥) انظر تاريخ التشريع الإسلامي للشيخ محمد الخضري بك. ص ٨، وتاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني ص ٧١. فقد ذكر تحديد الفترة المكية كما هنا.

(٦) انظر: تاريخ التشريع: ٥.

(٧) الصواب في آخر ما نزل، قوله تعالى: {واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون} [البقرة / ٢٨١]

(٨) مناهل العرفان: ٤٥/١.

ومما يعترض به على هذا التحديد أن يوم الفرقان ١٧ رمضان هو يوم الجمعة يقول الخضري عن يوم الفرقان، ويوم ابتداء إنزال القرآن الكريم: "...فهما متحدان في الوصف، وهو أنهما جميعا يوافقان الجمعة ١٧ رمضان وإن لم يكونا في سنة واحدة"^(١). والقول بأن يوم ابتداء إنزال القرآن يوافق يوم الجمعة معارض لما ثبت في صحيح مسلم عن يوم الاثنين وقوله صلى الله عليه وسلم حين سئل عنه: "ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت - أو أنزل علي فيه"^(٢).

كما حدد الشيخ محمد محمد أبو شهبة مدة نزول القرآن الكريم بأنها اثنتان وعشرون سنة وخمسة أشهر، ونصف الشهر. راعى في هذا التحديد ما ذهب إليه الجمهور من أنه صلى الله عليه وسلم ولد في الثاني عشر من ربيع الأول عام الفيل، وتوفي في الثاني عشر أيضا من ربيع الأول عام إحدى عشرة من الهجرة.

وبين ذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم نبئ على رأس الأربعين من ميلاده الشريف وذلك من الثاني عشر من ربيع الأول وقد بدئ الوحي إليه بالرؤيا الصادقة ومكث على ذلك إلى السابع عشر من رمضان وجملة ذلك ستة أشهر وخمسة أيام حين نزل عليه صدر سورة اقرأ. وآخر آية نزلت عليه من القرآن هي قوله تعالى: { واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله } [البقرة: ٢٨١]، وقد روي أن ذلك قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بتسعة أيام، وقيل بأحد عشر يوما، وقيل بواحد وعشرين يوما فلو أخذنا بالمتوسط تكون جملة المدة التي لم ينزل فيها القرآن ستة أشهر وستة عشر يوما. وجملة عمر صلى الله عليه وسلم ثلاث وستون عاما، ومدة نبوته ثلاث وعشرون سنة فإذا أنقصنا منها ستة أشهر وستة عشر يوما يكون الباقي اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر وأربعة عشر يوما.

ثم قال أبو شهبة بعد هذا معبرا عن فرحه به: "والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. ثم انتقد حساب الخضري السابق بأنه بني على أن آخر آية نزلت هي قوله تعالى: { اليوم أكملت لكم دينكم } [المائدة: ٣]"^(٣).

وما ذكره أبو شهبة - رحمه الله - من تحديد فيه نظر كذلك. إذ جعل يوم السابع عشر من رمضان بداية إنزال القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم وقد تقدم أنه يوافق يوم الجمعة - على قول الخضري - وأنه بهذا يعارض ما ثبت في الصحيح، وكذلك أنه بناه على الأخذ بأحد الأقوال في مدة بقاء الرسول صلى الله عليه وسلم بعد آخر آية نزلت عليه دون دراسة ترجيحية له. فيبقى ملخص القول أن المدة نحو من ثلاث وعشرين سنة تقريبا لا تحديدا^(٤).

يوم إنزال القرآن:

الصحيح أن أول يوم أنزل فيه القرآن هو يوم الاثنين. لحديث أبي قتادة الأنصاري الصحيح، وفيه: وسئل عن صوم يوم الاثنين. قال: "ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت - أو أنزل علي فيه"^(٥). وفي رواية أخرى: ..فقال: "فيه ولدت، وفيه أنزل علي"^(٦).

(١) تاريخ التشريع ص: ٦٧، ٦٨

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث طويل (٢ / ٨١٩) رقم (١١٦٢). وراجع ص(٤٩).

(٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم: ٥٦، ٥٥.

(٤) انظر: نزول القرآن الكريم والعناية به في عهد النبي-صلى الله عليه وسلم-، عبدالودود مقبول حنيف(بحث منشور في الشبكة الالكترونية). (بتصرف بسيط).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث طويل. كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام، حديث ١١٦٢، (٢ / ٨١٩).

(٦) صحيح مسلم (٢ / ٨٢٠).

وأخرج الواحدي عن أبي قتادة: " أن رجلا قال لرسول الله: أرأيت صوم يوم الإثنين: " قال فيه أنزل علي القرآن" (١).

وقد ذكر ابن سعد في طبقاته عن ابن عباس قال: "نبئ نبيكم صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين" (٢).

وعن أنس قال: استتبأ النبي صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين (٣).

قال الواحدي: "وأول يوم أنزل القرآن فيه يوم الإثنين" (٤).

وذكر البلقيني أنه يوم الإثنين نهرا (٥).

ولذا قال ابن القيم: "ولا خلاف أن مبعثه -صلى الله عليه وسلم- كان يوم الإثنين" (٦).

وقال ابن كثير: "وهكذا قال عبيد بن عمير وأبو جعفر الباقر وغير واحد من العلماء أنه -

عليه الصلاة والسلام- أوحى إليه يوم الإثنين. وهذا ما لا خلاف فيه بينهم" (٧).

شهر إنزال القرآن الكريم:

اختلف في شهر إنزال القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم، على أقوال:

الأول: أنه شهر رجب، في السابع عشر منه. وهو قول غير مشهور لكنه مذكور (٨).

الثاني: أنه في شهر ربيع الأول. قيل في أوله، والمشهور في ثامن سنة إحدى وأربعين من عام الفيل. وقد جعله ابن القيم قول الأكثرين (٩).

وقيل في الثاني عشر من ربيع الأول يوم الإثنين كما روي عن جابر وابن عباس أنهما قالوا:

ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول، وفيه بعث، وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر، وفيه مات (١٠).

وعن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم

الاثنين في ربيع الأول، وأنزلت عليه النبوة يوم الإثنين في أول شهر ربيع الأول وأنزلت عليه البقرة في ربيع الأول (١١).

الثالث: أنه في شهر رمضان، قال الواحدي: "وأول شهر أنزل فيه القرآن شهر رمضان" (١٢)، قال الله تعالى: { شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن } [البقرة: ١٨٥].

وجعله ابن كثير: المشهور. فقال: والمشهور أنه بعث عليه الصلاة والسلام في شهر

رمضان كما نص على ذلك عبيد بن عمير، ومحمد بن إسحاق وغيرهما (١٣).

(١) أسباب النزول للواحدي: ١٣-١٤.

(٢) طبقات ابن سعد: ١ / ١٩٣.

(٣) طبقات ابن سعد: ١ / ١٩٤.

(٤) أسباب النزول للواحدي. تحقيق السيد أحمد صقر: ١٣.

(٥) فتح الباري: ٣٥٦/١٢.

(٦) زاد المعاد: ١ / ١٨.

(٧) السيرة النبوية لابن كثير: ١ / ٣٩٢.

(٨) انظر: فتح الباري - كتاب التعبير (١٢ / ٣٥٧). وزاد المعاد لابن القيم (١ / ١٨). والزيادة والإحسان لابن عقيلة المكي (١ / ٢٥٠).

(٩) انظر المصادر السابقة.

(١٠) انظر السيرة النبوية لابن كثير (١ / ١٩٩)، و(١ / ٣٩٢). وقال: رواه ابن أبي شيبه في مصنفه عن عفان عن سعيد بن ميناء عنهما.

(١١) ذكره ابن كثير في السيرة النبوية (١ / ٢٠٠) بسنده وقال عنه: وهذا غريب جدا، رواه ابن عساكر.

(١٢) أسباب النزول للواحدي: ١٤.

(١٣) انظر السيرة النبوية: ١ / ٣٩٢.

قال ابن القيم : " وإليه ذهب جماعة منهم يحيى الصرصري حيث يقول في نونيته: شمس النبوة منه في رمضان، وأنت عليه أربعون فأشرققت"^(١).

وقال ابن إسحاق : ابتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنزيل في رمضان - ثم استدل له فقال- قال الله تعالى: { شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن } [البقرة: ١٨٥] وقال سبحانه: { إنا أنزلناه في ليلة القدر } [القدر: ١] وقال تعالى: { إنا أنزلناه في ليلة مباركة } [الدخان: ٣]^(٢).
واختلف في أي الأوقات من رمضان: فقيل في سابعه^(٣)، وقيل في الرابع عشر^(٤)، وقيل في السابع عشر منه.

فقد أخرج ابن سعد عن الواقدي عن أبي جعفر الباقر، قال نزل الملك على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان. ورسول الله يومئذ ابن أربعين سنة. وجبريل الذي كان ينزل عليه بالوحي^(٥).
وقيل في الرابع والعشرين من رمضان، قال أبو عبد الله الحلبي : "يريد ليلة خمس وعشرين"^(٦).

وقال ابن كثير : "ولهذا ذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن ليلة القدر ليلة أربع وعشرين"^(٧).

واستدل لهذا بحديث واثلة بن الأسقع^(٨).
وجعله السخاوي في النزول المباشر على الرسول صلى الله عليه وسلم فقال بعد أن ساقه بنحوه: "فهذا الإنزال يريد به - صلى الله عليه وسلم أول نزول القرآن عليه- ثم قال: وقوله عز وجل: { إنا أنزلناه في ليلة القدر } يشمل الإنزالين"^(٩).
أما البيهقي فقد حمل حديث واثلة بن الأسقع على أن المراد به الإنزال جملة فقال: "قلت: وإنما أراد - والله أعلم - نزول الملك بالقرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا"^(١٠).
ويشهد لهذا المعنى ما رواه ابن أبي شيبة عن أبي قلابة قال: "أنزلت الكتب كاملة ليلة أربع وعشرين من رمضان"^(١١).

(١) زاد المعاد: ١ / ١٨.

(٢) انظر: مختصر السيرة لابن هشام (٣٩) والسيرة النبوية للذهبي (٧٥).

(٣) انظر فتح الباري (١٢ / ٣٥٦).

(٤) انظر فتح الباري (١٢ / ٣٥٦).

(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات بسنده (١ / ١٩٤). وانظر: السيرة النبوية لابن كثير (١ / ٣٩٢) والزيادة والإحسان في علوم القرآن لابن عقيلة المكي (١ / ٢٥٠-٢٥١). وانظر: تاريخ التشريع للخضري (٦٠٧). فقد ذكر هذا التاريخ لكن جعله يوم الجمعة.

(٦) المرشد الوجيز لأبي شامة (١٣).

(٧) السيرة النبوية لابن كثير (١ / ٣٩٢).

(٨) أخرجه أحمد في المسند (٤ / ١٠٧) وأبو عبيد في فضائل القرآن (٣٦٨) وأخرجه ابن الضريس بسنده عن أبي الخلد (٧٤) بزيادة في آخره. وابن جرير في تفسيره (٢ / ١٤٥). والواحد في أسباب النزول (١٤). والطبراني في المعجم الكبير (٢٢ / ٧٥) حديث (١٨٥). غير أنه وقع في النسخة: «وأنزل القرآن لأربع عشرة» بدلا من أربع وعشرين. فلعله خطأ. وذكره الألباني في الصحيح رقم (١٥٧٥) وقال عنه: «هذا إسناد حسن، رجاله ثقات، وفي القطن كلام يسير، وله شاهد من حديث ابن عباس مرفوعا نحوه، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (١، ٣٦٧)، وقال عنه: خالفه عبيد الله بن أبي حميد وليس بالقوي فرواه عن أبي المليح عن جابر بن عبد الله من قوله. ورواه إبراهيم بن طهمان عن قتادة من قوله لم يجاوز به إلا أنه قال: لاثنتي عشرة» وكذلك وجدته جرير بن حازم في كتاب أبي قلابة دون ذكر صحف إبراهيم. وانظر السيرة النبوية لابن كثير (١ / ٣٩٣). وتفسير الماوردي بتحقيق الباحث (٢ / ٥٦٩) والمرشد الوجيز (١٢) والزيادة والإحسان لابن عقيلة المكي (١ / ٢٥٢).

(٩) جمال القراء: (١ / ٢٢).

(١٠) الأسماء والصفات للبيهقي (١ / ٣٦٧)، والمرشد الوجيز (١٤).

وقد ذهب صفي الرحمن المباركفوري في كتابه الرحيق المختوم إلى تحديد دقيق، ورأي جديد وهو أن يوم نزول القرآن وشهره كان يوم الاثنين لإحدى وعشرين مضت من رمضان ليلاً. الموافق عشرة أغسطس سنة ٦١٠م، وكان عمره صلى الله عليه وسلم إذ ذاك أربعون سنة قمرية وستة أشهر و١٢ يوماً، وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر و٢٢ يوماً.

وهو قول لم يقل به أحد قبله وقد بناه على ما يأتي^(٢):

أولاً: كونه يوم الاثنين بناء على ما صح من حديث أبي قتادة الأنصاري وفيه ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت أو أنزل علي فيه، وهو ما اتفق عليه أهل السير.
ثانياً: وكونه شهر رمضان عملاً بالآيات الثلاث في سور: البقرة، الدخان، والقدر. وكونه شهر الجوار والتحنث بحراء.

ثالثاً: كونه لإحدى وعشرين مضت من رمضان. بناء على أن حساب التقويم العلمي لذلك الشهر في تلك السنة لا يوافق يوم الاثنين إلا يوم السابع، والرابع عشر، والحادي والعشرين، والثامن والعشرين. ولأن ليلة القدر إنما تقع في الوتر من ليالي العشر من شهر رمضان، تعين كون ذلك يوم واحد وعشرين^(٣).

وهذا جهد طيب ومنهج جيد في التحديد إلا أنه يرد عليه ما يأتي^(٤):

أولاً: أن كون ذلك يوم الاثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلاً. يجعل تلك الليلة هي ليلة الثلاثاء اثنتين وعشرين فلا تصير بذلك من ليالي الوتر التي تتحرى بها ليلة القدر^(٥).
ثانياً: أن الاستدلال بالآيات الثلاث في سور: البقرة، والدخان، والقدر. على ابتداء النزول ليس صريحاً، وقد فسرت بأن المراد بها النزول جملة إلى السماء الدنيا. وهو ما يتفق مع الروايات الأخرى الواردة عن ابن عباس وغيره في ذلك.

ثالثاً: أن حمله تلك الآيات على ابتداء النزول يعني أن ليلة القدر صارت معروفة على وجه اليقين لأن معرفة ابتداء نزول القرآن ميسور للصحابة رضي الله عنهم لو تعلق به أمر تعيين ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. ومعلوم أنها قد أخفيت عنها. فاختلف في تحديدها. وإذا سلم هذا الإيراد كان دليلاً على نزول القرآن في غير شهر رمضان. وكان ترجيحاً للقول بنزوله في شهر ربيع الأول إلا أن تكون ليلة تسع وعشرين على ما ذكر من الحساب.

وقد رجح ابن حجر كون ابتداء النزول في رمضان فقال: "قلت: ورمضان هو الراجح لما تقدم من أنه الشهر الذي جاء فيه الرسول صلى الله عليه وسلم حراء فجاءه الملك وعلى هذا يكون سنة حينئذ أربعين سنة وستة أشهر"^(٦).

كما رجح في موضع آخر أنه في آخر شهر رمضان ولم يحدده بتاريخ فقال: "فيستفاد من ذلك أن يكون آخر شهر رمضان، وهو قول آخر يضاف لما تقدم ولعله أرجحها"^(٧).

وجعل ابن حجر شهر رمضان زماناً لنزول القرآن جملة، ونزوله مفرقاً أيضاً، فقال عن حديث مدرسة جبريل عليه السلام للرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن "وفيه إشارة إلى أن ابتداء

(١) المرشد الوجيز: ١٣.

(٢) انظر: نزول القرآن الكريم والعناية به في عهد لرسول-صلى الله عليه وسلم-: ٦٤.

(٣) انظر: الرحيق المختوم ص(٦٦) وحاشيته (٢).

(٤) انظر: نزول القرآن الكريم والعناية به في عهد لرسول-صلى الله عليه وسلم-: ٦٤.

(٥) يصدق تعليقه على ما ذكره من موافقة يوم الاثنين لثمان وعشرين من رمضان حيث تكون ليلة تسع وعشرين. وهي من ليالي الوتر، ولكنه لم يذكره ولم يختره.

(٦) فتح الباري، كتاب التعبير: ١٢ / ٣٥٦.

(٧) فتح الباري، كتاب التعبير: ١٢ / ٣٥٧.

نزول القرآن كان في شهر رمضان لأن نزوله إلى السماء الدنيا جملة واحدة كان في رمضان كما ثبت من حديث ابن عباس^(١).

وذكر ابن عرفة في تفسيره مثل هذا التوجيه بعد أن ساق بعض الأقوال في معنى قوله تعالى: { أنزل فيه القرآن } قال: "قال الضحاك: أنزل القرآن في فرضه وتعظيمه، والحض عليه. وقيل: الذي أنزل القرآن فيه. قال ابن عرفة: ولا يبعد أن يراد الأمران فيكون أنزل القرآن فيه تعظيماً له وتشريفاً.. وقيل: أنزل فيه القرآن جملة إلى سماء الدنيا. قال ابن عرفة فالقرآن على هذا الاسم للكل، وعلى القول الثاني: بأنه أنزل فيه بعضه يكون القرآن اسم جنس يصدق على القليل والكثير"^(٢).

وإلى مثل ذلك ذهب أبو شامة في تعليقه على ما نسب للشعبي من أن الله عز وجل ابتداءً إنزال القرآن في ليلة القدر فقال: "هو إشارة إلى ابتداء إنزال القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم فإن ذلك كان وهو متحنن بحراء في شهر رمضان - ثم قال - وقد بينت ذلك في شرح حديث المبعث وغيره"^(٣).

وهذا وإن كان الأمر فيه كذلك إلا أن تفسير الآية به بعيد مع ما قد صح من الآثار عن ابن عباس: أنه نزل جملة إلى السماء الدنيا"^(٤)، ففرق أبو شامة بهذا بين جعل رمضان شهر نزول القرآن والاستدلال له بالآيات.

وقال في موضع آخر مبينا صلة شهر رمضان بالقرآن: "... ويجوز أن يكون قوله: { أنزل فيه القرآن } إشارة إلى كل ذلك، وهو كونه أنزل جملة إلى السماء الدنيا، وأول نزوله إلى الأرض، وعرضه وإحكامه في شهر رمضان. فقويت ملابسة شهر رمضان للقرآن: إنزالاً جملة وتفصيلاً وعرضاً وإحكاماً فلم يكن شيء من الأزمان تحقق له من الظرفية للقرآن ما تحقق لشهر رمضان فلمجموع هذه المعاني قيل: { أنزل فيه القرآن }"^(٥).

مقدار التنزيل:

لقد ثبت نزول القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم منجماً مفرقاً ابتداءً أو حسب الحاجة والوقائع. وغالب القرآن الكريم نزل آيات مفرقات وبعضه نزل سوراً كاملة، ونزلت سورتان من قصار السور معاً هما المعوذتان.

فأول ما نزل من القرآن الكريم الآيات الخمس الأولى من سورة العلق. وهي قوله تعالى: { اقرأ باسم ربك الذي خلق } { خلق الإنسان من علق } { اقرأ وربك الأكرم } { الذي علم بالقلم } { علم الإنسان ما لم يعلم } ثم نزل باقيها بعد نزول سورة المدثر.

كما نزلت الخمس الآيات الأولى من سورة الضحى إلى قوله: { ولسوف يعطيك ربك فترضى } وصح نزول عشر آيات من قصة الإفك جملة واحدة من سورة النور. وصح كذلك نزول عشر آيات جملة من أول سورة المؤمنون. ونزلت آية { اليوم أكملت لكم دينكم } (المائدة: ٣) في عرفة في يوم الجمعة.

وصح نزول قوله { غير أولي الضرر } وحدها، وهي بعض آية. فقد أخرج البخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما نزلت: { لا يستوي القاعدون من المؤمنين }

(١) فتح الباري، كتاب بدء الوحي: ١ / ٣١.

(٢) تفسير ابن عرفة برواية تلميذه الأبي: ٢ / ٥٣٩.

(٣) كتاب المؤلف سماه في كتابه الذيل على الروضتين: شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى. انظر المرشد الوجيز (٢٠) حاشية (٢).

(٤) المرشد الوجيز لأبي شامة المقدسي: ٢٠.

(٥) المرشد الوجيز لأبي شامة المقدسي: ٢٤.

(النساء: ٩٥) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيذا فكتبها فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته: فأنزل الله: { غير أولي الضرر }^(١).

وكذا قوله: { وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم } (التوبة: ٢٨) نزلت بعد نزول أول الآية ، فهي بعض آية^(٢).

وقد تنزل السورة كاملة ومن ذلك سورة الفاتحة، والإخلاص، والكوثر، والمسد، والنصر، والمرسلات، والصف.. وغيرها^(٣).

وأما ما ورد من نزول سورة الأنعام جملة يشيعها سبعون ألف ملك. فلم يخل من خلاف. فقد قال ابن الصلاح في فتاويه: "الحديث الوارد في أنها نزلت جملة رويناه من طريق أبي بن كعب وفي إسناده ضعف، ولم نر له إسنادا صحيحا. وقد روي ما يخالفه فروي أنها لم تنزل جملة واحدة بل نزلت آيات منها بالمدينة اختلفوا في عددها، فقيل ثلاث، وقيل: ست، وقيل غير ذلك^(٤).

وقد قال ابن عقيلة المكي في توجيه هذا الاعتراض. بأن نزول غالبها في حكم نزولها كلها. قال: "أقول: من قال: إن السورة نزلت كلها فإنما يعني - والله أعلم- الغالب، ولا يضر أن ينزل بعضها بعد ذلك وتمامها، فإن القرآن غالبه إنما ينزل مفرقا آيات. ومثل هذه السورة العظيمة إذا نزل غالبها فيحكم لها بالكل، فإنه نادر الوقوع"^(٥).

وقد نزلت سورتا المعوذتين معا بسبب سحر لبيد بن الأعصم اليهودي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله جل شأنه المعوذتين فقرأهما وتعوذ بهما فانحل السحر^(٦).

فتبين مما سبق أن القرآن نزل مفرقا: الآية ، والآيتان، والخمس، والعشر، وأقل وأكثر. كما نزل جزء الآية . ونزلت سورة كاملة، ونزلت سورتا المعوذتين معا.

ولا شك أن هذه المتابعة الدقيقة من قبل العلماء لجزئيات نزول القرآن الكريم في وقته، وصفته، ومقداره، ويوم إنزاله، وشهره، وكون ذلك ليلا ونهارا، حضرا وسفرا؛ دليل عناية الأمة البالغة بالقرآن الكريم التي ميز الله بها كتابه فصارت من خصائصه التي تفردها، وجعلها الله وسيلة حفظ كتابه الذي تكفل به في قوله سبحانه: { إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون } [الحجر: ٩].

كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتلقى القرآن من جبريل فيحفظه ولا ينساه { سنقرئك فلا تنسى } فيبلغه أصحابه، ويحفظهم إياه، ويأمرهم بكتابته. فتوفر للقرآن الكريم بالغ العناية به، وكامل وسائل حفظه، والمحافظة عليه. وتلك نعمة ومنة من الله تعالى على الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولا يشكرون^(٧).

ثالثا:- مراحل جمع القرآن الكريم وترتيبه

(١) أخرجه البخاري. كتاب التفسير، باب ١٨ لا يستوي القاعدون من المؤمنين.. (٥ / ١٨٢-) وانظر: سنن أبي داود

(٣ / ١٧) والمرشد الوجيز (٣٤-) وأسباب النزول للواحدى (١٦٨-) وانظر الإتيان (١ / ١٥٥).

(٢) انظر تفسير الطبري (١٤ / ١٩٤). والتبيان للشيخ طاهر الجزائري (٥٩).

(٣) انظر: الإتيان (١ / ١٣٦). والزيادة والإحسان (١ / ٣٩٩).

(٤) فتاوى ابن الصلاح (١ / ٢٤٨)، والبرهان (١ / ١٩٩)، والإتيان (١ / ١٣٧).

(٥) الزيادة والإحسان (١ / ٤٠١).

(٦) انظر: أسباب النزول للواحدى. (٥١٥) والجامع لأحكام القرآن (٢٠ / ٢٥٤)، والزيادة والإحسان (١ / ٤٠٥).

(٧) انظر: نزول القرآن الكريم والعناية به في عهد لرسول-صلى الله عليه وسلم-: ٦٨-٧١، والزيادة والإحسان: ٤٠٥/١.

المراد بجمع القرآن عند العلماء أحد معنيين : أولهما الحفظ، وهذا المعنى هو الذي ورد في قوله عز وجل في خطابه لنبيه صلى الله عليه وسلم «لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه»^(١).

وثانيهما : الكتابة والتدوين، أي كتابة القرآن كله مفرق الآيات والسور، أو مرتب الآيات والسور في صحائف مجتمعة تضم السور جميعاً.

وقد اجتمع للقرآن الكريم ما لم يجتمع لغيره من الكتب السابقة فاعتمد في طريقة نقله المشافهة والحفظ والكتابة والتدوين، وتعتبر مسألة المشافهة والحفظ وهي أولى مراحل الجمع، من أعظم خصيصة شرفت بها الأمة الإسلامية دون سائر الملل والنحل.

جمع القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

اعتبرت طريقة الحفظ* والمشافهة الوسيلة الوحيدة التي اعتمد عليها في جمع القرآن الكريم في العهد النبوي، فالقرآن الكريم لما نزل بروعة نظمه ونقاء ألفاظه وشدة تأثيره على العقول والمشاعر اشتد اهتمام العرب به، وخاصة الذين كانوا من السابقين إلى الإيمان به، وكانوا يترقبون كل جديد ينزل به الوحي يجمعون بين حفظه والعمل به، وهكذا اهتم جم غفير من الصحابة كالخلفاء الأربعة ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت ... بجمع القرآن الكريم وحفظه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم كلما نزل عليه شيء من الوحي أمر كتبه الوحي بكتابته فوراً، سماعاً من فمه ثم ينتشر ما نزل بين الناس، فكانت العلاقة بين المسلمين وكتاب ربهم هي الحفظ استناداً لما سمعوه من في رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذه خصيصة خص الله بها الأمة المحمدية. قال بن الجزري : «إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على خط المصاحف والكتب أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة»^(٣).

ومع حرص الصحابة على مدارس القرآن واستظهاره، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يشجعهم على ذلك، ويختار لهم من يعلمهم القرآن، عن عبادة بن الصامت قال : «كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضجة بتلاوة القرآن، حتى أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا»^(٤).

وكان الصحابة يعرضون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لديهم من القرآن حفظاً وكتابة، ولم تكن الوثائق* التي كتبوها في العهد النبوي مجتمعة في مصحف عام بل عند هذا ما ليس عند ذلك، وهذا يعزى إلى اختلاف قراءات الصحابة لكون القرآن أنزل على سبعة أحرف.

وقبض النبي عليه الصلاة والسلام والقرآن محفوظ في الصدور ومكتوب في الصحف، مفرق الآيات والسور، أو مرتب الآيات فقط وكل سورة في صحيفة على حدة، بالأحرف السبعة الواردة، ولم يجمع في مصحف عام، حيث كان القرآن ينزل فيحفظه القراء ويكتبه الكتبة، ولم تدع الحاجة إلى تدوينه في مصحف واحد، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يترقب نزول الوحي من حين لآخر، وقد يكون منه الناسخ لشيء نزل من قبل، وكتابة القرآن لم يكن ترتيبها بترتيب النزول بل تكتب الآية بعد نزولها حيث يشير صلى الله عليه وسلم إلى موضع كتابتها بين آية كذا وآية كذا في

١ : القيامة الآيات : ١٦ - ١٧ - ١٨.

٢ : أنظر مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ١١٩ وكذلك الإتيان للسيوطي.

* المقصود به الحفظ في الصدور والسطور.

٣ : مباحث في ع. القرآن ص ١٢٣.

(٤) : نفسه، ص ١٢١.

* المقصود بها العسب والرقاع واللخاف ... التي كان يدون فيها القرآن.

سورة كذا قال الزركشي: «وإنما لم يكتب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مصحف لئلا يقضي إلى تغييره في كل وقت، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته صلى الله عليه وسلم»^(١)، وبهذا يفسر ما روي عن زيد بن ثابت قال: «قبض النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن القرآن جمع في شيء»^(٢).

وقال الخطابي: "إنما لم يجمع صلى الله عليه وسلم القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك، وفاء بوعده الصادق بضمنان حفظه على هذه الأمة* فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر"^(٣).

خلاصة القول أن الهدف من الجمع الأول كان هو حفظ القرآن واستظهاره خشية أن يفلت منه شيء، قال تعالى: { وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا } [طه: ١١٤].

جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واستقرار نصوص الوحي دعت الضرورة إلى كتابة القرآن الكريم وترتيبه بمحضر من حفظته لاسيما بعد استشهاد كثير من حملته وظهور حركة الردة من جهة، ومن جهة أخرى دخول الناس في دين الله أفواجا وهم لا يعرفون من القرآن شيئا. وبعد أن استحر القتل بالقراء في معركة اليمامة وخشية أن يضيع القرآن أو يلتبس الأمر على المسلمين في شأن من آياته أشار عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- على الخليفة أبو بكر الصديق بجمع القرآن وكتابته خشية الضياع، فتردد أبو بكر في قبول ذلك خشية أن يفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد تردد شرح الله صدره لذلك، فكلف زيد بن ثابت -وهو ممن شهد العريضة الأخيرة مع النبي صلى الله عليه وسلم- بجمع القرآن ولا يخفى ما في هذا التكليف من مشقة قال زيد " والله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان علي أثقل مما أمرت به من جمع القرآن"^(٤).

ويتجلى جمع أبي بكر في جمع الوثائق التي كتبها كتبة الوحي في حضرة رسول الله، بمعنى تنسيق وثائق كل سورة مرتبة آياتها على نسق نزولها، ولا معنى لهذا الجمع إلا ما تم ذكره، وإطلاق وصف المصحف عليه إطلاق مجازي القصد منه أن يكون مرجعا موثوقا به عند اختلاف الحفاظ. ومما يجب التنبيه إليه أن الجمع في هذه المرحلة لم يصف شيئا أو يحذفه من تلك الوثائق الخطية التي تم تدوينها في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وإملاء منه على كتبة وحيه الأمانة الصادقين.

وكان عمل الصديق رضي الله عنه محل إكبار الصحابة كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه " أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله"^(٥).

جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وامتد سلطانها واختلطت شعوبها، وتداخلت لغاتها وأخذ كل إقليم يلتفت حول صحابي ليعلمه القرآن، فكان

(١) مباحث في علوم القرآن ص ١٢٥.

(٢) المصدر نفسه والصحيفة نفسها.

* إشارة إلى قوله عز وجل: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون".

(٣) مباحث في علوم القرآن ص ١٢٥.

(٤) مباحث في علوم القرآن ص ١٢٧.

(٥) www.al-islam.com/articles/articles.asp?fname=ALISLAM_L11_A

من الطبيعي أن تتعدد القراءات وتتباعد اللهجات ويقع الاختلاف في القرآن خاصة في وجود مصاحف الصحابة التي لم يمكن ترتيبها وضبط تلاوتها ورسمها لتباعد الأمصار الإسلامية عن المدينة، وخشي بعض الصحابة أن تتسع دائرة الخلاف فطلبوا من الخليفة أن يوحد الناس على مصحف واحد قال حذيفة ابن اليمان لعثمان : " يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى " (١).

فأدرك عثمان عظم الأمر وقال للصحابة، اجتمعوا يا أصحاب محمد واكتبوا للناس إماماً. فأرسل إلى حفصة أن أرسل إلينا بالمصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأمر طائفة من الصحابة (كزيد بن ثابت، عبد الله بن الزبير، سعيد بن العاص ...) فنسخوها في المصاحف وقام عثمان بإرسال نسخ منها إلى كل الأمصار (٢).

واتفق الصحابة رضي الله عنهم على هذا العمل وعدوه من مفاخر عثمان وحسناته، من ذلك قول الإمام علي رضي الله عنه- " لا تقولوا في عثمان إلا خيراً فو الله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا على ملائنا " (٣).

وكان هدف عثمان من هذا الجمع هو توحيد الأمة على القراءات الصحيحة التي قرأها النبي عليه الصلاة والسلام في العريضة الأخيرة على جبريل، وهذا ما يؤكد الباقلائي من أن ما قصد عثمان هو جمع المسلمين على القراءات الثابتة المعروفة وإلغاء ما ليس كذلك وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير (٤).

وهكذا عمل الخليفة عثمان على " حمل الناس على القراءة بوجه واحد، على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار، لما خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات " (٥).

وبهذا قطع عثمان دائرة الفتنة وحسم مصدر الاختلاف، وحض القرآن من أن يتطرق إليه شيء من الزيادة والتحريف على مر العصور وتعاقب الأزمان.

رابعاً:- المكي والمدني

للعلماء في معنى المكي والمدني ثلاثة اصطلاحات (٦) :

الاصطلاح الأول : باعتبار المكان :

إن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدني ما نزل بالمدينة ، ويرد على هذا التعريف أنه غير ضابط ولا حاصر ، لأنه يشمل ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيها ، كقوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَرًا قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ ...﴾ [التوبة : ٤٢] ، فإنها نزلت بتبوك ، وقوله تعالى : ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ...﴾ [الزخرف:٤٥]، نزلت بببيت المقدس ليلة الإسراء. الاصطلاح الثاني : باعتبار المخاطب :

أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة ، ويحمل على هذا ما نقل عن ابن مسعود أنه قال : "ما كان في القرآن (يا أيها الذين آمنوا) أنزل بالمدينة أي مدني ، وما كان من القرآن بلفظ (يا أيها الناس) و (يا بني آدم) فهو مكي ، وذلك أن الإيمان كان غالباً على

(١) مباحث في علوم القرآن ص ١٣٠.

(٢) أنظر مباحث في علوم القرآن لمناع القطان وصبحي الصالحي، والإتقان للسيوطي.

(٣) www.al-islam.com/articles/articles.asp?fname=ALISLAM_L11_A

(٤) أنظر: إجاز القرآن للباقلاني.

(٥) أنظر: مباحث في علوم القرآن ص ١٢٩ - ١٣٠.

(٦) انظر: هذه الآراء بالتفصيل في الإتقان للسيوطي - ج ١ ص ٦ وما بعدها ، البرهان للزركشي - ج ٢ ص

٢٤٤-٢٤٥ ، مناهل العرفان للزرقاني - ج ١ ص ١٩٣-١٩٤ ، المدخل لدراسة القرآن لأبي شهبه - ص ٢٢١-

أهل المدينة ، فخطبوا بيا أيها الذين آمنوا ، وكذلك خطاب الكافرين بيا أيها الناس، لأن الكفر كان غالباً على أهل مكة .

وهذا التقسيم لوحظ فيه المخاطبون ، لكنه غير ضابط ولا حاصر لجميع آيات القرآن الكريم

لأميرين :-

الأمر الأول : إنه يوجد آيات مدنية صُدِّرت بصيغة {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} مثل ما جاء في سورة النساء التي اتفق على أنها مدنية ، ولكنها تبدأ بـ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} [النساء: ١] ، وكذلك هناك آيات مكية صدرت بصيغة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الحج: ١] ، وكذلك سورة البقرة مدنية وفيها {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ...} [البقرة: ٢١] ، وأيضاً ما جاء في سورة الحج المكية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا...} [الحج: ٧٧].

الأمر الثاني : يوجد سور كثيرة في القرآن الكريم ليس فيها الخطاب بـ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} و {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} فعلى هذا الاعتبار فهي غير مكية ولا مدنية ، مثال قوله تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ...} [الأحزاب: ١] ، وقوله تعالى : {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ} [المنافقين: ١].

وعلى هذا فإن هذا التقسيم غير ضابط ولا حاصر .

الاصطلاح الثالث : باعتبار زمن النزول :

وهو ما عليه جمهور العلماء أن المكي ما نزل قبل هجرة الرسول □ إلى المدينة ، وإن كان نزوله بغير مكة ، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله بمكة .

وهذا التقسيم كما ترى لوحظ فيه زمن النزول ، هو تقسيم صحيح سليم لأنه ضابط حاصر

جميع آيات القرآن الكريم .

الطريق إلى معرفة المكي والمدني :

لقد اعتمد العلماء في معرفة المكي والمدني على منهجين هما :-

المنهج الأول : السماعي النقلي :

العمدة في معرفة المكي والمدني النقل الصحيح عن الصحابة - رضي الله عنهم - الذين شاهدوا أحوال الوحي والتنزيل ، والتابعين الأخذين عنهم ، ولم يرد عن النبي □ في ذلك قول ، ويؤيد ذلك ما نقله السيوطي عن القاضي أبي بكر في الانتصار حيث قال : "إنما يُرجع في معرفة المكي والمدني إلى حفظ الصحابة والتابعين ولم يرد عن النبي □ في ذلك قول، لأنه لم يؤمر به ، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة وإن وجب في بعض أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ ، وقد يعرف ذلك بغير نص عن الرسول □" (١).

وقد اشتهر بمعرفة المكي والمدني من الصحابة - رضي الله عنهم - عبد الله بن مسعود -

رضي الله عنه - أنه قال : "والله الذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ، ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت ، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبليغه الإبل لركبت إليه" (٢) .

المنهج الثاني : القياس الاجتهادي :

عرفنا فيما مضى أن مرد العلم بالمكي والمدني هو السماع عن طريق الصحابة والتابعين،

ولكن هناك علامات وضوابط ومميزات وضعها العلماء يُعرف بها المكي والمدني هي :-

أولاً : ضوابط القرآن المكي هي (٣) :

(١) الإتيان للسيوطي - ج ١ ص ١٦ .

(٢) انظر : مناهل العرفان - الزرقاني - ج ١٢ ص ١٩٦ .

(٣) الإتيان للسيوطي - ج ١ ص ٩ بتصرف ، وانظر بالتفصيل مناهل العرفان للزرقاني ج ١ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

١- كل سورة فيها لفظ (كلا) وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة ، كلها في النصف الأخير من القرآن ، قال العماني : "وحكمة ذلك إن نصف القرآن الأخير نزل أكثره بمكة وأكثرها جبابرة ، فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم ، بخلاف النصف الأول ، وما نزل منه في اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه، لذلتهم وضعفهم" (١) .

٢- كل سورة في أولها حرف تهجي غير سورة البقرة وآل عمران فهما مدنيتان .
٣- كل سورة فيها سجدة أو مبدوءة بقسم .

٤- كل سورة فيها تفصيل لقصص الأنبياء وللأمم الغابرة فهي مكية سوى البقرة ، وفيها ذكر - تعالى - تلك القصص لأخذ العبرة والعظة بسنته - تعالى - في هلاك أهل الكفر والطغيان وانتصار أهل الإيمان .

٥- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة .
ثانياً : مميزات القرآن المكي :

١- الدعوة إلى أصول الإيمان الاعتقادية من الإيمان بالله واليوم الآخر وما فيه من البعث والحشر والجزاء ، والإيمان بالرسالة ، وذلك لأن أهل مكة كانوا منغمسين في الشرك والوثنية ، كذلك ناقشهم بالأدلة العقلية والكونية في عقائدهم الضالة .

٢- محاجة المشركين ومجادلتهم وإقامة الحجة عليهم في بطلان عبادتهم للأصنام ، وبيان أنها لا تنفع ولا تضر .

٣- إنه تحدث عن عاداتهم القبيحة، كالقتل وسفك الدماء ، وواد البنات واستباحة الأعراض ، وأكل مال اليتيم ، للفت أنظارهم إلى ما في ذلك من أخطار .

٤- الدعوة إلى أصول التشريعات العامة والآداب والعقائد الثابتة التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان ، ولا سيما التي يتعلق منها بحفظ الدين والنفس والمال والعقل والنسب ، وأيضاً أمرهم بالصدق والعفاف وبر الوالدين وصلة الرحم والعفو والعدل وغير ذلك .

٥- قصر أكثر آياته وسوره ، فقد سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه لهم ، وذلك لأنهم كانوا أهل البلاغة والبيان ، صناعتهم الكلام ، فيناسبهم الإيجاز والإقلال دون الإسهاب والإطناب .
ثالثاً : ضوابط القرآن المدني :

١- تتميز الآيات المدنية بذكر وبيان الحدود والفرائض ، وذلك لأنها شرعت بعد إقامة المجتمع الإسلامي .

٢- كل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكام الجهاد والصلح والمعاهدات فهي مدنية سوى سورة الحج .

٣- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية ما عدا سورة العنكبوت مكية الآيات الإحدى عشرة الأولى ، وذلك لأن ظاهرة النفاق بدت تظهر في المدينة .

رابعاً- مميزات القرآن المدني (٢) :
وللسور المدنية مميزات، منها:

١- التحدث عن دقائق التشريع ، وتفاصيل الأحكام في العبادات والمعاملات كأحكام الصلاة والصيام والزكاة ... وكذلك البيوع والربا والسرقه والكفارات كما في سورة البقرة والنساء والمائدة والنور ، وذلك أن حياة المسلمين بدأت تستقر وأصبح لهم كيان ودولة وسلطان .

(١) نقلا عن: مناهل العرفان للزرقاني ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢) الإتقان للسيوطي - ج ١ ص ٩ بتصرف ، وانظر بالتفصيل مناهل العرفان - ج ١ ص ٢٠٢-٢٠٣ ، وانظر المدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبه - ص ٢٢٨-٢٣٣ .

٢- محاجة أهل الكتاب وبيان ضلالهم في عقائدهم ، وبيان تحريفهم لكتب الله وهذا ما توضحه سورة البقرة والمائدة والفتح .

٣- تمتاز آيات القرآن المدني بطول المقاطع، وذلك لأنها تتحدث عن التشريعات ومخاطبة أهل الكتاب .

فوائد معرفة المكي والمدني (١) :

١- معرفة المكي والمدني يساعد على تمييز الناسخ من المنسوخ فيما لو وردت آيتان متعارضتان وإحداهما مكية والأخرى مدنية ، فإننا نحكم بنسخ المدنية للمكية لتأخرها عنها .

٢- أنه يعين على معرفة تاريخ التشريع ، والوقوف على سنة الله الحكيمة في تشريعه ، وهي التدرج في التشريعات بتقديم الأصول على الفروع والإجمال في التفصيل ، وبذلك يترتب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية في تربية الشعوب والأفراد .

٣- معرفة هذا العلم يزيد الثقة بهذا القرآن العظيم ، وبوصوله إلينا سالمًا من التغيير والتحريف ، ويدل على ذلك اهتمام المسلمين بهذا العلم عن طريق تناقلهم لهم وما نزل من قبل الهجرة وبعدها في السفر والحضر وفي الليل والنهار .

٤- معرفة هذا العلم يفيد ويساعد على تفسير القرآن الكريم ، فإن معرفة مكان النزول وزمنه يعين على فهم وتفسير القرآن العظيم .

٥- أيضاً يفيدنا في معرفة أحداث السيرة النبوية من خلال متابعة أحوال النبي ﷺ وموقف المشركين من دعوته في العصر المكي والعصر المدني ، والوقوف على الغزوات التي غزاها الرسول ﷺ كغزوة بدر وأحد وبنى قريظة والفتح وحنين وغير ذلك .

٦- تدوق أساليب القرآن المتنوعة في خطابه لخصومه والاستفادة منها في الدعوة إلى الله ، فمخاطبة الكفار يحتاج إلى الأسلوب الخطابي في العهد المكي عن طريق التركيز على إثبات وجود الله والبعث والعقيدة ، ومخاطبة أهل الكتاب والمنافقين يحتاج إلى أسلوب الخطابة في العهد المدني عن طرق مناقشتهم في عقيدتهم المنحرفة وبيان التحريف في كتبهم .

خامساً:- أسباب النزول

إن سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه ، أو مبينة لحكمة أيام وقوعه (٢) ، والمعنى أنه حادثة وقعت في زمن النبي ﷺ أو سؤال وجه إليه فنزلت الآية أو الآيات من الله - تعالى - ببيان ما يتصل بتلك الحادثة أو بجواب هذا السؤال.

وذلك مثل حادثة خولة بنت ثعلبة ، التي ظاهر منها زوجها "أوس بن الصامت" فنزلت آيات الظهار : **لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ*** الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ نُوعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المجادلة: ١-٤].

ومثل ما حدث بين الأوس والخزرج من خصومة ، بسبب تأليب أحد اليهود العداوة بينهما ، فقد نزل بحقها قوله تعالى **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ**

(١) بالتفصيل مناهل العرفان - ج ١ ص ١٩٥ ، وانظر المدخل لدراسة القرآن الكريم ، ص ٢٢٠ .

(٢) أسباب النزول - الواحدي - ص ٦٦ .

مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَاتِلًا بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) [آل عمران : ١٠٠ - ١٠٣] .

ومثل ما نزل إجابة لسؤال وجهه إلى النبي □ قوله تعالى : {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٨٥]، وقوله تعالى : {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَلْتُ عَنْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا} [الكهف: ٨٣]، وقوله تعالى : {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا} [البقرة: ١٨٥] .

ومثل ما نزل إرشاداً وهداية وتعليماً للرسول □ كما في قوله تعالى {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤)} [الكهف : ٢٣ - ٢٤] ، والأمثلة كثيرة على ذلك .

وعندما نقول بأن سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثاً عنه أو مبينةً لحكمه أيام وقوعه، فذا يعني أن هناك ارتباطاً بين وقوع الحدث والآية التي نزلت مبينةً لحكم هذا أو هذه الحال، هذا احترز به عما شاع وذاع عند بعض المفسرين حينما يذكرون مثلاً سورة الفيل نزلت قصة الفيل هل هناك ارتباط بين الحادثة والآيات ؟ الجواب : لا ، نقول : سبب النزول أن تكون الآية نزلت مبينةً لحكم الحادثة ، وهذه الحادثة سبقت بزمن يسير نزول الآيات حينئذٍ لا بد من ارتباط بين الآيات وبين الواقع ، فإذا كانت الواقعة قد خلا عليها الدهر كقصة أصحاب الفيل ثم نزل قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} [الفيل : ١] . لا نقول : هذه الآيات أو هذه السورة سبب نزولها ماذا ؟ قصة أصحاب الفيل نقول : لا ، قصة أصحاب الفيل تضمنت السورة بياناً لحادثة قد وقعت ومضى عليها الزمان الطويل حينئذٍ ليس ثم ارتباط بين السورة وبين هذه القصة ، إذا ما نزلت الآية أو الآيات متحدثاً عنه أو مبينةً لحكمه أيام وقوعه هذا فيه ردٌ على كل من وضع أمام قصة من قصص الأنبياء أو سورة تضمنت حادثة سابقة ربطها بماذا ؟ بتلك الحادثة نقول : لا ، جاءت هذه الآيات مبينةً لحادثة واقعة في زمن قد مضى ، تحدثت كما تتحدث الآيات عن نوح مع قومه ، أو عن هودٍ مع قومه ، أو عن صالح ، أو شعيب مع قومه هل نزلت هذه الآيات بسبب قوم نوح ؟ لا ، سورة نوح نقول : نزلت بسبب قوم نوح ؟ الجواب : لا ، وإنما تضمنت حادثة وواقعة وحكاية لحالة أمم قد خلت في هذه السورة وليس ثم ارتباط من حيث النزول ، يعني لم يكن سبب نزول الآيات هو تلك الحادثة^(١) .

طريق معرفة سبب النزول (٢) :

لا طريق لمعرفة أسباب النزول إلا النقل الصحيح ، ولا مجال للعقل فيه إلا بالتمحيص والترجيح ، قال الواحدي : "لا يحل القول في أسباب نزول القرآن بالرواية والسماع ، إلا ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن عللها"^(٣) .

وعلى هذا فإن رُوي سبب النزول عن صحابي فهو مقبول ، وإن لم يعزز برواية أخرى ، لأن قول الصحابي فيما لا مجال للرأي فيه حكمه المرفوع إلى النبي .

وأما ما روي من سبب النزول بحديث مرسل ، أي سقط من سنده الصحابي وانتهى إلى التابعي ، ففي حكمه قولان:

الأول: تقبل بأربعة شروط:

(١) انظر: شرح منظومة التفسير، الشيخ عبد العزيز الزمزمي، شرحه وعلق عليه الشيخ أحمد بن عمر الحازمي(الشريط السادس).

(٢) مناهل العرفان - الزرقاني - ج ١ ص ١٠٦ .

(٣) المدخل لدراسة القرآن - ص ١٣٤-١٣٥ ، مناهل العرفان - ج ١ ص ١١٤ .

١ - التصريح بالسبب.

٢ - صحة الإسناد.

٣ - أن يكون من أئمة التفسير الذين أخذوا عن الصحابة.

٤ - أن يعتضد برواية تابعي آخر تتوفر فيه هذه الشروط. وهو قول السيوطي وجماعة.

الثاني: لا تُقبل لأنها في حكم الحديث المرفوع وهو مرسل من التابعي، والمرسل لون من ألوان الحديث الضعيف وبالتالي فهو غير مقبول، والله أعلم .

إذن لا تقبل رواية التابعي إلا إذا صح سنده ، واعتضد بمرسل آخر ، وكان الراوي له من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة مباشرة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير .

أقسام أسباب النزول :

ينقسم القرآن الكريم من حيث سبب النزول وعدمه إلى قسمين :

القسم الأول : قسم نزل من الله ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة إنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق ، وإرشادهم على الأفضل في هذه الحياة ، وهو كثير ظاهر في القرآن الكريم .

القسم الثاني : قسم نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة وهو موضوع البحث ، وهو كثير في القرآن الكريم ، مثل حديث الإفك ، أو إجابة عن سؤال ، أو بيان لأمر يتعلق بحادثة معينة^(١) .

فوائد معرفة سبب النزول^(٢) :

١- الاستعانة على فهم الآية وإزالة الإشكال عنها : مثاله :

أنه أشكل على عروة بن الزبير - رضي الله عنهما - أن يفهم فريضة السعي بين الصفا والمروة من قوله {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ١٨٥]، وذلك لأن الآية نفت الجناح ، ونفي الجناح لا يدل على الفرضية ، حتى سأل خالته السيدة عائشة - رضي الله عنها - عن ذلك ، فأفهمته أن نفي الجناح ليس نفيًا للفرضية ، إنما هو نفي لما وقر في أذهان المسلمين يومئذٍ من التخرج والتأثم من السعي بين الصفا والمروة ؛ لأنه من عمل الجاهلية^(٣) .

وقد اختلف أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية على أقوال^(٤):

أحدها: قالت: عائشة- رضي الله عنها:- "أنزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يهلون لمناة، وكانت مناة حذو قديد، وكانوا يتخرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية"^(٥).

الثاني: قال الشعبي: "أن وثنًا كان في الجاهلية على الصفا يسمى (إساقًا)، ووثنًا على المروة يسمى(نائلة)، فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بالبيت مسحوا الوثنين. فلما جاء الإسلام وكسرت الأوثان ، قال المسلمون : إن الصفا والمروة إنما كان يُطاف بهما من أجل الوثنين ، وليس الطواف بهما من

(١) الإتيان - السيوطي - ج ١ ص ٢٩ بتصرف ، مناهل العرفان - الزرقاني - ج ١ ص ١٠٦ .

(٢) انظر بالتفصيل الإتيان - السيوطي - ج ١ ص ٢٩ بتصرف ، وانظر المدخل لدراسة القرآن الكريم - أ.د. محمد أبو شهبه - ص ١٣٦-١٣٧ .

(٣) مناهل العرفان - الزرقاني - ج ١ ص ١٠٩ .

(٤) انظر : أسباب النزول للواحدى: ٤٤-٤٧، والعجاب: ٤٠٦/١-٤١١ .

(٥) أسباب النزول للواحدى: ٤٤-٤٥ . وأخرجه البخاري (فتح الباري: ٦١٤/٣ - ح: ١٧٩٠ ٤٩٧/٣ - ح: ١٦٤٣)

ومسلم (٩٢٨/٢ - ح: ٢٦٠ ٩٢٩/٢ - ح: ٢٦١ ، ٩٣٠/٢ - ح: ٢٦٣) والإمام مالك (الموطأ: ٢٥٧ - ح: ٨٣٥

رواية يحيى الليثي) والإمام أحمد (الفتح الرباني: ٧٨ / ١٨ - ح: ١٧٣ ، ٧٩ / ١٨ - ح: ٧٤) وأبو داود (٤٥٣/٢ - ح: ١٩٠١)

والترمذي (٢٠٨/٥ - ح: ٢٩٦٥) والنسائي (جامع الأصول: ١٨/٢) وابن ماجه (٩٩٤/٢ - ح: ٢٩٨٦)

وابن جرير (٢٩/٢ ، ٣١) كلهم عن عائشة رضي الله عنها به.

الشعائر! قال : فأنزل الله : إنهما من الشعائر ، " فمن حجَّ البيتَ أو اعتمر فلا جناحَ عليه أن يطوفَ بهما " (١).

وروي عن عامر^(٢)، ويزيد^(٣)، وأنس بن مالك^(٤)، وابن عمر^(٥)، ومجاهد^(٦)، وابن زيد^(٧)، نحو ذلك.

وقد ذكر ابن إسحاق في كتاب السيرة أن إسافا ونائلة كانا بشرين، فزنيا داخل الكعبة فمسخا حجريْن فنصبتهما فُرَيْشَ تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس، فلما طال عهدهما عبداً ، ثم حولا إلى الصفا والمروة ، فنصبا هنالك ، فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما ، ولهذا يقول أبو طالب، في قصيدته المشهورة :

وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم بمفضى السيول من إساف ونائل^(٨)
الثالث: وقال قتادة: "قوله: {إِنَّ الصَّافِ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ}، الآية ، فكان حَيٌّ من تهامة في الجاهلية لا يسعون بينهما ، فأخبرهم الله أَنَّ الصفا والمروة من شعائر الله ، وكانَ من سنة إبراهيم وإسماعيلَ الطواف بينهما"^(٩).
وروي عن عائشة^(١٠)، نحو ذلك.

الرابع: وقال مقاتل بن سليمان: "وذلك أن الخمس: وهم قريش، وكنانة، وخزاعة، وعامر بن صعصعة، قالوا: ليست الصفا والمروة من شعائر الله، وكان على الصفا صنم يقال له نائلة، وعلى المروة صنم يقال له يساف في الجاهلية. قالوا، إنه حرج علينا في الطواف بينهما، فكانوا لا يطوفون بينهما فأنزل الله- عز وجل- {إِنَّ الصَّافِ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ}"^(١١).

الخامس: وقال ابن كثير: "قال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت ، ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة ، فأنزل الله تعالى : {إِنَّ الصَّافِ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ}"^(١٢).

السادس: قال ابن عباس: " أنه كان في الجاهلية شياطين تعزف الليل أجمع بين الصفا والمروة، وكانت بينهما آلهة ، فلما جاء الإسلام وظهر ، قال المسلمون : يا رسولَ الله ، لا نطوف بين الصفا والمروة ، فإنه شركٌ كنا نفعله في الجاهلية! فأنزل الله : {فلا جناحَ عليه أن يطوفَ بهما}"^(١٣).

ومن هذا قول الله تعالى : {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة: ٩٣] ، فهذا اللفظ الكريم يدل بظاهره على أن للإنسان أن يصلي إلى أي جهة شاء ، ولا يجب عليه أن يولي وجهه شطر البيت الحرام لا في سفر ولا في حضر ، لكن إذا علم أن هذه الآية

(١) أخرجه الطبري (٢٣٣٥):ص٣ / ٣٣١.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٣٣٦):ص٣ / ٢٣١-٢٣٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٣٣٧):ص٣ / ٢٣٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٣٣٨)، و(٢٣٣٩):ص٣ / ٢٣٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٣٤٠):ص٣ / ٢٣٣.

(٦) انظر: تفسير الطبري (٢٣٤٣)، و(٢٣٤٤):ص٣ / ٢٣٥.

(٧) انظر: تفسير الطبري (٢٣٤٥):ص٣ / ٢٣٥.

(٨) السيرة النبوية لابن إسحاق (رقم النص ٤) ط ، حميد الله ، المغرب.

(٩) أخرجه الطبري (٢٣٤٩):ص٣ / ٢٣٦، و(٢٣٥٢):ص٣ / ٢٣٨.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٣٥٠)، و(٢٣٥١):ص٣ / ٢٣٦-٢٣٧.

(١١) تفسير مقاتل بن سليمان: ١ / ١٥٢.

(١٢) انظر: تفسير ابن كثير: ١ / ٤٧٠.

(١٣) أخرجه الطبري (٢٣٤٢):ص٣ / ٢٣٤، و تفسير القرطبي: ٢ / ١٧٩، وانظر: أسباب النزول للواحيدي: ٤٦، حكاة عن السدي.

نازلة في نافلة السفر خاصة ، أو فيمن صلى باجتهاده ثم ظهر له خطأ ذلك ^(١) فلا بد أن يقصرها على هذا السبب ويعلم أنه في صلاة الفرض لا بد من التوجه قبيل الكعبة المشرفة .

٢- معرفة الحكمة من تدرج التشريع :

إن الشريعة الإسلامية قائمة على رعاية المصالح ودفع الضرر ، خصوصاً إذا لاحظ الإنسان تدرج التشريع في موضوع واحد ، ويكفي شاهداً على ذلك تحريم الخمر ، وما نزل فيه ، أيضاً تشريع الكفارات لمن حنث في اليمين .

٣- العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب :

آيات الظهار في مفتتح سورة المجادلة سببها أن أوس بن الصامت ظاهر من زوجته خولة بنت ثعلبة والحكم الذي تضمنته هذه الآيات خاص بهما وحدهما على هذا الرأي ، أما غيرهما فيعلم بدليل آخر قياساً ، وبدهي أنه لا يمكن معرفة المقصود بهذا الحكم والقياس عليه إلا إذا علم السبب ، وبدون معرفة السبب تصير الآيات معطلة خالية الفائدة.

سادساً:- **المحكم والمتشابه في القرآن الكريم**

المحكم لغة: الحاء والكاف والميم أصل واحد، وهو "المنع"^(٢)، و"المحكم": ما لا يعرض فيه شبهة من حيث اللفظ، ولا من حيث المعنى"^(٣).

قال ابن منظور: "فالمحكم من أصل حكم والمُحكَّم الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب، أَحْكَمَ فهو مُحَكَّم"^(٤).

قال الفيروز آبادي: "وسورة مُحَكَّمَة: غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ، والآياتُ الْمُحَكَّمَاتُ مثل قوله تعالى: { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي } [الأنعام / ١٥١ .]، إلى آخر الآية ، أو التي أُحْكِمَتْ فلا يَحْتَاجُ سَامِعُهَا إلى تأويلها لبيانها، كأقاصيص الأنبياء"^(٥).

قال الزركشي : فأما (المحكم)، فأصله لغة :المنع ، تقول : أحكمت بمعنى رددت ، والحاكم لمنعه الظالم من الظلم ، حكمة اللجام هي التي تمنع الفرس من الاضطراب^(٦).
وعليه، فالمحكم هو ما كان ذا دلالة واضحة، بحيث لا يحتمل وجوهاً من المعاني.

المعنى الاصطلاحي: ذُكِرَت للمحكم تحديدات عدّة، منها^(٧):

١- ما أنبأ لفظه عن معناه من غير أن ينضم إليه أمر لفظ يبيّن معناه، سواء أكان اللفظ لغوياً أم عرفياً، ولا يحتاج إلى ضرب من ضروب التأويل.

٢-المحكم: ما استقلّ بنفسه، ولم يفتقر إلى غيره.

٣-المحكمات: هي آيات واضحة المراد، لا اختلاف فيها ولا اضطراب.

قال ابن عباس: "قرأت المحكم على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- " ^(٨) ، يريد المفصل من القرآن لأنه لم ينسخ منه شيء.

(١) الإتيان - السيوطي - ج ١ ص ٢٩ ، وانظر البرهان - الزركشي - ج ١ ص ٥٢-٥٣

(٢) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج ٢، مادة "حكم"، ص ٩١.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، راغب الأصفهاني، مادة "حكم"، ص ٢٥١.

(٤) لسان العرب: (حكم) : ٩٥٢/٢.

(٥) القاموس المحيط (الحكم).

(٦) البرهان في علوم القرآن، الزركشي : ٦٨/٢ وانظر : مناهل العرفان - الزرقاني : ١٦٦/٢

(٧) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي : ٦٨/٢، ومناهل العرفان، الزرقاني : ١٦٦/٢، والإتيان في علوم القرآن، السيوطي: ٦/٢، ولسان العرب ١٤١/١٢ .

(٨) أخرجه البخاري بسنده عن سعيد بن جبيرة قال : وقال ابن عباس : (ثم توفي رسول الله S وأنا بن عشر سنين وقد قرأت المحكم) (٤٧٤٨) ١٩٢٢/٤ .

والمتشابه لغة : "الشين والباء والهاء أصل واحد يدلّ على تشابه الشيء وتشاكله لونا ووصفاً... والمشبهات من الأمور المشكلات، واشتبه الأمران إذا أشكلا"^(١).
والمُتَشَابِه من القرآن: "ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره، إمّا من حيث اللفظ، وإمّا من حيث المعنى"^(٢).

قال الفيروز آبادي: "و المُشْتَبِهَات من الأمور: المُشْكَلَات: و المُتَشَابِهَات: المُتَمَائِلَات، وأمورٌ مُشْتَبِهَةٌ ومُشَبَّهَةٌ، كَمُعْظَمَةِ مُشْكَلَةٍ. والشُّبُهَةُ، بالضم: الالْتِبَاسُ، والمِثْلُ. وشَبَّهَ عليه الأمرُ، تَشْبِيهًا: لَبَّسَ عليه"^(٣).

قال ابن منظور: "و شَبَّهَ عليه: خَطَطَ عليه الأمر حتى اشْتَبَهَ بغيره"^(٤).

قال الخليل: "والشبه ضرب من النحاس ، يلقي عليه دواء فيصفر ، وسمي شبيها لأنه شبه بالذهب ، وفي فلان شبة من فلان أي شبيهه ، وتقول : شبهت هذا بهذا ، وأشبه فلان فلانا ، وأشبه الشيء الشيء مائله ، والمشبهات من الأمور المشكلات ، تشابه الشينان أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا ، وشبه فلان علي إذا خلط ، واشتبه الأمر"^(٥).

قال الزركشي : "أما المتشابه فأصله أن يشته اللفظ في الظاهر مع اختلاف المعاني ، ويقال للغامض متشابه لأن جهة الشبه فيه ، والمتشابه مثل المشكل لأنه أشكل و دخل في شكل غير شكله"^(٦).

المعنى الاصطلاحي : دُكِرَت للمتشابه تحديدات عدّة، منها^(٧):

١- ما كان المراد به لا يُعرَف بظاهره، بل يحتاج إلى دليل، وهو ما كان محتملاً لأمر كثيرة أو أمرين، ولا يجوز أن يكون الجميع مراداً، فإنّه من باب المتشابه.

٢- المتشابه: ما لا يستقلّ بنفسه إلا برده إلى غيره.

٣- الآيات المتشابهة: هي آيات ظاهرها ليس مراداً، ومُرَادُهَا الواقعي الذي هو تأويلها لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم، ويجب الإيمان بها، والتوقف عن اتّباعها، والامتناع عن العمل بها... والآيات المتشابهة منجهة المدلول والمراد ترجع للآيات المحكمة، وبمعرفة المحكمات يُعرَف معناها الواقعي... فالمتشابه هو الآية التي لا استقلال لها في إفادة مدلولها، ويظهر بواسطة الردّ إلى المحكمات، لا أنّه ما لا سبيل إلى فهم مدلوله.

ورد في كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر بأن المُتَشَابِه: ما لم يُتَلَقَّ معناه من لفظه، وهو على ضربين: أحدهما إذا رُدَّ إلى المُحَكَّم عُرِفَ معناه، والآخر ما لا سبيل إلى معرفة حقيقته. فالمُتَشَابِه له مُبْتَنٍ لِفَنَتِهِ، لأنه لا يكاد ينتهي إلى شيءٍ تسكن نفسه إليه"^(٨).

(١) معجم مقاييس اللغة، م.س، ج ٣، مادة "شبه"، ص ٢٤٣.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، م.س، مادة "شبه"، ص ٤٤٣.

(٣) القاموس المحيط (ش) (الشُّبُهَةُ) .

(٤) لسان العرب (شبه) : ٢١٩٠/٤ .

(٥) كتاب العين، الفراهيدي : أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد ، تحقيق د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي ، نشر دار ومكتبة الهلال ٤٠٤/٣ ، والمعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية، نشر دار المعارف ، ط٣ ، ٤٩٠/١ .

(٦) البرهان، الزركشي : ٦٩/٢ .

(٧) انظر: البرهان في علوم القرآن ، ج ٢، ص ٦٩-٧١، الإيقان في علوم القرآن ، ج ٢، ص ٥-٧، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٢١٥-٢١٩.

(٨) النهاية في غريب الحديث والأثر (شبه) . ٤٤٢/٢ .

وفي حديث حذيفة^(١): وذكر فتنة فقال: "تَشَبَّهُ مَقْبَلَةٌ وَتُبَيِّنُ مُدْبِرَةً"^(٢)، قال شمر^(٣): "معناه أن الفتنة إذا أُقْبِلَتْ سَبَّهَتْ عَلَى الْقَوْمِ وَأَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَدْخُلُوا فِيهَا وَيَرْكَبُوهَا مِنْهَا مَا لَا يَحِلُّ، فَإِذَا أُدْبِرَتْ وَانْقَضَتْ بَانَ أَمْرُهَا، فَعَلِمَ مَنْ دَخَلَ فِيهَا إِنَّهُ كَانَ عَلَى الْخَطَا"^(٤).

وقد اختلف العلماء في وجود المتشابهات في القرآن الكريم، وفيه قولان:

أحدهما: أنه لا وجود للمتشابهات في القرآن، لأن القرآن كتاب هداية عامة لكل الناس.

ودليهم قوله تعالى: {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} [آل عمران : ١٣٨]، وقال تعالى: {الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود : ١]، فلا وجود فيه لأي متشابهة بالذات، وأما التعبير بالتشابه في أي القرآن، فهو بمعنى التشابه بالنسبة إلى أولئك الزانغين الذين يحاولون تحريف الكلم عن مواضعه.

والثاني: القول بوجود المتشابهات في القرآن : إذ يشتمل القرآن الكريم على آيات متشابهات، كما هو مشتمل على آيات محكمات، لقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران : ٧] ، فيشتمل على تقسيم آيات القرآن إلى المحكم والمتشابه. والراجح هو القول الثاني، إذ أن المراد بالإحكام في قوله: {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران : ٧]، غير الإحكام الذي وُصِفَ به جميع الكتاب في قوله تعالى: {الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود : ١]، وكذا المراد بالتشابه فيه غير التشابه الذي وُصِفَ به جميع الكتاب في قوله تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا} [الزمر: ٢٣]. والله أعلم.

سابعاً- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم

يعد الناسخ والمنسوخ في القرآن من المسائل التي كثر فيها الجدل بين المؤيدين والمعارضين، فيعرض البحث تعريف هذا الفن و منشأه وأدلة القائلين به وأنواعه وشروطه. ويتناول البحث حجج المعارضين التي تدحض النسخ أساساً وشكلاً ثم يعرض بعض القضايا التي ذُكرت في الآيات الشريفة وادعى البعض أنها منسوخة. ويتم تفنيدها من خلال حجج معارضي النسخ ويتبين أن كل قضية من تلك القضايا يمكن معالجتها علي حدة وان كل آية شريفة تعبر عن قضية مختلفة أو أنها متناسجة مع بعضها البعض. يستتبع ذلك تأمل في دلالات نسخ الآية بما يتعلق بقضية تطور الإنسان عندما يقرأ الإنسان آيات الله في الأفق وفي نفسه. وبقدر صدق الإنسان في قراءته لآيات الله ، يكتب بالله في نسخة كتابه ويثبت الفعل الحسن ويمحو منها السيئ ليأخذ كتابه بيمينه فيكون بذلك آية ومثل أفضل من قديمه. إن نسخ الآية لجديد أفضل هو تعبير عما هو أفضل للإنسان فلا ينبغي التثبيت بالألفاظ ونسيان ما فيها من دلالات. ويعرض الباحث رؤيته في تلك القضايا التي تتعلق بما يجب أن يكون عليه الإنسان. فجميع القضايا المذكورة في القرآن ليست بمنأى عن الإنسان فجميعها وجوه للحقيقة لتشخص للإنسان داءه وتصف دواءه فمن أحصى منها شيئاً ارتقى.

(١) حذيفة بن اليمان حليف الأنصار، صحابي جليل من السابقين . أنظر : تقريب التهذيب ١٥٤/١

(٢) وتماهه عن حذيفة قال: (إياك والفتن لا يشخص لها أحد فوالله ما شخص منها أحد إلا نسفته كما ينسف السيل الدمن ، إنها مشبهة مقبلة حتى يقول الجاهل هذه تشبه مقبلة وتبين مدبرة ، فإذا رأيتموها فاجتمعوا في بيوتكم واكسروا سيوفكم وقطعوا أوتاركم وغطوا وجوهكم) قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . المستدرک علی الصحیحین ، ٤٩٥/٤ .

(٣) لعله شمر بن عطية الأسدي الكاهلي الكوفي. وقال النسائي: ثقة. وذكره ابن حبان في كتاب «الثقات». تهذيب الكمال - المزي ترجمة (٣١٠١) قال ابن حجر : صدوق، من السادسة. تقريب التهذيب : ٢٦٨/١ .

(٤) أنظر : غريب الحديث (حكم) . ٤١٩/١ .

لقد اهتم المفسرون، وعلماء القرآن منذ القدم بالناسخ والمنسوخ حتى ألفوا في ذلك مصنفات كثيرة منهم أبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو داود السجستاني، وأبو جعفر النحاس، وابن الأنباري، ومكي بن أبي طالب القيسي، وابن العربي وآخرون^(١).

وقيل أن بدء التدوين فيه يرجع إلى القرن الثاني الهجري، وكتب فيه : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الأصمعي، وكان الصحابة وعلى رأسهم الإمام علي (عليه السلام) يرون أن معرفة الناسخ والمنسوخ شرطاً في أهلية المفسر للتفسير والمحدث للحديث.

قال الأئمة : "ولا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ، وقد قال علي بن أبي طالب لقاص: أتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: الله أعلم، قال هلكت وأهلكت"^(٢).

وللمفسرين في الآيات المنسوخة آراء مختلفة تداخلت مع غيرها واشتبهت على كثير منهم . فظن بعض منهم أنه نسخ، ولو تمنعوا جيداً لوجدوها أنه ليس بنسخ، قال الزركشي : "إنما نسا وتأخير، أو مجمل آخر بيان لوقت الحاجة، أو خطاب قد حال بينه وبين أوله خطاب آخر غيره، أو مخصوص من عموم، أو حكم عام لخاص، أو لمداخلة معنى في معنى، وأنواع الخطاب كثيرة فظنوا ذلك نسخاً وليس به..."^(٣).

وللنسخ والمنسوخ الدور الكبير في استنباط الأحكام الشرعية، إذ به يعرف الحكم الثابت الباقي الذي يعمل به عن الحكم الزائل المتروك .

تعريف النسخ

النسخ لغة: رفع شيء وإثبات غيره مكانه، أو تحويل شيء إلى غيره، ومنه نسخ الكتاب ومنه: أمر كان يعمل به من قبل ثم ينسخ بحادث غيره . . . وكل شيء خلف شيئاً فقد انتسخه، فيقال : انتسخت الشمس الظل، والشيب الشباب . . . ومنه نسخ الكتاب^(٤).

وقيل النسخ في اللغة يطلق على معنيين^(٥):

الأول: بمعنى الإزالة ومنه قوله تعالى {فَيَسْخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحَكِّمُ اللَّهُ آيَاتِهِ} (الحج: ٥٢)، تقول العرب: نسخت الشمس الظل، أي أزلته حلت محله.

والثاني: نقل الشيء من مكان إلى مكان دون تغيير، ومنه نسخ الكتاب أي تكتب كتاباً عن كتاب حرفاً بحرف وكلمة بكلمة.

وبمعنى التبدل، ومنه قوله تعالى {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ} [النحل: ١٠١].

وبمعنى التحويل، كتناسخ المواريث، بمعنى تحويل الميراث من واحد إلى واحد.

وبمعنى النقل من موضع إلى موضع، ومنه نسخت الكتاب، إذ نقلت ما فيه حاكياً للفظه وخطه^(٦).

والنسخ في الشرع (الاصطلاح): - أجمع العلماء والمفسرون وكل من بحث في علوم القرآن أن اختصاص النسخ في العلوم القرآنية هو إبطال حكم آية قرآنية بأية قرآنية أخرى.

فقيل النسخ في الشرع: "إزالة ما كان ثابتاً بنص شرعي، سواء عمل به أم لم يعمل به"^(٧).

وعرفه الراغب بأنه: "إزالة مثل الحكم الثابت بالشرع بشرع آخر مع التراخي"^(٨).

(١) انظر: الإيقان / السيوطي / ٥١/٣ .

(٢) البرهان / الزركشي / ٣٤/٢ .

(٣) المصدر نفسه: والصحيفة نفسها .

(٤) معجم مقاييس اللغة، مادة نسخ .

(٥) لسان العرب ، ابن منظور: مادة (نسخ) ٩ .

(٦) الإيقان: ٥١/٣ .

(٧) المصباح المنير ، أحمد بن محمد الفيومي ، مادة (نسخ) ص ٦٠٢ .

(٨) مقدمة جامع التفسير ، الراغب : ص ٨٢ .

وهناك تعريف للنسخ في اصطلاح الشريعة جامع مانع وكل التعاريف التي قيلت تنصب فيه هو "رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه"^(١). وهذا المعنى الشرعي يتصل بالمعنى اللغوي الأول للنسخ^(٢).

أهمية النسخ في التفسير

من أساسيات علوم التفسير علم الناسخ والمنسوخ وهو من العلوم التي لا يقوم إلا بها وكذلك لا يمكن معرفة الأحكام الشرعية المستنبطة وتفسير تعارض النصوص إلا بمعرفته، ولذلك أفرد له علماء أصول التفسير وعلماء أصول الفقه مصنفات قديما وحديثا .

قال القرطبي: " معرفة هذا الباب أكيدة، وفائدته كبيرة، لا يستغنى عنه معرفته العلماء ولا ينكره إلا الجهلة أنصاف المتعلمين، لما يترتب عليه من النوازل في الأحكام ومعرفة الحلال والحرام روى البخاري قال : دخل علي رضي الله عنه المسجد، فإذا رجل يخوف الناس، قال: ما هذا ؟ قالوا : رجل يذكر الناس فقال: ليس برجل يذكر الناس، لكنه يقول: أنا فلان بن فلان اعرفوني . فأرسل إليه فقال: أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ فقال: لا، قال: فأخرج من مسجدنا ولا تذكر فيه، وفي رواية : أعلمت الناسخ والمنسوخ ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت . ومثله عن ابن عباس رضي الله عنهما"^(٣).

اهتم العلماء والمفسرون والباحثون منذ القدم بموضع الناسخ والمنسوخ، وهي من الأمور التي يسر الله تعالى بها على المؤمنين وقت تنزيل القرآن في تطبيق الأحكام والوقوف على الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم من الأمور الواجب معرفتها عند كل من يريد أن يتصدى للتفسير القرآني، إذ يدخل في تحديد المراد من النصوص القرآنية وهذا ما أكده العلماء وقالوا "لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف من الناسخ والمنسوخ وقد رويت كثير من الأخبار عن الصحابة"^(٤).

ومن الكثيرين الذين بحثوا في الناسخ والمنسوخ أكدوا على أهمية هذا العلم في فهم مراد الله تعالى من نصوص القرآن الكريم وهو يعد علما من الواجب على العالم معرفته حتى يكون بحثه في هذا العلم رصينا وموافقا لما أمر به سبحانه وتعالى.

يقول مكي بن أبي طالب بهذا الخصوص: " وأن من أكد ما عني أهل العلم والقرآن بفهمه، وحفظه والنظر فيه من علوم القرآن وسارعوا إلى البحث عن فهمه وعلم أصوله، علم ناسخ القرآن ومنسوخه فهو علم لا يسع كل من تعلق بأدنى علم من علوم الديانة جهله"^(٥).

وللنسخ أهمية كبيرة في مجال العرض على القرآن الكريم فمع ثبوت النسخ في بعض من الآيات القرآنية لا يمكن الرجوع إليها في تفسير الآيات الكريمة الأخرى .

فالزركشي يقول في هذا الشأن: "إن العلم بالناسخ والمنسوخ عظيم الشأن وقد صنّف به جماعة كثيرون"^(٦).

وقال الزرقاني: "أنه طويل الذيل، كثير التفاريع، متشعب المسالك .. المسائل التي يتناولها دقيقة، إذن على الباحث الذي يتناول النسخ أن يكون يقضا ودقيقا وأن يتصف بحسن الاختيار

(١) انظر: النسخ في القرآن، مصطفى زيد: ١٠٥/١، الإحكام في أصول الأحكام/ الأمدي ٩٨/٣، الوجيز في أصول الفقه، عبد الكريم زيدان ص ٩٣٢.

(٢) الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، مكي ابن أبي طالب : ص ٤٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٦٢/٢.

(٤) انظر: فهم القرآن، الحارث المحاسبي ص ٣٢٧، الناسخ والمنسوخ النحاس ص ٥٠٤، تلخيص التمهيد/ محمد هادي معرفة: ٤١٧/١.

(٥) الإيضاح، مكي طالب : ٤٥ - ٤٦.

(٦) البرهان / الزركشي/ ٣٣/٢.

..والنسخ يكشف النقاب عن مسيرة التشريع الإسلامي، ويصبح الإنسان مطلعاً على حكمة الله تعالى في تربيته للخلق وسياسته للبشر وابتلائه للناس وهذا ما يدل باليقين والتواتر على أن الرسالة الإسلامية هي من الله تعالى العزيز الحكيم إن معرفة الناسخ والمنسوخ يعد ركناً مهماً وعظيماً في فهم الإسلام، وفي الهداء إلى صحيح الإسلام^(١).

تاسعا: - القراءات

فالقرآن الكريم، كتاب الله الخالد، ومعجزة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، التي لا تقنى إلى الأبد. وهو كتاب منتظم الآيات، متعاضد الكلمات، لا نفور فيه ولا تعارض، ولا تضاد ولا تناقض، صدق كلها أخباره، عدل كلها أحكامه، وصدق الله إذا يقول: {أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً}[الأنعام: ١١٥]، هذه الآية تنفي عن القرآن الكريم التناقض في معانيه ومبانيه، أما من جهة المعنى، فلا تجد آية تثبت معنى تنقضه آية سواها، ولا يرد على ذلك الناسخ والمنسوخ، فإن ذلك ليس من التناقض ولا من الاختلاف في شيء، لأن النسخ رفع لحكم، وإثبات لآخر، فالباقي إذن حكم واحد هو المحصلة النهائية، فليس ثمت ما يعارضه، ولا يرد على ذلك أيضاً موهوم الاختلاف، فإنه متناقض في نظر من لا نظر له، لكن عند التدبر يتم التوفيق والالتئام، ولا يرد على ذلك أيضاً الاختلاف بين قراءاته، فهو اختلاف تلازم وتنوع، وليس اختلاف تضاد وتناقض، ولذلك فإن القراء لم يعترض بعضهم على بعض، فالكل صحيح ما دام مستوفياً لشروطه، كما سيأتي ذلك في محله إن شاء الله تعالى، ولا يرد على ذلك الاختلاف حول تفسيره، أو وجوه إعرابه، أو معاني لغاته، لأن ذلك ليس اختلاف في القرآن، بل هو اختلاف في كلام البشر عن القرآن، والفرق بين القرآن والتفسير، تماماً كالفرق بين الخالق والمخلوق^(٢).

وقد سئل الإمام الغزالي عن معنى قوله تعالى: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) فأجاب بما صورته: الاختلاف لفظ مشترك بين معان، وليس المراد نفي اختلاف والناس فيه، بل نفي الاختلاف عن ذات القرآن. يقال هذا كلام مختلف فيه، أي: لا يشبه أوله آخره في الفصاحة، إذ هو مختلف، أي: بعضه يدعو إلى الدين، وبعضه يدعو إلى الدنيا، أو هو مختلف النظم فبعضه على وزن الشعر، وبعضه منزه عن هذه الاختلافات، فإنه على منهاج واحد في النظم مناسب أوله آخره، يخالفه، وكلام الله منزّه عن هذه الاختلافات، فإنه على منهاج واحد في النظم مناسب أوله آخره، وعلى مرتبة واحدة في غاية الفصاحة، فليس يشتمل على الغث والسمين، ومسوق لمعنى واحد، وهو دعوة الخلق إلى الله تعالى، وصرّهم عن الدنيا إلى الدين^(٣).

وقريب من هذا ما نقل عن ابن مسعود رضى الله عنه: "لا تنازعوا في القرآن فإنه لا يختلف ولا يتلاشى، ولا ينفد لكثرة الرد، وإنه شريعة الإسلام وحدوده وفرائضه، ولو كان شيء من الحرفين - أي القراءتين - ينهى عن شيء يأمر به الآخر، كان ذلك الاختلاف، ولكنه جامع ذلك كله لا تختلف فيه الحدود ولا الفرائض، ولا شيء من شرائع الإسلام ولقد رأيتنا نتنازع عند رسول - صلى الله عليه وسلم -، فيأمرنا فنقرأ فيخبرنا أن كلنا محسن....."^(٤).

ومن الأسباب التي كانت وراء هذه الآراء الكثيرة المتناثرة في كتب التفسير، ولاسيما المعنيّ منها بالتفسير المأثور والسبب المختار هو "اختلاف القراءات" إذ أن اختلاف القراءات كان سبباً في اختلاف المفسرين حول بيان المعنى المقصود من النص القرآني، وعليه قام العلماء بوضع ضوابط وقواعد كلية تساعد على حسم هذا الخلاف، و الوصول إلى المعنى الراجح.

(١) مناهل العرفان في تفسير القرآن / الزر قاني ٦٩/٢ - ٧٠ .

(٢) بين القراءات والتفسير تأصيل وتطبيق، د/أحمد سعد الخطيب، أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر (بحث منشور بتصريف بسيط).

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن ١/ ٤٦، معترك الأقران ١ / ٩

(٤) أخرجه الطبري (١٨): ص ٢٨/١. إسناده ضعيف جداً.

القراءات لغة واصطلاحاً

القراءات: جمع قراءة، والقراءة فى اللغة مصدر قرأ، وفى الاصطلاح: مذهب من مذاهب النطق فى القرآن، يذهب إليه إمام من الأئمة مخالفاً به غيره، سواء أكانت هذه المخالفة فى نطق الحروف، أو فى نطق هيئاتها^(١).

وعلم القراءات: هو علم يعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية، وطريق أدائها اتفاقاً واختلافاً، مع عزو كل وجه لناقله. فموضوع علم القراءات إذن، كلمات القرآن الكريم من حيث أحوال النطق بها، وكيفية أدائها^(٢).

نشأة القراءات:

إن الزمن الذى نشأت فيه القراءات القرآنية، هو زمن نزول القرآن الكريم نفسه، ضرورة أن هذه القراءات، قرآن نزل من عند الله فلم تكن من اجتهاد أحد، بل هى وحى أوحاه الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم، وقد نقلها عنه أصحابه الكرام - رضى الله عنهم - حتى وصلت إلى الأئمة القراء، فوضعوا أصولها، وقعدوا قواعدها، فى ضوء ما وصل إليهم، منقولاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم - وعلى ذلك، فالمعول عليه فى القراءات، إنما هو التلقى بطريق التواتر، جمع عن جمع يؤمن عدم تواطؤهم على الكذب، وصولاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم. أو التلقى عن طريق نقل الثقة عن الثقة وصولاً كذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ويضاف إلى هذا القيد قيودان آخران سيذكران فى محلها عند الحديث عن شروط القراءة الصحيحة، أو ضوابط قبول القراءة.

وانطلاقاً من ذلك وبناءً عليه، فإن إضافة هذه القراءات إلى أفراد معينين، هم القراء الذين قرأوا بها، ليس لأنهم هم الذين أنشأوها أو اجتهدوا فى تأليفها، بل هم حلقة فى سلسلة من الرجال الثقات الذين رووا هذه الروايات ونقلوها عن أسلافهم، انتهاءً بالنبي صلى الله عليه وسلم، الذى تلقى هذه القراءات وحياً عن ربه - جل وعلا. وإنما نسبت القراءات إلى القراء لأنهم هم الذين اعتنوا بها وضبطوها ووضعوا لها القواعد والأصول.

أما سبب اختلاف القراءات، ذلك أن الصحابة - رضى الله عنهم - كانوا من قبائل عديدة، وأماكن مختلفة، وكما هو معروف أنه كما تختلف العادات والطباع باختلاف البيئات، فهكذا اللغة أيضاً، إذ تنفرد كل بيئة ببعض الألفاظ التى قد لا تتوارد على لهجات بيئات أخرى، مع أن هذه البيئات جميعها تنضوى داخل إطار لغة واحدة، وهكذا كان الأمر، الصحابة عرب خلص بيد أن اختلاف قبائلهم ومواطنهم أدى إلى انفراد كل قبيلة ببعض الألفاظ التى قد لا تعرفها القبائل الأخرى مع أن الجميع عرب، والقرآن الكريم جاء يخاطب الجميع، لذلك راعى القرآن الكريم هذا الأمر، فجاءت قراءاته المتعددة موائمة لمجموع من يتلقون القرآن، فالتيسير على الأمة، والتهوين عليها هو السبب فى تعدد القراءات.

- والأحاديث المتواترة الواردة حول نزول القرآن على سبعة أحرف تدل على ذلك:

-جاء فى الصحيحين: عن ابن عباس رضى الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " أقرأنى جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف"^(٣)، وزاد مسلم: " قال ابن شهاب: بلغنى أن تلك السبعة فى الأمر الذى يكون واحداً لا يختلف فى حلال ولا حرام"^(٤).

(١) المهذب فى القراءات العشر ١ / ٦

(٢) المهذب فى القراءات العشر: ١ / ٦

(٣) انظر صحيح البخارى ، كتاب فضائل القرآن ، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف

(٤) انظر : صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسفرين ، باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف

- وأخرج مسلم بسنده عن أبي بن كعب، أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان عند أضاة بنى غفار^(١) قال: " فأتاه جبريل - عليه السلام - فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك، ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاء الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف. فأبى حرف قرأوا عليه فقد أصابوا"^(٢).

والأحاديث الواردة في هذا المقام كثيرة، لكني أكتفي بما ذكرت، والمزيد في مظانه، ويؤخذ من ذلك ما يلي:

- ١- إن الأحرف السبعة جميعها قرآن نزل من عند الله، لا مجال للاجتهاد فيها.
- ٢- أن السبب في هذه التوسعة هو التهوين على الأمة، والتيسير عليها في قراءة القرآن الكريم.

أقسام القراءات وبيان ما يقبل منها وما لا يقبل

نقل السيوطي عن ابن الجرزي أن أنواع القراءات ستة:

الأول : المتواتر: وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب، عن مثلهم إلى منتهاه، حتى يبلغوا به النبي - صلى الله عليه وسلم -، ومثاله ما اتفقت الطرق على نقله عن السبعة - أو غيرهم - وهذا هو الغالب في القراءات.

الثاني: المشهور: وهو ما صح سنده بأن رواه العدل الضابط عن مثله، وهكذا ووافق العربية ولو بوجه، ووافق رسم المصحف العثماني، واشتهر عند القراء فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ، إلا أنه لم يبلغ درجة المتواتر. ومثاله ما اختلفت الطرق في نقله عن السبعة، فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض، وقد ذكر كثيراً من هذا النوع الداني في التيسير والشاطبي في الشاطبية، وغيرهما. وهذان النوعان، هما اللذان يقرأ بهما، مع وجوب اعتقادهما ولا يجوز إنكار شيء منهما.

الثالث: ما صح سنده، وخالف الرسم أو العربية، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور، وهذا النوع لا يقرأ به ولا يجب اعتقاده، ومثاله قراءة (متكئين على رفارف خضر وعباقرى حسان) وقراءة (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) بفتح الفاء.

الرابع : الشاذ، وهو ما لم يصح سنده، قراءة ابن السَّمِيفِع (فاليوم ننحيك ببدنك) بالحاء المهملة (لتكون لمن خَلَفك آية) بفتح اللام من كلمة (خَلَفك).

الخامس: الموضوع، وهو ما نسب إلى قائله من غير أصل، مثل القراءات التي جمعها محمد بن جعفر الخزاعي، ونسبها إلى أبي حنيفة.

السادس: ما يشبه المدرج من أنواع الحديث، وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير، كقراءة سعد بن أبي وقاص (وله أخ أو أخت من أم) بزيادة لفظ (من أم).

قال ابن الجرزي: "وربما كانوا يدخلون التفسير في القراءات إيضاحاً وبياناً ، لأنهم محققون لما تلقوه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قرآنًا، فهم آمنون من الالتباس، وربما كان بعضهم يكتبه معه"^(٣).

ومن خلال هذا النقل خلصنا إلى أن النوعين الأولين هما اللذان يقرأ بهما وأما غيرهما، فلا. والنوع الأول، وهو المتواتر مقطوع بقرآنيته بلا نزاع. وأما النوع الثاني وهو المشهور الذي اتفقت

(١) مستنقع ماء كالغدير ، كان بموضع بالمدينة نزل عنده بنو غفار فنسب إليهم
(٢) انظر صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف
(٣) انظر الإتيقان ١ / ٧٩ ، مناهل العرفان ١ / ٤٢٩ ، وما بعدها

فيه الضوابط الثلاثة المذكورة، وهي صحة السند، وموافقة اللغة العربية ولو بوجه، وموافقة الرسم العثماني ولو احتمالاً، أقول:

هذا النوع لم يوافق عليه بعض العلماء، بل اشترطوا التواتر دون صحة السند - أي لم يكتفوا بصحة السند- جاء في الإتيان تعليقا على ذلك.

وهذا مما لا يخفى ما فيه، فإن التواتر إذا ثبت، لا يحتاج فيه إلى الركنين الأخيرين من العربية والرسم، إذ ما ثبت من أحرف الخلاف متواتراً عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وجب قبوله والقطع بكونه قرآناً سواء وافق الرسم أو لا. ا.هـ (١)

ومن ثم قال بعض العلماء تعليقا على هذا الرأي في محاولة لتقريب وجهة النظر حول قبول هذه القراءة، أو عدم قبولها، قال: إن هذا القسم - يعنى الذى استجمع الأركان الثلاثة المذكورة - يتنوع إلى نوعين:

الأول: ضرب أو نوع، استفاض نقله وتلقته الأمة بالقبول، وهو يلحق بالمتواتر من حيث قبوله والعمل بمقتضاه، لأنه وإن كان من قبيل الأحاد إلا أنه احتفت به قرائن جعلته يفيد العلم لا الظن.

قال صاحب المناهل: إن ركن الصحة في ضابط القرآن المشهور، لا يراد بالصحة فيه مطلق صحة، بل المراد صحة ممتازة، تصل بالقراءة إلى حد الاستفاضة والشهرة، وتلقى الأمة لها بالقبول حتى يكون هذا الركن بقرينة الركنين الآخرين في قوة التواتر الذى لا يد منه في تحقق القرآنية^(٢).

والنوع الثانى: وهو ما لم تتلقه الأمة بالقبول ولم يستفرض، وهذا فيه خلاف بين العلماء، من حيث قبوله، والقراءة به، أو عدم ذلك والأكثر على قبوله^(٣).

أوجه الاختلاف بين القراءات الثابتة

سبق أن علمنا بأن القراءات مرجعها النقل الثابت عن النبي -صلى الله عليه وسلم - ولذلك، لم يكن الاختلاف بينها على سبيل التضاد فى المعانى، بل القراءة إما مؤكدة لغيرها، أو موضحة، أو مضيئة إليها معنى جديداً، فتكون كل قراءة بالنسبة للأخرى، بمنزلة الآية مع الآية، وكما أن الاختلاف بين هذه القراءات لم يكن على سبيل التضاد فى المعانى، فإنه كذلك لم يكن على سبيل التباين فى الألفاظ، وقد حصر بعضهم أوجه الاختلاف بين القراءات فى الوجوه الآتية:

الأول: الاختلاف فى شكل آخر الكلمات، أو بنيتها، مما يجعلها جميعاً فى دائرة العربية الفصحى، بل أفصح هذه اللغة، المتسقة فى ألفاظها، وتآخى عباراتها، ورنه موسيقاها، والتواؤم بين ألفاظها ومعانيها.

الثانى: الاختلاف فى المد فى الحروف، من حيث الطول والقصر، وكون المد لازماً أو غير لازم، وكل ذلك مع التآخى فى النطق فى القراءة الواحدة، فكل قراءة متناسقة فى ألفاظها من حيث البنية للكلمة، ومن حيث طول المد أو قصره.

الثالث: الاختلاف من حيث الإمالة، أو عدمها فى الحروف، كالوقوف بالإمالة فى التاء المربوطة، أو عدم الإمالة فيها.

الرابع: الاختلاف من حيث النقط ومن حيث شكل البنية فى مثل قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) (الحجرات: ٦) حيث قرئ متواتراً كذلك (فتثبتوا) ومع ذلك فالقراءتان متلاقتان فى المعنى، فالأولى طالبت بالتبيين المطلق، والأخرى بينت طريق التبيين، وهو التثبت بتحري الإثبات.

(١) الإتيان: ١ / ٧٨

(٢) انظر مناهل العرفان: ١ / ٤٧٠

(٣) انظر: مناهل العرفان: ١ / ٤٦٧، الرقعات القرآنية - تاريخ وتعريف ص ٦٦

الخامس: زيادة بعض الحروف في قراءة، ونقصها في أخرى، مثل قراءة ابن عامر - وهو أحد القراء السبعة- (قالوا اتخذ الله ولدا) [البقرة: ١١٦] بدون (واو) قبل (قالوا) بينما قرأ غيره بالواو هكذا(وقالوا اتخذ الله ولدا) (البقرة: ١١٦)، ومثل ذلك قراءة ابن كثير - وهو أحد القراء السبعة كذلك - (تجرى من تحتها الأنهار) بزيادة (من) بينما قرأ غيره (تجرى تحتها الأنهار) [التوبة: ١٠٠].

وتجدر الإشارة بأن المصاحف العثمانية - وعددها ستة أو سبعة - أثبت فيها كل ما يحتمله الرسم بطريقة واحدة (١)، وأما ما لا يحتمله الرسم كالزيادة والنقصان في حالتنا هذه، فإنه كان يثبت في بعض المصاحف بقراءة، وفي بعضها بقراءة أخرى.

وقد قال القرطبي في ذلك: "وما وجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف في حروف يزيدنها بعضهم، وينقصها بعضهم، فذلك لأن كلاً منهم اعتمد على ما بلغه في مصحفه ورواه، إذ كان عثمان كتب تلك المواضع في بعض النسخ، ولم يكتبها في بعض، إشعاراً بأن كل ذلك صحيح، وأن القراءة بكل منها جائزة" (٢).

فوائد اختلاف القراءات

مسألة اختلاف القراءات وتعددتها، كانت ولا زالت محل اهتمام العلماء، ومن اهتمامهم بها بحثهم عن الحكم والفوائد المترتبة عليها، وهي عديدة نذكر الآن بعضاً منها، فأقول - وبالله التوفيق:-
إن من الحكم المترتبة على اختلاف القراءات ما يلي:-

١- التيسير على الأمة الإسلامية، ونخص منها الأمة العربية التي شوفهت بالقرآن، فقد نزل القرآن الكريم باللسان العربي، والعرب يومئذ قبائل كثيرة، مختلفة اللهجات، فراعى القرآن الكريم ذلك، فيما تختلف فيه لهجات هذه القبائل، فأنزل فيه - أى بين قراءاته - ما يواكب هذه القبائل -على تعددها - دفعاً للمشقة عنهم، وبذلاً لليسر والتهوين عليهم.

٢- الجمع بين حكمين مختلفين مثل قوله تعالى: (فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن)(البقرة: ٢٢٢)، حيث قرئ (يطهرن) بتخفيف الطاء وتشديدها، ومجموع القراءتين يفيد أن الحائض، لا يجوز أن يقربها زوجها إلا إذا طهرت بأمرين: أ- انقطاع الدم، ب- الاغتسال.

٣- الدلالة على حكمين شرعيين في حالين مختلفين، ومثال ذلك قوله تعالى: (فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين)[المائدة: ٦] إذ قرئ (وأرجلكم) بالنصب عطفاً على (وجوهكم) وهي تقتضى غسل الأرجل، لعطفها على مغسول وهي الوجوه. وقرئ (وأرجلكم) بالجر عطفاً على (رءوسكم) وهذه القراءة تقتضى مسح الأرجل، لعطفها على ممسوح وهو الرءوس. وفي ذلك إقرار لحكم المسح على الخفين.

٤- دفع توهم ما ليس مراداً: ومثال ذلك قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله)[الجمعة: ٩]، إذ قرئ (فامضوا إلى ذكر الله)، وفي ذلك دفع لتوهم وجوب السرعة في المشي إلى صلاة الجمعة المفهوم من القراءة الأولى، حيث بينت القراءة الثانية أن المراد مجرد الذهاب (٣).

٥- إظهار كمال الإعجاز بغاية الإيجاز، حيث إن كل قراءة مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية، وذلك من دلائل الإعجاز في القرآن الكريم، حيث دلت كل قراءة على ما تدل عليه آية مستقلة.

(١) أعنى طريقة واحدة تجمع القراءات الواردة في الكلمة مثل قوله تعالى: { ملك يوم الدين } فإن كلمة { ملك } كتبت بهذه الطريقة لتشمل قراءتى { مالك } و { ملك } وهكذا كلمة { فتبينوا } الحجرات: ٦ . حيث كتبت هكذا لتشمل قراءتى { فتبينوا } و { فتبينوا } حيث كان الرسم خالياً من النقط والشكل -.

(٢) انظر: القرطبي ١ / ٤٧، كتاب المعجزة الكبرى ص ٤٨ - ٥٠ بتصرف.

(٣) انظر: مناهل العرفان ١ / ١٤٧، ١٤٨.

٦- اتصال سند هذه القراءات علامة على اتصال الأمة بالسند الإلهي، فإن قراءة اللفظ الواحد بقراءات مختلفة، مع اتحاد خطه وخلوه من النقط والشكل، إنما يتوقف على السماع والتلقى والرواية، بل بعد نقط المصحف وشكله ، لأن الألفاظ إنما نقطت وشكلت في المصحف على وجه واحد فقط، وباقي الأوجه متوقف على السند والرواية إلى يومنا هذا. وفي ذلك منقبة عظيمة لهذه الأمة المحمدية بسبب إسنادها كتاب ربها، واتصال هذا السند بالسند الإلهي، فكان ذلك تخصيصاً بالفضل لهذه الأمة^(١).

٧- في تعدد القراءات تعظيم لأجر الأمة في حفظها والعناية بجمعها ونقلها بأمانة إلى غيرهم، ونقلها بضبطها مع كمال العناية بهذا الضبط إلى الحد الذي حاز الإعجاب^(٢).

التعريف بالقراء الأربعة عشر ورواتهم

أولاً: القراء العشرة ورواتهم:

القراء جمع قارئ، اسم فاعل من قرأ، والمراد به في اصطلاح أهل الفن: الإمام الذي تنتسب إليه قراءة^(٣)، والمراد بقولنا العشرة: القراء الذين تنتسب إليهم القراءات العشر التي وصفها العلماء بأنها متواترة جميعها، وتشمل القراءات السبع وتواترها مجمع عليه ثم الثلاث تنمة العشر، وقد حقق العلماء كونها متواترة كما ذكر في ثنايا هذا البحث في غير ما موضع.

والقراء السبعة هم:

١- ابن عامر^(٤)

واسمه عبدالله بن عامر بن يزيد بن تميم بن ربيعة بن عامر بن عبدالله اليحصبي. ولد سنة إحدى وعشرين من الهجرة وقيل سنة ثمان وعشرين منها وتوفي سنة ثمان عشرة ومائة من الهجرة النبوية المباركة، وهو تابعي جليل لقي وائلة بن الأسقع والنعمان بن بشير وقد أخذ عن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي عن عثمان بن عفان عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم . وقيل: إنه قرأ على عثمان - رضى الله عنه - مباشرة بلا واسطة، وقد أخذ عنه أهل الشام قراءته واشتهر برواية قراءته:

أ- هشام وهو أبو الوليد بن عمار بن نصير السلمي الدمشقي . ت [٢٤٥ هـ]^(٥)

ب- ابن ذكوان وهو أبو محمد عبدالله بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشي الدمشقي ت [٢٤٢ هـ]^(٦)، ورواية هذين لقراءة ابن عامر هي بالواسطة.

وقد قال صاحب الشاطبية في ابن عامر وراوييه:

وأما دمشق الشام دار ابن عامر فتلك بعبدالله طابت محللا
هشام وعبدالله وهو انتسابه لذكوان بالإسناد عنه تنقلا

٢- ابن كثير^(١)

(١) انظر: جواهر البين في علوم القرآن د ٠ محمد العسال ص ٩٤ .

(٢) انظر: دراسات في علوم القرآن د ٠ محمد بكر إسماعيل

(٣) القارئ المبتدئ من أفرد إلى ثلاث روايات ، والمتوسط إلى أربع أو خمس ، والمنتهى من عرف من القراءات أكثرها واشهرها.

(٤) ترجمته في غاية النهاية - ٤٠٤/١ لابن الجوزي ، معرفة القراء الكبار للذهبي - ٨٢/١ ، البحث والاستقراء في تراجم القراء - ص ٣٠ ، و أنظر أيضاً: مناهل العرفان - ٤٥٦/١ ، وقد أخطأ صاحب إعراب القرآن الكريم وبيانه ٢٤٣/٣ فترجم له على أنه الصحابي الجليل عقبة بن عامر.

(٥) غاية النهاية - ٣٥٥/٢ ، معرفة القراء - ١٩٥/١ .

(٦) غاية النهاية - ٤٠٤/١ ، معرفة القراء - ١٩٨/١ .

هو أبو محمد أو أبو معبد عبدالله بن كثير الدارى، ولد بمكة سنة خمس وأربعين للهجرة، وتوفى سنة عشرين ومائة. تابعى جليل وإمام فى القراءة، لقي من الصحابة عبدالله بن الزبير وأبا أيوب الأنصارى، وأنس بن مالك. وقد كان رحمه الله إمام الناس بمكة لم ينازع فى ذلك، ولذلك روى عنه الخليل بن أحمد ونقل عنه.

روى ابن كثير عن مجاهد عن ابن عباس عن أبى بن كعب عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقرأ على عبدالله بن السائب المخزومى، وقرأ عبدالله هذا على أبى ابن كعب، وعمر بن الخطاب، وقرأ كلاهما على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقد اشتهر بالرواية عنه بواسطة أصحابه:

أ- البزى: وهو أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبدالله بن القاسم ابن أبى بزة (٢)
ب- وقنبل: وهو محمد بن عبدالرحمن بن خالد المخزومى المكى ت [٢٩١ هـ] (٣)، وقد لقب بقنبل لشدة، فلقنبل هو الغلام الحاد الرأس الخفيف الروح.
وقد قال صاحب الشاطبية فيه وفى راوييه:

ومكة عبدالله فيها مقامه هو ابن كثير كثر القوم مُعتلا
روى أحمد البزى له ومحمد على سند وهو الملقب قنبلًا

٣- عاصم (٤)

هو عاصم بن أبى النجود الأسدى، توفى سنة سبع وعشرين ومائة، كان قارئاً متقناً، آية فى التحرير والإتقان والفصاحة.

قال عبدالله بن أحمد: سألت أبى عن عاصم فقال: رجل صالح خير ثقة، فسألته: أى القراء أحب إليك؟ قال: قراءة أهل المدينة، فإن لم تكن فقراءة عاصم.

وقد أخذ عاصم قراءته عن ثلاثة من الصحابة هم على بن أبى طالب، وعبدالله بن مسعود، وأبى بن كعب. فقرأ عاصم على أبى عبدالرحمن عبدالله بن حبيب السلمى معلم الحسن والحسين وأبو عبدالرحمن قرأ على بن أبى طالب عن النبى - صلى الله عليه وسلم -.

وقرأ كذلك على أبى عبدالرحمن السلمى وزر بن حبيش الأسدى على أيضاً. وقرأ عليهما ومعهما أبو عمرو الشيبانى ثلاثتهم على عبدالله بن مسعود.

وقرأ قراءة أبى بن كعب بطريق واحد هو طريق أبى عبدالرحمن السلمى وراويه هما:

أ- شعبة: وهو أبو بكر بن عياش الأسدى. ت سنة [١٩٣ هـ] (٥)

ب- حفص: وهو أبو عمرو حفص بن سليمان بن المغيرة البزار، كان ربيب عاصم تربى فى حجره، وتعلم منه، لذا كان أدق إتقاناً من شعبة. ت [١٨٠ هـ] (٦)

وقد قال صاحب الشاطبية فى عاصم وراوييه:

وبالكوفة الغراء منهم ثلاثة
فأما أبو بكر وعاصم اسمه
وذلك ابن عياش أبو بكر الرضا
أذاعوا فقد ضاعت شذى وقرنفا
فشعبة راويه المبرز أفضل
وحفص وبالإتقان كان مفضلاً

(١) ترجمته فى غاية النهاية ٣٣٠/٢ ، ومعرفة القراء ٨٦/١ ، البحث بالاستقراء - ص ١٥ ، وأنظر: مناهل العرفان ٤٥٧/١.

(٢) ت سنة [٢٥٠] - أنظر غاية النهاية - ١٤٦/١.

(٣) غاية النهاية - ١٦٥/٢ ، معرفة القراء - ٢٣٠/١.

(٤) ترجمته فى غاية النهاية ٣٤٦/١ ، ومعرفة القراء ٨٨/١ ، البحث بالاستقراء - ص ٤١، ٤٠ ، وأنظر: مناهل العرفان ٤٥٨/١.

(٥) غاية النهاية - ٣٢٥/١ ، معرفة القراء - ١٣٤/١.

(٦) غاية النهاية - ٣٢٥/١ ، معرفة القراء - ١٣٤/١.

٤- أبو عمرو^(١)

هو أبو عمرو زبان بن العلاء البصرى، كان مولده سنة ثمان وستين من الهجرة المباركة، وهو من أعلم الناس بالقراءة، وكان والده قد أخذه معه حينما هرب من الحجاج إلى كثير من البلدان، وقد قرأ القرآن بمكة والمدينة، وقرأ أيضاً بالكوفة والبصرة على جماعات كثيرة، وليس من علماء القراءات من هو أكثر شيوخاً منه، ومرجع ذلك إلى كثرة تنقله إلى أماكن عديدة، حيث لم يستقر في مكان واحد.

جاء في التهذيب عن أبي معاوية الأزهرى: كان أعلم الناس بوجوه القراءات وألفاظ العرب ونوادير كلامهم وفصيح أشعارهم^(٢).

وقد أخذ أبو عمرو قراءته عن ثلاثة من الصحابة هم:

١- عمر بن الخطاب: من طريق أبي جعفر يزيد بن القعقاع والحسن البصرى عن حطان وأبي العالية عن عمر بن الخطاب.

٢- وعلى بن أبي طالب: أخذها عنه من ست طرق.

٣- وأبي بن كعب: أخذها عنه من أحد عشر طريقاً.

وكانت وفاته رحمه الله سنة أربع وخمسين من الهجرة المباركة وراويه هما:

١- الدورى: وهو أبو عمرو حفص بن عمر المقرئ الضريز، ولقب بالدورى نسبة إلى الدور وهو موضع بالجانب الشرقى من بغداد. ت [٢٤٦] ^(٣)

٢- السوسى: وهو أبو شعيب صالح بن زياد وكان ثقة ضابطات [٢٦١] ^(٤) وقد قال صاحب الشاطبية:

وأما الإمام المازنى صريحهم	أبو عمرو البصرى فوالده العلا
أفاض على يحيى اليزيد سيبه	فأصبح بالعذب الفرات معللا
أبو عمرو الدورى وصالحهم أبو	شعيب هو السوسى عنه تقبلا

٥- حمزة^(٥)

هو حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الكوفى التيمى، ولد سنة ثمانين من الهجرة، وتوفى سنة ست وخمسين ومائة، وقد أخذ القراءة عن أبي محمد سليمان بن مهران الأعمش عن يحيى بن وثاب عن زر بن حبيش عن عثمان وعلى وابن مسعود عن الرسول - صلى الله عليه وسلم. قال له الإمام أبو حنيفة: شينان غلبتنا عليهما لسنا ننازعك فيها القرآن والفرائض. وراويه هما:

١- خلف: وهو أبو محمد الأسدى بن هشام بن ثعلب البزار البغدادي. ت [٢٢٩] ^(٦)

٢- خالد: وهو أبو عيسى خالد بن خالد الأحول الصيرفى. ت [٢٢٠] ^(٧)

قال صاحب الشاطبية:

وحمزة ما أزكاه من متورع إماماً صبوراً للقرآن مرتلاً

(١) ترجمته فى غاية النهاية - ٢٨٨/١ ، معرفة القراء - ١٠٠/١ ، وأنظر: مناهل العرفان - ٤٥٩/١ .

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى - ١٧٨/٢ .

(٣) غاية النهاية - ٢٥٥/١ ، معرفة القراء - ١٩١/١ .

(٤) غاية النهاية - ٣٣٢/١ ، معرفة القراء - ١٩٣/١ .

(٥) ترجمته فى غاية النهاية - ٢٦١/١ ، ومعرفة القراء - ١١١/١ ، والبحث والاستقراء - ص ٤٦ .

(٦) غاية النهاية - ٢٧٢/١ ، ومعرفة القراء - ٢٠٨/١ وخلف هذا أحد الثلاثة تنمة العشرة .

(٧) غاية النهاية - ٢٧٤/١ ، ومعرفة القراء - ٢١٠/١ .

روى خلف عنه وخلاّد الذي رواه سليم متقناً ومحصلاً

٦- نافع^(١)

هو أبو رُوَيْم نافع بن عبدالرحمن بن أبي نعيم المدني. ولد سنة سبعين من الهجرة، وتوفى سنة تسع وستين ومائة.
قيل: إنه كان إذا قرأ القرآن كانت تشم منه رائحة المسك، وقد أخذ القراءة عن أبي جعفر القارئ وعن سبعين من التابعين عن عبدالله بن عباس وأبي هريرة عن أبي بن كعب عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد انتهت إليه رئاسة الإقراء بالمدينة المنورة.
قال سعيد بن منصور: سمعت مالك بن أنس- رضى الله عنه - يقول: قراءة أهل المدينة سنة، قيل له: يعنى قراءة نافع؟ قال: نعم. وأما راوياه فهما:
أ- قالون: وهو أبو موسى عيسى بن مينا بن وردان النحوى. ت [٢٢٠]، وقالون هذا لقبه ومعناه بالرومية الجيد ولقب به لجودة قراءته^(٢)
ب- ورش: وهو عثمان بن سعيد المصرى، وورش هذا لقبه ومعناه شديد البياض، رحل إلى المدينة فقرأ على نافع ثم عاد إلى مصر. ت [١٩٧]^(٣)
قال صاحب الشاطبية:

فأما الكريم السر فى الطيب نافع فذاك الذى اختار المدينة منزلاً
وقالون عيسى ثم عثمان ورشهم بصحبته المجد الرفيع تأشلاً

٧- الكسائى^(٤)

هو على بن حمزة بن عبدالله بن بهمن بن فيروز الأسدى النحوى، توفى سنة تسع وثمانين ومائة، وقد لقب بالكسائى لأنه كان محرماً فى كساء، وقيل: لأنه كان يلبس كساء له طابع خاص مميز، وكان يجلس فى مجلس حمزة، وكان حمزة يقول: اعرضوا على صاحب الكساء أى اعرضوا عليه الرأى. قال الأهوازى: وهذا القول أشبه بالصواب^(٥).
قال عنه أبو بكر الأنبارى: اجتمعت فى الكسائى أمور، كان أعلم الناس بالنحو وأوحدهم بالغريب، وكان أوحد الناس بالقرآن، فكانوا يكثرون عليه، حتى يضطر أن يجلس على الكرسي ويتلو القرآن من أوله إلى آخره، وهم يسمعون منه ويضبطون عنه^(٦).
أخذ عن أربعة من الصحابة قراءته وهم:
عثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، وعبدالله بن مسعود، وأبى بن كعب عن النبى - صلى الله عليه وسلم - وقد أخذ عن هؤلاء الصحابة بخمسة عشر طريقاً.
وراوياه هما:
أ- أبو الحارث: وهو الليث بن خالد المروزى، كان من أجل أصحاب الكسائى، ثقة وضبطاً. ت [٢٤٠]^(٧)

(١) ترجمته فى غاية النهاية - ٣٣٠/٢ ، معرفة القراء - ١٠٧/١ ، البحث والاستقراء - ص٧.

(٢) غاية النهاية - ٦١٥/١ ، معرفة القراء - ١٥٥/١.

(٣) غاية النهاية ٥٠٢/١ ، معرفة القراء - ١٥٢/١.

(٤) ترجمته فى غاية النهاية - ٥٣٥/١ ، معرفة القراء - ١٢٠/١ ، البحث والاستقراء - ص٥٣.

(٥) البحث والاستقراء ص٥٣.

(٦) مناهل العرفان - ٤٦٢/١.

(٧) غاية النهاية - ٣٤/٢ ، معرفة القراء - ٢١١/١.

ب- الدورى : وهو أبو عمر حفص بن عمر الدورى، وقد مر الحديث عنه فهو أحد راوى أبى عمرو.

قال صاحب الشاطبية:

وأما على فالكسائى نعتة لما كان فى الإحرام تسربلا
روى ليثهم عنه أبو الحارث الرضا حفص هو الدورى وفى الذكر قد خلا

والى هنا نكون قد انتهينا من الترجمة الموجزة للقراء السبعة المجمع على تواتر قراءتهم، وقد عرفنا بإيجاز كذلك براوى كل واحد منهم، ثم ننتقل بعد ذلك إلى التعريف بالثلاثة تنمة العشرة الذين حقق العلماء تواتر قراءتهم كذلك، ونعرف موجزين برواتهم أيضاً
٨- أبو جعفر (١)

هو: يزيد بن القعقاع أبو جعفر المخزومى المدنى القارئ ت [١٣٠ هـ] تابعى جليل القدر، تام الضبط، رفيع المنزلة أخذ قراءته عن عبدالله ابن عباس وأبى هريرة عن أبى بن كعب عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

وراويه هما:

أ- ابن وردان: وهو أبو موسى عيسى بن وردان الخداء المدنى، من أصحاب نافع فى القراءة على أبى جعفر وكان مقرئاً ضابطاً ثقة ت [١٦٠ هـ]

ب- ابن جماز: (٢) وهو أبو الربيع سليمان بن مسلم بن جماز ت [١٧٠ هـ]
٩- يعقوب (٣)

هو يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبدالله بن إسحاق أبو محمد الحضرمى، أحد القراء العشرة وإمام أهل البصرة، انتهت إليه رئاسة القراءة بعد أبى عمر الدانى توفى سنة خمس ومائتين. قرأ على أبى المنذر سلام بن سليمان الطويل وقرأ سلام هذا على عاصم وعلى أبى عمرو. وراويه هما:

أ- روح: (٤) وهو أبو الحسن روح بن عبدالمؤمن بن عبدة الهذلى النحوى ت [٢٣٤]

ب- رويس: (٥) وهو أبو عبدالله محمد بن المتوكل اللؤلؤى البصرى ت [٢٣٨]
١٠- خلف (٦)

هو أبو محمد خلف بن هشام ابن ثعلب بن خلف بن ثعلب الأسدى أحد القراء العشرة، وأحد راوى حمزة كما مر ت [٢٢٩]، قرأ على سليم عن حمزة، وعلى يعقوب بن خليفة الأعشى، وعلى أبى زيد سعيد بن اوس الأنصارى صاحب الفضل الضبى، وعلى أبى العطار وهم أخذوا عن عاصم.

وراويه هما:

أ- أبو يعقوب (٧) إسحاق بن إبراهيم بن عثمان المروزى ت [٢٨٦] هـ.

ب- أبو الحسن (٨) إدريس عبدالكريم الحدادى البغدادى ت [٢٩٢] هـ.

(١) ترجمته فى غاية النهاية - ٣٨٢/٢ ، وأنظر: مناهل العرفان - ٤٦٣/١ .

(٢) غاية النهاية - ٣١٥/١ .

(٣) غاية النهاية - ٣٨٦/٢ ، ومعرفة القراء - ١٥٧/١ .

(٤) غاية النهاية - ٣١٥/١ .

(٥) غاية النهاية - ٢٧٢/١ ، معرفة القراء - ٢١٨/١ .

(٦) غاية النهاية - ٢٧٢/١ ، معرفة القراء - ٢٠٨/١ .

(٧) غاية النهاية - ١٥٥/١ .

(٨) غاية النهاية - ١٥٤/١ .

وبعد، فهؤلاء هم القراء العشرة ورواتهم الذين تلقت الأمة قراءتهم بالقبول، وقد قلت سابقاً: إن المحققين من العلماء قد حكموا بتواترها جميعاً بما فيها القراءات الثلاث المتممة للعشر، ومن ثم يلزم قبولها جميعاً، ولا يجوز رد شئ منها. والله أعلم.

وقد اعترض بعضهم على تواتر هذه القراءات بحجة أن الأسانيد إلى هؤلاء الأئمة القراء وأسانيدهم هم إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - هي أحاد ولا تبلغ حد التواتر.

ويجاب عن ذلك بأن انحصار الأسانيد المذكورة في طائفة لا يمنع مجئ القراءات عن غيرهم، وإنما نسبت القراءات إلى الأئمة ومن ذكر في أسانيدهم، والأسانيد إليهم، لتصديهم لضبط الحروف وحفظ شيوخهم فيها، ومع كل واحد منهم في طبقتهم ما يبلغها عدد التواتر، لأن القرآن قد تلقاه من أهل كل بلد بقراءة إمامهم الجم الغفير عن مثلهم، وكذلك دائماً مع تلقى الأمة لقراءة كل منهم بالقبول.

قال السخاوي: "ولا يقدح في تواتر القراءات السبع (١) إذا أسندت من طريق الأحاد، كما لو قلت: أخبرني فلان عن فلان أنه رأى مدينة سمرقند - مثلاً - وقد عُلم وجودها بطريق التواتر لم يقدح ذلك فيما سبق من العلم بها" (٢).

وهذا التواتر المذكور شامل للأصول والفرش وهذا هو الذى عليه المحققون (٣).
والمراد بالأصول الأحكام الكلية المطردة الجارية في كل ما تحقق فيه شرط ذلك الحكم كالمد والقصر والإظهار والإدغام والإقلاب وغيرها، والمراد بالفرش ما يذكر في السورة من كيفية قراءة كل كلمة قرآنية مختلف فيها بين القراء مع عزو كل قراءة إلى صاحبها، ويسمى فرش الحروف وسماه بعضهم بالفروع مقابلة للأصول وذلك كاختلافهم في قراءة " يخدعون، ننسخ، ننشزها، فتبينوا" وهذا هو الذى يؤثر في المعنى دون الأول.

السبب الداعي للاقتصار على القراء المشهورين

قال الديمياطي: "ليعلم أن السبب الداعي إلى أخذ القراءة عن القراء المشهورين دون غيرهم، أنه لما كثر الاختلاف فيما يحتمله رسم المصاحف العثمانية التي وجه بها عثمان - رضى الله عنه - إلى الأمصار، وحبس بالمدينة واحداً وأمسك لنفسه واحداً الذى يقال له: الإمام، فصار أهل الأهواء والبدع يقرأون بما لا يحل تلاوته وفاقاً لبدعتهم، أجمع رأى المسلمين أن يتفقوا على قراءات أئمة ثقافت تجردوا للاعتناء بشأن القرآن العظيم، فاختاروا من كل مصر وجه إليه مصحف - اختاروا - أئمة مشهورين بالثقة والأمانة في النقل وحسن الدراية وكمال العلم أفنوا عمرهم في القراءة والإقراء، واشتهر أمرهم، وأجمع أهل مصرهم على عدالتهم ولم تخرج قراءتهم عن خط وصفهم، ثم إن القراء الموصوفين بما ذكر بعد ذلك تفرقوا في البلاد وخلفهم الأئمة لذلك ميزاناً يرجع إليه وهو السند والرسم والعربية" (٤)

يقصد بذلك الضوابط الثلاثة الموضوعية لقبول القراءة والمذكورة في هذا البحث في مواضع متعددة. ومن خلال هذا النقل النفيس عن الديمياطي نتيقن من أن انحصار أخذ القراءة عن هؤلاء الأئمة المشهورين لا يعنى بحال من الأحوال ألا يكون أحد عليهم بالقراءات سواهم.

ثانياً: القراء الأربعة تنتم الأربعة عشر

١- أبو الحسن البصرى (٥)

(١) قلت: بل العشر على التحقيق.

(٢) نقله القاسمى في مقدمة محاسن التأويل - ٣٠٤/١.

(٣) إتحاف فضلاء البشر - ص ٩.

(٤) إتحاف فضلاء البشر - ص ٧ ، ٨.

(٥) معرفة القراء ٦٥/١ ، سير أعلام النبلاء ٥٦٣/٤.

هو الإمام أبو سعيد الحسن بن الحسن يسار البصرى، تابعى جليل، ولد فى خلافة عمر سنة إحدى وعشرين، وتوفى سنة عشر ومائة من الهجرة المباركة.

لقى من الصحابة على بن أبى طالب وأم سلمة أم المؤمنين - رضى الله عنها - وأخذ عن سمرة بن جندب، يُشهد له بالورع والزهد، وكان إماماً فى القراءات والتفسير والفقه وغير ذلك من العلوم الإسلامية.

٢- ابن محيىصن (١)

هو أبو عبدالله بن عبدالرحمن بن محيىصن السهمى المكى توفى سنة ثلاث وعشرين ومائة. شهد له بالعلم فى الأثر والعربية والقراءات فهو مقرئ أهل مكة مع ابن كثير.

٣- يحيى اليزيدى (٢)

هو أبو محمد بن المبارك بن المغيرة اليزيدى المتوفى سنة اثنتين ومائتين كان فصيحاً مفوهاً، إماماً فى اللغة والأدب والقراءات، وهو أمثل أصحاب أبى عمرو، وقد قام بعده بالقراءة ففاق نظراءه.

٤- الأعمش (٣)

هو أبو محمد سليمان بن مهران الأعمش الأسدى المتوفى سنة ثمان وأربعين ومائة، وكان إماماً فى القراءات، لا يلحن فى كلامه، لقي من الصحابة عبدالله بن أبى أوفى، وأنس بن مالك - رضى الله عنهما. لكن لم يثبت له سماع من أحدهما، وكان شعبة يقول عنه: المصحف المصحف لصدقه.

حكم ما وراء القراءات العشر

اختلف العلماء فيما زاد عن العشر من القراءات هل يحكم عليه جميعاً بحكم واحد أم لا؟ فاتجه فريق منهم إلى أن جميع القراءات الأربع عشرة صحيحة هكذا بإطلاق الحكم بالصحة.

واتجه فريق آخر إلى أن الأربع الزائدة على العشر شاذة، هكذا بإطلاق الحكم بالشذوذ كذلك (٤).

وتوسط بين هذين الفريقين فريق ثالث، نظروا إلى القراءات لا من حيث أعدادها ولا أشخاصها، ولكن من حيث هى قواعد ومبادئ وضوابط، ويعنون ضوابط القراءة المقبولة الثلاثة وهى:

١- صحة السند.

٢- موافقة اللغة ولو بوجه.

٣- موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً.

فحيث تحققت هذه الضوابط فى قراءة فهى صحيحة مقبولة، وإلا كانت مردودة أو شاذة بقطع النظر عن نسبت إليه هذه القراءة.

من صور اختلاف المعنى والتفسير بسبب القراءات وضوابط الخروج منه أولاً:- الخلاف بين قراءة متواترة وأخرى شاذة

قد ترد أحياناً آية بقراءتين، إحداهما متواترة، والأخرى شاذة، فيختلف تفسيرها عند المفسرين بسبب ذلك، حيث يفسرها بعضهم، معتمداً على القراءة المتواترة، بينما ينحاز بعضهم إلى القراءة الشاذة، فيقع التعارض، أو الخلاف.

(١) غاية النهاية - ١٦٧/٢.

(٢) غاية النهاية - ٣٧٥/٢.

(٣) غاية النهاية - ٣١٥/١، معرفة القراء - ٩٤/١.

(٤) قال الدمياطى: أخذنا عن شيوخنا أن الأربعة - بعد العشرة - وهم ابن محيىصن واليزيدى والحسن والأعمش قراءتهم شاذة اتفاقاً. أنظر: الإتحاق - ص ٩.

والقاعدة الحاسمة للخروج من هذا الخلاف: القراءة المتواترة هي الأصل ، لأنها قرآن مقطوع به، فلا تقوى على معارضتها قراءة شاذة، ولا يخفى بأن التواتر أقوى طرق الإثبات، ولذلك فإنه يفيد اليقين والقطع، والمتواتر: هو ما رواه جمع عن جمع تحيل العادة تواطؤهم على الكذب، وأما القراءة الشاذة فهي التي اختلف فيها ركن من أركان القراءة الصحيحة التي سبق ذكرها وهي:

١- صحة السند.

٢- موافقة اللغة العربية، ولو بوجه.

٣- موافقة أحد المصاحف العثمانية، ولو احتمالاً.

فمتى اختلف ركن من هذه الأركان، فهي القراءة الشاذة.

وقيل: الشاذ هو ما صح سنده، وخالف الرسم والعربية مخالفة تضر، أو لم تشتهر عند القراء. ^(١) وقد يطلق الشاذ ويراد به كل ما لا يقرأ به من أنواع القراءات.

وقولنا في القاعدة: "فلا تقوى على معارضتها قراءة شاذة" يخرج ما إذا كانت الشاذة، مؤيدة للمتواترة، فإنه يجوز ذكرها على سبيل الاستشهاد والبيان للقراءة المتواترة ^(٢)، وكون القراءة الشاذة، لا تقوى على معارضة المتواترة، مما لا يمارى فيه، بل إن كثيراً من الأصوليين، لم يعتبرها حجة حتى في مقام عدم المعارضة.

تاسعا- الإسرائيليات

هي القصص والأخبار اليهودية والنصرانية التي تسربت إلى المجتمع الإسلامي عن طريق من أسلم من أهل الكتاب حقيقة أو تظاهر بالدخول في الإسلام وسميت بالإسرائيليات لتغليب اللون اليهودي فيها حيث إن أكثرها جاء عن اليهود ولتخالطهم بالمسلمين في المجتمع المدني أكثر من النصراني ولأن النصراني يُعتبروا تبعاً لليهود ، لذلك سميت بالإسرائيليات .

وقد بدأ اليهود بالدس منذ الأيام الأولى لدخول الإسلام في المدينة المنورة فأدخلوا ثقافتهم وثقافات أخرى وظهر أثر هذه الثقافات في العقلية المسلمة مع بقاء الروايات الإسرائيلية هي الظاهرة وخاصة فيما يتعلق بتفسير القرآن الكريم .

وكانت الثقافة اليهودية تتمثل في التوراة وبما تحويه من الأسفار الموسوية وتسمى بالعهد القديم وهذه حُرُفت وتمّ فيها التغيير والتبديل والقرآن الكريم يشهد بذلك قال تعالى : { يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ } [المائدة: ١٣].

وكان لليهود بجانب التوراة سنن ونصائح وشروح لم تؤخذ عن موسى - عليه السلام - بطريق الكتابة وإنما أخذت بطريق المشافهة إلا أنها حُرُفت بالزيادة عليها والنقص منها ، مثلها مثل التوراة في ذلك ، قال تعالى : { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسْتَ بِرَأْيِهِمْ بِهَذَا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ } [البقرة: ٧٩]، ثم دونت مع الزمن وعرفت بالتلمود ، وكان يوجد بجانب ذلك الكثير من الأدب والقصص والتاريخ والتشريع والأساطير اليهودية .

أما النصراني فتتمثل ثقافتهم في الأنجيل المعتبرة عندهم ورسائل الرسل وتسمى جميعاً بالعهد الجديد ، أما الكتاب المقدس فهو يعني عندهم التوراة والإنجيل ويسمى بالعهد القديم والعهد الجديد .

أسباب دخول الإسرائيليات في المجتمع الإسلامي :

١- لقد تناول القرآن الكريم العديد من قصص الأنبياء والأمم السابقة والحوادث التي مرّت في الأزمنة الغابرة بصورة من الإيجاز مع التركيز على جانب الموعظة والعبرة من ذلك

(١) التحرير للسيوطي : ص ٦٩.

(٢) أنظر: أضواء البيان : ٧/١ ، معترك الأقران - ١٢٧/١ ، ١٢٨.

القصص دون أن يذكر التفاصيل ودقائق القصة ، والنفس البشرية تميل دائماً إلى معرفة التفاصيل ودقائق تتعلق بالقصص القرآني ، لذلك عندما سألوا أهل الكتاب فأجابوهم بما هو موجود في التوراة والإنجيل .

٢- إسلام العديد من أهل الكتاب ودخول في الدين الإسلامي ساهم مساهمة حقيقية في إدخال الكثير من الروايات الإسرائيلية إلى المجتمع الإسلامي وخاصة أنه □ أمر بالحديث عنهم فقال: "بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" أي حدثوا عنهم بما يتفق وحدود الشريعة الإسلامية وضمن الشروط الواجبة في الأخذ عن أهل الكتاب .

ومرت فترة على المجتمع الإسلامي دخل فيها كثير من المرويات الإسرائيلية دون التقيد بالقيود التي وضعها الإسلام فتسرب الضعيف والمكذوب والمخالف لشرعنا الإسلامي وغيره وخاصة في أواخر عهد التابعين .

حكم الإسرائيليات :

يأخذ ما ورد عن أهل الكتاب من إسرائيلييات حكماً من الأحكام الثلاثة الآتية :-

١- إن كانت الرواية عن أهل الكتاب مصدقة لما عندنا فنصدقها ونأخذها للاستئناس لا للاستدلال ونعتبرها من الثقافة الإسلامية .

٢- وإن كانت الرواية الإسرائيلية تُكذب ما عندنا فنكذبها ونضرب بها عرض الحائط لأنها مخالفة لما جاء في شريعتنا الإسلامية .

٣- أما إذا كانت الرواية الإسرائيلية لا توافق ولا تعارض ما عندنا فنتوقف حينئذٍ فلا نصدقها ولا نكذبها خوفاً من أن نصدق بكذب وباطل ولا نكذبها خوفاً من أن نكذب بصدق وحق عملاً بقول الرسول-صلى الله عليه وسلم:- "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا" (١) .

عاشراً: تفسير القرآن وشرفه

التفسير كشف معاني القرآن وبيان المراد منه وهو أجل العلوم الشرعية وأشرف صناعة يتعاطاها الإنسان وأرفعها قدراً وهو أشرف العلوم موضوعاً وغرضاً وحاجة إليه لأن موضوعه كلام الله الذي هو ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة، ولأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية وإنما اشتدت الحاجة إليه لأن كل كمال ديني أو دنيوي لا بد وأن يكون موافقاً للشرع وموافقته تتوقف على العلم بكتاب الله تعالى ويجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين للأمة معاني القرآن كما بين ألفاظه كما قال تعالى: {لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [النحل: ٤٤] وكانوا إذا تعلموا عشر آيات من النبي ﷺ لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً.

والعادة تمنع من أن يقرأ قوم كتاباً في فن من الفنون كالتطب والحساب ولا يعرفون معناه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم، وعن سعيد بن جبير قال: "من قرأ القرآن ثم لم يفسره كان كالأعمى أو الأعرابي" (٢)، وحاجة المسلم ماسة إلى فهم القرآن الذي هو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم.

ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك (٣).

وقال القرطبي: "ينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو، فما أقبح بحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه وهو لا يفهم معنى ما

(١) فتح الباري - ج ٨ ص ١٢٠ .

(٢) أخرجه الطبري (٨٧):ص ٨١/١.

(٣) ينظر: مقدمة أصول التفسير لابن تيمية ٦، ٧.

يتلوه فكيف يعمل بما لا يفهم معناه، ما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه وهو لا يدريه، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا " (١) وقد ذم الله من هذه حاله بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

وأقرب التفاسير تناولاً: تفسير الجلالين، حيث يذكر معنى الكلمة وأسباب النزول والقراءات باختصار، إلا أنه قد يخطئ في تفسير صفات الله تعالى مثل المجيء والنزول وغيرهما حيث يفسرها على طريقة الأشاعرة، ومن أراد التوسع والتحقيق فعليه بتفسير الإمام ابن كثير فإنه تفسير سلفي ممتاز، وتفسير ابن سعدي (٢) ثم تفسير الطبري، والقرطبي، فإنهما من أمهات التفاسير الصحيحة المعتمدة، وكذلك تفسير البغوي وابن الجوزي وفتح القدير للشوكاني، وحاشية الجمل على الجلالين فإنه مجموع من عدة تفاسير، وأيسر التفاسير للجزائري.

المنهج الأمثل في تفسير القرآن

إن منهج القرآن الكريم يُقرر أن الفهم السليم هو غاية كل مسلم، وهو الثمرة العلمية المرجوة من تدبره، كما أن الثمرة العلمية هي الالتزام بأحكامه وتوجيهاته إيماناً وعملاً ودعوة. والذي يساعد على الفهم الصحيح للقرآن هو حسن تفسيره بما يبين مقاصده، ويوضح معانيه، ويكشف اللثام عما فيه من كنوز وأسرار ويفتح مغالقه للعقول والقلوب.

إن المنهج الأمثل في تفسير القرآن يقوم على أصول راسخة وخطوات معلومة ومعالم مرسومة يجب مراعاتها والالتزام بها حتى تتضح من خلال إتباع المفسر الخطوات التالية:-

١- تفسير القرآن بالقرآن :

أول هذه المعالم هو تفسير القرآن بالقرآن وذلك لأن القرآن الكريم يصدق بعضه بعضاً، ويفسر بعضه بعضاً، وذلك فما أجمل في موضع فُصل في موضع آخر وما جاء عاماً في سياق خُصص في سياق آخر .

٢- تفسير القرآن بالسنة :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير: "إن أصح طرق التفسير يُفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد يفسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بُسط في موضع آخر، فإن أعيانك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن موضحة له" (٣).

وقد فسر الرسول -صلى الله عليه وسلم- {كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ} [إبراهيم: ٢٤] بأنها النخلة .

وكما فسر الزيادة {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦]، بأنها النظر إلى وجه الله الكريم.

وقال الزركشي: "لطالب التفسير مأخذ كثيرة أمهاتها أربعة: الأول: النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا هو الطراز الأول، ولكن يجب الحذر من الضعيف فيه والموضوع؛ فإنه كثير. وإن سواد الأوراق سواد في القلب" (٤).

٣- الانتفاع بتفسير الصحابة والتابعين :

الصحابة هم تلاميذ المدرسة النبوية، تربوا في حجر الرسول ﷺ وسمعوا منه وشاهدوا التنزيل، هذا مع كونهم أصحاب اللغة والبيان، فإذا صح عنهم التفسير أخذنا به خاصة إن أجمعوا عليه، وإن اختلفوا فقد أتاحوا لنا أن نتخير من بين آرائهم ما نراه أقرب إلى السداد.

(١) تفسير القرطبي (١ / ٢١)

(٢) فإنه تفسير سلفي عصري واضح جلي يعني بالمعاني والأحكام.

(٣) مقدمة في أصول التفسير: ٩٣.

(٤) البرهان: ١٥٦.

قال ابن تيمية : "إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ، رجعت في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اقتصوا بها ولما هم عليه من الفهم التام والعلم الصحيح ولا سيما علماءهم وكبرائهم وكالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ، وعبد الله بن مسعود الذي قال : والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ، وفيما نزلت ، وكان الرجل منهم إذا تعلم عشر آيات ، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن ، وهذا حبر الأمة عبد الله بن عباس ، ترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله- صلى الله عليه وسلم- اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"^(١) .

قال الزركشي: "الثاني: الأخذ بقول الصحابي؛ فإن تفسيره عندهم بمنزلة المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، كما قاله الحاكم في تفسيره ... إلى أن قال: وفي الرجوع إلى أقوال التابعين روايتان عن أحمد، واختار ابن عقيل المنع، وحكوه عن شعبة، لكن عمل المفسرين على خلافه، وقد حكوا في كتبهم أقوالهم ... وغالب أقوالهم تلقوها من الصحابة، ولعل اختلاف الرواية عن أحمد إنما هو فيما كان من أقوالهم وأرائهم"^(٢) .

٤- الأخذ بمطلق اللغة :

إن القرآن نزل {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: ١٩٥]، فيجب أن يُفسر اللفظ بحسب ما تدل عليه اللغة العربية واستعمالاتها وما يوافق قواعدها ويناسب بلاغة القرآن المعجز ، هذا مع أن الألفاظ منها ما جاء على سبيل المجاز ومنها ما هو مشترك يدل على أكثر من معنى ، وينبغي أن يعلم أن الأصل حمل الكلام على الحقيقة ، ولا يعدل عنها إلى المجاز إلا بقريضة (تدل دلالة معتبرة على المعنى) ، ومما يعين المفسر للقرآن على حسن الفهم أن يتتبع الكلمة القرآنية في مواردها المختلفة في القرآن حتى يتبين له حقيقة معناها مثل كلمة (عين) لها عدة معانٍ حسب موقعها في الجملة ، تأتي بمعنى عين الماء - والجاسوس - والعين المبصرة ، فكل مفردة في القرآن تؤدي معنى تام حسب السياق الذي وضعت فيه .

٥- مراعاة السياق :

ومن الضوابط الهامة في حسن فهم القرآن وصحة تفسيره مراعاة سياق الآية في موقعها من السورة وسياق الجملة في موقعها من الآية ، فيجب أن تُربط الآية بالسياق الذي وردت فيه ولا تُقطع عما قبلها وما بعدها .

فالكلمة الواحدة قد ترد في القرآن لعدة معانٍ مختلفة وإنما يتحدد المعنى المراد منها في كل موقع بالسياق ، والمقصود بالسياق ما قبل الكلمة وما بعدها فمثلاً : كلمة الكتاب تأتي بمعنى القرآن ، وتأتي بمعنى النص القرآني ، وتأتي بمعنى اللوح المحفوظ .

وكذلك معنى كلمة (آية) تأتي بمعنى العلامة أو الآية المنزلة أو المعجزة والآية الدالة على صدق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، والسياق هو الذي يحدد المعنى المراد من كلمة آية .

٦- الاهتمام بعلم القرآن إجمالاً وخاصة سبب النزول :

من المعالم المهمة في فهم القرآن وتفسيره ملاحظة أسباب النزول فمن المقرر لدى العلماء أن القرآن نزل على قسمين : قسم نزل ابتداء بدون سبب خاص ، وإنما لتوضيح معنى الهداية في حياة الناس وقسم نزل لسبب خاص وهذا القسم الأخير هو الذي يبحث عن سبب نزوله ، لأن معرفة الأسباب والملابسات المحيطة بالنص تساعد على فهم المراد منه ، يقول ابن دقيق العيد : بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن .

٧- اعتبار القرآن أصلاً يرجع إليه :

(١) مقدمة في أصول التفسير: ٩٤ .

(٢) البرهان في علوم القرآن: ١٥٦/١-١٦٠ .

إن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن الكريم ليكون متبوعاً لا تابعاً وينبغي على من يريد فهم القرآن وتفسيره أن يتحرر من اعتقاداته وأفكاره وأهوائه ، بل يجب أن يكون موقفه من القرآن موقف المتلقي الذي يهتدي بهداه ، وينظر إليه على أنه الأصل الذي يرجع إليه ^(١) .

حادي عشر:- إعجاز القرآن

الإعجاز لغة: أصله التأخر عن الشيء ، وهو ضد القدرة ، بمعنى الضعف ، يقال : أعجزه الأمر إذا حاوله فلم يستطعه ولم تتسع له قدرته وجهده ^(٢) يقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ [سبأ:٥] .

الإعجاز اصطلاحاً : كون القرآن الكريم أمراً خارقاً للعادة لم يستطع أحداً معارضته برغم تصدي الناس له ^(٣) ، أو هو ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن ^(٤) .

أ- الإعجاز البياني :

يعدّ الإعجاز البياني من أعظم وجوه الإعجاز لأنه ينتظم في القرآن كله ، فلا تخلو منه سورة على قصرها أو على طولها ، بل هو في كل آية من آيات القرآن الكريم ، وقد تحدث العلماء والمفسرون عن الإعجاز القرآني قديماً وحديثاً حيث أجمع هؤلاء أن القرآن الكريم معجزة بيانية تحدى الله بها العرب وغيرهم فثبت عجز البشر جميعاً أمام إعجازه ^(٥) ، وقد سجل القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله : ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء ٨٨] .

والاعجاز البياني هو بيان القرآن وفصاحته وبلاغته ، وفي أسلوبه المتميز عن باقي أساليب العرب حيث جاء القرآن الكريم بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف ، متضمناً أصح المعاني ، كذلك ترتيب ألفاظ القرآن الكريم في آياته وجمله ، ثم ترتيب هذه الجمل للآيات في السورة ^(٦) . ويمثل الإعجاز البياني في حروف القرآن وأصواتها ، والكلمات ومخارجها ^(٧) ، يقول ابن عطية : "وكتاب الله تعالى لو نزعته منه لفظة في أدير لسان العرب على لفظة غيرها لم يوجد" ^(٨) .

وكذلك يمثل الإعجاز البياني في طريقة التعبير التي انفرد بها القرآن الكريم ، وأيضاً يتمثل في وجود الفاصلة القرآنية التي تعني مناسبة ختم الآية لما سبق ^(٩) .

ونزل القرآن الكريم على العرب وكانوا أصحاب وأرباب البلاغة والبيان وذلك لأنهم تميزوا بسلامة السليقة وسرعة البديهة ، فعندما تحداهم القرآن على أن يأتوا بمثله لم يستطيعوا ووقفوا عاجزين حائرين لا يستطيعون ذلك على الرغم من أن القرآن الكريم نزل باللغة التي يعرفونها ويتكلمون بها ، لذا نجد أن القرآن تحداهم أن يأتوا بمثله القرآن ، يقول تعالى ﴿قُلْيَا أْتُوا بِمِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور : ٣٤] .

(١) انظر هذا الموضوع بالتفصيل في كتاب : كيف نتعامل مع القرآن الكريم – أ.د. يوسف القرضاوي من ص ٢٥٠-٣٠٠ .

(٢) لسان العرب لابن منظور – ح ٢٣٦/٧ .

(٣) فكرة الإعجاز – نعيم الحمصي – ص ٩ .

(٤) إعجاز القرآن للرافعي – ص ١٣٩ .

(٥) مباحث في إعجاز القرآن الكريم – ص ١٦٥ بتصرف، أ.د. مصطفى مسلم ص ١٥٤ .

(٦) موجز في إعجاز القرآن – المرجع السابق ص ١٥٤ .

(٧) موجز في إعجاز القرآن – أ.د. مصطفى مسلم ص ١٥٤ .

(٨) فكرة الإعجاز – نعيم الحمص – ص ٩٥ .

(٩) إعجاز القرآن – د. فضل عباس – ص ٦٥ وما بعدها .

ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور فقال تعالى : {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَنْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [هود : ١٣-١٤] .
 فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة قال تعالى : {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَنْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [يونس : ٣٨] .
 ثم أخيراً تحداهم أن يأتوا بسورة تشبه القرآن فقال سبحانه وتعالى : {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ} [البقرة : ٢٣-٢٤] (١) .
 ب- الإعجاز التشريعي :

- التشريع لغة : مصدر شرَّع : بمعنى سنَّ ، وقد سمي ما شرع الله لعباده شريعة كالصلاة والصوم والزكاة والحج وغير ذلك (٢) .

- التشريع اصطلاحاً : هو شرعة الله لعباده من أحكام اعتقادية أو عملية أو خلقية (٣) .
 - الإعجاز التشريعي : هو سمو التشريعات القرآنية وشمولها وكمالها إلى الحد الذي تعجز عنه كل القوانين البشرية مهما بلغت على أن تأتي بمثل تشريعات القرآن الكريم (٤) .
 أو هو عجز البشر محاكاة التشريع القرآني ، وإدراكهم كل ما فيه من أسرار تشريعية (٥) .
 ومن نماذج من الإعجاز التشريعي :

١- في العبادات : الوضوء والتيمم والغسل : أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ، وجعل الوضوء شرطاً للصلاة ، فإذا لم يتمكنوا من استعمال الماء فعليهم بالتيمم قال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ} [المائدة : ٦] .
 وتشير الآية إلى الحكمة من هذا التشريع يقول تعالى : { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ} [المائدة : ٦] .

إن اشتراط الاغتسال للجنب هو تطهيره وليتم نعمته عليه ، وحتى يشكره على نعمه الكثيرة ، والحكمة من الوضوء والتيمم والغسل ليس النظافة فحسب بل العبادة (٦) ، يقول سيد قطب : " يبدو أن حكمة الوضوء أو الغسل ليست هي مجرد النظافة ، وإلا فإن البديل من أحدهما أو من كليهما لا يحقق هذه الحكمة فلا بد إذن من حكمة أخرى للوضوء أو الغسل تكون متحققة كذلك في التيمم ، وأما حكمة الاغتسال من الجنابة {وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ...} [المائدة : ٦] ، فهي حركة عملية عن معنى نفسي ، إن الإنسان عندما يقضي شهوته فإنه يحقق حاجة فطرية ونفسية أصيلة في كيانه ، ثم إن كل جزء من أعضاء جسمه متلذذ من قضاء الشهوة ويشارك في هذه العملية الجنسية ، لذا كان الاغتسال شكر الله الذي يسر له قضاء شهوته ، شكر الله ، لأن كل جزء شارك في الاستمتاع والتلذذ عند قضاء الشهوة ، لذلك ختمت الآية بقوله : {ولعلكم تشكرون} (٧) .

٢- في المعاملات : تحريم الربا : حرم الله الربا في آيات صريحة وأعلن الحرب على المرابين ، وتوعد بمحق الربا يقول تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ...} [البقرة : ٢٧٨-٢٧٩] على الرغم أن الربا هو السمة البارزة للاقتصاد العالمي المعاصر ، وقاعدة التعامل الاقتصادي بين الدول ، إلا أن التشريع الإسلامي هو الحق والصواب في تحريم الربا ومحاربتة

(١) إعجاز القرآن - د. فضل عباس - ص ٣١-٣٢ .

(٢) لسان العرب - ح ٢٣٨/٣ .

(٣) التشريع الإسلامي - مصادره وأدواته - د. سفيان إسماعيل - ص ٧ .

(٤) الإعجاز التشريعي في معالجة مشكلة الفقر - ص ٦ .

(٥) القرآن وإعجازه - ص ١٠٢ .

(٦) مباحث في إعجاز القرآن - أ. د. مصطفى السباعي - ص ١٥٥ .

(٧) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٢٢٥٢١/٥ .

وتحريمه ، فالربا بلاء وأفة ، يدمر الاقتصاد ويقطع الروابط ، ويوقع العداوة والبغضاء بين الناس ، والربا يقضي على إنسانية الإنسان وقلبه ودينه وإيمانه ، والمرابون مصاصي الدماء والأموال (١) .

يقول سيد قطب : "إن النظام الربوي نظام معيب من الوجهة الاقتصادية البحتة ..."(٢) .
٣- في الحدود : شرع الله تبارك وتعالى الحدود حتى يعيش الإنسان المسلم وغير المسلم أميناً على نفسه وماله وعرضه وعقله ، لذلك حرم على المسلم قتل أخيه المسلم ، يقول تعالى : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً } [النساء: ٩٢] . فإذا اعتقد القاتل بأنه سيقتل فإنه لا يقدم على القتل ، وكذلك عندما حرم السرقة ، فإنه حفظ للناس أموالهم ، فعندما يعتقد المؤمن أنه إذا سرق سوف تقطع يده ، فإنه لا يسرق وبذلك حفظ للناس أموالهم . وكذلك عندما شرع عقوبة الزنا مائة جلدة لغير المتزوج كما قال تعالى : { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي... } [النور: ٢] ، والرجم حتى الموت للمتزوج رجلاً كان أو أنثى.

وكذلك عندما شرع عقوبة الخمر الجلد ثمانين جلدة ليحفظ العقل (٣) ، يقول الرسول ﷺ :
"إذا شرب إنسان الخمر فاجلدوه ثمانين جلدة ، إذا شرب سكر ، وإذا سكر هذى ، وإذا هذى افتري ، وخذ المفترى ثمانون" (٤) .

يقول الأستاذ رشيد رضا : "يشتمل القرآن الكريم على العلوم الإلهية وأصول القواعد الدينية ، وأحكام العبادات ، وقوانين الفضائل والآداب وقواعد التشريع السياسي والمدني والاجتماعي الموافقة لكل زمان ومكان ، وبذلك يفضل على كل ما سبقه من الكتب السماوية والشرائع الأرضية والآداب الفلسفية" (٥) .

ت- الإعجاز العلمي :

لقد حث الإسلام على العلم والتعلم ، فأيات القرآن الأولى في النزول تأمر باستخدام القلم وتشجع على القراءة وذلك لما للقلم والقراءة من أهمية في حياة الأمم والشعوب . قال تعالى : { اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم } [العلق: ١-٥] .

الأمة الإسلامية منوط بها قيادة البشرية بأسرها في جميع مناحي الحياة ، لذلك ينبغي أن تنصدر الأمم والشعوب في مجال العلم والإيمان والأخلاق حتى تصل إلى ذلك المركز القيادي الذي أعدت له .

لذلك جاءت التوجيهات القرآنية في العديد من الآيات تشجع الأمة كل الأمة على العلم والبحث والتحري عن المجهول في هذا الكون الفسيح . قال تعالى : { قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون } [الزمر: ٩] .

وجعل الحق تبارك وتعالى شهادة العلماء مع شهادته وشهادة الملائكة الملائكة في الإقرار بالوحدانية لله في الألوهية والربوبية ، قال تعالى : { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [الأ عمران: ١٨] ، وأمر -صلى الله عليه وسلم- بطلب العلم النافع للبشرية وشجع على تحصيله ، قال -صلى الله عليه وسلم- : " طلب العلم فريضة على

(١) مباحث في إعجاز القرآن - أ.د. مصطفى السباعي - ص ١٦٢ .

(٢) الظلال ح ٢٢٥٢/٥ .

(٣) الإعجاز القرآني في تشريع الحدود .

(٤) (الموطأ للإمام مالك - ح ٦٤٢/٢ كتاب الأشربة باب حد الخمر - ص ٢٥ .

(٥) تفسير المنار - ح ٢٠٦/١ ، ٢٠٧ .

كل مسلم ومسلمة" ، وجاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول : "من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة" (١) .

والاعجاز العلمي: هو ما يتعلق بإشارة القرآن في كثير من آياته إلى حقائق علمية ثابتة كشف عنها العلم الحديث ، ووافقت أحدث ما انتهى إليه الكشف العلمي في هذا العصر ، مع أنها كانت مجهولة في عصرة النبوة وما بعده لقرون عديدة (٢) .

وقد ذكر د. عبد السلام تعريفاً فقال : "تلك الموافقة بين المكتشفات الحديثة للسنن الإلهية ، وبين ما أشار إليه القرآن مع تمام المطابقة بينهما" (٣) .

ب- الضوابط العلمية المنهجية للإعجاز العلمي :

- ١- اعتقاد أن القرآن كتاب هداية وإرشاد أولاً وليس كتاب علوم وكونيات .
- ٢- عدم الإفراط والتفريط عند النظر في الآيات الكونية ، والاكتفاء بالحقائق العلمية في الاستدلال وعدم الاستدلال بالنظريات والفرضيات العلمية .
- ٣- الوقوف على مرونة الأسلوب القرآني في توضيح المضامين العلمية بحيث يحتمل ذلك الأسلوب وجوهاً من التأويل .

٤- عدم حصر دلالة الآية القرآنية على الحقيقة الواحدة ، بل إبقاء الآية مفتوحة الدلالة بحيث تحتل كل ما يتفق مع معناها .

٥- اليقين باستحالة التصادم بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية .

٦- اتباع المنهج القرآني في طلب المعرفة من خلال النظر في الآيات الربانية في الكون والنفس والآفاق والتعرف على سنن الله في هذا الوجود .

٧- الإعجاز العلمي يُثبت عالمية رسالة القرآن الكريم ، وذلك لأن القرآن يدعو الناس في كل عصر لدين الله (٤) .

أمثلة على الإشارات العلمية في القرآن :

أ- قال تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَاراً كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيمًا} [النساء: ٥٦] ، هذه الآية فيها من التهديد والوعيد بعذاب أليم للكافرين يوم القيامة وجاء هذا العذاب في صورة تعذيب للجلود ، فلماذا اختار الله سبحانه التعبير بعذاب الجلود دون غيره من ألوان العذاب ، إن في ذلك لحكمة حيث استطاع العلم التوصل إلى وجود أوعية ناقلة للإحساس وهي تحت الجلد مباشرة وتصل على خمسة عشر نوعاً كل نوع له وظيفته وطبيعته ، لهذا فإن الألم الذي يحصل لجسم الإنسان يذوقه كل الجسم .

ب- قال تعالى : {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَلْمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ} [الأنعام: ١٢٥] ، بفضل الطيران والبالونات استطاع الإنسان التعرف على ظاهرة طبيعية وهي نقص أوكسجين الهواء في طبقات الجو العليا حيث إن الصاعد يشعر بصعوبة وضيق في التنفس والآية القرآنية صرحت بهذه الظاهرة منذ زمن بعيد ، وهذا يدعونا إلى الإيمان الراسخ بأن ما جاء به محمدٌ إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى (٥) .

ت- قال تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ} [البقرة: ٢٣٣] ، فالرضاعة أوجبها الله سبحانه على الأم لأطفالها حفاظاً على الأطفال من

(١) رواه الترمذي (جزء من حديث طويل) وقال عنه : حديث حسن .

(٢) انظر ثقافة الداعية للرضواوي - ص ١٥ .

(٣) الإعجاز العلمي في القرآن الكريم - ص ١٤ .

(٤) انظر هذه الضوابط بالتفصيل - الإعجاز العلمي - د. عبد السلام اللوح - ص ١٦٢-١٦٥ .

(٥) انظر روح الدين الإسلامي - ص ٥٤ ، وانظر بالتفصيل أمثلة متنوعة - الإعجاز العلمي - د. عبد السلام

اللوح - ص ١٦٦-٢٣٤ .

الناحية الجسدية والنفسية والعقلية فقد تحدث الطب الحديث عن مقارنة بين الإرضاع الطبيعي والحليب الصناعي وذكر الآتي :-

- ١- أن مميزات اللبن الطبيعي أنه يتناسب من يوم لآخر عند الأم مع حاجة الطفل على مدار العامين الذي يرضع فيها الطفل .
- ٢- أما الإرضاع الصناعي فهو ثابت التركيز ولا يتناسب مع نمو الطفل ، لذلك أشار الأطباء إلى أهمية إرضاع الطفل من أمه وخاصة في الأيام الأولى من ولادته لأن اللبن في هذه الفترة يحتوي على عناصر ومواد لها دخل كبير في تكوين المناعة من الأمراض عند الطفل .
- ٣- إن حليب الأم لا يحتاج إلى تعقيم ولا تعلق به الجراثيم بينما الحليب الصناعي فهو عرضة من خلال أي إساءة في استعمال الأدوات .
- ٤- لبن الأم أسهل في الهضم على الطفل من اللبن الصناعي حيث إن اللبن الصناعي يحتاج هضمه من ثلاث إلى أربع ساعات^(١) .

هذا بالإضافة لهذه الأنواع من الإعجاز يوجد أنواع أخرى منها : الإعجاز التاريخي ، والإعجاز الأخلاقي ، والإعجاز النفسي والروحي ، والإعجاز التربوي ، والإعجاز بأخبار الغيب والمستقبل وغير ذلك^(٢) .

فيمكن القول بأن أوجه إعجاز القرآن هي:

- ١- النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب.
- ٢- الأسلوب العجيب المخالف لجميع الأساليب العربية.
- ٣- الجزالة التي لا يمكن لمخلوق أن يأتي بمثلها.
- ٤- التشريع الدقيق الكامل الذي يفي بحاجات البشر.
- ٥- الإخبار عن المغيبات الماضية والمستقبلية، التي لا تعرف إلا بالوحي.
- ٦- الوفاء بكل ما أخبر عنه القرآن من وعد ووعد.
- ٧- عجز المخلوقين عن أن يأتوا بمثله.
- ٨- كونه محفوظاً من الزيادة والنقصان ومن التبديل والتغيير {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩].

- ٩- تيسيره للحفظ {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} [القمر: ١٧].
- ١٠- تأثيره في قلوب الأتباع والأعداء حتى قال قائلهم^(٣)، «والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وإنه ليعلو وما يعلى عليه وما تقوله بشر».
- ١١- كونه لا يمله قارئه ولا سامعه على كثرة التردد بخلاف سائر الكلام^(٤).

والقرآن أولاً وآخرًا هو الذي صير العرب رعاة الشاء والغنم ساسة شعوب وقادة أمم، وهذا وحده إعجاز، والقرآن الكريم هو أساس الدين ومصدر التشريع وحجة الله البالغة في كل عصر ومصر، بلغه رسول الله لأُمَّته امتثالاً لأمر ربه واحتوى القرآن على الأمر الصريح بوجوب اتباعه والعمل بما تضمنه من الأحكام في غير موضع وبغير أسلوب {اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ} [الأعراف: ٣] {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ كِتَابِ} [العنكبوت: ٤٥].

كما وقد احتوى القرآن الكريم على كثير من نواحي الحياة المختلفة من ذلك ما يأتي:

(١) انظر لمحات في إعجاز القرآن - ص ٤٤-٤٥ .
(٢) إعجاز القرآن - أ.د. فضل عباس - ص ٢٥٠ .
(٣) هو: الوليد بن المغيرة المخزومي، انظر: "شعب الإيمان" للبيهقي (١٣٤)، و"تفسير البغوي" (٢/ ٦٣٢).
(٤) التتبيان في علوم القرآن للصابوني (١٠٣) وانظر: البيان في إعجاز القرآن ومقدمة تفسير ابن جزي (١/ ٢٣).

- ١- العفائد التي يجب الإيمان بها في الله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وهي الحد الفاصل بين الإيمان والكفر.
 - ٢- الإرشاد إلى النظر والتفكر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء لتعرف أسرار الله في كونه وإبداعه في خلقه فتمتلئ القلوب إيماناً بعظمته عن نظر واستدلال لا عن تقليد ومجاورة.
 - ٣- قصص الأولين أفراداً وأماً، فقد ورد في القرآن كثير من القصص الذي يثير الاعتبار والاعتاظ ويرشد إلى سنن الله في خلقه نجاة للمصلحين وهلاكاً للمفسدين.
 - ٤- الأخلاق الفاضلة التي تهذب النفوس وتصلح من شأن الفرد والجماعة كالصبر والصدق والوفاء وأداء الأمانة مع التحذير من الأخلاق السيئة التي تؤدي بمعاني الحياة الإنسانية الفاضلة وتسبب لها الشقاء كالكذب والخيانة وإخلاف الوعد ونقض العهد.
 - ٥- العبادات على اختلاف أنواعها من صلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد وجاء في ذلك ما يقرب من مائة وأربعين آية.
 - ٦- نظام الأسرة كأحكام الزواج والطلاق وما يتبعها من مهر ونفقة وحضانة ورضاع ونسب وعدة ووصية وإرث، وجاء في ذلك ما يقرب من سبعين آية.
 - ٧- أحكام المعاملات المالية كالبيع والإجارة والرهن والمداينة والتجارة، جاء في ذلك ما يقرب من سبعين آية أيضاً.
 - ٨- أحكام الجنايات والحدود والسرقه والزنا والقذف ومحاربة الله في أرضه وجاء في ذلك ما يقرب من ثلاثين آية.
 - ٩- أحكام الحرب والسلم وما يتبع ذلك من جهاد وغنيمه وأسر وعهود وجزية.
 - ١٠- نظام الحكم فيما يجب على الحكام من الشورى والعدل والمساواة والحكم بما أنزل الله وما يجب على الناس لهم من طاعة.
 - ١١- تنظيم الحياة الاجتماعية في علاقة الأغنياء بالفقراء فيما يحقق العدل الاجتماعي بين الناس، ولم يتفق العلماء على عدد آيات الأحكام وقيل إنها: خمس مائة آية أو قريب منها^(١) والله سبحانه وتعالى أعلم.
- وقد قال ﷺ «إنها ستكون فتنة» قيل: وما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم»^(٢)، وورد في الحديث ما معناه: أن القرآن اشتمل على ذكر الحلال والحرام والمحكم والمتشابه والأمثال، فأحلوا حلاله وحرّموا حرامه، وعملوا بمحكمه وأمنوا بمتشابهه واعتبروا بأمثاله، وقال بعضهم: اشتمل القرآن على تسعة أشياء^(٣):
- فقال: لا إنما القرآن تسعة أحرف سأنبئكما في بيت شعر بلا خلل
- حلال حرام محكم متشابه بشير نذير عظة قصة مثل
- وأصل علوم القرآن ثلاثة: توحيد وتذكير وأحكام، فالتوحيد يدخل فيه معرفة المخلوقات ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله، والتذكير منه الوعد والوعيد والجنة والنار.
- والأحكام منها التكاليف كلها وتبيين المنافع والمضار والأمر والنهي والندب، ولهذا كانت الفاتحة أم القرآن لأن فيها الأقسام الثلاثة، وسورة الإخلاص ثلثه لأن فيها أحد الأقسام وهو التوحيد^(٤).

(١) تاريخ التشريع والفقہ الإسلامي للشيخ مناع خلیل القطان «(٦٧، ٦٨)».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٠٦): ص ٢٢/٥.

(٣) نقلاً عن: فضائل القرآن، عبد الله بن جار الله بن إبراهيم آل جار الله: ٣٢.

(٤) «مختصر الإتيان في علوم القرآن» (٩٦-٩٨).

وقال ابن جزري في مقدمة تفسيره: "معاني القرآن سبعة:

- ١- علم الربوبية، ومنه إثبات وجود الباري جل جلاله والاستدلال عليه بمخلوقاته.
- ٢- والنبوة وإثبات نبوة الأنبياء عليهم السلام على العموم وإثبات نبوة نبينا محمد على الخصوص وإثبات الكتب التي أنزلها الله عليهم ووجود الملائكة الذين كانوا وسائط بين الله وبينهم.
- ٣- المعاد: وهو إثبات الحشر وذكر ما في الآخرة من الحساب والجزاء وصحائف الأعمال وكثرة الأهوال والجنة والنار.
- ٤- الأحكام: وهي الأوامر والنواهي وتنقسم خمسة أنواع، واجب ومندوب وحرام ومكروه ومباح، ومنها ما يتعلق بالأبدان كالصلاة والصيام، وما يتعلق بالأموال كالزكاة وما يتعلق بالقلوب كالإخلاص والخوف والرجاء وغير ذلك.
- ٥- الوعد: ومنه وعد بخير الدنيا كالنصر على الأعداء والحياة الطيبة والأمن والاستقرار ومنه وعد بخير الآخرة كأوصاف الجنة ونعيمها.
- ٦- الوعيد: ومنه تخويف بالعقاب في الدنيا كالخوف والمرض والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، ومنه وعيد، بعقاب الآخرة كعذاب القبر، وأهوال يوم القيامة، وشدة الحساب، ودخول النار، وتأمل القرآن تجد الوعد مقرونا بالوعيد كقوله: {إِنَّ الْأُبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} [الانفطار: ١٣، ١٤] ليعتد على الخوف والرجاء.
- ٧- القصص: وذكر أخبار الأنبياء مع قومهم وما جرى لهم من نجات المصدقين وهلاك المكذابين ليعتبر اللاحقون بالسابقين فلا يعملون مثل عملهم فيصيبهم ما أصابهم" (١).

الثاني عشر: ترجمة القرآن الكريم بغير لغته

تطلق الترجمة في اللغة على: نقل الكلام من لغة إلى أخرى، جاء في لسان العرب: الترجمان بالضم والفتح هو الذي يترجم الكلام أي ينقله إلى لغة أخرى (٢). والترجمة اصطلاحاً: تفسير الكلام وبيان معناه بلغة أخرى، قال الجوهري: "وقد ترجمه وترجم عنه إذا فسر كلامه بلسان آخر" (٣). أقسام الترجمة (٤):

تنقسم الترجمة إلى قسمين:-

أولاً: الترجمة الحرفية:

وهي نقل الكلام من لغة إلى أخرى مع مراعاة الموافقة في النظم والترتيب، والمحافظة على جميع معاني الأصل المترجم.

ثانياً: الترجمة المعنوية والتفسيرية:

وتعني شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى بدون مراعاة لنظم الأصل وترتيبه، وبدون المحافظة على جميع معاني الأصل المترجم.

موقف العلماء من ترجمة القرآن الكريم:

أولاً: الترجمة الحرفية لا تجوز وذلك:

لا يمكن ترجمة القرآن ترجمة تماثله في دقة تعبيره وعلو أسلوبه وجمال سبكه وإحكام نظمه وتقوم مقامه في إعجازه وتحقيق جميع مقاصده من إفادة الأحكام والآداب والإبانة عن العبر

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٩ / ١).

(٢) لسان العرب لابن منظور - ج ١٦ ص ١٤٠.

(٣) القاموس المحيط - ج ٨ ص ٢١١.

(٤) التفسير والمفسرون للذهبي - ج ١ ص ٢٤.

والمعاني الأصلية والثانوية ونحو ذلك مما هو من خواص مزاياه المستمدة من كمال بلاغته وفصاحته ومن حاول ذلك فمثله كمثل من يحاول أن يصعد إلى السماء بلا أجهزة ولا سلم أو يحاول أن يطير في الجو بلا أجنحة ولا آلات.

لأن القرآن الكريم أنزله الله على العرب وهم أرباب اللغة والبيان فلم يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله ، وهذا دليل واضح على إعجازه ، فلو تُرجم القرآن ترجمة حرفية لضاعت خواص القرآن البلاغية ولنزل عن مرتبته المعجزة إلى مرتبة تدخل تحت طوق البشر والدليل على ذلك إذا أراد المترجم أن يترجم قوله تعالى ترجمة حرفية : {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} [الإسراء : ٢٩] ، أتى المترجم بكلام يدل على النهي عن ربط اليد في العنق وعن مدها غاية المد ، مع مراعاة الترتيب في الأصل ، ولكن هذه الترجمة لا توضح المقصد والمعنى الحقيقي لهذه الآية الكريمة ، وعلى هذا : فالترجمة الحرفية لا يمكن أن تقوم مقام الأصل في تحصيل كل ما يقصد منه لما يترتب عليها من ضياع هذا الغرض .

ثانياً : الترجمة التفسيرية أو المعنوية :

أجازها العلماء وذلك لأن المترجم إذا أراد أن يترجم هذه الآية ترجمة تفسيرية ، فإنه يأتي بالنهي عن التبذير والتقتير في أشع صورة منفردة فتأتي منها بعبارة تدل على هذا النهي المراد في أسلوب يترك في نفس المترجم لهم أكثر الأثر في استبشاع التقتير والتبذير دون رعاية الأصل في نظم وترتيب الآية .

إذن يمكن أن يعبر العالم عما فهمه من معاني القرآن حسب وسعه وطاقته بلغة أخرى ليبين لأهلها ما ما أدركه فكره من هداية القرآن وما استنبطه من أحكامه أو وقف عليه من عبره ومواعظه لكن لا يعتبر شرحه لتلك غير اللغة العربية قرآناً ولا ينزل منزلته من جميع النواحي ، بل هو نظير تفسير القرآن باللغة العربية في تقريب المعاني والمساعدة على الاعتبار واستنباط الأحكام ، ولا يسمى ذلك التفسير قرآناً ، وعلى هذا يجوز للجنب والكفار مس ترجمة معاني القرآن بغير اللغة العربية ، كما يجوز مسهم تفسيره باللغة العربية.

شروط الترجمة :

أولاً : أن تكون الترجمة على شاكلة التفسير ، لا يعول عليها إلا إذا كانت معتمدة على علوم اللغة ، وعلوم القرآن .

ثانياً : معرفة المترجم لأوضاع اللغتين لغة الأصل ولغة الترجمة .

ثالثاً : معرفة أساليب وخصائص اللغتين .

رابعاً : وفاء الترجمة بجميع معاني الأصل ومقاصده .

خامساً : أن يكتب القرآن أولاً ، ثم يؤتى بعده بتفسيره ، ثم يتبع هذا بترجمته التفسيرية حتى لا يتوهم متوهم أن هذه الترجمة ترجمة حرفية للقرآن

سادساً : أن يكون المترجم بعيداً عن الميل إلى عقيدة زائفة تخالف ما جاء به القرآن ، وهذا شرط في المفسر أيضاً .

ملاحظة : إن الكتابة للآيات بالحروف اللاتينية أو الإنجليزية التي تبقى الكلام القرآني كما هو لا يدخل في موضوع الترجمة وإنما هو كتابة خطية بحروف غير عربية .

الثالث عشر: فضائل القرآن

إن قراءة القرآن وتلاوته عبادة من العبادات مثلها مثل سائر العبادات، وهي من الذكر يؤجر القارئ على قرأته له، ولذلك حثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على تلاوته ودلنا على عظيم أجره، وكثرة القراءة للقرآن تولد عند المسلم الذي يستمتع بقراءته لذة بتلاوته، وراحة نفسية واطمئنان في القلب، قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: ٢٨]، وبتكرار القراءة بتلذذ فإن القارئ سوف يحاول أن يفهم ما يقرأ من القرآن بوعي

وبصيرة.. فإذا فهم ما يقرؤه بوعي وبصيرة فإنه لاشك سوف يدخل إلى محراب التفكير والتدبر، ويبدأ بالتدبر لآيات الله في القرآن وعندها يكون عمل بمقتضاها عن علم ووعي وبصيرة. وللقرآن صفات عظيمة يعجز البشر عن حصرها، ولكن منها الصفات الآتية^(١):

- ١- كتاب عام للعالمين: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان : ١].
- ٢- المعجزة العظمى، الذي تحدّى الله به الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو سورة واحدة، فعجزوا مجتمعين ومتفرقين عن الإتيان بشيء من ذلك، قال الله {قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا} [الإسراء : ٨٨]، وقوله تعالى {أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)} [الطور : ٣٣ - ٣٤] ، وبعد هذا التحديّ عجزوا أن يأتوا بمثله، فمدّ لهم في الحبل وتحذّاهم بعشر سور مثله: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَنْعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [هود : ١٣] ، فعجزوا، فأرخصي لهم في الحبل، وتحذّاهم بسورة مثله، قال الله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَنْعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [يونس : ٣٨].

وقد سمع هذا التحديّ من سمع القرآن وعرفه الخاص والعام، ولم يتقدم أحد على أن يأتي بسورة مثله من حين بعث النبي ﷺ إلى هذا اليوم^(٢) وإلى قيام الساعة، والقرآن يشتمل على آلاف المعجزات؛ لأنه مائة وأربع عشرة سورة، وقد وقع التحدي بسورة واحدة، وأقصر سورة في القرآن سورة الكوثر، وهي ثلاث آيات قصار، والقرآن يزيد بالاتفاق على ستة آلاف آية ومائتي آية، ومقدار سورة الكوثر من آيات أو آية طويلة على ترتيب كلماتها له حكم السورة الواحدة، ويقع بذلك التحدي والإعجاز؛ ولهذا كان القرآن يُعني عن جميع المعجزات الحسية والمعنوية؛ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وإعجازه في وجوه كثيرة: الإعجاز البلاغي والبياني، والإخبار عن الغيوب بأنواعها، والإعجاز التشريعي، والإعجاز العلمي الحديث؛ ولهذا قال النبي ﷺ: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات على ما مثله آمن البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة"^(٣).

- ٣- هدى للمتقين: {الْم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)} [البقرة : ١ - ٢].
- ٤- هدى للناس جميعاً {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِيُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِيُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة : ١٨٥].

٥- يهدي للتي هي أقوم: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠)} [الإسراء : ٩ - ١٠].

٦- روحٌ وحياءٌ: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى : ٥٢].

٧- نور: يهدي به الله من يشاء من عباده: {ولكن جعلناه نورا تهدي به من نشاء من عبادنا} [الشورى: ٥٢] ، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ

(١) ينظر: عظمة القرآن وتعظيمه وأثره في النفوس في ضوء الكتاب والسنة، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني (كتاب منشور في الشبكة الالكترونية). (بتصرف بسيط).

(٢) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية، ٧١/٤ - ٧٧، والبداية والنهاية لابن كثير، ٩٥/٦.

(٣) متفق عليه: البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، برقم ٤٩٨١، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، برقم ١٥٢.

- فَسَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥) { [النساء : ١٧٤ - ١٧٥].
- ٨- فرقان: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان : ١].
- ٩- شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ } [يونس: ٥٧]، { وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } [الإسراء: ٨٢]، { فُلٌّ هُوَ الَّذِيْنَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ } [فصلت: ٤٤].
- ١٠- القرآن تبيان لكل شيء: { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } [النحل: ٨٩].
- ١١- لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: ١].
- ١٢- تكفل الله بحفظه: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر: ٩].
- ١٣- كتاب واضح مبين: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [المائدة: ١٦].
- ١٤- أحكمت آياته: {الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} (١).
- ١٥- فُصِّلَتْ آيَاتِهِ: { كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ } [فصلت: ٢-٤].
- ١٦- تذكرة لمن يخشى: { مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى * تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى } [طه: ٢-٤].
- ١٧- ما نزلت به الشياطين: {وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ * إِنْهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُوْهُنَّ } [الشعراء: ٢٠٩-٢١٢].
- ١٨- آيات بيّنات في صدور أهل العلم: { بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } [العنكبوت: ٤٩].
- ١٩- ذكّر وقرآن مبين: { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ } [يس: ٦٩-٧٠].
- ٢٠- أحسن الحديث: { الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدًى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [الزمر: ٢٣].
- ٢١- عليّ حكيم: {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينًا عَلِيٌّ حَكِيمٌ} [الزخرف: ٤].
- ٢٢- بصائر للناس: {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [الجاثية: ٢٠].
- ٢٣- قرآن مجيد: { وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ } [ق: ٢].
- ٢٤- قرآن كريم: { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْتُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الواقعة: ٧٧-٨٠].
- ٢٥- لو أنزله الله على الجبال لخشعت، وتصدعت من خشيته تعالى: { لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الحشر: ٢١].
- ٢٦- يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ومصدق لما بين يديه: { قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ } [الأحقاف: ٣٠].

(١) سورة هود، الآية: ١.

٢٧- يهدي إلى الرشد: [إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا* يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ] الجن: ١-٢].
 ٢٨- في لوح محفوظ: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ} [البروج: ٢١-٢٢].
 ٢٩- القرآن وصية رسول الله ﷺ، فقد أوصى به في عدة أحاديث منها الأحاديث الآتية:
 الحديث الأول: حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه، فقد سئل: هل أوصى رسول الله ﷺ قال: "أوصى بكتاب الله ﷻ" (١).

والمراد بالوصية بكتاب الله: حفظه حسناً ومعنى، فيكرم، ويصان، ويتبع ما فيه، فيعمل بأوامره، ويجتنب نواهيه، ويدوم على تلاوته، وتعلمه، وتعليمه، ونحو ذلك (٢).

الحديث الثاني: حديث جابر رضي الله عنهما في صفة حجة النبي ﷺ، وفيه أن النبي ﷺ قال في خطبته في عرفات: "... وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تسألون عني فماذا أنتم قائلون؟" قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: "اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد..." (٣).

الحديث الثالث: حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ خطب الناس في حجة الوداع فقال: "إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم، ولكن رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم فاحذروا، إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله وسنة نبيه..." (٤).

الحديث الرابع: حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لهم في غدیر خم [بين مكة والمدينة] (٥)، وفيه: "... وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور [هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على الضلالة] فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به"، فحث على كتاب الله ورغب فيه... (٦).

الحديث الخامس: حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله أوصني قال: "أوصيك بتقوى الله؛ فإنه رأس الأمر كله"، قلت: يا رسول الله زدني، قال: "عليك بتلاوة القرآن وذكر الله؛ فإنه نورٌ لك في الأرض وذخرٌ لك في السماء" (٧).

فقد جاءت هذه الأحاديث تدل على أن رسول الله ﷺ أوصى بكتاب الله تعالى في عدة مواقف: في خطبة عرفات، وفي خطبة أيام منى، وفي خطبته في غدیر خم بين مكة والمدينة، وعند موته ﷺ، وهذا يدل على أهمية كتاب الله ﷻ.

٣٠- والقرآن العظيم: من ابتغى الهدى من غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشعب منه العلماء، ولا يملئه الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم (٨).

(١) متفق عليه: البخاري، كتاب الوصايا، باب الوصايا، برقم ٢٧٤٠، ومسلم، كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه، برقم ١٦٣٤.

(٢) فتح الباري، لابن حجر، ٦٧/٩.

(٣) مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، برقم ١٢١٨.

(٤) الحاكم، ٩٣/١، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، ١٢٤/١، وفي الأحاديث الصحيحة، برقم ٤٧٢.

(٥) اسم لفظة على ثلاثة أميال من الجحفة، غير يقال له: غدیر خم. [شرح النووي على صحيح مسلم].

(٦) مسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، برقم ٢٤٠٨.

(٧) ابن حبان في صحيحه مطولاً، برقم ٣٦١، ٧٨/٢، وحسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب، ١٦٤/٢، برقم ١٤٢٢.

(٨) انظر: الترمذي، برقم ٢٩٠٦، وكل ما جاء في هذا الأثر فمعناه صحيح حتى ولو لم يأت في حديث، لكن المعنى تدل عليه عموم الأدلة من الكتاب والسنة.

٣١- وقد وردت أحاديث كثيرة تبين فضل القرآن على سائر كلام البشر، وهو كلام الله فمنها:
من فضائل القرآن أنه يشفع يوم القيامة لمن قرأه وعمل به في الدنيا، قال ﷺ "اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه"^(١).
وقال ﷺ: "يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَفْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالْ عَمْرَانَ، تُحَاجَّانِ عَن صَاحِبَيْهِمَا"^(٢).
وخير الناس هم الذين تعلموا القرآن وعلموه لوجه الله قال ﷺ: " خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ"^(٣).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "يجيء القرآن يوم القيامة يقول: يا رب حلّه، فيلبس تاج الكرامة، ثم يقول: يا رب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقول: يا رب ارض عنه فيرضى عنه، فيقال: اقرأ وارق فيزداد بكل آية حسنة"^(٤).

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن فاستظهره فأحل حلاله وحرّم حرامه؛ أدخله الله به الجنة وشفعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار»^(٥).

عن سهل بن معاذ الجهني أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن وعمل به ألبس والداه تاجاً يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا فما ظنكم بالذي عمل بهذا»^(٦).

وروى البخاري عن عائشة: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ فَلَهُ أَجْرَانِ"^(٧).

وعن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتنعتع فيه وهو عليه شاق له أجران"^(٨).

وروى النسائي وابن ماجه والحاكم بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ"، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ هُمْ؟ قَالَ: "هُمُ أَهْلُ الْقُرْآنِ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ"^(٩).

وعن ابن عمر، قال: سئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَحْسَنُ النَّاسِ صَوْتًا بِالْقُرْآنِ؟ قَالَ: "مَنْ إِذَا سَمِعَتْ قِرَاءَتَهُ رَأَيْتَ أَنَّهُ يَحْسَنُ اللَّهُ"^(١٠).

(١) صحيح مسلم (١/ ٥٥٣) برقم (٨٠٤)

(٢) رواه مسلم (١/ ٨٠٥)، والترمذي (٥/ ٢٨٨٣)

(٣) رواه البخاري (٦/ ٥٠٢٧)، وأبو داود (٢/ ١٤٥٢).

(٤) صحيح الجامع (٨٠٣٠) (حديث حسن).

(٥) أخرجه الترمذي، ومعنى استظهره، حفظه عن ظهر قلب.

(٦) أخرجه أبو داود والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٧) البخاري، ٤/ ١٨٨٢ رقم ٤٦٥٣.

(٨) مسلم ١/ ٥٤٩ رقم ٧٩٨.

(٩) ابن ماجه ١/ ٧٨ رقم ٢١٥. قال عنه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح. المستدرک ١/ ٧٤٣ رقم ٢٠٤٦.

(١٠) فضائل القرآن وتلاوته للرازي (٢٤): ص ٦٧-٦٨.

الفصل الثاني علوم التفسير واتجاهاته

أولاً:- أنواع التفسير التفسير لغة واصطلاحاً

تدور معاني التفسير في اللغة حول الكشف، والإيضاح، والبيان للشيء.
قال ابن فارس^(١): "فَسَّرَ الفاء، والسين، والراء كلمة واحدة تدلُّ على بيان شيءٍ وإيضاحه"^(٢).

وقال ابن منظور^(٣): "فسر (فَسَّرَ) الفَسْرُ: البيان، فسَّرَ الشيءَ يفسِّره بالكسر ويُفسِّره بالضم فسراً وفَسَّرَهُ: أبانه... و قوله عز وجل: {وَرَتَّلْنَا لَهُ تَرْجِيماً} [الفرقان: ٣٢]، الفَسْرُ: كشف المُعْطَى والتفسير كشف المراد عن اللفظ المُشْكِل، واستفْسَرْتُهُ كذا، أي سألته أن يُفسِّره لي"^(٤).
وعرّف التفسير بأنه: "الاستبانة، والكشف، والعبارة عن الشيء بلفظ أسهل وأيسر من لفظ الأصل"^(٥).

وخلاصة القول أن معنى التفسير في اللغة: هو البيان، والإيضاح، والكشف بلفظ أسهل وأيسر.

ويعرف الإمام الزركشي^(٦)، التفسير اصطلاحاً بقوله: "التفسير: هو علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه، وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو، والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ"^(٧).

ويرى الباحث أن الزركشي أطلق الفهم ولم يبين ضوابطه، ولم يصرح بأن السنة مفسرة لا في القول، ولا في الفعل، ولا في التقرير، وكرر بعض المعاني فالنحو والتصريف وعلم البيان كلها داخلية في علم اللغة.

(١) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن حبيب الرازي، ولد في قرية كرسفة، منطقة رستاق الزهراء، كان أحد أئمة اللغة الأعلام نزيل همدان، كان من الرحالة في طلب العلم، توفي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة للهجرة بالري ودفن بها، انظر: سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ١٠٣١/١٧، تحقيق: مجموعة بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، (بدون).

(٢) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس ٤٠٢/٤، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.

(٣) هو محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الأفريقي ثم المصري أبو الفضل يعرف بابن منظور، ولد سنة ثلاثين وستمائة، بمصر وقيل في طرابلس، خدم في ديوان الأتار بالقاهرة ثم ولي القضاء في طرابلس ثم رجع إلى مصر ومات فيها سنة إحدى عشرة وسبعمائة وترك من مختصراته بخطه خمسمائة مجلد، انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر، أبي الفضل أحمد بن علي العسقلاني الشافعي ١٠٧/٢، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الهند، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م، ط/الثانية، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان.

(٤) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي ١٢٨/١١، دار صادر - بيروت، ط/الأولى.

(٥) لسان العرب لابن منظور ١٢٨/١١.

(٦) هو بدر الدين أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله المصري الزركشي الشافعي الإمام المصنف، ولد سنة خمس وأربعين وسبعمائة، وأخذ عن الشيخين: جمال الدين الأسنوي، وسراج الدين البلقيني وكان رحالة في طلب العلم، وكثير التصانيف، توفي بمصر ودفن بالقرافة، سنة أربع وتسعين وسبعمائة، انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة/١/٤٧٩، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد ابن العماد العكري الحنبلي ٣٣٤/٦، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، ومحمود الأرنؤوط، دار ابن كثير- دمشق، ط/١٤٠٦هـ.

(٧) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ١٣/١، دار إحياء الكتب العربية ط/الأولى ١٣٧٦هـ.

ويقول الإمام السيوطي^(١): "علم نزول الآيات، وشؤونها، وأفاصيلها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيتها، ومدنيها، ومحكمها، ومتشابهها وناسخها، ومنسوخها، وخاصها، وعامها، ومطلقها، ومقيدها، ومجملها، ومفسرها، وحلالها، وحرامها، ووعدها، ووعيدها، وأمرها، ونهيها، وعبرها، وأمثالها"^(٢)، ويبدو أن الإمام السيوطي ركز على أسباب النزول، وترتيب فروع القرآن من مدني، ومكي، ومحكم، ومتشابه... الخ، ولم يهتم بجانب التفسير المشتغل على الفهم والبيان.

وعرّف علم التفسير أيضاً بأنه: "علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها، الإفرادية، ومعانيها التركيبية، وتفسير الشيء لاحق به وتمم له وجار مجرى بعض أجزائه، قال أهل البيان: التفسير هو أن يكون في الكلام لبس، وخفاء فيؤتى بما يزيله ويفسره"^(٣). وهذا التعريف ركز على القراءات بشكل جوهري لكنه أشار إلى إيضاح تلك المدلولات بشكل إفرادي، وتركيب، فهو قد تناول نوعين من التفسير: تفسير مفردات، وتفسير تراكيب، وعليه فإن هذا التعريف أقرب إلى الصواب من حيث استيعاب معنى التفسير عند أهله.

وقال أبو حيان^(٤): "التفسير: علم يُبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية، والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمت لذلك"^(٥). والظاهر أن أبا حيان أورد نفس التعريف الذي سبقه، بدون زيادة، ثم قام بشرحه فقال: "قولنا: علم هو جنس يشمل سائر العلوم، وقولنا: يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن هذا هو علم القراءات، وقولنا: ومدلولاتها أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذي يحتاج إليه في هذا العلم، وقولنا: وأحكامها الإفرادية، والتركيبية هذا يشمل علم التصريف، وعلم الإعراب، وعلم البيان، وعلم البديع، وقولنا: ومعانيها التي تحمل بها حالة التركيب: شمل بقوله التي تحمل عليها ما دللته عليه بالحقيقة، وما دللته عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقضي بظاهره شيئاً، ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على الظاهر وهو المجاز، وقولنا: وتتمت لذلك، هو معرفة النسخ، وسبب النزول وقصة توضح بعض ما انبهم في القرآن ونحو ذلك"^(٦).

(١) هو عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان الخضيرى الأسيوطي ولد في رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة، ونشأ في القاهرة يتيماً، اشتغل بالعلوم وكان علماً، توفي ليلة الجمعة لتسعة عشر يوماً خلت من جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة للهجرة، وكان عمره إحدى وستين سنة، انظر: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ص ١١٠، (بدون)، وطبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأندروني ص ٣٦٥- تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة، ط/الأولى ١٩٩٧م.

(٢) الإتيان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي ص ٤٣٥، تحقيق: سعيد المنسوب، دار الفكر- لبنان ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

(٣) كتاب الكليات لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفومي ص ٢٦٠، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت- ط/ ١٤١٩ هـ.

(٤) محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، الإمام أثير الدين الأندلسي الغرناطي، التفري، نحو عصره ولغويّه ومفسره، ولد بمطخشارس، مدينة من حاضرة غرناطة سنة أربع وخمسين، وستمائة للهجرة، من تصانيفه: البحر المحيط في التفسير، وغيره، توفي سنة خمس وأربعين وسبعمائة، انظر: معجم الشيوخ، تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي ص ٤٧٢، تخريج: شمس الدين أبي عبد الله ابن سعد الصالحي الحنبلي، تحقيق: الدكتور بشار عواد- رائد يوسف العنكي- مصطفى إسماعيل الأعظمي، دار الغرب الإسلامي، ط/ الأولى ٢٠٠٤م.

(٥) البحر المحيط، محمد بن يوسف أبوحيان الأندلسي ١٢١/١، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي معوض، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط/الأولى ١٤٢٢ هـ- ٢٠٠١م.

(٦) المصدر نفسه ١٢٢/١.

وخلاصة القول في تعريف التفسير اصطلاحاً: أنه علم يفهم به مراد الله في كتابه المنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- من بيان لمعانيه، واستخراج للحكم والأحكام عبر علوم وضوابط حددها العلماء سيأتي بيانها في أنواع التفسير.

وهذا التعريف تحاشى فيه الباحث من الفهم بدون ضوابط، وعن التكرار الذي انتقدناه في تعريف الزركشي، ويذكر جانب الفهم والبيان للألفاظ والتراكيب الذي أغفله السيوطي، وذكر العلوم والضوابط التي حددها العلماء إيضاحاً للتعريفين الأخيرين، والله أعلم.
أنواع التفسير

روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: "التفسير أربعة: حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تفره العرب بألسنتها، وتفسير تفسره العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى"^(١).

وقال آخرون: التفسير ثلاثة أقسام: تفسير بالرواية، ويسمى التفسير بالمأثور، وتفسير بالدراية، ويسمى التفسير بالرأي. وتفسير الإشارة، ويسمى التفسير الإشاري، ويضيف بعضهم قسماً رابعاً، وهو تفسير باطني، ويسمى التفسير الباطني.

١- التفسير بالمأثور (بالرواية)، وأقسامه:

وهو تفسير القرآن بالمنقول سواء كان قرآناً أو مأثوراً عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو عن الصحابة، ومعتمد هذا التفسير هو النقل كتفسير ابن جرير الطبري (٢)، وغيره، وهذه هي إحدى طرق التفسير، قال ابن تيمية: "فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن؛ فما أجمل في مكان فإنه قد فُسرَ في موضع آخر، وما اختصر من مكان فقد بسط في موضع آخر فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له.. وإذا لم نجد التفسير في القرآن، ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدري بذلك لما شاهدوه من القرآن.. ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح والعمل الصالح...، وإذا لم تجد التفسير في القرآن، ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة"^(٣).

فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين"^(٤)، وقال الإمام الزركشي: "لنناظر في القرآن لطلب التفسير مأخذ كثيرة أمهاتها أربعة:

الأول: النقل عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا هو الطراز المعلم لكن يجب الحذر من الضعيف منه والموضوع فإنه كثير.

الثاني: الأخذ بقول الصحابي فإن تفسيره عندهم بمنزلة المرفوع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وفي الرجوع إلى قول التابعي روايتان.

(١) تفسير الطبري: (١ : ٣٤)، وإيضاح الوقف والابتداء (١ : ١٠١)، وقد اعتمد الطبري (ت : ٣١٠) على هذا الأثر في ذكر الوجوه التي من قبلها يوصل إلى معرفة تأويل القرآن.

(٢) هو الإمام أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري الإمام الجامع للعلوم المجتهد، ولد سنة أربع وعشرين ومائتين للهجرة في أمل طبرستان، ورحل إلى بغداد واستقر به المقام بها حتى توفي سنة عشر وثلاثمائة، انظر: طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي ٣ / ١٢٠، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي ود. عبد الفتاح محمد الحلوة، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط/الثانية ١٤١٣هـ.

(٣) هو أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، شيخ الإسلام في زمانه وأبرز علمائه، ولد بخران سنة إحدى وستين وستمائة للهجرة، ورحل إلى دمشق مع أسرته هرباً من غزو التتار، تلقى العلم حتى ألت إليه الإمامة، وتوفي سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، انظر: معجم المحدثين للذهبي محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله ص ١١، تحقيق: د. محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق- الطائف، ط/ الأولى ١٤٠٨هـ.

(٤) مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية الحراني ١٣ / ٣٦٣-٣٦٨، تحقيق: أنور الباز، وعامر الجزار، دار الوفاء، ط/ الثانية ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م بتصرف.

الثالث: الأخذ بمطلق اللغة؛ فإن القرآن نزل بلسان عربي مبين، وقد ذكره جماعة منهم: أنس بن مالك، وأحمد بن حنبل.

الرابع: التفسير بالمقتضى من معنى الكلام، والمقتضب من قوة الشرع، وهذا هو الذي دعا به النبي -صلى الله عليه وسلم- لابن عباس رضي الله عنهما في قوله: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل" (١) " (٢).

ومن خلال كلام ابن تيمية يتضح أن التفسير لكتاب الله تعالى يكون بتفسير القرآن بالقرآن ثم بالسنة ثم بأقوال الصحابة ثم يرجع إلى أقوال كبار التابعين كمجاهد بن جبر (٣)، وهذا هو الذي يسمى بتفسير الرواية.

ومن كلام الزركشي يتبين أن التفسير عنده هو ما جاء تفسيره عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو نقل تفسيره عن أحد الصحابة، أو عن تابعي إذا رفعه إلى الصحابي أخذاً بمطلق اللغة، وبمقتضى معنى الكلام، وهذا شامل للتفسير عموماً إلا أنه بيّن في الفقرتين الأولى والثانية سبيل التفسير بالرواية.

ويرى الباحث من كلام الزركشي أيضاً أن معتمد التفسير بالمأثور هو النقل، ويجب أن يكون هذا النقل صحيحاً؛ لأنه حذر من الضعيف، والموضوع إذ لا عبرة به عند جميع المفسرين. وقد عرّف بعض المعاصرين التفسير بالرواية فقال: "هو ما جاء في القرآن، أو السنة، أو كلام الصحابة، بياناً لمراد الله تعالى" (٤).

وقيل: "هو ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل، وما نقل عن الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وأصحابه، والتابعين مسنداً إلى من قبلهم على الصحيح" (٥). وهذان التعريفان الأخيران هما خلاصة كلام الإمام ابن تيمية، وهو الراجح وهو ما سيقوم الباحث بشرحه في أقسام التفسير بالرواية.

أقسام التفسير بالرواية:

مما سبق يمكننا أن نقسم التفسير بالرواية إلى الأقسام الآتية:

أ- تفسير القرآن بالقرآن:

ومثال هذا القسم قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُبْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ] {المائدة: ١}، جاء مفسراً في قوله تعالى: [حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا دَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَفْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

(١) قوله ﷺ: (اللهم فقهه في الدين) متفق عليه، في البخاري، باب: وضع الماء عند الخلاء ١/١٤٩، وفي مسلم باب: فضائل الصحابة ٧/١٥٨، وأما قوله: (وعلمه التأويل) فقد أخرجه أحمد في مسند ابن عباس ١/٢٣٥، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة - القاهرة، (بدون)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم، ومصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي ٢/٥٢٠، تحقيق: محمد عوامة، دار القبلة (بدون).

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/١٥٦ - ١٦١، بتصريف يسير.

(٣) هو مجاهد بن جبر الإمام أبو الحجاج المخزومي مولاها المكي المقرئ المفسر الحافظ سمع سعداً وعائشة، وأبا هريرة، وأم هانئ، وعبد الله بن عمر وابن عباس ولزمه مدة، وقرأ عليه القرآن وكان أحد أوعية العلم، روى عنه جمع غفير من التابعين وغيرهم، توفي سنة ثلاث ومائة وقد بلغ ثلاثاً وثمانين سنة، انظر: تذكرة الحفاظ، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ١/٩٣، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية- بيروت ط/ الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

(٤) التبيين في علوم القرآن، محمد بن علي الصابوني ص ٧٥، دار الإرشاد- بيروت، ط/ الأولى ١٣٩٠هـ.

(٥) علوم القرآن الكريم ص ٧٥، د/ نور الدين عترة، دمشق- الصباح، ط/ السادسة ١٤١٦هـ.

وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِيْمِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
{المائدة: ٣}

وكذلك قوله تعالى: [إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ] {الدخان: ٣}، جاء مفسراً في قوله
تعالى: [إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ] {القدر: ١}

ب- تفسير القرآن بالسنة:

ومثال ذلك ما ورد عن ابن مسعود - (رضي الله تعالى عنه- قال: "لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢]، شق ذلك على أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وقالوا: يا رسول الله: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: "ليس ذلك إنما هو الشرك ألم تسمعوا قول لقمان لابنه: [وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ] {لقمان: ١٣}"^(١).

وفسر النبي - صلى الله عليه وسلم- الصلاة الوسطى بصلاة العصر، فعن عبد الله بن مسعود - رضي الله تعالى عنه- قال: قَالَ: حَبَسَ الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- عَنِ صَلَاةِ الْعَصْرِ حَتَّى أَحْمَرَتِ الشَّمْسُ أَوْ اصْفَرَّتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم-: "شَعَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوَسْطَى صَلَاةِ الْعَصْرِ مَلَأَ اللَّهُ أَجْوَاهَهُمْ وَقَبُورَهُمْ نَارًا"^(٢).

ت- تفسير القرآن بقول الصحابي:

إن الصحابة رضوان الله عليهم عايشوا التنزيل، وعرفوا بجملتهم في ماذا أنزلت الآيات، وأعانهم على ذلك أن القرآن نزل إليهم منجماً، ولم ينزل دفعة واحدة، ليكون أرسخ للفهم، وأسهل في الامتثال والتطبيق.

ومثال ذلك تفسير ابن عباس لسورة النصر، وأنها علامة أجل النبي - صلى الله عليه وسلم-، فعن ابن عباس قال: "كان عمر يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاحِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ مَمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ، قَالَ: وَمَا رَأَيْتَهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مَنِي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: [إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ] {النصر: ١}، حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا جَاءَ نَصْرُنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَدْرِي، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ أَكْذَلِكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- أَعْلَمَهُ بِهِ: [إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ] {النصر: ١}، فَتَحَ مَكَّةَ، فَذَلِكَ عِلْمٌ أَنَّكَ أَجَلُكَ [فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا] {النصر: ٣}، فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ"^(٣).

ث- تفسير القرآن بقول التابعي:

التابع ويقال: التابعي، وكذا التابع، ويجمع عليه أيضا كذا على أتباع^(٤). ولم يتفق العلماء على تعريف محدد للتابعي، وانقسموا آراء واتجاهات: فذهب الخطيب البغدادي إلى أن التابعي من صحب الصحابي^(٥). فلا يكفي عنده مجرد اللقي، بل لا بد من شرط زائد وهو وجود الصحبة بينهما. ومال ابن كثير^(٦) إلى قول الخطيب لأنه ذهب إلى تعليل اشتراط الصحبة، وعدم الاكتفاء باللقي.

(١) البخاري مع الفتح، باب: لا تشرك بالله ٨ / ٦٥١، مكتبة دار السلام، ط/الأولى ١٤١٨هـ، ومسلم مع شرح النووي، باب: صدق الإيمان ١ / ٨٠، برقم (٣٢٣)، دار المعرفة، ط/ الثانية ١٤١٥هـ.

(٢) البخاري مع الفتح، باب: الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة ٦ / ٨٩، برقم (٢٩٣١)، ومسلم مع شرح النووي باب: الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ٥ / ١٢٩، برقم (١٤٥٨).

(٣) البخاري مع الفتح، باب قوله: [فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا] {النصر: ٣}: ٨ / ٩١٩.

(٤) انظر: فتح المغيب (٣ / ١٤٠)، وفتح الباقي (٣ / ٤٥).

(٥) الكفاية (٥٩).

(٦) اختصار علوم الحديث (٢٠١).

فتبين أن أهل هذا القول لم يكتفوا بمجرد رؤية التابعي للصحابي، كما اكتفوا بذلك حين قرروا أن رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم كافية لمن آمن به ثم مات على ذلك في إطلاق اسم الصحابي عليه^(١) لأن هنالك فرقا فرؤيته صلى الله عليه وسلم لها أثرها في النفس، والسلوك. وذهب الحاكم إلى القول باشتراط المشافهة عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم^(٢). واختار ابن حجر رحمه الله قول الجمهور في ذلك، وزاد قيد الإيمان، ثم قال: خلافا لمن اشترط في التابعي طول الملازمة، أو صحبة السماع. فتحصل مما سبق أن تعريف التابعي المختار: هو من لقي الصحابي مؤمنا، ومات على الإسلام^(٣).

وذهب كثير من المحدثين إلى القول بأن المراد به: من لقي واحدا من الصحابة فأكثر^(٤). فيكفي عن هؤلاء مجرد اللقي وإن لم تكن الصحبة، وإلى ذلك ذهب ابن الصلاح^(٥) والنووي^(٦)، ورجحه العراقي^(٧) فقال: وعليه عمل الأكثرين من أهل الحديث^(٨). ثم ساق الأدلة الدالة على صحة هذا القول، فقال: ذكر مسلم، وابن حبان، سليمان بن مهران الأعمش في طبقة التابعين، وقال ابن حبان: أخرجناه في هذه الطبقة لأن له لقا وحفظا، رأى أنس بن مالك، وإن لم يصح له سماع المسند من أنس^(٩).

وقال علي بن المديني: لم يسمع من أنس، وإنما رآه رؤية بمكة يصلي خلف المقام^(١٠). وقال أبو حاتم: إنه لم يسمع منه^(١١)، وقال الترمذي: إنه لم يسمع من أحد من الصحابة^(١٢). ثم قال العراقي: وعدّه أيضا عبد الغني بن سعيد في التابعين، وعدّ فيهم يحيى بن أبي كثير، لكونه لقي أنسا، وعدّ فيهم موسى بن أبي عائشة لكونه لقي عمرو بن حريث، وعدّ فيهم جرير بن حازم لكونه رأى أنسا، وهذا مصير منهم إلى أن التابعي من رأى الصحابي^(١٣). وقد قيد ابن حبان الرؤية بأن تكون في سن من يحفظ عنه، كما صرح بذلك في ترجمة خلف بن خليفة، الذي قال البخاري فيه: يقال: إنه مات في سنة إحدى وثمانين ومائة، وبذلك جزم ابن حبان^(١٤).

قال السخاوي في إيضاحه لهذا التعريف: هو اللاقي لمن قد صحب النبي صلى الله عليه وسلم واحدا فأكثر، سواء كانت الرؤية من الصحابي نفسه، حيث كان التابعي أعمى أو بالعكس، أو

(١) صحيح البخاري أول كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (٤ / ١٨٨)، والإصابة (٣ / ١).

(٢) معرفة علوم الحديث (٤٢)، ومنهج النقد في علوم الحديث (١٤٧).

(٣) شرح قصب السكر نظم نخبة الفكر (١٠٦)، وشرح النخبة لعلي القاري (١٨٤، ١٨٥).

وقد توسع التهانوي في تعريفه، فقال: هو من لقي الصحابي، ولو غير مؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم، ومات على الإسلام، ولو تخللت ردة، ينظر: قواعد في علوم الحديث (٤٨).

(٤) تدريب الراوي (٢ / ٢٣٤).

(٥) مقدمة ابن الصلاح (٢٧٢).

(٦) تدريب الراوي (٢ / ٢٣٤).

(٧) التبصرة والتذكرة (٣ / ٤٥)، والتقييد والإيضاح (٣١٧).

(٨) التبصرة والتذكرة (٣ / ٤٥)، والتقييد والإيضاح (٣١٧).

(٩) الثقات (٦ / ٢٧٠).

(١٠) المراسيل لابن أبي حاتم (٨٢).

(١١) المراسيل لابن أبي حاتم (٨٢)، والتبصرة (٣ / ٤٥).

(١٢) التبصرة (٣ / ٤٦).

(١٣) المصدر نفسه والصحيفة نفسها.

(١٤) الثقات (٦ / ٢٧٠).

كانا جميعا كذلك يصدق أنهما تلاقيا، وسواء كان مميزا أم لا (١). وختم السخاوي هذا المبحث بقوله: (مرجحا القول المكتفي باللقاء): ثم إنه قد يستأنس لهذا القول بقوله صلى الله عليه وسلم: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن رأى من رآني» (٢).

حكم تفسير التابعي

اختلف العلماء في تفسير التابعي هل هو من المأثور أم من التفسير بالرأي؟ بمعنى هل نحمله على أنه منقول عن الصحابة رضوان الله عليهم للذين- عايشوا التنزيل- أم باجتهادٍ منهم. وفي الرجوع إلى قول التابعي روايتان عن أحمد، واختار ابن عقيل المنع (٣).
وذهب أبو حنيفة، والشافعي إلى عدم الأخذ بقوله، وقد صرح أبو حنيفة فقال: "إذا جاء الأمر إلى إبراهيم، والحسن فهم رجال، ونحن رجال" (٤).
وإن كان الإمام الشافعي قد يأخذ أحيانا بقول التابعي، وقد صرح في أكثر من موضع بأنه قال ذلك تقليدا، كما وقع ذلك منه مثلا في تقليده لبعض ما ذهب إليه عطاء ابن أبي رباح.

(١) فتح المغيبي (٣ / ١٤٠).

(٢) رواه الطبراني عن عبد الله بن بسر، بزيادة: «طوبى لهم وحسن مأب».

قال نور الدين الهيثمي في المجمع (١٠ / ٢٠): رواه الطبراني، وفيه بقية، وقد صرح بالسماع فزالت الدلسة، وبقية رجاله ثقات.

قال الألباني: في السلسلة الصحيحة (٣ / ٢٥٣) ما نصه: وقد وقفت على إسناده، أخرجه الضياء في «المختارة» (ق ١١٣ / ٢) من طريق أبي يعلى والطبراني بإسناديهما عن بقية، ثم قال: وهو إسناده حسن، ورجاله معروفون غير اليحسبي هذا، فقد ترجمه ابن أبي حاتم (٣ / ٢ / ٣١٦) برواية جماعة عنه، ولم يذكر فيه جرحا، ولا تعديلا، ثم قال: والظاهر أنه وثقه ابن حبان يدل عليه كلام الهيثمي السابق.

قال كاتبه: لم يوثقه ابن حبان، بل قال: لا يحتج بحديثه ما كان من رواية بقية بن الوليد، بل يعتبر من حديثه ما رواه الثقات عنه، فتحصل مما سبق تضعيف ابن حبان له، وخاصة في رواية بقية عنه. ينظر: الثقات (٥ / ٣٧٧).

وأخرجه الحاكم (٤ / ٨٦) من طريق عبد الله بن بسر أيضا بزيادة: «ولمن رأى من رأى من رآني وآمن بي». ثم قال رحمه الله: هذا حديث قد روي بأسانيد قريبة عن أنس بن مالك، وأقرب هذه الروايات إلى الصحة ما ذكرنا، وتعقبه الذهبي بقوله، قلت: جميعه واه.

وأما أسانيد الحديث إلى أنس، التي أشار إليها الحاكم فقد أخرجها الخطيب في تاريخه (٣ / ٤٩)، (٣ / ٣٠٦)، (٦ / ٢٠٠)، (٨ / ٢٥٨، ٢٥٩) وفيها ضعف شديد، كما أشار إليه الشيخ الألباني، ثم قال: وللحديث شاهد من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعا به، ولكنه واه جدا، أخرجه عبد بن حميد في المنتخب من المسند (٢ / ١١٠) من طريق إبراهيم بن أبي إسحاق عن أبي نضرة عنه ثم قال: وهذا إسناده ضعيف جدا، إبراهيم هذا هو ابن الفضل، وهو متروك كما في «التقريب».

قال كاتبه: ولست أدري من أين استنبط الشيخ حفظه الله أن إبراهيم هذا هو ابن الفضل لأن إبراهيم هنا هو ابن يزيد أبو إسحاق الكوفي، كما يوضحه ما رواه البخاري في تاريخه (١ / ٣٣٥) عند ترجمة إبراهيم ابن أبي يزيد أبو إسحاق الكوفي، وذكر في ترجمته روايته لهذا الحديث عن أبي نصير سمع أبا سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «طوبى لمن رآني» الحديث، وساقه بأكثر من ثلاثة طرق عن إبراهيم بن يزيد عن أبي نصير به.

وإبراهيم بن يزيد الكوفي ذكره البخاري (١ / ٣٣٥)، وابن أبي حاتم في الجرح (٢ / ١٤٦)، وسكتنا عنه، وقال ابن حبان: شيخ يروي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري، ينظر: الثقات (٦ / ٢٥).

وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠ / ٢٢)، ٢٩، من طريق وائل بن حجر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«طوبى لمن رآني ومن رأى من رآني» قال الهيثمي في المجمع (١٠ / ٢٠): وفيه من لم أعرفهم.

ثم قال الشيخ الألباني: وبالجملة فالحديث حسن إن شاء الله من أجل طريق بقية التي أخرجها الضياء في المختارة. قال كاتبه: لعل الأقرب أن الحديث حسن لغيره، بمجموع طرقه الضعيفة.

(٣) المسودة في أصول الفقه (١٧٦)، والبرهان في علوم القرآن (٢ / ١٥٨)، والإتقان (٢ / ٢٢٩).

(٤) تاريخ المذاهب الفقهية (٨٣).

قال ابن القيم: وهذا من كمال علمه، وفقهه رضي الله عنه فإن لم يجد في المسألة غير قول عطاء كان عنده أقوى ما وجد في المسألة، ونجده يقول عند بعض المسائل: وهذا يخرج على قول عطاء^(١).

وأما مالك، فإنه لم يصرح باتباع قول التابعي على أنه حجة، ولكن رأيناه في الموطأ كثيرا ما يروي عن التابعين أقوالا، ويأخذ بها^(٢).

وأما أحمد فيأخذ بقول التابعي في رواية، كما يأخذ بقول الصحابي إذا لم يكن هناك قول الصحابي، وإذا اختلف التابعون لم يوازن بين أقوالهم ويتخير فيها، بل يكون قول كل تابعي عنده حجة، ويكون الاختلاف بينهم اختلافا في مذهبه^(٣).

وقد ذكر الدهلوي في بيان الفرق بين أهل الحديث، وأصحاب الرأي، أن المحدثين إذا فرغوا جهدهم في تتبع الأحاديث، ولم يجدوا في المسألة حديثا، أخذوا بأقوال جماعة من الصحابة، والتابعين^(٤).

يقول ابن تيمية: من عدل عن مذاهب الصحابة، والتابعين، وتفسيرهم، إلى ما يخالف ذلك، كان مخطئا في ذلك، بل مبتدعا، وإن كان مجتهدا مغفورا له خطؤه^(٥).

قال محمد الزرقاني^(٦): "أما ما ينقل عن التابعين ففيه خلاف بين العلماء: منهم من اعتبره من المأثور؛ لأنهم تلقوه من الصحابة غالبا، ومنهم من قال: إنه من التفسير بالرأي، وفي تفسير ابن جرير الطبري كثير من النقول عن الصحابة والتابعين في بيان القرآن الكريم"^(٧).

وقيل: "وإنما أدرجنا في التفسير بالمأثور ما روى عن التابعين- وإن كان فيه خلاف: هل هو من قبيل المأثور أو من قبيل الرأي- لأننا وجدنا كتب التفسير بالمأثور، كتفسير ابن جرير الطبري وغيره، لم تقتصر على ما روى عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وما روى عن أصحابه، بل ضمت إلى ذلك ما نقل عن التابعين في التفسير"^(٨).

ومن خلال صنيع ابن جرير الطبري وغيره من المفسرين، يتبين أن قول التابعين يعتبر من التفسير بالمأثور لقربهم من الذين شهدوا الوحي وتلقوا عنهم، خلافا لقول ابن تيمية، ومن أهم مؤلفات التفسير بالمأثور:

-جامع البيان في تأويل أي القرآن، للإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.

- تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ ابن كثير البصري^(٩).

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي.

(١) أعلام الموقعين (١ / ٢٠).

(٢) تاريخ المذاهب الفقهية (٨٤)، وكتاب مالك حياته، وعصره، لأبي زهرة (٢٦٨).

(٣) تاريخ المذاهب الفقهية (٨٤).

(٤) الحجة البالغة (١ / ١١٨).

(٥) مقدمة في أصول التفسير (٩١).

(٦) هو محمد عبد العظيم الزرقاني، من علماء الأزهر بمصر، تخرج بكلية أصول الدين، وعمل بها مدرسا لعلوم القرآن والحديث، وتوفي بالقاهرة عام سبع وستين وثلاثمائة وألف للهجرة- الموافق ثمان وأربعين وتسعمائة وألف ميلادية، انظر: الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي ٢١٠/٦، دار العلم للملايين، ط/ الخامسة عشر ٢٠٠٢ م.

(٧) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد الزرقاني ١٢/٢، دار الفكر- بيروت، ط/ الأولى ١٩٩٦ م.

(٨) التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي ١ / ١٣٩، مكتبة وهبة- مصر، ط/ الأولى ١٤٠٩ هـ.

(٩) هو الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء البصري ثم الدمشقي، فقيه مفسر مؤرخ، ولد سنة سبعمائة للهجرة، وتوفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة، انظر: معجم المحدثين للذهبي ص ٤١، والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، جمال الدين يوسف بن عبدالله، الملقب ابن تغري بردي ١ / ١٧٧، (بدون).

وقد ذكر الزركشي طرق التفسير الأربع: النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم الصحابة، ثم أورد عند ذلك مسألة الرجوع إلى أقوال التابعين، وحكى الخلاف فيه، وذكر أقوال بعض المانعين، ثم قال: لكن عمل المفسرين على خلافه، وقد حكوا في كتبهم أقوالهم كابن جبير، ومجاهد، وقتادة^(١).

وذكر ابن الأنباري أن من قال في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذاهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرض لسخط الله^(٢).

ومن الضوابط التي أشار إليها المفسرون، وينبغي للمتعرض لتفسير القرآن مراعاتها: عدم التسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماح، والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة.

وفي هذا يقول القرطبي: فمن لم يحكم ظاهر التفسير، وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلظه، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي والعقل، والسماع لا بد له منه في ظاهر التفسير أولاً، ليتقي به مواضع الغلط. ثم قال رحمه الله: والغرائب التي لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر. ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وَأَنبَأْنَا تَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء : ٥٩]، معناه: آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها، فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة^(٣).

مصادر تفسير التابعين:

اعتمد التابعون في تفسيرهم لكتاب الله، على المصادر الآتية:

أولاً:- كتب السنن والآثار:

جمعت كتب الصحاح والسنن مقادير مختلفة من التفسير بالمأثور، حتى إننا لنرى في صحيح البخاري كتابين هما: كتاب تفسير القرآن، وكتاب فضائل القرآن، وهما يشغلان حيزاً واضحاً من الكتاب ربما كان نحو الثمن منه^(٤).

أ- صحيح البخاري:

من أهم مصادر تفسير التابعين صحيح الإمام البخاري رحمه الله فقد روى كثيراً من تفسيرهم، وخصوصاً في كتاب التفسير من صحيحه، وكتاب أحاديث الأنبياء، يقول الأستاذ عبد المجيد محمود: والحق أن البخاري من بين محدثي القرن الثالث هو الذي اهتم بالقرآن في صحيحه، وهو الذي تفرد بالعناية بذكر الآيات المناسبة للأبواب المختلفة^(٥). وأما منهج البخاري في صحيحه، فهو كما يأتي^(٦).

١ - يقدم أغلب الأبواب في التفسير بذكر ما ورد عن الأئمة من الصحابة والتابعين، وخاصة ما جاء عن مجاهد رحمه الله.

(١) البرهان (٢ / ١٥٨)، والإتقان (٢ / ٢٢٩)، وتفسير القاسمي (١ / ٨).

(٢) تفسير القرطبي (١ / ٢٥).

(٣) تفسير القرطبي (١ / ٢٦)، وهذا المعنى مروى عن مجاهد، وقتادة، في تفسير هذه الآية، ينظر تفسير الطبري (١٥ / ١٠٩)، والدر المنثور (٥ / ٣٠٧).

(٤) صحيح البخاري، دائرة المعارف الإسلامية، مادة تفسير (٥ / ٣٤٩).

في حين أن هناك كتباً أخرى من الصحاح والسنن كصحيح مسلم الذي جعل كتاباً مستقلاً للتفسير، لكنه لم يذكر فيه إلا أربعة وثلاثين حديثاً، كلها من المرفوع عنه صلى الله عليه وسلم وبعضهم لم يبوب كتاباً للتفسير في كتابه، كسنن أبي داود، وابن ماجه، وموطأ الإمام مالك، وغيرها من كتب المسانيد والمعاجم.

(٥) الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث، في القرن الثالث (١٩٥).

(٦) انظر: تفسير التابعين، عرض ودراسة ومقارنة، د. محمد بن عبد الله: ص ٥٨ وما بعدها.

- ٢ - ما يورده عن التابعين أكثره معلق، بخلاف ما يروي عن الصحابة فإنه في الغالب يكون مسندا^(١)، وأكثره في أسباب النزول^(٢).
- ٣ - يورد جملة من الأقوال غير المنسوبة معلقة، وغالبها مأخوذ من تفسير التابعين^(٣).
- ٤ - أكثر المعلقات المنسوبة وغير المنسوبة وصلها ابن حجر في الفتح والتعليق^(٤).
- ٥ - في إيراده لأقوال التابعين قل أن يذكر خلافا^(٥)، وكأنه بذلك يختار القول المترجح عنده ويذكره.
- ٦ - أكثر من النقل عن تلاميذ المدرسة المكية، وخصوصا مجاهد، ثم ابن جبير، ثم عكرمة، ثم أورد بعض أقوال تلاميذ المدرسة العراقية، أما نقله عن المدرسة المدنية فكان قليلا^(٦).
- ٧ - يورد في النادر بعضا من الروايات عن أتباع التابعين وخاصة سفيان بن عيينة^(٧).
- ٨ - اعتمد في تلك المعلقات على تفسير ابن عباس، ومجاهد، وكان رحمه الله يقدم الباب في الغالب بذكر ما يختاره من تفسير مجاهد.
- ٩ - يأتي بعد ابن عباس ومجاهد بمراحل، إيراده لتفسير ابن مسعود رضي الله عنه، وفتادة، وكان اعتماده على تفسير الحسن قليلا.
- ١٠ - قل أن يورد تفسير سورة بدون إيراد قول، أو أقوال لمجاهد رحمه الله.
- وخلاصة القول أن صحيح البخاري يعد من أهم كتب الصحاح والسنن التي جمعت الكثير من أقوال التابعين ولذا عرضت له بشيء من التفصيل. وقد لاحظ ابن حجر رحمه الله أهمية هذا الكتاب في جانب التفسير بالذات فجرد التفسير من صحيحه^(٨).
- ومما زاد من أهمية الصحيح، ما قام به ابن حجر من شرح وبيان، وإيراد للكثير من آثار التابعين، فصار كتابه الفتح، وقبله التعليق من أهم كتب شروح السنة في جمعها لكثير من آثار التابعين في التفسير، ولذا فسوف أصل الحديث عن هذين الكتابين، مبينا أهميتهما في هذا الباب.
- ب- سنن سعيد بن منصور:**
- وهو يكثر النقل عن مجاهد وابن عباس، وبعدهما الحسن وإبراهيم، ثم ابن جبير وعكرمة، فعتاء والشعبي، وغيرهم دونهم في ذلك.
- ت- سنن الترمذي:**
- أطال في كتاب التفسير، إذ أورد فيه أكثر من أربعمئة حديث، وغالبه من التفسير النبوي، والقليل منه موقوف على الصحابة، وغالب هذا الموقوف في بيان أسباب النزول، وقد يورد في النادر عند نهاية ذكره الحديث أثرا مسندا عن تابعي^(٩).
- وكتاب الإمام الترمذي على سعة كتاب التفسير فيه، فإن ما نقله عن التابعين كان قليلا.
- ث- سنن الدارمي:**

(١) قد يورد بعض التفاسير المسندة عن التابعين، ولكنها قليلة، من هذا ينظر صحيح البخاري (١٦١ / ٥)، (١٥ / ٢١٥)، (١٩١ / ٥).

(٢) وغالب ما يورده عن التابعين في بيان غامض مفردات الآيات.

(٣) وهذا كثير يتضح من خلال مراجعة فتح الباري الصفحات: (٨ / ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢).

(٤) ولذا يعد هذان الكتابان من المصادر الأساسية لمعرفة المروي في التفسير عن التابعين، وقد أغفلها كثير من الباحثين في جمع المروي عنهم في التفسير.

(٥) ينظر صحيح البخاري (٢١١ / ٥).

(٦) روى عن زيد بن أسلم، وابن المسيب في موضع واحد فقط، ينظر صحيح البخاري (٢١١ / ٥)، (١٩١ / ٥).

(٧) من الأمثلة الدالة على ذلك، ينظر صحيح البخاري، الصفحات (٥ / ١٨٥)، (٥ / ١٨٦)، (٥ / ١٩٩)، (٥ / ٢٠١)، (٥ / ٢١٩)، (٥ / ٢٢١)، (٥ / ٢٣٦)، (٥ / ٢٤١)، (٥ / ٢٤٢)، (٦ / ١٠)، (١٤).

(٨) في كتاب سماه تجريد التفسير من صحيح البخاري، ينظر: المنهل الصافي (٢ / ٢٤).

(٩) من ذلك ينظر السنن (٥ / ٢٠٠)، (٥ / ٢٩٥٢)، (٥ / ٢٠٦)، (٥ / ٢٩٥٨)، (٥ / ٢٣٧)، (٥ / ٣٠٢٢)، (٥ / ٢٩٥)، (٥ / ٣١١٩).

عقد كتابا في فضائل القرآن أورد فيه أحاديث كثيرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وأكثر فيه من النقل عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وجاء عنه في هذا الكتاب بعضا من الآثار عن التابعين^(١).

ومع هذا فإن المروي فيه من تفسير التابعين كان قليلا، إذا ما قورن بالمروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة.

ثانياً:- كتب الزهد والرفاق:

إن هذه الكتب حوت كثيرا من الآثار التفسيرية عن التابعين، ومن المعلوم أن القرآن كتاب هداية، ودلالة، وإرشاد، وجاء كثير من آياته في الوعد والوعيد، والترغيب، والترهيب، وقد كان بعض من مفسري التابعين يفسرون تلك الآيات واعظين به الناس، وهذه الكتب تعد مصادر مهمة لتفسير المهتمين بهذا المسلك، والمكثرين منه، ومن أشهر هؤلاء: الحسن البصري.

وقد حوت تلك الكتب ما يزيد على ربع مادتها من أقوال التابعين وتفسيرهم رحمهم الله. وفيما يلي ذكر نماذج لأهم هذه الكتب:

١- كتاب الزهد والرفاق لابن المبارك^(٢):

وهذا الكتاب من أوسعها مادة، وأكثرها رواية عن التابعين، وقد أكثر من النقل عن الحسن، وبعده مجاهد، فالنخعي، فابن جبير، وغيرهم دونهم في ذلك.

وفي كتابه روى عن الحسن في (٩٤) موضعا، وعن مجاهد في (٤٢) موضعا، وعن إبراهيم النخعي في (١٦) موضعا، وعن عمر بن عبد العزيز في (١٤) موضعا، وعن قتادة في (٩) مواضع، وعن عطاء بن أبي رباح في (٧) مواضع، وعن الزهري وابن المسيب في (٦) مواضع.

٢- كتاب الزهد لهناد^(٣):

نقل فأكثر عن الحسن، ثم مجاهد، فالنخعي، فابن جبير، وغيرهم من التابعين. وفي هذا الكتاب المنقول فيه عن الحسن بلغ (٧١) رواية، وعن مجاهد (٦١) رواية، وعن النخعي (٢٧) رواية، وعن ابن جبير (١٩) رواية، وعن مسروق والشعبي (١٤) رواية، وعن عكرمة (١٣) رواية، وعن قتادة رواية واحدة.

٣- كتاب الزهد لوكيع^(٤):

وهو من أخصر هذه الكتب، وقد نقل عن الحسن، ثم مجاهد، فالنخعي، وغيرهم من التابعين أقل منهم في ذلك^(٥).

٤- المصنف لابن أبي شيبة^(٦):

(١) من ذلك ينظر سنن الدارمي: (٢/ ٤٣٤، ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٥٢، ٤٥٥، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٧٠).

(٢) عبد الله بن المبارك بن واضح، أبو عبد الرحمن الحنظلي مولاهام التركي، ثم المروزي، توفي سنة إحدى وثمانين ومائة، ينظر ترتيب المدارك (١/ ٣٠٠)، وخلاصة صفوة الصفوة (١٩٤)، والديباج المذهب (١٣٠).

(٣) هو هناد بن السري بن مصعب التميمي، أبو السري، توفي سنة (٢٤٣هـ)، ينظر الثقات (٩/ ٢٤٦)، والمعجم المشتمل (٣١٣)، والخلاصة (٤١٤).

(٤) هو وكيع بن الجراح بن مليح، أبو سفيان الرؤاسي، توفي سنة سبع وتسعين ومائة. ينظر التاريخ الصغير (٢/ ٢٨١)، الجرح (١/ ٢١٩)، الحلية (٨/ ٣٦٨).

(٥) المروي فيه عن الحسن بلغ (٤٣) رواية وعن مجاهد (٣٨) رواية، وعن النخعي (٢٢) رواية، وعن عطاء بن أبي رباح (٩)، روايات، وعن ابن جبير (٨) روايات، وعن علقمة (٦) روايات، وعن قتادة (٥) روايات.

(٦) ابن أبي شيبة، هو عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان، أبو بكر العبسي مولاهام. توفي سنة خمس وستين ومائتين. ينظر التذكرة (٢/ ٤٣٢)، وتهذيب التهذيب (٦/ ٢)، والخلاصة (٢١٢).

هو من الكتب التي جمعت العديد من الآثار التفسيرية عن التابعين وخصوصا ما يتعلق منها بتفسير آيات الأحكام، والمنتبع لتفسير التابعين لا بد له من الرجوع لهذا المصنف، ولا سيما أن تفسير ابن أبي شيبة مفقود، وإلى هذا أشار السيوطي في مقدمة الدر، وذكر عدم اطلاعه عليه، وأن ما نقله منه، أخذه من بطن تفسير ابن المنذر^(١).

والمصنف كثير من أسانيده من تفسير وكيع عن سفيان الثوري. ومما ينبغي الإشارة إليه هنا أن الإمام ابن جرير، وابن أبي حاتم لم ينقلا كثيرا من طريق ابن أبي شيبة، كما صنعا في نقلهما من طريق عبد الرزاق، ولعل السبب في ذلك هو أخذهما هذه التفاسير من طرق أخرى.

ومما يؤكد هذا أن السيوطي في نقله عن هذا التفسير لم يرجع كما رجع في غيره إلى تفسير ابن جرير، إنما رجع إلى الأخذ من ابن المنذر لأن ابن جرير لم ينقل عنه^(٢).

٥- غريب الحديث للحربي^(٣):

هذا الكتاب ليس قاصرا كما هو ظاهر اسمه على غريب الحديث، بل اشتمل على بيان غريب القرآن وقراءاته، وبيان أسباب النزول، وذكر من خلاف المفسرين الشيء الكثير^(٤)، ويعد من المصادر المهمة في تفسير التابعين، التي يغفلها كثير من الباحثين. ومما امتاز به إirاده للعديد من الآثار التفسيرية المسندة عن التابعين، وخاصة عن مجاهد^(٥)، ثم الحسن^(٦)، فقتادة^(٧)، والسدي^(٨)، وغيرهم.

يتضح مما سبق تفاوتنا بين كتب السنة في مدى الاعتماد على تفسير التابعين، وإن كان الغالب عليها العناية بالمرفوع والموقوف، باستثناء الإمام البخاري كما سبق بيانه، وبعض كتب السنة التي عقدت كتباً للتفسير في جوامعها، لم تروي شيئا من تفسير التابعين. فهذا مسلم في صحيحه جعل كتابا للتفسير في آخر كتابه لم يتوسع فيه، والمنقول فيه كله عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن الصحابة، ولم ينقل عن التابعين شيئا، بل هذا الحاكم في مستدركه الذي يعد كتاب التفسير عنده من أوسع الكتب، ومع هذا لم يورد فيه عن التابعين شيئا^(٩).

ثالثا:- كتب التفسير بالمأثور

وفيما يأتي نماذج لأهم كتب التفسير بالمأثور، مع بيان مناهج الأئمة في إيراد أقوال التابعين:

١- تفسير مجاهد:

يعد تفسير مجاهد من أقدم المصادر التفسيرية، وجاء هذا التفسير برواية أبي القاسم عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عبيد الهمداني من طريق إبراهيم عن آدم، عن ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، ومن هذا الطريق جاء معظم التفسير عن مجاهد^(١٠).

(١) انظر مقدمة السيوطي (ق ١).

(٢) المصدر نفسه والصحيفة نفسها.

(٣) مؤلفه: هو إبراهيم بن إسحاق الحربي، المتوفى سنة خمس وثمانين ومائتين، ينظر طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى

(١ / ٨٦)، وفوات الوفيات (١ / ١٤)، والمنهج الأحمد (١ / ٣٨٣)، والمقصد الأرشد في ذكر أصحاب أحمد (١ /

٢١١).

(٤) انظر: مقدمة محقق الكتاب د. سليمان بن إبراهيم العائد (١ / ١٠٦).

(٥) انظر: غريب الحديث (١ / ٤، ٢٥، ٢٩، ٥٩، ٧٤، ٨٦، ٨٧، ٩٥، ١٦٠، ١٨٩، ٢١٧).

(٦) المرجع السابق (١ / ٧٤، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٩١، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢٣٣، ٢٩٠، ٢٩٢).

(٧) المرجع السابق (١ / ٤، ٢٥، ٢٩، ٧٥، ٨٧، ٨٨).

(٨) المرجع السابق (١ / ٢٤، ٨٧، ٢٩٢).

(٩) انظر: تفسير التابعين عرض ودراسة ومقارنة: ٦٧/١.

(١٠) انظر: مقدمة تفسير مجاهد (١ / ٥٨).

وقد اعتمد محقق الكتاب في طبعه على نسخة وحيدة مصورة بدار الكتب المصرية^(١)، واستفاد في تصحيح هذه المخطوطة من تفسير الطبري وفي ذلك يقول: فإذا وجدنا فيه ما يوضح عبارة أصلنا الناقصة لم نلتفت بعده إلى تفسير آخر إلا قليلاً^(٢).

وهذه النسخة فيها نقص كثير، ولذا عمد المحقق إلى تفسير بن جرير، وأخذ ما فيه من زيادات، وأثبتها في حاشية الكتاب، والمروي في هذا الكتاب لا يعادل نصف المروي عند ابن جرير الطبري في تفسيره.

وفي ذلك يقول: "الزيادات التفسيرية عن مجاهد التي أضفناها إلى أصلنا فإن معظمها من تفسير الطبري، ثم قال: والزيادات التفسيرية نوردها في تعليقاتنا حسب ترتيب الآيات"^(٣). وهذا التفسير كما هو واضح من مسماه مروي عن مجاهد، وقد يروي فيه عن غيره من التابعين، فمثلاً في تفسير سورة البقرة، ورد عن غير مجاهد أكثر من عشرين رواية للتابعين^(٤).

٢- تفسير سفيان الثوري:

من المصادر المهمة في تفسير التابعين لا سيما المروي عن مجاهد، وقد جاء غالب رواياته عن مفسري مكة، وكان رحمه الله يدعو إلى الأخذ عنهم فيقول: خذوا التفسير عن أربعة: عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة^(٥)، وكان يقول: "إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به"^(٦).

والمراجع لهذا التفسير يجد أن الثوري اعتمد تفسير التابعين في أكثر من نصف المروي عنه رحمه الله^(٧) واحتل مجاهد المرتبة الأولى بين عموم التابعين^(٨).

٣- تفسير سفيان بن عيينة^(٩):

وهذا التفسير من المحاولات التفسيرية المتقدمة^(١٠)، وقد رآه ابن حجر وقرأه^(١١)، ورجع إليه السيوطي ونقل منه في الدر^(١٢)، لكنه فقد كثيره من كتب التفسير بالمأثور بعد ذلك، وقد جمع تفسيره أحد الباحثين المعاصرين في رسالة علمية^(١٣)، وبعد الرجوع إلى ما جمع وجدت أن كثيراً

(١) رقم ١٠٧٥ انسخت في سنة ٥٤٤ هـ عن مقدمة تفسير مجاهد (١/ ٥٦).

(٢) تفسير مجاهد: ٦٠/١.

(٣) تفسير مجاهد: ٦٠/١.

(٤) انظر: تفسير مجاهد: ج ١ / (٨٥، ٨٧، ٨٨، ٩٠، ٩٣، ٩٧، ٩٩، ١٠١، ١٠٥، ١٠٦، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٨).

(٥) تفسير الطبري (١/ ٩١) ١٠٩، مقدمة في أصول التفسير (١٠٣).

(٦) المقدمة (١٠٣).

(٧) بلغ عدد المروي في تفسيره (٩١١) رواية، منها (٥١١) رواية عن التابعين أي: ما يعادل (٥٦، ٠) عن التابعين، ينظر كتاب سفيان الثوري وأثره في التفسير (٤٦٦).

(٨) بلغ المروي عن مجاهد (٢٠٦) روايات، وعن ابن جبير (٥٦) رواية، وعن إبراهيم النخعي (٤٣) رواية، وعن عكرمة (٢٤) رواية، وعن عطاء (٢٠) رواية، ينظر كتاب سفيان الثوري، وأثره في التفسير (٤٧١ ٤٦٨).

(٩) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران، ميمون مولى محمد بن مزاحم، الكوفي ثم المكي، توفي سنة ثمان وتسعين ومائة، وهو من أعلم الناس بحديث الحجاز، قال عبد الله بن وهب: لا أعلم أحدا أعلم بتفسير القرآن من ابن عيينة، ينظر التاريخ الصغير (٢/ ٢٨٣)، والسير (٨/ ٤٠٠)، والعقد الثمين (٤/ ٥٩١).

(١٠) الفهرست (٢٨٢)، ودراسات في الحديث النبوي (٢٦١).

(١١) ذكر ذلك ابن حجر في كتابه تجريد أسانيد الكتب المشهورة، المسمى بالمعجم المفهرس، والكتاب مصور في الجامعة الإسلامية بالمدينة برقم ٨٩٧ (٨٦).

(١٢) مقدمة كتاب الدر المنثور (ق ١).

(١٣) جمعه الباحث أحمد صالح محاييري، وقد بلغ مجموع ما ورد فيه (٢٢٢) رواية.

من تفسيره كان عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأصحابه^(١)، ولم ينقل عن غيرهم إلا في مواطن قليلة من تفسيره.

٤- تفسير عبد الرزاق الصنعاني^(٢):

من التفاسير المتقدمة، والتي عنيت في المقام الأول بتفسير التابعين، ورد في تفسيره ما يقارب (٣٧٧٠) رواية، منها (٢٤٥١) رواية عن التابعين أي: ما نسبته (٦٥، ٠) من مجموع تفسيره، وقد بلغ استغرق المروي عن مدرسة البصرة ما يزيد على نصف الآثار الواردة في هذا التفسير^(٣)، والمراجع لتفسيره يجد أنه لا تخلو ورقة منه من أثر عن قتادة، حتى كاد تفسيره يكون كله لقتادة، وجاء بعده الحسن فنقل عنه وأكثر، ثم مجاهد^(٤).

ومع قلة أسفار الإمام عبد الرزاق الصنعاني إلا إنه استفاد كثيرا ممن قدم إلى اليمن، وأخذ كثيرا من علم المشاهير من أتباع التابعين، فنشر علمهم وتفسيرهم في مدرسة اليمن، وقد لازم معمر بن راشد سبع سنين^(٥)، والتقى بعبد الملك بن جريج قبل ذلك، وأخذ عنه بعض تفسير عطاء وغيره من المكيين^(٦).

٥- تفسير آدم بن أبي إياس^(٧):

قال السيوطي: "آدم بن أبي إياس له التفسير، لكني لم أره، وهو في بطن ابن جرير"^(٨)، ويمكن من خلال التتبع لبعض كتب التفسير بالمأثور أن نلاحظ منهجه، ونعرف طريقته، ويمكن بذلك أن يجمع قطعة كبيرة من تفسيره.

وقد اعتنى ابن أبي حاتم بتفسيره، واعتمده عليه أكثر من عنايته بتفسير الثوري، وابن عيينة.

وهذا التفسير يعدّ من أهم المصادر في إيراد تفسير أبي العالية^(٩).

(١) بلغ المروي من تفسير النبي صلى الله عليه وسلم (١١) رواية، وعن ابن عباس (٢٥) رواية، وعن ابن مسعود (١٣)، وعن مجاهد (٢٥) رواية، وعن عكرمة (١٠) روايات، وعن طاوس، وابن جبير (٣) روايات، وعن قتادة روايتين فقط، ولم يرد فيه عن الحسن شيء.

(٢) عبد الرزاق بن همام بن نافع، أبو بكر الحميري، المتوفى سنة (٢١١هـ)، ينظر طبقات ابن سعد (٥/ ٥٤٨)، والتاريخ الكبير (٦/ ١٣٠)، والسير (٩/ ٥٦٣).

(٣) جاء عن قتادة أكثر من (١٥٠٩) أقوال، وعن الحسن (٢٠٣) أقوال، أي ما نسبته (٤٥، ٠) من مجموع تفسيره، في حين كان المروي من تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم (١٠٧) روايات، ومن تفسير ابن عباس (١٠٩) روايات، وعن ابن مسعود (٤٦) رواية، وعن علي بن أبي طالب (٣١) رواية.

(٤) روى من تفسير مجاهد (١٧٨) قولاً، وعن محمد بن شهاب الزهري (٨٤) قولاً، ويعد عبد الرزاق من أهم المصادر لمعرفة تفسير الزهري، وروى عن عكرمة (٦٠) قولاً، وعن طاوس (٤٥) قولاً، وعن ابن جبير (٣٧) قولاً، وغيرهم أقل منهم في ذلك.

(٥) تذكرة الحفاظ (١/ ٣٦٤)، مقدمة تفسير عبد الرزاق (١/ ٨).

ومن يقرأ تفسير عبد الرزاق، يجد أثر تلك الملازمة إذ كان ما يزيد عن (٢٤٧١) رواية جاءت من طريق معمر، أي ما نسبته (٦٦، ٠) من مجموع تفسير عبد الرزاق، وينظر رسالة الإمام عبد الرزاق مفسراً للباحث محمد بن عبده بن هادي أزييني في جامعة أم القرى (١١٨).

(٦) التقى بعبد الملك بن جريج، لكن نقله عنه في التفسير كان قليلاً حيث لم يتجاوز (٤٣) رواية.

(٧) آدم بن أبي إياس المروزي، أبو الحسن العسقلاني، توفي سنة عشرين ومائتين، ينظر تاريخ بغداد (٧/ ٢٧) والمعرفة (١/ ٢٠٥)، والتاريخ الكبير (٢/ ٣٩).

(٨) مقدمة الدر (ق ١).

(٩) من خلال مراجعة الجزء الأول من تفسير سورة البقرة في تفسير ابن أبي حاتم لاحظت ما يلي:

أن ما يزيد عن (١٣، ٠) من الأسانيد المروية في تفسير ابن أبي حاتم لهذا الجزء كلها جاء من تفسير آدم بن أبي إياس.

٦- تفسير يحيى بن سلام^(١):

وهو من التفاسير القديمة، ومن أوائل من جمع بين الرواية، والدراية، وتميز في ذلك بين مفسري عصره^(٢).

يقول ابن حجر: "تفسير يحيى بن سلام المغربي هو تفسير كبير في نحو ستة أسفار أكثر فيه النقل عن التابعين، وغيرهم^(٣)."

ابتدأ يحيى طلبه للعلم على شيوخ البصرة، فأخذ القراءات، وروى الحروف عن أصحاب الحسن البصري، وروى عن مشايخ أهل البصرة وسمع منهم^(٤)، وهذا ما نلاحظه على منهجه في الإكثار من الرواية عن الحسن، وقتادة، وجاء بعدهما بمراحل ما رواه عن ابن عباس، ومجاهد^(٥). وهذا التفسير عرفت روايته في إفريقية، والمغرب، والأندلس، وكانوا يهتمون به جداً، حتى كان منهم من يحفظه، وقد تناقلوه بالأسانيد^(٦).

٧- تفسير عبد بن حميد^(٧):

وهو من التفاسير المسندة المفقودة، ويمكننا أن نأخذ صورة إجمالية لمنهجه في إيراد تفسير التابعين، من خلال الاستفادة من مصدر ثانوي نقل عنه كثيراً، وهو الدر المنثور في التفسير بالمأثور، فبعد مراجعة ما أورده السيوطي من طريق عبد بن حميد، وجدت إكثاره من الرواية عن قتادة، ومجاهد، ثم ابن عباس، والحسن وأما ما روى عن غيره فقليل^(٨).

٨- تفسير ابن جرير الطبري^(٩):

وهو الكتاب الرئيس، والأساس الذي اعتمد عليه في استخلاص كثير من النتائج، وفي عقد العديد من المقارنات، والسبب في ذلك يرجع إلى جملة من الأمور من أهمها:
١ - أن تفسيره من أضخم، وأوسع كتب التفسير بالأثر، وقد فاق غيره من مفسري المتقدمين^(١٠)، والمعاصرين له^(١)، والمتأخرين عنه^(٢)، في إيراد العدد الكبير من الآثار في تفسيره.

ب كان معظم هذا التفسير عن أبي العالية، وأن عدد الروايات المأخوذة من تفسير آدم (١٧١) رواية، منها (١٤٣) كلها من تفسير أبي العالية.

والباقي موزع بين عطاء الخراساني (٦) روايات، وقتادة (٥) روايات، وعكرمة (٤) روايات، وغيرهم.
(١) يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، التيمي، مولا هم البصري، المتوفى سنة (٢٠٠هـ)، ينظر طبقات علماء إفريقية لأبي العرب (١١١)، ورياض النفوس (١/ ١٨٨)، ومعالم الإيمان (١/ ٣٢٦)، والتفسير ورجاله لابن عاشور (٢٢)، ومقدمة كتاب التصاريح لهند شلبي (٦٧).

(٢) انظر: مقدمة رسالة (مختصر تفسير يحيى بن سلام) للباحث عبد الله المدينيغ (١/ ٣).

(٣) العجائب في بيان الأسباب، عن كتاب الدر المنثور (٨/ ٧٠١).

(٤) السير (٩/ ٣٩٦)، وغاية النهاية (٢/ ٣٧٣).

(٥) من خلال الرجوع إلى مختصره لابن أبي زنين، تجد المروي عن الحسن حتى نهاية سورة آل عمران (١١١) قولاً، وعن قتادة (١٠٩) أقوال، في حين كان عن ابن عباس (٣٠) قولاً، وعن مجاهد (٢٧) قولاً.

وانظر: في بيان منهج يحيى، مقدمة تحقيق تفسير كتاب الله العزيز، لهود الهواري (١/ ٢٩).

(٦) معالم الإيمان (٢/ ٢٨٤)، وفهرست ابن خير (٥٦)، ومقدمة مختصر تفسير يحيى (١/ ٤).

(٧) عبد بن حميد بن نصر أبو محمد الكسي مصنف المسند الكبير، والتفسير، روى عن عبد الرزاق الصنعاني وغيره، مات سنة تسع وأربعين ومائتين، ينظر التذكرة (٢/ ٥٣٤)، وتبصير المنتبه بتحرير المشنبة (٣/ ١٢١٨) والرسالة المستطرفة (٥٠).

(٨) يعد مراجعة سورتي البقرة، وآل عمران، في الدر المنثور، نجد أن المروي عن قتادة بلغ (٢٤٩) قولاً، وعن مجاهد بلغ (٢٣٥) قولاً، وعن ابن عباس رضي الله عنهما بلغ (١٢٢) قولاً، وعن الحسن بلغ (٦٢) قولاً.

(٩) مؤلفه هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، المتوفى سنة عشر وثلاثمائة، واسم كتابه جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ينظر معجم الأدباء (١٨/ ٩٤٤٠)، وطبقات الشافعية للسبكي (٣/ ١٢٠)، والوفاي بالوفيات (٢/ ٢٨٤)، وطبقات المفسرين للداودي (٢/ ١٠٦).

(١٠) كتفسير سفيان الثوري، وتفسير عبد الرزاق الصنعاني، وتفسير يحيى بن سلام، وغيرهم.

يقول السيوطي: وله التصانيف العظيمة، منها: تفسير القرآن، وهو أجل التفاسير لم يؤلف مثله وذلك لأنه جمع فيه بين الرواية، والدراية، ولم يشاركه في ذلك أحد لا قبله ولا بعده. وقد كان جل اهتمامه بالمروية عن التابعين^(٣).

٢ - ثناء الأئمة وتقديمهم لتفسيره، وفي ذلك يقول النووي، والخطيب البغدادي: له كتاب في التفسير لم يصنف أحد مثله^(٤).

ويقول ابن عطية: ابن جرير جمع على الناس أشد التفسير وقرب البعيد، وشفى في الإسناد^(٥).

ويقول ابن تيمية: "تفسير ابن جرير من أجل التفاسير المأثورة وأعظمها قدرا"^(٦).

٣ - عنايته بأقوال الأئمة مسندة، فقد شفى الغليل رحمه الله في جانب المتن والإسناد، فلا يورد قولاً إلا ويسنده، ويرويه بنصه بمنطوق قائله، بخلاف حال كثير من المفسرين الذين أوردوا أقوال التابعين بمعناها، أو غير مسندة.

٤ - عنايته بتفسير التابعين، فقد استغرق تفسير التابعين أكثر من نصف مادته المروية، كما اعتنى بنقل تفاسير شيوخ التابعين من الصحابة بالإسناد^(٧).

لهذا وغيره، فقد اعتمدت كتاب الطبري مصدراً أصيلاً أستقصى منه تفسيرات التابعين، وكان الأساس في دراستي، ومادة أصيلة لعملي.

وقد عني رحمه الله في تفسيره بإيراد تفسير مجاهد وقتادة في المقام الأول، وبعدهما السدي، ثم الحسن البصري، فابن جبير، وعكرمة، وغيرهم^(٨).

(١) كتفسير ابن أبي حاتم (٣٢٤هـ)، ولعقد مقارنة سريعة بينهما، رجعت إلى تفسير ابن أبي حاتم حتى نهاية الجزء الأول من القرآن، فوجدت الآثار المروية فيه بلغت (١٣٣١) أثراً، في حين كانت عند ابن جرير (٢١٤١) أثراً.

(٢) من أهم وأشهر كتب التفسير بالمأثور عند المتأخرين كتاب السيوطي: الدر المنثور، وبعد الرجوع إليه، وجدت أن ابن جرير فاقه في كم ونوع المروي من الآثار، ففي العديد من الجوانب، كانت الآثار المروية عند ابن جرير في تفسيره كله بلغت ما يقارب (٣٨٣٩٧) أثراً، في حين كانت عند السيوطي (٣٧٠٦٠) أثراً، كما أن ابن جرير امتاز بإيراد الآثار التفسيرية ذات الصلة المباشرة ببيان الآية، في حين أن السيوطي عني كثيراً بإيراد، وحشد العديد من الآثار الواردة في فضائل القرآن من ترغيب، وترهيب، ونحوه.

(٣) فإن ما رواه من المرفوع عنه صلى الله عليه وسلم بلغ (٣٢) رواية، وعن ابن مسعود رضي الله عنه بلغ (٣١) قولاً، وعن عكرمة بلغ (٣٥) قولاً، وعن ابن جبير (٣١) قولاً، وعن عطاء (٢٥) قولاً، وعن النخعي (٢١) قولاً، وعن الشعبي (١٩)، قولاً، وعن طوس (٩) أقوال، وغيرهم دونهم في ذلك.

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (٧٨/١)، وتاريخ بغداد (١٦٣/٢).

(٥) تفسير ابن عطية (١٩/١)، والوجيز في فضائل الكتاب العزيز (١٢٩).

(٦) مقدمة في أصول التفسير (٩٠).

(٧) المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما بلغ (٥٨٠٩) أقوال، وعن ابن مسعود رضي الله عنه (٨٥٦) قولاً، وغيرهم من الصحابة أقل منهم في ذلك.

(٨) نجد في تفسير الطبري أن المروي عن:

مجاهد بلغ (٦١٠٩) أقوال.

وعن قتادة (٥٣٧٩) قولاً.

وعن السدي (١٦٨٢) قولاً.

وعن الحسن البصري (١٤٨٧) قولاً.

وعن سعيد بن جبير (١٠١٠) أقوال.

وعن عكرمة (٩٤٣) قولاً.

وعن إبراهيم النخعي (٦٠٨) أقوال.

وعن عطاء ابن أبي رباح (٤٨٠) قولاً.

وعن عامر الشعبي (٤٦١) قولاً.

وعن أبي العالية (٢٤٤) قولاً.

٩- تفسير ابن المنذر^(١):

من التفسير المسندة المفقودة يقول الذهبي: لابن المنذر تفسير كبير في بضعة عشر مجلدا، يقضي له بالإمامة في علم التأويل^(٢)، وقد رآه السيوطي ووقف عليه^(٣).

وعند مراجعة ما أورده عنه السيوطي في "الدر" من روايات، نجد أن كثيرا منها جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ثم مجاهد، فقتادة، ثم عكرمة، وابن جبير، والحسن^(٤). ولقد كانت عناية ابن المنذر بالموقوف من التفسير على الصحابة أكثر من عنايته بما جاء عن التابعين.

١٠- تفسير ابن أبي حاتم^(٥):

من أوسع كتب التفسير المسندة بعد ابن جرير، وقد اختصره فحذف منه الطرق والشواهد، والحروف، والروايات، وتنزيل السور، وقصد إلى إخراج التفسير مجردا دون غيره، فلا يترك حرفا من القرآن يوجد له تفسير، إلا أخرج ذلك كله بأصح الأحاديث عنده إسنادا وأشبعها متنا^(٦). وكان أكثر تفسيره عن التابعين^(٧)، وعني بإيراد تفسير قتادة في المقام الأول، ثم السدي، فمجاهد، فالحسن، فأبي العالية، فابن جبير، ثم الربيع بن أنس، ثم عكرمة^(٨). ومن ذلك يتضح عناية ابن أبي حاتم بتفسير المدرسة البصرية أكثر من عناية ابن جرير بها.

١٢- تفسير الماوردي^(٩):

وعن سعيد بن المسيب (١٨١) قولاً.
وعن محمد بن كعب القرظي (١٥٣) قولاً.
وعن زيد بن أسلم (١١٧) قولاً.
(١) هو محمد بن إبراهيم بن المنذر، نزيل مكة، مات سنة ثمانين عشرة وثلاثمائة. ينظر طبقات الشافعية لابن قاضي شهبه (١ / ٦٠)، وطبقات الفقهاء للعبادي (١ / ٦٧)، وطبقات السبكي (٣ / ١٠٢)، وطبقات الشافعية لابن هداية الله (٥٩).
(٢) السير (١٤ / ٤٩٢).
(٣) انظر: طبقات المفسرين للسيوطي (٩١).
(٤) بعد مراجعة "الدر" حتى نهاية سورة آل عمران، نجد أن المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما بلغ (٢٨١) رواية، في حين بلغ المروي عن مجاهد (٩١) قولاً، وعن قتادة (٦١) قولاً، وعن عكرمة (٢٠) قولاً، وعن ابن جبير (١٦) قولاً، وعن الحسن (١٥) قولاً، وعن عطاء والسدي (١١) قولاً، وعن الشعبي (٩) أقوال، وعن النخعي (٦) أقوال، وعن طاوس (٥) أقوال، وغيرهم أقل منهم في ذلك.
(٥) هو عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي، توفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة. ينظر التدوين في أخبار قزوين (٣ / ١٥٣)، والتقييد لابن نقطة (٣٣١)، والمختصر في أخبار البشر (٢ / ٨٦)، وفوات الوفيات (٢ / ٢٨٧)، وطبقات الشافعية للأسنوي (١ / ٢٠٠).
(٦) مقدمة تفسير ابن أبي حاتم، تفسير سورة البقرة (ص ١).
(٧) بعد مراجعة الروايات المسندة في تفسيره حتى نهاية الجزء الأول من سورة البقرة، نجد أن عدد الآثار المروية (١٣٣١) أثراً، منها (٧٩٥) أثراً عن التابعين أي ما يقارب (٦٠، ٠) من مجموع تفسيره عن التابعين.
(٨) بعد مراجعة الأجزاء المطبوعة من تفسيره، حتى نهاية الجزء الأول من البقرة، وتفسير سورة آل عمران، نجد أن المروي من تفسير التابعين عن قتادة (٢٣٠) رواية، وعن السدي (٢١٢) رواية، وعن مجاهد (١٩٧) رواية، وعن الحسن (١٨٨) رواية، عن أبي العالية (١٧٩) رواية، وعن ابن جبير (١١٣) رواية، وعن الربيع بن أنس (٨٢) رواية، وعن عكرمة (٥٠) رواية.
(٩) هو علي بن محمد بن حبيب البصري، أبو الحسن الماوردي الشافعي، واسم تفسيره: النكت والعيون، مات رحمه الله سنة خمسين وأربعمئة، ينظر طبقات الشافعية للسبكي (٥ / ٢٦٧)، وطبقات الشافعية للأسنوي (٢ / ٢٠٦)، وهداية العارفين (١ / ٦٨٩).

يعد كتاب ابن جرير الطبري من أهم مصادرهِ في التفسير بالمأثور^(١)، وقد عني بتفسير ابن عباس، وأصحابه، ونقل عن التابعين من البصريين فأكثر^(٢).

١٣- تفسير ابن عطية^(٣):

وتفسير ابن عطية أتبع للسنة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري^(٤). وقد تأثر في كتابه بتفسير يحيى بن سلام، فنقل ما جاء عن تابعي المدرسة البصرية، كقتادة، والحسن، ونقل عن مجاهد، والسدي وغيرهم من التابعين^(٥)، وإن كان في الجملة لم يتوسع في النقل عن السلف رحمه الله^(٦).

١٤- تفسير البغوي^(٧):

وهو مختصر لتفسير الثعلبي الكشاف والبيان، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعية، والآراء المبتدعة"^(٨). وذكر في مقدمة تفسيره أسانيد تلك الروايات التي أوردها في كتابه، فقال: وما نقلت فيه من التفسير عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حبر هذه الأمة، ومن بعد عن التابعين، وأئمة السلف مثل: مجاهد وعكرمة، والحسن رضي الله عنهم، وقاتدة وأبي العالية، ومحمد ابن كعب، وزيد بن أسلم وغيرهم ثم ذكر أسانيده في كل إمام منهم^(٩). وقد اهتم رحمه الله بإيراد ما روي عن مجاهد، وقاتدة، ويليها الحسن، وعطاء ثم ابن جبير، وعكرمة^(١٠).

١٥- زاد المسير^(١١):

- (١) انظر: مقدمة كتابه التفسير (٧/١).
- (٢) بعد مراجعة تفسيره حتى نهاية سورة البقرة، نجد أنه عني بنقل أقوال، وتفسيرات ابن عباس، وأصحابه فأورد عنه ما يزيد على (١٧٨) قولاً، وعن مجاهد (١٢٨) قولاً، وعن قتادة (١٠٦) أقوال، وعن السدي (٩٨) قولاً، وعن الحسن البصري (٧١) قولاً، وعن عطاء بن أبي رباح (٣٥) قولاً، وعن الربيع بن أنس (٣٢) قولاً، وعن ابن مسعود (٢٨) قولاً، وعن عكرمة (٢٦) قولاً، وعن ابن جبير (٢٥) قولاً، وعن أبي العالية (٢٢) قولاً، وعن الشعبي (٢١) قولاً، وعن ابن المسيب (١٦) قولاً، وعن النخعي (٧) أقوال.
- (٣) ابن عطية هو: عبد الحق بن غالب بن عطاء بن عتبة بن غزوان، المتوفى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، واسم كتابه في التفسير: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ينظر بغية الملتمس (٣٨٩)، المعجم لابن الأبار (٢٦١)، والديباج المذهب (٥٧/٢)، وفوات الوفيات (٢٥٦/٢)، وفهرس بن عطية (٥٩).
- (٤) انظر: مقدمة في أصول التفسير (٩٠).
- (٥) بعد مراجعة تفسيره حتى نهاية تفسير سورة البقرة، وجدت أن المروي عن مجاهد بلغ (١٣٣) قولاً، وعن قتادة (١٢٨) قولاً، وعن الحسن (١١٣) قولاً، وعن السدي (٨٩) قولاً، وعن عطاء (٦٢) قولاً، وعن الربيع بن أنس (٥٤) قولاً، وعن النخعي (٣٦) قولاً، وعن ابن شهاب الزهري، وابن جبير، (٣٥) قولاً، وعن عكرمة (٣٤) قولاً، وعن أبي العالية (٢٠) قولاً، وعن ابن المسيب (١٦) قولاً، وعن طاوس (٩) أقوال، وعن زيد بن أسلم (٥) أقوال.
- (٦) انظر: مقدمة في أصول التفسير (٩٠). وينظر كتاب مدرسة التفسير في الأندلس (٩٥).
- (٧) و أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي توفي سنة ست عشرة وخمسمائة، واسم كتابه في التفسير: معالم التنزيل، ينظر طبقات الشافعية لابن قاضي شهبه (٣١٠/١)، والمختصر في أخبار البشر (٢/٢٤٠)، والتقييد لمعرفة رواة المسانيد (٢٥١)، وطبقات الشافعية للأسنوي (١٠١/١).
- (٨) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٥٤/١٣).
- (٩) مقدمة تفسيره (٢٨/١).
- (١٠) بعد مراجعة تفسيره حتى نهاية سورة البقرة، نجد أن المروي عن مجاهد (١٣٧) قولاً، وعن قتادة (١٢٣) قولاً، وعن الحسن (٧٤) قولاً، وعن عطاء (٦٠) قولاً، وعن ابن جبير (٤١)، وعن عكرمة (٣٦) قولاً، وغيرهم من التابعين دونهم في ذلك.
- (١١) مؤلفه: عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج ابن الجوزي، المتوفى سنة سبع وتسعين وخمسمائة، ينظر التقييد (٣٤٣)، وذييل تاريخ بغداد (١٥٥/١٩) والتكملة لوفيات النقلة (٣٩٤/١).

صنف ابن الجوزي في التفسير المغني، وهو كتاب كبير، ثم اختصره في كتاب سماه زاد المسير^(١)، وقد حوى الكثير من الروايات عن أئمة التابعين. وعني بنقل تفسير ابن عباس، ثم مجاهد، وقتادة، فأبي العالية، فالحسن، وغيرهم من التابعين^(٢).

١٦- تفسير ابن كثير^(٣):

اهتم رحمه الله بالمأثور عنه صلى الله عليه وسلم، وأكثر منه^(٤)، ونقل عن ابن عباس فأكثر وأطاب^(٥)، وعدّ الأخذ بأقوال التابعين في المرتبة الرابعة بعد الأخذ بأقوال الصحابة، وقدمه في ذلك على الفهم والاجتهاد، وفي ذلك يقول: إذا لم تجد في القرآن، ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد، وسعيد بن جبیر، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري وغيرهم.

وقد أورد قطعة كبيرة من تفسير مجاهد، وقتادة، ثم عكرمة والسدي، وابن جبیر وبعدهم الحسن البصري، فالربيع بن أنس، فأبي العالية^(٦).

١٧- الدر المنثور^(٧):

أكثر التفاسير عناية بالمرفوع، وجاء بعده بمراحل العناية بالموقوف على الصحابة^(٨)، ثم المنسوب إلى التابعين.

وقد أورد عن ابن عباس وأكثر، وجاء بعده مجاهد وقتادة، ثم ابن جبیر والحسن، فالسدي، وأبو العالية، فعكرمة، وعطاء، ثم النخعي، فالربيع، ثم الشعبي^(٩).

(١) السير (٣٦٨ / ٢١).

(٢) بعد مراجعة تفسيره حتى نهاية الجزء الأول من تفسيره سورة البقرة، نجد أن المروي عن ابن عباس بلغ (٢٢١) رواية، وعن مجاهد (٩١) رواية، وعن قتادة (٧٧) رواية، وعن أبي العالية (٤٢) رواية، وعن عكرمة (٢٣) رواية، وعن ابن جبیر (١٩) رواية.

(٣) المسمى تفسير القرآن العظيم، مؤلفه هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوي بن كثير أبو الفداء، المتوفى سنة أربع وسبعين وسبعمائة. ينظر أبناء الغمر (٣٩ / ١)، والبدر الطالع (١٥٣ / ١)، والدر الكامنة (١ / ٣٣٩)، وذيل تذكرة الحفاظ (٥٧).

(٤) أورد من الأحاديث جملة كبيرة، كثير منها في الفضائل، وقد بلغت الأحاديث المروية في تفسيره كله (٢٢٥٢) حديثاً. ومن المفارقات الرئيسة بينه وبين ابن جرير الطبري أن ابن كثير اهتم بإيراد المرفوع من الأحاديث وغالبه في الفضائل، وقد لا يكون له علاقة مباشرة ببيان معنى الآية في حين اقتصر ابن جرير على الأحاديث التي لها ارتباط واضح بالآية.

(٥) عني بنقل تفسير ابن عباس في المقام الأول حيث بلغ مجموع ما رواه عنه في تفسيره (١٧١٦) أثراً، وبعده ابن مسعود حيث بلغ مجموع ما رواه عنه (٣٤٠) أثراً.

(٦) بعد مراجعة تفسيره نجد أن المنقول عن مجاهد بلغ (٧٤٢) قولاً، وعن قتادة (٧١٦) قولاً، وعن عكرمة (٥٧٨) قولاً وعن السدي (٥٧٦) قولاً، وعن ابن جبیر (٥٣٤) قولاً، وعن الحسن البصري (٤٨٨) قولاً، وعن الربيع بن أنس (٣٨٢) قولاً، وعن أبي العالية (٢٩٤) قولاً، وعن ابن المسيب (١٣٨) قولاً، وعن إبراهيم النخعي (٨٤) قولاً، وغيرهم من التابعين دونهم في ذلك.

(٧) لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضير الأسيوطي، المتوفى سنة (٩١١هـ)، ينظر الكواكب السائرة (٢٢٦ / ١)، والضوء اللامع (٤ / ٦٥).

(٨) بلغ المروي عن ابن عباس (٣٦٨٠) رواية، وعن ابن عمر (٩١٠) رواية، وعن ابن مسعود (٦٨٠) رواية وغيرهم من الصحابة أقل منهم في ذلك، وكانت نسبة المروي من تفسير الصحابة تمثل (١٧، ٠) من مجموع تفسيره.

(٩) بعد مراجعة تفسيره، نجد أن المروي عن مجاهد بلغ (٢٤٤٠) قولاً، وعن قتادة (٢٢٢٥) قولاً، وعن ابن جبیر (٧٨١) قولاً، وعن الحسن (٦٠٨) أقوال، وعن السدي (٥٦٨) قولاً، وعن أبي العالية (٥٢٠) قولاً، وعن عكرمة (٤٢١) قولاً، وعن عطاء (٣٨٢١) قولاً، وعن النخعي (٣٤٧) قولاً، وعن الربيع (٢٣٢) قولاً، وعن الشعبي (٢٢٠) قولاً، وعن زيد بن أسلم (١٨٧) قولاً، وعن ابن المسيب (١٦٥) قولاً، وعن محمد بن كعب (٩٠) قولاً، وعن مسروق (٦٤) قولاً، وغيرهم من التابعين دونهم في ذلك.

مدارس التفسير في عصر التابعين، وخصائصها

أولاً: أشهر رجال مدارس التفسير في عصر التابعين.

١- مجاهد بن جبر

هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي الأسود، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، ويقال: مولى عبد الله بن السائب القاري^(١).
روى عن ابن عباس، وعنه أخذ القرآن، والتفسير، وروى عن أبي هريرة، وعائشة، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمرو، وابن عمر ورافع بن خديج وغيرهم^(٢).
كان مجاهد من أكثر تلاميذ ابن عباس أخذاً عنه، مع أنه من أقلهم رواية لتفسيره.
فعن الفضل بن ميمون قال: سمعت مجاهداً يقول: "عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة"^(٣).

وعنه أنه قال: "ختمت على ابن عباس تسع عشرة ختمة"^(٤).
قرأ عليه ابن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وابن محيصن والأعمش^(٥).
بل إن ابن كثير الذي انتهت إليه إمامة القراءة بمكة، لم يكن يخالف مجاهداً في شيء^(٦).
وقد أخرج الطبري بسنده، أن مجاهداً كان يقرأ القرآن على خمسة أحرف^(٧).
وقد ظلت قراءة مجاهد تتلقى بالسند، ويتناقلها الرواة حتى عصر البيهقي، فقد ذكر البيهقي أنه تلقى قراءة مجاهد بالسند^(٨).
وقد استفاد من ابن عباس رضي الله عنهما في الجانب التفسيري وأخذ عنه، فعن مجاهد قال: "عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أوقفه على كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف نزلت؟"^(٩).

قال ابن عطية: "قرأ مجاهد على ابن عباس قراءة تفهم ووقف عند كل آية"^(١٠).
وساق الطبري بسنده عن ابن أبي مليكة قال: "رأيت مجاهداً يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواح، فيقول له ابن عباس: اكتب، قال: حتى سأله عن التفسير كله"^(١١).
ولعل هذا من أهم الأسباب التي ساعدت في إبراز شخصية مجاهد رحمه الله وقدمته في باب العلم بالتأويل، فصار من أكثر التابعين^(١٢) على الإطلاق تعرضاً له، وعلماً به.
يقول خصيف^(١): كان أعلمهم بالتفسير مجاهد، وبالحج عطاء^(٢).

-
- (١) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦٦)، وطبقات الفقهاء (٦٩)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٦٢)، والسير (٤/ ٤٤٩)، والكنى لأحمد (١٢١).
(٢) تهذيب الكمال (٣/ ١٣٠٥)، وتهذيب التهذيب (٤٢١٠)، والتاريخ الكبير (٧/ ٤١١).
(٣) ينظر الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٤٦٦)، والجرح (٨/ ٣١٩)، والحلية (٣/ ٢٨٠)، وتهذيب الأسماء (٢/ ٨٣)، وتهذيب الكمال (٣/ ١٣٠٥)، والعبر (١/ ٩٥).
(٤) غاية النهاية في طبقات القراء (٢/ ٤٢).
(٥) انظر: الطبقات الطبري لابن سعد (٢/ ٤١)، وطبقات المفسرين (٢/ ٣٠٦)، وفضائل القرآن لأبي عبيد (٢١٧).
(٦) الحجة في القراءات السبع، لابن مجاهد (٦٤).
(٧) تفسير الطبري (١/ ٥٣) ٥٢.
(٨) الأسماء والصفات للبيهقي (١/ ٤١١).
(٩) الحلية (٣/ ٢٨٠)، وكتاب السنة للخلال (٣٢٣) ٢٦٥، وفضائل القرآن لأبي عبيد (٢١٦).
(١٠) المحرر الوجيز (١/ ١٩).
(١١) تفسير الطبري (١/ ٩٠) ١٠٧.
(١٢) له في تفسير الطبري (٦١٠٩) أقوال، ولقتادة (٥٣٧٩) قولاً، وللسدّي (١٦٨٢) قولاً، وللحسن البصري (١٤٨٧) قولاً، ولسعيد بن جبّير (١٠١٠) أقوال، ولعكرمة (٩٤٣) قولاً، ولإبراهيم النخعي (٦٠٨) أقوال، ولعطاء بن أبي رباح (٤٨٠) قولاً.

وعن أسود بن عامر^(٣) قال: قلت لشريك^(٤): أي الرجلين كان أعلم بال تفسير مجاهد، أو سعيد بن جبير؟ قال: كان مجاهد^(٥).

وقال قتادة: أعلم من بقي بالتفسير مجاهد^(٦).
وقد أثنى عليه جمع من الأئمة في التفسير، فقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إنه آية في التفسير^(٧).

وقال الإمام الذهبي: مجاهد شيخ القراء، والمفسرين^(٨).

ومن ابرز سمات تفسير مجاهد:

أ- توسعه في باب النظر، والاجتهاد:

وهذا مما جعل البعض يعده من أوائل من أدخل التفسير العقلي للقرآن العظيم^(٩)، وقد أدى به سلوك هذا السبيل إلى تأويل آيات على غير ظاهر السياق بل قد جاء في بعضها بما يستعرب، ويستنكر، كما سنبين ذلك ان شاء الله^(١٠).

ب- الدقة في التفريق بين الكلمات المتشابهة:

كان رحمه الله من أكثر التابعين دقة في اختيار الكلمات لتفسير الآيات، وكان ينبه في بعض المواضع على الكلمات المتشابهة مع إيضاح الفروق المعنوية بينها، فمن ذلك ما جاء عند قوله سبحانه: {وَوَلَّأْنَا عَلَيْنَا الْعَمَامُ} [البقرة: ٥٧].

قال: "ليس بالسحاب، هو العمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة لم يكن إلا لهم"^(١١).

ت- تفسير بعض الألفاظ بما يخالف المعنى القريب:

فكان يصرف بعض الألفاظ عن معناها القريب، ويؤولها تأويلاً بعيداً عن المعنى الظاهر المتبادر من اللفظ، ومن أمثلة ذلك: ما جاء عنه عند تأويل قوله سبحانه: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ} [الأعراف: ٨]، قال: "الوزن: القضاء"^(١٢).

ث- اهتمامه بالمبهمات:

(١) خصيف مصغراً: ابن عبد الرحمن الجزري، أبو عون، رأى أنسا، وثقه ابن معين، ينظر لسان الميزان (٧/ ٢١٠)، والكواكب النيرات (٤٦٢)، ونهاية الاغتباط (١٠٩).

(٢) الجرح والتعديل (٣١٩ / ٨)، والتاريخ الكبير (٤١٢ / ٧)، والشذرات (١ / ١٢٥).

(٣) أسود بن عامر الشامي، أبو عبد الرحمن، شاذان، وثقه ابن المديني، ينظر الخلاصة (٣٧)، والكاشف (١ / ١٣١).

(٤) شريك بن عبد الله النخعي، قال وكيع: لم يكن في الكوفيين أروى من شريك. ينظر الجرح (٣ / ٣٦٦)، والكواكب النيرات (٢٥٠)، ونهاية الاغتباط (١٧٠).

(٥) فضائل الصحابة لأحمد (٢ / ٩٥٨) ٨٦٧.

(٦) طبقات علماء الحديث (١ / ١٦٣)، والتذكرة (١ / ٩٢).

(٧) مقدمة في أصول التفسير (١٠٣).

(٨) السير (٤ / ٤٤٩).

(٩) انظر: القرآن العظيم هدايته وإعجازه (١٩٧).

(١٠) من تلك التاويلات:

- تأويله للمسح الواقع على اليهود

- تأويله لمعنى المائدة المنزلة على عيسى:

- تأويله لمعنى الورود على النار:

- تأويله لمعنى قوله: {ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا} [البقرة: ٢٦٠]

- ما روي عنه في تأويل معنى اهتزاز العرش.

(١١) تفسير الطبري (٢ / ٩٠) ٩٦٣. وينظر تفسير الماوردي (١ / ١٣٤)، وتفسير ابن عطية (١ / ٢٢٧).

(١٢) تفسير الطبري (١٢ / ٣٠٩) ١٤٣٢٨، وقد انفرد مجاهد بهذا التفسير، ورد ابن جرير (١٢ / ٣١١). وينظر

تفسير الماوردي (٢ / ٢٠١)، وتفسير البغوي (٢ / ١٤٩)، وتفسير القرطبي (٧ / ١٠٧).

يعد رحمه الله من متقدمي التابعين في تتبع المبهم، والحرص على بيانه، والناظر في كتب التفسير، والمبهمات^(١)، يجد شاهد ذلك، وقد حرص على بيان نوع المبهم في مواضع كثيرة، فبين نوع الشجرة في قوله: {وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ} [البقرة: ٥٥] بأنها التينة^(٢).

وبين المبهم في قوله سبحانه: {فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا} [البقرة: ٧٣] بأنه الذي بين الكتفين^(٣) وبين نوع الطير الذي أخذه إبراهيم في تأويله لقوله سبحانه: {فَخَذَ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ} [البقرة: ٢٦٠].
قال إنه الديك، والطاوس، والغراب، والحمام^(٤).

قد اختلف في سنة وفاته، فقال الهيثم بن عدي: مات سنة مائة، وقال يحيى بن بكير: مات سنة إحدى ومائة، وقال أبو نعيم: مات سنة اثنتين^(٥)، وقال أحمد: مات سنة ثلاث^(٦).
وقال ابن حبان: مات بمكة سنة اثنتين، أو ثلاث ومائة، وهو ساجد وكان مولده سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر^(٧)، وقال يحيى القطان: مات سنة أربع ومائة^(٨)، وهو ساجد^(٩)، تغمده الله بواسع رحمته.

لهذه الأسباب وغيرها كان مجاهد رحمه الله من أكثر التابعين تعرضاً للتفسير، والله أعلم.

٢- سعيد بن جبير

الإمام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد، أبو محمد، ويقال: أبو عبد الله الأسدي الوالبي، الكوفي، سعيد بن جبير الأسدي (٩٥-٤٦ هـ) تابعي، كان تقياً وعالمًا بالدين، درس العلم عن عبد الله بن عباس حبر الأمة وعن عبد الله بن عمر وعن السيدة عائشة أم المؤمنين في المدينة المنورة، سكن الكوفة ونشر العلم فيها وكان من علماء التابعين، فأصبح إماماً ومعلماً لأهلها، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي بسبب خروجه مع عبد الرحمن بن الأشعث في ثورته على بني أمية.
مات سعيد شهيداً في ١١ رمضان ٩٥ هـ الموافق ٧١٤ م^(١٠)، وله من العمر تسع وخمسون سنة، مات ولسانه رطب بذكر الله، يوجد مرقد سعيد بن جبير في قضاء الحي، محافظة واسط، العراق.

ومن أبرز سمات منهجه:

أ- تقدمه في معرفة القراءة:

(١) من خلال الرجوع إلى كتاب السيوطي "مفحات الأقران في مبهمات القرآن"، نجد أن مجاهداً أكثر من اهتم بذلك حيث روي عنه أكثر من (٧١) قولاً، في حين كان عن قتادة (٦٨) قولاً، ثم عن عكرمة (٤٠) قولاً، وعن ابن جبير (٢٥) قولاً، وعن الحسن (٢٢) قولاً.
(٢) مفحات الأقران (١٢).
(٣) انظر: مفحات الأقران: مفحات: ١٤.
(٤) مفحات الأقران: ٢٣، ولمزيد من الأمثلة تراجع الصفحات (١٧، ٣٣، ٣٨).
(٥) تهذيب التهذيب (٤٣ / ١٠).
(٦) طبقات خليفة (٢٨٠)، والتاريخ الكبير (٤١١ / ٧)، والتاريخ الصغير (٢٤٢ / ١)، والعبر (٩٤ / ١)، ومرآة الجنان (٢٤٣ / ١)، والشذرات (١٢٥ / ١).
(٧) مشاهير علماء الأمصار (٨٢)، والثقات (٤١٩ / ٥).
(٨) تاريخ خليفة (٣٣٠)، والتهذيب (٤٣ / ١٠).
(٩) الثبات عند الممات (١٣٨).
(١٠) انظر: وفيات الأعيان (٣٧١ / ٢)، والأنساب للسمعاني (١٨٨ / ٣)، واللباب في تهذيب الأنساب (٣٥ / ٣)، والعلل لأحمد (٤٤١ / ٢) ٢٩٥١، وأخبار أصبهان (٣٢٤ / ١)، وطبقات علماء الحديث (١٥٠ / ١)، وطبقات المحدثين الواردين على أصبهان (٣١٧ / ١)، وأخبار القضاة (٤١٢ / ٢).

فهو قرأ على ابن عباس رضي الله عنهما وعدّ من المتقدمين في القراءة، فعن أبي بكر بن أبي داود قال: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية، وبعده سعيد بن جببر، ثم السدي، ثم سفيان الثوري^(١).
ب- الاهتمام بتفسير آيات الأحكام والإكثار من ذلك:

لعل عيشه في الكوفة كان من الأسباب التي أظهرت هذا الاهتمام في نفسه، حتى تميز بين مفسري مكة بهذا الجانب^(٢)، ومما يلمحه الناظر في تأويله، أنه مع عيشه في الكوفة، وعد بعض الأئمة إياه من فقهاءها، فإنه مال إلى ترجيح، واختيار أقوال ابن عباس رضي الله عنهما ومال إلى مذهب المكيين أكثر من ميله إلى قول الكوفيين^(٣)، ولم يقل بقولهم إلا في القليل النادر^(٤).

وكان ابن عمر يسأل عن الفرائض، فيحيل السائل على سعيد^(٥).
وكان إبراهيم النخعي يقول بعد وفاة سعيد: ما خلف سعيد بعده مثله^(٦). وقال ميمون بن مهران: لقد مات سعيد، وما على الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه^(٧). ولذا كان يعد في زمانه جهيد العلماء^(٨).

ت- تساهله في الرواية عن بني إسرائيل:
كان رحمه الله من أكثر مفسري مكة توسعا في ذلك، وكان محبا للقص، والتحديث بالأخبار، فعن أبي شهاب قال: كان سعيد بن جببر يقص لنا كل يوم مرتين بعد صلاة الفجر، وبعد العصر^(٩).

٣- عكرمة:

هو عكرمة القرشي الهاشمي مولاهم، أبو عبد الله^(١٠)، مولى لابن عباس، أصله من بربر المغرب، كان لحصين بن أبي الحر العنبري، فوهبه لابن عباس لما ولي البصرة لعلي ابن أبي طالب^(١١).

وعكرمة من أعلام المدرسة المكية، وقد نال من ثناء الأئمة من معاصريه، ومن بعدهم حظا لم ينله عالم قبله، ولا سيما في باب العلم بتفسير كتاب الله.
وفي ذلك يقول الشعبي: "ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة"^(١٢).

- (١) انظر: تهذيب التهذيب (٣/ ٣٨٥)، والعبير (١/ ٨١)، ومراة الجنان (١/ ٢١٤)، والشذرات (١/ ١٠٢).
(٢) يأتي سعيد في المرتبة الثانية في المدرسة المكية بعد عطاء بن أبي رباح من حيث الإكثار في تأويل آيات الأحكام، فقد روى عنه عند الطبري أكثر من (٨٢) رواية، أي: ما نسبته (٩٠، ٠) من مجموع تفسيره.
(٣) لمزيد من الأمثلة تراجع الآثار في الطبري: ٢٦١٣، ٢٨٨٠، ٢٨٨٧، ٣١٩٥، ٣٢٠٨، ٤٢٢٠، ٤٤٣٨، ٤٤٤٥، ٤٥٢٣، ٤٨١٨، ٧٤٦٧، ٨٦٠٦، ٨٦١٠، ٨٦١٥، ٨٦١٩، ٨٦٦٥، ٨٦٩٨، ٨٧٠٣، ٩٤٢٠، ١١٣٩٩، ١١٨٣٩، ١١٨٤٣، ١٢٦٣١، ١٢٦٣٤، ١٢٦٤٦، ١٢٦٤٧، وغيرها.
(٤) كما جاء ذلك في الآثار (٣٢١٦، ٣٣٦٨، ٣٣٦٩، ١٢٤٠٠، ١٢٤٠١).
(٥) المعرفة (١/ ٧١٣).
(٦) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٨)، وأخبار القضاة (٢/ ٤١١)، والجرح (٤/ ٩)، وتهذيب الأسماء (١/ ٢١٦).
(٧) تاريخ الإسلام (ح ٩٥ هـ / ٣٦٧).
(٨) المعرفة (١/ ٧١٢)، وتاريخ ابن معين (٢/ ١٩٧)، وفيات الأعيان (٢/ ٣٧٤)، وطبقات الحفاظ (٣١)، والعقد الثمين (٤/ ٥٥٠).
(٩) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٩)، والمنتظم (٧/ ٦)، والزهد لأحمد (٥/ ٢)، وكتاب القصاص لابن الجوزي (٢٤٩)، والحليبة (٤/ ٢٤٩).
(١٠) الكنى للإمام مسلم (ق ٦٠)، والكنى للدولابي (٢/ ٥٨).
(١١) تهذيب الأسماء (١/ ٣٤١)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٢٦٤)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٦٥)، ورجال صحيح مسلم (٢/ ١٠٩)، وتهذيب التهذيب (٧/ ٢٦٣).

وقال قتادة: "أعلم الناس بالتفسير عكرمة"^(٢).
 وقيل لسعيد بن جبير: "تعلم أحدا أعلم منك؟ قال: نعم! عكرمة"^(٣).
 ويقول جابر بن زيد: "هذا عكرمة مولى ابن عباس، هذا البحر فسלוه"^(٤).
 وقال أبو حاتم: "أصحاب ابن عباس عيال في التفسير على عكرمة"^(٥).
 وعده ابن عبد البر من المقدمين بين سائر التابعين في التفسير والسير"^(٦).
 طلب عكرمة العلم وهو صغير في السن، حتى نبغ واشتهرت فضائله وعدالته؛ يقول عبد الرحمن بن حسان: "سمعت عكرمة يقول: طلبت العلم أربعين سنة، وكنت أفتي بالباب وابن عباس في الدار"^(٧).

وقد وجهت إليه بعض التهم من بعض معاصريه: كسعيد بن المسيب، وابن سيرين، ومالك بن أنس، وهي في جملتها ترجع إلى ثلاث^(٨).
أولاً: رميه بالكذب:

قام بعضهم بنشويه صورة التابعي عكرمة مولى ابن عباس، واتهامه بالكذب، معتمدين في ذلك على بعض ما نُقل في ترجمته، ومن أشدها: ما روي عن ابن عمر أنه قال لنافع: لا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس. ([٨]) ومثله ما رواه إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن سعيد بن المسيب: أنه كان يقول لغلام له يقال له بُرد: يا بُرد، لا تكذب عليّ كما يكذب عكرمة على ابن عباس^(٩).
الرد على الشبهة:

أنه من عادة أهل الحجاز في مخاطبتهم استعمال كلمة الكذب بمعنى الخطأ، وليس الكذب بمعنى تعمد تحريف الكلام ونقله على غير صفته، قال ابن حبان - في ترجمة برد مولى سعيد بن المسيب -: كان يخطئ، وأهل الحجاز يسمون الخطأ كذباً^(١٠).
 وبهذا القول يندفع ما غمزوا به عكرمة مولى ابن عباس أيضاً، قال الحافظ ابن حجر: "وذكر ابن عبد البر لذلك أمثلة كثيرة.

ثانياً:- الطعن فيه بأنه كان يرى رأي الخوارج:

قال ابن حجر: "وفد عكرمة على نجدة الحروري فأقام عنده تسعة أشهر ثم رجع إلى ابن عباس فسلم عليه، فقال قد جاء الخبيث قال فكان يحدث برأي نجدة، وكان يعني نجدة أول من أحدث رأي الصفرية وقال الجوزجاني قلت لأحمد بن حنبل أكان عكرمة أباضياً فقال يقال إنه كان صفرياً، وقال أبو طالب عن أحمد كان يرى رأي الخوارج الصفرية، وقال يحيى بن معين كان ينتحل مذهب الصفرية ولأجل هذا تركه مالك، وقال مصعب الزبيري كان يرى رأي الخوارج"^(١١).

-
- (١) طبقات علماء الحديث (١ / ١٦٨)، والمنتظم (٧ / ١٠٢)، والميزان (٣ / ٩٥)، وطبقات المفسرين للداودي (١ / ٣٨١)، ومعجم الأدباء (١٢ / ١٨٦).
 (٢) المعرفة والتاريخ (١ / ٧٠١)، والتمهيد (٢ / ٣١)، ورياض النفوس (١ / ١٤٥)، وصفة الصفوة (٢ / ١٠٤)، والبداية (٩ / ٢٧٥).
 (٣) رياض النفوس (١ / ١٤٥)، والحلية (٣ / ٣٢٦)، والتذكرة (١ / ٩٦)، ووفيات الأعيان (٣ / ٢٦٥).
 (٤) طبقات ابن سعد (٥ / ٢٨٨)، والتاريخ الكبير (٧ / ٤٩)، والتمهيد (٢ / ٢٩)، وتهذيب الكمال (٢٠ / ٢٧١).
 (٥) الجرح (٧ / ٩)، وتاريخ دمشق (١١ / ٧٧٩)، والتعديل والجرح (٣ / ١٠٢٣)، وتهذيب الأسماء واللغات (١ / ٣٤١).
 (٦) جامع بيان العلم وفضله (٢ / ١٥٥).
 (٧) ذيب الكمال (٢٠ / ٢٦٩).
 (٨) انظر: المنتخب من ذيل المذيل (ص: ١٢١ - ١٢٣)، ومقدمة فتح الباري (١ / ٤٢٥).
 (٩) رواه الفسوي في المعرفة والتاريخ (٢ / ٥).
 (١٠) .
 (١١) مقدمة فتح الباري: ١ / ٤٢٥.

وقال الجوزجاني: "قلت لأحمد بن حنبل: أكان عكرمة إباضيًّا؟ فقال: يقال إنه كان صفرِيًّا"^(١).
الرد على الشبهة من وجوه:

١- أن هذه التهمة لم تثبت من وجه قاطع، ولعله كان يوافقهم في بعض مسائلهم، فنسبه البعض إليهم؛ لذا رأينا كثيرًا من أهل العلم يرد هذه التهمة عن عكرمة، ومنهم: الحافظ أحمد بن عبد الله العجلي، حيث قال في كتابه الثقات: "عكرمة مولى بن عباس مكي تابعي ثقة وهو بريء مما يرميه الناس به من الحرورية"^(٢).

وقال ابن جرير في معرض الدفاع عن عكرمة -: "لو كان كل من ادعى عليه مذهب من المذاهب الرديئة ثبت عليه ما ادعى به، وسقطت عدالته، وبطلت شهادته بذلك؛ للزم ترك أكثر محدثي الأمصار؛ لأنه ما منهم إلا وقد نسبه قوم إلى ما يرغب به عنه"^(٣).
٢- ما ثبت عن عكرمة من أقوال يخالف فيها رأي الخوارج، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن: ٦٠]، بقوله: "هل جزاء من قال: لا إله إلا الله إلا الجنة"^(٤)، والخوارج لا يقولون هذا.

٣- على فرض التسليم بصحة هذه التهمة؛ فإنها تكون حينئذ داخلية في مسألة الرواية عن أهل البدع من الخوارج وغيرهم، وأعدل الأقوال وأولاها بالقبول وهو الذي عليه أكثر المحدثين: التفصيل بين من كان داعية إلى بدعته ومن لم يكن داعية إليها، فتقبل رواية من لم يكن داعية إلى بدعته دون الآخر، وحكي هذا عن نص الشافعي، وأغرب ابن حبان فادعى الاتفاق على ذلك، وكتب علماء الحديث طافحة بالرواية عن المبتدعة غير الدعاء"^(٥).

ثالثًا:- القدح فيه بأنه كان يقبل جوائز الأمراء:

ومما نقموه على عكرمة مولى ابن عباس أنه كان يقبل هدايا الحكام؛ قال أبو طالب: قلت لأحمد: ما كان شأن عكرمة؟ قال: كان ابن سيرين لا يرضاه، قال: كان يرى رأي الخوارج، وكان يأتي الأمراء يطلب جوائزهم، ولم يترك موضعًا إلا خرج إليه.
الرد على هذه الشبهة:

لا يُعدُّ قبوله لجوائز الحكام والأمراء قاذحًا فيه، بحيث ترد روايته، وقد كان من هو أكبر من عكرمة وأجلُّ قدرًا يقبل جوائز الأمراء، ولم يترك أحد الرواية عنه بسبب قبوله لهدايا الأمراء، ومن هؤلاء الأعلام محمد بن شهاب الزهري رحمه الله.

ومن أجمل ما يرد به على تلك الشبهة الجائرة لهذا التابعي الجليل ما قاله الحافظ ابن منده في صحيحه: "أما حال عكرمة في نفسه؛ فقد عدَّله أمة من نبلاء التابعين فمن بعدهم، وحدثوا عنه، واحتجوا بمفاريده في الصفات والسنن والأحكام.

روى عنه زهاء ثلاثمائة رجل من البلدان، منهم زيادة على سبعين رجلًا من خيار التابعين ورفعايهم، وهذه منزلة لا تكاد توجد لكثير من التابعين.

على أن من جرَّحه من الأئمة لم يمسك من الرواية عنه، ولم يستغنوا عن حديثه، وكان يُتلقى حديثه بالقبول، ويحتج به قرناً بعد قرن، وإماماً بعد إمام، إلى وقت الأئمة الأربعة الذين أخرجوا الصحيح، وميزوا ثابتة من سقيمه، وخطأه من صوابه، وأخرجوا روايته: وهم البخاري، ومسلم،

(١) تهذيب الكمال: ٢٧٨/٢٠.

(٢) الثقات للعجلي (٢/ ١٤٥).

(٣) نقله عنه الحافظ ابن حجر في مقدمة فتح الباري (١/ ٤٢٨).

(٤) رواه الطبراني في الدعاء (١٥٤٧).

(٥) شرح اختصار علوم الحديث (ص: ٢٦٠-٢٦١)، ونزهة النظر (ص: ١٢٨).

وأبو داود، والنسائي، فأجمعوا على إخراج حديثه، واحتجوا به، على أن مسلماً كان أسوأهم رأياً فيه، وقد أخرج عنه مقروئاً، وعدّله بعد ما جرّحه^(١).

فمن العجب أن يُردّ حديث من هذا حاله، ويُتهم بمثل هذه الاتهامات الباطلة، ولا يسلم أحد من الخطأ، ولكن الإنصاف عزيز، نسأل الله تعالى أن يرزقنا الإنصاف في الأقوال والأعمال، وعلى المؤمن أن يمتثل قول الحق سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلْقَوِّىِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: ٨].

استقر عكرمة في آخر حياته بالمدينة، وسكن بها، ولم يرض أهل المدينة عنه، ويشهد لهذا عزوف الكثير منهم عن حضور جنازته.

فقد روى إسماعيل بن أبي أويس عن مالك بن أنس عن أبيه قال: "أتي بجنازة عكرمة مولى ابن عباس، وكثير عزة، بعد العصر، فما علمت أن أحداً من أهل المسجد حل حبوته إليهما^(٢).

قال الذهبي: ولم يفعلوا ذلك إلا عن بلية كبيرة في نفوسهم له رضي الله عنه^(٣).
وقد روى البخاري، وابن المديني قالا: مات عكرمة بالمدينة سنة أربع ومائة. وزاد الفسوي في تاريخه: فما حمله أحد، اکتروا له أربعة^(٤).

وقد اختلف في سنة وفاته، فذهب الأكثرون إلى أنه توفي سنة ١٠٧ هـ، قاله أبو نعيم، واختاره الذهبي، وابن كثير، وغيرهم^(٥).

قال ابن حبان: "وكان عمره أربعاً وثمانين سنة"^(٦).

٤- عطاء بن أبي رباح:

أبو محمد عطاء بن أبي رباح أسلم بن صفوان (٢٧ هـ - ١١٤ هـ)، ولد في أثناء خلافة عثمان، ونشأ بمكة^(٧)، وهو فقيه و عالم حديث، وهو من أهم الفقهاء والتابعين في القرن الأول والثاني الهجري، وهو من أصول نوبية. أخذ عن عائشة وأبي هريرة وأم سلمة وأم هانئ وابن عباس وعبد الله بن عمرو وابن عمر وجابر وابن الزبير ومعاوية وأبي سعيد وعدة من الصحابة ومن التابعين، حدث عن عبيد بن عمير ومجاهد وعروة وابن الحنفية وغيرهم كثير. وأخذ عنه الأوزاعي وابن جريج وأبو حنيفة والليث. وحدث عنه مجاهد بن جبر، وأبو إسحاق السبيعي، وعمرو بن دينار، وقتادة، وعمرو بن شعيب، والأعمش، وأيوب السختياني، ويحيى بن أبي كثير، وكثير غيرهم^(٨).

قال علي بن المديني: "اسم أبي رباح: أسلم مولى حبيبة بنت ميسرة ابن أبي خثيم^(٩)، وعطاء معدود من كبار التابعين، أدرك مائتين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم"^(١).

(١) انظر: تهذيب التهذيب (٧/ ٢٧٢).

(٢) تهذيب الكمال (٢٠/ ٢٩٠)، والسير (٥/ ٣٣)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٩٠)، وتاريخ الإسلام (١٨١).

(٣) السير (٥/ ٣٤).

(٤) التاريخ الصغير (١/ ٢٥٧)، والمعرفة (٢/ ٦)، والسير (٥/ ٣٤).

(٥) التاريخ الصغير (١/ ٢٤٣ / ٢٥٨)، ودول الإسلام (١/ ٧٥)، والعبر (١/ ١٠٠)، وتاريخ الخميس (٢/ ٣١٩).

(٦) مشاهير علماء الأمصار (٨٤)، ورجال مسلم (٢/ ١١٠).

(٧) انظر: طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦٧)، والجرح (٦/ ٣٣٠)، ومشاهير علماء الأمصار (٨١)، والثقات (٥/ ١٩٩)،

وفيات الأعيان (٣/ ٢٦١)، وتهذيب الأسماء (١/ ٣٣٣)، والتذكرة (١/ ٩٨).

(٨) انظر: طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦٨)، وطبقات خليفة (٢٨٠)، والمعارف (١٩٦)، والتاريخ الكبير (٦/ ٤٦٣)،

والجرح (٦/ ٣٣٠)، والحلية (٣/ ٣١٠)، والثقات (٥/ ١٩٨)، وتهذيب الأسماء (١/ ٣٣٣)، ذيل المذيل (١٣/ ١٢٠).

(٩) تهذيب الكمال (٢٠/ ٧٥)، والسير (٥/ ٨٠)، وتاريخ ابن معين (٢/ ٤٠٣)، وتهذيب التهذيب (٧/ ٢٠٢)، ورجال

صحيح البخاري (٢/ ٥٦٦).

بلغ عطاء بن أبي رباح درجة عالية من العلم، فكان يجلس للفتيا في مكة بعد وفاة حبر الأمة عبد الله بن عباس، ولمّا قدم ابن عمر مكة فسأله فقال: أتجمعون لي يا أهل مكة المسائل وفيكم ابن أبي رباح؟ وكان يعرف عنه أنه لا يريد بعلمه جاهًا أو سلطانًا، ولم يكن طالبًا بعلمه يومًا مالاً أو شيئاً من متاع الدنيا، بل كان يريد وجه الله عز وجل.
ومن أبرز سمات منهجه:

أ- قلة اعتماده على روايات بني إسرائيل:

تميز رحمه الله بمنهج فريد بين سائر التابعين، وعلى الأخص بين المكيين فالمدرسة المكية من أكثر المدارس توسعا في الرواية عن بني إسرائيل ولكن عطاء خالفها مخالفة بيّنة واضحة في كم المروي ونوعه^(٢).

ب- توسعه في الفقه، والإفتاء:

انفرد بطول الباع في الرواية، والعناية بالفقه، والإفتاء، وقد شغله هذا عن التفسير والإقراء^(٣). وقد امتد به الأجل، فبارك الله له في عمره، فقارب التسعين عند وفاته عام خمسة عشر ومائة على قول الجمهور^(٤).

٥- الحسن البصري:

الحسن بن يسار البصري (٢١ - ١١٠ هـ)، هو الحسن بن يسار، أبو سعيد، وكان أبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري، وقيل مولى أبي اليسر كعب بن عمرو السلمي. وهو من أهل ميسان، نبطي بابلي عراقي قديم، فهو إمام وقاضي ومحدث من علماء التابعين ومن أكثر الشخصيات البارزة في عصر صدر الإسلام.

ولد الحسن في بيت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة سنة إحدى وعشرين للهجرة النبوية لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه. وكانت أم الحسن مولاة لأم سلمة أم المؤمنين^(٥).

سكن البصرة، وعظمت هيئته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، ولا يخاف في الحق لومة لائم.

تنقل الحسن البصري بين أكثر من مدينة حيث كان مسقط رأسه في المدينة المنورة ونشأته إلى أن سافر إلى كابل عندما اتجهوا إلى فتحها، كما عمل كاتباً للربيع في خراسان وكان ذلك في عهد معاوية بن أبي سفيان، بعدها استقر في البصرة حتى حصل علي لقبه البصري وأصبح يعرف باسم "الحسن البصري".

من أبرز سمات منهجه:

أ- التساهل في الرواية:

(١) التاريخ الكبير (٦/ ٤٦٤)، والبداية (٩/ ٣٤٣)، وتهذيب الكمال (٢٠/ ٧٧)، وتهذيب التهذيب (٧/ ٢٠٠)، وتاريخ دمشق (١١/ ٦٣١)، وطبقات الحفاظ (٣٩).

(٢) حيث روي عنه ما نسبته (١، ٠)، من مجموع تفسيره، في حين روي عن مجاهد، وعكرمة (٣، ٠) من مجموع تفسيرهما، وروي عن سعيد (٦، ٠) من مجموع تفسيره.

(٣) المروي عن مجاهد بلغ (٦١٠٩) رواية، وعن سعيد (١٠١٠) رواية، وعن عكرمة (٩٤٣) رواية، وعن عطاء (٤٨٠) رواية، فهو من أقلهم رواية في التفسير.

(٤) انظر: التاريخ الكبير (٦/ ٤٦٤)، وتاريخ خليفة (٣٤٦)، والمصنف لابن أبي شيبة (١٣/ ٦٩) ١٥٧٨١، والمعارف (١٩٦)، والعلل لأحمد (٢/ ١٧٣) ١٩٠٨، والجمع بين رجال الصحيحين (١/ ٣٨٥)، ورجال صحيح مسلم (٢/ ١٠٠)، ورجال صحيح البخاري (٢/ ٥٦٦)، والوفيات لابن قنفذ (١١٢)، والكامل في التاريخ (٥/ ١٧٩)، ومرج الذهب (٣/ ٢١٥)، وفيات الأعيان (٣/ ٢٦٣).

(٥) انظر: طبقات ابن سعد (٧/ ١٥٦)، والفتاوى (٤/ ١٢٣)، والعبر (١/ ١٠٣)، والتهذيب (٢/ ٢٦١)، والتهفة اللطيفة (١/ ٤٧٦)، وتهذيب الأسماء (١/ ١٦٢).

ومن أسباب كثرة المروي عنه تساهله في الرواية متنا، وسندا، ففي جانب السهولة في رواية النص، والمتن، كان الحسن ممن يرى جواز الرواية بالمعنى، ويرى جواز التقديم، والتأخير في الألفاظ، وكذا الزيادة والنقصان إن كان قد أصاب المعنى.

عن مهدي بن ميمون قال: "قلت للحسن: الرجل يحدث بالحديث لا يألو، فيكون فيه الزيادة، والنقصان؟ قال: ومن يطيق ذلك؟!"^(١).

وعن مبارك بن فضالة، قال: "سمعت الحسن يقول: لا بأس بالحديث أن تقدم أو تؤخر إذا أصيب المعنى"^(٢).

وعن جرير بن حازم قال: "كان الحسن يحدث بالحديث الأصل واحد، والكلام مختلف"^(٣). ولذا فقد عده أهل العلم ممن يرى جواز الرواية بالمعنى، وممن يرخص في ذلك، فعن ابن عون قال: "كان القاسم بن محمد، وابن سيرين، ورجاء بن حيوة، يحدثون الحديث على حروفه، وكان الحسن، وإبراهيم، والشعبي، يحدثون بالمعاني"^(٤). وبالجملة، فالحسن من أكثر التابعين تساهلا في هذا، ولعل هذا من أهم الأسباب التي جعلت المروي من أقواله كثيرا.

وأما تساهله في جانب الإسناد، فيتضح جليا في إرساله لجملة من الأحاديث، والآثار، عن كثير من الصحابة، والتابعين، ولذا نجد إطالة الأئمة ممن كتب في المراسيل عند تعرضهم لإرسال الحسن خاصة^(٥).

وكان يقول عن نفسه رحمه الله: "كنت إذا اجتمع لي أربعة نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تركتهم وقلت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم"^(٦).

وقال رجل للحسن: "يا أبا سعيد، إنك تحدثنا فتقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلو كنت تسنده لنا إلى من حدثك؟ فقال الحسن: أما أيها الرجل ما كذبنا ولا كذبنا، ولقد غزونا غزوة إلى خراسان، ومعنا فيها ثلاثمائة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم"^(٧).

وعن علي بن زيد قال: "كنت أحدث الحسن بالحديث، فأسمعه يحدث به فأقول: من حدثك فيقول: لا أدري، إلا أنه ثقة"^(٨).

ومن مظاهر تساهله، أخذه عن كل أحد، ولذا ردّ بعض الأئمة مراسيله، وفي ذلك يقول ابن سيرين: "ثلاثة كانوا يصدقون من حديثهم، وذكر منهم الحسن"^(٩).

وكان ابن سيرين يقول لعاصم الأحول: "لا تحدثني عن الحسن، ولا عن أبي العالية فإنهما لا يباليان عن أخذ الحديث"^(١٠).

(١) العلم لأبي خيثمة (١٣٩)، طبقات ابن سعد (٧ / ١٥٩)، والمحدث الفاصل (٥٤٢)، (٧١٣)، والكفاية (٢٠٨)، وتهذيب الكمال (٦ / ١٢١).

(٢) سنن الدارمي (٩٣ / ١)، والمحدث الفاصل (٥٤١) ٧٠٨، والكفاية (٢٠٧)، والجامع لأخلاق الراوي (٢ / ٣٢).

(٣) سنن الدارمي (٩٣ / ١)، والكفاية (٢٠٧)، والجامع لأخلاق الراوي (٢ / ٣١)، وعيون الأخبار (٢ / ١٣٦).

(٤) العلم لأبي خيثمة (١٤١)، والعلل لأحمد (٢ / ٢٦٦) ٢٢٠٦، (٣ / ١٩٨) ٣٨٥٩، والكفاية (٢٠٦)، (١٨٦)، والمحدث الفاصل (٥٣٥)، وجامع بيان العلم وفضله (١ / ١٣٣).

(٥) ينظر في ذلك المراسيل لابن أبي حاتم (من ص ٣١ ص ٤٦)، وجامع التحصيل للعلاني (من ص ١٦٢ ص ١٦٦).

(٦) جامع التحصيل ص (٨٧، ٩٤)، وأصول السرخسي (١ / ٣٦١).

(٧) تدريب الراوي (١ / ٢٠٤).

(٨) الكفاية (٣٧٣)، وتهذيب الكمال (٦ / ١٢٢).

(٩) المعرفة والتاريخ (٢ / ٣٥)، والكفاية (٣٧٣)، والعلل لأحمد (١ / ٤٤٢) ٩٨٩، وكذا أخرجه الدارقطني في السنن (١ / ١٧١) بلفظ: أربعة يصدقون من حديثهم.

(١٠) المعرفة (٢ / ٣٦)، والكفاية (٣٩٢)، وتاريخ دمشق (٦ / ٢٧٣)، وتهذيب تاريخ دمشق (٥ / ٣٢٩).

أحد" (١) . وعد الإمام أحمد مراسيل الحسن من أضعف المراسيل، وقال: "إنه كان يأخذ عن كل

ولعل من أسباب هذا التساهل عنده، وعدم الاعتناء بالإسناد، اشتهاؤه بالدعوة، والمواعظ، والتدريس، ومن كان هذا شأنه لا ينتظر منه في موطن التأثير على الناس أن يأتي بالسند، بل يأتي بالمتن خالياً من السند لضرورة الخطبة والموعظة، وقد درج على ذلك الخطباء، والوعاظ (٢) . قال الخطيب البغدادي: "ربما أرسلوها اقتصاراً، وتقريباً على المتعلم لمعرفة أحكامها كما يفعل الفقهاء" (٣) .

والحسن معلم وداع إلى الله، وفقهه جالس العوام وأثر فيهم، واشتهر بمليح وعظه وقصه، فقد يثقل عليه في كثير من الأحيان إيراد الإسناد، فكان بعض إرساله من هذا. حدث مرة بحديث فقال له رجل: "يا أبا سعيد، عن؟"، قال: وما يصنع بعمن؟ أما أنت فقد نالتك موعظته وقامت عليك حجته" (٤) .

ولعل من الأسباب التي جعلت الحسن يرسل في بعض الأحيان، الجانب السياسي، فسكوت الحسن عن الرواية عن بعض الصحابة في ذلك الوقت كعلي بن أبي طالب رضي الله عنه مثلاً قطعاً للفتنة، فكان يفضل الإرسال بزمان الأمويين، والحجاج سيفهم على البصرة (٥) .

فعن يونس بن عبيد أنه قال: "سألت الحسن، قلت: يا أبا سعيد: إنك تقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنك لم تدركه؟ فقال: يا ابن أخي، لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد قبلك، ولولا منزلتك مني ما أخبرتك إني في زمان كما ترى وكان في زمان الحجاج كل شيء سمعتني أقواله: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه غير أنني في زمان لا أستطيع أن أذكر فيه علياً" (٦) .

إلى غير ذلك من الأسباب التي أدت إلى تساهل الحسن رحمه الله في جانب الرواية سندا ومتنا.

ب- حرصه على نشر العلم، وتأنمه من كتمانته:

فعن يونس بن عبيد قال: "قال الحسن احتساباً، وسكت محمد بن سيرين احتساباً" (٧) . وعن قتادة، عن الحسن قال: "لولا الميثاق الذي أخذه الله على أهل العلم ما حدثكم بكثير مما تسألون عنه" (٨) .

وقد أكثر من التحديث حرصاً على البلاغ، حتى بلغ حداً كره ذلك منه بعض التابعين. فعن الشعبي قال: "لو لقيت هذا (يعني: الحسن) لنهيته عن قوله: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، صحبت ابن عمر ستة أشهر فلم أسمع يقول: قال رسول الله: إلا في حديث واحد" (٩) . ت- حرصه على الكتابة:

فقد كانت له كتب يراجعها، وكان يرى أن من أهم ما يحفظ العلم الكتاب.

(١) بحر الدم فيمن تكلم فيه الإمام أحمد بمدح أو ذم (ص ٦٤)، والكفاية (٣٨٦)، وسنن البيهقي (٦/ ٤٢).

(٢) الحسن البصري، وحديثه المرسل د. عمر الجعيري (٣٤٧).

(٣) الكفاية (٣٩٦).

(٤) عيون الأخبار (٢/ ١٣٧).

(٥) الحسن البصري وحديثه المرسل (٣٤٩).

(٦) تدريب الراوي (١/ ٢٠٤)، ولمعرفة المزيد من الأسباب، يراجع كتاب الحسن البصري وحديثه المرسل (٣٥١٣٤٦).

(٧) طبقات ابن سعد (٧/ ١٦٢)، والعلل ومعرفة الرجال لأحمد (٣/ ١٣٧) ٤٦٠١.

(٨) طبقات ابن سعد (٧/ ١٥٨).

(٩) العلل ومعرفة الرجال لأحمد (٣/ ٣٦٧) ٥٦١٤.

فعن الأعمش عن الحسن قال: "إن لنا كتبنا نتعاهدها"^(١).
وعنه قال: "ما قيد العلم بمثل الكتاب"^(٢)، وكان يأمر بنيه وبني أخيه بالكتابة، فعن شرحبيل بن سعيد قال: "دعا الحسن بنيه، وبني أخيه، فقال: يا بني، وبني أخي، إنكم صغار قوم يوشك أن تكونوا كبار آخرين، فتعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يرويه أو قال: يحفظه فليكتبه وليضعه في بيته"^(٣).

وقد أملى رحمه الله التفسير فكتبه الناس^(٤)، ولم يكتب بهذا، بل كتب لهم^(٥).
ث- اهتمامه بمعرفة أسباب النزول، وتقدمه في هذا:
يقول الحسن عن نفسه: "ما أنزل الله آية إلا أحب أن أعلم فيم أنزلت وماذا عني بها"^(٦).
ولذا كان لا يخرج من سورة إلى أخرى، حتى يعرف تأويلها وفيه أنزلت^(٧).
ج- كثرة الاجتهاد، وقوة الاستنباط:

لقد كان للقدرة العلمية، والقدرة العقلية التي تمتع بها الحسن رحمه الله أثر على كثرة المروي عنه حيث كثر اجتهاده لكثرة ما يعرض عليه، وقد أعمل رأيه في الاستنباط لبعض ما يعرض له، واجتهد فيما يرد عليه، لا سيما وأنه إمام عامة وخاصة، وقد غشيه الناس، وأكثروا عليه السؤال، حتى قال ثابت البناني: لولا أن تصنعوا بي ما صنعتم بالحسن لحدثتكم أحاديث موقنة، ثم قال: منعه القائلة، منعه النوم^(٨)، وهذا الإقبال من الناس جعله من أكثر التابعين تعرضا للسؤال في بيان مشكل الآيات، فأعطى لفهمه وعقله، شيئا من السعة في النظر والتأمل، حتى إن بعض معاصريه نصحه، ونهاه عن ذلك، فعن أبي نضرة قال: "قدم أبو سلمة البصرة، فأتيته أنا والحسن، فقال للحسن: ما كان أحد بالبصرة أحب إليّ لقاء منك وذلك أنه بلغني أنك تفني برأيك، فلا تفت برأيك إلا أن تكون سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتاب منزل"^(٩).

ولما سئل طاوس بن كيسان عن الحسن، قال: "ذاك رجل جريء"^(١٠).
ح- تقدمه، وجمعه لفروع عديدة من العلم:
يقول ابن سعد: و"كان الحسن جامعا عالما عاليا رفيعا كبير العلم فصيحاً"^(١١).
وعن الحجاج بن الأسود، قال: تمنى رجل فقال: ليتني بزهد الحسن، وورع ابن سيرين، وعبادة عامر بن عبد قيس، وفقه سعيد بن المسيب! فنظروا ذلك، فوجدوه كلاما كله في الحسن"^(١٢).
ويقول عنه ابن حبان: "كان من علماء التابعين، بالقرآن والفقه والأدب"^(١٣).

(١) العلم لأبي خثيمة (١ / ١٢٥)، وتقييد العلم (١٠١)، والمحدث الفاصل (٣٧١)، وجامع بيان العلم وفضله (١ / ١٢٤).

(٢) تقييد العلم (١٠١)، والمحدث الفاصل (٣٧٥).

(٣) سنن الدارمي (١ / ١٣٠).

(٤) جامع بيان العلم وفضله (١ / ١٢٤).

(٥) تقييد العلم (١٠٢).

(٦) زاد المسير (١ / ٤)، والمحرم الوجيز (١ / ١٥)، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣ / ١١٤، ٢٨٤).

(٧) شذرات الذهب (١ / ١٣٧).

(٨) السير (٤ / ٥٨٤).

(٩) سنن الدارمي (١ / ٥٨).

(١٠) المعرفة والتاريخ (٢ / ٤٤).

(١١) طبقات ابن سعد (٧ / ١٥٧).

(١٢) طبقات ابن سعد (٧ / ١٦٥)، والمعرفة (٢ / ٦١).

(١٣) مشاهير علماء الأمصار (٨٨)، وطبقات علماء الحديث (١ / ١٤٢).

والمطالع في تفسيره يجد شاهد ذلك، في كثرة تعرضه لآيات الأحكام والقراءات والغريب وغير ذلك، مما يدل على تقدمه في كثير من فروع العلم، مما كثر المنقول عنه في هذه الفروع، وكان من الأسباب في كثرة مرويه عنه في التفسير وغيره.

وقد كانت حلقة في المسجد يمر فيها الحديث، والفقه، وعلم القرآن، واللغة، وسائر العلوم، وكان ربما يسأل عن التصوف فيجيب، وكان منهم من يصحبه للحديث، ومنهم من يصحبه للقرآن، والبيان، ومنهم من يصحبه للبلاغة^(١).

بل كان رحمه الله يستثنى من كل غاية فيقال: فلان أزهدهم الناس إلا من الحسن، وأفقه الناس إلا من الحسن، وأفصح الناس إلا من الحسن، وأخطب الناس إلا من الحسن^(٢).

خ- تقدمه في القراءة:

يعد الحسن أحد القراء الأربعة^(٣)، الذين تنسب إليهم القراءات الزائدة على العشر^(٤).

ولذا نجد الأئمة من المفسرين يعتنون بإيراد قراءته والترجيح بها، ومما تميز به بين عموم مفسري التابعين في هذا الباب، عنايته بتصحيح الأداء، والنطق في القراءة^(٥).

ولذا كان له اختيار في القراءة، وقد جعله الحجاج رئيس اللجنة في كتابة المصحف^(٦).

مع ما سبقت الإشارة إليه من فصاحة الحسن، وقدرته الفائقة على الإيضاح، والبيان بأجمل عبارة، وأقواها، وكذا سعة علمه بمعرفة الغريب من كلام العرب، هذا، وغيره من العوامل التي ساعدت على نشر تفسيره رحمه الله وروايته.

د- إكثاره في باب الوعظ، والتذكير:

فالحسن جمع بين التعليم، والدعوة، فكثرت توجيهه، وتعليمه، وقد أوتي حظا وافرا من الفصاحة والبيان والقدرة على التأثير، حتى كان فردا في زمانه في هذا الباب^(٧).

يقول عنه الإمام الذهبي: "كان مليح التذكير، بليغ الموعدة، رأسا في أنواع الخير"^(٨).

وقد نقل عنه كثير من هذه المواعظ والحكم، في آيات الوعد والوعيد، وآيات الترغيب، والترهيب، لما لتفسيره من أثر بالغ على قلب السامعين ولذا حرص المفسرون على نقل تلك الكلمات، وروايتها، فكان هذا من أسباب كثرة المرويه عنه.

سئل الأوزاعي: "أي الناس أعلم؟ قال: ذهب عليهم الحسن بالمواعظ، وذهب عليهم عطاء بالمناسك"^(٩).

وقد أقر له بعض معاصريه من أئمة التابعين بهذا التقدم في باب الوعظ، روى معمر قال: جاء رجل إلى ابن سيرين، فقال: "رأيت حمامة التقت لؤلؤة، فخرجت منها أعظم مما دخلت،

(١) السير (٤ / ٥٧٩).

(٢) المستطرف (١ / ١٥٧).

(٣) القراء الأربعة هم: الحسن البصري (١١٠هـ)، وابن محيصن (١٢٣هـ)، ويحيى اليزيدي (٢٠٢هـ)، والشنبوذي (٣٨٨هـ).

(٤) العشرة هم: القراء السبعة: ابن عامر (١١٨هـ)، وابن كثير (١٢٠هـ)، وعاصم (١٢٧هـ)، وأبو عمرو (١٥٤هـ)، وحمزة (١٨٨هـ)، ونافع (١٦٩هـ)، والكسائي (١٨٩هـ)، والثلاثة الباقيون: هم أبو جعفر (١٣٠هـ) ويعقوب (٢٢٥هـ)، وخلف (٢٢٩هـ).

(٥) من الأمثلة الدالة على ذلك، ينظر تفسير الطبري الآثار ٢٧٩٢، ٨٠٤٧، ٨١٥١، ١٣٧٣١، ١٤٦٢٦، ١٨٨١٢، ١٩١٧٠، ٢٠٥٤٨، ٢٠٥٤٩، والصفحات ذوات الأرقام (١٢ / ١٦)، (٢٠٦ / ١٦)، (٧٣ / ٢٣)، (١١٧ / ٢٣)، (١٨ / ٢٨)، (٣٠ / ٢٨)، (١٦٠ / ٢٨)، (٢٤٠ / ٢٩)، (٣٩ / ٣٠)، (٢١٥ / ٣٠)، (٢١٨ / ٣٠)، (٢٩٤ / ٣٠).

(٦) نكتب الانتصار، لنقل القرآن (٣٩٦).

(٧) صبح الأعشى (١ / ٥١٧).

(٨) تنذكرة الحفاظ (١ / ٧٢).

(٩) العلل لأحمد (١ / ١٩٧).

ورأيت حمامة أخرى التقت لؤلؤة، فخرجت أصغر مما دخلت، ورأيت حمامة أخرى التقت لؤلؤة، فخرجت كما دخلت سواء، فقال ابن سيرين: الحمامة الأولى الحسن يسمع الحديث فيجوده بمنطقه، ثم يصل فيه من مواعظه، والثانية: ابن سيرين يشك فيه فينقص منه، والثالثة: قتادة فهو أحفظ الناس" (١).

ذ- قلة اعتماده على روايات بني إسرائيل:

ومما تميز به تفسير الحسن عن سائر التابعين (٢)، بعده وإعراضه عن كثير من روايات بني إسرائيل، مع أنه من الوعاظ والمذكرين، إلا أنه لم يرض عن كثير من تلك الروايات، بل ضرب عنها صفحا فنجده مثلا في سورة البقرة التي روي فيها مئات الروايات عن التابعين لا نجد له شيئا، بل إن المروي عنه في ذلك يوضح عدم الرضى، فعند تفسير قوله سبحانه: {الْم تَر إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ} [البقرة: ٢٤٣].

قال: "خرجوا فرارا من الطاعون، فأماهم قبل آجالهم، ثم أحياهم إلى آجالهم" (٣). وكان رحمه الله يرد وينكر، بعض الروايات الواردة في حق الأنبياء، ويفسر الآية بتفسير بعيد عن كل هذا.

توفي الحسن عشية يوم الخميس في الأول من رجب سنة عشر ومائة للهجرة وعاش ثمان وثمانين سنة، وكانت جنازته مشهودة، صلى عليه المسلمون عقب صلاة الجمعة، ويقع مرقده في البصرة.

٦- قتادة:

هو قتادة بن دعامة بن عزيز، وقيل: قتادة بن دعامة بن عكابة، أبو الخطاب، السدوسي البصري الضرير الأكمه (٤).

قال ابن خلكان: "وكان تابعيا، وعالما كبيرا" (٥).

قال الإمام أحمد: ما أعلم قتادة روى عن أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلا عن أنس" (٦).

قال شعبة: نصبت على قتادة سبعين حديثا كلها يقول: سمعت أنس بن مالك" (٧). وقد أخذ عن الحسن فأكثر، يقول معمر: "قال قتادة: جالست الحسن اثنتي عشرة سنة، أصلي معه الصبح ثلاث سنين، قال: ومثلي يأخذ عن مثله" (٨). والنظر في تفسيره يجد أثر ذلك الإكثار في الأخذ عن الحسن وتأثره به. كما أخذ عن سعيد بن المسيب وتأثر به أيضا (٩).

(١) تهذيب الأسماء (٢/ ٥٧)، وسبق قريبا.

(٢) تميز حتى عن أقرب الناس إليه، فتلميذه قتادة مع أنه من أكثر الناس تأثرا بمنهجه، وبعدا عن روايات بني إسرائيل، إلا أنه قد وقع في شيء منها.

(٣) تفسير الطبري (٥/ ٢٧٤) ٥٦٠٩، وقارن ذلك بما روي عن غيره من التابعين عند هذه الآية.

(٤) انظر: الجرح (٧/ ١٣٣)، والنقائ (٥/ ٣٢١)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٩٥)، والتاريخ الكبير (٧/ ١٨٥)، الكنى لأحمد (٦٦) والكنى لمسلم (ق ٣٣)، والكنى للدولابي (١/ ١٦٦).

(٥) وفيات الأعيان (٤/ ٨٥)، وعده ابن عبد الهادي الصالح من الطبقة الثالثة من طبقات التابعين، وينظر كتاب طبقات علماء الحديث (١/ ١٩٥).

(٦) بحر الدم فيمن تكلم فيه الإمام أحمد بمدح أو ذم (١٢٩)، والمراسيل (١٦٨)، وجامع التحصيل (٢٥٤)، وتهذيب التهذيب (٨/ ٣٥٥)، والجمع بين رجال الصحيحين (٢/ ٤٢٢).

(٧) السير (٥/ ٢٧٧).

(٨) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٢٩)، والمعرفة (٢/ ٢٧٩)، والتاريخ الكبير (٧/ ١٨٦)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٥٧).

(٩) وقد كان قتادة من أكثر تلاميذ سعيد عناية بنقل تفسيره حيث روى ما نسبته (٣٧، ٠) من مجموع تفسيره، وقد

ومن خصائص تفسيره:

أ- أسلوب المخاطبة والحوار في تفسيره:

فالقارئ لتفسيره يشعر بتلك الصلة الحية بينه، وبين قارئه، أو المستمع إليه، وكأن القارئ لهذا التفسير يشعر بتلك الرابطة، وبذلك الحرص من هذا الإمام على تلاميذه، وسامعيه، للتأثير عليهم وتربيتهم بهذا القول، والتوجه بالحديث، والتفسير إليهم، ووعظهم به.

ب- أسلوب القسم لتأكيد المعنى المراد:

وهذا ما يدل على اهتمامه بذلك التفسير الوعظي التذكيري، فكثيرا ما يؤكد المعنى بقوله: إي والله، بلى والله، نعم والله، وغيرها من ألفاظ القسم.

من ذلك ما ورد عنه عند قوله: {وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ} ، قال: "إي والله! من الإثم، والأذى"^(١).

ت- شدة عباراته على المخالفين:

إضافة إلى ما سبق، فإن مما تميز به تفسيره الوعظي، قسوته في العبارة على المخالفين، فنجد عند مروره بآيات وصف الكافرين والمنافقين، وغيرهم من المخالفين يشدد أكثر من غيره عليهم في وصفهم وتأنيبهم، وزجرهم.

ث- جمال العبارة، وصدقها، وتأثيرها في وعظه:

وعند تعرضه لآيات ذم الدنيا. يرد عنه ذلك بأجمل عبارة، وأكثرها تأثيرا، فمن ذلك ما جاء عنه عند قوله تعالى: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} [الحاقة: ٢٤]، قال: إن أيامكم هذه أيام خالية هي أيام فانية، تؤدي إلى أيام باقية، فاعملوا في هذه الأيام، وقدموا فيها خيرا إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله"^(٢).

ج- الوعظ في آيات الأحكام:

وقد اتضح هذا المنهج الوعظي عنده في تأويله لآيات الأحكام، فما كان رحمه الله يفسر تلك الآيات مبينا الحكم الفقهي المستنبط، والرأي المختار فحسب، بل كان يزيد على ذلك بربطه بالجانب الدعوي التذكيري.

ح- الدقة في استنباط الفوائد الدعوية:

وهذا المنهج الوعظي جعله يتميز بدقة استنباط كثير من الفوائد الدعوية من الآيات، مما يدل على تقدمه في معرفة أحوال الدعوة والمدعوين.

خ- اهتمامه بأمثال القرآن:

وهذا المعلم التربوي والدعوي في تفسيره، جعله أيضا من أكثر التابعين اهتماما بأمثال القرآن شرحا، وبيانا، واستنباطا للفائدة والعبرة، بل فاق غيره حتى في عدد الأمثال التي عرض لها بالشرح والتفصيل، وبذلك تميز عن غيره في هذا كما، ونوعا.

د- عنايته بعلم المناسبات:

وكان لهذا النهج الدعوي عنده أثره في اهتمامه ببيان تناسب الآيات، وأسرار ختمها، والربط في تفسيره بين أول الآية وآخرها، عند إيضاحه لمعناها.

توفي سنة سبع عشرة ومائة، وهو معدود في صغار التابعين رحمه الله رحمة واسعة^(٣).

تأثر به في الحرص على الأثر، والبعد عن الرأي، في حين جاء الذي يليه يحيى بن سعيد، فلم تزد نسبة ما روى عنه عن (١٦، ٠) من مجموع تفسيره.

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٩٦) ٥٤٦.

(٢) تفسير الطبري (٢٩/ ٦١)، وأورده السيوطي في الدر، وعزاه إلى عبد بن حميد عن قتادة به (٨/ ٢٧٢). ولمزيد من الأمثلة تراجع الآثار في تفسير الطبري ١٥٩٣، ٣٨٨٤، (١/ ٢٩)، (٣٠/ ٥٠)، (٣٠/ ١٨٢) وغيرها.

(٣) طبقات خليفة (٢١٣)، والتاريخ الصغير (١/ ١٢٩)، والعلل لابن المديني (٨٩)، وتهذيب الكمال (٢٣/ ٥١٧)،

قال مطر الوراق: "ما زال قتادة متعلما حتى مات" (١).

٧- أبو العالية (ت ٩٠ هـ):

هو أبو العالية، رفيع الرياحي بكسر الراء نسبتة إلى قبيلة رياح، بطن من تميم، وأبو العالية الرياحي ينسب إليها ولاء، واسمه رفيع بن مهران، مولى امرأة من يربوع من بني رياح، وهو من كبار التابعين بالبصرة المخضرمين، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين (٢).

من ابرز سمات منهجه:

أ- اهتمامه بتأويل مشكل الآيات وقوله بقول المكيين في تبيين مشكلها

ب- عنايته، ومتابعته لأشبه القرآن وكلياته

ت- قلة تعرضه لتفسير آيات الأحكام

ث- تساهله في رواية الإسرائليات

ذهب كثير من أهل العلم إلى أنه توفي سنة ثلاث وتسعي (٣).

٨- إسماعيل السدي:

هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي، مولى زينب بنت قيس بن مخزومة، وقيل: مولى بني هاشم، أبو محمد القرشي، الأعور، أصله حجازي، سكن الكوفة، وكان يقعد في سدة باب الجامع بالكوفة، فسمي السدي (٤).

رأى أبا هريرة، والحسن بن علي، وابن عمر، وسمع أنس بن مالك، ومرة الهمداني (٥)، وفي سماعه من ابن عباس نظر، وإنما قيل: إنه رآه (٦).

ساق أبو نعيم بسنده عن محمد بن أبان عن السدي، قال: "رأيت نفرا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، منهم: أبو سعيد الخدري، وأبو هريرة، وابن عمر" (٧).
وعداده في صغار التابعين (٨).

وثقه العجلي (٩)، وأحمد (١٠)، وقال أحمد في رواية عنه: مقارب الحديث، وقال النسائي: صالح الحديث، وقال يحيى بن سعيد: لا بأس به (١١).

وتاريخ الخميس (٢ / ٣١٩).

(١) التهذيب (٨ / ٣٥٣).

(٢) تهذيب الأسماء (٢ / ٢٥١)، والاستغناء (٢ / ٨٣٦)، والثقات للعجلي (٣ / ٥٠٣)، والمعين في طبقات المحدثين (٣٣)، وتاريخ دمشق (٦ / ٢٦٣)، والإصابة (٤ / ١٤٤)، وذكر أسماء التابعين (٢ / ٨١)، وطبقات المحدثين بأصبهان (١ / ٣١٣)، والتعديل والتجريح (٢ / ٥٧٨)، وبغية الطلب (٨ / ٣٦٨١).

(٣) التاريخ الكبير (٣ / ٣٢٦)، والتاريخ الصغير (١ / ٢٢٥)، والثقات (٤ / ٢٣٩)، والأنساب (٦ / ١٩٩)، وبغية الطلب (٨ / ٣٦٩٠).

(٤) انظر: المعرفة والتاريخ (٣ / ١٨٦)، وتاريخ ابن معين (٢ / ٣٥)، ومعرفة الرجال لابن معين (١ / ١٤٤)، (٢ / ١٤٧)، والإكمال (٤ / ٥٦٧)، أخبار أصبهان (١ / ٢٠٤)، وتهذيب الكمال (٣ / ١٣٢)، والسير (٥ / ٢٦٤).

(٥) انظر: التاريخ الصغير (١ / ٣١٢)، والتاريخ الكبير (١ / ٣٦١)، ومختصر سنن أبي داود (٤ / ٢٥١)، وأخبار أصبهان (١ / ٢٠٤)، ونصب الراية (٣ / ٤٤٥)، والضغفاء لابن الجوزي (١ / ١١٥).

(٦) انظر: مختصر سنن أبي داود (٤ / ٢٥١)، ونصب الراية (٣ / ٤٤٥).

(٧) أخبار أصبهان (١ / ٢٠٥)، وطبقات المحدثين بأصبهان (١ / ٣٣٣)، وتهذيب الكمال (٣ / ١٣٧).

(٨) طبقات ابن سعد (٦ / ٣٢٣)، والمعين في طبقات المحدثين (٤ / ٤٤)، والنجوم الزاهرة (١ / ٣٠٨).

(٩) انظر: تاريخ الثقات (٦٦).

(١٠) انظر: بحر الدم فيمن تكلم فيه الإمام أحمد بمدح أو ذم (٢٤).

(١١) انظر: الجرح (٢ / ١٨٤)، والكامل (١ / ٢٧٦).

والسدي ينسب إلى المدرسة الكوفية، التي عاش فيها واستقر بها (١)، وهذه المدرسة من أكثر المدارس ورعا، وإحجاما في التفسير، إلا أنه كان من المكثرين بين التابعين في التفسير، بل كان من أكثر تابعي الكوفة رواية، ودراية فيه. ومن ابرز سمات منهجه:

أ- إكثاره في باب التفسير

من إكثاره أن أنكر عليه بعض معاصريه من التابعين وعلى رأسهم إمام الكوفة في زمانه عامر الشعبي، فكان يمر به، وحوله شباب يفسر لهم القرآن، فقام عليه، وقال: "ويحا للآخر لو كنت نشوان يضرب على استك بالطبل، خيرا لك مما أنت فيه" (٢).

عن عبد الله بن حبيب بن أبي ثابت قال: "سمعت الشعبي، وقيل له: إن إسماعيل السدي قد أعطي حظا من علم بالقرآن، فقال: إن إسماعيل قد أعطي حظا من جهل بالقرآن" (٣). وقد رد على ذلك إسماعيل بن أبي خالد (وهو من أعلم الناس بالشعبي وأثبتهم فيه)، بقوله: كان السدي أعلم بالقرآن من الشعبي" (٤).

وقال الذهبي: "ما أحد إلا وما جهل من القرآن أكثر مما علم" (٥).

ولعل ما أنكره الشعبي على السدي هو توسعه في التفسير وإكثاره فيه، ولذا نجد السدي يرد هذا بقوله: "هذا التفسير أخذته عن ابن عباس، فإن كان صوابا فهو قاله، وإن كان خطأ فهو قاله" (٦). ب- تعدد مصادره:

كان جل اهتمام أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه ومن جاء بعدهم من تابعي الكوفة هو نقل، ورواية تفسيره، وانفرد السدي بإضافة مصدر آخر مهم، وهو النقل، والرواية من أقوال ابن عباس، لا سيما ما كان منها في التفسير، فنقل وأكثر حتى أنكر البعض توسعه، فكان يبين لهم أن عمله في هذا إنما هو النقل، فصنّعه ذاك مرشد إلى تعدد مصادره، وتنوعها، ولا ريب أن ذلك أثرى جانب التفسير عنده.

ت- الاهتمام بالتفسير الروائي:

برز السدي بين أصحابه في جانب العناية بالآثار المروية في التفسير، وأكثر من النقل عن الصحابة كابن عباس، وابن مسعود، وعن كبار التابعين من الكوفيين، كأبي مالك غزوان الغفاري، وغيره، كما دأب على رواية قصص بني إسرائيل، وأكثر من نقل أسباب النزول. ث- اهتمامه بنقل أسباب النزول:

اهتم السدي رحمه الله بمعرفة أسباب النزول اهتماما كبيرا، واعتنى بذلك عناية شديدة، وأطال في إيرادها بما لا تكاد تجده عند غيره، ورجح على ضوء ذلك كثيرا من المعاني القرآنية، معتمدا على دراية واسعة، بالمغازي وأيام العرب، ووقائعهم.

يقول الأتابكي: "السدي صاحب التفسير والمغازي والسير، كان إماما عارفا بالوقائع، وأيام الناس" (٧).

(١) انظر: أخبار أصبهان (١/ ٢٠٤).

(٢) الكامل لابن عدي (١/ ٢٧٤)، وتهذيب الكمال (٣/ ١٣٥)، وأشار إلى هذه الرواية مختصرة الطبري في تفسير (١/ ٩٢) ١١٤، وابن عطية في المحرر (١/ ١٩).

(٣) اللعل لأحمد (٢/ ٣٣٤) ٢٤٧٧، والضعفاء الكبير (١/ ٨٧)، والكامل (١/ ٢٧٤)، وتهذيب الكمال (٣/ ١٣٦)، والميزان (١/ ٢٣٦)، والسير (٥/ ٢٦٥).

(٤) أخبار أصبهان (١/ ٢٠٥)، والتاريخ الكبير (١/ ٣٦١)، والسير (٥/ ٢٦٥).

(٥) السير (٥/ ٢٦٥)، وتاريخ الإسلام (ح ١٢٧ هـ / ٣٨).

(٦) أخبار أصبهان (١/ ٢٠٤)، ومعجم الأدباء (٧/ ١٦).

(٧) النجوم الزاهرة (١/ ٣٠٨)، وتاريخ التراث (١/ ٧٧).

وقد اعتمد في تفسيره على معرفة أسباب النزول اعتمادا جعله في عداد المكثرين بين التابعين في هذا الباب^(١).

ج- إكثاره من الرواية عن أهل الكتاب:

هو أكثر التابعين على الإطلاق في اتخاذ رواية أهل الكتاب مصدرا ومعتمدا في التفسير، ولم يشاركه بل لم يقاربه أحد في هذا، والعجيب من أمر السدي أنه عاش واستقر في الكوفة، التي كانت من أكثر المدارس حذرا وبعدا عن روايات بني إسرائيل، ولكنه خالف منهج تلك المدرسة، وأورد العديد من الروايات المنكرة، وكان من أكثر التابعين تساهلا في ذلك^(٢).

وقد فاق السدي في تساهله هذا، حتى المشاهير من رواة الإسرائيليات كوهب بن منبه، وكعب الأحبار، وعبد الله بن سلام، وقد تتبعت المروي عنهم جميعا، وحاولت استقراء العديد من كتب التفسير كالطبري، وابن أبي حاتم، وابن كثير، والسيوطي، فوجدت أن السدي أكثر منهم عددا، وأكثر تفصيلا وإغرابا، بل إن المروي عن هؤلاء المشاهير الذين تخصصوا في نقل روايات بني إسرائيل يعد قليلا إذا ما نسب إلى ما نقله السدي ورواه.

واختص في كثير من روايته بالرغبة في إيراد تفاصيل القصص والاستطراد في السرد، والقص، وهذه صفة عامة في أغلب ما يرويه، ولم أجد من شابهه أو قاربه من مفسري التابعين في هذا المسلك، وهذا المنهج من أهم ما يلاحظه الناظر في تفسيره^(٣).

ح- عنايته بعلم القراءات:

فاق السدي المتأخرين من الكوفيين في علم القراءات حتى عدّ من المقدمين في هذا الشأن في زمانه، فعن أبي بكر بن أبي داود قال: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية، وبعده سعيد بن جبير، ثم السدي، ثم سفيان الثوري^(٤).

اتفقت كلمة كثير من الأئمة على أنه توفي سنة سبع وعشرين ومائة^(٥).

٩- عامر الشعبي:

هو عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار، أبو عمرو، الهمداني ثم الشعبي، ولد في أواسط خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكانت أمه من سبي جلولاء^(١).

وعده غير واحد من الأئمة في الطبقة الثانية، من تابعي مدرسة الكوفة.

أدرك خمسمائة من الصحابة^(٢)، وروى عن خمسين ومائة منهم^(٣)، وسمع من ثمانية وأربعين صحابيا^(٤).

(١) بلغ نسبة ما روي عنه في أسباب النزول (١١، ٠) من تفسيره، فكان الرابع بين عموم التابعين في عنايته بالأسباب.

(٢) بلغ نسبة المروي عنه (١٦، ٠) من مجموع تفسيره، في حين جاء الذي يليه محمد بن كعب القرظي بنسبة (٧، ٠).

(٣) انظر: تفسير التابعين، عرض ودراسة ومقارنة: ٣٠٦/١.

(٤) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٥١)، وتاريخ الخميس (٢/ ٣١٣)، وغاية النهاية (١/ ٢٨٥)، وعند ابن حجر في التهذيب بلفظ: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة (٣/ ٢٨٥).

(٥) انظر: طبقات ابن سعد (٦/ ٣٢٣)، وطبقات خليفة (١٦٣)، وتاريخ خليفة (٣٧٨)، والجمع بين رجال الصحيحين (١/ ٢٨)، وطبقات المحدثين بأصبهان (١/ ٣٣٥)، والثقات (٥/ ٢١)، واللباب (٢/ ١١٠)، ومراة الجنان (١/ ٢٩٤)، وطبقات المفسرين للداودي (١/ ١٠٩).

(٦) .

(٧) انظر: التاريخ الكبير (٦/ ٤٥١)، والحلية (٤/ ٣٢٣)، والثقات (٥/ ١٨٦)، وتهذيب تاريخ دمشق (٧/ ١٤٢)، ومراة الجنان (١/ ٢٤٥).

(٨) انظر: الثقات (٥/ ١٨٦)، ومشاهير علماء الأمصار (١٠٢)، والأنساب (٧/ ٣٤١).

(٩) انظر: تاريخ الثقات للعجلي (٣/ ٢٤٣)، والسير (٤/ ٣٠١)، وتهذيب تاريخ دمشق (٧/ ١٤٢).

وكان لهذا الإدراك وكثرة السماع الأثر البالغ في تميز الشعبي بمنهج أثري روائي، حتى صار من أكثر العراقيين تتبعاً، واقتداءً، وإفتاء بالأثر، بل صار من أبعدهم عن الرأي والقياس. وعامر الشعبي كان ممن خرج على الحجاج في فتنة ابن الأشعث، فتوعده الحجاج، فاختمت تسعة أشهر مغلقاً عليه بابه، ثم لحق مختفياً بعسكر قتيبة بن مسلم إلى خراسان، ثم بلغ خبره الحجاج، فأرسل في طلبه، فبعثه قتيبة بن مسلم إليه.

يقول الشعبي: "فلما دنوت من واسط، استقبلني ابن أبي مسلم فقال: يا أبا عمرو، إني لأضنّ بك عن القتل، إذ دخلت على الأمير فقل كذا وقل كذا. فلما أدخلت عليه ورأني قال: لا مرحباً، ولا أهلاً، جئتني ولست في الشرف من قومك، ولا عريفاً، ففعلت وفعلت، ثم خرجت عليّ وأنا ساكت! فقال: تكلم. فقلت: أصلح الله الأمير، كل ما قلته حق، ولكننا قد اكتحلنا بعدك السهر، وتحلسنا الخوف، ولم نكن مع ذلك بررة أتقياء، ولا فجرة أفوياء، فهذا أوان حققت لي دمي، واستقبلت بي التوبة. قال: قد فعلت ذلك"^(١).

ومن سمات منهجه:

أ- غلبة الجانب الأثري على أقواله وآرائه أكثر من غيره:

لأنه أدرك الكثير من الصحابة، وسمع منهم أكثر من سماع غيره، كما أن مما ميزه أن مصادره تعددت بسبب كثرة أسفاره ورحلاته، فقد سافر إلى الحجاز، وصحب ابن عمر وتأثر به، ولقي غيره من الصحابة، وقد أشار ابن المديني إلى هذا فقال: وكان أصحاب عبد الله الذين يقرءون بقراءته، ويفتون الناس ستة: علقمة والأسود ومسروق وكان أعلم أهل الكوفة بأصحاب عبد الله وطريقتهم ومذهبهم: إبراهيم والشعبي، إلا أن الشعبي كان يذهب مذهب مسروق، يأخذ عن علي وأهل المدينة وغيرهم، وكان إبراهيم يذهب مذهب أصحابه^(٢).

ب- تقدمه في علوم اللغة من غريب وفصيح وشعر:

فمما يدل على تقدمه، وحفظه لكثير من دواوين الشعر المختلفة ما ذكره عن نفسه حيث يقول: "ما أروي أقل من الشعر، ولو شئت لأنشدتكم شهراً لا أعيد"^(٣). ومن كثرة حفظه صار يقرضه وهو ابن سبع وسبعين سنة^(٤). وأبان ذلك ابن حبان في ترجمته بقوله: وكان فقيهاً شاعراً، وأخباره في ذكر الشعر ونظمه كثيرة^(٥).

ذهب الأكثرون من أهل العلم، إلى أنه توفي سنة أربع ومائة^(٦)، وقيل: ثلاث ومائة، وقد بلغ من العمر اثنتين وثمانين سنة^(٧). رحمه الله رحمة واسعة.

١٠- إبراهيم النخعي:

إبراهيم بن يزيد بن الأسود بن ربيعة بن ذهل بن ربيعة النخعي، أبو عمران، كانت أمه مليكة بنت قيس، أخت علقمة بن قيس، وهي عمة الأسود بن يزيد^(١).

(١) انظر: السير (٤/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٢) انظر: العلل لابن المديني (٢٥٢).

(٣) أخبار القضاة (٢/ ٤٢٠)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١٥٦)، وتاريخ بغداد (١٢/ ٢٢٩)، والتذكرة (١/ ٨٤)، ومراة الجنان (١/ ٢٤٥).

(٤) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٥).

(٥) النقات (٥/ ١٨٥)، والأنساب (٧/ ٣٤١).

(٦) انظر: طبقات خليفة (١٥٧)، والتاريخ الصغير (١/ ٤٢٣)، وأخبار القضاة (٢/ ٤٢٦)، والمصنف لابن أبي شيبه (١٣/ ٦٧)، ١٥٧٨١، والبداية (٩/ ٢٥٨).

(٧) انظر: التاريخ الكبير (٦/ ٤٥٠)، ورجال صحيح البخاري (٢/ ٥٥٧)، دول الإسلام (٧٣)، وتاريخ الإسلام (ح ١٠٤ هـ / ١٣٢).

قال أحمد: علقمة عم أم إبراهيم، والأسود خال إبراهيم، وعلقمة عم الأسود. وكان إبراهيم يحج مع عمه، وخاله، وعلقمة، والأسود^(٢).
لم يحدث عن أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان قد أدرك منهم جماعة، ورأى عائشة^(٣).

فعن أبي معشر: "أن النخعي حدثهم أنه دخل على عائشة رضي الله عنها فرأى عليها ثوبا أحمر، فقال له أيوب: كيف دخل عليها؟ قال: كان يحج مع عمه، وخاله، فدخل عليها، وهو غلام"^(٤).

قال أبو حاتم: "إبراهيم أدرك أنسا، ولم يسمع منه"^(٥).
وقال الذهبي: ولم نجد له سماعا من الصحابة المتأخرين، الذين كانوا معه بالكوفة، كالبراء، وأبي جحيفة، وعمرو بن حريث، ثم قال: مع عدّهم كلهم لإبراهيم في التابعين، ولكنه ليس من كبارهم، وكان بصيرا بعلم ابن مسعود^(٦)، ولم يلقه، إنما أخذه عن كبار أصحابه^(٧). وعدّه أهل التراجم والسير في الطبقة الثانية الوسطى من طبقات التابعين، مع طبقة الحسن، ومجاهد^(٨).
وقال ابن الجوزي: أدرك إبراهيم أبا سعيد الخدري، وعائشة، وعمامة ما يروي عن التابعين، كعلقمة، ومسروق، والأسود^(٩).

وكان -رحمه الله- أعلم الناس بابن مسعود برأيه^(١٠). وفتياه، وألزم الناس بمذهبه، كما كان من أعلمهم بمذهب أصحابه الملازمين له.

يقول ابن المديني: كان إبراهيم عندي من أعلم الناس بأصحاب عبد الله وأبطنهم به^(١١).
وقد عرف له قدره عند أصحاب عبد الله، وعند تلاميذ المدرسة الكوفية^(١٢).
ومدرسة الكوفة في جملتها تورعت، وعظمت القول في التفسير، فقل نتاجها، ولم أجد مادة من تفسير أصحاب ابن مسعود المعاصرين له، إلا النزر اليسير الذي يصعب الاعتماد عليه، أو استخراج منهج من خلال النظر فيه^(١٣).
إلا إنني وجدت الذين جاءوا بعد أصحاب ابن مسعود، ومن أشهرهم: إبراهيم النخعي، والشعبي، كان لهم بعض الأثر في علم التأويل ولذا أثر اختيارهما لتمثيل هذه المدرسة.

(١) انظر: تاريخ أبي زرعة (٢٩٣ / ١)، (٦٦٧ / ١)، والأنساب (٤٧٣ / ٥) ط الجديدة، واللباب في تهذيب الأنساب (٣٠٤ / ٣)، ولباب الألباب في تحرير الأنساب (٢٩٤ / ٢)، الثقات (٨ / ٤)، والمعرفة (٦٤٤ / ٢) (٢١٦ / ٣)، ووفيات الأعيان (٢٥ / ١).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٢٧١ / ٦)، والتاريخ الكبير (٣٣٤ / ١)، والثقات للعجلي (٩ / ٤)، والكنى لأحمد (١٠٣).

(٣) تاريخ الثقات للعجلي (٥٧)، والعلل لابن المديني (٧٥)، والمراسيل لابن أبي حاتم (٩)، وجامع التحصيل (١٤٢)، ونصب الراية (٣٦٣ / ٤).

(٤) طبقات ابن سعد (٢٧١ / ٦)، والتاريخ الكبير (٣٣٤ / ١)، والثقات (٩ / ٤).

(٥) المراسيل لابن أبي حاتم (٩)، والجرح (١٤٤ / ٢).

(٦) السير (٥٢٠ / ٤).

(٧) الفتح (١٧٥ / ٤).

(٨) عده الذهبي في الطبقة الثانية. ينظر المعين في طبقات المحدثين (٣٧)، والتنكرة (٧٣)، وطبقات الحفاظ (٢٩).

(٩) المنتظم (٢٢ / ٧)، وصفة الصفوة (٨٩ / ٣).

(١٠) نصب الراية (٣٥٨ / ٤)، وقواعد في علوم الحديث للتهانوي (١٣٦).

(١١) العلل لابن المديني (٤٣)، والجرح (١٤٥ / ٢).

(١٢) التعديل والتجريح (٣٥٨ / ١).

(١٣) المروي من تفسير إبراهيم عند ابن جرير بلغ (٦٠٨) أقوال، وعن الشعبي (٤٦١) قولاً، في حين كان المروي عن أصحاب ابن مسعود والملازمين له، لم يبلغ عند أكثرهم (٤٠) قولاً. وسيأتي مزيد بيان لذلك عند الحديث عن مدرسة الكوفة.

وإبراهيم كان أقرب إلى منهج شيخ المدرسة، وأصحابه لقلة أسفاره، ولعنايته وملازمته أصحاب عبد الله، لا سيما علقمة الذي كان أشبه الناس بابن مسعود هديا، وسمتا، ودلا^(١)، والذي انتهى في علمه وفتواه إلى قول عبد الله^(٢).

ومع عدم إدراك إبراهيم والشعبي لعبد الله بن مسعود، إلا إنهما من أعلم أهل الكوفة بمذهبه، كما أشار إلى ذلك ابن المديني^(٣).

زمن أبرز سمات منهجه في التفسير:

أ-جمعه بين الرواية، والدراية:

فمدرسة الكوفة قد غلب عليها الرأي، والقياس، ولم يخرج إبراهيم النخعي عن النهج، فقد كان إلى فقهاء الرأي أقرب، لكنه مع هذا تميز بالجمع بين العلمين، فكان يقول: لا يستقيم رأي إلا برواية، ولا رواية إلا برأي^(٤).

ولما بلغ الشعبي موت إبراهيم، قال عنه: ما خلف بعده مثله، ثم قال: والعجب أنه يفضل ابن جبير على نفسه، وسأخبركم عن ذلك، إنه نشأ في أهل بيت فقه، فأخذ فقههم، ثم جالسنا فأخذ صفوة حديثنا إلى فقه أهل بيته، فمن كان مثله؟^(٥).

ب-تفوقه في الاجتهاد، وقدرته على الاستنباط:

ولعل كثرة اشتغال إبراهيم بالرأي، والقياس، جعلت حظه من الاشتغال بالأثر والنقل قليلا ولذا نجد هذا واضحا في تفسيره إذ كان من أقل التابعين اعتمادا على تفسير القرآن بالسنة، أو بأسباب النزول^(٦).

ت-إعراضه عن الرواية عن أهل الكتاب:

وهذه سمة ظاهرة عند مفسري الكوفة إلا أن إبراهيم تميز بمزيد حذر وبعد، فلا تجد له في تفسيره في هذا شيئا يذكر^(٧).

١٠ - سعيد بن المسيب:

هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي المدني، يكنى أبا محمد، ولد لسنتين خلتا من خلافة عمر -رضي الله عنه-^(٨)، وعداده في الطبقة الأولى من كبار التابعين^(٩).

(١) طبقات ابن سعد (٦/ ٨٦)، والمعرفة (٢/ ٥٥٣، ٥٥٤)، وتاريخ بغداد (١٢/ ٢٩٧).

(٢) المعرفة (٢/ ٥٥٧).

(٣) العلل لابن المديني (٥٢)، والسنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٢٥٥).

(٤) انظر: الحلية (٤/ ٢٢٥)، وصفة الصفوة (٣/ ٨٨).

(٥) العلم لأبي خيثمة (١١٦)، وتاريخ ابن معين (٢/ ٤١٣)، والحلية (٤/ ٢٢١)، وتاريخ دمشق (١١/ ٧٧١).

(٦) بعد مراجعة لتفسيره عند الطبري، نجد من أقل التابعين اعتمادا على هذين المصدرين، فقد كان المروي عنه في ذلك أقل من (٠، ٠١) من مجموع تفسيره، وقريبا من هذا كانت حاله في الاعتماد على أسباب النزول حيث بلغت نسبة المروي عنه (٠، ٠١) من مجموع تفسيره، مسجلا بذلك أقل نسبة بين التابعين.

(٧) ورد عنه رواية واحدة عند الطبري عند قوله تعالى: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ} القصص: آية (٧٩)، قال: "في ثياب حمر". [تفسير الطبري: ٢٠/ ١١٥].

(٨) انظر: طبقات خليفة (٢٤٤)، والأنساب (٨/ ٣٣١)، واللباب في تهذيب الأنساب (٢/ ٣٠٧)، والتحفة اللطيفة

(٢/ ١٥٨)، والعلل لأحمد (١/ ١٥٠)، ٤٨، ورجال صحيح البخاري (١/ ٢٩٢)، والجمع بين رجال الصحيحين (١/ ١٦٩)، والتبيين في أنساب القرشيين (٣٩٦)، وطبقات علماء الحديث (١/ ١١٢)، طبقات ابن سعد (٥/ ١١٩)،

والمعين في طبقات المحدثين (٣٣)، والنجوم الزاهرة (١/ ٢٢٨).

(٩) تهذيب الكمال (١١/ ٦٧)، وتهذيب التهذيب (٤/ ٨٤).

روى عن أبي بكر مرسلًا، وعن عمر، وعثمان، وعلي، وسعد بن أبي وقاص، وحكيم بن حزام، وابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص، وأبي ذر، وأبي الدرداء، وزيد بن ثابت، وأبي موسى، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وعائشة، وأسماء بنت عميس وغيرهم (١).

وعن الزهري قال: أخذ سعيد علمه عن زيد بن ثابت، وجالس سعد بن أبي وقاص، وابن عباس، وابن عمر، ودخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم: عائشة، وأم سلمة، وكان قد سمع من عثمان، وعلي، وصهيب (٢)، وجل روايته المسندة عن أبي هريرة (٣)، وكان زوج ابنته (٤). وكان سعيد يختلف ويتردد على أبي هريرة بالشجرة، وكان أعلمهم بحديثه، وأثبتهم فيه (٥). وكان يقال له: راوية عمر لأنه كان أحفظ الناس لأحكامه وأقضيته (٦)، وكان ابن عمر يرسل إليه في أحاديث عمر لأن سعيدًا قد نصب نفسه لقول عمر فلم يجزه (٧).

وسئل الإمام مالك عن سعيد بن المسيب: هل أدرك عمر؟ قال: لا، ولكنه ولد في زمان عمر، فلما كبر أكتب على المسألة عن شأنه، وأمره، حتى كأنه رآه (٨).

وعن إبراهيم بن سعد عن أبيه، عن سعيد بن المسيب قال: "ما بقي أحد أعلم بكل قضاء قضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل قضاء قضاه أبو بكر رضي الله عنه وكل قضاء قضاه عمر رضي الله عنه وكل قضاء قضاه عثمان رضي الله عنه مني" (٩).

وقد قرأ القرآن الكريم على ابن عباس، وأبي هريرة (١٠).

فبالرغم من سبق هذا الإمام في علم الفقه، والأثر إلا أنه أحجم عن الخوض في هذا الباب، وتورع فيه غاية التورع، فعن يزيد بن أبي يزيد قال: "كنا نسأل سعيدًا عن الحلال، والحرام، وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن، سكت كأن لم يسمع" (١١).

بل كان يصرح بذلك فعن يحيى بن سعيد القطان، عن سعيد بن المسيب: "أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن، قال: أنا لا أقول في القرآن شيئًا" (١٢).

قال الإمام الذهبي: "ولهذا قلّ ما نقل عنه في التفسير" (١٣).

وكان رحمه الله لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن (١٤)، وكان ينكر على المكثرين في التفسير لما قدم عكرمة المدينة، ورأى سعيد توسعه، أنكر عليه يقول عمرو بن مرة: سأل رجل سعيد بن

- (١) .
(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٥ / ١٢١)، ووفيات الأعيان (٢ / ٣٧٥)، ومراة الجنان (١ / ١٢٤)، والتعديل (٣ / ١٠٨٢)، والتذكرة (١ / ٥٥)، والشذرات (١ / ١٠٣).
- (٣) .
(٤) انظر: المعارف (١٩٣)، ورجال صحيح مسلم (١ / ٢٣٧)، وتهذيب الأسماء (١ / ٢٢٠)، والجمع بين رجال الصحيحين (١ / ١٦٨).
- (٥) انظر: رجال صحيح مسلم (١ / ٢٣٧)، وتهذيب الأسماء (١ / ٢٢٠)، وإعلام الموقعين (١ / ١٧) ومراة الجنان (١ / ٢١٥)، وتهذيب الكمال (١١ / ٧٤)، والبداية (٩ / ١١١)، وطبقات الحفاظ (١٨).
- (٦) طبقات ابن سعد (٥ / ١٢١)، والمعرفة (١ / ٤٧١)، وتهذيب الكمال (١١ / ٧٤)، والتهذيب (٤ / ٨٦).
- (٧) تاريخ أبي زرعة (١ / ٤٠٤)، وتهذيب الكمال (١١ / ٧٤)، والبداية (٩ / ١١).
- (٨) المعرفة (١ / ٤٦٨)، وتاريخ أبي زرعة (١ / ٤٠٤)، والتهذيب (٤ / ٨٦).
- (٩) طبقات ابن سعد (٥ / ١٢٠)، والمعرفة (١ / ٤٦٨)، والتاريخ الكبير (٣ / ٥١١)، والمنظم (٦ / ٣٢٠)، والشذرات (١ / ١٠٢).
- (١٠) أسد الغاية (١ / ٣٠٨).
- (١١) تفسير الطبري (١ / ٨٦)، ١٠٠، ومجموع الفتاوى (١٣ / ٣٧٣)، وتفسير ابن كثير (١ / ١٧).
- (١٢) تفسير الطبري (١ / ٨٥)، ٩٤، وطبقات ابن سعد (٥ / ١٣٧)، وفضائل القرآن لأبي عبيد (٢٢٨)، ومجموع الفتاوى (١٣ / ٣٧٣)، وتفسير ابن كثير (١ / ١٧).
- (١٣) السير (٤ / ٢٤٢).
- (١٤) تفسير الطبري (١ / ٨٦)، ٩٥، وتفسير ابن كثير (١ / ١٧).

المسيب عن آية من القرآن، فقال: لا تسألني عن القرآن، وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه يعني
عكرمة^(١)

وكان رحمه الله ورعا، حتى عند إفتائه لسائله فلا يكاد يفتي فتيا، ولا يقول شيئا إلا قال:
اللهم سلمني وسلم مني^(٢).

من ابرز سمات منهجه:

أ- عنايته بتأويل آيات الأحكام خاصة:

حيث بلغ ذلك أكثر من ثلث تفسيره^(٣)، وهو يدور بوجه أخص حول أحكام النساء، ومسائل
الطلاق^(٤).

وهذا بسبب اشتغاله بالفقه، والإفتاء، بذل رحمه الله في هذا الباب من العلم جلّ جهده،
وصرف فيه كثيرا من طاقته، حتى عدّ بين التابعين فقيه الفقهاء، وكان رأس من بالمدينة في دهره،
والمقدم عليهم في الفتوى^(٥).

قال عنه مكحول: "سعيد عالم العلماء"^(٦)، وكان يقول: "طفت الأرض كلها، فما رأيت أعلم
من سعيد"^(٧).

وعن عمرو بن ميمون بن مهران، عن أبيه قال: "قدمت المدينة فسألت عن أعلم أهل
المدينة، فدفعت إلى سعيد بن المسيب"^(٨).

وقال قتادة: "ما رأيت أحدا أعلم بالحلال والحرام من سعيد"^(٩).

وعن سليمان بن موسى قال: "سعيد بن المسيب أفتى التابعين"^(١٠).

ويقول علي بن زيد: "كنت إذا خرجت إلى مكة قال لي الحسن: سل لي سعيدا عن كذا،
وسل لي سعيدا عن كذا، يعني ابن المسيب"^(١١).

وقد امتنع سعيد عن بيعة سليمان بن عبد الملك مع بيعة الوليد، وكره أن يبايع بيعتين، فأمر
به عبد الملك، وجلد مائة سوط، وحلق رأسه ولحيته، وألبسه ثيابا من شعر^(١٢)، ومنع الناس من

(١) تفسير الطبري (١٦ / ١) ١٠١، وفضائل القرآن لأبي عبيد (٢٢٨)، وتفسير ابن كثير (١٧ / ١)، وجامع بيان العلم
وفضله (٢٩ / ٢)، وتاريخ دمشق (٧٨٤ / ١١).

(٢) التاريخ الكبير (٣ / ٥١١)، وتهذيب الأسماء (١ / ٢٢٠)، وتهذيب الكمال (١١ / ٧٢).

(٣) جاء في المرتبة الثانية بعد النخعي حيث بلغ نسبة ما روى عنه (٣٤، ٠) من مجموع تفسيره، في حين كان عن
إبراهيم (٣٨، ٠) من مجموع تفسيره، وغيرهم من التابعين أقل منهم في ذلك.

(٤) حيث بلغ (٧٠، ٠) من مجموع تفسيره لآيات الأحكام، حول مسائل النكاح.

(٥) انظر: طبقات ابن سعد (٥ / ١٢١)، وتهذيب الأسماء (١ / ٢٢٠)، والمنتظم (٦ / ٣٢١)، والتبيين في أنساب
القرشيين (٣٩٦)، والبداية (٩ / ١١١)، وطبقات الحفاظ (١٨)، والنجوم (١ / ٢٢٨).

(٦) طبقات ابن سعد (٥ / ١٢١)، والمنتظم (٦ / ٣٢١)، والتبيين في أنساب القرشيين (٣٩٦)، والنجوم الزاهرة (١ /
٢٢٨).

(٧) العلل لأحمد (٣ / ٣٢٠) ٥٤٢٤، والتاريخ الكبير (٣ / ٥١١)، والجرح (٤ / ٦٠)، والعبر (١ / ٨٢)، والتحفة
اللطيفة (٢ / ١٥٩).

(٨) طبقات ابن سعد (٥ / ١٢٢)، وتاريخ أبي زرعة (١ / ٤٠٣)، والتعديل والتجريح (٣ / ١٠٨٢)، وتهذيب الكمال
(١١ / ٧٠).

(٩) الجرح (٤ / ٦٠)، وتهذيب الأسماء (١ / ٢٢٠)، والعبر (١ / ٨٢)، وطبقات الحفاظ (١٨).

(١٠) تاريخ أبي زرعة (٢ / ٧١٢)، وتهذيب الأسماء (١ / ٢٢٠)، وتهذيب (٤ / ٨٥).

(١١) العلل لأحمد (٣ / ٣٢١) ٥٤٢٩.

(١٢) المنتظم (٦ / ٣٢٢).

مجالسته. فعن أبي يونس القزبي، قال: دخلت مسجد المدينة، فإذا سعيد جالس وحده، فقلت: ما شأنه؟ قال: نهي أن يجالسه أحد (١).

هذه الأسباب مجتمعة كانت وراء قلة المروي عنه في التفسير وغيره.
ب- غلبة الجانب الأثري: والحديثي على منهجه:

وذلك بعد ملازمته الطويلة لأبي هريرة، ثم تقدمه في معرفة قضاء النبي صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، بل وكثرة رحلاته في سماع الحديث (٢) كان لذلك كله الأثر في اتفاق كلمة الأئمة على أنه من أفضل التابعين على الإطلاق (٣).
واختلفوا في وفاته على أقوال من أقواها أنه توفي سنة أربع وتسعين (٤) وقال بعضهم: سنة ثلاث وتسعين (٥)، عن تسعة وسبعين عاما (٦).

١١ - محمد بن كعب القرظي:

محمد بن كعب بن حبان بن سليم بن أسد القرظي، يكنى أبا حمزة، منسوب إلى بني قريظة الطائفة المعروفة من اليهود، كان أبوه من سبي قريظة، وكان لم يثبت يوم قريظة فترك (٧).
عداده في الطبقة الثالثة من التابعين (٨)، سمع زيد بن أرقم، وابن عباس (٩)، ورأى ابن عمر (١٠). وروايته عن علي، وابن مسعود مرسله (١١).

نشأ بالكوفة، ثم تحول به أبوه إلى المدينة، فهو في عداد تابعي أهل المدينة (١٢).
والقرظي مع أنه كوفي المولد والمنشأ (١٣)، ومدني المستقر، ومنهج هاتين المدرستين مشهور بقلة التعرض لتأويل القرآن، فقد فاق أصحابه من المدنيين، وتوسع قليلا في باب التفسير،

-
- (١) الحلية (١٧٢ / ٢)، وطبقات ابن سعد (١٢٨ / ٥)، والمعرفة (٤٧٨ / ١)، والتحفة اللطيفة (١٥٩ / ٢).
(٢) تهذيب الأسماء (٢٢٠ / ١)، والتعديل والتجريح (١٠٨٣ / ٣)، والبداية (١١١ / ٩)، ومروءة الجنان (٢١٥ / ١).
(٣) البداية (١١١ / ٩).
(٤) تاريخ خليفة (٣٠٦)، والعلل لأحمد (٤٧٢ / ٣)، ومصنف ابن أبي شيبة (٦٦ / ١٣) (١٥٧٨١)، ودول الإسلام (٦٥)، والتذكرة (٥٦ / ١)، وطبقات علماء الحديث (١١٣ / ١)، والكامل (٥٨٢ / ٤)، وغاية النهاية (١ / ٣٠٨)، والشذرات (١٠٢ / ١).
(٥) انظر: التاريخ الصغير (٢٠٩ / ١)، والجمع بين رجال الصحيحين (١٦٩ / ١)، والتعديل والتجريح (١٠٨٢ / ٣)، ومشاهير علماء الأمصار (٦٣)، وتهذيب الأسماء (٢٢٠ / ١).
(٦) انظر: الكاشف (٣٧٣ / ١)، وغاية النهاية (٣٠٨ / ١)، وتاريخ الخميس (٣١٣ / ٢).
(٧) انظر: طبقات ابن سعد، الجزء المتمم لطبقات أهل المدينة (١٣٤)، وتهذيب الأسماء (٩٠ / ١)، والأنساب (١٠ / ١٠٢)، والتاريخ الكبير (٢١٦ / ١)، واللباب (٢٦ / ٣)، وطبقات خليفة (٢٦٤)، والكنى للدولابي (١٥٦ / ١)، والكنى لمسلم (ق ٢٧)، والجمع بين رجال الصحيحين (٤٤٨ / ٢)، ورجال صحيح مسلم (٢٠٤ / ٢)، وتهذيب (٤٢٠ / ٩).
(٨) طبقات ابن سعد الجزء المتمم لطبقات أهل المدينة (١٣٤)، وعده الذهبي في كتابه المعين في الطبقة الثانية مع الحسن ومجاهد (٤٢).
(٩) التاريخ الكبير (٢١٦ / ١)، والكنى لمسلم (ق ٧)، والجمع بين رجال الصحيحين (٤٤٨ / ٢).
(١٠) تهذيب الأسماء واللغات (٩٠ / ١)، ورجال صحيح البخاري (٦٧٥ / ٢)، وتهذيب (٤٢١ / ٩).
(١١) العلل لأحمد (٥٢٧ / ١)، وتهذيب (٤٢٢ / ٩)، والتحفة اللطيفة (٧٢٠ / ٣).
(١٢) انظر: الجرح (٦٧ / ٨)، والسير (٦٥ / ٥)، والتحفة اللطيفة (٧١٩ / ٣)، وتهذيب الكمال (٣٤٠ / ٢٦)، والتحفة اللطيفة (٧٢٠ / ٣)، ومشاهير علماء الأمصار (٦٥).
(١٣) العبر (١٠٢ / ١)، والشذرات (١٣٦ / ١).

فكان من أكثرهم علما فيه^(١)، يقول سفيان بن عيينة: لم يكن بالمدينة أحد يفسر القرآن بعد محمد بن كعب مثله يعني: زيد بن أسلم^(٢).

ويقول عون بن عبد الله: ما رأيت أحدا أعلم بتأويل القرآن من القرظي^(٣).

وقد أثنى عليه غير واحد ممن ترجم له، فقال العجلي: مدني تابعي عالم بالقرآن^(٤).

وقال ابن حبان: من عباد المدينة، وعلماهم بالقرآن^(٥).

وقال الذهبي: هو من أئمة التفسير^(٦).

وقال ابن كثير: كان عالما بتفسير القرآن^(٧).

ومما أعانه وساعده على التقدم في هذا، كثرة تأمله وتدبره للقرآن، فكان لا يشبع من النظر والتفكر فيه، ينقضي الليل عليه، وهو لم يفرغ من حاجته منه، يقول عن نفسه: وعجائب القرآن تورده علي أموراً حتى إنه لينقضي الليل ولم أفرغ من حاجتي منه^(٨).

ويقول أيضاً: "لأن أقرأ في ليلتي حتى أصبح إذا زلزلت والقارعة ولا أزيد عليهما، وأتردد فيهما وأفكر، أحب إليّ من أن أهدّ القرآن ليلتي هذه هذا، أو قال: أنثره نثراً"^(٩).

وقد فسر بعض الأئمة ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «سيخرج من الكاهنين رجل يدرس القرآن دراسة لا يدرسه أحد بعده»^(١٠).

فقال ربيعة: "كنا نقول: هو محمد بن كعب القرظي، والكاهنان قريظة، والنضير"^(١١).

أبرز سمات تفسيره:

-إبرازه للجانب الوعظي والتذكيري للآيات:

فقد كان محبا للوعظ والقص، وكان يؤثر ويكي بقصه وتذكيره^(١).

(١) بمقارنة المروي عنه مع غيره من أصحابه، نجد أن المروي عن سعيد بن المسيب على قلته، كان جله في تأويل آيات الأحكام، في حين كان تعرض محمد بن كعب للتفسير أكثر.

(٢) فتح الباري (١٣ / ١١١).

(٣) تاريخ أبي زرعة (١ / ٢٤٥)، والمعرفة (١ / ٥٦٤)، والسير (٥ / ٦٨)، وتاريخ الإسلام (ح ١٠٨ هـ / ٢٥٢)، والغاية (١ / ٢٣٣).

(٤) تاريخ الثقات (٤١١).

(٥) مشاهير علماء الأمصار (٦٥).

(٦) السير (٥ / ٦٧).

(٧) البداية (٩ / ٢٨٩).

(٨) الحلية (٣ / ٢١٤)، والمنظّم (٧ / ١٢٤)، والبداية (٩ / ٢٩٠)، والسير (٥ / ٦٦)، وتهذيب الكمال (٢٦ / ٣٤٦).

(٩) الزهد لابن المبارك (٩٧ / ٢٨٧)، ومختصر قيام الليل للمروزي (٦٠)، والحلية (٣ / ٢١٤)، والغاية (١ / ٢٢٣)، والبداية (٩ / ٢٨٩).

(١٠) الحديث أخرجه ابن سعد في طبقاته (٧ / ٥٠٠)، وطبقات ابن سعد الجزء المتمم لطبقات أهل المدينة (١٣٤)، ورواه أحمد في مسنده (٦ / ١١)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٢ / ١٩٧) (١٨ / ٥١٨)، (٢٢ / ٣١٤) (٧٩٤)، والفسوي في المعرفة (١ / ٥٦٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦ / ٤٩٨)، وابن حجر في تعجيل المنفعة (١٥٨)، وعزاه إلى ابن منده، والطبراني، وأورد هذه الرواية الهندي في الكنز، وعزاها إلى ابن سعد، وابن منده، والطبراني، وابن عساکر، عن عبد الله بن مغيث، ينظر كنز العمال (١١ / ٣٧٨) (٣١٨٠٩).

(١١) دلائل النبوة للبيهقي (٦ / ٤٩٩)، تهذيب الكمال (٢٦ / ٣٤٥)، وغاية النهاية (١ / ٢٣٣)، قال الهيثمي في المجمع: عبد الله بن مغيث ذكره ابن أبي حاتم، وبقية رجاله ثقات (٧٠ / ١٦٧).

قلت: عبد الله بن مغيث ذكره البخاري، وابن أبي حاتم وسكتنا عنه، وذكره ابن حبان في الثقات، ينظر التاريخ الكبير (٥ / ٢٠١)، والجرح (٥ / ١٧٤)، والثقات (٧ / ٤٣).

وروى الحديث كما عند البيهقي من طريق ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ مقارب. وعن موسى بن عقبة قال: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الحديث بنحوه. وكلا الطريقتين فيهما علة الإرسال، كما ذكره البيهقي في الدلائل (٦ / ٤٩٨) (٤٩٩).

ب-العناية، والاعتماد على أسباب النزول في تفسيره؛
حتى صار من أكثرهم إيراداً، واستشهاداً بالأسباب، ومع هذا التقدم، فلم يكن يحصر المعنى
في السبب، بل يذكر السبب ويبين أن الأصل عموم المعنى لا خصوص السبب^(٢).
ذهب كثير من الأئمة والمؤرخين إلى أنه توفي سنة ثمان ومائة^(٣)، وذهب البعض أنه مات
سنة سبع عشرة ومائة^(٤).

(١) انظر: طبقات ابن سعد الجزء المتمم لطبقات أهل المدينة (١٣٦).
(٢) بعد مراجعة تفسير الطبري، نجد المروي عن محمد بن كعب (١٥٣) قولاً، بلغ نسبة ما جاء عنه في أسباب
النزول (١٧، ٠) من مجموع تفسيره، فكان من أكثر التابعين في هذا الباب.
(٣) تاريخ ابن معين (٢ / ٥٣٦)، وتاريخ أبي زرعة (١ / ٢٤٥)، والمعارف (٢٠٢)، والتاريخ الكبير (١ / ٢١٦)،
والتاريخ الصغير (١ / ٢٤٣)، وتهذيب الأسماء (١ / ٩٠)، والمنتظم (٧ / ١٢٤)، والكامل (٥ / ١٤١)، والعبر (١ /
١٠٢)، ودول الإسلام (٧٦)، والأنساب (١٠ / ١٠٢).
(٤) تاريخ خليفة (٣٤٨)، وطبقات ابن سعد، الجزء المتمم لطبقات أهل المدينة (١٣٧)، ورجال صحيح مسلم (٢ /
٢٠٤)، والجمع بين رجال الصحيحين (٢ / ٤٤٨)، والتعديل والتجريح (٢ / ٦٣٦).

ثانياً:- مدارس التفسير في عصر التابعين، وخصائصها

لقد أرسل الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، وأنزل كتابه الذي هدى به من اتبع رضوانه سبيل السلام، وأخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، وهداهم إلى صراط مستقيم، وسعد المسلمون بهذا الكتاب، وأيقنوا بصدق أنه {يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: ٩]، وأنه حبله المتين، وكتابه المبين، لا يشبع منه العلماء، ولا تنقضي عجائبه، فأخذوا في تدبره وتعلمه، والوقوف على ما فيه من مواضع، وعبر، ثم أخذوا في دعوة الناس إليه، وتعليمهم إياه ولا سيما بعد أن تنابعت الفتوحات الإسلامية، واتسعت، ودخل الناس في دين الله أفواجا، فانتشر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الناس يعلمونهم دينهم، وكتاب ربهم، ومما لا شك فيه أن هؤلاء الصحب الكرام رضوان الله عليهم لم يكونوا في درجة علمية واحدة بالنسبة لفهم معاني القرآن، بل كانت مراتبهم متفاوتة، ومن ثم تفاوتت طرائقهم المنهجية التي ساروا عليها في تعليم الناس.

يقول مسروق: "لقد جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالإخاذا، فالإخاذا يروي الرجل، والإخاذا يروي الرجلين، والإخاذا يروي العشرة، والإخاذا يروي المائة، والإخاذا لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم"^(١).

وكان من أولئك الذين لو نزل بهم أهل الأرض لأصدرهم ثلثة من الصحابة رضوان الله عليهم، ومن أشهرهم كما يقول عامر الشعبي: كان علماء هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم ستة: عمر، وعبد الله، وزيد بن ثابت، فإذا قال عمر قولاً، وقال هذان قولاً، كان قولهما لقوله تبعاً، وعلي، وأبي بن كعب، وأبو موسى الأشعري، فإذا قال علي قولاً، وقال هذان قولاً، كان قولهما لقوله تبعاً"^(٢).

وقد قيض لبعض هؤلاء الأئمة من الأصحاب تلاميذاً، اختصوا به ولازموه وأخذوا بقوله، ونشروا علمه، وتيسر له من هذا، ما لم يتيسر لآخرين، ومن هنا نجد بدايات الظهور لتلك المدارس، التي كان الصحابة أساتذتها، والتابعون روادها، فنهلوا من معين علمهم الصافي، ثم فاضوا بالخير العميم على الناس من بعدهم.

فكانوا كالنهر لما اشتد واديه ... فاضت جوانبه تسقي رواييه

يقول علي بن المديني: لم يكن من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من له أصحاب يذهبون مذهبه، ويفتون فتواه، ويسلكون طريقته، إلا ثلاثة: عبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وابن عباس"^(٣).

وقد ورث التابعون علمهم، وطرائقهم في البحث، والاستنباط، وكانوا طرائق قديداً، فمنهم من توسع في التفسير تبعاً لتوسع شيخه، ومنهم من كان يحمله التورع، والاحتياط على الإقلال خوفاً من عدم الإصابة اقتداءً بنهج كثير من الصحابة الذين نقل العلم عنهم"^(٤).

وفيما يأتي نلخص القول في المنهج العام لكل مدرسة:

١- المدرسة المكية

لقد احتلت هذه المدرسة المكانة في قلوب المؤمنين، الساكنين، والثائبين إلى بلد الله الحرام، الحجاج، والعمار، والزوار، بل أخذت مكة بالباب كل مؤمن رآها، أو تمنى أن يراها.

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٤٣)، والمعرفة (٢/ ٥٤٢).

(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٥١)، ومثل ذلك ما رواه مسروق، ينظر العلل لأحمد (٢/ ١٦٢) ١٨٧٣، وطبقات الفقهاء للشيرازي (٤٥).

(٣) العلل (٤٣)، ومقدمة ابن الصلاح (٤٣١).

(٤) انظر: تفسير التابعين عرض ودراسة ومقارنة: ٣٦٧/١-٣٦٨.

ولقد كان العلم بمكة يسيرا زمن الصحابة، ثم كثر في أواخر عصرهم وكذلك في أيام التابعين، وزمن أصحابهم، كابن أبي نجیح، وابن جریج^(١).

إلا أن مكة اختصت زمن التابعين بحبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما الذي صرف جل همه، وغاية وسعه إلى علم التفسير، وربى أصحابه على ذلك، فنبغ منهم أئمة كان لهم قصب السبق بين تلاميذ المدارس في علم التفسير.

وقد تأثر بالمدرسة أيضا رجال وأئمة لم يكونوا بمكة، لكن كانوا كثيرون التردد والمثابة لها: كأبي العالية، وطاوس بن كيسان، وغيرهم، فنشاط المدرسة المكية كان أوسع من أن يقتصر على بقعة واحدة.

وبعد أن رحل ابن عباس عن مكة، لم يختف نوره فيها، وإنما قلّ نتاج تلاميذه، وزادت هيبته من التفسير ورحل بعضهم للأفاق، حتى جاء عصر أتباع التابعين، فدفعوا العجلة، وأكثروا من الرواية عن شيوخهم وظل العطاء يتواصل حتى الطبقة التي تليهم، وفيما يلي بيان لأهم الأسباب التي أدت إلى تفوق المدرسة، أهم هذه الأسباب والأساس فيها إمامة ابن عباس رضي الله عنهما وأستاذيته لها، ولذا فسوف أعرض لترجمته بشيء من التفصيل، ثم أبين بعض معالم منهجه التي كان لها الأثر في نفوس أصحابه وتلاميذه:

اسمه ونسبه:
هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أبو العباس الهاشمي، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمه لبابة بنت الحارث بن حزن الهلالية^(٢).
مولده:

ولد والنبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته بالشعب من مكة، فأتي به النبي صلى الله عليه وسلم فحنكه بريقه، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين^(٣)، فيكون له عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة^(٤).

وعن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، قال: توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قرأت المحكم من القرآن (أي: المفصل)^(٥).

وصحب النبي صلى الله عليه وسلم نحو من ثلاثين شهرا^(٦) وأحصي ما قال فيه ابن عباس رضي الله عنهما: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، ورأيت النبي صلى الله عليه وسلم، وبت عند النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا هو ثمانون أو نيف وسبعون^(٧).

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ألف حديث وستين حديثا^(٨)، صرح في عشرة منها بالتحديث^(٩).

يعد ابن عباس رضي الله عنهما في طبقة صغار الصحابة، ومع هذا فقد سبق غيره من الصحابة رضوان الله عليهم في علم التفسير حتى صار من أعلمهم فيه^(١).

(١) الإعلان والتوبيخ لمن ذم التاريخ (٢٩٢).
(٢) انظر: تسمية أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (٩٧)، وأسد الغابة (٣/ ٢٩٠)، والإصابة (٢/ ٣٣٠).
(٣) انظر: أسد الغابة (٣/ ٢٩٠)، والإصابة (٢/ ٣٣٠).
(٤) فتح الباري (١١/ ٩٠).
(٥) المعجم الكبير للطبراني (١٠/ ٢٨٩) ١٠٥٧٧، ومنحة المعبود (٢/ ١٤٨).
(٦) السير (٣/ ٣٣٢).
(٧) العلل لأحمد (١٠٧/ ٢) ١٧١٧.
(٨) تجريد أسماء الصحابة (١/ ٣٢٠)، والفصل في الملل (٤/ ١٥٢)، وتدريب الراوي (٢/ ٢١٧)، ومقدمة مسند بقى بن مخلد (٨٠).
(٩) التحفة اللطيفة (٢/ ٣٣٨).

يقول ابن أبي نجيح: كان أصحاب ابن عباس يقولون: ابن عباس أعلم من عمر، ومن علي، ومن عبد الله، ويعدون ناساً، فيثب عليهم الناس، فيقولون: لا تعجلوا علينا، إنه لم يكن أحد من هؤلاء إلا وعنده من العلم ما ليس عند صاحبه، وكان ابن عباس قد جمعه كله^(٢).

وكان ابن مسعود يقول: لو بلغ ابن عباس أسناننا ما عاشره منا رجل، نعم ترجمان القرآن ابن عباس^(٣).

وأثنى عليه ابن عمر رضي الله عنهما بقوله: هو أعلم أمة محمد صلى الله عليه وسلم بما أنزل على محمد^(٤).

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: ابن عباس أعلمنا بما مضى وأفقهنا فيما نزل مما لم يأت فيه شيء^(٥)، بل كان عمر رضي الله عنه يأمر الناس بأخذ القرآن عنه، وسؤاله، فيقول: من كان سائلاً عن شيء من القرآن، فليسأل عبد الله بن عباس^(٦).

وكان بعض التابعين يترك الأكابر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ويجلس للأخذ عن ابن عباس.

فعن ليث بن أبي سليم قال: "قيل لطاوس: أدركت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وانقطعت إلى هذا الغلام من بينهم؟! قال: أدركت سبعين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فكلهم إذا اختلفوا في شيء، انتهوا فيه إلى قول ابن عباس"^(٧).

ويقول ابن أبي مليكة: "وقد أدرك ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: كان ابن عباس إذا أخذ في الحلال والحرام، أخذ الناس معه، وإذا أخذ في القرآن، لم يتعلق الناس معه بشيء"^(٨).

ولا شك أن ثمة أسباباً أهلت ابن عباس رضي الله عنهما وقدمته على غيره من الصحابة في فهم كتاب الله، والقدرة على تأويله، وهي على الإجمال:

١ - دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له بالفقه في الدين والعلم بالتأويل:
رأى النبي صلى الله عليه وسلم فيه النجابة، والفتنة، والذكاء، فدعا له، ومن ذا الذي يدعو له النبي صلى الله عليه وسلم بدعوة فلا تصيبه؟ وابن عباس من هؤلاء الذين أصابتهم دعوته صلى الله عليه وسلم حينما دعا له بقوله صلى الله عليه وسلم: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»^(٩).

-
- (١) الفتح (٧/ ١٠٠).
(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٥)، وشذرات الذهب (١/ ٧٦).
(٣) العلم لأبي خيثمة (١٢٠)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٦)، والمعرفة (١/ ٤٩٤)، ودلائل النبوة للبيهقي (٦/ ١٩٣)، قال الحربي في غريب الحديث: ما عاشره منا أحد: أي لو كان في السن مثلنا ما بلغ أحد منا عشره في العلم. اهـ. (١/ ١٥٦).
(٤) تاريخ أبي زرعة (١/ ٦١٦)، والإصابة (٢/ ٣٣٢).
(٥) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٧١).
(٦) فضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٩٦٧) ١٨٩٣.
(٧) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٦٦)، والإصابة (٢/ ٣٣٣)، وأسد الغابة (٣/ ٢٩٢)، والمحدث الفاصل (٢٣٩)، والمطالب العالية (٤/ ١١٥).
(٨) فضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٩٦٧) ١٩٠٠، والاستيعاب (٢/ ٣٥٧).
(٩) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥)، وفي فضائل الصحابة (٢/ ٩٥٥) ١٨٥٦، وابن حبان في صحيحه، ينظر الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٥/ ٥٣١) ٧٠٥٥، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ١٩٣)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٢٠) ١٠٦١٤، والأوسط (٢/ ٢٤٩) ١٤٤٤، وأورده الهيثمي في مجمع البحرين في زوائد المعجمين، من رواية الطبراني في الكبير، وصححها (٦/ ٣٩٤).
والحديث أخرجه البزار في مسنده بلفظ: «اللهم علمه تأويل القرآن»، ينظر كشف الأستار (٣/ ٢٤٧) ٢٦٧٤، والحاكم في مستدركه، وصححه، ووافقه الذهبي (٣/ ٥٣٧).

٢ - قرب منزلته من عمر رضي الله عنه:

ولعل السبب الثاني الذي أعان ابن عباس رضي الله عنهما وحثه، وشجعه على التقدم في التفسير، هو تلك العلاقة، والعناية الخاصة التي حظي بها ابن عباس من عمر رضي الله عن الجميع فقد لمس عمر رضي الله عنه فيه مخايل النجابة، والذكاء، والفتنة، فكان يدينه من مجلسه، ويقربه إليه، ويشاوره، ويأخذ برأيه فيما أشكل من الآيات، وابن عباس ما زال شابا غلاما، فكان لذلك الأثر البالغ في دفعه وحثه على التحصيل والتقدم، بل والإكثار في باب التفسير وغيره من أبواب العلم. فعن عامر الشعبي عن ابن عباس قال: "قال لي أبي: يا بني، أرى أمير المؤمنين يقربك، ويخلو بك، ويستشيرك مع ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحفظ عني ثلاثا: اتق الله لا تفشين له سرا، ولا يجربن عليك كذبة، ولا تغتابن عنده أحدا"^(١). وكان عمر رضي الله عنه يدخله مع أكابر الصحابة، وما ذلك إلا لأنه وجد فيه قوة الفهم، وجودة الفكر، ودقة الاستنباط.

قال: "كان عمر يسألني مع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فكان يقول لي: لا تكلم حتى يتكلموا، فإذا تكلمت قال: غلبتموني أن تأتوا بما جاء به هذا الغلام الذي لم تجتمع شئون رأسه"^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم^(٣): لم يدخل هذا الفتى معنا، ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه من قد علمتم، فدعاهم ذات يوم، ودعاني معهم، قال: وما أريته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني^(٤)، فقال: ما تقولون في: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا} {الفتح: ١-٢}، حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله، ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئا، فقال لي: يا ابن عباس، أكذاك تقول؟ قلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله له، {«إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ»} فتح مكة، فذاك علامة أجلك، {«فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا»}، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم^(٥).

-
- وجاء الحديث عند أبي نعيم، وأحمد بلفظ: «اللهم أعط ابن عباس الحكمة وعلمه التأويل» ينظر الحلبة (١/ ٣١٦)، والمسند (١/ ٢٦٩)، وفضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٩٦٤) ١٨٨٣.
- ورواه ابن ماجه بلفظ: «اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب» (١/ ٥٨) ١٦٦، وصحح الألباني هذه الرواية في صحيح ابن ماجه (١/ ٣٣) ١٣٧.
- وجاء في صحيح البخاري في عدة مواضع بلفظ: «اللهم علمه الكتاب»، ينظر كتاب العلم من الصحيح، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم علمه الكتاب»، ينظر الفتح (١/ ١٦٩) ٧٥، وكتاب فضائل الصحابة، باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما ينظر الفتح (٧/ ١٠٠) ٣٧٥٦، وفي أول كتاب الاعتصام من الصحيح، ينظر الفتح (١٣/ ٢٤٥) ٧٢٧.
- (١) الحلبة (١/ ٣١٨)، والمعرفة (١/ ٥٣٣)، والمعجم الكبير (١٠/ ٣٢٢) ١٠٦١٩، والمنتقى من كتاب مكارم الأخلاق (١٤٨) ٣٢٥.
- (٢) فضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٩٧٠) ١٩٠٤، المعرفة (١/ ٥١٩)، والمستدرک (٣/ ٥٣٩)، وصحح إسناده الحاكم، ووافقه الذهبي، وكتاب الفقيه والمتفقه (٢/ ١٣٣).
- (لم تجتمع شئون رأسه): قال الحرابي: الشئون واحد شأن مجتمع قبائل الرأس، فكان عمر قال إنه صغير لم يتلاقيا، غريب الحديث (٢/ ٨٧٦)، وتهذيب اللغة (١١/ ٤١٦).
- (٣) الفائل هو: عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه كما صرح به البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته، ينظر الفتح (٨/ ١٣٠) ٤٤٣٠.
- (٤) قال ابن حجر: وعند ابن سعد (أما إني سأريكم اليوم منه ما تعرفون به فضله) الفتح (٨/ ٧٣٦).
- (٥) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المغازي، باب منزل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح، ينظر الفتح (٨/ ٣٠) ٤٢٩٤، ورواه أيضا في كتاب التفسير، باب قوله: {«فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا»}، ينظر الفتح (٨/ ٧٣٤) ٤٩٧٠.

وكان ابن عباس لشدة أدبه، إذا جلس في مجلس فيه من هو أسن منه لا يتحدث إلا إذا أذن له، فكان عمر يلمس ذلك منه، فيحثه، ويحرضه على الحديث تنشيطاً لنفسه، وتشجيعاً له في العلم.

فعن عبيد بن عمير قال: قال عمر رضي الله عنه يوماً لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: فيم ترون هذه الآية نزلت {أَيُّودُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ}؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل، قال عمر: أي عمل؟^(١). قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي، حتى أغرق أعماله^(٢).

وقال ابن حجر في شرحه لهذا الأثر: "وفيه قوة فهم ابن عباس، وقرب منزلته من عمر، وتقديمه له مع صغره، وتحريض العالم تلميذه على القول بحضرة من هو أسن منه، إذا عرف فيه الأهلية لما فيه من تنشيطه، وبسط نفسه، وترغيبه في العلم"^(٣).

وكان عمر رضي الله عنه يسأل ابن عباس عن الشيء من القرآن ثم يقول: غصّ غواص^(٤).

وكان عمر يصفه بقوله: "ذاكم فتى الكهول، إن له لساناً سئولاً، وقلبا عقولاً"^(٥).

يقول طلحة بن عبيد الله: "ما كنت أرى عمر بن الخطاب يقدم على ابن عباس أحداً"^(٦).

وكان ابن عباس رضي الله عنهما كثير الملازمة لعمر، حريصاً على سؤاله، والأخذ عنه. فعنه قال: "مكنت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبه له، حتى خرج حاجاً فخرجت معه، فلما رجعت وكنا ببعض الطريق، عدل إلى الأراك لحاجة له، قال: فوقفت له حتى فرغ، ثم سرت معه فقلت له: يا أمير المؤمنين، من اللتان تظاهرتا على النبي صلى الله عليه وسلم من أزواجه؟ فقال: تلك حفصة، وعائشة. قال: قلت: والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة، فما أستطيع هيبه لك. قال: فلا تفعل، ما ظننت أن عندي من علم فأسألني، فإن كان لي علم خبرتك به"^(٧).

ورواه مختصراً في كتاب المغازي، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته ٤٤٣٠، ينظر الفتح (٨/ ١٣٠). قال ابن حجر في شرح هذا الأثر: وفيه فضيلة ظاهرة لابن عباس وتأثير لإجابة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلمه الله التأويل. اه. ينظر الفتح (٨/ ٧٣٦).

والأثر أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٣٧)، والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٣٢١) ١٠٦١٧، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٤٤٦).

وجاء عند ابن سعد (٢/ ٣٦٥)، وأحمد (١/ ٣٣٧)، بزيادة «كيف تلوموني على ما ترون».

(١) قال ابن حجر: أخرج هذا الأثر ابن المنذر في تفسيره بلفظ: أي عمل؟ قال ابن عباس: شيء ألقى في روعي، فقال: صدقت يا ابن أخي، يراجع الفتح (٨/ ٢٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (أيود أحدكم أن تكون له جنة) ٤٥٣٨، وينظر الفتح (٨/ ٢٠١)، وعمدة القاري (١٨/ ١٢٩)، وابن جرير في تفسيره (٥/ ٥٤٥) ٦٠٩٦، والحاكم في مستدركه كتاب التفسير (٢/ ٢٨٣)، وأورده السيوطي في الدر، عن ابن عباس بنحوه، وعزاه إلى ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم والحاكم (٢/ ٤٧).

(٣) فتح الباري (٨/ ٢٠٢).

(٤) فضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٩٨١) ١٩٤٠.

(٥) فضائل الصحابة لأحمد (٢/ ٨٤٤) ١٥٥٥، والإصابة (٢/ ٣٣٢)، والمدخل للبيهقي (٢٩٠) ٤٢٦، ورواه عبد الرزاق في مصنفه وفي أوله قصة (٤/ ٣٧٦) ٨١٢٣.

ورواه الحاكم في مستدركه، وسكت عنه، وقال الذهبي: منقطع (٣/ ٥٣٩).

(٦) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٧٠).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير باب «تبتغي مرضاة أزواجك» ينظر الفتح (٨/ ٦٥٧) ٤٩١٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء (٢/ ١١٠٨) ٣١، والترمذي في سننه، كتاب

ولذا كان ابن عباس رضي الله عنهما من أكثر الصحابة نقلا ورواية لتفسير عمر وعلمه رضي الله عنهم^(١).

توفي رضي الله عنه وأرضاه في الطائف، سنة ثمان وستين. فحصل الكثير من العلم، وزاد من الحاجة إليه، ولا سيما في مكة، التي كان العلم بها يسيرا في زمن كبار الصحابة، وكثر في عهد صغارهم^(٢).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن ساق ثناء ابن مسعود على ابن عباس رضي الله عنهم وقوله: "نعم الترجمان للقرآن ابن عباس"، قال رحمه الله: "فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة، وقد مات ابن مسعود في سنة ثلاث وثلاثين على الصحيح وعمر بعده ابن عباس ستا وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود"^(٣).

٢- المدرسة البصرية

أول من مصر البصرة عتبة بن غزوان رضي الله عنه، اختطها سنة أربع عشرة، بأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهي أقدم من الكوفة بثلاث سنين^(٤)، وهي منافسة لمدرسة الكوفة في كل الفنون، وقد نزلها من الصحابة جمع كثير^(٥)، منهم أبو موسى الأشعري، وعمران بن حصين رضي الله عنهما، وعدة من الصحابة كان خاتمتهم أنس بن مالك رضي الله عنه^(٦).

ومن أشهر من نزل البصرة أبو موسى الأشعري، وأنس بن مالك. فأما أبو موسى رضي الله عنه فيمني قدم مكة، وأسلم، وهاجر إلى الحبشة مع من هاجر، وكان يعد من أعلم الصحابة، وقد قدم البصرة، وعلم بها. سأل عمر بن الخطاب أنس بن مالك: كيف تركت الأشعري؟ فقال: تركته يعلم الناس القرآن"^(٧).

أما أنس فهو ابن مالك: بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام، أبو حمزة النجاري الخزرجي، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يتسمى بذلك ويفتخر به وحق له ذلك^(٨). يقول رضي الله عنه: "خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين وأنا غلام"^(٩).

التفسير، باب ومن سورة التحريم (٥/ ٤٢٠) ٣٣١٨، وابن حبان في صحيحه، ينظر الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٦/ ٢٢٩) ٤٢٥٤، والطبري في تفسيره (٢٨/ ١٦١).

(١) المراجع لتفسير عمر المأثور عنه يجد أن جلّ المروى من الآثار المسندة عنه في التفسير كانت من رواية ابن عباس، ولم يقاربه في ذلك أحد من الصحابة، ومن يراجع تفسير المأثور عن عمر رضي الله عنه يجد أن ابن عباس رضي الله عنهما روى من الآثار عن عمر رضي الله عنه (٢٦، ٠) من مجموع تفسيره، في حين كان الذي يليه في العناية برواية تفسير عمر هو قتادة، حيث روى (١٤، ٠) من تفسيره، وبعدهما أنس رضي الله عنه حيث روى (١٢، ٠)، وبعدهما الحسن حيث روى (٠٩، ٠) من تفسيره.

(٢) انظر: المصنف لابن أبي شيبة (٣/ ٣٢٨)، والمعرفة (١/ ٥١٨)، والمعجم الكبير (١٠/ ٢٨٨)، والمستدرك (٣/ ٥٤٤)، تاريخ أبي زرعة (١/ ٢٣٨)، وتاريخ بغداد (١/ ١٧٥)، وتجريد أسماء الصحابة (١/ ٣٢٠)، والأمصار ذوات الآثار (١٥٦).

(٣) مقدمة في أصول التفسير (٩٧).

(٤) المعارف (٢٤٥)، وأسد الغابة (٣/ ٥٦٦)، والإصابة (٢/ ٤٥٥).

(٥) عدّ ابن حبان أكثر من خمسين صحابيا من المشاهير الذين دخلوا البصرة، ينظر مشاهير علماء الأمصار (٤٢٣٧).

(٦) انظر: طبقات ابن سعد (٧/ ٢٦)، وطبقات الفقهاء (٥٣)، ورجال صحيح مسلم (١/ ٦٥)، وتهذيب تاريخ دمشق (٣/ ١٤٤).

(٧)

(٨) انظر: الاستيعاب (١/ ١٠٩)، وتجريد أسماء الصحابة (١/ ٣١)، وأسد الغابة (١/ ١٥١)، والثقات (٣/ ٤)، والإصابة (١/ ٨٤)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٢٧).

(٩) مسند أحمد (٣/ ١٩٥، ٢٢٧، ٢٥٥)، ومعرفة الصحابة لأبي نعيم (٢/ ٢٠٢).

ويقول أيضا: "قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأنا ابن عشر سنين ومات وأنا ابن عشرين سنة" (١).

وقد دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة المال، والولد، والمباركة في العمر فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه» (٢).

قال الذهبي: "وقد سرد صاحب التهذيب نحو مائتي نفس من الرواة عن أنس" (٣)، وروى ألفي حديث ومائتين وستة وثمانين حديثا، اتفق البخاري ومسلم على مائة وثمانين حديثا، وانفرد البخاري بثمانين حديثا، ومسلم بتسعين (٤).

لقد كثر نتاج المدرسة البصرية، وهي ثاني المدارس بعد المكية أثرا في التفسير، واعتمدت على اجتهادات الحسن الذي أفاد من فقه عمر وأنس، وغلب عليها الوعظ، حتى كان أهلها أكثر الناس هيبه لانتهاك الحرمات (٥)، وأكثر من استفاد من هذه المدرسة أهل اليمن بعد نزول معمر بن راشد بها، ويحيى بن سلام، الذي نشر تفسيره في بلاد المغرب فتأثر المغاربة بتفسير الحسن، وقتادة، وأكثروا من النقل عنهم (٦).

٣- المدرسة الكوفية

لما نزل المسلمون المدائن، طال بها مكثهم، آذاهم الغبار، فكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص أن يختار منزلا آخر بحريا، فإن العرب لا يصلحها من البلدان إلا ما أصلح الشاة، والبعير، فسأل من قبله عن هذه الصفة، فأشار عليه من رأى العراق من وجوه العرب باللسان، وهو ظهر الكوفة، وكان نزولهم الكوفة سنة سبع عشرة (٧).

وقد هبط الكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة، وسبعون من أهل بدر رضي الله عنهم أجمعين (٨).

وكتب عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة قائلا: يا أهل الكوفة، أنتم رأس العرب، وجمجمتها، وسهمي الذي أرمي به إن أتاني شيء من هاهنا، وهاهنا، قد بعثت إليكم بعيد الله وخرت لكم، وأترتكم به على نفسي. وفي رواية عنه قال: أما بعد فإنني بعثت إليكم عمارا أميرا، وعبد الله معلما ووزيرا، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاسمعوا لهما، واقتدوا بهما، وإنني قد آترتكم بعيد الله على نفسي إثره (٩).

وكان الحسن البصري إذا سئل: أيهما خير أهل الكوفة، أم أهل البصرة؟ قال: كان يبدأ بأهل الكوفة (١٠).

ومدرسة الكوفة من أكثر المدارس عناية بأثار شيخها ابن مسعود.

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٦٠٣) ٢٠٢٩، ومسند الحميدي (٢/ ٤٩٩) ١١٨٢، وتاريخ أبي زرعة (١/ ٥٦٥)، ومعرفة الصحابة (٢/ ٢٠١) ٧٩٥.

(٢) صحيح مسلم (١/ ٤٥٧، ٤٥٨) (٤/ ١٩٢٨)، والمعجم الكبير (١/ ٢٢١)، وتهذيب الأسماء (١/ ١٢٧).

(٣) السير (٣/ ٣٩٧).

(٤) مقدمة مسند بقي (٧٩)، وتهذيب الأسماء (١/ ١٢٧)، والسير (٣/ ٤٠٦)، وتدريب الراوي (٢/ ٢١٧).

(٥) قال ابن جبير: ما رأيت أحدا أرعى لحرمة هذا البيت، ولا أحرص عليه من أهل البصرة، ينظر الحلية (٤/ ١٢٧٦).

(٦) كافي حيان، وابن جزري، وابن عطية، والزركشي وغيرهم، يراجع كتاب التسهيل (١٠)، والبحر المحيط (١/ ١٣)، والبرهان (٢/ ١٥٨)، وينظر تفسير كتاب الله العزيز لهود الهواري (١/ ٢٢، ٣٢، ٣٣).

(٧) المعارف (٢٤٦).

(٨) طبقات ابن سعد (٦/ ٩).

(٩) المصدر نفسه: (٧/ ٦).

(١٠) المعرفة (٢/ ٥٥٠).

يقول ابن جرير: "ولم يكن أحد له أصحاب معروفون حرروا فتياه ومذاهبه في الفقه غير ابن مسعود"^(١).

ويقول مسروق بن الأجدع: "حدثنا عبد الله، ولو لم يحدثنا عبد الله من كان يحدثنا"^(٢). ومدرسة الكوفة هي ثالث المدارس رتبة في العناية والاهتمام بعلم التفسير^(٣)، وقد أثرت الإقلال والورع فيه، متأثرة بمنهج شيخها ابن مسعود رضي الله عنه وتربيته، حتى إن الملازمين له من أصحابه لم يرد عنهم في التفسير إلا أقل القليل، فكانوا بذلك من أقل التابعين على الإطلاق. تعرضا للتأويل.

عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -:

هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمش بن قار بن مخزوم أبو عبد الرحمن الهذلي حليف بني زهرة. وأم عبد الله بنت عبد ود بن سواه من هذيل أيضا^(٤). وكان إسلامه قديما، يقول رضي الله عنه: "لقد رأيتني سادس ستة ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا"^(٥).

وكان رضي الله عنه أول من جهر بالقرآن بمكة^(٦). وقد شهد بدرا وبيعة الرضوان والمشاهد كلها^(٧)، وهو قاتل أبي جهل عدو الله^(٨). روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ثمانمائة حديث، وثمانية وأربعين حديثا^(٩)، منها أربعة وستون حديثا في الصحيحين، انفرد له البخاري بإخراج واحد وعشرين حديثا، ومسلم بإخراج خمسة وثلاثين حديثا^(١٠).

وكان رضي الله عنه صاحب وسادة النبي صلى الله عليه وسلم وسواكه، ونعليه وطهوره^(١١). يقول أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: "قدمت أنا وأخي من اليمن، فمكثنا حينما ما نرى إلا أن عبد الله بن مسعود رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، لما نرى من دخوله، ودخول أمه على النبي صلى الله عليه وسلم"^(١٢).

وعن شفيق بن سلمة قال: سمعت حذيفة يقول: "إن أشبه الناس دلا وسمتا، وهديا برسول الله صلى الله عليه وسلم، لابن أم عبد، من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع إليه، لا ندرى ما يصنع في أهله إذا خلا"^(١٣).

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٦).

(٢) العلل لأحمد (٢/ ٤٥٠) ٢٩٩٩.

(٣) سبقها مدرستا مكة والبصرة.

(٤) انظر: أسد الغابة (٣/ ٣٨٤)، والمعارف (١٠٩)، والمعجم الكبير (٩/ ٥٧) ٨٤٠١، والمغازي للواقدي (١/ ١٥٥)، والاستيعاب (٢/ ٣١٦)، والإصابة (٢/ ٣٦٨).

(٥) انظر: المستدرك (٣/ ٣١٢)، وكشف الأستار (١/ ٣٠٣)، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٨٧).

(٦) انظر: السيرة لابن هشام (١/ ٣١٤)، وطبقات ابن سعد (٣/ ١٥١)، وأسد الغابة (٣/ ٣٨٥).

(٧) المعارف (١٠٩)، والمستدرك (٣/ ٣١٢)، والمنظوم (٥/ ٣٠).

(٨) المغازي للواقدي (١/ ٩٠)، وتاريخ الثقات (٢٧٨)، وأسد الغابة (٣/ ٣٨٦)، والمعجم الكبير للطبراني (٩/ ٨١).

(٩) مقدمة مسند بقي بن مخلد (٨٠)، وتجريد أسماء الصحابة (١/ ٣٣٤)، والسير (١/ ٤٦٢).

(١٠) السير (١/ ٤٦٢).

(١١) الحلية (١/ ١٢٦)، وطبقات ابن سعد (٣/ ١٥٣)، والمعرفة (٢/ ٥٥٠)، والمستدرك (٣/ ٣١٤).

(١٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عبد الله، ينظر الفتح (٧/ ١٠٢) ٢٧٦٣، ومسلم في صحيحه بلفظ مختصر، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله (٤/ ١٩١١) ٢٤٦٠، والترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب مناقب عبد الله (٥/ ٦٧٢) ٣٨٠٦، والنسائي في فضائل الصحابة (١٤٩)، وابن سعد في طبقاته (٣/ ١٥٤).

(١٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الهدي الصالح، ينظر الفتح (١٠/ ٥٠٩) ٦٠٩٧، ورواه أيضا

وعن أبي الأحوص قال: "كان نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، أو قال: عدة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في دار أبي موسى يعرضون مصحفا، قال: فقام عبد الله بن مسعود فخرج، فقال أبو مسعود البدري: هذا أعلم من بقي بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم، فقال أبو موسى: إن يكن كذلك فقد كان يؤذن له إذا حجبتنا ويشهد إذا غبتنا"^(١).

وعن زيد بن وهب، قال: "كنت جالسا في القوم عند عمر، إذ جاء رجل نحيف قليل، فجعل عمر ينظر إليه ويتهلل وجهه، ثم قال: كنيف ملئ علما، كنيف ملئ علما، فإذا هو ابن مسعود"^(٢).

وكان علي رضي الله عنه لما سئل عنه، قال: "علم القرآن والسنة، ثم انتهى"^(٣). وكان أبو موسى الأشعري يقول لمن يسأله: "لا تسألوني عن شيء ما دام هذا الحبر بين أظهركم، يعني: ابن مسعود"^(٤).

وعن مسروق قال: قال عبد الله رضي الله عنه: "والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه"^(٥).

وقد كتب عمر بن الخطاب لأهل الكوفة: "أني قد بعثت إليكم عمار بن ياسر أميرا، وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا، وهما من النجباء من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من أهل بدر فاسمعوا، وقد جعلت ابن مسعود على بيت مالكم، فاسمعوا، وتعلموا منهما، واقتدوا بهما، وقد أترتكم بعبد الله على نفسي"^(٦).

وعن مسروق قال: "كان عبد الله وحذيفة وأبو موسى الأشعري في منزل أبي موسى، فقال حذيفة: أما أنت يا عبد الله بن مسعود، فبعثت إلى أهل الكوفة معلما، فأخذوا من أدبك، ولغتك، ومن قرأتك"^(٧).

ولقد كان لهذا المعلم الأثر البالغ في نفوس أصحابه الملازمين له أو من جاء بعدهم، فقد توجهت المدرسة متأثرة بأستاذها للعلوم التي أكثر منها وفيها.

٤- مدرسة المدينة

كانت المدينة دار الهجرة، ومركز الخلافة، ومقر كبار الصحابة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم بعد رجوعه من حنين ترك بها اثني عشر ألفا من الصحابة، مات بها عشرة آلاف، وتفرق ألقان في سائر أقطار الإسلام^(١).

مختصرا في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عبد الله، ينظر الفتح (١٠٢ / ٧) ٢٧٦٢، ورواه أحمد في مسنده (٥ / ٤٠١، ٤٠٢)، والترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب مناقب عبد الله (٥ / ٦٧٣) ٣٨٠٧، وكتاب فضائل الصحابة للنسائي (١٥٠)، والمعرفة (٢ / ٥٤٠)، والحلية (١ / ١٢٧)، والمعجم الكبير للطبراني (٩ / ٨٢، ٨٣، ٨٤)، (٨٧).

(١) طبقات ابن سعد (٢ / ٣٤٣)، وفضائل الصحابة للنسائي (١٤٨)، والمعرفة (٢ / ٥٤١، ٥٤٤)، والحلية (١ / ١٢٩)، والمستدرک (٣ / ٣١٦)، والمعجم الكبير للطبراني (٩ / ٩٠).

(٢) طبقات ابن سعد (٣ / ١٥٦)، والحلية (١ / ١٢٩)، والمعرفة (٢ / ٥٤٣)، والمعجم الكبير (٩ / ٨٥).

(٣) المستدرک (٣ / ٣١٨)، والحلية (١ / ١٢٩)، وصفة الصفوة (١ / ٤٠١).

(٤) مسند أحمد (١ / ٤٦٤)، وطبقات ابن سعد (٢ / ٣٤٣)، والمعرفة (٢ / ٥٤١)، والمعجم الكبير (٩ / ٩٢).

(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ينظر الفتح (٩ / ٤٧) ٥٠٠٢، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله (٤ / ١٩١٣) ٢٤٦٣، وأحمد في مسنده (١ / ٤٢١)، وابن أبي داود في المصاحف (٢١، ٢٣)، والخطيب البغدادي في الرحلة في طلب الحديث (٩٥).

(٦) المستدرک (٣ / ٣٨٨)، والمعرفة (٢ / ٥٣٣، ٥٤٢)، والمعجم الكبير (٩ / ٨٥)، وأسد الغابة (٣ / ٣٨٨).

(٧) المصاحف لابن أبي داود (٢١).

فكانت مهد السنن، وموطن الفتاوى المأثورة، يتلقى فيها حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وتتخذ منها آثار الصحابة، فأصبحت من أكثر المدارس اشتغالا بالمغازي والسير، والسنن والآثار، فصارت السنة شعار أهلها، والحديث وروايته محط اهتمام أصحابها. يقول زيد بن ثابت رضي الله عنه: إذا رأيت أهل المدينة على شيء فاعلم أنه السنة^(٢). وفي مقابل هذه الحال فقد كانت من أقل المدارس اشتغالا بالتفسير^(٣)، ومن أكثرها هيبه وتعظيما له، فقلّ نتاجها، وسبقها غيرها.

وأشهر من تفرغ في المدينة للحياة العلمية زيد بن ثابت رضي الله عنه، فقد استبقاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة، فكثرت أصحابه، يقول ابن عمر رضي الله عنهما: "فرق عمر الصحابة في البلدان، وحبس زيد بن ثابت بالمدينة يفتي أهلها"^(٤). ويقول حميد بن الأسود: "ما تقلد أهل المدينة قولاً بعد زيد بن ثابت كما تقلدوا قول مالك"^(٥).

زيد بن ثابت:

هو زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوزان بن النجار أبو سعيد، وأبو خارجه الأنصاري النجاري^(٦).

قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وزيد بن إحدى عشرة سنة. فعنه رضي الله عنه قال: "قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وأنا ابن إحدى عشرة سنة، وأمرني أن أتعلم كتاب يهود، فكنيت أقرأ إذا كتبوا إليه. فتعلم تلك الكتب وحذقها في نصف شهر"^(٧). وقد نال رحمه الله شرف جمع المصحف حين عهد إليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه بذلك، وقد استدعاه أبو بكر رضي الله عنه وقال له: إنك شاب عاقل لا نتهمك، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه، فقلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! قال: هو والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك"^(٨). وكذا نال شرف نسخه في عهد عثمان رضي الله عنه فعن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية، وأذربيجان مع أهل العراق، فأزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إليك بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك.

(١) الفكر السامي (١ / ٣١١).

(٢) المعرفة والتاريخ (١ / ٤٣٨).

(٣) بلغ نسبة ما روي عنها ما يقارب (٠٢، ٠) من مجموع التفسير المروي عن مشاهير مفسري التابعين، في حين كان عن المدرسة المكية (٤٦، ٠)، وعن البصرية (٣٨، ٠)، وعن الكوفية (١٤، ٠).

(٤) تهذيب تاريخ دمشق (٥ / ٤٥٠)، أورده الهندي في الكنز، وعزاه لابن سعد (١٣ / ٣٩٣) (٣٧٠٥١)، وينظر طبقات ابن سعد (٢ / ٣٥٩)، تاريخ الإسلام، (ح ٤١ هـ / ٥٤).

(٥) العلل لأحمد (٣ / ٢٥٩) ٥١٤٥.

(٦) انظر: طبقات ابن سعد (٢ / ٣٥٨)، والاستيعاب (١ / ٥٥١)، وكتاب النسب (٢٧٨)، وتجريد أسماء الصحابة (١ / ١٩٧)، والتاريخ الكبير (٣ / ٣٨٠)، وتاريخ الصحابة الذين روي عنهم الأخبار (١٠٥)، والإصابة (١ / ٥٦٢)، وأخبار القضاة لوكيع (١ / ١٠٧)، والجرح (٣ / ٥٥٨)، والكنى للدولابي (١ / ٧١).

(٧) مسند أحمد (٥ / ١٨٦)، وسنن أبي داود، كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، (٣ / ٣١٨) (٣٦٤٥)، وسنن الترمذي، كتاب الاستئذان، باب ما جاء في تعليم السريانية، (٥ / ٦٧) (٢٧١٥)، والمعجم الكبير للطبراني (٥ / ١٣٣) (٤٨٥٦، ٤٨٥٧)، والمستدرک للحاكم، وصححه (١ / ٧٥).

(٨) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، ينظر الفتح (٩ / ١٠) (٤٩٨٦)، ومسند أحمد (٥ / ١٨٨)، وفضائل الصحابة للنسائي (١٦٥)، وفضائل القرآن للنسائي (٦٣)، والمصاحف لأبي داود (١٢).

فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد ابن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرّهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا^(١).

وكان ابن عباس يجله، ويفدّره، ولما قدم إلى زيد أخذ بركابه، فقال له زيد: "تنح يا ابن عم رسول الله، قال: إنا هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا"^(٢). وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أراد أن يقرأ على عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال له: "إنك إذا تشغلني عن النظر في أمور الناس، فامض إلى زيد بن ثابت، فإنه أفرغ لهذا الأمر، فاقراً عليه"^(٣).

يقول عامر الشعبي رحمه الله: "غلب زيد الناس على اثنين، على الفرائض، والقرآن"^(٤). ويقول العجلي: "الناس على قراءة زيد، وفرض زيد"^(٥). يقول النووي: "أعلم الصحابة بالفرائض زيد، لحديث «أفرضكم زيد»^(٦)^(٧). يقول سليمان بن يسار: "ما كان عمر وعثمان يقدمان أحدا على زيد بن ثابت في القضاء، والفتوى، والفرائض، والقراءة"^(٨).

وأما علوم الحديث، والتفسير، فكان اشتغاله بها قليلا، فلم يرد عنه من أحاديث سوى اثنين وتسعين حديثا، منها خمسة أحاديث متفق عليها، وأربعة انفرد بها البخاري، وواحد رواه مسلم^(٩). وأما علم التفسير فإنه من أقل الصحابة رواية واشتغالا به، وبعد البحث والمراجعة وجدت أن المروي عنه في تفسير ابن كثير والقرطبي، لا يتجاوز مجموعه خمسة وعشرين قولاً^(١٠). ذهب كثير من أهل العلم إلى أنه توفي سنة خمس وأربعين^(١١). قال أبو هريرة رضي الله عنه -وقد شهد جنازة زيد-: "مات حبر الأمة، ولعل الله أن يجعل في ابن عباس منه خلفا"^(١٢).

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، ينظر الفتح (٩ / ١١)، ٤٩٨٧، وفضائل القرآن للنسائي (٥٧).

(٢) طبقات ابن سعد (٢ / ٣٦٠)، والمستدرک للحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي (٣ / ٤٢٣)، والمعجم الكبير للطبراني (٥ / ١٠٧) (٤٧٤٦)، وأورده الهيثمي في المجمع وقال: رجاله رجال الصحيح (٩ / ٣٤٥)، وذكره صاحب الكنز، وعزاه لابن عساكر (١٣ / ٣٩٦) (٣٧٠٦١).

(٣) أورده الهندي في الكنز، وعزاه لابن الأنباري في المصاحف (١٣ / ٣٩٤) (٣٧٠٥٣).

(٤) تهذيب الكمال (١٠ / ٢٩)، وتهذيب تاريخ دمشق (٥ / ٤٤٩).

(٥) تاريخ الثقات (١٧٠).

(٦) سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل، قال الترمذي: حديث حسن صحيح (٥ / ٦٦٥) (٣٧٩١)، وينظر مسند أحمد (٣ / ٢٨١)، وصحيح ابن حبان، ينظر الإحسان (٩ / ١٣١) (٧٠٨٧) طكمال الحوت، وشرح السنة للبيهقي (١٤ / ١٣١).

(٧) تهذيب الأسماء واللغات (١ / ٢٠١).

(٨) طبقات ابن سعد (٢ / ٣٥٩)، وتهذيب تاريخ دمشق (٥ / ٤٥٠)، وأورده الهندي في الكنز، وعزاه لابن سعد (١٣ / ٣٩٣) (٣٧٠٥٠).

(٩) مقدمة مسند بقي (٨٣)، وتهذيب الأسماء واللغات (١ / ٢٠١).

(١٠) في تفسير ابن كثير، نجد المروي عنه (١٢) قولاً، منها خمسة أقوال في مسائل فقهية. وفي تفسير القرطبي، وجدت المروي عنه (١٣) قولاً، منها عشرة أقوال في مسائل فقهية، والثلاثة الباقية في بيان القراءة.

(١١) انظر: الإصابة (١ / ٥٦٢)، وتهذيب تاريخ دمشق (٥ / ٤٥٣)، والاستيعاب (١ / ٥٥٣)، والمستدرک (٣ / ٤٢١)، والوفيات لابن قنفذ (٦١)، والوفيات بالوفيات (١٥ / ٢٤، ٢٥).

(١٢) طبقات ابن سعد (٢ / ٣٦٢)، والمستدرک (٣ / ٤٢٧)، والإصابة (١ / ٥٦٢)، وتهذيب تاريخ دمشق (٥ / ٤٥٣).

يقول ابن المديني: "فأما من لقي زيدا، وتثبت عندنا لقيه فهم: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وقبيصة بن ذؤيب، وخارجة بن زيد، وأبان بن عثمان، وسليمان بن يسار"^(١).

٥-التفسير في الشام واليمن ومصر

إن الشام واليمن ومصر لم يكن لها منهج مستقل، وآثار كثيرة حتى تجعل كمدرسة مستقلة، وإنما يمكن دراستها كبقاع بها بعض الآثار.

١-التفسير في الشام:

لقد حظي الشام بعدد من علماء الصحابة، وتخرج على يدهم عدد كبير من التابعين، فقد أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثلاثة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمون الناس، فأرسل معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى أهل فلسطين، وأرسل عبادة ابن الصامت رضي الله عنه إلى أهل حمص^(٢).

وأما أبو الدرداء رضي الله عنه فأرسله إلى دمشق^(٣)، وكان من أكثرهم أتباعا، فقد كانت له حلقة عظيمة في مسجد دمشق يحضرها ما يزيد على ألف وستمئة شخص، يقرءون عشرة عشرة، ويتسابقون عليه، وأبو الدرداء واقف يفتي الناس في حروف القرآن^(٤).

ويعد أبو الدرداء أكثر الصحابة أثرا في الشام ودمشق، يقول الذهبي: "وكان أبو الدرداء عالم أهل الشام، ومقرئ أهل دمشق، وفقههم وقاضيه"^(٥).

وكان رضي الله عنه من قراء الصحابة المعدودين، فعن أنس بن مالك قال: "مات النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة من الصحابة: أبو الدرداء، ومعاذ، وزيد بن ثابت، وأبو زيد"^(٦).

يقول مسروق: "وجدت علم الصحابة انتهى إلى ستة: عمر، وعلي، وأبي، وزيد، وأبي الدرداء، وابن مسعود"^(٧).

وبعث عمر أيضا عبد الرحمن بن غنم الأشعري إلى الشام يفقه الناس^(٨).

ومن شيوخ الشاميين أيضا الصحابي الجليل تميم الداري^(٩).

وعلى يد هؤلاء الصحب الكرام تعلم التابعون بالشام، وكانوا كثيرين إلا أن أشهرهم: عائد الله بن عبد الله أبو إدريس الخولاني، وهو عالم الشام بعد أبي الدرداء^(١٠)، وكان يقرأ، ويعلم،

(١) العلل (٥١)، وتهذيب تاريخ دمشق (٥ / ٤٥٢)، وانظر: طبقات ابن سعد (٢ / ٣٦٢)، والمستدرک (٣ / ٤٢٧)، والإصابة (١ / ٥٦٢).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٧ / ٣٨٧)، والتاريخ الكبير (٤ / ٣٥٩)، والجرح والتعديل (٤ / ٢٤٤)، والسير (٢١ / ٣٤٤).

(٣) أسد الغاية (٥ / ١٨٥)، وتهذيب الأسماء (٢ / ٢٢٨)، والتذكرة (١ / ٢٤)، والإصابة (٣ / ٤٥)، والشذرات (١ / ٣٩)، والسير (٢ / ٣٤٤).

(٤) غاية النهاية (١ / ٦٠٧).

(٥) التذكرة (١ / ٢٤).

(٦) رواه البخاري في صحيحه كتاب الفضائل، باب القراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينظر الفتح (٩ / ٤٧)، وأبو زيد: هو أحد عمومة أنس، وقد ذكر ابن المديني أن اسمه أوس، وعده يحيى بن معين ثابت بن زيد.

وهذا الحصر في هؤلاء الأربعة إضافي، بمعنى أنهم جمعوه عرضا على النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أطال ابن حجر في بيان توجيه ذلك في الفتح (٩ / ٥١).

(٧) طبقات ابن سعد (٢ / ٣٥١)، والسير (٢ / ٣٤٣).

(٨) انظر: طبقات ابن سعد (٧ / ٤٤١)، والمعرفة (٢ / ٣٠٩)، والشذرات (١ / ٨٤).

(٩) انظر: تذكرة الحفاظ (١ / ٥١)، والسير (٤ / ٤٦).

(١٠) انظر: طبقات ابن سعد (٧ / ٤٤٨)، وطبقات الفقهاء (٧٤)، تذكرة الحفاظ (١ / ٥٧)، والسير (٤ / ٢٧٤).

ويقص، ويعظ، ويعني كثيرا بالمغازي والسير، توفي سنة (٨٠هـ)^(١)، إلا أن المروي عنه في التفسير قليل جدا^(٢).

ومن هؤلاء مكحول أبو عبد الله الدمشقي مولى لامرأة من هذيل، وكان نوبيا، وقيل من سبي كابل، وقيل من سلالة الأكاسرة^(٣).

يقول سليمان بن موسى: "إن جاءنا العلم من الحجاز عن الزهري قبلناه، وإن جاءنا من الشام عن مكحول قبلناه، وإن جاءنا من الجزيرة عن ميمون قبلناه، وإن جاءنا من العراق عن الحسن قبلناه"^(٤).

وعن الزهري قال: العلماء أربعة: "ابن المسيب بالمدينة، والشعبي بالكوفة، والحسن بالبصرة، ومكحول بالشام"^(٥).

وعليه تتلمذ إمام الشام في زمانه الأوزاعي^(٦).

وقد جاء عنه جملة طيبة في التفسير، وغالبها في الفقه، والوعظ^(٧).

٢- التفسير في مصر:

فتحت مصر في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه، وكان في جيش الفاتحين الكثير من الصحابة، إلا أننا يمكن أن نعد عقبة ابن عامر رضي الله عنه هو أكثر الصحابة تأثيرا في مصر في جانب التفسير وغيره، فلقد دخل مصر، ومعه مصحفه الذي صار إماما للناس يرجعون إليه^(٨).

وأحب أهل مصر عقبة، ورووا عنه، ولازموه، حتى قال سعد بن إبراهيم: "كان أهل مصر يحدثون عن عقبة بن عامر، كما يحدث أهل الكوفة عن عبد الله"^(٩).

ولئن كان ابن مسعود قد نشر الورع والهيبة من التفسير في نفوس تلاميذه الكوفيين، فبالمقابل نجد أهل مصر قد ورثوا عن عقبة هيبته التفسير، والورع من الخوض فيه، فها هو يزيد بن أبي حبيب يروي عن أبي الخير مرثد بن عبد الله اليزني، عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «هلاك أمتي في الكتاب، واللبن، قالوا: يا رسول الله، ما الكتاب واللبن؟ قال: يتعلمون فيتأولون على غير ما أنزله الله عز وجل، ويحبون اللبن ويدعون الجمع، والجماعات»^(١٠).

(١) له في تفسير ابن كثير ثلاث روايات فقط.

(٢) انظر: السير (٤/ ٢٧٥)، والحلية (٥/ ١٢٠)، وتهذيب تاريخ دمشق (٧/ ٣٢٢)، والشذرات (١/ ٢٨٨).

(٣) التاريخ الكبير (٨/ ٢١)، والبداية والنهاية (٩/ ٣١٧)، والسير (٥/ ١٥٥).

(٤) تاريخ أبي زرعة (١/ ٣١٥)، ويلاحظ أن الجامع بين هؤلاء الأئمة، هو اتباعهم الأثر.

(٥) السير (٥/ ١٥٨).

(٦) قال الأوزاعي في الإيلاء: ونحن على قول أصحابنا الزهري، ومكحول، أنها تطليقة، تفسير الطبري (٤/ ٤٨٨) ٤٦١٠.

(٧) يراجع في ذلك تفسير الطبري، الآثار نوات الأرقام: ٣٩٩٧، ٤١٢٩، ٤٣٧١، ٤٤٣١، ٤٦٠٤، ٤٦١٠، ٤٧١١، ٤٧١٢، الخ، وينظر تفسير ابن كثير: (١/ ٣٣٣)، (١/ ٣٤٢)، (١/ ٣٧٥)، (١/ ٣٩٢)، (١/ ٣٩٥)، و (١/ ٣٩٧)، (١/ ٤٣٦)، و (٢/ ٩٤)، (٢/ ١٩٢)، (٢/ ٢٢١)، (٣/ ٢٩)، (٣/ ٣٦)، (٣/ ١٦٤) إلى غير ذلك من الأمثلة التي زادت في تفسير ابن كثير عن ثلاثين أثرا.

(٨) القرآن وعلومه في مصر (١٤).

(٩) العلل لأحمد (٢/ ٤٤٢) ٢٩٥٨.

(١٠) العلل لأحمد (٣/ ٤٥٢) ٥٩١٨، واللبن جمع لبننة، والمراد الانشغال بالبناء، وصحح إسناده محقق الكتاب د. وصي الله عباس.

لقد تأثر عقبة ومن بعده المصريون بهذا الحديث، وتورعوا عن التفسير، بل غلب عليهم الورع في شتى شئونهم، حتى قال يحيى بن سعيد الأنصاري المدني (وهو من صغار التابعين): "ما أعلم الورع اليوم إلا في أهل المدينة، وأهل مصر"^(١).

وتلقى المصريون العلم عن الصحابة على قلتهم بمصر^(٢)، وكان من أشهرهم أبو الخير مرثد بن عبد الله اليزني (٩٠هـ)، فقد أخذ العلم وتلمذ على يد عقبة، وعمرو بن العاص^(٣)، وجاءت الطبقة التي تلي كبار التابعين فنشطت في العلم، ولا سيما يزيد بن أبي حبيب الذي بث العلم بمصر ونشره، يقول أبو سعيد بن يونس: كان مفتي أهل مصر في أيامه يزيد، وكان حليماً عاقلاً، وكان أول من أظهر العلم بمصر، والكلام في الحلال والحرام^(٤)، ويزيد هو إمام الديار المصرية في زمانه كما قاله ابن كثير^(٥)، ويقول عنه الليث بن سعد: "هو سيدنا، وعالمنا"^(٦).

إلا أنه كان ذا حظ قليل في علم التأويل، فقد كان يغلب عليه الطابع المدني في التحديث والانشغال به عن التفسير، فأكثر في الحديث وروى عن جملة من التابعين أمثال نافع وسالم^(٧)، كما أنه انشغل بما انشغل به أهل مصره من المغازي والسير، حتى ما رأيت له في التفسير على قلتها كان حول مسائل في السيرة^(٨)، ولم ينتشر التفسير بمصر إلا في عصر أتباع التابعين، فقد ظهر الليث بعد سعد، ونشر العلم بمصر، وكان ذا حافظة قوية وفقه دقيق حتى قال عنه الشافعي: «الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا عليه»^(٩)، وانتشر في عهد أتباع التابعين تفسير ابن عباس الذي رواه علي بن أبي طلحة، وكانت نسخة منه موجودة عند أبي صالح كاتب الليث^(١٠)، وكذلك تفسير سعيد بن جبير، الذي رواه عطاء بن دينار، وهو من ثقات أتباع التابعين، وقد أخذ من ديوان عبد الملك بن مروان^(١١)، ومع عدم وجود مادة علمية في المراجع بين أيدينا تدل على رواية المصريين للتفسير، إلا أني أميل إلى ظهور التفسير في عصر التابعين في مصر، بمنهج المدرسة المكية، ولكن لم ينقل بسبب الورع الذي تلقوه عن شيخهم عقبة، والتأثر بالمنهج المدني في رواية الآثار والسير.

ثالثاً: خصائص مدارس التفسير في عصر التابعين

فإن القول بتعدد المدارس يستلزم ضرورة القول بتعدد المناهج، واختلاف المسالك والمشارب، فكل مدرسة سماتها وخصائصها التي انفردت بها أو اعتنت بها أكثر من اعتناء غيرها، لذلك استحكمت أن تكون مدرسة قائمة بذاتها، وإلا فإن مجرد الاختلاف المكاني ليس له كبير اعتبار في هذا الصدد.

وقد امتاز عصر التابعين عموماً بمزايا جليلة منها:

- (١) المعرفة (٢/ ٤٨٤).
- (٢) سيرة الإمام مالك لأبي زهرة (٨٤).
- (٣) حسن المحاضرة (١/ ٢٩٦).
- (٤) تهذيب الكمال (٣٢/ ١٠٥)، والتهذيب (١١/ ٣١٨)، والنجوم الزاهرة (١/ ٣٠٨)، وحسن المحاضرة (١/ ٢٩٩).
- (٥) تفسير ابن كثير (٤/ ١٠).
- (٦) تهذيب الكمال (٣٢/ ١٠٥)، وحسن المحاضرة (١/ ٢٩٩)، والشذرات (١/ ١٧٥).
- (٧) طبقات ابن سعد (٧/ ٥١٣).
- (٨) بعد مراجعة تفسير ابن كثير، نجد له ثلاثة آثار كلها حول ذلك (٣/ ٥٧٠)، (٤/ ١٠)، (٨/ ٢٧٤)، والمواضع التي وجدت النقل عنه فيها عند أبي زهرة في تاريخه كانت أيضاً حول مسائل في المغازي والسير، ينظر تاريخ أبي زهرة (١/ ٢١٩، ٢٩٠، ٣٨٦، ٤١٣، ٤٣١، ٥٢٤، ٥٣٧، ٥٩٤، ٦٣٠، ٦٣٥، ٦٣٦).
- (٩) وهذا يؤكد ما قاله أبو زهرة: إن الشافعي درس فقه الليث فانتهى إلى هذه النتيجة، ينظر كتاب سيرة الإمام مالك لأبي زهرة (٨٤).
- (١٠) الإتيان (٢/ ٥٣٢) ط بيروت، دراسات في التفسير وأصوله (٣٠٧).
- (١١) الجرح (٦/ ٣٣٢)، والمراسيل (٥٨)، والتهذيب (٧/ ١٩٨)، وتاريخ التراث (١/ ٧٦).

- ١- قربهم من عهد النبوة؛ ورؤيتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتتلذذهم على أيديهم، وتأديبهم بأدابهم، ورؤيتهم لبعض آثار النبوة.
- ٢- عيشهم في الحكم الرشيد الذي فيه عزّة للمؤمنين، ونصرة للسنة وحفظ لها، وحضّ على تعلم العلم الصحيح ونشره، وتقديم أهل العلم والفضل، وهذا الأمر إنما يعرف قدره من رأى ما حصل في القرون التالية من تقريب لأهل الأهواء والبدع؛ حتى آذوا أهل السنة إيذاء شديداً؛ كما حصل لما قرب المأمون ومن بعده من الخلفاء المعتزلة الذين حملوا الناس على القول بخلق القرآن، وفتنوا المسلمين فتنة شديدة.
- ٣- كونهم في عصر الاحتجاج اللغوي، فكانوا أقرب إلى السلامة من اللحن ممن أتى بعدهم، فلم يكن يعرف اللحن عن العلماء منهم، وإنما كان قد يقع بعضه من بعض الذين خالطوا العجم، أو ممن أسلم من العجم، ولم يكن سريان اللحن في أهل ذلك العصر كثيراً كما حصل في القرن الذي بعدهم.
- ٤- كثرة حلقات العلم في زمانهم، ووفرة العلماء، وقلة الأسانيد؛ وهذا أدعى لحفظ العلم وضبطه.

وفيما يأتي نذكر خصائص أشهر مدارس التابعين:

١- المدرسة المكية:

المدرسة المكية مدرسة عظيمة النتاج، نقل إلينا من علمهم الشيء الكثير، حتى لقد فاق المنقول عنها ما نقل عن سواها من المدارس، وقد تميزت بخصائص كثيرة، انفردت في بعضها عن المدارس الأخرى، وهذه هي محل البحث والدراسة، وقد تحصل لي من هذه الخصائص ما يلي:

- أ - كثرة الاجتهاد والاستنباط.
- إن تفسير القرآن مطلب مهم، وغاية قصوى لأنه كتاب هداية وحكمة ونور، والتفسير هو شرح لمراده سبحانه، وتطبيق لأوامر الشرع ونواهيه، ولقد حفلت المصنفات في علوم القرآن بكثير من الآثار والروايات، تحذر من خوض غمار التفسير، إلا لمن هو أهل لأن من قال في القرآن برأيه، وعلى غير هدى فليتبوأ مقعده من النار.
- ومن الملاحظ أن هذه الآثار، أو أكثرها، التي تحذر من الخوض في التأويل، مدارها على رجال المدرسة المدنية، والكوفية، في حين قلّ المروي عن المكيين في ذلك، فكثرت في المقابل عندهم الاجتهاد، والاستنباط.
- وقد يلحظ الباحث أسباباً أخرى لهذه الكثرة في المنقول، اجتهاداً عنهم، لعل أبرزها هو شخصية شيخ المدرسة حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.
- ب - التخصص في علم التفسير:

إن التخصص ظاهرة عصرية نسيباً، والمراد بذلك أن العالم أو الباحث يأخذ بطرف من علوم كثيرة، مع التميز، والاعتناء بعلم واحد، أو فرع واحد من العلوم، وهذا هو الذي درجت عليه النظم الحديثة في التعليم، وهذا التخصص يتيح الفرصة الأكبر للإبداع والعطاء لأن العلوم جميعها لا يمكن أن يحيط بها إنسان واحد، والأعمار أقل من أن تمنح هذا العطاء الواسع، واحتياجات الأمم تتنوع في شتى العلوم، والفنون.

والتخصص لم يكن بعيداً عن العهد الأول، فأعلم الناس بالحلال والحرام معاذ، وأفرض الصحابة زيد، إلا أن التخصص في التفسير وعلوم القرآن لم يظهر بصورة واضحة إلا على يد المدرسة المكية التي صرفت همتها، واستفرغت وسعها في كتاب الله تعالى شرحاً، وبياناً، وتوضيحاً، وتفسيراً، ولغة، وفقها، وهذا الاهتمام الواسع أقدمهم عن مسابقة الأقران في علوم أخرى من وجه، ودفع بهم إلى المقدمة في التفسير، وعلوم القرآن من وجه آخر، فبزوا الأقران في ذلك، وكثرت المنقول عنهم فيه، أكثر من غيرهم في الجملة.

ولما كان علم التفسير يحتاج إلى علوم أخرى خادمة له، نجدهم قد تخصصوا أيضا في هذه العلوم التي تخدم علم التفسير، وتسير في ركابه، وأدى بهم هذا التخصص إلى أن تعرضوا، وتوسعوا في فروع من علوم القرآن لم يتوسع فيها أحد قبلهم. فمن ذلك: علم الأشباه والنظائر، وهو الذي يبحث في الآيات المتناظرة التي يشبه بعضها بعضا في دلالة الأحكام والبيان، وهذا لا يستغني عنه مفسر، حتى لا يختلف قوله في موضعين من باب واحد. وقد يسمى أيضا بكليات القرآن، وهو منهج استقرائي دقيق يدل على سعة علم صاحبه، وخبرته التامة بالآيات.

ت - قلة اهتمام أصحابها بالعلوم الأخرى مقارنة بالتفسير:

إن هذه الخصيصة تكاد تعتبر نتيجة لخصيصة التخصص، وإنما أفردتها بالذكر لتتضح لنا صورة المدرسة المكية من جميع جوانبها، فلقد كان أئمة هذه المدرسة تميزوا بالسبق في علم التفسير، وخاصة مجاهد، وعكرمة، ثم ابن جبير، بل إن عطاء الذي نقلت عنه فتاوى فقهية دقيقة، كان جل علمه الفقهي في الحلال والحرام مختصا بمسائل الحج، فهو لم يخرج من حيز التخصص، فقد كان المكيون أكثر الناس تعرضا لآيات الحج، مما أكسبهم فقها دقيقا في مسائل الحج، وهذا أمر ضروري تستدعيه الحاجة إلى إفتاء الناس الوافدين من حجاج ومعتمرين على مكة في كل وقت وموسم، ولاشتغالهم به حث الأئمة على أخذ المناسك عن المكيين^(١). يقول ابن عيينة: "خذوا المناسك عن أهل مكة، والقراءة عن أهل المدينة، والحلال والحرام عن أهل الكوفة"^(٢).

ث - التوسع في الإسرائيليات:

مما يبدو واضحا للمطالع في كتب التفسير أن المدرسة المكية أكثر المدارس تساهلا في الرواية عن بني إسرائيل^(٣)، وبدأ هذا المنحى عن شيخ المدرسة ابن عباس رضي الله عنهما حيث تعرض للنقل والرواية عن كعب الأحبار، مستدلا في ذلك بحديث إبادة الحديث عن بني إسرائيل، وقد درج على هذا الأمر تلامذته وأصحابه (سعيد ومجاهد وعكرمة)، فتوسعوا في النقل عن أهل الكتاب، وكان هذا أيضا دأب كل من كان مكي المنهج، والمشرب وإن لم يكن من قاطنيها، يدل ذلك على ما تراه جليا في تفسير أبي العالية، والسدي.

وبهذا تكون المدرسة المكية قد أدخلت هذا العنصر الأخباري في مجال التفسير لفهم محتوى النص، وما يتبعه من عرض للتاريخ، وكشف لأحوال الأمم السابقة للعظة والعبرة، وهذا كله لم تشاركها مدرسة أخرى فيه، وقد عد ذلك بعض الباحثين بداية مرحلة جديدة من مراحل تطور التفسير، انتقل فيها من التفسير الأثري الذي يعتمد على الرواية، إلى التفسير الأثري النظري الذي يعتمد على الرواية والدراسة، وتلك نقلة مهدت لظهور التفاسير الجامعة التي ظهرت في القرنين الثاني، والثالث، على يدي يحيى بن سلام، ومحمد بن جرير الطبري^(٤).

٢- خصائص المدرسة البصرية

(١) انظر: البداية (٢٧٦ / ٩).

(٢) معجم البلدان (٤٩٣ / ٤).

(٣) بلغ نسبة المروي عن مشاهير المكيين في الإسرائيليات (٣٥، ٠) من مجموع الآثار المنقولة عن التابعين، كما بلغت نسبة المروي عن الناقلين لتفسير ابن عباس المتأثرين بمنهج ابن عباس (٣٦، ٠) من مجموع الآثار المنقولة عن التابعين من الإسرائيليات، (وأعني بهم السدي، وأبا العالية، وغيرهم) أي: إن مجموع ما روي عنهم (٧١، ٠) من مجموع المنقول في الإسرائيليات.

(٤) دراسات في التفسير وأصوله (٧٣).

تميزت المدرسة البصرية بخصائص كثيرة أدت إليها عوامل شتى، وقد حاولت في هذا الفصل أن أستعرض أهم الخصائص التي تميزت بها، مركزا في كثير منها على المقارنة بينها وبين غيرها من المدارس، ولا سيما صنوها المدرسة الكوفية التي كانت تحاذيها في المكان. وقد تحصل من هذه الخصائص ما يلي:

أ- الاهتمام باللغة:

المقصود بهذا: بيان تقدّم هذه المدرسة على غيرها من المدارس في تخير الأساليب البلاغية، وانتقاء العبارات الجميلة عند الإفصاح عن تفسير الآيات، وما يدخل تحت هذا من جودة سبك العبارة، ولطافة الأسلوب، وهذه الخصيصة، وإن كان يشار إليها في شيء منها بعض المدارس الأخرى إلا أن اجتماعها بهذا الوضوح والشمول، لا نجد في غير مدرسة البصرة، ولعل ذلك راجع إلى كون البصرة سبقت مدائن العالم الإسلامي في وضع قواعد النحو، حتى إنها سبقت قرينتها الكوفة التي كثيرا ما تقرن بها في جانب النحو، فيقال: (مذهب البصريين، ومذهب الكوفيين) لأن الكوفة كانت بعيدة عن الحركة التجارية الواسعة التي كانت تعج بها أسواق البصرة، والتي أدت إلى اختلاط اللسان العربي بغيره من اللغات، ولا سيما اللغات التي كانت منتشرة في الهند، والمشرق، في حين كانت الكوفة مقرا للعنصر العربي ولم يحصل لها هذا الاختلاط، فحافظ ذلك على لسانها^(١).

ب- هيمنة الجانب الوعظي في التفسير:

ومما تميزت به هذه المدرسة أيضا، اعتماد أئمتها على الجانب الوعظي في التفسير، وصوغهم عبارات التفسير في قوالب الحكمة والعظة، وصونهم كلامهم عن العبارات الجافة التي لا تؤثر في المخاطب، ولا تهز المشاعر، وتعتبر مدرسة البصرة رائدة المدارس الوعظية التي جمعت بين العلم، وصحة الحديث من جانب، وبين الأساليب الراقية التي تؤثر في الوجدان، وتهيج النفوس، وتشوق الأرواح من جانب آخر، وهذا ما نجد في تفسير الحسن، كما هو في تفسير قتادة.

وللباحث أن يلحظ عدة أسباب، يمكن أن نعتبرها المحور الأساس الذي أثر في اتجاه هذه المدرسة: فمن ذلك ما عرفت به البصرة آنذاك من الانفتاح التجاري على المشرق، وما أدى إليه ذلك من مظاهر الترف، فصار لزاما على العلماء والشيوخ أن يدرءوا هذا الخطر الداهم بتزويد الناس في الدنيا، وبيان حقيقتها، وأنها معبر للأخرة، ليست بدار إقامة.

وهذا يكاد يكون أمرا مطردا في كثير من البلدان التي يتسلل إليها روح التنعم، والدعة.

وقد يرد على هذا أن أهل مكة لا يظهر هذا واضحا في مناهجهم العلمية، سواء كانت تفسيريا أو غير ذلك، إلا أنه يمكن القول بأن أهل مكة لم يصلوا في ترفهم ما وصل إليه أهل البصرة، ومن جانب آخر فإن المناخ الجغرافي والحرارة الشديدة في مكة لم تكن تدع النعيم يصفو لأهلها، وعلى كل فالمنهج أغلب في الجملة، أما المدرسة المدنية فاستغنت بالوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكثرة المروي من الحديث فيها، فاتجهت للوعظ بالحديث والأثر، في حين أن المدرسة العراقية التي كان نصيبها من الحديث قليلا اتجهت فيها الهمم إلى ما روي عن التابعين من مواعظ وآثار فجمعت، وتناقلتها الألسن. وتبعاً لذلك فقد انتشر الزهد عند العراقيين، وصارت الكتب المؤلفة في الزهد عراقية المبدأ، والمشرب، وظهرت كتب الزهد، لوكيع، وهناد، وابن المبارك، وهي عراقية، في حين قل أن تجد مرويات في الزهد عن أئمة الحجاز (كابن المسيب، والزهري) وغيرهما في عامة كتب الوعظ والرفائق، بل يمكن القول بأن بذرة التصوف (وكان في أول الأمر خاضعا للزهد فحسب) قد نبتت، وترعرعت في أرض العراق، وفي البصرة بالذات.

وقد يكون من الأسباب أيضا اتباع أئمة المدارس لشيوخهم. فالمدرسة العراقية كثر في كلامها الزهد أكثر من المدرسة المكية بكثير، وقد يكون ذلك تبعا لاختلاف المروي عن شيوخ

(١) انظر: كتاب الشافعي لأبي زهرة ص (٥٧).

المدارس، فابن مسعود أكثر من ذلك، فكان المروي عنه في كتب الزهد يزيد على ثلاثة أضعاف ما روي عن ابن عباس رضي الله عن الجميع^(١).

٣- خصائص المدرسة الكوفية:

ومن ابرز سمات هذه المدرسة:

أ- الاهتمام بتفسير آيات الأحكام:

ومما قام عليه منهج المدرسة الكوفية واختصت به، العناية الفائقة بالأحكام الفقهية المستنبطة من النصوص القرآنية، فقد تناولت في تفاسيرها الأحكام بالعرض، والتفصيل، والتوجيه، فصارت من أكثر المدارس عناية بهذا الجانب^(٢)، وقد تأثرت في ذلك بمسلك إمامها ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه الذي عدّ من قضاة الصحابة، ومن المكثرين في الفتوى، واعتبره ابن حزم سبع سبعة من كبار الصحابة الذين يمكن أن يجمع من فتوى كل واحد منهم سفر ضخم^(٣)، وكان رضي الله عنه معدودا سادس ستة من مفتي الصحابة^(٤).

ب- الاهتمام بالقراءة

وهذا مما اختصت به مدرسة الكوفة، وسبقت فيه، فقد حرص الكوفيون أشد الحرص على هذا العلم، فقلما تجد مفسرا بينهم يخلو تفسيره من الاعتماد على القراءات في إيضاح المعاني القرآنية لأنها السبيل الموصل إلى فهم بعض المعاني، وبيان المراد بها. وقد جعلوا القراءة أصلا من الأصول التي اعتمدوا عليها في منهجهم في التفسير، حتى إن كثيرا من الأئمة تمنى أن لو كان يقرأ بقراءة شيخهم، وقد ذكر السيوطي أن عدد القراء في الكوفة، كان يزيد على عدد القراء في كل من المدينة، ومكة، والشام، والبصرة^(٥).
ت- الانشغال عن التفسير بالحديث، والمغازي، والسير، والفقه الأثري:

لقد انشغل أهل المدينة بالحديث والأثر، بسبب توافر عدد كبير من الصحابة بها، كلهم يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، واهتموا به، واعتنوا بحفظه ونشره، ولا سيما الأنصار، حتى شهد لهم ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: وجدت أكثر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذا الحي من الأنصار^(٦)، ولأجل هذا الاهتمام قبل كثير من أهل العلم رأي أهل المدينة وعلمهم، وجعلوه حجة، قال زيد بن ثابت: إذا رأيت أهل المدينة على شيء فاعلم أنه السنة^(٧)، وما ذاك إلا لاهتمامهم بالسنة والحديث، فهم أكثر اهتماما بذلك من مدرسة الكوفة مثلا، التي أقلت من رواية الحديث، وأكثرت من

(١) بعد تتبع ما روي في كتب الزهد للأئمة أحمد، ووكيع وابن المبارك وهناد، وجدت المنقول فيها (٣٦٧) أثرا عن ابن مسعود، في حين كان المنقول عن ابن عباس (١٢٠) أثرا، وعن أنس (١٢٠) أثرا، وعن عمر (١٤٨) أثرا، وعن علي (٦٧) أثرا، وعن أبي الدرداء (١٣٦).

(٢) بعد مراجعة لتفاسير المشاهير من كل مدرسة، نجد أن نسبة ما روي عن الكوفيين في تفسير آيات الأحكام بلغ (٣١، ٠) من مجموع تفسيرهم، في حين بلغ عند المدنيين (١٩، ٠)، ولم يزد عند المكيين عن (٥، ٠)، وعند البصريين عند (٤، ٠) من مجموع تفسيرهم.

(٣) الأحكام لابن حزم (٤/ ١٧٦)، وإعلام الموقعين (١/ ١٢).

وقد جمع د. محمد رواس قلججي قدرا كبيرا من آراء عبد الله بن مسعود، وفقهه، واجتهاداته، في موسوعة فقه عبد الله بن مسعود، نشرها مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى.

(٤) تهذيب الكمال (١٠/ ٣٠).

(٥) انظر: الإقتان (١/ ٧٣).

(٦) سنن الدارمي (١/ ٤١).

(٧) المعرفة (١/ ٤٣٨).

الأثار عن الصحابة^(١)، وترتب على ذلك أن الأئمة كانوا يقدمون أهل المدينة على أهل العراق في الحديث^(٢).

كما اهتم أهل المدينة أيضا بالمغازي والتاريخ، بل كانوا المقدمين في ذلك، يقول شيخ الإسلام: إن أعلم الناس أهل المدينة، ثم أهل الشام، ثم أهل العراق، فأهل المدينة أعلم بها لأنها كانت عندهم^(٣).

حوادث وقعت في عصر التابعين

وحدث في عصر التابعين أمور كان الصحابة رضي الله عنهم في عافية منها، وابتلي بها عصر التابعين، وكان لهذه الأمور أثرها في تعلم التفسير وتعليمه، ومنها: الأمر الأول: أن الذين عاشوا في عصر التابعين لم يكونوا كطبقة الصحابة رضي الله عنهم في العدالة والضبط والإمامة في التفسير؛ بل كانوا على درجات، فمنهم التابعون بإحسان وهم الذين أثنى الله عليهم، ومنهم دون ذلك؛ فلم يكن لهم ما كان للصحابة رضي الله عنهم من الحكم بعدالة جميعهم، وعصمتهم من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعصمتهم من القول في التفسير بالرأي المذموم، وقد نبه الصحابة التابعين إلى أن لا يأخذوا العلم إلا من أهله. -قال مجاهد: جاء بشير العدوي إلى ابن عباس، فجعل يحدث، ويقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه، ولا ينظر إليه؛ فقال: يا ابن عباس، مالي لا أراك تسمع لحديثي، أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا تسمع، فقال ابن عباس: "إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلا يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بأذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف"^(٤).

وقال طاووس بن كيسان: سمعت ابن عباس، يقول: "إنا كنا نحفظ الحديث، والحديث يحفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأما إذا ركبتم الصعب والذلول، فهيهات"^(٥).
والأمر الثاني: كثرة الفتن وحروب الفتنة في عصرهم، وكان لذلك أثره في ظهور بعض التآولات الخاطئة، والعصبية لبعض الأهواء.

الأمر الثالث: نشأة الفرق والأهواء؛ واستفحال خطر بعضها ولا سيما في آخر عصر التابعين؛ كالخوارج والشيعية والمرجئة والقدرية والمعتزلة.
وكان من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من يحذر من تلك الفرق، ويوصي بلزوم السنة، ويروي ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك.

- عن ابن أبي مليكة، عن القاسم بن محمد، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ، مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ}، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ، وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ: آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم"^(٦).

(١)الرفع والتكميل (٨٧).

(٢)المعرفة (٤٣٨ / ١).

(٣)مجموع الفتاوى (٣٤٦ / ١٣).

(٤) صحيح مسلم ١٣/١.

(٥) صحيح مسلم ١٣/١، وسنن ابن ماجه (٢٧):ض ١٢/١، واللفظ له.

(٦) صحيح البخاري(٤٥٤٧):ص ٣٣/٥.

- وقال يحيى بن يعمر: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني؛ فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين - أو معتمرين - فقلنا: لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليّ؛ فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن، ويتفكرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف، قال: "فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنني بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أنّ لأحدهم مثل أحد ذهباً، فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر"^(١).
- وقال ابن عباس: "لا تجالس أهل الأهواء فإن مجالستهم ممرضة للقلوب"^(٢).
- وقال محمد بن عليّ بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية: "لا تجالسوا أصحاب الخصومات، فإنهم الذين يخوضون في آيات الله"^(٣).
- وقال أبو قلابة الجرمي: "لا تجالسوا أهل الأهواء، ولا تجادلوهم فإنني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون"^(٤).
- وقال ميمون بن مهران: "لا تجالسوا أهل القدر، ولا تسبوا أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- ولا تعلموا النجوم"^(٥).
- والأمر الرابع: ظهور العجمة بسبب اتساع الفتوحات واختلاط العجم بالعرب، ووقوع اللحن، ولما رأى ذلك الصحابة رضي الله عنهم؛ حضوا على تعلم العربية والتفقه فيها، وحدروا من اللحن خشية أن يتأول القرآن على غير تأويله.
- عن عمر بن زيد قال: كتب عمر [بن الخطاب] إلى أبي موسى: أما بعد فتفقها في السنة، وتفقهوا في العربية، وأعرّبوا القرآن فإنه عربي، وتمعددوا فإنكم معديون"^(٦).
- عن يحيى بن يعمر عن أبي بن كعب قال: تعلموا العربية كما تعلمون حفظ القرآن"^(٧).
- عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر: "أنه كان يضرب ولده على اللحن"^(٨).
- وقال يحيى بن عتيق للحسن البصري: رأيت الرجل يتعلم العربية ليقيم بها لسانه ويصلح بها منطقته. قال: نعم، فليتعلمها، فإن الرجل يقرأ بالآية فيعيها بوجهها فيهلك"^(٩).
- قال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد، والله ما أراك تلحن!! فقال: "يا ابن أخي، إني سبقت اللحن"^(١٠).
- وقد أدى ظهور العجمة ببعض المشتغلين بالعلم في ذلك العصر إلى إساءة فهم بعض معاني القرآن؛ وكان علماء التابعين يبيّنون لهم، ويحدّرون من العجمة، وقد خالف في ذلك بعض أهل الأهواء فضلوا.

(١) صحيح مسلم (١٤٠٨): ص ١٠٧/٢.
(٢) الإبانة (٢/ ٥٢١/٣ / ٦١٩) والشريعة (١/ ١٣٩/١٩٦).
(٣) سنن الدارمي (٢٢١): ص ٢٩٥/١.
(٤) سنن الدارمي (٤٠٥): ص ٣٨٧/١. إسناده صحيح
(٥) السنة لعبدالله بن أحمد (٩١٠): ص ٤١٦/٢.
(٦) مصنف ابن أبي شيبة (٢٩٩١٤): ص ١١٥/٥.
(٧) مصنف ابن أبي شيبة (٢٩٩١٥): ص ١١٦/٦.
(٨) مصنف ابن أبي شيبة (٢٥٦٥٠): ص ٢٤٠/٥.
(٩) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٨٤): ص ٤٣/٣.
(١٠) مصنف ابن أبي شيبة (٢٩٩٢٠): ص ١١٥/٦.

- قال عبدة بن زيد النميري: سمعت الحسن يقول: " أهلكتم العجمة يتأولون القرآن على غير تأويله"^(١).

والأمر الخامس: إسلام بعض أحبار اليهود، ونشرهم ما قرؤوه من كتب أهل الكتاب من الإسرائيليات التي كثر التحديث بها في عصرهم، وكان من التابعين من يأخذ عن هؤلاء ويروي عنهم، وكان من التابعين من يقرأ في كتب أهل الكتاب، ويحدث منها. الأمر السادس: كثرة الفصّاص والأخباريين؛ الذين يعقدون مجالس للوعظ والتذكير والقصص والحكايات التي يدخل في كثير منها أخطاء في الرواية والدراية، ومنهم من تروج قصصه وأخباره ومواعظه حتى يدونها بعض المعتنقين بالتفسير، وخرج من أولئك الفصّاص والأخباريين من تكلم في التفسير؛ فأدخل في كتب التفسير من ذلك ما أدخل؛ كالسدي والكلبي. ولما فطن الصحابة وكبار التابعين لأغلاط هؤلاء القصاص تجنبوا مجالسهم، وحذروا منهم.

- قال الإمام مالك: كان عبد الله بن عمر يقول لبعض من كان يقصّ: "أخرجني من بيتي"^(٢).
- وقال حماد بن زيد: حدثنا عاصم، قال: كنا نأتي أبا عبد الرحمن السلمي ونحن غلّمة أيفاع، فكان يقول لنا: "لا تجالسوا القصاص غير أبي الأحوص"^(٣).
وأبو الأحوص هو عوف بن مالك الجشمي تابعي ثقة، وكان يقص، ومن ثقات القصاص أيضاً: أبو حازم سلمة بن دينار، كان ثقة كثير الحديث. لكن من كان يظهر منه الخطأ الفاحش في الرواية من القصاص، والتخليط بين الصحيح والضعيف، والقول الذي منشؤه الفهم الخاطيء، ومعارضة الأدلة الصحيحة كانوا يحذرون منه.

والأمر السابع: ظهور بعض مظاهر التفريط والإفراط؛ ومخالفة هدي النبي صلى الله عليه وسلم، فظهر بعض الغلاة الذين جاوزوا الحدّ المشروع فشقوا على أنفسهم، وظهر بعض المفرطين الذين فتنوا بأنواع من الفتن؛ كفتنة المال وفتنة الجاه وفتنة السلطان. وكان الصحابة رضي الله عنهم يحذرونهم من هذه الفتن، وكان كبار التابعين وعلمائهم يحذرون سائرهم وينصحون لهم في ذلك.

- قال ميمون بن مهران: "يا أصحاب القرآن لا تتخذوه بضاعة تلتمسون به الشرف في الدنيا، واطلبوا الدنيا بالدنيا، والآخرة بالآخرة"^(٤).

- وقال الإمام ميمون بن مهران أيضاً: "لو أن أهل القرآن أصلحوا، لصلح الناس"^(٥).

- وقال الإمام الفضيل بن عياض (ت: ١٨٧هـ): "حامل القرآن: حامل راية الإسلام، لا ينبغي له أن يلغو مع من يلغو، ولا أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو"^(٦).

- وقال أبو العالية الرياحي: "يأتي على الناس زمان تخرب صدورهم من القرآن ولا يجدون له حلاوة ولا لذّة إن قصروا عما أمروا به قالوا: إن الله غفور رحيم، وإن عملوا بما نهوا

(١) تفسير القرآن ممن الجامع لابن وهب (٨٥): ص ٤٤/٣.

(٢) الجامع لابن وهب: ٦٦٢.

(٣) صحيح مسلم: ٢٠/١.

(٤) رواه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (ج ٦١/ص ٣٥٤)، وإسناده صحيح.

(٥) رواه أبو نعيم في "حلية الأولياء" (ج ٤/ص ٨٣)، وإسناده صحيح.

(٦) رواه أبو نعيم في "حلية الأولياء" (ج ٨/ص ٩٢)، وإسناده حسن.

عنه قالوا: سيغفر لنا إنا لم نشرك بالله شيئاً، أمرهم كله طمع ليس معه صدق يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أفضلهم في دينه المداهن" (١).
 والمقصود أن هذه الأمور كان لها آثارها في ذلك العصر على تعلم التفسير وتعليمه، ولذلك تفاوت أهل ذلك العصر؛ لكن بقي عامة التابعين مستمسكين بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحسنوا اتباعهم؛ وهم أكثر الذين حُمل عنهم العلم، ونقلت إلينا أقوالهم ومروياتهم في التفسير؛ فحملوا هذا العلم خير محمل، ونقل من عملهم به وصلاح أحوالهم ما كانوا به أئمة يقتدى بهم، وأدوا هذا العلم أداء حسناً لمن بعدهم.
 وأما الذين يظهر منهم ضعف وتخليط في القول في التفسير أو في رواية أحاديث التفسير وآثاره؛ أو يظهر منه انتحال لفرقة من الفرق، ونحو ذلك مما يقدر في أهليته لأن يُتلقى عنه العلم أو تقبل روايته أو يقبل قوله؛ فإن الأئمة النقاد قد بينوا حاله، وتكلموا في شأنه بما يكفي ويشفي بإذن الله.
 وكان أثر هذه الأمور في عصر التابعين أقلّ منه فيمن بعدهم، وكلّ قرن يأتي على الناس تكون الفتنة فيه أشد.

يتضح مما سبق بأن أبرز جماعة التابعين ممن اشتهروا بمعرفة التفسير فبرعوا ونبغوا فيه، هم:

- ١- سعيد بن جبير (ت ٩٥هـ)
- ٢- عكرمة (ت ١٠٧هـ)
- ٣- مجاهد (ت ١٠١ أو ١٠٢ أو ١٠٣ أو ١٠٤هـ)
- ٤- أبو العالية (ت ٩٠هـ)
- ٥- قتادة (ت ١١٠هـ)
- ٦- عامر الشعبي (ت ١٠٥هـ)
- ٧- مسروق (ت ٦٣هـ)
- ٨- الحسن البصري (ت ١١٠هـ)
- ٩- الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٥ أو ١٠٦هـ).

وقد استفادوا من تلك المنهجية العلمية الدقيقة التي بوأتهم مكانة مرموقة، فتصدروا مجالس العلم وبدأ بعضهم بتدوين التفسير فكانوا طليعة الفرسان في هذا الميدان، ففي عصرهم بدأ تدوين التفسير، وأول من قام بذلك سعيد ابن جبير الأسدي (ت ٩٥هـ) عندما كتب الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان يسأل سعيد ابن جبير أن يكتب إليه بتفسير القرآن وقد استجاب له فصنف التفسير وقد وجد عطاء بن دينار هذا التفسير في الديوان، فرواه عن سعيد وجادة (٢).

وفي هذا العصر انتشرت كتابة التفسير، روى الدارمي عن عمرو بن عون، أنا فضيل، عن عبيد المكتب قال: " رأيتهم يكتبون التفسير عن مجاهد" (٣).

وأخرج الخطيب البغدادي من طريق وكيع بن فضيل ابن عياض به (٤).

وأخرج الخطيب البغدادي بسنده عن أبي يحيى الكناسي قال: "كان مجاهد يصعد بي إلى غرفته فيخرج إليّ كتبه فأنسخ منها" (٥).

أشهر تفاسير أتباع التابعين وما بعدهم

(١) الزهد لأحمد (١٧٤١): ص ٢٤٥.

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن أبيه في الجرح والتعديل ٣٣٢/٦.

(٣) السنن - باب من رخص في كتابة العلم ١٢٨/١.

(٤) تقييد العلم ص ١٠٥.

(٥) تقييد العلم ص ١٠٥.

وقد واكب هذا التدوينُ الفتحَ الإسلامي الذي امتدت أطرافه شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً مما أدى إلى اتساع انتشار هذا العلم إضافة إلى ذلك ازدياد الرحلات العلمية، وكان لتدوينه أيضاً أثر كبير في انتشاره وتداوله عند أهل العلم من صغار التابعين وأتباع التابعين مثل:

- ١- الضحاك بن مزاحم الهلالي (ت ١٠٥ هـ أو ١٠٦ هـ)
 - ٢- ومقاتل بن سليمان البلخي (ت ١٠٥ هـ وقد طبع تفسيره^(١)).
 - ٣- وطاوس بن كيسان اليماني (ت ١٠٦ هـ)
 - ٤- وقتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٠ هـ)
 - ٥- ومحمد بن كعب القرظي (ت ١١٨ هـ)
 - ٦- والسدي الكبير (ت ١٢٧ هـ)
 - ٧- وعبد الله بن يسار المعروف بابن أبي نجیح (ت ١٣١ هـ)
 - ٨- وعطاء الخراساني (ت ١٣٥ هـ وقد حققتُ قطعة من تفسيره^(٢)).
 - ٩- وزيد بن أسلم العدوي (ت ١٣٦ هـ)
 - ١٠- والربيع بن أنس البكري (ت ١٤٠ هـ)
 - ١١- وعلي بن أبي طلحة (ت ١٤٣ هـ) استخرج السيوطي أغلب صحيفة علي بن أبي طلحة من تفسير الطبري وابن أبي حاتم^(٣).
 - ١٢- والأعمش سليمان بن مهران (ت ١٤٧ هـ أو ١٤٨ هـ)^(٤).
- وكل هذه التفاسير قد أفرد لكل تفسير مؤلف جمعت في مرويات كل مفسر، وأغلبها رسائل جامعية.

وغيرهم من المفسرين المتقدمين فقام هؤلاء بجمع نسخ وروايات وصحف كبار التابعين وتدوينها فسطع قبس التفسير في أرجاء العالم الإسلامي آنذاك ثم ازداد تألقاً في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري حيث استنار العلماء الذين تلقوا هذا العلم من شيوخهم واعتنوا به فحفظوه أو كتبه ثم روه لتلاميذهم فتوسعت حركة تدوين التفسير وظهرت تفاسير مشابهة للتفاسير المتقدمة وقد تكون أوسع منها مثل: تفسير سفيان الثوري (ت ١٦١ هـ)^(٥).

١٣- وتفسير معاوية بن صالح (ت ١٥٨ هـ أو ت ١٧٢ هـ) وهو الراوي لصحيفة علي بن أبي طلحة.

- ١٤- وتفسير شيبان بن عبد الرحمن النحوي (ت ١٦٤ هـ) وهو راوي التفسير عن قتادة.
- ١٥- وتفسير نافع بن أبي نعيم القارئ (ت ١٦٧ هـ أو ١٦٩ هـ)^(٦).
- ١٦- وتفسير أسباط بن نصر الهمداني (ت ١٧٠ هـ) وهو الراوي لتفسير السدي.
- ١٧- وتفسير مالك بن أنس إمام دار الهجرة (ت ١٧٩ هـ).
- ١٨- وتفسير مسلم بن خالد الزنجي (ت ١٧٩ هـ)^(٧).
- ١٩- وتفسير عبد الله بن المبارك المروزي (ت ١٨١ هـ).

(١) حققه د. عبد الله محمود شحاتة وطبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة.

(٢) نشرته مكتبة الدار بالمدينة المنورة.

(٣) انظر الإقتان ٦/٢ - ٤٦، والصحيح المسبور في التفسير بالمنثور: ١٧/١.

(٤) كل هؤلاء المفسرين لهم تفاسير ذكرت في كتب طبقات المفسرين للسيوطي والداوودي وعمر نزيه التركي - باللغة التركية- ومعجم المفسرين لعادل نوهيضي، وكتب فهارس التراث مثل كشف الظنون وفهرست ابن النديم وتاريخ التراث لسزكين وكتب الإجازات مثل المعجم المفهرس لابن حجر.

(٥) مطبوع في جزء واحد.

(٦) نشرت مكتبة الدار بالمدينة المنورة.

(٧) نشرت مكتبة الدار بالمدينة المنورة.

- ٢٠- وتفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ).
 ٢١- وتفسير هشيم بن بشير السلمي (ت ١٨٣ هـ).
 ٢٢- وتفسير يحيى بن يمان العجلي (ت ١٨٩ هـ)، وقد حَقَّقَتْ قطعة من تفسيره (١).
 ٢٣- وتفسير إسماعيل بن عليّة (ت ١٩٣ هـ).
 ٢٤- وتفسير يحيى بن سلام البصري (ت ٢٠٠ هـ) (٢).
 وفي هذا العصر ازدادت كتب التفسير وبقيت على هيئة أجزاء ونسخ كتفسير الإمام مالك بن أنس فقد وصفه ابن كثير (٣) والذهبي (٤) وابن حجر (٥) والروداني (٦) بأنه جزء وكذلك التفاسير التي تقدمت في القائمة السابقة حيث ذكرت الموجودة منها وكلها على هيئة أجزاء ونسخ.

أشهر تفاسير القرن الثالث والرابع

وفي القرن الثالث والرابع الهجري دخل التفسير في مرحلة جديدة وهي مرحلة الموسوعات الجامعة في التفسير، فظهرت تفاسير ضخمة مروية ومستوعبة لكثير من الأجزاء والنسخ المبنوثة في رحاب العالم الإسلامي آنذاك ذلك العالم الذي استطاعت حضارته أن تجمع وتؤلف بين العرب والعجم والبربر تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولهذا جاءت بعض تفاسير العلماء حافلة بتفاسير السابقين وشاملة للقرآن كله وذلك بسبب انتشار العجمي ومن هذه التفاسير:

- ١- تفسير عبد بن حميد الكشي (ت ٢٤٠ هـ) (٧).
 ٢- تفسير ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ).
 ٣- تفسير ابن المنذر النيسابوري (ت ٣١٨ هـ) (٨).
 ٤- تفسير ابن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧ هـ) (٩).
 وقد ذكر الحافظ ابن حجر هذه التفاسير عند كلامه عن الذين اعتنوا بجمع التفسير المسند من طبقة الأئمة الستة فساق أسماءهم -وذكر أولهم بأنه من طبقة شيوخهم- ثم قال: فهذه التفاسير الأربعة قل أن يشذ عنها شيء من التفسير المرفوع والموقوف على الصحابة والمقطوع عن التابعين، وقد أضاف الطبري إلى النقل المستوعب أشياء لم يشاركه فيها... (١٠).
 وكذلك ابن أبي حاتم فقد حاول أن يفسر كل آية بل كل كلمة وحرف وقد يسوق أكثر من عشرة أوجه في الكلمة الواحدة (١١).
 ومن هذه التفاسير الموسوعية أيضاً:

- ١ - تفسير الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١ هـ).
 وتفسيره ضخم حافل بمائة وعشرين ألف رواية، صرح بهذا الرقم أبو الحسين بن المنادي في تاريخه فيما رواه عنه القاضي أبو الحسين أبو يعلى حيث ذكر عبد الله وصالح ابني الإمام أحمد

(١) نشرته مكتبة دار بالمدينة المنورة.

(٢) توجد منه أجزاء مخطوطة في المغرب وقد حَقَّقَتْ في تونس.

(٣) انظر التفسير ١٩٢/٢.

(٤) انظر سير أعلام النبلاء ٨٠/٨.

(٥) المعجم المفهرس ل ٤٤ ب.

(٦) صلة الخلف بموصول السلف ص ٤٣، ٤٤.

(٧) توجد منه قطعة في حواشي تفسير ابن أبي حاتم في المجلد الثاني.

(٨) توجد منه قطعة في ألمانيا الشرقية - مكتبة جوتا.

(٩) يوجد نصفه تقريباً وقد حقق في جامعة أم القرى.

(١٠) العجائب في بيان الأسباب د-٣.

(١١) انظر تفسير سورة آل عمران رقم ١٨١-١٩٨ عند قوله تعالى (وَالْفَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ).

فقال: كان صالح قليل الكتاب عن أبيه، فأما عبد الله فلم يكن في الدنيا أحد أروى عن أبيه أكثر منه لأنه سمع المسند وهو ثلاثون ألفاً، والتفسير وهو مئة ألف وعشرون ألفاً سمع منها ثمانين ألفاً والباقي وجادة... (١) ونقله أيضاً الخطيب البغدادي (٢) والذهبي (٣) ، وأبو موسى المدني في خصائص المسند (٤) ، وصرح بهذا الرقم ابن الجوزي (٥) .

وقد ذكر هذا التفسير ابن النديم (٦) ، وشيخ الإسلام ابن تيمية (٧) ، والداودي (٨) ، ومحمد السعدي الحنبلي (ت ٩٠٠ هـ) (٩) ، وحصل الروداني المغربي على إجازة روايته فذكره في ثبته ثم ساق إسناده إلى الإمام أحمد بن جعفر القطيعي عن عبد الله بن الإمام أحمد عن أبيه (١٠) . ولكن الإمام الذهبي أنكر وجود هذا التفسير، فبعد أن ذكر قول ابن المنادي قال: لكن ما رأينا أحداً أخبرنا عن وجود هذا التفسير ولا بعضه ولا كراسة منه ولو كان له وجود أو لشيء منه لنسخوه... (١١) .

ويبدو أن الإمام الذهبي لم يحظ بجزء أو كراسة من تفسير الإمام أحمد علماً بأن جزءاً من تفسير أحمد كان موجوداً في زمنه حيث نقله بنصه وفصه الإمام ابن قيم الجوزية -وهو معاصر للذهبي وتوفي ابن القيم سنة (٧٥١ هـ) أي بعد وفاة الذهبي بثلاث سنوات- فقال ابن القيم بدائع الفوائد: "ومن خط القاضي من جزء فيه تفسير آيات من القرآن عن الإمام أحمد. ثم ساقه بأكمله في تسع صفحات" (١٢) إضافة إلى ذلك أن الحافظ ابن حجر أفاد من تفسير أحمد وصرح بنقله منه (١٣) .

والحق أن تفسير الإمام أحمد لم يشتهر كشهرة مسنده الذي ذاع صيته في الآفاق وكثر قصاده إلى العراق (١٤) .

٢- التفسير الكبير لأمير المؤمنين محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الصحيح (ت ٢٥٦ هـ). ذكر بروكلمان نسخة منه في باريس -المكتبة الوطنية- وقطعة منه في الجزائر في المكتبة الوطنية أيضاً (١٥) . ولعلها من صحيح البخاري.

وقد سألت عن هاتين النسختين فلم أجد أحداً رأهما!! ويبدو من عنوانه أنه تفسير كبير.

٣- تفسير أبي مسعود أحمد بن الفرات الرازي (ت ٢٥٨ هـ).

قال إبراهيم بن محمد الطيان: سمعت أبا مسعود يقول: كتبت عن ألف وسبعمئة وخمسين رجلاً أدخلت في تصنيفي ثلاث مئة وعشرة وعطلت سائر ذلك وكتبت ألف حديث وخمس مئة ألف حديث فأخذت من ذلك ثلاث مئة ألف في التفسير والأحكام والفوائد وغيره (١) .

(١) طبقات الحنابلة ١/١٨٣.

(٢) تاريخ بغداد ٩/٣٧٥.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٣/٣٢٨، ٣٢٩.

(٤) ص ٢٣ من مقدمة أحمد شاکر لمسند أحمد.

(٥) مناقب الإمام أحمد ص ٢٤٨.

(٦) لفهرست ص ٢٨٥.

(٧) الفتاوي ٦/٣٨٩، ١٣/٣٥٥ ودرء تعارض العقل والنقل ٤/٢٢٨.

(٨) طبقات المفسرين ٢/٢٢٢.

(٩) الجوهر المحصل في مناقب الإمام أحمد في بداية عرضه لمؤلفات الإمام أحمد.

(١٠) صلة الخلف ص ٣٩.

(١١) سير أعلام النبلاء ١٣/٥٢٢ وانظر ١١/٣٢٨، ٣٢٩.

(١٢) بدائع الفوائد: ٣/١٠٨-١١٦.

(١٣) انظر مثلاً تعليق التعليق ٤/٢٢٨.

(١٤) انظر: الصحيح المسبور في التفسير بالمأثور: ١/٢٠-٢١.

(١٥) تاريخ الأدب العربي ٣/١٧٩.

- ٤- تفسير القرآن الكريم لابن ماجة القزويني (ت ٢٧٣ هـ). وصفه ابن كثير بالحافل فقال: ولابن ماجة تفسير حافل^(٢). والحافل الكثير الممتلئ^(٣). وذكره ابن خلكان والمزي والذهبي والداوودي^(٤).
- ٥- التفسير الكبير لإسحاق بن إبراهيم بن مخلد المروزي المشهور بابن راهويه (ت ٢٣٨ هـ). ويبدو أنه كبير من عنوانه. ذكره ابن النديم والخطيب البغدادي والسمعاني والداوودي^(٥).
- ٦- التفسير لإبراهيم بن إسحاق الحربي (ت ٢٨٥ هـ)، قال الذهبي في ترجمته: "مصنف التفسير الكبير"^(٦). وهو كسابقه وذكره ابن حجر والداوودي^(٧).
- ٧- التفسير لابن أبي داود عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني ت ٣١٦ هـ. روى المفسر أبو بكر النفاش أنه سمع أبا بكر بن أبي داود يقول: "إن في تفسيره مائة ألف وعشرين ألف حديث"^(٨).
- وذكر هذا التفسير الخطيب البغدادي والعلمي والداوودي^(٩).
- ٨- التفسير لسليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت ٣٦٠ هـ). قال الداوودي في طبقات المفسرين: وله تفسير كبير. ا. هـ. وقد جمعت روايات تفسيرية من معاجمه الثلاثة وكتاب الدعاء، ومكارم الأخلاق، وجزء من سمع من عطاء. كلها للطبراني المذكور.
- ٩- تفسير القاضي أبي محمد إسحاق بن إبراهيم بن إسحاق البستي (ت ٣٠٧ هـ). ولهذا التفسير مزايا كبرى^(١٠):
- أولها: أن أغلب أسانيده على شرط الصحيحين.
- ثانيها: أن مؤلفه طويل النفس في إيراد الأحاديث والآثار وعمله كصنيع ابن أبي حاتم في التفسير بالمأثور المجرد من أي قول آخر.
- ١٠- تفسير عمر بن أحمد بن عثمان المشهور بابن شاهين ت ٣٨٥ هـ. قال الخطيب البغدادي في ترجمته: له التفسير الكبير. ا. هـ. وتفسيره كبير كما وصف حيث احتوى على تفاسير منها تفسير أبي الجارود^(١١).
- وقال الكتاني: وهو في ألف جزء ووجد بواسط في نحو من ثلاثين مجلداً^(١٢).
- فهذه نماذج من كتب التفسير في ذلك العصر الذي برز فيه صرح التفسير بالمأثور شامخاً مسنداً كاملاً للقرآن الكريم، فقد تكاملت أسسه التي أرسيت بثمار تلك الجهود المباركة السابقة، فاجتمعت مع جهود المتقدمين عنايةً اللاحقين حيث جمعوا وأضافوا ونقدوا، وكان جميعهم عاكفين

(١) انظر تهذيب الكمال ٤٢٥/١.

(٢) البداية والنهاية ٥٢/١١.

(٣) الصحاح ١٦٧٠/٤ والنهاية ٤٠٩/١.

(٤) انظر وفيات الأعيان ٢٧٩/٤ وتهذيب الكمال ٩٠/٤، ٤١٣/٧ وسير أعلام النبلاء ٢٧٧/١٣ وطبقات المفسرين ٢٧٤/٢.

(٥) انظر الفهرست ص ٢٦٨، وتاريخ بغداد ٣٦٩/٨، والتحبير في المعجم الكبير ١٩٠/٢، وطبقات المفسرين ١٠٣/١.

(٦) تذكرة الحفاظ ٧٠١/٢.

(٧) تهذيب التهذيب ٢٨١/١٠ وطبقات المفسرين ٧/١.

(٨) انظر سير أعلام النبلاء ٢٨١/١٣ ولسان الميزان ٢٩٥/٣.

(٩) انظر تاريخ بغداد ٤٦٤/٩ والمنهج الأحمد ١٥/٢ وطبقات المفسرين ٣٣٦/١، ٣٣٧.

(١٠) انظر: الصحيح المسبور في التفسير بالمنتور: ٢٤/١.

(١١) انظر تاريخ بغداد ٢٦٧/١١.

(١٢) الرسالة المستطرفة ص ٧٦، ٧٧.

على هذا العلم، وعضوا عليه بالنواجذ لأنه جمع بين القرآن والسنة، وقد زاد اهتمامهم عندما تلوث هذا العلم بالدخيل بسبب تساهل بعض العلماء في إيرادهم الإسرائيليات بأنواعها، وبسبب صنيع الزنادقة والقصاص والكذابين وأهل الأهواء فوق التحريف والتأويل والوضع.

أخرج ابن عساكر عن ابن عليّ قال: "أخذ هارون الرشيد زنديقا فأمر بضرب عنقه فقال له الزنديق: لم تضرب عنقي؟ قال له: أريح العباد منك قال: فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلها ما فيها حرف نطق به؟ قال: فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفا حرفا؟" (١).

ولهذا انبرى جهاذة السلف إلى نقد الروايات والتفتيش عن الأسانيد، وقد بدأ هذا التحري بعد اندلاع الفتنة في خلافة عثمان - رضي الله عنه - أو في زمن ابن الزبير وقد رجح الرأي الأخير مؤرخ السيرة أ. د. أكرم ضياء العمري (٢).

أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن محمد بن سيرين: قال: "لم يكونوا يسألون عن الإسناد. فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم. فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم" (٣).

فكان أهل السنة بالمرصاد لكل من تسول له نفسه أن يأتي بدخيل ولهذا وضعوا ضوابط محكمة وقواعد دقيقة للرواية.

قال محمد بن حاتم بن المظفر: ... وهذه الأمة إنما تنص الحديث عن الثقة المعروف في زمانه المشهور بالصدق والأمانة عن مثله حتى تناهى أخبارهم ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ والأضبط فالأضبط والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقل مجالسة ثم يكتبون الحديث من عشرين وجها أو أكثر حتى يهذبوه من الغلط والزلل ويضبطون حروفه ويعدوه عدا ... (٤)

هكذا كان منهجهم في الرواية والتصنيف واستمر الحال على ذلك إلى القرن الثالث والرابع الهجري وكان أكثر المفسرين المصنفين يروون بالإسناد، فبرأوا ذمتهم لأنهم سموا شيوخهم ورواتهم وكانوا يميزون بين الصحيح والسقيم، وبعضهم يرى وجوب هذا التمييز بل وجوب نقد الرواة لمعرفة الثقة من الضعيف مثل ابن أبي حاتم وهو الذي صنف موسوعته في الجرح والتعديل من أجل بيان الثابت من التفسير ومن سنن البشير النذير صلى الله عليه وآله والتي تبين القرآن الكريم، فما هو يقول في مقدمة الجرح والتعديل: "فلما لم نجد سبيلا إلى معرفة شيء من معاني كتاب الله ولا من سنن رسول الله صلى الله عليه وآله من جهة النقل والرواية وجب أن نميز بين عدول الناقل والرواة وثقاتهم وأهل الحفظ والثبت والإتقان منهم وبين أهل الغفلة والوهم وسوء الحفظ والكذب واختراع الأحاديث الكاذبة" (٥).

إن هذا المنهج الدقيق وتلك الحلقات التفسيرية كانت متصلة من القرن الأول الهجري إلى القرن الرابع الهجري، وبدخول القرن الخامس الهجري بدأ تدريجيا إهمال الأسانيد بحذفها أو باختصارها مما ساعد على شيوع الإسرائيليات ورواج الأحاديث الواهية والموضوعة ونسب الأقوال الباطلة إلى الصحابة والتابعين، وهم برآء منها، وكانت فرصة سانحة للكذابين والوضاعين والزنادقة وأهل الأهواء، فاختلط الصحيح بالسقيم والحق بالباطل وانتشر ذلك في كتب لتفسير

(١) انظر تاريخ الخلفاء ص ٢٩٣.

(٢) انظر بحوث في تاريخ السنة المشرفة ص ٤٨-٥٠.

(٣) المقدمة - باب بيان أن الإسناد من الدين ١/١٥.

(٤) رواه السخاوي من طريق أبي العباس الدغولي عنه (فتح المغيث ٣/٣).

(٥) مقدمة الجرح والتعديل ص ٥.

بالمأثور، ولم يسلم منها إلا القليل كتفسير البغوي^(١) وابن كثير وعبد الرزاق بن رزق الرسعني (ت ٦٦١ هـ)^(٢) الذي روى أغلب تفسيره بإسناده واستمر الحال على ذلك إلى يومنا هذا^(٣).

٢- التفسير بالدراية:

إن هذا النوع من التفسير يقوم على الاجتهاد، وإعمال النظر اعتماداً على علوم اللغة، وأصول الدين، والفقه ما لم يعارض المأثور وإلا اعتبر فاسداً، قال أبو محمد البغوي (٤): "هو صرف الآية إلى معنى محتملٍ موافق لما قبلها، وما بعدها، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط"^(٥).

وقال الزركشي بعد أن ساق كلام البغوي: "قالوا وهذا غير محذور على العلماء بالتفسير وقد رخص فيه أهل العلم؛ وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَأْتُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، قيل: هو الرجل يحمل في الحرب على مائة رجل، وقيل: هو الذي يقنط من رحمة الله، وقيل: الذي يمسك عن النفقة، وقيل: هو الذي ينفق الخبيث من ماله، وقيل: الذي يتصدق بماله كله ثم يتكف الناس، ولكلٍ منه مخرج"^(٦).

وأما المراد بالدراية في التفسير، فهو: "المراد بالرأي هنا الاجتهاد، فإن كان الاجتهاد مَوْقَفًا- أي مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه- بعيداً عن الجهالة والضلالة فالتفسير به محمود، وإلا فمذموم"^(٧)، وقيل: "هو القول في القرآن بالاجتهاد المبني على أصول صحيحة، وقواعد سليمة متبعة يجب أن يأخذ بها من أراد الخوض في تفسير الكتاب، أو التصدي لبيان معانيه"^(٨).

وقيل: "هو تفسير القرآن بالاجتهاد اعتماداً على الأدوات التي يحتاج إليها المفسر، وهي علم اللغة العربية، وعلم النحو، والصرف، والاشتقاق، وعلوم البلاغة وعلم القراءات، وعلم أصول الدين، وعلم أصول الفقه، وعلم القصص، وعلم الموهبة"^(٩)، والأحاديث المبينة للتفسير، مثل أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ"^(١٠).

نستنتج مما سبق بأن تفسير الدراية: هو تفسير القرآن وفقاً لقواعد صحيحة من اللغة، بحيث لا يخالف نصاً من الرواية الصحيحة، ولا أصلاً من الأصول الشرعية، وعليه فإن تفسير الدراية يشمل عدة اتجاهات، سأذكر بعضها في المطلب التالي مع التركيز على التفسير البلاغي، وأهميته؛ لأن موضوعنا في هذه الدراسة متعلق به، كونها ستتناول الجملة القرآنية من ناحية التأسيس والتأكيد، وأثر ذلك على معنى الآية القرآنية.

(١) ساق أغلب أسانيده في مقدمة كتابه.

(٢) انظر الذيل على طبقات الحنابلة ٢٧٤/٢-٢٧٦ والأعلام ٢٩٢/٣.

(٣) انظر: الصحيح المسبور في التفسير بالمأثور: ٢٨/١.

(٤) أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء، البغوي الشافعي، ولد سنة ست وثلاثين وأربعمائة للهجرة صاحب التصانيف، محيي السنة، محدث فقيه مفسر، كان سيدياً إماماً، زاهداً، من مصنفاته: شرح السنة، ومعالم التنزيل، والمصابيح، وغيرها، توفي سنة عشر وخمسمائة للهجرة، انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ط/ الأولى ١٩٩٤م.

(٥) معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ٤٦/١، تحقيق: محمد النمر، وعثمان جمعة، وسليمان الحرش، دار طيبة، ط/ الرابعة، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

(٦) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١٥٠/٢.

(٧) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ٤٩/٢.

(٨) التبيان في علوم القرآن للصابوني: ٧٨.

(٩) الموهبة: غدير ماء صغيرٍ وقيل ثُفرة في الجبل يستنقع فيها الماء، وتطلق على العطية والهبة، انظر: لسان العرب ٨٠٣/١. والمراد بالموهبة هنا من أعطاه الله ملكة يتذوق بها الألفاظ والمعاني فيفسرها.

(١٠) علوم القرآن الكريم لنور الدين عترة ص ٧٥.

وقد اختلف العلماء في جواز التفسير بالدراية إلى قولين:
الأول: عدم جواز تعاطي تفسير شيء من القرآن، وإن كان عالماً أديباً متسعاً في معرفة الأدلة،
والفقه، والنحو، والأخبار، والآثار، وليس له أن ينتهي إلا إلى ما روي عن النبي -صلى الله عليه
وسلم-، أو إلى صحابته الأخذين عنه، ومن أخذ عنهم من التابعين.
الثاني: جواز تفسير القرآن بالدراية، ولكن بشروط كما سيأتي.
فمن ذهب إلى عدم جواز التفسير بالرأي استدلل بالآتي:
عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "من قال في
القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ"^(١).

وفي رواية أخرى: "ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار"^(٢).
ما روي عن بعض الصحابة، وبعض التابعين من التخرج في تفسير القرآن، فمن ذلك ما
ورد عن أبي بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه- أنه سُئِلَ عن تفسير حرف من القرآن فقال: "أي
سماء تظلني؟ وأي أرض تقلني؟ وأين أذهب؟ وكيف أصنع إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما
أراد الله؟! وفي رواية: "إذا قلت في كتاب الله بما لا أعلم"^(٣).
ما ورد عن عدد من التابعين التمتع من التفسير بالرأي^(٤).

وقد ناقش المجيزون للتفسير بالرأي هذه الأدلة فقالوا:
أما الحديث: ففي صحته وثبوته نظر؛ فقد قال الترمذي^(١) بعد أن رواه: هكذا رُوي عن
بعض أهل العلم من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وغيرهم أنهم شددوا في أن يُفسر القرآنُ

(١) سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي السلمي ٢٠٠/٥، باب: الذي يفسر القرآن برأيه، تحقيق: أحمد محمد
شاکر، دار إحياء التراث العربي- بيروت، وسنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني ٢٥٨/٣، باب: الكلام في
كتاب الله بغير علم، دار الكتاب العربي- بيروت، (بدون).

(٢) رواه الترمذي ١٩٩/٥، وقال: حديث حسن، قال الألباني: وفيه نظر، ففي سنده عبد الأعلى أبو عامر الثعلبي فقد
أورده الذهبي في "الضعفاء"، وقال: "ضعفه أحمد وأبو زرعة"، وقال الحافظ في التقریب: "صدوق، يهيم"، وفي سند
الترمذي سفيان بن وكيع، لكنه قد توبع من جماعة، ولذلك قال المناوي: "رمز المصنف لحسنه، اغتراراً بالترمذي،
قال ابن القطان: ينبغي أن يضعف، إذ فيه سفيان بن وكيع، وقال أبو زرعة: متهم بالكذب، انظر: سلسلة الأحاديث
الضعيفة والموضوعة، محمد ناصر الدين بن الحاج نوح الألباني ٢٦٥/٤، دار المعارف- الرياض، ط/الأولى
١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، وأخرجه أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني في المسند ٢٦٩ / ١ و٢٩٣، وأخرجه أبو يعلى في
مسنده، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي ١٢٦ / ٢، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث
- دمشق، ط/ الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(٣) المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، باب: من كره أن يفسر القرآن
١٢٦/٦، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد- الرياض، ط/ الأولى ١٤٠٩هـ.

(٤) منهم:

أ- سعيد بن المسيب وقد كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: "أنا لا أقول في القرآن شيئاً"، وكان سعيد إذا
سئل عن الحلال والحرام تكلم، وإذا سئل عن تفسير آية من القرآن سكت، وكان لم يسمع شيئاً. انظر: فضائل القرآن
للحاسم بن سلام، أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي ٢٥٧/٢، تحقيق: مروان العطية - محسن خرابة - وفاء تقي الدين،
دار ابن كثير- دمشق، ط/ ١٤٢٠هـ.

ب- الإمام الشعبي قال: (ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت): القرآن والروح والرؤى، انظر: جامع البيان في تأويل
القرآن، محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري ٨٧/١، تحقيق: أحمد محمد شاکر، مؤسسة الرسالة، ط/ الأولى ١٤٢٠ هـ
- ٢٠٠٠ م.

ج- محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة: يعني السلماني عن آية من القرآن فقال: "ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل
القرآن، فأتق الله وعلبك بالسداد"، انظر: مصنف ابن أبي شيبة ١٧٩ / ٧.

د- ما روي عن مسروق: أنه قال: "اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله"، انظر: مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو
العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني ٣٢٠/٢، تحقيق: أنور الباز- عامر الجزار، دار الوفاء، ط/ الثالثة
١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.

بغير علم، وأما الذي روي عن مجاهد وقتادة^(١) وغيرهما من أهل العلم أنهم فسروا القرآن فليس الظن بهم أنهم قالوا في القرآن أو فسروه بغير علم، أو من قبل أنفسهم، وقد روي عنهم ما يدل على ما قلنا - أنهم لم يقولوا من قبل أنفسهم بغير علم - وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم^(٣) "٤".

وقد ذكر الإمام السيوطي التفسير بالرأي المحرم بقوله: "وجملة ما تحصل في معنى حديث التفسير بالرأي خمسة أقوال:

أحدها: التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير.

الثاني: تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.

الثالث: التفسير المقر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً.

الرابع: التفسير بأن مراد الله كذا على القطع من غير دليل.

الخامس: التفسير بالاستحسان والهوى^(٥).

وعليه فإن التفسير المذموم المردود هو التفسير بالرأي المحرم الذي ذكره الإمام السيوطي، وهذا النوع من التفسير كثيراً ما يشتمل على المرويات الواهية، والباطلة، و"أما التفسير المقبول فهو التفسير المبني على المعرفة بالعلوم اللغوية، والقواعد الشرعية، والأصولية، وعلم السنن، والأحاديث، ولا يعارض نقلاً صحيحاً، ولا عقلاً سليماً، ولا علماً يقيناً ثابتاً مستقراً، مع بذل غاية الوسع في البحث، والاجتهاد والمبالغة في تحري الحق والصواب، وتجريد النفس من الهوى^(٦)، وهو الحق وعليه أكثر السلف^(٧)؛ لأن ما كان مخالفاً لنص من الكتاب أو السنة فهو فاسد الاعتبار، كما أن ما كان متكلفاً غير مبني على الاجتهاد المستكمل للشروط يُعد عبثاً.

واختلف العلماء في تسمية التفسير بالرأي، هل يسمى تفسيراً أم يسمى تأويلاً^(٨)؟

(١) هو محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي الحافظ أبو عيسى الترمذي الضرير مصنف الكتاب الجامع، ولد سنة بضع ومائتين، أخذ علم الحديث عن أبي عبد الله البخاري، وروى عنه حماد بن شاذان وآخرون، وكان ممن جمع وصنف وحفظ وذاكر، توفي ثالث عشر رجب بترمز سنة تسع وسبعين ومائتين وقيل: خمس وسبعين، انظر: الوافي بالوفيات ٢/ ٥٤، وفيات الأعيان ٤/ ٢٧٨.

(٢) هو قتادة بن دعامة بن قنادة بن عزيز البصري، حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين أبو الخطاب السدوسي البصري الضرير الأكمه، مات بواسط في الطاعون، سنة ثمانين عشرة ومائة للهجرة، انظر: سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٩.

(٣) هو سهيل بن أبي حزم القطيعي ضعيف، و"قد ضعفه الجمهور، قال ابن حبان: يتفرد عن الثقات بما لا يشبه حديث الأثبات"، انظر: المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، محمد بن حبان ابن أحمد بن أبي حاتم التميمي البستي ١/ ٣٩٠، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي - حلب، ط/الأولى ١٣٩٦هـ.

(٤) سنن الترمذي ٥/ ٢٠، تحقيق: أحمد شاكر، ومذيل بحكم الألباني على الأحاديث، دار الكتاب العربي - بيروت، (بدون).

(٥) الإتيان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ص ٢٢٠، بتصرف.

(٦) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، د/ محمد بن محمد أبو شهبه ص ٩٨، مكتبة السنة، ط/ الرابعة ١٤٠٨هـ، بتصرف يسير.

(٧) منهم كثير من الصحابة رضي الله عنهم كالإمام علي، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأنس، وأبي هريرة، وغيرهم، فلولا أن تفسير القرآن جائز لمن تأهل له لما فعلوه، لأنهم كانوا أشد الناس ورعاً، وتقوى، ووقفاً عند حدود الله، كما ورد تفسير القرآن عن كثير من خيار التابعين، كسعيد بن جببر، ومجاهد بن جبر، وعكرمة، وقتادة والحسن البصري، ومسروق، والشعبي، وغيرهم، مما يدل على أن من امتنع منهم من تفسير القرآن إنما كان زيادة احتياط، ومبالغة في التورع، انظر: أبجد العلوم الوشي المرقوم لصديق بن حسن الفنوجي ٢/ ١٤١، تحقيق: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٧٨م.

(٨) قال صديق حسن خان: واختلف في التفسير والتأويل فقال أبو عبيد وطائفة: هما بمعنى وقد أنكر ذلك قوم، وقال الراغب: التفسير أعم من التأويل، وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها، وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل،

والذي رجحه الزركشي أن هناك فرقاً بين التأويل والتفسير وأنها ليسا بمعنى واحد، فقال: "ثم قيل التفسير والتأويل واحد بحسب عرف الاستعمال والصحيح تغايرهما"^(١).

وقال في موضع آخر: "وكان السبب في اصطلاح بعضهم على التفرقة بين التفسير والتأويل التمييز بين المنقول والمستنبط ليحمل على الاعتماد في المنقول وعلى النظر في المستنبط تجويزاً له وازدياداً"^(٢).

وقال محمد حسين الذهبي: "والذي تميل إليه النفس أن التفسير ما كان راجعاً إلى الرواية، والتأويل ما كان راجعاً إلى الدراية؛ وذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان عن مراد الله تعالى لا يجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحي، وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع وخالطوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم.

وأما التأويل فملحوظ فيه ترجيح أحد احتمالات اللفظ بالدليل، والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب واستنباط المعاني من كل ذلك"^(٣).

والذي يراه الباحث هو ما رجحه الأكثر^(٤) أن التفسير مغاير للتأويل، وأن تفسير الدراية "الرأي" هو التأويل؛ وذلك ليحصل التمييز في التفسير بالمأثور، والاجتهاد في التفسير بالرأي، ويكون الاعتماد على التفسير بالمأثور، والنظر في المستنبط، ثم إن التفسير بالمأثور مقدم على التفسير بالرأي عند التعارض، بل يعد التفسير بالرأي في مقابل النص فاسد الاعتبار، ولا مشاحة في الاصطلاح إذا عرف المعنى، ومن أهم كتب التفسير بالرأي:

أ- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي^(٥).

ب- مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي^(٦).

ج- لباب التأويل في معاني التنزيل للعلامة علاء الدين البغدادي الملقب بالخازن^(٧).

د- البحر المحيط لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي.

وقيل: التفسير: بيان لفظ لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والتأويل: توجيه لفظ متوجه إلى معانٍ مختلفة إلى واحد منها بما ظهر من الأدلة، وقال الماتريدي: التفسير: القطع على أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله سبحانه وتعالى أنه عنى باللفظ هذا، والتأويل: ترجيح أحد الاحتمالات بدون القطع، وقال أبو طالب الثعلبي: التأويل: إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير: إخبار عن دليل المراد، وقال البيهقي: التفسير بالرأي: هو صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وبعدها، تحتّمه الآية، غير مخالف للكتاب والسنة، من طريق الاستنباط. انظر: أبجد العلوم ١٤١/٢، ١٤٢.

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١٤٩/٢.

(٢) المصدر نفسه ١٧٢/٢.

(٣) التفسير والمفسرون ١٦/١.

(٤) منهم: الحسين بن مسعود البيهقي في معالم التنزيل ٤٦/١، والزركشي ١٤٩/٢، والأصفهاني في مفردات القرآن ١٩٢/٢، ومحمد الذهبي في التفسير والمفسرون ١٦/١.

٥- هو قاضي القضاة أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي الشافعي، من بلاد فارس صاحب المصنفات وعالم أذربيجان، ولي قضاء شيراز، وكان إماماً بارعاً مصنفاً، فريد عصره، ووحيد دهر، أثنى على علمه وفضله غير واحد، من مصنفاته: أنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير، توفى سنة إحدى وتسعين وستمئة، وقيل: خمس وثمانين، انظر: طبقات المفسرين للسبكي ١٥٥/٨، والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ٨٣/٢.

٦- هو أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي أحد الزهاد والأئمة المعتبرين، وصاحب التصانيف المعتبرة في الفقه، والأصول، وغيرهما، منها: مدارك التنزيل في تفسير القرآن، وكنز الدقائق، توفى سنة إحدى وسبعمئة، انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١٦٨/١.

٧- هو العلامة علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم الشافعي البغدادي الشافعي عرف بالخازن، ولد في بغداد سنة ثمان وسبعين وستمئة، سمع من علمائها ثم انتقل إلى دمشق واستقر بها معلماً ثم معلماً ومات بها سنة إحدى وأربعين وسبعمئة. انظر: الوافي بالوفيات ١/ ٣٤.

٣-التفسير الإشاري

هو تفسير القرآن بغير ظاهره لإشارة تظهر لأرباب الصفاء، مع عدم إبطال الظاهر، قال الزرقاني: "التفسير الإشاري: هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد أيضا"^(١).

وقال الصابوني: "التفسير الإشاري: هو تأويل القرآن على خلاف ظاهره، لإشارات خفية تظهر لبعض أولي العلم، أو تظهر للعارفين بالله من أرباب السلوك والمجاهدة للنفس، ممن نور الله بصائرهم فأدركوا أسرار القرآن العظيم، أو انفتحت في أذهانهم بعض المعاني الدقيقة، بواسطة الإلهام الإلهي أو الفتح الرباني، مع إمكان الجمع بينهما وبين الظاهر المراد من الآيات الكريمة"^(٢). وقد عرف التفسير الصوفي بالتفسير الإشاري، ويتمثل على زعمهم في أن يرى المفسر معنى آخر غير المعنى الظاهر، ربما تحتمله الآية الكريمة ولكنه لا يظهر للعامة من الناس، وإنما يظهر لخاصتهم ومن فتح الله قلبه وأنار بصيرته وسلكه ضمن عباده الصالحين، الذين منحهم الله الفهم والإدراك، وهذا النوع من العلم ليس من العلم الكسبي الذي ينال بالبحث والمذاكرة وإنما هو من العلم الوهبي الذي هو أثر التقى والاستقامة والصلاح، كما قال تعالى: **وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** [البقرة: ٢٨٢].

والتفسير الصوفي يعتمد أساسا على أن للقرآن ظاهرا وباطنا، ويقصد بالظاهر الشريعة وبالباطن الحقيقة، وعلم الشريعة علم المجاهدة، وعلم الحقيقة علم الهداية، وعلم الشريعة علم الآداب وعلم الحقيقة علم الأحوال، وعلم الشريعة يعلمه علماء الشريعة وعلم الحقيقة يعلمه العلماء بالله، يقول السلمي في مقدمة تفسيره عن الباعث لإقدامه على كتابة تفسير القرآن: "لما رأيت المتوسمين بعلوم الظاهر قد سبقوا في أنواع فرائد القرآن، من قراءات وتفسيرات ومشكلات وأحكام وإعراب ولغة ومجمل ومفصل وناسخ ومنسوخ، ولم يشتغل أحد منهم بفهم الخطاب على لسان أهل الحقيقة إلا آيات متفرقة، أحببت أن أجمع حروفا أستحسنها من ذلك وأضم أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلى ذلك وأرتبه على السور حسب وسعي وطاقتي"^(٣).

ويقول سهل بن عبد الله التستري في تفسيره، وهو أول ما ظهر للصوفية من تفسير للقرآن: "ما من آية في القرآن إلا ولها أربعة معان، ظاهر وباطن وحد ومطلع، فالظاهر التلاوة، والباطن الفهم والحد حلالها وحرامها والمطلع إشراف القلب على المراد بها فقها من الله عز وجل، فالعلم الظاهر علم عام، والفهم لباطنه والمراد به خاص"^(٤).

وقد ظهر أيضا تفسير ثالث لعبد الكريم القشيري سلك فيه مسلك الصوفية في إدراك الإشارات التي يراها الصوفي خلف آيات القرآن، وسماه لطائف الإشارات، قال عن الباعث لتأليفه: "وكتابتنا هذا يأتي على طرف من إشارات القرآن على لسان أهل المعرفة إما من معاني قولهم أو قضايا أصولهم، سلكنا فيه طريق الإقلال خشية الملل مستمدين من الله تعالى عوائد

(١) مناهل العرفان للزرقاني ٥٦/٢

(٢) التبيين في علوم القرآن للصابوني ص ١٩١

(٣) تفسير القرآن الكريم على الطريقة الصوفية، دراسة وتحقيق حقائق التفسير لأبي عبدالرحمن بن محمد بن الحسين الأزدي السلمي، رسالة ماجستير، سلمان نصيف جاسم التكريتي، مكتبة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٧٥: ٢٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم، سهل بن عبد الله، مطبعة السعادة، ١٩٠٨: ٦١.

المنة، متبرئين من الحول والمنة مستعصمين من الخطأ والخلل، مستوثقين لأصوب القول والعمل^(١).

ولم يظهر في تاريخ التفسير الإشاري حتى القرن الخامس، أهم من حقائق التفسير للسلمى، ولطائف الإشارات للقشيري وإن كان القشيري قد استفاد من السلمى فائدة كبرى واقتبس منه كثيرا من آرائه^(٢).

وقد ظهر تفسير القرآن المنسوب لابن عربي، ولكنه في الحقيقة للكاشاني السمرقندي، ويعد هذا التفسير أهم تفسير إشاري بعد اللطائف، قال مؤلفه في مقدمته: "ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن، ولكل حرف حد ومطلع، فالظاهر هو التفسير، والبطن هو التأويل، والحد هو ما تتناهي إليه الفهوم من معنى الكلام، والمطلع ما يصعد إليه منه فيطلع على شهود الملك العلام"^(٣). ويمكن القول باستقراء التفسيرات الصوفية السابقة أن السمة الغالبة في التفسير الإشاري لدى الصوفية تتمثل فيما يأتي:

١- أن للقرآن ظاهرا وباطنا، وأن الظاهر للعوام والباطن لا يدركه إلا الخواص وإدراك الخواص مستمد من فيض إلهي ينير بصائرهم، ويكشف لهم على زعمهم عن معارف لدنية مباشرة.

٢- أن العلم بالقرآن على هذا النحو يفترق عن العلوم القرآنية الأخرى في بدايته وفي طرائقه وفي غاياته، فضلا عن أنه يفترق عن سائر العلوم بضرورة العمل، فالعالم لا بد أن يكون عاملا وعمله هو جهاده ورياضاته التي تؤدي إلى صفل إرادته وشحن همته وتنقية مرآته الباطنية من كل شائبة، فالنفس عموما ليس تفسيراً مباشراً، بل يسلك تزكية النفوس وتطهير القلوب والحث على التحلى بالأخلاق الفاضلة.

٣- أن التفسير الإشاري وإن كان يعتمد على ما وراء العبارة الظاهرية إلا أنه لم تخل من بعض ما نقل من الآثار على النحو المذكور في التفسير بالمأثور أو التفسير بالرأي بالطريقة الاستنباطية، أو تفسيرات تعتمد على معاني الألفاظ والتفسيرات البلاغية.

٤- تتعرض هذه التفسيرات لكثير من المعاني والمصطلحات الصوفية التي تكشف عن طريقتهم وتجربتهم، لا سيما أنهم يوجهون الآيات كشواهد لهذه الرموز والمصطلحات.

٥- ومع ما فيها من معاني تقبل بصعوبة، أو يلتبس لها وجهها تحمل عليه بمشقة.

٦- لم تسلم هذه التفسيرات من الإسرائليات، والاستشهاد بغير القرآن والسنة، ولم تتبع الدقة في تحري ثبوت الحديث، أو مراعاة التعليق على الأسانيد، وكذلك لم تخل من فكر باطني^(٤).

وقد استدلت الصوفية بكثير من الآيات القرآنية العامة، التي تدعو إلى التدبر وفهم كتاب الله بالتأمل وحسن الاستماع، كقوله تعالى: {الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [البقرة: ١-٣]، وكقوله: {فَمَا لَهُؤْلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} [النساء: ٧٨]، والمعنى لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب، ولم يرد أنهم لا يفهمون نفس الكلام وكقوله تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤]، حيث دل على أن ظاهر المعنى شيء وهم عارفون به لأنهم عرب، والمراد هو شيء آخر وهو الذي لا شك فيه أنه من عند الله، والتدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد، وذلك ظاهر في أنهم أعرضوا عن مقاصد القرآن، فلم يحصل منهم تدبر، وكقوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ

(١) لطائف الإشارات، القشيري، تحقيق: د. إبراهيم بسيوني، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، القاهرة، ١٩٨١: ٤١/١.

(٢) تاريخ أدبيات در ايران، ذبيح الله صفا، ط٣، ١٣٣٩هـ: ٢٥٧/٢.

(٣) تفسير ابن عربي: ١/٤، وانظر تحقيق نسبه في: تفسير المنار: ١/١٨، ومحي الدين بن عربي مفسراً، حامد محمود الزفري، رسالة دكتوراه بمكتبة كلية أصول الدين جامعة الأزهر، القاهرة، سنة ١٩٧٢: ص ١٧٤.

(٤) انظر: الموافقات: ٤٠٣/٣.

وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: ٣٧]، وقال أبو سعيد الخراز: "أول الفهم لكتاب الله عز وجل العمل به، لأن فيه العلم والفهم والاستنباط، وأول الفهم إلقاء السمع والمشاهدة لقوله عز وجل: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: ٣٧]"^(١).

ويواصل السراج الطوسي استدلاله على التفسير الإشاري فيقول: "وقال تعالى: {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} [الزمر: ١٨]، فالقرآن كله حسن ومعنى اتباع الأحسن، ما يكشف للقلوب من العجائب عند الاستماع وإلقاء السمع من طريق الفهم والاستنباط"^(٢).

ومن السنة يستدلون بقوله: " لكل آية ظهر وبطن ولكل حرف حد ومطلع"^(٣)، فلفظ الظاهر والباطن على زعمهم قرآنيان، ولا يمكن الاعتراض على الفكرة القائلة بأن في القرآن ناحية واضحة تدرك في ضوء الاشتقاق، وأن به ناحية أخرى ربما كانت أخف وأعمق بالنسبة للأولى، لأن هذه الفكرة يمكن أن تطبق في الواقع على أي نص فكل نص له ناحية قريبة مباشرة تدرك بلا عناء، وناحية أخرى تحتاج إلى عمل وجهد في استيعابها وفهمها، كما لا يمكننا أن ننكر أن الحقيقة الإنسانية الثابتة تشير إلى عدم تساوي الناس في الفهم والإدراك، وقد ظهرت تلك الحقيقة في حياة الرسول وصحابته رضي الله عنهم الذين تفاوتت أقدارهم في سرعة ومدى فهمهم للقرآن، وهذا يفسر ما أثر عنهم من تفسيرات مختلفة^(٤).

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: " كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال: إنه ممن قد علمتم قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، قال: وما أريته دعاني يومئذ إلا ليربهم مني، فقال: ما تقولون في: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا} [النصر: ٢-١]، حتى ختم السورة ؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري أو لم يقل بعضهم شيئاً، فقال لي: يا ابن عباس أكذلك تقول ؟ قلت: لا، قال: فما تقول ؟ قلت: هو أجل رسول الله أعلمه الله له: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: ١]، فتح مكة، فذاك علامة أجلك: { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر: ٤-٣]، قال عمر رضي الله عنه: ما أعلم منها إلا ما تعلم "^(٥).

والشاهد هنا أن ابن عباس رضي الله عنه فهم من خطاب الله معنى خفياً وراء ظاهر الألفاظ لم يدركه عامة الصحابة في مجلسهم، وهذا يشبه عمل الصوفية في التفسير الإشاري. ومثله أيضاً ما روى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله جلس على المنبر فقال: " إن عبداً خيرته الله بين أن يؤتاه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختر ما عنده، فبكى أبو بكر وقال: فدينك بأبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله عن عبد خيرته الله بين أن يؤتاه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول فدينك بأبائنا وأمهاتنا فكان رسول الله هو المخير، وكان أبو بكر هو أعلمنا به.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر إلا خلة الإسلام، لا يبقين في المسجد خوذة إلا خوذة أبي بكر"^(٦).

(١) اللع في التصوغ، سراج الطوسي: ١١٣.

(٢) اللع في التصوف، سراج الطوسي: ١١٣.

(٣) لا أصل له ولم أجده في كتب السنة مرفوعاً إلى النبي، ولكنه أثر موقوف على عبدالله بن مسعود، ولفظه: "إن القرآن ليس منه حرف إلا له حد، ولكل حد مطلع". انظر: معجم الطبراني الكبير: رقم (٨٦٦٧) (١٣٦/٩).

(٤) انظر: التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً، محمد كمال جعفر: ١٥٧.

(٥) رواه البخاري (٤٢٩٤).

(٦) رواه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢).

فأبو بكر الصديق فهم بطريق الإشارة ما لم يفهمه عامة الصحابة وأسعد بذلك رسول الله وكان الأمر كما قال.

وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف، وقال: يا معشر المسلمين أعزل عن نسخ كتابة المصحف ويتولاها رجل والله لقد أسلمت وإني لفي صلب رجل كافر، يريد زيد بن ثابت، ولذلك قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: يا أهل العراق اكثروا المصاحف التي عندكم وعلوها، فإن الله يقول: ﴿وَمَنْ يَعْلَلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، فآلوا الله بالمصاحف^(١).

فالغلل، وهو إخفاء الغنائم طمعا قبل تقسيمها فعل المجرمين، وظاهر الآية ورد في عقابهم وفضحهم يوم القيامة، وقد استخدمها ابن مسعود رضي الله عنه بطريق الإشارة فيمن غل القرآن وأخفاه، ويرد عليهم بأن الصحابة انكروا عليه ذلك، فقال الزهري: "قَبَلْغَيْيَ أَنْ ذَلِكَ كَرِهَهُ مِنْ مَقَالَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَجُلًا مِنْ أَفْضَلِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ"^(٢).

وقد اختلف العلماء في التفسير الإشاري، وتباينت فيه أراؤهم فمنهم من أجازته ومنهم من منعه، ومنهم من عده من كمال الإيمان ومحض العرفان، ومنهم من اعتبره زيغا وضلالا وانحرافا عن دين الله تبارك وتعالى، والواقع أن الموضوع دقيق يحتاج إلى بصيرة وروية ونظرة إلى أعماق الحقيقة ليظهر ما إذا كان الغرض من هذا النوع من التفسير هو اتباع الهوى والتلاعب في آيات الله كما فعل الباطنية والشيعة، فيكون ذلك من قبيل الزندقة والإلحاد، أو الغرض منه الإشارة إلى أن كلام الله تعالى يعز أن يحيط به بشر إحاطة تامة، وأن كلامه تعالى وضعت فيه مفاهيم وأسرار ودقائق وعجائب لا تنقضي على مدار الأزمان، ويتوالى إعجازه مرة بعد أخرى، فيكون ذلك من محض العرفان وكمال الإيمان، كما نسب السيوطي إلى ابن عباس رضي الله عنهما: "إن القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون، لا تنقضي عجائبه ولا تبلغ غايته، فمن أوغل فيه برفق نجا ومن أوغل فيه بعنف هوى، أخبار وأمثال وحلال وحرام، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وظهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل، فجالسوا به العلماء وجانبوا به السفهاء"^(٣).

ويمكن أن نعرض أهم آراء العلماء التي نسترشد بها في تحديد شروط قبول التفسير

الإشاري فمن ذلك:

١- رأى ابن الصلاح:

ينقل ابن الصلاح عن الإمام أبي الحسن الواحدى المفسر أنه قال: "صنف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق التفسير، فإن كان قد اعتقد أن هذا تفسير فقد كفر) ثم يعقب على ذلك بقوله: (وأنا أقول: الظن بمن يوثق به منهم أنه إذا قال شيء من أمثال ذلك أنه لم يذكره تفسيراً ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة من القرآن العظيم، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية، وإنما ذلك ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن فإن النظير يذكر بالنظير ومن ذلك، قتال النفس في الآية المذكورة في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ [التوبة: ١٢٣] فكأنه قال: أمرنا بقتال النفس ومن يلينا من الكفار ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا في مثل ذلك لما فيه من الإلهام والإلباس"^(٤).

٢- رأى الشاطبي:

(١) انظر: الفكر السياسي عند الباطنية وموفق الغزالي منه، احمد عرفات، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٨٨: ٢١٧.

(٢) المعجم الصوفي، محمود عبدالرزاق: ١٢٠/١-١٢٣.

(٣) الاتقان في علوم القرآن: ١٨٥/٢.

(٤) الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، المطبعة التجارية، بمصر: ٢٧٢/٣.

يقسم الشاطبي الاعتبارات القرآنية الواردة على القلوب الطاهرة وأصحاب البصائر إذا صحت على كمال شروطها على ضربين :

أ- ما يكون أصل انفجاره من القرآن ويتبعه سائر الموجودات، فإن الاعتبار الصحيح في الجملة هو الذي يخرق من البصيرة في حجب الأكوان من غير توقف، فإن توقف فهو غير صحيح حسبما بينه أهل التحقيق بالسلوك.

ب- ما يكون انفجاره من الموجودات كلياً أو جزئياً ويتبعه الاعتبار في القرآن. فإن كان الأول فهذا الاعتبار صحيح وهو معتمد على فهم باطن القرآن من غير إشكال، وإن كان الثاني فالتوقف على اعتباره في فهم باطن القرآن لازم وأخذة على إطلاقه ممتنع لأنه بخلاف الأول^(١).

٣- رأى تاج الدين بن عطاء الله:

ويعدّ ابن عطاء الله تفسير الصوفية لكلام الله ورسوله بالمعاني الغريبة، ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان، وثمة أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه، وقد جاء في الحديث لكل آية ظهر وبطن، فلا يصدقك عن تلقى هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة هذا إحالة لكلام الله ورسوله، فليس ذلك بإحالة وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا وهم لم يقولوا ذلك بل يقرون بالظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها ويفهمون عن الله ما أفهمهم^(٢).

٤- رأى حاجي خليفة:

يرى حاجي خليفة أن التصوف علم كيفية رقي أهل الكمال من النوع الانساني في مدارج سعادتهم، والأمور العارضة لهم في درجاتهم، بقدر الطاقة البشرية، وأما التعبير عن هذه الدرجات والمقامات كما هو حقه، فغير ممكن لأن العبارات إنما وضعت للمعاني التي وصل إليها فهم أهل اللغات، وأما المعاني التي لا يصل إليها إلا غائب عن ذاته فضلاً عن قوى بدنه، فليس يمكن أن يوضع لها ألفاظ، فضلاً عن أن يعبر عنه بألفاظ، فكما أن المعقولات لا تدرك بالأوهام والموهومات، لا تدرك بالخياليات، والتخيلات لا تدرك بالحواس، كذلك ما من شأنه أن يعاين بعين اليقين لا يمكن أن يدرك بعلم اليقين، فالواجب على من يرد ذلك أن يجتهد في الوصول إليه، بالعين دون أن يطلبه بالبيان والعقل^(٣).

٥- رأى سعد الدين التفتازاني:

في شرحه للعقائد النسفية وتحت قول النسفي: "النصوص على ظاهرها والعدول عنها إلى معان يدعها أهل الباطن إلحاد" علق سعد الدين التفتازاني بقوله: "سميت الملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظاهرها، بل لها معان باطنة لا يعرفها إلا المعلم وقصدهم في ذلك نفى الشريعة بالكلية، وأما ما يذهب إليه بعض المحققين بأن النصوص على ظاهرها، ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تكشف عن أرباب السلوك، يمكن التوفيق بينها وبين الظواهر المرادة، فهي من كمال الإيمان ومحض العرفان"^(٤).

٦- رأى محي الدين ابن عربي :

يقول: "وكما كان أصل تنزيل الكتاب من الله على أنبيائه، كان تنزيلاً للفهم على قلوب بعض المؤمنين، والأنبياء ما قالت على الله مالم يقل لها، ولا أخرجت ذلك من نفوسها ولا أفكارها، ولا

(١) الموافقات : ٢٧٢ / ٣ .

(٢) الموافقات: ٢٧٢/٣ .

(٣) كشف الظنون عن أسامي كتب الفنون، مصطفى بن عبدالله المشهور بحاجي خليفة، نشره المستشرق جوستاف فلويجل، طبعة مكتبة المثني، بغداد: ١٣/٤١٣ .

(٤) العقائد النسفية وشرحها، سعد الدين التفتازاني: ١٤٣ .

تعملت فيها، بل جاءت من عند الله، قال تعالى: تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [فصلت: ٤٢] وقال فيه: لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ [فصلت: ٤٢]، وإذا كان الأصل المتكلم فيه من عند الله لا من فكر الإنسان ورؤيته، وعلماء الرسوم يعلمون ذلك، فينبغي أن يكون أهل الله العاملون به أحق بشرحه، وبيان ما أنزل الله فيه من علماء الرسوم فيكون شرحه أيضا تنزيلا من عند الله على قلوب أهل العلم كما كان الأصل^(١).

٧- رأي أبي حامد الغزالي:

يقول الغزالي: "لا تظنن في ضرب الأمثال، فرصة منى في رفع الظواهر واعتقادا في إبطالها حتى أقول مثلا لم يكن مع موسى نعلان ولم يسمع الخطاب بقوله: فَأَخْلَعُ نَعْلَيْكَ [طه: ١٢] [حاشا لله فإن إبطال الظواهر رأي الباطنية الذين نظروا بعين عوراء إلى أحد العالمين، وجعلوا جهلا بالموازنة بينهما، فلم يفقهوا وجهه، كما أن إبطال الأسرار مذهب الحشوية، فالذى يجرد الظاهر حشوى، والذى يجرد الباطن باطنى، والذى يجمع بينهما كامل، بل أقول: موسى فهم من خلع النعلين اطرح الكونين، فامتثل الأمر ظاهرا بخلع النعلين وباطنا بخلع الكونين"^(٢).

٨- رأي الأستاذ محمد عبد العظيم الرزقاني:

يرى الرزقاني "أن بعض الناس قد فتنوا بالإقبال على دراسة تلك الإشارات والخواطر، فدخل في روعهم أن الكتاب والسنة بل والإسلام كله ما هو إلا سوانح وواردات على هذا النحو من التأويلات والتوجيهات، وزعموا أن الأمر ما هو إلا تخييلات، وأن المطلوب منهم هو الشطح مع الخيال أينما شطح فلم يتقيدوا بتكاليف الشريعة، ولم يحترموا قوانين اللغة العربية في فهم أبلغ النصوص العربية، كتاب الله وسنة رسوله والأدهي من ذلك أنهم يتخيلون ويخيلون للناس أنهم هم أهل الحقيقة، الذين أدركوا الغاية واتصلوا بالله اتصالا أسقط عنهم التكليف، وسما بهم عن حضيض الأخذ بالأسباب ما دموا في زعمهم مع رب الأرباب، وهذا لعمر الله هو المصاب العظيم الذي عمل له الباطنية، كيما يهدموا التشريع من أصوله ويأتوا بنيانه من قواعده، فواجب النصح لإخواننا المسلمين يقتضينا أن نحذرهم الوقوع في هذه الشباك، ونشير عليهم أن يفضوا من أمثال تلك التقاسير الإشارية الملتوية، لأنها كلها أذواق ومواجيد خارجة عن حدود الضبط والتقييد، وكثيرا ما يختلط فيها الخيال بالحقيقة والحق بالباطل فالأحرى بالفطن العاقل أن ينأى بنفسه عن هذه المزالق وأن يفر بدينه من هذه الشبهات، وأمامه في الكتاب والسنة وشروحهما على قوانين الشريعة واللغة رياض وجنات"^(٣).

٩- رأي الأستاذ محمد حسين الذهبي:

يقرر الذهبي أن الأدلة مجتمعة تعطينا أن القرآن الكريم له ظهر وبطن، ظهر يفهمه كل من يعرف اللسان العربي، وبطن يفهمه أصحاب الموهبة وأرباب البصائر، غير أن المعاني الباطنية للقرآن، لا تقف عند الحد الذي تصل إليه مداركنا القاصرة بل هي أمر فوق ما نظن وأعظم مما نتصور^(٤).

يقول: "أما المعنى الباطن فلا يقف على جريانه على اللسان وحده بل لا بد فيه مع ذلك إلى نور يقذفه الله تعالى في قلب الإنسان، بصير به نافذ البصيرة سليم التفكير، ومعنى هذا أن التفسير الباطن ليس أمرا خارجا عن مدلول اللفظ القرآني"^(٥)، ويقول أيضا: (أما الصوفية أهل الحقيقة وأصحاب الإشارة فقد اعترفوا بظاهر القرآن ولم يجحدوه كما اعترفوا بباطنه ولكنهم حين فسروا

(١) الفتوحات المكية: ٢٨٠/١.

(٢) مشكاة الأنوار، أبو حامد الغزالي، تحقيق: أبي العلاء عفيفي، الدار القومية، القاهرة، ١٩٦٤: ٣٣.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن، الرزقاني، طبعة عيسى البابي، ١٩٥٣: ٥٥٨/١.

(٤) التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة: ٢٢/٣.

(٥) التفسير والمفسرون: ٢٢/٣.

المعاني الباطنية خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، فبينما تجد لهم أفهاما مقبولة تجد لهم بجوارها أفهاما لا يمكن أن يقبلها العقل أو يرضى بها الشرع"^(١).

والخلاصة في رأي الذهبي أن مثل هذه التفسيرات الغربية للقرآن مزلة قدم لمن يعرف مقاصد القوم، وليتهم احتفظوا بها عند أنفسهم ولم يذيعوها على الناس فيوقعهم في حيرة واختلاف، منهم من يأخذها على ظاهرها ويعتقد أن ذلك هو مراد الله من كلامه، وإذا عارضه ما ينقل في كتب التفسير على خلافها ربما كذب بها أو أشكل عليه ومنهم من يكذبها على الإطلاق ويرى أنها تقول على الله وبهتان، إذن ليتهم ما فعلوا ذلك، إذن لأراحونا من هذه الحيرة وأراحوا أنفسهم من كلام الناس فيهم وقذف البعض لهم بالكفر والإلحاد في آيات الله (٢).

١٠- رأي الدكتور محمد كمال جعفر :

ويرى الدكتور جعفر أنه يجب أن لا يغيب عن أذهاننا أنه من الطبيعي أن لا يقف الصوفي عند المعاني التقليدية في أي من القرآن أو السنة قولاً وعملاً، لأنه ليس كالفقيه أو العالم الذي يعتمد على النظر العقلي فحسب، لأن ذلك لا يشبع رغبته ولا يمد روحه بالزاد الضروري، بل إنه يتعمق إلى معان وراء المعنى الظاهر المباشر، وإن لم يكن من الضروري أن تكون هذه المعاني العميقة متناقضة مع تلك المعاني الظاهرية، ويشير الدكتور جعفر إلى نقطة هامة، وهي أن القرآن بالنسبة للصوفي يحمل حقيقتين متساويتين في الأهمية، فهو من جهة وحى تاريخي اتخذ وضعه في الزمان والمكان المحددين، وهو من جهة أخرى النبع الفياض الذي لا تنفد حقايقه الإلهية الصادرة عن الله جل جلاله، وهو لا متناه لأنه كلام الموجود الذي لا ينتهي، والمعاني الباطنية لكلماته غير متناهية كذلك أيضاً^(٣).

كما أن الصوفي المتأمل قد يصل إلى مرحلة يدرك فيها أعمق المعاني الروحية في القرآن، وهذه الفكرة في حد ذاتها بصرف النظر عن الاعتبارات الأخرى قد تثير صعوبات، بحيث أنها تؤدي إلى أن يكون تفسير القرآن مختلفاً باختلاف الذات المشتركة فيها أي أن يكون الموقف موقفاً ذاتياً مما ينتج بدوره تفسيرات متعارضة ويؤدي إلى اضطراب كبير، ولكن الحقيقة أن الصوفية فعلاً يرون أن تعدد التفسيرات أمر حتمي، لأن معاني القرآن لا نهائية وتتكشف لكل صوفي حسب طاقته الروحية وحسب فضل الله يؤتيه من يشاء، وليس في ذلك أي ضرر ما دام هذا متصلاً بالمعاني الكمالية التي لا تتجاوز حدود المعاني المباشرة المتفق عليها^(٤).

وقبل النظر والتعقيب على الآراء السابقة في التفسير الإشاري لنستخلص منها ما يمكن أن نصل إليه في تقرير شروط التفسير الإشاري، تجدر الإشارة إلى رأي بعض المستشرقين الغربيين من قبيل المقارنة المؤثرة في توجيه الآراء إلى الأفضل، فنرى المستشرق نكلسون أستاذ مدرسة كمبردج الاستشراقية يصرح بأن التفسير الصوفي يشابه التفسير الشيعي وكلاهما عنده من التأويلات المغرضة التي تتلاعب بالنصوص، فيقول: "استطاع الصوفية متبعين في ذلك الشيعة، أن يبرهنوا بطريقة تأويل نصوص الكتاب والسنة تأويلاً يلائم أغراضهم على أن كل آية بل كل كلمة من القرآن تخفي وراءها معنى باطنياً لا يكشفه الله إلا لخاصة العباد، الذين تشرق هذه المعاني في قلوبهم وفي أوقات وجدهم، واعتبروا أنفسهم خاصة أهل الله الذين منحهم الله أسرار علم الباطن المودعة في القرآن والحديث، وأنهم استعملوا في التعبير عن هذا العلم لغة الرمز والإشارة، التي لا يقوى على فهمها غيرهم من المسلمين"^(٥)، وربما كان هذا الموقف للمستشرق نكلسون بسبب ما

(١) التفسير والمفسرون: ٢٢/٣.

(٢) التفسير والمفسرون: ٤٢/٣.

(٣) التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً: ١٥٧.

(٤) من التراث الصوفي، سهل بن عبدالله التستري: ١٠٩.

(٥) التصوف الإسلامي وتاريخه: ٧٦.

أشارت إليه الباحثة صلى الله عليه وسلم أن المستشرقين في القرن التاسع عشر قد عرفوا المصادر الصوفية المتأخرة والتي لا تصور التصوف في مراحلها الأولى.

فحكّم نيكلسون على جميع الصوفية في تفسيرهم للقرآن بما رآه من الغلو في التفسير الإشاري عند المتأخرين، ولذا أدرك نيكلسون بعد ذلك استحالة وضع حكم منصف للتصوف قبل أن تعد مصادره الأولى إعداداً علمياً دقيقاً، وقد تولى هو زمام المبادرة في نشر المخطوطات وتحقيقتها والتعليق عليها وترجمتها وتحليل مادتها^(١).

ويرى المستشرق جولد تسهير أن العمل بما روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن" لا يحصل بمجرد تفسيره الظاهر، فالأمور كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها، وفيه رموز ودلالات لكل ما أشكل من ذلك على النظائر، ومهمة التفسير هي استخراج كل ذلك العلم من الكتاب والتعمق في تفصيله، ووراء هذه المعاني الظاهرة يحتجب المعنى الباطن وتسكن أسرار القرآن التي ينبغي البحث عنها بتغلغل ونفاذ أعمق من ذلك، ولن يترتب على ذلك القضاء على ظاهر التفسير بل هو استكمال له ووصول إلى لبابه، وإذا كان التفسير الصوفي فيه تجاوز للتفسير المنقول المحدود في حرية لا توقفها قيود، ومع استخدام أمثلة بعيدة المدرك والمورد في الغالب في الكشف عن أفكار الوري إلا أن أثرت في التغلغل إلى ما وراء المسموع والمنقول من المعاني المقصودة في كلام الله والمكنونة في حجبها والتي لا يعقلها إلا العالمون^(٢).

ويرى المستشرق هنري كوربان أن المستمع للكلام الإلهي يحق له أن يفهم منه كل شيء، وفي أي حقل من المعرفة وفي أي درجة من العمق والخفاء شرط ألا يتجاوز فهم السامع، ولا يتعدى التفسير من محتوى الكلام ودلالاته الوصفية حقيقة ومجازاً وكناية حيث أن علم الله عين ذاته ولا حد له وسع كل شيء علماً^(٣).

ويرى الدكتور محمد كمال جعفر أنه لا بد قبل تقرير شروط قبول التفسير الصوفي التنبيه إلى أن التفسير الصوفي يرتبط بنوعية اعتقاد المفسر، ويمكن إجمال تفسيراتهم في نوعين^(٤): أ- التفسير النظري: وهو التفسير المبني على نزعة فلسفية حيث تتوجه الآيات القرآنية لديهم وفق نظرياتهم وتتفق مع تعاليمهم.

ب- التفسير الإشاري: هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك ولا يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة.

والفرق بين التفسير النظري و التفسير الإشاري في أثرهما على تفسير القرآن أن التفسير النظري يبني على مقدمة علمية تتقدح في ذهن الصوفي أولاً ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك، أما التفسير الإشاري فلا يرتكز على مقدمات علمية بل يرتكز على مجاهدات رياضية، يأخذ الصوفي نفسه بها حتى يصل إلى درجة إيمانية تتكشف له فيها من سبل العبارات هذه الإشارات، وتتوالى على قلبه تحليل الآيات من المعاني الربانية.

كما أن التفسير الصوفي النظري يرى صاحبه أنه كل ما تحتمله الآية من معاني وليس وراءه معنى آخر يمكن أن تحمل عليه إلا هذا، على حسب طاقته أما التفسير الإشاري فلا يرى الصوفي أن كل ما يراد من الآية بل يرى أن هناك معنى آخر تحتمله الآية ويراد منها أولاً وقبل كل شيء ذلك المعنى الظاهر الذي ينساق إليه الذهن قبل غيره.

(١) الإتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي، محمد عبدالله الشرفاوي: ١٩ وما بعدها.

(٢) مذاهب التفسير الإسلامي، إنجاز جولد تسهير، ترجمة: محمد يوسف موسى وآخرون، طبعة دار الكتاب العربي، ١٩٥٩: ٢٠٧.

(٣) تاريخ الفلسفة الإسلامية، هنري كوربان، ترجمة: قيسي وزميله، بيروت، ط١، ١٩٦٦: ١٠.

(٤) انظر: التصوف، د. محمد كمال جعفر: ٢٦.

ويرى الدكتور جعفر في شرطه لقبول التفسير الصوفي أن تأويل الصوفية للقرآن أو الفهم الخاص له إذا خلا من أي هدف سياسي أو اجتماعي، سواء كان لرد اعتبار أو كوثيقة أمن أو بسط سلطان أو كسب ثروة أو احتفاظ بمراكز نفوذ تتعلق بأشخاص أو بجماعات، إذا لم يكن له مثل هذا الهدف وإذا كان لا يعارض نصوصاً قرآنية أخرى، ولا يعارض الاستعمال العربي، ولا يؤدي إلى تحريف أو انحراف، وإذا كان وجوده يضيف ثروة روحية أو عقلية، وإذا كان لا يدعى من السلطة ما يجعله أمراً ملزماً، بفرض واحدته في الأحقية، إذ كان كذلك فهو تأويل مقبول، ليست له غاية إلا تعميق الفهم عن الله الذي ما زال كتابه منبعاً لا يغيض ومعيناً لا ينضب للحقائق والأسرار^(١).

ومن ثم وبناء على ما سبق من الآراء يمكن تقرير الشروط التي يقبل بها التفسير الصوفي في العناصر الآتية:

- ١- ألا يكون التفسير الصوفي منافياً للظاهر من النظم القرآني الكريم..
 - ٢- أن يكون له شاهد شرعي يؤيده.
 - ٣- ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي.
 - ٤- ألا يدعي أن التفسير الصوفي هو المراد وحده من الظاهر.
 - ٥- ألا يكون التأويل بعيداً لا يحتمله اللفظ فيه تلبس على أفهام الناس.
- فإذا توفرت هذه الشروط، وليس للتفسير ما ينافيه أو يعارضه من الأدلة الشرعية، جاز الأخذ به أو تركه، لأنه من قبيل الوجدانيات، والوجدانيات لا تقوم على دليل نظري، وإنما هو أمر يبعث على تنمية المشاعر وتحصيل مكارم الأخلاق، فيجده الصوفي من نفسه ويسره بينه وبين ربه، فله أن يأخذ به أو يعمل بمقتضاه دون أن يلزم به أحداً من الناس، والأحرى ألا يسمى هذا اللون من الفهم تفسيراً وإنما يسمى ذكر النظر بالنظير الذي يعتبر صحيحاً^(٢).

أمثلة على التفسير الإشاري:

ما ذكره سهل بن عبد الله التستري في قوله تعالى: {وَإِذَا مَرَضَتْ فُهْوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِئْتِنِي ثُمَّ يُحْيِينِ} [الشعراء: ٨٠-٨١]، قال: "يعنى إذ تحركت بغيره لغيره عصمى، وإذا ملت إلى شهوة من الدنيا منعها عنى، وقوله والذي يميتنى ثم يحيىنى أي الذي يميتنى بالغفلة ثم يحيىنى بالذكر"، وفي قوله: {قَتَلَكْ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [النمل: ٥٢]، قال: "الإشارة في البيوت إلى القلب فمنها ما هو عامر بالذكر، ومنها ما هو خرب بالغفلة ومن ألهمه الله عز وجل بالذكر فقد خلصه من الظلم"^(٣).

وقال في قوله تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَفَاقِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات: ٩]، ظاهرهما ما عليه من أهل التفسير، وباطنها هو الروح والعقل والقلب والطبع والهوى والشهوة، فإن بغى الطبع والهوى والشهوة على القلب والعقل والروح، فليقتاتل العبد بسيف المراقبة وسهام المطالعة وأنوار الموافقة ليكون الروح والعقل غالباً والهوى والشهوة مغلوباً^(٤).

وأورد أبو نصر السراج الطوسي بعض الأمثلة التي ذكرها الصوفية من طريق الإشارة والاستنباط والفهم الصحيح، وبين أنهم لم يقدموا فيها ما أخر الله تعالى ولا أخروا ما قدم الله، ولا نازعوا الربوبية ولا خرجوا عن العبودية ولا يكون فيه تحريف الكلم، منها قوله تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ

(١) التصوف، د. محمد كمال جعفر: ٢٦.

(٢) التصوف، محمد كمال جعفر: ١٦٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، سهل التستري: ٧٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٩١.

مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (الشعراء: ٨٨- ٨٩)، سئل عنه أبو بكر الكتاني فقال: القلب السليم على ثلاثة أوجه من طريق الفهم :
أحدها: هو الذي يلقي الله تعالى عز وجل وليس في قلبه مع الله شريك.
والثاني: هو الذي يلقي الله تعالى وليس في قلبه شغل مع الله عز وجل ولا يريد غير الله تعالى.
والثالث: الذي يلقي الله عز وجل ولا يقوم به غير الله عز وجل، فنى عن الأشياء بالله، ثم فنى عن الله بالله (١).

ويعقب السراج الطوسي بقوله: "معنى قوله: فنى عن الله بالله، يعنى يذهب عن رؤية طاعة الله عز وجل ورؤية ذكر الله ورؤية محبة الله، بذكر الله له ومحبته قبل الخلق، لأن الخلق بذكره لهم ذكروه، وبمحبتهم لهم احبوه، وبقديم عنايته بهم أطاعوه (٢).

ومثل ما أشار الجنيد بن محمد سيد الصوفية في عصره بقوله تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمْرٌ مَرَّ السَّحَابِ} [النمل: ٨٨]، إلى سكونه وقلة اضطراب جوارحه عند السماع، وكذلك ما كان يشير به أبو علي الروذباري إذا رأى أصحابه مجتمعين فيقرأ: {وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} [الشورى: ٢٩] (٣).

وقال أبو القاسم القشيري في قول الله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا} [الإسراء: ٣٣]، لا يجوز قتل نفس الغير بغير الحق، ولا للمرء أن يقتل نفسه أيضا بغير الحق، وكما أن قتل النفس بالحديد وما يقوم مقامه من الآلات محرم، فكذلك القصد إلى هلاك المرء محرم، ومن انهمك في مخالفة ربه فقد سعى في هلاك نفسه، وقوله: {وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا} [الإسراء: ٣٣]، أى تسلط على القاتل في الاقتصاص منه، وعلى معنى الإشارة إن النصر من قبل الله ومنصور الحق لا تنكسر سنانة ولا تطيش سهامه (٤).

(١) تفسير القرآن العظمي: ٩١.

(٢) اللمع في التصوف: ١٢٦.

(٣) اللمع في التصوف: ١٢٦.

(٤) لطائف الإشارات، القشيري: ٣٤٦/٢.

ثانياً:- اتجاهات التفسير

للتفسير اتجاهات وهي:

١-الاتجاه اللغوي:

وهو "التفسير الذي يبني على قواعد نحوية أو بلاغية، فإن ساعده السياق قُبل، وإلا أعرضنا عنه، وأخذنا بما يصححه النظر، ويقويه الدليل"^(١). ويمكن أن نعرفه بأنه: الرجوع في تفسير القرآن إلى المعنى العربي الذي استعملته العرب، ويكون ذلك عند عدم النص الشرعي الذي ينقل المعنى اللغوي إلى معنى آخر. والتفسير اللغوي على قسمين:

"الأول: أن لا يحتمل اللفظ إلا معنى واحداً، وهذا ما لا يقع فيه خلاف، وهو أشبه بأن يجعل من القسم الذي طريقه السماع لا الاجتهاد، لعدم الحاجة لإعمال الرأي فيه مطلقاً. الثاني: ما يحتمل أكثر من معنى، والسياق محتتمل لها جميعها، ففي مثل هذا يكون التَّمييزُ وإعمال الرأي اعتماداً على المعنى اللغوي، ومثال ذلك: تفسير قوله تعالى: {خِتَامُهُ مِسْكٌ} فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [المطففين: ٢٦]، قال الطبري: "فقال بعضهم: ممزوج مخلوط، مزاجه وخلطه مسك، وعن عبد الله {مَخْتُومٌ} قال: ممزوج، { خِتَامُهُ مِسْكٌ } قال: طعمه وريحه، وقيل: أن آخر شرايبهم يختم بمسك يجعل فيه"^(٢) "٣".

ولعله يقصد بالتمييز أي: بالاجتهاد، وإعمال الرأي اعتماداً على المعنى اللغوي. ووجه الاستشهاد هنا إعمال الرأي، وفقاً للمعنى اللغوي لقوله تعالى: { خِتَامُهُ مِسْكٌ } فكان في اللغة ثلاثة معان هي:

١- خِطْطُهُ مِسْكٌ^(٤). ٢- طعمه وريحه مسك^(٥). ٣- آخره يختم بمسك يجعل فيه^(٦). وفي هذا المثال، وكل ما هو على شاكلته يمكن إعمال الرأي في اختيار أحد المعاني، ويمكن حمل اللفظ أو الجملة على جميع المعاني إن كانت اللغة والسياق يحتمله، والله الموفق. ٢-الاتجاه العلمي:

وهو "التفسير الذي يُحْكَمُ الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها"^(٧)، ولعل الإمام الغزالي^(٨) أكثر من تحدث عن هذا النوع من التفسير بمعلومات عصره، وما حصل عليه من كتب الفلسفة، وأحياناً بلفطات تأملية وفقاً للآيات،

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ٣٩٨ / ٢.

(٢) جامع البيان للطبري ٢٩٦ / ٢٤.

(٣) مصادر التفسير، مساعد الطيار ص ٢.

(٤) لسان العرب لابن منظور ١٦٣ / ١٢.

(٥) المصدر نفسه ١٦٣ / ١٢.

(٦) المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيدة المرسي ١٥٦ / ٥، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط/ ٢٠٠٠م.

(٧) التفسير والمفسرون للذهبي ٢٨ / ٣، ٢٩.

(٨) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي حجة الإسلام الفقيه الشافعي، لم يكن في آخر عصره مثله، اختلف إلى دروس العلم وجدَّ في الاشتغال حتى تخرج في مدة قريبة وصار من الأعيان واشتهر اسمه وسار بذكره الركبان، وكانت ولادته في سنة خمسين وأربع مائة بالطابران وتوفي رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة انظر: سير أعلام النبلاء ٢٢٣ / ١٩، والوافي بالوفيات ١١٩ / ١، ١٢٠.

وعندما عقد أول مؤتمر للإعجاز العلمي في إسلام آباد عام ١٩٨٧م، عرف التفسير العلمي بأنه: "الكشف عن معاني الآية أو الحديث في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية"^(١).

"والتفسير العلمي يختلف عن الإعجاز العلمي؛ لأن الإعجاز لا يكون إلا فيما تحقق ثبوته، ولذلك يعرف الإعجاز بأنه: إخبار القرآن الكريم، أو السنة النبوية، بحقيقة أثبتتها العلم التجريبي أخيراً، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وهكذا يظهر اشتغال القرآن، أو الحديث على الحقيقة الكونية، التي يؤول إليها معنى الآية أو الحديث، ويشاهد الناس مصداقها في الكون، فيستقر عندها التفسير، ويعلم بها التأويل، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧]، وقد تتجلى مشاهد أخرى كونية عبر القرون، تزيد المعنى المستقر وضوحاً، وعمقاً، وشمولاً؛ لأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد أوتى جوامع الكلم"^(٢).
وتكمن أهمية التفسير العلمي المتثبت من الحقائق التي أثبتتها العلم التجريبي بالآتي:

أ- تفسير القرآن للمسلمين تفسيراً يشبع حاجتهم من الثقافة الكونية، ويغرس اليقين في قلوبهم بصدق ما أخبرهم به القرآن الكريم.

ب- إدراك وجوه جديدة للإعجاز في القرآن من ناحية ما يحويه أو يرمز إليه من علوم الكون والاجتماع.

ج- دفع مزاعم القائلين بأن هناك عداوة بين العلم والدين.

د- استمالة غير المسلمين إلى الإسلام من هذا الطريق العلمي الذي يخضعون له دون سواه في هذه الأيام"^(٣)؛ ولكن شريطة أن يكون بدون تعسف للآيات والمعاني.

٣- الاتجاه الموضوعي:

إن هذا النوع من التفسير "يتناول موضوعاً واحداً في القرآن، يعتمد المفسر فيه إلى ذكر الآيات المتعلقة بهذا الموضوع، ويشرحها ويفصل القول فيها"^(٤).
ومثال ذلك أن يعتمد المفسر إلى جمع آيات التقوى من جميع سور القرآن ثم يقوم بتفسيرها في منظومة واحدة.

٤- الاتجاه الفقهي:

وهو "التفسير الذي يولي موضوع الأحكام الفقهية عناية خاصة"^(٥)، ومن الأمثلة على ذلك: من الحنفية: ألف أبو بكر أحمد بن علي الرازي المعروف بالجصاص والمتوفى سنة سبعين وثلاثمائة من الهجرة كتاباً سماه أحكام القرآن تناول فيه الأحكام الفقهية مرجحاً مذهب الحنفية. ومن المالكية: ألف أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله الملقب بابن العربي المتوفى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة من الهجرة كتابه أحكام القرآن، معتمداً على المذهب المالكي، وكان متحرراً قد بلغ رتبة الاجتهاد كما في ترجمته.

ومن الشافعية: ألف أبو الحسن عماد الدين، علي بن محمد بن علي الطبري المعروف بالكنيا الهراسي المتوفى سنة أربع وخمسمائة كتابه أحكام القرآن، وهو كسابقه يخرج عن المذهب إذا لاح له الدليل.

(١) تأصيل الإعجاز العلمي، عبد المجيد بن عزيز الزندانى ص ١٤، مطبوعات هيئة الإعجاز العلمي- مكة المكرمة (بدون).

(٢) تأصيل الإعجاز العلمي للزندانى ص ١٥.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ٢/ ١٠٠.

(٤) لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، محمد بن لطف الصباغ ١٥/٢، رسالة دكتوراه.

(٥) لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، محمد بن لطف الصباغ ١٥/٢.

وهكذا بقية المذاهب حتى مذاهب الفرق المنحرفة التي تتعسف أحكام القرآن للتدليل على مذاهبها الباطلة، كالشيعة الاثنا عشرية، والباطنية، وغيرها، فكل طائفة جعلت لها تفسيراً يتمشى مع مذهبها، وفكرها.

٥-الاتجاه البلاغي:

وهو "علم يعرف به أحوال الألفاظ، والجمل القرآنية التي بها يطابق مقتضى الحال، وفقاً للغرض الذي سيق له، مع إبراز سهولة المعنى، ومحاسن الألفاظ؛ ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في فهم كلام الله، وهو: " القول في القرآن بالاجتهاد المبني على أصول صحيحة، وقواعد سليمة متبعة تعنى بأسرار التراكيب لنظم القرآن بما يبين المعنى بحسب مقتضى الحال، وتظهر من خلاله فصاحة القرآن التي تحدى الله بها العرب"^(١).

ومن أعلام هذا الفن الإمام عبد القاهر الجرجاني^(٢)، فقد ألف كتاباً سماه إعجاز القرآن الصغير، وكتاباً آخر سماه إعجاز القرآن الكبير، وغيرها من المؤلفات، والعلامة محمود الزمخشري في تفسيره المسمى بالكشاف، ولولا اعتزاله وانتصاره في كتابه للمعتزلة لكان كتاباً حافلاً، ومن المعاصرين الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير فقد جمع ما لم يجمعه غيره مستفيداً من من سبقه كثيراً، وهذا الاتجاه في التفسير تابع للتفسير بالدراية وسيسلط الباحث الأضواء عليه؛ كون هذه الدراسة التي نحن بصدها هي في التفسير البلاغي.

أهمية التفسير البلاغي:

وللتفسير البلاغي أهمية كبيرة نذكر منها:

١- الوقوف على معجزة القرآن الكريم البلاغية التي تحدى بها الله تعالى العرب.

قال ابن عاشور: "إعجاز القرآن متوجه إلى العرب إذ هو معجز لفصحائهم، وخطبائهم، وشعرائهم، مباشرة، ومعجز لعامتهم بواسطة إدراكهم أن عجز مقارعيه عن معارضته مع توفر الدواعي عليه، فهذا برهان ساطع على أنه تجاوز طاقة جميعهم، ثم هو بذلك دليل على صدق المُنزَّل عليه لدى بقية البشر الذين بلغ إليهم صدى عجز العرب بلوغاً لا يستطيع إنكاره لمعاصريه بتواتر الأخبار، ولمن جاء بعدهم بشواهد التاريخ، كما أنه معجزة مستمرة على تعاقب السنين؛ لأنه قد يدرك إعجازه العقلاء من غير الأمة العربية بواسطة ترجمة معانيه التشريعية، والحكمية والعلمية، والأخلاقية، وهو دليل تفصيلي لأهل تلك المعاني، وإجمالي لمن تبلغه شهادتهم بذلك"^(٣).

٢- توجيه التفسير للألفاظ والجمل القرآنية بما يرفع الإشكال ويوضح المعنى.

ومثال ذلك: "لما جلس أبو عبيدة معمر بن المثنى^(٤) لدروس العلم في المسجد جاءه رجل يقول له: إن العرب حين تستعمل أسلوب التشبيه فإنها تشبه مجهولاً بمعلوم حتى يتضح المجهول فما

(١) هذان التعريفان استنبطهما الباحث من خلال تعريف علم البلاغة، ومعنى الفصاحة، ومن خلال علوم البلاغة الثلاثة: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع، لأنني لم أجد من عرفه على رغم طول فترة البحث، انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، أبو عبدالله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني ص ٤٩، تحقيق الخفاجي، دار إحياء العلوم - بيروت، ط/ الرابعة، ١٩٩٨م.

(٢) هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر، واضع أصول البلاغة، كان من أئمة اللغة، من أهل جرجان (بين طبرستان وخراسان) له شعر رقيق، من كتبه: أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، والجمل في النحو، وغيرها، ولد عام أربع مائة للهجرة وتوفي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١٤٩/٥، وشذرات الذهب ٢٤٠/٣.

(٣) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي ١/ ٥٩، مؤسسة التأريخ العربي، بيروت- لبنان، ط/ الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

(٤) معمر بن المثنى التيمي بالولاء، البصري، أبو عبيدة النحوي، من أئمة العلم باللغة والأدب، ولد بالبصرة سنة عشر ومائة، استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد، وقرأ عليه أشياء من كتبه، وكان إياضياً، شعوبياً من حفاظ الحديث، توفي سنة تسع ومائتين للهجرة، انظر: العبر في خبر من غبر، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن قايماز

بالقرآن يشبه مجهولاً بمجهول في قوله تعالى عن شجرة الزقوم: {طَلْعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} [الصافات: ٦٥]، فنحن لم نر طلع الشجرة فهي مجهولة لدينا، ورؤوس الشياطين أيضاً مجهولة لنا حيث لم نر شيطاناً، فكيف وقع هذا في القرآن؟

فرد عليه معمر بأن العرب تكتفي بالصورة الذهنية عن الصورة المشاهدة، ورأس الشيطان صورته في الذهن العربي صورة كريهة مخيفة مرعبة، فشبّه به شجرة الزقوم، ومن هنا نشأ علم البلاغة لخدمة أساليب القرآن الكريم^(١).

٣- فهم المعاني القرآنية من خلال معرفة القرائن وسياق النص ولهجات العرب.

فالكلمة الواحدة والجملة الواحدة قد تحمل مدلولين متناقضين تماماً، دون أن تختلف الكلمة في بنائها الداخلي، وإنما الذي تغير هو (السياق) والقرائن المحيطة، فقد يقول الأب لابنه: (افعل كذا) وهو يقصد المعنى الظاهري لهذه الكلمة، وقد يستخدم نفس الكلمة ويقصد بها التهديد، الذي يستطيع اكتشافه من خلال القرائن، وهنا ينقلب معنى (افعل) إلى معنى مناقض تماماً هو (لا تفعل)؛ وهذا هو بالضبط ما ينطبق على القرآن الكريم، فقد يستخدم القرآن صيغة الأمر ويقصد بها مدلولها الظاهري، عندما يقول: {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} [الإسراء: ٧٨]، وقد يقصد بها الإباحة عندما يقول: {وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا} [المائدة: ٢]، عقيب الحظر في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيِّدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ} [المائدة: ٩٥]، وقد يقصد التهديد عندما يقول: {فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ} [الزمر: ١٥]، وقد يقصد التعجيز والتحدي عندما يقول: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: ٢٣]، أو عندما يقول على لسان نبي الله هود -صلى الله عليه وسلم- مخاطباً قومه الكافرين: {مَنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ} [هود: ٥٥]، وقد يقصد الاستهزاء عندما يقول الله تعالى في خطابة لبعض أهل جهنم: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [الدخان: ٤٩]، وهكذا وهلم جرا^(٢).

٤- إثراء المعاني للألفاظ والجمال التي ظاهرها التماثل والتشابه.

وتعنى بهذا كتب البلاغة التي تعنى بمقتضيات الأحوال وأسرار التراكيب ومثال ذلك ورود اليأس في القرآن الكريم بمعنى: الإحباط، والقنوط، وعدم الرجاء، مثل قوله تعالى: {يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّبُوا مِنْ يُسُفِّ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَسَّبُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ} [يوسف: ٨٧]، أي: لا يقنط من رحمة الله... وقوله: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [العنكبوت: ٢٣]، وقوله: {لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُبْسُ قُنُوطٌ} [فصلت: ٤٩]، لكنه قد وردت آية فيها اليأس بمعنى العلم على لهجة من لهجات العرب، دل عليها سياق النص، وذلك في قوله تعالى: {وَلَوْ أَنْ فَرَأْنَا سُيْرَتَ بِهِ الْجِبَالِ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَبْسُ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا} [الرعد: ٣١]، ومعناها: أفلم يعلم^(٣)، فدل ذلك على أهمية معرفة سياق النص، ولهجات العرب، لتفسير كتاب الله تعالى.

الذهبي ٢٥٩/١، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ١/ ٧٦، تحقيق: محمد المصري، جمعية إحياء التراث الإسلامي - الكويت، ط/ الأولى ١٤٠٧هـ.

(١) أثر الدرس اللغوي في فهم النص الشرعي، محمد المختار محمد المهدي ص ٧.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين أبو عبدالله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني ص ٤٩، دار إحياء العلوم - بيروت، ط/ الرابعة ١٩٩٨م.

(٣) أثر الدرس اللغوي: ١٣، بتصرف.

خاتمة التمهيد

إن النص القرآني ينأى عن النص البشري بكل أجناسه، فهو فمعجزة، ثابتة الألفاظ متحركة المعاني تصلح لكل متلق في كل زمان ومكان، تحمل دلالات بعضها فوق طاقة العقل الإنساني واستيعابه، أقبل العلماء على هذا الكتاب المجيد مشغوفين بكل ما يتعلق به: حتى أحصوا عدد آياته وحروفه، وعدد ألفاظه المعجمة والمهملة، وأطول كلمة فيه وأقصرها، وأكثر ما اجتمع فيه من الحروف المتحركة، واشتغلوا منه بأبحاث دون تلك وزنا معتقدين أن لهم في هذا كله ثوابا عند الله وأجراً، إذ حققوا إرادته الأزلية في حفظ كلامه المبين من عبث السنين.

ويمكن تحديد أهم النتائج التي توصلنا إليها من هذا التمهيد كما يأتي:

١- القرآن الكريم: هو كتاب الله تعالى الذي أنزله على خاتم المرسلين محمد -صلى الله عليه وسلم- لهداية البشر، وهو دستور الحق لإصلاح الخلق، وقانون السماء لهداية الأرض، أودعه ربنا تعالى كل تشريع، وضمنه كل موعظة من شأنها تحقيق السعادة للبشرية جمعاء، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) فَلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يونس: ٥٧ - ٥٨]

٢- لم تكن كتب علوم القرآن -في القرن الأول- قد انفردت واستقلت بالتأليف؛ بل نرى بعض الموضوعات كُتبت على وجه الاستقلال في القرون الأولى؛ كعلم القراءات، وعلم الرسم، والناسخ والمنسوخ، وإعجاز القرآن، وبعض الكتب جمعت أكثر من نوع من هذه الأنواع.

٣- كان القرآن الكريم موضع اهتمام المسلمين من أول يوم تنزل فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوعاه الصحابة وحفظوه، وكتبوه، وطبقوا ما فيه، وكان ما قام به أبو بكر الصديق بمشورة عمر رضي الله عنهما من جمع القرآن مما هو مكتوب أو محفوظ في عهده صلى الله عليه وسلم عملاً عظيماً حفظ به القرآن، وسار على نهجه عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما جمع الناس على مصحف واحد ومنع الاختلاف بين المسلمين، وقد نال زيد بن ثابت رضي الله عنه شرف تحمل مسؤولية جمع القرآن في عهد أبي بكر، وكتابته في عهد عثمان.

٤- الوحي عملية مرتبطة بحوار ثنائي: بين ذات أمرة، وذات متلقية، ورأينا ظاهرة الوحي مرئية ومسموعة، ولكنها خاصة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وحده، ولم يكن الوحي ظاهرة ذاتية عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم إطلاقاً، بل كانت منفصلة عنه انفصلاً تاماً، ربما صاحبه من خلالها إمارات خارجية في شحوب الوجه أو تصيب الجبين عرقاً، ولكنها إمارات لم تكن لتمتلك عليه وعيه نهائياً، وكان الداعي لبحث ذلك هو الرد على هجمات طائفة من المستشرقين الذين يرون الوحي نوعاً من الإغماء، أو مثلاً من التشنج، والأمر ليس كذلك، بل هو استقبال لظاهرة، أعقبه هذا الوقع، استعداد للنشر والتبليغ. بعد هذا أرسينا مصطلح الوحي على قاعدة من الفهم القرآني.

٥- تناول البحث تحديد بداية نزول القرآن زمنياً، وتعيين ما نزل منه أول مرة، ثم أشرنا للنزول التدريجي، وضرورة تنجيم القرآن، وعالجنا هذه الظاهرة بما نمتلك من تقليل لأسرارها، وتقييم لأبعادها، وأوضحنا إيمان القرآن بمرحلة النزول، وتعبنا ذلك بتاريخية ما انقسم منه إلى مكى ومدني، وسلطنا الضوء على ضوابط السور المكية والمدنية، وحمنا حول أسباب النزول وقيمتها الفنية، وما يستأنس منه بجذورها في تعيين النزول زمانياً ومكانياً، وتتبعنا ما نزل من القرآن بمكة أولاً بأول، وما نزل بالمدينة أولاً بأول، معتمدين على أصح الروايات وأشهرها، أو بما يساعد عليه نظم القرآن وسياقه، وختمنا الفصل بجدول إحصائي استقرائي لسور القرآن كافة بترتيبها العددي والمصحفي والزمني والمكاني.

٦- إن للآيات القرآنية قصة تعين على الفهم السديد وتلهم أرجح التأويل وأصح التفسير وهو ما يسمى بأسباب النزول، وحين وصفنا مقاييس المفسرين المحققين في ترجيح الروايات المنبئة عن

تلك الأسباب بمصطلحها الدقيق وتخريجها الذكي ونقدها الحصيف، وجمعها بين السبب التاريخي والسياق الأدبي في الآيات التي وضعت في السطور على حسب الحكمة ترتيباً وحفظت في الصدور على حسب الوقائع تنزيلاً، وحين تحدثنا عن ألوان من التناسق الفني يعرض بها القرآن أسباب النزول إذا لم تعرف، أو يؤكد مدلولاتها "بالنماذج" الحية إذا عرفت ولم تحفظ، أو حفظت ولم تشتهر.

٧- إن في اعتبار الشكل الصحفي، وطريق الرواية إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتعدد لهجات القبائل، مضافاً إلى المناخ الإقليمي القائم بين مدرستي الكوفة والبصرة، أسسا قابلة للاجتهاد والأثر في تعدد القراءات القرآنية، وانتهينا إلى أن الاختلاف كان في الأقل، والاتفاق في الأكثر، وحددنا وجهة النظر العلمية تجاه القراء السبعة والقراءات السبع، وأعطينا الفروق المميزة بين القراءة والاختيار، وأوردنا مقاييس القراءة المعتمدة

٨- وقد تقصينا الخطوات التي مر بها التفسير حتى اتخذ الصورة التي نجده عليها في بطون المؤلفات، وأن نفرق بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، وأن نتبين كيف يفسر القرآن بالقرآن لما في دلالاته من الإحاطة والشمول، في منطوقه ومفهومه، وعامه وخاصه، ومطلقه ومقيده، ومجمله ومفصله، ونصه وظاهره.

٩- إن القرآن كله محكم بمعنى أنه متقن غاية الإتقان، وهو أيضاً متشابه، بمعنى أنه يصدق بعضه بعضاً؛ أما من جهة الاصطلاح، فالمحكم ما عُرف المقصود منه، والمتشابه ما غمض المقصود منه. وظهر لنا أيضاً الموقف السليم من النصوص الواردة في باب الصفات، وأن القول الصواب فيها ما ذهب إليه السلف من إجراء تلك النصوص على ظاهرها، دون أن يقتضي ظاهر تلك النصوص تمثيل الخالق بالمخلوق.

١٠- وتبين لنا بعد التجوال في ميدان علوم القرآن الكريم أن (الناسخ والمنسوخ) علم من أكده العلوم وأوجبها تعلماً وحفظاً وبحثاً وفهماً وخاصة لمن أراد أن يخوض غمار تفسير كتاب الله تعالى وأن يغوص في لجته لاستخراج الدرر الثمينة والجواهر النفيسة. بل إنه علم لا يسع كل من تعلق بأدنى علم من علوم الديانة جهله كما قال ذلك مكي بن أبي طالب القيسي -رحمه الله تعالى-، وإن مما يدل على عظم شأن هذا العلم وجليل خطره أن الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه عداه شرطاً لكون الإنسان عالماً. وأن أبا يوسف صاحب أبي حنيفة اعتبره شرطاً للإفتاء بل قال: إنه لا يحل لأحد أن يفتي حتى يعرفه.

١١- إن الترجمة عامل آخر يسير موازياً لتعلم لغة القرآن الكريم في نشر دعوته، وتبليغ هدايته للعالمين، وليس بالضرورة أن يتحول المسلمون جميعاً إلى عرب، فأكثر المسلمين في أرض الله اليوم من العجم، وها نحن نراهم أشد نصرة لدين الله، وأكثر حرصاً على طلب العلم، وأكثر الأئمة الأعلام كانوا من غير العرب، وقد سجل القرآن الكريم، أن من آيات الله العظيمة، وآيات القدرة: اختلاف الألسنة واللهجات.

فلا مانع أن يُترجم القرآن الكريم لغير العرب، وأن يدخل غير العرب في دين الإسلام، ويتعلمون اللغة العربية.

١٢- وننتهي إلى إعجاز القرآن، فإذا نحن نرد سحره إلى نسقه الذي يجمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً، بموسيقاه الداخلية، وفواصله المتقاربة في الوزن التي تغني عن النفاذ، وتفقيته التي تغني عن القوافي، ورأينا كيف تم للقرآن من الإعجاز بالألفاظ الجامدة ما لا يتم للفنان من الإبداع بالريشة والألوان، وحاولنا في تصور التشبيه والاستعارة والكناية وأنواع المجاز أن نبث الحياة في اصطلاحات القدامى، فكان القرآن -في هذا كله- نسيجا واحداً في بلاغته وسحر بيانه، إلا أنه متنوع تنوع موسيقى الوجود في أنغامه وألحانه، فذلك هو القرآن: إن نطق لم ينطق إلا بالحق، وإن علم لم يعلم إلا الهدى والرشاد، وإن صور لم يصور إلا أجمل لوحات الحياة، وإن رتل ترتيلاً لم يسمع بعده

لحن في الوجود ذلك كتاب الله المجيد { لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ }.

١٣- عند دراسة لأعلام المفسرين من التابعين نجد أن هناك مدارس، جمعت اتجاهات فكرية محددة، ومناهج واحدة في التفسير، وهي المكية، والبصرية، والكوفية، والمدنية، وأيضا المصرية والشامية واليمانية، وأن لكل هذه المدارس سمات خاصة ومشاركة بينها.

١٤- إن التفسير المأثور كان جله عن التابعين، بل إن مجموع ما روي عن مشهوري المفسرين منهم فاق المروي عن مشهوري المفسرين الصحابة، كما أن أكثر مدارس التابعين إنتاجا هي المدرسة المكية، ويلبها في الأثر الواقعي المدرسة البصرية، لا الكوفية.

وأخيرا فالقرآن الكريم، هو مرجع الإسلام الأول، ودليله الأعظم، إليه المستند في العقائد، والعبادات، والحكم، والأحكام، والآداب، والأخلاق، وفيه القصص، والمواعظ، والعلوم، والمعارف، لذلك كله، كان القرآن الكريم، موضع العناية الكبرى من الرسول ومن صحابته، والتابعين، ومن سلف الأمة، وخلفها جميعاً، منذ القرن الأول إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وسيبقى كتاب الله هذا محفوظاً بحفظ الله؛ مصداقاً لقوله سبحانه: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) } [الحجر : ٩].

وقد تبين لنا من خلال البحث أن العناية بالقرآن اتخذت أشكالاً مختلفة؛ فتارةً تتوجّه إلى لفظه وأسلوبه، وأخرى إلى كتابته ورسمه، وثالثة إلى إعجازه وتفسيره.

ويمكننا أن نقول: إن كتاب الله تعالى -الذي حظي من عناية العلماء بالجهد الموفور، لشرحه وتفسيره، وبيان علومه، وهداياته- قد شمل عدة أنواع من المؤلفات، ككتب التفسير، وكتب علوم القرآن، وكتب المناهج، وكتب الدخيل، فضلاً عن الموضوعات الخاصة في مؤلفاتها الموجزة في العقيدة، والأخلاق، والمعاملات... ونحو ذلك، ولقد رأينا علماءنا سلفاً، وخلقاً قد ألفوا الكُتُبَ، وتباروا في هذا الميدان؛ حتى زحرت المكتبة الإسلامية، بثروة لا نظير لها، وتراث عظيم، من المصنفات المتنوعة، والموسوعات القيمة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

المؤلف

المصادر والمراجع العامة

القرآن الكريم.

- ابن حنبل، حياته وعصره، وآراؤه، وفقهه، لمحمد أبو زهرة دار الفكر العربي، القاهرة.
- أبو حنيفة، حياته، عصره، وآراؤه، وفقهه، لمحمد أبو زهرة دار الفكر العربي، القاهرة.
- الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث في القرن الثالث، د. عبد المجيد محمود عبد المجيد، ١٣٩٩هـ، دار الوفاء، القاهرة.
- الاتجاهات الفكرية في التفسير، د. الشحات زغلول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط الثانية ١٣٩٧هـ.
- إتحاف ذوي الرسوخ بمن رمي بالتدليس من الشيوخ، تأليف حماد الأنصاري، مكتبة المعلى الكويت، ط الأولى ١٤٠٦هـ.
- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر لأحمد البناء، تحقيق د. شعبان إسماعيل، عالم الكتب، بيروت ط الأولى ١٤٠٧هـ.
- الإتقان في علوم القرآن. جلال الدين السيوطي ٩١١هـ تحقيق مركز الدراسات القرآنية مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
- الأحرف السبعة للقرآن، لأبي عمرو الداني، تحقيق عبد المهيمن طحان، مكتبة المنارة، مكة المكرمة، ط الأولى ١٤٠٨هـ.
- الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي، تعليق الشيخ عبد الرزاق عفيفي، ط الأولى مؤسسة النور، الرياض.
- أحكام القرآن، للتهانوي، ط إدارة القرآن والعلوم الإسلامية كراتشي، الأولى ١٤٠٧هـ.
- أحكام القرآن، للجصاص، الناشر سهيل أكاديمي، لاهور، باكستان، ط الأولى ١٤٠٠هـ.
- أحكام القرآن، للإمام الشافعي، تعليق عبد الغني عبد الخالق، دار الكتب العلمية، بيروت.
- أحكام القرآن، لابن العربي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر، بيروت.
- أحوال الرجال، للجوزجاني، إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب، تحقيق صبحي السامرائي، ط الأولى ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- أسباب النزول عن الصحابة والتابعين: لعبد الفتاح القاضي، دار الندوة-بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.
- أسباب نزول القرآن: للواحدي، تحد السيد أحمد صقر، دار الكتاب الجديد-مصر، ط ١، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.
- أسباب نزول القرآن"، دراسة وتحليل لعبد الرحيم أبو علبة، الوكالة العربية للتوزيع. الأعلام": للزركلي، بيروت ط ٣.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لعز الدين بن الأثير ط الشعب ١٣٩٩هـ، القاهرة.
- الإسرائيليات في التفسير والحديث، د. محمد حسين الذهبي ط الثانية ١٤٠٦هـ مكتبة وهبة، القاهرة.
- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للدكتور محمد أبو شهبة، مكتبة السنة القاهرة، ط: الرابعة ١٤٠٨هـ.

- أسماء الثقافات لأبي جعفر عمر بن شاهين، تحقيق د. صبحي السامرائي، ط الأولى ١٤٠٤هـ، الدار السلفية، الكويت.
- الأسماء والصفات للبيهقي، تحقيق عماد الدين حيدر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الأولى ١٤٠٥هـ.
- الإصابة في معرفة الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت، عن الطبعة الأولى ١٣٢٨هـ، مطبعة السعادة، القاهرة.
- أصول التفسير وقواعده، لخالد عبد الرحمن العك، دار النفائس، بيروت ط الثانية ١٤٠٦هـ.
- أصول السرخسي، لأبي بكر محمد بن أحمد السرخسي، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٣٧٢هـ.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، طبع وتوزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ١٤٠٣هـ، الرياض.
- الاعتبار في النسخ والمنسوخ من الآثار، للحازمي، المطبعة العثمانية، حيدرآباد الدكن الهند ١٣٥٩هـ.
- الاعتصام للشاطبي، دار المعرفة، بيروت.
- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، للبيهقي، تحقيق كمال الحوت، مركز الخدمات والأبحاث، بيروت.
- إعراب القرآن لأحمد بن محمد النحاس، تحقيق د. زهير زاهد، عالم الكتب طبعة ثانية ١٤٠٥هـ بيروت.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، راجعه طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت.
- الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط الخامسة ١٩٨٠م.
- الأم للإمام الشافعي، طبعة الشعب، القاهرة.
- إنباء الغمر، لابن حجر، المطبعة العثمانية حيدرآباد، الدكن، الهند.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة للقطبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط الأولى ١٤٠٦هـ.
- الأنساب للسمعاني، تحقيق عبد الرحمن المعلمي، طبعة ثانية ١٤٠٠هـ، الناشر محمد أمين دوج بيروت.
- أنساب الأشراف، لأحمد بن يحيى المعروف بالبلاذري، تحقيق محمد حميد الله دار المعارف، نشر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية.
- الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف، لأبي بكر بن المنذر، تحقيق د. صغير أحمد ابن محمد حنيف، دار طيبة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، الرياض.
- الإيثار بمعرفة رواة الآثار، لابن حجر العسقلاني، تحقيق سيد كسردي، دار الكتب العلمية، بيروت ط الأولى ١٤١٣هـ.
- الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ومعرفة أصوله واختلاف الناس فيه، لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق أحمد حسن فرحات، دار المنارة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

- الإيمان لابن تيمية، المكتب الإسلامي، دمشق ط الثالثة ١٣٩٩ هـ.
- بحر الدم فيمن تكلم فيه الإمام أحمد بمدح أو ذم لأبي المحاسن بن عبد الهادي، تحقيق د. روحية السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤١٣ هـ.
- البحر المحيط: لأبي حيان "ت ٤٧٥ هـ"، مصورة دار الفكر-بيروت، ط ٢، ١٣٩٨ هـ-١٩٧٨ م.
- البحر المحيط: للزركشي، "ت ٧٩٤ هـ" تح. د. عمر سليمان الأشقر، الكويت ط ١، ١٤٠٩ هـ-١٩٨٨ م.
- بحوث منهجية في علوم القرآن. موسى إبراهيم لإبراهيم، دار عمّار عمان، الطبعة الثانية ١٤١٦ هـ.
- البداية والنهاية: لابن كثير "ت ٤٧٧ هـ"، مصورة مكتبة المعارف-بيروت.
- البرهان في علوم القرآن": للزركشي، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر-بيروت- ط ٣، ١٤٠٠ هـ-١٩٨٠ م.
- البرهان في علوم القرآن. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ٧٩٤ هـ تحقيق أبي الفضل الديمياطي دار الحديث القاهرة ١٤٢٧ هـ ٢٠٠٦ م.
- تاريخ الإسلام: للذهبي، تح. د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، وتح. د، بشار عواد والشيخ شعيب الأرنؤوط ود. صالح مهدي، مؤسسة الرسالة، بيروت ط ١، ١٤٠٨ هـ.
- تاريخ الطبري: تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف-القاهرة، ط ٥.
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت.
- تاريخ جرجان، للسهمي، عني به د. محمد عبد المعيد خان، ط الثالثة، الناشر عالم الكتب، بيروت ١٤٠١ هـ.
- تاريخ الخلفاء، للسيوطي، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٩ م، تصوير دار الفكر، بيروت.
- تاريخ الثقات لأحمد بن عبد الله العجلي، بترتيب نور الدين الهيثمي، تحقيق د. عبد المعطي قلجعي، طبعة أولى ١٤٠٥ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تاريخ دمشق لابن عساكر، مخطوط في مكتبة الأخ الشيخ سعد الحميد.
- تاريخ الصحابة الذين روي عنهم الأخبار لابن حبان، دار الكتب العلمية بيروت، تحقيق بوران الضناوي، ط الأولى ١٤٠٨ هـ.
- التاريخ الصغير، للإمام البخاري، تحقيق محمود زائد، طبعة أولى ١٣٩٧ هـ، دار الوعي بحلب، ومكتبة التراث، القاهرة.
- تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين، لأبي المحاسن المعري، تحقيق د. عبد الفتاح الحلو، ط جامعة الإمام، ١٤٠١ هـ.
- تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، لابن الفرضي، تصحيح عزت العطار، مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ.
- تاريخ الفقه الإسلامي، محمد علي السائس، ط محمد علي صبيح، القاهرة.

- التاريخ الكبير، للإمام البخاري، طبعة ثانية ١٤٠٢ هـ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد، الدكن، الهند.
- تاريخ المدينة لابن شبة، حققه فهيم شلتوت، دار التراث، القاهرة، ط الأولى ١٤١٠ هـ.
- تاريخ المذاهب الفقهية، لأبي زهرة، دار الفكر العربي.
- تاريخ مصر وولاتها، للكندي، دار العاصمة، الرياض.
- تاريخ واسط، لأسلم بن سهل، تحقيق كوركيس عواد، عالم الكتب، بيروت، ط الأولى ١٤٠٦ هـ.
- تاريخ وفاة الشيوخ، للبغوي، تحقيق محمد عزيز شمس، الدار السلفية، بومباي، الهند، ١٤٠٩ هـ.
- تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، تحقيق عبد القادر أحمد عطاء، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط الأولى ١٤٠٢ هـ.
- تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، شرح أحمد صقر دار التراث، ط الثانية، القاهرة.
- تبصرة المنتبه بتحرير المشتبه، لابن حجر العسقلاني، تحقيق علي الجاوي، المكتبة العلمية، بيروت.
- التبصرة والتذكرة شرح ألفية العراقي، دار الباز للنشر، مكة المكرمة.
- التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي، دار القرآن الكريم، بيروت.
- التبيين في أنساب القرشيين، لابن قدامة المقدسي، تحقيق محمد الدليمي، عالم الكتب، ط الثانية ١٤٠٨ هـ.
- تجريد أسماء الصحابة، للذهبي، نشر دار المعرفة، بيروت.
- التحرير والتنوير: لمحمد طاهر بن عاشور، منشورات دار الكتب الشرقية-بتونس، ١٣٧٦ هـ-١٩٥٦ م.
- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري، تصحيح عبد الوهاب عبد اللطيف، مطبعة المعرفة، القاهرة، نشر محمد عبد المحسن الكتبي، ط الثانية ١٣٨٣ هـ.
- تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف": للمزي، تحـ عبد الصمد شرف الدين، المكتب الإسلامي-بيروت، ط ٢، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م.
- تدريب الراوي": للسيوطي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط ٢، ١٣٩٩ هـ-١٩٧٩ م.
- تذكرة الحفاظ": للذهبي، مصورة دار أحياء التراث العربي، عن طبعة الهند.
- الترغيب والترهيب": للمنذري "ت ٦٥٦ هـ"، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ.
- تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير، من كتب السنة، تأليف د. عبد العزيز الحميدي، ط جامعة أم القرى مركز البحث العلمي.
- تفسير التابعين، عرض ودراسة ومقارنة، د. محمد بن عبدالله الخضير، دار الوطن، الطبعة الأولى، (١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م).
- تفسير الحسن البصري، جمع وتوثيق د. محمد عبد الرحيم، دار الحديث، القاهرة.

- تفسير القرآن العظيم : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [٧٠٠ - ٧٧٤ هـ]، المحقق : سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة : الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- تفسير سعيد بن جبير، لمحمد أيوب يوسف، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- تفسير سفيان بن عيينة، جمع وتحقيق أحمد محاييري، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ.
- تفسير سفيان الثوري رواية أبي جعفر محمد بن أبي حذيفة الهندي، دار الكتب العلمية، طبعة أولى ١٤٠٣ هـ، بيروت.
- تفسير الطبري، تحقيق محمود شاكر وأحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة.
- تفسير الطبري، ط مصطفى البابي الحلبي، ط الثالثة، القاهرة.
- تفسير ابن عطية المسمى المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق المجلس العلمي بفاس، طبعة ثانية ١٤٠٣ هـ، مطابع فضالة المحمدية، المغرب.
- تفسير عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق د. مصطفى مسلم، مكتبة الرشد، الرياض، ط الأولى ١٤١٠ هـ.
- تفسير غريب الحديث، لابن حجر العسقلاني، الناشر دار المعرفة، بيروت.
- تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، طبعة ثانية ١٣٩٨ هـ.
- تفسير قتادة، دراسة للمفسر ومنهج تفسيره، لعبد الله أبو السعود، الناشر عالم الكتب، القاهرة، ١٣٩٩ هـ.
- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧ هـ)، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ.
- تفسير القرطبي المسمى الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤٠٨ هـ.
- التفسير المأثور عن عمر بن الخطاب، جمع إبراهيم بن حسن، الدار العربية للكتاب ١٩٨٣ م.
- تفسير الماوردي المسمى النكت والعيون، لأبي الحسن علي بن حبيب الماوردي، تحقيق خضر محمد خضر، طبعة أولى ١٤٠٢ هـ، نشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت.
- تفسير مجاهد، تحقيق عبد الرحمن السورتي، دار المنشورات العلمية، بيروت.
- تفسير مقاتل بن سليمان: تح: د. عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤٢٣ هـ.
- تفسير نافع بن أبي نعيم ضمن مجموع، تحقيق د. حكمت بشير ياسين، مكتبة الدار بالمدينة، ط الأولى ١٤٠٨ هـ.
- التفسير والمفسرون. محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة القاهرة. الطبعة السابعة ٢٠٠٠ م.

- التمهيد": لابن عبد البر، مطبعة فضالة المحمدية-المغرب، ابتدئ به في ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.
- تهذيب التهذيب: لابن حجر، مصورة دائرة المعارف العثمانية-الهند.
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال: للمزي، تح. د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- تهذيب تاريخ ابن عساكر: لعبد القادر بدران "ت١٣٤٦هـ"، دار المسيرة ببيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- تهذيب وترتيب الإتقان في علوم القرآن. لمحمد بن عمر بن سالم بازمول، دار الهجرة الرياض بالاشتراك مع دار ابن عفان القاهرة ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- جامع البيان عن تأويل القرآن المعروف بتفسير الطبري. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ٣١٠هـ بتحقيق محمود محمد شاكر مكتبة ابن تيمية القاهرة.
- جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري(٣١٠هـ)- تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-وسننه وأيامه. أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦٦هـ) تحقيق محب الدين الخطيب ترقيم وفهرست محمد فؤاد عبد الباقي المكتبة السلفية القاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
- الجامع لأحكام القرآن": للقرطبي "ت٦٧١هـ" دار الكتب العلمية-بيروت لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- الجرح والتعديل: لابن أبي حاتم الرازي، دائرة المعارف العثمانية-بحيدر آباد الدكن-الهند ط١، ١٣٧٢هـ-١٩٥٢م.
- جمال القراء وكمال الإقراء. أبو الحسن علم الدين علي بن محمد السخاوي ٦٤٣هـ تحقيق: مروان العطية ومحسن خرابة، نشر دار المأمون للتراث دمشق ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- دراسات في علوم القرآن. د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار القاهرة الطبعة الثانية ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفكر - بيروت
- دلائل النبوة لأبي نعيم (ت ٤٣٠)، عالم الكتب، بيروت.
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة": للبيهقي، تح. د. عبد المعطي قلنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- دليل كتب علوم القرآن المسندة المطبوعة حتى عام ١٤٢٧هـ . للأستاذ فؤاد بن عبده أبو الغيث مسؤول وحدة المعلومات بمركز الدراسات والمعلومات القرآنية ، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية العدد ٢ ذو الحجة ١٤٢٧هـ.
- ذكر أسماء من تكلم فيه وهو موثوق: للذهبي "٦٧٣-٧٤٨هـ"، د. محمد شكور، مكتبة المنار-الزرقاء، الأردن ط١ "١٤٠٦هـ-١٩٨٧م".
- ذيل طبقات الحفاظ": للسيوطي "في ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني وابن فهد والسيوطي"، مصورة دار أحياء التراث العربي.

- الرسالة. أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ٢٠٤ هـ تحقيق وتعليق أحمد شاکر (بدون بيانات).
- زاد المسیر فی علم التفسیر: لابن الجوزي "٥٠٨-٥٩٧ هـ"، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.
- زاد المعاد في هدي خير العباد: لابن القيم الجوزية "٥٧١ هـ"، تح شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة-بيروت ط٤، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م.
- السبعة في القراءات: لابن مجاهد، تح الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف-مصر ط٣.
- سنن ابن ماجه: تح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية-القاهرة.
- سنن أبي داود للإمام سليمان بن الأشعث (ت ٢٧٥) المكتبة العصرية بيروت.
- سنن الترمذي: "ت ٢٩٧ هـ"، تح أحمد محمد شاکر وكمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٧ م.
- سنن الدارقطني وبذيلة التعليق المغني: لمحمد شمس الحق العظيم آبادي، طبعة عالم الكتب-بيروت.
- سنن الدارمي: "ت ٢٥٥ هـ" بعناية محمد أحمد دهمان، دار إحياء السنة النبوية، وطبعة عبد الله هاشم يمانى المدنى دار المحاسن للطباعة-القاهرة.
- السنن الكبرى: للبيهقي، مصورة دار الفكر-بيروت.
- سنن النسائي: رقمه وفهرسه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر-بيروت، ط٢، ١٤٠٦.
- سنن سعيد بن منصور: تح حبيب الرحمن الأعظمي، الدار السلفية.
- سير أعلام النبلاء: للذهبي، تح مجموعة من الأساتذة، مؤسسة الرسالة بيروت، ط٤، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م.
- السير والمغازي: لابن إسحاق، تح سهيل زكار، دار الفكر-بيروت، ط١، ١٣٩٨ هـ-١٩٧٨ م.
- السيرة النبوية الصحيحة: لأكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم-المدينة المنورة، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢ م.
- السيرة النبوية: لابن هشام، تح مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار الفكر-بيروت.
- شرح السنة للبخاري (ت ٥١٦) المكتب الإسلامي.
- شرح صحيح مسلم: للنووي، دار الفكر-بيروت، ط٢، ١٣٩٢ هـ.
- شرح علل الترمذي: لابن رجب الحنبلي، "ت ٧٩٥ هـ"، الأردن، ط١، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م.
- شرح معاني الآثار للإمام الطحاوي (ت ٣٢١) مطبعة الأنوار المحمدية.
- شرح مقدمة التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية. الشيخ محمد بن صالح العثيمين، تخريج تحقيق وتعليق إسلام منصور عبد الحميد، دار البصيرة الإسكندرية ٢٠٠٣ م.
- صحيح ابن خزيمة: تح محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي-بيروت، ط١، ١٣٩١ هـ-١٩٧١ م.
- صحيح البخاري مع فتح الباري: لابن حجر، دار المعرفة-بيروت.

- الصحيح المسند من أسباب النزول": لأبي عبد الرحمن مقبل الوادعي، مكتبة ابن تيمية- القاهرة، ط٤، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.
- صحيح مسلم": "ت٢٦١هـ"، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث-القاهرة.
- صفوة البيان لمعاني القرآن": لحسين مخلوف، الكويت ط٣.
- الضعفاء الصغير للخاري": تح محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب-١٣٩٦هـ.
- الضعفاء الكبير": للعقيلي "ت٣٢٢هـ"، تح د. عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية-بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- الضعفاء والمتروكين": لابن الجوزي، "ت٥٩٧هـ"، تح عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- الضعفاء والمتروكين": للدارقطني "ت٣٨٥هـ"، تح صبحي السامرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت ط٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
- الضعفاء": للنسائي، تح محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب، ١٣٩٦هـ.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع": لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، منشورات دار مكتبة الحياة-بيروت.
- طبقات الحفاظ": للسيوطي، تح علي محمد عمر، مكتبة وهبة-القاهرة، ط١، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.
- الطبقات الكبرى": لابن سعد محمد بن سعد بن منيع "ت٢٣٠هـ"، دار صادر-بيروت، طبع سنة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها": لأبي الشيخ الأنصاري "٢٧٤-٣٦٩هـ"، تح عبد الغفور عبد الحق حسين البلوشي، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- طبقات المفسرين": للداودي "ت٩٤٥هـ"، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- طبقات المفسرين": للسيوطي، دار الكتب العلمية-بيروت.
- طبقات علماء الحديث" لابن عبد الهادي "ت٧٤٤هـ"، تح أكرم البوشي وإبراهيم زبيق، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ.
- عشرة النساء للنسائي (٣٠٣) ، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.
- علل الحديث": لأبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد الرازي الحنظلي، المطبعة السلفية-القاهرة، ١٣٤٤هـ.
- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ابن الجوزي، دار نشر الكتب الإسلامية، باكستان.
- علوم القرآن بين البرهان والإتقان دراسة موازنة. الدكتور حازم سعيد حيدر؛ مكتبة دار الزمان المدينة المنورة الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م .
- علوم القرآن تاريخه... وتصنيف أنواعه . الدكتور مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار ؛ مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية العدد ١ ربيع الآخر ١٤٢٧هـ.
- علوم القرآن من خلال مقدمات التفسير. الدكتور محمد صفا شيخ إبراهيم حقي، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م .

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري": إخراج محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة-بيروت، لبنان.
- الفتح السماوي": للمناوي "ت ١٠٣١هـ"، تد أحمد مجتبي بن نذير السلفي، دار العاصمة-الرياض ط١، ١٤٠٩هـ.
- فتح القدير": للشوكاني "ت ١٢٥٠هـ"، البابي الحلبي، مصر ط٢، ١٣٨٣هـ.
- فنون الأفتان في عيون علوم القرآن. عبد الرحمن بن الجوزي ٥٩٧هـ تحقيق الدكتور حسن ضياء الدين عتر، دار البشائر الإسلامية بيروت ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.
- كتاب العين. الخليل بن أحمد الفراهيدي، دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل": للزمخشري، "ت ٥٣٨هـ"، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ
- كشف الأستار عن زوائد البزار- لنور الدين الهيثمي (ت ٨٠٧) مؤسسة الرسالة.
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي (ت ٩٧٥) . مؤسسة الرسالة.
- لباب النقول في أسباب النزول": للسيوطي، دار إحياء العلوم-بيروت.
- لسان الميزان": لابن حجر، مصور "مؤسسة الأعلمي"، بيروت ط٢، ١٣٩٠هـ-١٩٧١م، دار الفكر-بيروت.
- لطائف البيان في علوم القرآن. الدكتور مصطفى آكرور ، دار الإمام مالك الجزائر ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.
- لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير. الدكتور محمد بن لطفي الصبّاغ، المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثالثة سنة ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.
- مباحث في علوم القرآن. الدكتور محمد الدراجي، دار قرطبة الجزائر ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.
- المجروحين": لابن حبان، تد محمود إبراهيم زايد، صدر عن دار الوعي-حلب ط١، ١٣٩٦هـ.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد": للهيثمي، طبعة دار الكتاب، بيروت سنة ١٩٦٧م.
- مجموع فتاوي ابن تيمية": جمع عبد الرحمن العاصي النجدي مصورة مكتبة ابن تيمية-مصر.
- محاسن التأويل": للقاسمي دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي-القاهرة، ط١، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م.
- محاضرات في علوم القرآن": لغانم قدوري حمد، دار الكتاب-بغداد، ط١، ١٤٠١هـ-١٩٨١م. تم طبع بعنوان "علوم القرآن الكريم".
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز": لابن عطية، تد مجموعة، الدوحة، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٧٧م.
- المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية، خالد بن سليمان المزيني، دار ابن الجوزي، الدمام - المملكة العربية السعودية، ط١، (١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م).

- مختار الصحاح. زين الدين محمد بن أبي بكر الرازي، ترتيب: محمود خاطر، تحقيق: حمزة فتح الله، مؤسسة الرسالة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- مختصر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي. صلاح الدين أرقه دان، دار النفائس بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- المدخل لدراسة القرآن الكريم . الأستاذ الدكتور محمد أبو شهبة. دار اللواء للنشر والتوزيع الرياض الطبعة الثالثة: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز. شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بابن شامة المقدسي (٦٦٥هـ) تحقيق: طيار ألتي قولاج، نشر دار صادر بيروت سنة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- مرويات الإمام أحمد بن حنبل في التفسير": جمع وتخريج حكمت بشير ياسين وآخرين، مكتبة المؤيد-السعودية، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- المستدرك على الصحيحين": للحاكم حيدر آباد، الهند، ط١، ١٣٣٤هـ-١٣٤٠هـ.
- مسند أبي داود الطيالسي": مصورة عن طبعة دائرة المعارف النظامية في الهند ط١، ١٣٢١هـ.
- مسند أبي يعلى الموصلي": تد حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، ط١، ١٤٠٤هـ.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل" أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، وتحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- مسند الحميدي": "ت٢١٩هـ"، تد حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية ط١- بيروت، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
- مسند أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز": للباغندي "ت٣١٢هـ" تد الشيخ محمد عوامة. مؤسسة علوم القرآن، د. ب، ط٢ ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- المسند": لأبي عوانة، طبعة دائرة المعارف العثمانية، بحيدر آباد الدكن-الهند، ١٣٦٢هـ فما بعدها.
- مشاهير علماء الأمصار": لابن حبان البستي "ت٣٥٤هـ" عنى بتصحيحه م. فلا يشهر، القاهرة، ١٣٧٩هـ-١٩٥٩م.
- المشتبه": للذهبي، تد على محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية-القاهرة، ١٩٦٢م.
- مشكل الآثار"، للطحاوي، دار صادر-بيروت عن طبعة دائرة المعارف العثمانية-الهند.
- المصاحف لابن أبي داود، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٩٣٦م.
- المصنف": لعبد الرزاق، تد حبيب الرحمن الأعظمي، من منشورات المجلس العلمي ط١.
- المصنوع في معرفة الحديث الموضوع": للشيخ علي القاري "ت١٠١٤هـ"، تد الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية-بيروت، ط٢، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية": لابن حجر، تد حبيب الرحمن الأعظمي، المطبعة العصرية-الكويت، ط١، ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.
- معاني القرآن": لأبي جعفر النحاس "ت٣٣٨هـ"، تد محمد علي الصابوني، شركة مكة للطباعة، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

- معاني القرآن": للزجاج، تد عبد الجليل عبده شلبي، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- المعجم الصغير": للطبراني مع "الروض الداني"، تد محمد شكور محمود الحاج أمير، المكتب الإسلامي-بيروت دار أبو عمار-عمان، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- المعجم الكبير": للطبراني "ت٣٦٠هـ"، تد حمدي السلفي، طبعة وزارة الأوقاف العراقية-بغداد، ط١، ١٣٩٩م.
- معرفة الثقات": للعجلي، تد عبد العليم عبد العظيم البستوي، مكتبة الدار-المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- معرفة الرجال": عن يحيى بن معين رواية ابن محرز في جزأين حقق الأول محمد كامل القصار والثاني محمد مطيع الحافظ وغزوة بدر، مطبوعات مجمع اللغة العربية-دمشق، ١٤٠٥هـ.
- معرفة الصحابة": لأبي نعيم، تد محمد راضي بن حاج عثمان، مكتبة الدار-المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٨هـ.
- المغني في الضعفاء": للذهبي، تد نور الدين عتر، دار المعارف-حلب.
- مفاتيح الغيب": "تفسير الرازي"، دار الفكر-بيروت ط٣، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- مقاييس اللغة. أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق شهاب الدين أبو عمر، دار الفكر بيروت .
- المقدمات الأساسية في علوم القرآن. عبد الله بن يوسف الجديع، مركز البحوث الإسلامية ليدز بريطانيا توزيع دار الريان سنة ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م .
- مقدمة التفسير": لابن تيمية ضمن "مجموع الفتاوي"، جمع، عبد الرحمن العاصمي الحنبلي، مكتبة ابن تيمية-مصر.
- مقدمة في أصول التفسير. شيخ الإسلام ابن تيمية ٧٢٨هـ ، دار الفجر الجزائر ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م
- مناهل العرفان في علوم القرآن. الشيخ عبد العظيم الزرقاني تحقيق الدكتور نواف الجراح دار صادر بيروت ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- موارد الظمان": للهيتمي "ت٨٠٧هـ"، تد محمد عبد الرزاق حمزة، دار الكتب العلمية-بيروت.
- الموافقات": للشاطبي "ت٧٩٠هـ"، بعناية محمد عبد الله دراز، دار المعرفة-بيروت.
- موسوعة علوم القرآن. الدكتور عبد القادر منصور، دار القلم العربي حلب سنة ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م .
- الموضوعات": لابن الجوزي "ت٥٩٧هـ"، تد عبد الرحمن محمد عثمان، مكتبة ابن تيمية، ط٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- الموطأ": للإمام مالك بن أنس برواية أبي مصعب الزهري، تد بشار عواد، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
- الموقظة": للذهبي، بعناية عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط١، ١٤٠٥هـ.

- ميزان الاعتدال في نقد الرجال": للذهبي "ت٧٤٨هـ"، تد علي محمد البجاوي، دار الفكر للطباعة.
- الناسخ والمنسوخ، لابن سلامة هبة الله، ط البابي الحلبي مصر ١٩٦٧م.
- الناسخ والمنسوخ، لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق محمد المديفر، مكتبة الرشد، الرياض، ط الأولى ١٤١١هـ.
- الناسخ والمنسوخ لقتادة، تحقيق حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة.
- الناسخ والمنسوخ، محمد با شهاب الزهري، تحقيق حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة.
- الناسخ والمنسوخ": لأبي جعفر النحاس، تد محمد عبد السلام محمد، مكتبة الفلاح-الكويت، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لجمال الدين الأتابكي، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.
- النهاية في غريب الحديث والأثر": لابن الأثير "ت٦٠٦هـ" تد طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية-بيروت.
- نواسخ القرآن": لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- وفيان الأعيان وأنباء أبناء الزمان": لابن خلكان "ت٦٨١هـ"، تد إحسان عباس، دار صادر-بيروت.
- الواضح في علوم القرآن. د.مصطفى ديب البغا و الأستاذ محيي الدين ديب متو، دار العلوم الإنسانية بدمشق بالاشتراك مع دار الكلم الطيب بدمشق ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.
- الرسائل العلمية:**
- إبراهيم النخعي وآثاره الواردة في تفسير سورة الفاتحة، والبقرة، وآل عمران، للباحثة نوال اللهبي، رسالة ماجستير في جامعة أم القرى.
- أبي بن كعب وتفسير القرآن، رسالة ماجستير جامعة أم القرى، للباحث أحمد منجي.
- اختلاف المفسرين، رسالة دكتوراه، مقدمة من الشيخ. سعود بن عبد الله الفهيسان، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

بسم الله الرحمن الرحيم تفسير سورة «الفتاحة»

هي السورة الأولى من حيث الترتيب في المصحف الشريف، التي جمع الله فيها كل مقاصد القرآن، وأجمل معانيه في تلك الآيات السبع المثاني، بالأسلوب المعجز؛ واللفظ الموجز، والقول السلس الذي لا يحتاج إلى كثير معاناة بحث، ولا يستدعي عميق فهم وعويص تفكير؛ فهي نموذج القرآن الذي يرسم أسسه وحقائقه في كل نفس، ويصور معانيه في كل قلب: العلماء والدهماء على اختلاف منازلهم، وتباين درجاتهم، إذا ما لفتوا أفهامهم بعض اللفت، ووجهوا قلوبهم نوع توجيه، آتتهم هذه الفاتحة المباركة ذلك النموذج القرآني، وتلك الصورة الحقة لمقاصد الكتاب الحكيم. وأما عدد آياتها، "فهي سبع آيات كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]، وفسرها النبي ﷺ بالفاتحة، ونقل غير واحد الاتفاق على أنها سبع، منهم ابن جرير^(١) وغيره^(٢).

واختلف أهل العلم في الآي التي صارت بها سبع آيات، وفيه قولان^(٣): أحدهما: أنها صارت سبع آيات بـ {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، وها قول معظم أهل الكوفة. قال الطبري: "وقد روي ذلك عن جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين"^(٤).

الثاني: أنها سبع آيات، وليس منهن {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} ولكن السابعة: {أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}. وذلك قول معظم قراء أهل المدينة ومثقتهم. وفي عددها قولان شاذان^(٥):

أحدهما: أنها ست آيات، حكي عن حسين الجعفي^(٦). الثاني: أنها ثمان آيات، وأن: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} آية. قاله عمرو بن عبيد^(٧). قال ابن رجب: "نقل عن عمرو بن عبيد أنها ثمان آيات، ولا يعبا به"^(٨). قال أبو حيان: "وشذ عمرو بن عبيد، فجعل آية {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، فهي على عده ثمان آيات"^(٩). قال ابن عطية: "وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧] هو الفصل في ذلك"^(١٠).

وأما كلماتها: فهي خمس وعشرون كلمة^(١١).
وأما حروفها: فمائة وثلاثة عشر حرفاً^(١٢).

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٠٩/١-١١٠. تفسير الطبري: ٤٨/١.

(٢) تفسير سورة الفاتحة لابن رجب: ١٩.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٠٩/١.

(٤) تفسير الطبري: ١٠٩/١.

(٥) انظر: المحرر الوجيز: ٦١/١-٦٢، والبحر المحيط: ١٧/١، وتفسير سورة الفاتحة لابن رجب: ١٩-٢٠.

(٦) انظر: المحرر الوجيز: ٦١/١-٦٢، والبحر المحيط: ١٧/١، وتفسير سورة الفاتحة لابن رجب: ١٩-٢٠.

(٧) انظر: المحرر الوجيز: ٦١/١-٦٢، والبحر المحيط: ١٧/١، وتفسير سورة الفاتحة لابن رجب: ١٩-٢٠.

(٨) انظر: تفسير سورة الفاتحة لابن رجب: ١٩-٢٠.

(٩) البحر المحيط: ١٧/١.

(١٠) المحرر الوجيز: ٦١/١-٦٢.

(١١) انظر: تفسير سورة الفاتحة لابن رجب: ١٩-٢٠.

(١٢) انظر: تفسير سورة الفاتحة لابن رجب: ١٩-٢٠.

وإن هذه السورة العظيمة لها فضائل وخصائص عديدة، قال ابن رجب: "ولم يثبت في فضائل شيء من السور أكثر مما ثبت في فضلها، وفضل سورة (الإخلاص)"^(١). ثم سرد مجموعة من فضائلها^(٢).

مكان نزول السورة:

اختلف العلماء في مواضع نزول "سورة الفاتحة"، وفيه ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنها نزلت بمكة.

نقل عن عليّ وابن عباس وأبي هريرة والأكثرين، حتى قال أبو ميسرة: "هي أول سورة نزلت من القرآن بمكة، وأنها ابتدئت ب {بسم الله الرحمن الرحيم}"^(٣). وهذا قول جمهور العلماء، ودليلهم^(٤):

أولاً: ما أخرجه أبو بكر بن الأنباري في المصاحف عن عبادة قال: "فاتحة الكتاب نزلت بمكة"^(٥). ثانياً: أخرج الواحدي في أسباب النزول عن عليّ، قال: "نزلت فاتحة الكتاب بمكة عن كنز تحت العرش"^(٦)، وعنه رضي الله عنه- أنه سئل عن فاتحة الكتاب، فقال: "حدثنا نبي الله-صلى الله عليه وسلم- أنها أنزلت من كنز تحت العرش"^(٧).

الثالث: أخرج أبو نعيم في الدلائل عن رجل من بني سلمة قال: "لما أسلمت فتيان بني سلمة... فسأله فقراً عليه: الحمد لله رب العالمين، وكان ذلك قبل الهجرة"^(٨).

الرابع: وقالوا: لم تكن صلاة في الإسلام بدون فاتحة الكتاب، ومن المعلوم أن الصلاة شرعت في الأيام الأولى من البعثة، وفرضت الصلوات الخمس في ليلة الإسراء والمعراج، وكانت قبل الهجرة بثلاث سنوات.

قال جلال الدين: "ولم يحفظ صلاة بغير فاتحة الكتاب"^(٩).

قال ابن كثير: "وهي مكية قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وقتادة، وأبو العالية، لقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي} [الحجر: ٨٧]"^(١٠).

ووجه الاستدلال بهذه الآية على أن سورة الفاتحة مكية، هو أن هذه الآية من سورة الحجر، وسورة الحجر مكية، فهي تتحدث عن الفاتحة، فهذا دليل من القرآن على أن سورة الفاتحة نازلة بمكة، وهذا هو المعروف عند أهل العلم، ولا يلتفت إلى غيره.

واختلف في أول ما نزل من القرآن على أقوال:

أحدها: أن أول ما نزل: {بسم الله الرحمن الرحيم} منفردة.

قال الفخر الخطيب^(١١): "وهو قول الأكثرين من الذين قالوا: لم تنزل (المدثر) و(اقرأ) أولاً"^(١٢). ونقله في موضع آخر عن ابن عباس^(١).

(١) تفسير سورة الفاتحة: ٣٥.

(٢) انظر: تفسير سورة الفاتحة لابن رجب: ٣٥ وما بعدها.

(٣) انظر: دلائل النبوة: (١٥٨/٢).

(٤) انظر: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني: ١٥/١.

(٥) فتح القدير: ١٥/١.

(٦) أخرجه الثعلبي في تفسيره، مخطوطة-الكشف والبيان-: ٣٥/١، والواحدي في أسباب النزول: ١٩، وانظر: الإتيقان: ١٢/١.

(٧) أورده السيوطي في الدر: ١٦/١، وعزاه إلى إسحاق بن راهويه في مسنده.

(٨) فتح القدير: ١٥/١.

(٩) الإتيقان: ١٢/١.

(١٠) انظر: المصدر نفسه والصحيفة نفسها.

(١١) هو الرازي، والمعروف أنه يلقب: (بابن الخطيب) أو (ابن خطيب الري).

(١٢) مفاتيح الغيب: ١٤٧/١.

الثاني: ان أول ما نزل: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} [المدثر: ١]، كما جاء في حديث جابر الصحيح^(٢).
والثالث: وقيل: {اقرأ باسم ربك الذي خلق}، وهذا هو الصحيح، فإنه لما أنزل عليه: {اقرأ باسم ربك الذي خلق} رجع فتدثر، فنزل: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}^(٣).

واتفق العلماء أن أول ما نزل القرآن على وجه الإطلاق قطعاً الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، وهي قوله تعالى: {اقرأ باسم ربك الذي خلق (١) خلق الإنسان من علق (٢) اقرأ وربك الأكرم (٣) الذي علم بالقلم (٤) علم الإنسان ما لم يعلم (٥)} [العلق: ١ - ٥]، ثم فتر الوحي مدة، ثم نزلت الآيات الخمس الأولى من سورة المدثر، وهي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) فمأذنر (٢) وربك فكبر (٣) وثيابك فطهر (٤) والرجز فاهجر (٥)} [المدثر: ١-٥]، ففي الصحيحين: عن عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي قالت: "أول ما بُدئ به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الوحي هو الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلو، وكان يخلو في غار حراء، يتحنث [يتعبد] فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، قال فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم} [العلق ١-٣]، فرجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرجف فؤاده، فدخل على زوجته خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها -، فقال: زملوني، زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروح، فقال لخديجة: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل ابن عمها، وكان امرأً تنصر بالجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله له أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ما ذا ترى؟ فأخبره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس (جبريل عليه السلام) الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعا (شاباً)، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال: أو مخرجي هم؟ قال نعم، لم يأْت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب (يلبث) ورقة أن توفي، وفتر الوحي^(١).

وفيهما عن جابر رضي الله عنه، أن النبي صلي الله عليه وسلم قال وهو يحدث عن فترة الوحي: "بينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتًا من السماء، فرفعتُ بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراءٍ جالسٌ على كُرسيٍّ بين السماء والأرض، فرعبتُ منه، فرجعتُ فقلتُ: زملوني زملوني" فأُنزلَ اللهُ تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. فمأذنر} [المدثر: ٢] إلى قوله {والرجز فاهجر} [المدثر: ٥]. فحمي الوحي وتتابع تابعه عبدُ اللهِ بنُ يوسفَ، وأبو صالح، وتابعه هلالُ بنُ رَدَادٍ، عن الزُّهري، وقال يونسُ،

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ١٤٧/١.

(٢) صحيح البخاري: (٦٧٦/٨-٦٧٧-رقم: ٤٩٢٢).

(٣) انظر: تفسير الخطيب الشربيني: ٤/٢٥٠.

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ١: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم...، أصول في التفسير، حديث رقم ٣؛ ومسلم كتاب الإيمان باب ٧٣: بدء الوحي إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم، حديث رقم ٤٠٣ (٢٥٢) ١٦٠.

وَمَعْمَرٌ بَوَادِرُهُ^(١) ، وفيه ، فأنزل الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢)} إلى {وَالرُّجُزَ قَاهُجْرًا} [المدثر: ١-٥].

وثبت آيات يقال فيها : أول ما نزل، والمراد أول ما نزل باعتبار شيء معين ، فتكون أولية مقيدة مثل : حديث جابر رضي الله عنه في الصحيحين ، إن أبا سلمة بن عبد الرحمن سأله: أي القرآن أنزل أول؟ قال جابر: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} [المدثر: ١]، قال أبو سلمة : أنبئت أنه {اقرأ باسم ربك الذي خلق} [العلق: ١] فقال جابر : لا أخبرك إلا بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " جاورت في حراء فلما قضيت جواري هبطت ... " فذكر الحديث وفيه : "فأنبت خديجة فقلت : دثروني ، وصبوا علي ماء بارداً ، وأنزل علي : {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} [المدثر: ١] إلى قوله: {وَالرُّجُزَ قَاهُجْرًا} [المدثر: ١-٥]"^(٢).

فهذه الأولية التي ذكرها جابر رضي الله عنه باعتبار أول ما نزل بعد فترة الوحي ، أو أول ما نزل في شأن الرسالة ؛ لأن ما نزل من سورة اقرأ ثبتت نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وما نزل من سورة المدثر ثبتت به الرسالة في قوله { قُمْ فَأَنْذِرْ } [المدثر: ٢].

ولهذا قال أهل العلم : إن النبي صلى الله عليه وسلم نبئ بـ(اقرأ) [العلق: ١] ، وأرسل بـ(المدثر) [المدثر: ١].

القول الثاني: أنها أنزلت بالمدينة.

قاله أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري^(١)، روى منصور عن مجاهد قال: "إن إبليس رن أربع رنات: حين لعن، وحين أهبط من الجنة، وحين بعث النبي ﷺ، وحين أنزلت فاتحة الكتاب، وأنزلت بالمدينة"^(٢).

قال الحسين بن الفضل: "هذه هفوة من مجاهد، لأن العلماء على خلاف قوله"^(٣).

وروى الطبراني في "الأوسط": "حدثنا عبيد بن غنم ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا أبو الأحوص عن منصور عن مجاهد عن أبي هريرة: أن إبليس رن حين أنزلت فاتحة الكتاب، وأنزلت بالمدينة، وقال: لم يروه عن منصور إلا أبو الأحوص، تفرد به أبو بكر بن أبي شيبة"^(٤)، ورواه سفيان وغيره عن منصور ووقفوه على مجاهد.

واستدلوا على هذا بحديث مشهور في صحيح مسلم: "بينما جبريل قاعد عند النبي -صلى الله عليه وسلم- سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة"^(٥).

فإن قيل: هذا كان في المدينة، فكيف جاء بفاتحة الكتاب وهي نزلت بمكة؟

(١) أخرجه البخاري ، كتاب بدء الوحي ، باب ١ : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حديث رقم ٤ ؛ ومسلم كتاب الإيمان باب ٧٣: بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حديث رقم ٤٠٦ { ٢٥٥ } ١٦١ .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب ٣ قوله : { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ } حديث رقم ٤٩٢٤ ؛ ومسلم كتاب الإيمان باب ٧٣: بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حديث رقم ٤٠٩ { ٢٥٧ } ١٦١ .
(١) انظر: تفسير ابن كثير: ١/١٠١، ومجمع البيان: ١/١٧١ .

(٢) انظر: الدر المنثور، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، ار الفكر - بيروت: ١/١١ .

(٣) الإتيان: ١/١٢ .

(٤) المعجم الأوسط: (٥/١٠٠ - رقم: ٤٧٨٨) .

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها - باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الأيتين من آخر البقرة (٨٠٦) (ج ١ / ص ٥٥٤) .

يقال: هو لم يأت بها أصلاً، وإنما بشر النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك، والبشارة يمكن أن تكون أيضاً على أمر قد مضى، فبين له المزية لسورة الفاتحة وآخر آيتين أوتيها -صلى الله عليه وسلم- من سورة البقرة، فالبشارة يمكن أن تكون عن شيء كان في الماضي، وهو كذلك، فلا يفهم منه أنه هو الذي نزل بها كما قال بعض المعاصرين: إن بعض القرآن قد ينزل به غير جبريل، فالأمر واضح أن جبريل هو الذي نزل به كما قال تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: ١٩٣]، فالقول بأن هذا في الجملة ولا يؤثر على ذلك أن ينزل غيره بآية أو نحو هذا، فهذا قول غير صحيح.

ومعروف قطعاً أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يصلي بمكة، وكان يقرأ الفاتحة، وآية الحجر تدل على نزولها بمكة.

القول الثالث: أنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة:

أراد بعض أهل العلم أن يوفق وأن يجمع فقال: نزلت مرتين، مرة بمكة ومرة بالمدينة. قال الشوكاني: "وقيل: إنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة جمعاً بين هذه الروايات"^(١).

قال الزركشي (ت: ٧٩٤هـ): "وقد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه، وتذكيراً به عند حدوث سببه خوف نسيانه، وهذا كما قيل في الفاتحة نزلت مرتين، مرة بمكة، وأخرى بالمدينة"^(٢).

قال أحمد بن عبد الكريم بن محمد الأشموني (ت: ١١١هـ): "مكية مدنية؛ لأنها نزلت مرتين مرة بمكة حين فرضت الصلاة ومرة بالمدينة حين حولت القبلة"^(٣).

القول الرابع: أن نصفها الأول نزل بمكة ونصفها الآخر نزل بالمدينة:

وحكى أبو الليث السمرقندي: "أن نصفها نزل بمكة ونصفها الآخر نزل بالمدينة"^(٤).

قال ابن كثير: "وهو غريب جداً، نقله القرطبي عنه"^(٥)^(٦).

والصحيح أنها أنزلت بمكة، وذلك لأمرين^(٧):

أحدهما: فإن سورة (الحجر) مكية بالإجماع، وقد أنزل الله فيها: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} [الحجر: ٨٧]، وقد فسرها النبي ﷺ بالفاتحة، فعلم أن نزولها متقدماً على نزول (الحجر).

والثاني: وأيضاً فإن الصلاة فرضت بمكة، ولم يُنقل أن النبي ﷺ وأصحابه صلّوا صلاةً بغير فاتحة الكتاب أصلاً، فدل على أن نزولها كان بمكة.

قال ابن رجب: "وأما الرواية بأنها أول سورة أنزلت من القرآن فالأحاديث الصحيحة تردّه"^(٨).

(١) فتح القدير: ٧٣/١-٧٤.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٢٧/١.

(٣) منار الهدى: ٢٧.

(٤) بحر العلوم: ٣٩/١، وتفسير ابن كثير: ١٠١/١، وتفسير القرطبي: ١١٥/١.

(٥) انظر: تفسير القرطبي: ١١٥/١.

(٦) تفسير ابن كثير: ١٠١/١.

(٧) انظر: أسباب النول للواحدي: ٢١.

(٨) تفسير سورة الفاتحة لابن رجب: ١٨.

[أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ]

شرح الله تعالى لكل قارئ للقرآن العظيم، أن يستعيز بالله من الشيطان الرجيم، قال سبحانه: {قَائِدًا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [النحل : ٩٨]؛ ذلك لأن القرآن الكريم هداية للناس وشفاء لما في الصدور، والشيطان سبب الشرور والضلالات، فأمر الله سبحانه كل قارئ للقرآن أن يتحصن به سبحانه من الشيطان الرجيم، ووساوسه، وحزبه. وأجمع العلماء على أن الاستعاذة ليست من القرآن الكريم، ولهذا لم تكتب في المصاحف^(١).

عن هشام بن حسان قال: " كان الحسن يستعيز مرة حين يستفتح صلاته قبل أن يقرأ فاتحة الكتاب: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم "، قال: وكان ابن سيرين يستعيز في كل صلاة^(٢).

عن الحسن، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفته ونفخه» قالوا: ما أكثر ما تستعيز من هذا، لمن هذا؟ قال: " أما همزه: فهو الجنون، وأما نفخه: فالكبر، وأما نفته: فالشعر "^(٣).

قال محمد بن إسحاق: " إِنَّمَا سَمِيَ شَيْطَانًا لِأَنَّهُ شَطَنَ عَنَ أَمْرِ رَبِّهِ. وَالشُّطُونُ: الْبُعِيدُ النَّازِحِ "^(٤).

(١) انظر: التفسير الميسر: ١٥ .

(٢) أخرجه عن الحسن عبد الرزاق - في الصلاة - متى يستعيز، الأثر (٢٥٩١)، وابن حزم في «المحلى» (٣): (٢٤٩).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في الصلاة- باب الاستعاذة في الصلاة، الأثر ٢٥٨٠.

(٤) غريب الحديث لابن قتيبة: ٧٥٩/٣.

القرآن

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)} [الفاتحة : ١]

التفسير:

أبتدئ قراءة القرآن باسم الله مستعينا به، الله علم على الرب -تبارك وتعالى- المعبود بحق دون سواه، وهو أخص أسماء الله تعالى، ولا يسمى به غيره سبحانه. الرَّحْمَنُ ذي الرحمة العامة الذي وسعت رحمته جميع الخلق، الرَّحِيمُ بالمؤمنين، وهما اسمان من أسمائه تعالى، يتضمنان إثبات صفة الرحمة لله تعالى كما يليق بجلاله.

قوله تعالى: {الرَّحِيمِ} [الفاتحة : ١]، أي: "الرحيم بالمؤمنين"^(١).

عن سعيد بن جبير: {الرحيم}، يعني: رحيمًا بالمؤمنين"^(٢). وفي لفظ: {رحيمًا} بهم بعد التوب"^(٣).

قال قتادة: "قوله: {رحيمًا}، بعباده"^(٤).

عن عطاء بن دينار: " {رحيم} بهم بعد التوبة"^(٥).

قال عطاء الخراساني: "كان الرحمن، فلما اختزلَ الرحمن من اسمه كان الرحمن الرحيم"^(٦).

قال الطبري: "أراد عطاء أنه لما تسمَّى به الكذاب مسيلمة - وهو اختزاله إياه ، يعني اقتطاعه من أسمائه لنفسه - أخبر الله جلَّ ثناؤه أن اسمه " الرحمن الرحيم " ليفصلَ بذلك لعباده اسمه من اسم من قد تسمَّى بأسمائه ، إذ كان لا يسمَّى أحد " الرحمن الرحيم " ، فيجمع له هذان الاسمان ، غيره جلَّ ذكره. وإنما يتسمَّى بعضُ خلقه إما رحيمًا ، أو يتسمَّى رحمنًا. فأما " رحمن رحيم " ، فلم يجتمعا قطُّ لأحد سواه ، ولا يجمعان لأحد غيره، فكأنَّ معنى قول عطاء هذا : أن الله جلَّ ثناؤه إنما فصلَ بتكرير الرحيم على الرحمن ، بين اسمه واسم غيره من خلقه ، اختلف معناهما أو اتفقا.

والذي قال عطاءً من ذلك غيرُ فاسد المعنى ، بل جائز أن يكون جلَّ ثناؤه خصَّ نفسه بالتسمية بهما معًا مجتمعين، إبانة لها من خلقه ، ليعرف عباده بذكرهما مجموعين أنه المقصود بذكرهما دون مَنْ سواه من خلقه ، مع ما في تأويل كل واحد منهما من المعنى الذي ليس في الآخر منهما"^(٧).

القرآن

{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)} [الفاتحة : ٢]

التفسير:

(١) التفسير الميسر: ١.

الحمد لله الذي خلقنا وخلق

أعطى غناً أودى ذلك على وود

أعطى غناً أودى ذلك على وود

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٧٠٥) :ص٢١٥٩/٧.

(٦) أخرجه الطبري (١٤٩) :ص١٣٠/١.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ١/ ١٣٠.

الثناء على الله بصفاته التي كلها أوصاف كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، وفي ضمنه أمرٌ لعباده أن يحمده، فهو المستحق له وحده، وهو سبحانه المنشئ للخلق، القائم بأمرهم، المربي لجميع خلقه بنعمه، ولأوليائه بالإيمان والعمل الصالح.

قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} [الفاتحة: ٢]، أي: "الشكر خالصاً لله" (١).

قال كعب الأخبار (٢): "الحمد لله: ثناء على الله" (٣).

حكى ابن رجب عن أبي جعفر الباقر: أن اللام في قوله: {الحمد لله}: للاستغراق (٤). وهو الأصح، أي: استغراق جميع أجناس الحمد وثبوتها لله تعالى تعظيماً وتمجيذاً (٥)، وفي الأثر: "اللهم لك الحمد كله" (٦)، وفي دعاء القنوت: "ونثني عليك الخير كله" (٧)، وقوله: "لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك" (٨).

واختلف في معنى "العالم"، على أقوال:

أحدها: أن العالم كل ما خلقه الله تعالى في الدنيا والآخرة، قاله قتادة (٩)، ومجاهد (١٠).

واحتجوا بقوله: "قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا" [الشعراء: ٢٣-٢٤] (١١).

الثاني: أنه الإنس، والجن، وهذا قول سعيد بن جبير (١٢)، ومجاهد أيضاً (١٣)، وابن جريج (١٤).

ودليلهم قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١]، ولم يكن نذيراً للبهائم (١٥).

كما ويقوي هذا القول، جمع الكلمة على "عالمون"، وهو جمع لا يكون إلا مع العاقل! فيكون هذا دليلاً على أن الحديث عن عوالم عاقلة.

الثالث: العالمون: أهل الجنة وأهل النار. قاله جعفر الصادق (١٦).

(١) تفسير الطبري: ١٣٤/١.

(٢) كعب الأخبار هو كعب بن ماته الحميري أبو إسحاق، أدرك الجاهلية وأسلم في أيام أبي بكر وقيل: في أيام عمر، روى عن عمر وصهيب وعائشة، وروى عنه بعض الصحابة كمعاوية وأبي هريرة وابن عباس ومالك بن أبي عامر الأصبحي.

وذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من تابعي أهل الشام وقال: "كان على دين يهود فأسلم وقدم المدينة ثم خرج إلى الشام فسكن حمص حتى توفي بها سنة ثنتين وثلاثين في خلافة عثمان".

انظر: "تهذيب التهذيب" (٤٣٨/٨-٤٣٩).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١٠): ص ٢٦/١، وتفسير الطبري (١٥٣): ص ١٣٧/١.

(٤) انظر: تفسير الفاتحة لابن رجب: ٦٤.

(٥) محاسن التأويل: ٢٢٦/١.

(٦) حديث حسن، رواه البيهقي: (٤٠٨٧).

(٧) البيهقي: ٢١١/٢.

(٨) عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول في آخر وتره: "اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك". رواه أبو داود (١٤٢٧) والنسائي (١٧٤٧) والترمذي (٣٨٨٢) وابن ماجه (١١٧٩).

(٩) حكاه عنه الثعلبي في تفسيره: ١١٢/١.

(١٠) حكاه عنه الثعلبي في تفسيره: ١١٢/١.

(١١) تفسير الثعلبي: ١١٢/١.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (١٥٩)، و(١٦٠): ص ١٤٤-١٤٥.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (١٦١)، و(١٦٢): ص ١٤٥/١.

(١٤) انظر: تفسير الطبري (١٦٥): ص ١٤٦/١.

(١٥) انظر: تهذيب اللغة للأزهري: ٤١٦/٢.

(١٦) حكاه عنه الثعلبي في "الكشف والبيان": ١١٢/١.

والظاهر أن {العالمين}: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله جل وعلا، و"العالم" جمع لا واحد له من لفظه، و"العوالم" أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر، فالإنس عالم، والجن عالم، والملائكة عالم^(١). والله أعلم.

واختلف التابعون في مبلغ «العالمين» وكيفيتهم، على قولين: أحدهما: أن الإنس عالم، والجن عالم، وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم، أو أربعة عشر ألف عالم من الملائكة على الأرض، والأرض أربع زوايا في كل زاوية ثلاثة آلاف عالم وخمسمائة عالم خلقهم لعبادته. قاله أبو العالية^(٢).

وهذه الأخبار ليست دقيقة، قال ابن كثير بعد أن أورد قول أبي العالية: " وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح"^(٣). وهذا حق .

الثاني: أن «العالمين»: ألف أمة ستمائة في البحر، وأربعمائة في البر. وهذا قول تبيع^(٤). وقال كعب الأحمري: " لا يحصي عدد العالمين إلّا الله، قال الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المثر: ٣١]"^(٥).

قال أبو حيان: "ونقل عن المتقدمين أعداد مختلفة في العالمين وفي مقارها ، الله أعلم بالصحيح"^(٦).

القرآن

{الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٣)} [الفاحة : ٣]

التفسير:

الرَّحْمَنُ الذي وسعت رحمته جميع الخلق، الرَّحِيمُ، بالمؤمنين، وهما اسمان من أسماء الله تعالى. قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [الفاحة: ١]، " أي: ذو الرحمة الواسعة، والموصل للرحمة من يشاء من عباده"^(٧).

واختلفوا في اشتقاق «الرحمن والرحيم»، على قولين^(٨): أحدهما: أنهما مشتقان من رحمة واحدة، جُعِلَ لفظ الرحمن أشدَّ مبالغة من الرحيم . عن خالد بن صفوان التميمي في قوله: "{الرحمن الرحيم}"، قال: هما رقيقان أحدهما أرق من الآخر"^(٩).

الثاني: أنهما مشتقان من رحمتين ، والرحمة التي اشتق منها الرحمن، غير الرحمة التي اشتق منها الرحيم.

قال الضحاك: " الرحمن بجميع خلقه، والرحيم بالمؤمنين خاصة"^(١٠). عن الحسن: " الرحمن: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه"^(١١).

(١) انظر: تفسير الطبري: ١/٤٣، معاني القرآن للزجاج: ١/٤٦.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٨٤٣): ص ٧١٠/٣، و ٢٧/١/١٥، و تفسير الطبري (١٦٤): ص ١٤٦/١.

(٣) تفسير ابن كثير: ١/١٣٢.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٨٤٤): ص ٧١٠/٣.

(٥) تفسير الثعلبي: ١/١١٢.

(٦) البحر المحيط: ١/١٣.

(٧) تفسير ابن عثيمين: ٥/١.

(٨) انظر: النكت والعيون: ١/٥٣.

(٩) تفسير ابن أبي حاتم (٢١): ص ٢٨/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٠): ص ٢٨/١.

(١١) تفسير ابن أبي حاتم (٢٢): ص ٢٨/١.

القرآن {مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ (٤)} [الفاتحة : ٤]

التفسير:

وهو سبحانه وحده مالك يوم القيامة، وهو يوم الجزاء على الأعمال. وفي قراءة المسلم لهذه الآية في كل ركعة من صلواته تذكير له باليوم الآخر، وحثُّ له على الاستعداد بالعمل الصالح، والكف عن المعاصي والسيئات.

قوله تعالى: {مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ} [الفاتحة: ٤]، "أي: هو سبحانه المالك للجزاء والحساب، المتصرف في يوم الدين تصرف المالك في ملكه"^(١).

للتابعين في قوله تعالى: {يَوْمَ الدِّينِ} [البقرة: ٤]، تفسيران:

أحدهما : أنه يوم الجزاء. يعني: يوم يدين الله العباد بأعمالهم. وهذا قول الضحاك^(٢)، وقتادة^(٣)، وحמיד الأعرج^(٤).

دليله قوله: {إِنَّا لَمَدِينُونَ} [الصافات: ٥٣]، أي "مجرّبون"^(٥).

الثاني : أنه الحساب. ومعنى الآية: قاضي يوم الحساب، وهذا قول السدي^(٦)، وابن جريج^(٧).

ودليهم: قوله تعالى: {ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} [التوبة: ٣٦]، أي: "الحساب المستقيم"^(٨).

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "الكيس من دان نفسه"^(٩). أي حاسبها^(١٠).

والدين في هذا الموضع، يعني: الحساب والمجازاة بالأعمال ، كما قال كعب بن جُعَيْل^(١١):

إِذَا مَا رَمَوْنَا رَمِيئًا هُمْ ... وَدِينَاهُمْ مِثْلَ مَا يُفْرَضُونَ
وكما قال الآخر^(١٢) :

وَاعْلَمْ وَأَيُّونَ أَنْ مُلْكَكَ زَائِلٌ ... وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا تَدِينُ نُدَانٌ

يعني : ما تُجْزِي تُجَازَى.

(١) صفوة التفاسير: ١٩/١.

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره: ١١٥/١.

(٣) أخرجه الطبري (١٦٩): ص ١٥٥-١٥٦.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٦): ص ٢٩/١.

(٥) تفسير الثعلبي: ١١٥/١.

(٦) انظر: تفسير الثعلبي: ١١٥/١.

(٧) أخرجه الطبري (١٧٠): ص ١٥٧/١.

(٨) تفسير الثعلبي: ١١٥/١.

(٩) الحديث أخرجه الترمذي عن شداد بن أوس، وقال: حديث حسن. الترمذي (٢٤٥٩)، أبواب صفة القيامة، وابن

ماجه (٤٢٦٠) كتاب: الزهد، باب: ذكر الموت، والإمام أحمد في "مسنده" ١٢٢ / ٤، وهو بنصه في "تهذيب اللغة"

(دان) ١١٣٦ / ٢.

(١٠) التفسير البسيط: ٥٠٥/١.

(١١) الكامل للمبرد : ١ : ١٩١ ، ووقعة صفين لنصر بن مزاحم : ١ : ٥٢ ، المخصص ١٧ : ١٥٥ .

(١٢) الكامل للمبرد : ١ : ١٩٢ منسوبا إلى يزيد بن أبي الصعق الكلابي ، وكذلك في جمهرة الأمثال للعسكري : ١٩٦

، والمخصص ١٧ : ١٥٥ ، وفي اللسان (زناً) و (دان) منسوبين إلى خويلد بن نوفل الكلابي ، وفي الخزانة ٤ :

٢٣٠ إلى بعض الكلابيين . يقولون : إن الحارث بن أبي شمر الغساني كان إذا أعجبت امرأة من قيس عيلان بعث

إليها واعتصبها ، فأخذ بنت يزيد بن الصعق الكلابي ، وكان أبوها غائباً ، فلما قدم أخبر . فوفد إليه فوقف بين يديه

وقال : يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُؤَيَّبُ ! أَمَا تَرَى ... لَيْلًا وَصُبْحًا كَيْفَ يَخْتَلِفَانِ ؟

هَلْ تَسْتَطِيعُ الشَّمْسُ أَنْ تَأْتِيَ بِهَا ... لَيْلًا ؟ وَهَلْ لَكَ بِالْمَلِكِ يَدَانِ ؟

يَا حَارَ ، أَيُّونَ أَنْ مُلْكَكَ زَائِلٌ

ومن ذلك قول الله جل ثناؤه {كَلَّا بَلْ تُكذَّبُونَ بِالذِّينِ} - يعني : بالجزاء - {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ} [سورة الانفطار : ٩ ، ١٠] يُحِصُونَ مَا تَعْمَلُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وقوله تعالى {قُلُوبًا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ} [سورة الواقعة : ٨٦] ، يعني غير مجزيين بأعمالكم ولا مُحاسِبِينَ^(١).

القرآن

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)} [الفاتحة : ٥]

التفسير:

إننا نخصك وحدك بالعبادة، ونستعين بك وحدك في جميع أمورنا، فالأمر كله بيدك، لا يملك منه أحد مثقال ذرة. وفي هذه الآية دليل على أن العبد لا يجوز له أن يصرف شيئاً من أنواع العبادة كاللذات والاستغاثة والذبح والطواف إلا لله وحده، وفيها شفاء القلوب من داء التعلق بغير الله، ومن أمراض الرياء والعجب، والكبرياء.

قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥]، "أي: نخصك يا الله بالعبادة، ونخصك بطلب شيئاً إلا عانة"^(٢).

قال قتادة: يأمركم أن تخلصوا له العبادة، وأن تستعينوه على أمركم"^(٣).

عن قتادة: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ": دل على نفسه أنه كذا فقولوا"^(٤).

القرآن

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)} [الفاتحة : ٦]

التفسير:

دُنَّا، وأرشدنا، ووقفنا إلى الطريق المستقيم، وثبتنا عليه حتى نلناك، وهو الإسلام، الذي هو الطريق الواضح الموصل إلى رضوان الله وإلى جنته، الذي دلَّ عليه خاتم رسله وأنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم، فلا سبيل إلى سعادة العبد إلا بالاستقامة عليه.

قوله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة : ٦]، "أي: دلنا وأرشدنا يا رب إلى طريقك الحق ودينك المستقيم"^(٥).

قال السدي: "أرشدنا"^(٦).

واختلفوا في المراد بـ"الصراط المستقيم"، على أقوال :

أحدها : أنه دين الله الإسلام ، قاله محمد بن الحنفية^(٧)، وزيد بن أسلم^(٨)، ورواه نواس بن سمعان الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم-^(٩).

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٥٥/١.

(٢) صفة التفاسير: ١٩/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٩): ص ٢٩/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٨): ص ٢٩/١.

(٥) صفة التفاسير: ٢٠/١.

(٦) انظر: تفسير الثعلبي: ١١٩/١.

(٧) انظر: تفسير الطبري (١٨١): ص ١٧٥/١، والنكت والعيون: ٥٩/١، وتفسير الثعلبي: ١٢٠/١.

(٨) انظر: تفسير الطبري (١٨٥): ص ١٧٦/١.

(٩) انظر: تفسير الطبري: (١٨٦)، و(١٨٧): ص ١٧٦/١، وتفسير ابن أبي حاتم (٣٣): ص ٣٠/١. قال ابن كثير: وهو

إسناد حسن صحيح". ٢١ / ١.

الثاني : أنه الطريق الهادي إلى دين الله تعالى ، الذي لا عوج فيه ، وهو قول مجاهد^(١).
 الثالث : هو رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وأخيار أهل بيته وأصحابه ، وهو قول الحسن
 البصري^(٢)، وأبي العالية الرياحي^(٣)، وأبي بريدة^(٤).
 الرابع: أنه يعني صراطا لا تزيغ به الأهواء يمينا وشمالا. قاله أبو بكر الورّاق^(٥).
 وكل هذه الأقوال صحيحة وهي متلازمة فإن من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم واقتدى
 بالذين من بعده أبي بكر وعمر فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام
 فقد اتبع القرآن^(٦).

القرآن

{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)} [الفاطحة : ٧]

التفسير:

طريق الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، فهم أهل الهداية والاستقامة،
 ولا تجعلنا ممن سلك طريق المغضوب عليهم، الذين عرفوا الحق ولم يعملوا به، وهم اليهود، ومن
 كان على شاكلتهم، والضالين، وهم الذين لم يهتدوا، فضلوا الطريق، وهم النصارى، ومن اتبع
 سنتهم.

قوله تعالى: { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } [الفاطحة:٧]، " أي طريق من تفضّلت عليهم
 بالجدود والإينعام"^(٧).

اختلف في المراد بالذين أنعم الله عليهم في الآية، على أقوال^(٨):

أحدها : أنهم المؤمنون، قاله مجاهد^(٩).

الثاني : أنهم الأنبياء. قاله ربيع^(١٠)، وقتادة^(١١).

الثالث: أن "المنعم عليهم محمد صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر". حكاه مكي عن ابي
 العالية^(١٢).

الرابع. أنهم أصحاب الرسول صلى الله عليه ورضي عنهم وأهل بيته. قاله شهر بن حوشب^(١٣).

والقول الأول أشبه بالصواب، لكونه أعم وأشمل. والله أعلم.

وفي تفسير "الإينعام" في قوله { أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } [الفاطحة:٧]، حكى الثعلبي عن عكرمة، قال: "
 بالثبات على الإيمان والاستقامة"^(١٤).

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥):ص٣٠/١.

(٢) انظر: النكت والعيون:٥٩/١، وتفسير الثعلبي:١٢٠/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري(١٨٤):ص١٧٥/١، والنكت والعيون:٥٩/١، وتفسير الثعلبي:١٢٠/١، والكامل لابن عدي:
 ١٦٣ /٣.

(٤) انظر: تفسير الثعلبي:١٢٠/١، وتفسير أبي حمزة الثمالي:١٦٧، وشواهد التنزيل: ١ / ٧٤ ح ٨٦، ونهج الايمان
 لابن جبر عن كتاب ابن شاهين: ٥٤.

(٥) انظر: تفسير الثعلبي:١٢١/١.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير:٢١/١.

(٧) صفوة التفاسير: ٢٠/١.

(٨) انظر: النكت والعيون:٥٩-٦٠، وتفسير ابن كثير: ٢٢٣.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩):ص٣١/١، وانظر تفسير ابن كثير: ٢٢٣.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٨٩):ص١٧٨/١.

(١١) انظر: المحرر الوجيز: ٧٥/١.

(١٢) انظر: المحرر الوجيز: ٧٥/١.

(١٣) انظر: تفسير الثعلبي:١٢٢/١.

قوله تعالى: {غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: ٧]، أي: "غير صراط الذين غضبت عليهم، ولا الضالين عن الهدى" (٢).

أخرج الطبري عن عدي بن حاتم، قال: "قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ {المغضوبَ عليهم} اليهود" (٣)، [و] "إنَّ {الضَّالِّينَ} : النَّصَارَى" (٤). وروي عن مجاهد (٥)، والربيع (٦)، وابن جريج (٧)، وزيد بن أسلم (٨)، مثل ذلك. واختلف في معنى (أمين)، على أقوال (٩):

أحدها: أن المعنى: كذلك ليكن. حكاه الثعلبي عن قتادة (١٠).
الثاني: أن معناه: اللهم استجب لنا. قاله الحسن (١١)، وهو قول الأكثرين (١٢).
الثالث: أن (أمين)، اسم من أسماء الله تعالى. قاله مجاهد (١٣)، وهلال بن يساف (١٤)، وجعفر الصادق (١٥).

قال ابن العربي: "ولم يصح" (١٦).

«آخر تفسير سورة (الفاتحة)، والحمد لله وحده»

-
- (١) انظر: تفسير الثعلبي: ١٢٢/١.
 - (٢) تفسير البغوي: ٧٦/١.
 - (٣) تفسير الطبري (١٩٣)-(١٩٥): ص ١٨٥-١٨٦.
 - (٤) تفسير الطبري (٢٠٧)-(٢٠٩): ص ١٩٢-١٩٣.
 - (٥) انظر: تفسير الطبري (٢٠٢): ص ١٨٨، و(٢١٤): ص ١٩٣.
 - (٦) انظر: تفسير الطبري (٢٠٣): ص ١٨٨، و(٢١٨): ص ١٩٥.
 - (٧) انظر: تفسير الطبري (٢٠٤): ص ١٨٨. أخرج عنه ان {المغضوبَ عليهم}: "اليهود".
 - (٨) انظر: تفسير الطبري (٢٠٦): ص ١٨٨، و(٢٢٠): ص ١٩٥.
 - (٩) انظر: تفسير الثعلبي: ١٢٥/١، وتفسير ابن كثير: ٢٣٢، والدر المنثور: ١٧/١، وفتح القدير: ٢٦/١.
 - (١٠) انظر: تفسير الثعلبي: ١٢٥/١، ولفظه (كذلك ليكن).
 - (١١) انظر: المحرر الوجيز: ٧٩/١، والأضداد للأنباري: ٣٨٢.
 - (١٢) انظر: تفسير القرطبي: ١٢٨/١، وتفسير ابن كثير: ١٤٥.
 - (١٣) حكاه عنه الثعلبي في تفسيره: ١٢٥/١، والقرطبي: في تفسيره: ١٢٨/١، وانظر: فيض القدير: ٨٠/١، ح ٢٠.
 - (١٤) حكاه عنه الثعلبي في تفسيره: ١٢٥/١، والقرطبي: في تفسيره: ١٢٨/١.
 - (١٥) حكاه عنه القرطبي في تفسيره: ١٢٨/١.
 - (١٦) أحكام القرآن: ٦/١، وانظر: مصنف ابن أبي شيبة: ٤٢٦/٢، والمحرر الوجيز: ٧٩/١، وتفسير ابن كثير: ٢٣٢.

بسم الله الرحمن الرحيم تفسير سورة «البقرة»

سورة «البقرة»: هي السورة الثانية من حيث الترتيب في المصحف الشريف، وعدد آياتها مائتان وست وثمانون آية، وعدد كلماتها سبعة آلاف كلمة، ومائة وإحدى وعشرون كلمة، وحرّوفها خمس وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف، وبها أطول آية في القرآن وهي آية «الدين» رقم (٢٨٢)، مجموع فواصل (نهايات) آياتها (ق م ل ن د ب ر) ويجمعها (قم لندبر)، وعلى اللام آية واحدة: {أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَبَدِّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} [البقرة: ١٠٨]، وعلى القاف آية واحدة: {وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ} [البقرة: ٢٠٠]، آخر الآية المائتين^(١).

مكان نزول السورة:

اتفق أهل العلم على أنها مدنية^(٢)، وأنها أول سورة أنزلت بها^(٣)، قالت عائشة^(٤)-رضي الله تعالى عنها:- "ما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده صلى الله عليه وسلم"^(٥)، ولم يدخل عليها إلا بالمدينة^(١).

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (المتوفى: ٨١٧هـ)، المحقق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للدراسات الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة: ص ١٣٣/١-١٣٤.

(٢) ذكر الاتفاق على مدنيّتها: الماوردي في النكت والعيون: ٦٣/١، والعز بن عبد السلام في تفسير القرآن: ٩٣/١، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ٤٩/١ و ٥٠، وحكاة السيوطي في الإتيان: ١٤/١-١٥ عن أبي الحسن بن الحصار في كتابه النسخ والمنسوخ، كما ذكر الاتفاق على مدنيّتها القاسمي في محاسن التأويل: ٣١/٢، وابن عاشور في التحرير والتنوير: ٢٠١/١. والقول بمدنيّتها قول ابن عباس وزيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير والحسن ومجاهد وعكرمة وجابر بن زيد وقتادة ومقاتل. انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥٠/١، زاد المسير لابن الجوزي: ١٩١/١-٢٠، الدر المنثور للسيوطي: ٤٦/١ والإتيان له: ١٥-١٢/١. وقد قال بذلك أيضاً: ابن عطية في المحرر الوجيز: ٩٣/١، والزرکشي في البرهان في علوم القرآن: ١٩٤/١، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١٥٢/١، والألوسي في روح المعاني: ٩٨/١. واستثنى الماوردي في النكت والعيون: ٦٣/١، والعز في تفسير القرآن: ٩٣/١ وقوم كما ذكر ذلك ابن الجوزي في زاد المسير: ٢٠/١ قوله-عز وجل:- {وَأَنْقُضُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ} [البقرة: ٢٨١]، قالوا: فإنها أنزلت يوم النحر بمنى في حجة الوداع. وليست بمستثناة على التعريف المختار، وهو: أن المكي ما نزل قبل الهجرة وإن كان بالمدينة، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان بمكة، نبه على ذلك الزركشي في البرهان في علوم القرآن: ١٨٧/١، وانظر: الإتيان للسيوطي: ١١/١-١٢. وإنما يدل ذلك على أن سورة البقرة لم تنزل جملة واحدة بل في مدد شتى كما ذكر ذلك ابن عطية في المحرر الوجيز: ٩٣/١ والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١٥٢/١. كما ذكر السيوطي في الإتيان: ١٩/١ أنه استثنى منها آيتان: {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا} [البقرة: ١٠٩]، {لَيْسَ عَلَيْكُمْ هُدَاهُمْ} [البقرة: ٢٧٢] وهذا خلاف ما ذكره ابن كثير في تفسيره: ٤٩/١ من أن سورة البقرة جميعها مدنية بلا خلاف. وعلى القول بعدم مدنية هاتين الآيتين فإن ذلك لا يخرج السورة عن كونها مدنية، انظر: روح المعاني للألوسي: ٩٨/١. وقد ذكر الصابوني في تعليقه على معاني القرآن للنحاس: ٧٣/١ أن القول بمدنيّتها قول الجمهور، ولم يأت على ذكر مخالف.

(٣) حكى الاتفاق على ذلك ابن عاشور في التحرير والتنوير: ٢٠١/١ وهو قول ابن عباس وعكرمة. انظر: زاد المسير لابن الجوزي: ١٩/١، والدر المنثور للسيوطي: ٤٦/١، وقال به ابن كثير في تفسيره: ٤٩/١، والزرکشي في البرهان: ١٩٤/١.

(٤) هي: أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق القرشية التيمية، أم عبد الله، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وبنى بها في المدينة، وكانت أحب أزواجه إليه، ولم يتزوج بغيرها، أعلم نساء الأمة وأفقههن على الإطلاق، توفيت عام: ٥٧ أو ٥٨هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٣٥/٢، البداية والنهاية لابن كثير: ٩١/٨، الإصابة لابن حجر: ٣٤٨/٤.

(٥) البخاري-فتح: ٦٥٥/٨ رقم: ٤٩٩٣.

ويجدر القول بأن سورة البقرة قد استمر نزولها في العهد المدني، لذا لا يتصور إمكانية حصر أسباب نزولها في سبب واحد لتعدد الأسباب في نزول الآيات، وسوف نذكر أسباب النزول إن وجدت في سياق تفسير الآيات ومرجعيتنا في ذلك، والله المستعان.

(١) ذكر ابن حجر في الفتح: ٦٥٧/٨ والسيوطي في الإتقان: ١٦/١ الاتفاق على ذلك، وكان بناء النبي صلى الله عليه وسلم بعائشة بعد بدر في شوال من السنة الثانية من الهجرة، وقيل: في السنة الأولى. انظر: المصادر المذكورة في الهامش رقم: (١).

القرآن { الم (١) } [البقرة : ١]

التفسير:

الله أعلم بمراده، والأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها دون سند شرعي، واليقين بأن الله أنزلها لحكمة قد لا نعلمها.

سبب النزول:

عن مجاهد، قال: "أربع آيات من أول هذه السورة نزلت في المؤمنين، وآيتان بعدها نزلتا في الكافرين، وثلاث عشرة بعدها نزلت في المنافقين^(١)."

وهذه الحروف التي في بداية السور، فيها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، فقد تحدّى الله به المشركين، فعجزوا عن مُعَارَضَتِهِ، مع أنه مُرَكَّبٌ من هذه الحروف التي تتكون منها لَعْنُهُمْ، فذلَّ عَجَزُ العرب عن الإتيان بمثله - مع أنهم أفصحُ الناس - على أن القرآن وَحْيٌ من عند الله. ولقد ذهب المفسرون مذاهب شتى في تفسير الأحرف المقطعة في السور الفواتح ولم يجزموا بوجه من الوجوه، إذا لم يصح في تفسيرها شيء عن رسول الله - ﷺ - .

وينحصر الاختلاف بين أهل العلم في اتجاهين اثنين: -

الاتجاه الأول: أن تلك الحروف هي من المنتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، فنؤمن بها، ونقرأها كما جاءت، وممن قال ذلك: الشعبي^(٢).

يرى أصحاب هذا الاتجاه بأن هذه الحروف لها معنى ونزلت لحكمة، غير أننا لا ندرك هذا المعنى ولا تلك الحكمة، وإنما يقال: هذه الحروف من حروف المعجم، ذكرها الله في أوائل بعض سور كتابه، واختص الله بعلم المراد منها^(٣).

الاتجاه الثاني: أن هذه الحروف لها معنى ولها حكمة، وتلك الحكمة وهذا المعنى ندرکہما عن طريق الاستنباط والاجتهاد، فتكلموا في معاني هذه الحروف واستنبطوا لها وجوهاً من التأويل. وقد تعددت أقوال المفسرين في تفسير هذه الحروف المفتتح بها أوائل السور حتى وصل بها الحافظ ابن حجر - رحمه الله - إلى ثلاثين قولاً^(٤).

(١) رواه الواحدي في "أسباب النزول": ٢٤-٢٥.

والأربع آيات التي نزلت في المؤمنين هي من أول السورة حتى قوله تعالى: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة : ٥]، في قراءة من لم يعتبر "الم" آية.

والآيتان بعدها في الكافرين، والثلاثة عشر آية التي بعدها حتى قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة : ٢٠]، نزلت في المنافقين.

(٢) عزاه إليه القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/١٥٤)، والشعبي هو عامر بن شراحيل الهمداني الكوفي من شعب همدان مولده في أثناء خلافة عمر كان إماماً حافظاً فقيهاً روى عن أبي هريرة وابن عباس وعائشة وعبد الله بن عمر وغيرهم. أنظر الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تذكرة الحفاظ، (١ / ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م) (١ : ٦٣).

(٣) انظر جامع البيان في تفسير القرآن للإمام أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري ٦٨/١، ط دار الفكر - بيروت - ١٤٠٥ هـ، وتفسير السمعاني للإمام أبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني ١٦٣/٢، ط دار الوطن - الرياض - ، الأولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م، بتحقيق/ياسر بن إبراهيم ، وغنيم بن عباس بن غنيم . و معالم التنزيل للحسين بن مسعود بن محمد البغوي ٤٤/١، ط دار المعرفة - بيروت - ، الثانية ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م، بتحقيق/خالد عبدالرحمن العك ، والجامع لأحكام القرآن للإمام أبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ١٥٤/١، ط دار الشعب - القاهرة - والبحر المحيط في التفسير للإمام أثير الدين أبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي ١٥٧/١، ط دار الكتب العلمية - بيروت - ، الأولى ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م ، بتحقيق الشيخ/عادل أحمد عبدالوجود ، والشيخ/علي محمد معوض .

وفيما يأتي نذكر أشهر أقوال التابعين في ذلك:

القول الأول: أنها أسماء لله تعالى. إذ ذهب بعض العلماء أن هذه الحروف المقطعة التي في أوائل السور أسماء لله تعالى، وَمِمَّنْ قَالَ بِهَذَا: سالم بن عبدالله^(٢)، والشعبي^(٣)، والسدي^(٤)، وعكرمة^(٥). وهذا قول فيه نظر، وذلك لأن أسماء الله توقيفية لا تؤخذ إلا بنص من الكتاب العزيز أو الرواية الصحيحة عن المعصوم عليه السلام وما سبق ذكره لا يعتمد عليه في إثبات أسماء الله تعالى.

الثاني: أنها فواتح لأسماء الله تعالى، فكل حرف منها هو فاتحة لاسم محذوف من أسماء الله، جاء ذلك الحرف ليبدل على ذلك الاسم المحذوف، فالألف من قوله تعالى: {الم} مثلاً ابتداء اسمه الله، واللام ابتداء اسمه لطيف، والميم ابتداء اسمه مجيد^(٦).

نقل الفخر الرازي وأبو حيان عن سعيد بن جبير أنه قال: "قوله (ألر، حم، ن) مجموعها هو اسم الرحمن، ولكننا لا نفدر على كيفية تركيبها في البواقي"^(٧).

وهذا القول له وجه، لأن العرب قد تُطْلَقُ الحَرْفُ الواحد من الكلمة، وتُريَّدُ به جميع الكلمة، كقول الراجز^(٨):

قلنا لها قفي فقالت: قاف ... لا تحسبي أنا نسينا الإيجاف.

فقوله: "قاف"، أي: وقفت^(٩)، فدللت بإظهار القاف من «وقفت» على مرادها من تمام الكلمة التي هي «وقفت». فصرفوا قوله: (الم) وما أشبه ذلك إلى نحو هذا المعنى.

وكقول القائل^(١٠):

-
- (١) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ٥٥٤/٨ ، ط دار المعرفة - بيروت - ، بتحقيق/محب الدين الخطيب .
- (٢) عزاه إليه ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (١ / ٣٦) وسالم هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي أحد فقهاء المدينة السبعة ومن سادات التابعين وعلمائهم وثقاتهم توفي في المدينة سنة ١٠٦ هـ أنظر: تاريخ الأعلام، الزركلي: ٧١/٣.
- (٣) عزاه إليه الطبري في جامع البيان: ٦٧/١.
- (٤) انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لعبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي ٣/٤ ، ط دار الكتب العلمية - بيروت - ، الأولى ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م ، بتحقيق/عبدالسلام عبدالشافى محمد ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧٣/١١ ، وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني ٤٢٤/٢ ، ط دار الفكر - بيروت - .
- (٥) انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لعبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي ٣/٤ ، ط دار الكتب العلمية - بيروت - ، الأولى ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م ، بتحقيق/عبدالسلام عبدالشافى محمد ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧٣/١١ ، وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني ٤٢٤/٢ ، ط دار الفكر - بيروت - .
- (٦) انظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس جمعه مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى ص ٣ ، ط دار الكتب العلمية - لبنان - .
- (٧) انظر مفاتيح الغيب ٢٥٢/٢ ، والبحر المحيط ١٥٦/١ .
- (٨) البيت غير منسوب لأحد في لسان ٣٥٩/٩ ، وتهذيب اللغة لمحمد بن أحمد الأزهرى ٦٧٩/١٥ ، ط دار المعارف - بيروت - ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م ، بتحقيق الدكتور/رياض زكي فاسم ، وانظر المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية ، إعداد الدكتور/إميل بديع يعقوب ٢١٥/٤ ، ط دار الكتب العلمية - بيروت - ، الأولى ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م.
- (٩) انظر معالم التنزيل للبخاري ٤٤/١ ، والمحرر الوجيز ٨٢/١ و٨٣ .
- (١٠) البيت نسبة ابن منظور في لسان العرب ٢٨٨/١٥ إلى حكيم بن مَعِيَةَ التميمي ، ونسبه بن عطية في المحرر الوجيز ٨٣/١ والقرطبي في الجامع ١٥٥/١ إلى زهير بن أبي سلمى ، وهو غير منسوب في شرح شواهد الشافعية لعبدالقادر البغدادي ص ٢٦٢ ، ط مطبعة حجازي - القاهرة - .

بالخير خيرات وإن شراً فا ... ولا أريد الشر إلا أن تا
يعني: وإن شراً فشر، ولا أريد الشر إلا أن تشاء، وبذلك اكتفى بالتاء والفاء عن بقية الكلمتين
جميعاً عن سائر حروفهما^(١).

وقد ورد في السنة ما يشير إلى هذا، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه
وسلم-: من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله - عز وجل - مكتوب بين - عينيه: آيس من
رحمة الله^(٢).

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: من أعان على دم امرئ مسلم
بشطر كلمة كتب بين عينيه يوم القيامة: آيس من رحمة الله^(٣).
وعن ابن عباس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: "من شرك في دم حرام بشطر
كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله"^(٤).
فإن ثبت أن العرب كانت تأتي في كلامها بحرف وتريد به معنى كان في هذا القول قوة
ووجاهة^(٥).

وعن عكرمة: "إن الله أقسم بهذه الحروف لإظهار شرفها وفضلها"^(٦).
وهذا القول فيه نظر: إذ أن صيغة القسم معروفة وتأتي معتمدة على كلمات وحروف تفيد
القسم نحو: أقسم أو الواو في (والله) أو التاء وهكذا، أما أن تعد هذه الحروف قسماً فهذا ما لم
يعهده العرب، ولم يجر على ألسنتهم، ويدل على بطلان هذا القول أيضاً أنه لا يوجد ما يعضده
ويشهد لصحته في القرآن أو السنة الصحيحة، وما نقل عن ابن عباس فهو ضعيف^(٧)، قال
القرطبي مبيناً فساد هذا القول: "لا يصح أن يكون قسماً لأن القسم معقود على حروف مثل: إن وقد
ولقد وما، ولم يوجد لها هنا حرف من هذه الحروف فلا يجوز أن يكون يمينا"^(٨).
الثالث: أنها جاءت للدلالة على انقطاع كلام واستئناف كلام آخر. قاله مجاهد^(٩).
وهذا الكلام ليس بشيء، فلا تُعد هذه الحروف دالة على انقطاع كلام واستئناف كلام
آخر، فإن هذه الحروف لم تعهد مزيدة لهذه الدلالة، فقد صح الفصل بغيرها، ثم إن هذا غير
مضطرد في جميع السور، فلماذا ذكرت هذه الحروف في سور ولم تذكر في أخرى.

(١) انظر جامع البيان ٧٠/١، والمحزر الوجيز ٨٣/١، والجامع لأحكام القرآن ١٥٥/١، والبحر المحيط ١٥٨/١

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه ٨٧٤/٢، كتاب: الديات، باب: التغليظ في قتل مسلم ظلماً، برقم (٣٦٢٠)،
والربيع بن حبيب بن عمر الأزدي في مسنده ص ٢٩٢، وأبو يعلى في مسنده ٣٠٦/١٠، والبيهقي في السنن
الكبرى ٢٢/٨، وهو حديث حسن بجموع طرقه.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٣٤٦/٤، وأبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصبهان ١٨٨/١.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٧٩/١١.

(٥) انظر تفسير الطبري ٧٠/١، والسمعاني ٤١/١، والبغوي ٤٤/١، وابن عطية ٨٢/١، وابن الجوزي ٢١/١،
والقرطبي ١٥٥/١.

(٦) انظر: عزاه إليه السيوطي في الدر المنثور (١: ٥٤) وهو عكرمة بن أبي جهل عمرو بن هشام المخزومي
القرشي من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام أسلم بعد فتح مكة وحسن إسلامه فشهد الوقائع واستشهد في
اليرموك سنة ١٣ هـ وعمره ٦٢ سنة، أنظر الزركلي، الأعلام (٤: ٢٤٤).

(٧) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات: ٢٣٠/١، والأثر إسناده ضعيف فهو من طريق علي بن أبي طلحة عن
ابن عباس، وذكر ابن حجر أن علي بن أبي طلحة أرسل عن ابن عباس ولم يره أنظر ابن حجر، شهاب الدين أحمد
بن علي، تقريب التهذيب: ٣٤١.

(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٥٦/١.

(٩) عزاه إليه الطبري في جامع البيان (١: ٦٧) وهو مجاهد بن جبير أبو الحجاج المكي مولى بني مخزوم تابعي
مفسر من أهل مكة، شيخ القراء والمفسرين، أخذ التفسير عن ابن عباس ولد سنة ٢١ هـ وتوفي سنة ١٠٤ هـ أنظر
الزركلي، الأعلام: (٥: ٢٧٨).

قال ابن كثير مبيناً بطلان هذا القول: " وهذا ضعيف لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه، وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوة وكتابة"^(١).

فيمكن القول بأن الحروف المقطعة لها معاني خاصة، سميت أسراراً وحكما أو غير ذلك، ومن رحمة الله تعالى بنا أنه لم يكلفنا بإدراكها، بل نؤمن بتنزيلها وكونها كلام الله تعالى، ونفوض له سبحانه العلم بحقيقة ما أراد من معانيها، دون أن نزيغ بها إلى معاني باطلة كما وقع لبعض الإشراقيين والفلاسفة الإسلاميين، ودون أن نسلبها معانيها في نفس الأمر بحيث يلزم من ذلك ثبوت كلام الله تعالى لا مدلول له في نفس الأمر، تعالى كلام ربنا عن ذلك.

وهذا مرجع كلام الصحب الكرام رضوان الله تعالى عليهم^(٢).

ولاشك بأن هذه الحروف للإعجاز، وإننا عندما نقول بذلك لا يعني أننا نقتصر على هذا القول، فقد يكون لنزولها حكم أخرى - كما أشرت إليه سابقاً - وقد ذكر الذين ردوا هذا القول كالشيخ محمد شلتوت أن العرب قد عرفوا عجزهم عن الإتيان بمثله وسجله القرآن عليهم فليسوا بحاجة إلى مثل هذه الحروف. نقول: حقاً انهم قد عرفوا عجزهم عن ذلك ولكن ما المانع من تكرار تسجيل ذلك عليهم مرة تلو المرة حتى يستدعي ذلك انتباههم، وحتى يذكرهم بعجزهم وضعفهم، ثم إنك تجد من مدلولات هذا التكرار استمرارية التحدي، ألم تر أن الله تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، وكل ذلك لإظهار عجزهم مع أنهم يعلمون من أنفسهم ذلك العجز. وهنا ضرب آخر لتبكيته وإظهار عجزهم، وهو أن يذكر هذه الحروف احتجاجاً عليهم، فإن فيها تنبيه على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف، فهم قادرين عليها، فكان واجب عليهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فعجزهم دال على أنه من عند الله. والله أعلم، وله الحمد في الأولى والآخرة.

جدول توزيع الحروف المقطعة في أوائل سور القرآن الكريم:

١	حروف ذات الحرف الواحد والتي لم تتكرر	(ن)، (ق)، (ص) .
٢	حروف ذات الحرفين والتي لم تتكرر	(طس)، (يس)، (طه) .
٣	حروف ذات الحرفين والتي تكررت ٧ مرات	(حم) .
٤	حروف ذات الثلاثة أحرف والتي تكررت مرتان فقط	(طسم)
٥	حروف ذات الثلاثة أحرف والتي تكررت ٦ مرات	(الم) .
٦	حروف ذات الثلاثة أحرف والتي تكررت ٥ مرات	(الر) .
٧	حروف ذات أربعة أحرف ولم تتكرر	(المر)، (المص) .
٨	حروف ذات الخمسة أحرف ولم تتكرر	(كهيعص)، (حمعسق)
	الحروف بعد حذف المكرر منها (أربعة عشر حرفاً فقط)، وهي نصف عدد الحروف	(ال م ص ر ك ه ي ع ط س ح ق ن)

(١) تفسير ابن كثير: ٣٧/١.

(٢) يقول الطبري: "هي حروف يشتمل كل حرف منها على معاني شتى مختلفة" (انظر: تفسيره: ٢٠٩/١).

القرآن

{ذَلِكَ الْكِتَابُ لَأَرْبَبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) } [البقرة : ٢]

التفسير:

ذلك القرآن هو الكتاب العظيم الذي لا شك أنه من عند الله، فلا يصح أن يرتاب فيه أحد لوضوحه، ينتفع به المتقون بالعلم النافع والعمل الصالح وهم الذين يخافون الله، ويتبعون أحكامه.

قوله تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ} [البقرة : ٢]، أي: "هذا الكتاب"^(١)، وهو القرآن العظيم، قاله مجاهد^(٢)، وعكرمة^(٣)، والسدي^(٤)، وابن جريج^(٥)، وهذا قول عامة المفسرين^(٦).

قوله تعالى: {لَأَرْبَبَ فِيهِ} [البقرة : ٢]، أي: "لا شك فيه، ولا ارتياب به"^(٧).

عن قتادة: "لَأَرْبَبَ فِيهِ"، يقول: "لا شك فيه"^(٨).

ف(الريب)، مصدر من (راب)، وهو أن تتوهم في الشيء أمراً ما، ثم ينكشف عما توهمت فيه، و«الأرابة»: أن تتوهمه، فينكشف بخلاف ما توهمت، ولهذا قيل: "القرآن فيه أرابة وليس فيه ريب"^(٩)، ومن ذلك قول ساعدة بن جؤيئة الهذلي^(١٠):

فقالوا: تَرَكْنَا الْحَيَّ قَدْ حَصَرُوا بِهِ ... فلا رَيْبَ أَنْ قَدْ كَانَ تَمَّ لَحِيمٌ
ومنه قول عبد الله بن الزبير^(١١):

لَيْسَ فِي الْحَقِّ يَا أُمَيْمَةَ رَيْبٌ ... إِنَّمَا الرَّيْبُ مَا يَقُولُ الْجَهْلُ

فالقرآن لا شك ولا ريب أنه موحى من عند الله، كما قال تعالى: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَأَرْبَبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [السجدة : ٢]، فهذا الكتاب "مشتمل على علم اليقين المزيل للشك والريب أن النفي المقصود به المدح، لا بد أن يكون متضمناً لصدده، وهو الكمال، لأن النفي عدم، والعدم المحض، لا مدح فيه"^(١٢)، وأن التنويه بهذا الكمال يستوجب حمد الله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا} [الكهف : ١].

قوله تعالى: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [البقرة : ٢]، "أي: هادٍ للمؤمنين المتقين"^(١٣).

واختلف التابعون في معنى قوله تعالى {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [البقرة : ٢]، على وجوه:

أحدها: معناه: الهدى من الضلالة. قاله الشعبي^(١).

(١) تفسير الطبري: ٢٢٥/١.

(٢) أنظر: تفسير الطبري (٢٤٧): ص ٢٢٥/١.

(٣) أنظر: تفسير الطبري (٢٤٨): ص ٢٢٥/١.

(٤) أنظر: تفسير الطبري (٢٤٩): ص ٢٢٥/١.

(٥) أنظر: تفسير الطبري (٢٥٠): ص ٢٢٥/١.

(٦) تفسير الطبري: ٢٢٥/١، وتفسير ابن كثير: ٧٠/١، والدر المنثور: ٢٤/١، والشوكاني: ٢١/١.

(٧) المحرر الوجيز: ٨٣/١.

(٨) تفسير عبدالرزاق (١٦): ص ٢٥٩/١.

(٩) تفسير الراغب الأصفهاني: ١١٥/١.

(١٠) ديوان الهذليين ١ : ٢٣٢، واللسان (حصر)، ويروى: "حَصَرُوا" و " حَصَرُوا " والفتحُ أكثر، والكسر جائز. يعني بقوله " حصرُوا به " : أطافوا به. ويعني بقوله " لا ريب " . لا شك فيه. وبقوله " أن قد كان تَمَّ لَحِيم " ، يعني قتيلاً يقال : قد لُحِمَ ، إذا قُتِلَ.

(١١) من شواهد تفسير القرطبي: ١٥٩/١، والدر المصون: ٨٥/١، والبحر المحيط: ١٣٣/١، والنكت والعيون:

٦٧/١.

(١٢) تفسير السعدي: ٤١/١.

(١٣) صفوة التفاسير: ٢٦/١.

والثاني: نور للمتقين. قاله السدي^(٢).
والثالث: تبياناً للمتقين. قاله سعيد بن جبير^(٣).
كما وتعددت أقوالهم في معنى قوله تعالى: {لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ٢]، وذكروا وجهين:
أحدهما: المتقون: "هم المؤمنون". قاله قتادة^(٤)، والسدي^(٥).
عن قتادة في قوله: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} من هم؟ نعمتهم الله، فأثبت نعمتهم ووصفهم. قال: {الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ}^(٦).
الثاني: هم الذين "اتَّقُوا ما حُرِّمَ عليهم ، وأدَّوا ما افترض عليهم". قاله الحسن^(٧).
والراجح أن المراد عموم التقوى، فالمتقون هم "الذين يتقون الله تعالى بامتثال أوامره
 واجتناب معاصيه، كان ذلك وقاية بينهم وبين عذاب الله"^(٨)، قال الطبري: "وأولى التأويلات بقول
الله جل ثناؤه {هدى للمتقين}، تأويل من وصف القوم بأنهم الذين اتَّقُوا الله تبارك وتعالى في ركوب
 ما نهاهم عن ركوبه ، فتجنبوا معاصييه ، واتَّقَوْه فيما أمرهم به من فرائضيه ، فأطاعوه بأدائها"^(٩).

القرآن

{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [البقرة: ٣]

التفسير:

وهم الذين يُصدِّقون بالغيب الذي لا تدركه حواسُّهم ولا عقولهم وحدها؛ لأنه لا يُعرف إلا بوحي الله
إلى رسله، مثل الإيمان بالملائكة، والجنة، والنار، وغير ذلك مما أخبر الله به أو أخبر به رسوله،
وهم مع تصديقهم بالغيب يحافظون على أداء الصلاة في مواقيتها أداءً صحيحاً وفق ما شرع الله
لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ومما أعطيناهم من المال يخرجون صدقة أموالهم الواجبة
والمستحبة.
سبب النزول:

عن مجاهد، قال: أربع آيات من سورة البقرة في نعت المؤمنين، وآيات في نعت الكافرين،
وثلاث عشرة في المنافقين^(١٠). وروى عن الربيع^(١١) مثل ذلك.
قوله تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [البقرة: ٣]، "أي يقرون بما غاب عنهم مما أخبر الله به
عن نفسه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وغير ذلك مما أخبر الله به
من أمور الغيب"^(١٢).

-
- (١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥٧): ص ٣٤/١، وتفسير الطبري (٢٥٩): ص ٢٢٩/١-٢٣٠.
(٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥٨): ص ٣٤/١.
(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥٩): ص ٣٤/١.
(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦٤): ص ٣٥/١، والطبري (٢٦٥): ص ٢٣٣/١. ولفظه: "الذين يؤمنون بالغيب".
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٣): ص ٣٥/١.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٤): ص ٣٥/١، والطبري (٢٦٥): ص ٢٣٣/١.
(٧) أنظر: تفسير الطبري (٢٦١): ص ٢٣٢/١.
(٨) المحرر الوجي: ٨٤/١.
(٩) تفسير الطبري: ٢٣٣/١-٢٣٤.
(١٠) أخرجه الطبري (٢٧٨)، و(٢٧٩)، و(٢٨٠): ص ٢٣٨/١-٢٣٩. وانظر: أسباب النزول للواحدي: ٢١،
والعجاب في بيان الأسباب: ٢٢٨/١، والخبر إسناده منقطع لعدم سماع ابن أبي نجیح من مجاهد. [أنظر: تهذيب
التهذيب: ٥٤/٦].
(١١) أنظر: تفسير الطبري (٢٨١): ص ٢٤٠/١.
(١٢) تفسير ابن عثيمين: ٣٠/١.

قال أبو العالية: "يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه. ويؤمنون بالحياة بعد الموت، وبالبعث. فهذا غيب كله"^(١).

قال السدي: " أما الذين يؤمنون بالغيب فهم المؤمنون من العرب، أما الغيب: فما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذكر في القرآن، لم يكن تصديقهم بذلك من قبل أصل كتاب أو علم كان عندهم"^(٢).

وذكر أهل التفسير من التابعين قوله تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [البقرة: ٣] ووجهان : أحدهما : يخشون بالغيب، وهذا قول الربيع بن أنس^(٣). الثاني: أن "الإيمان": العمل. قاله ابن شهاب^(٤).

وذكروا في معنى {الغيب} [البقرة: ٣]، ثلاثة أقوال : أحدها : ما جاء من عند الله ، وهو قول عطاء^(٥)، واسماعيل بن أبي خالد^(٦). الثاني : أنه القرآن ، وهو قول زر بن حبيش^(٧)^(٨). والثالث : الإيمان بالجنة والنار والبعث والنشور . قاله قتادة^(٩)، والربيع^(١٠)، وأبي العالية^(١١)، والسدي^(١٢)، وروي عن زيد بن أسلم^(١٣)، وإبراهيم بن جعفر بن محمود بن سلمة الأنصاري^(١٤)، مثل ذلك.

وهذه الأقوال قريبة ولا تتعارض، بل يقع الغيب على جميعها^(١٥).

قوله تعالى: {وَيُؤَيِّمُونَ الصَّلَاةَ} [البقرة : ٣]، "أي: يؤدونها على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها، وخشوعها وآدابها"^(١٦).

قال قتادة: " وإقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها"^(١٧).

قال الضحاك: " يعني: الصلاة المفروضة"^(١٨).

قوله تعالى: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [البقرة : ٣]، "أي: مما أعطيناهم من المال يخرجون"^(١٩).

-
- (١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٧)، و(٦٥):ص ٣٦/١.
- (٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٨):ص ٣٦/١.
- (٣) أنظر: تفسير الطبري (٢٦٩):ص ٢٣٥/١.
- (٤) أنظر: تفسير الطبري (٢٧٠):ص ٢٣٥/١.
- (٥) أخرجه ابن أبي (٧٠):ص ٣٦/١. ولفظه: "من آمن بالله، فقد آمن بالغيب".
- (٦) أنظر تفسير ابن أبي حاتم (٧١):ص ٣٦/١. ولفظه: "يؤمنون بالغيب": بغيب الإسلام".
- (٧) أبو مريم زر بن حبيش الأسدي الكوفي، ثقة جليل مخضرم، سمع عمر وعلياً رضي الله عنهما- وعنه: عاصم بن أبي النجود والشعبي، مات سنة (٨٢ هـ) وله (١٢٧) سنة. انظر: "الجرح والتعديل" ٣/ ٦٢٢، و"الكاشف" ١/ ٤٠٢، و"تقريب التهذيب" ص ٢١٥ (٢٠٠٨).
- (٨) أنظر: تفسير الطبري (٢٧٤):ص ٢٣٦/١، وابن أبي حاتم (٦٩):ص ٣٦/١.
- (٩) أنظر: تفسير الطبري (٢٧٥):ص ٢٣٦/١.
- (١٠) أنظر: تفسير الطبري (٢٧٦):ص ٢٣٦/١-٢٣٧.
- (١١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦٧):ص ٣٦/١.
- (١٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦٨):ص ٣٦/١.
- (١٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧٢):ص ٣٦/١. ولفظه: "الذين يؤمنون بالغيب"، قال: بالفدر".
- (١٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧٣):ص ٣٧/١.
- (١٥) المحرر الوجيز: ٨٤/١.
- (١٦) صفوة التفسير: ٢٦/١.
- (١٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧٥):ص ٣٧/١.
- (١٨) تفسير الطبري (٢٨٤):ص ٢٤٢/١.
- (١٩) تفسير ابن عثيمين: ٣٠/١.

وذكروا في قوله: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [البقرة: ٣]، وجهان :
أحدهما : نفقة الرجل على أهله، وهذا قول السدي^(١).
الثاني: التطوع بالنفقة فيما قرب من الله تعالى ، وهذا قول الضحاك^(٢)، وقتادة^(٣).
والراجح أن الآية تعم الجميع، " وهذه الأقوال تمثيل لا خلاف"^(٤)، فالله تعالى "لم يخصص مدحهم ووصفهم بنوع من النفقات المحمود عليها صاحبها دون نوع بخير ولا غيره - أنهم موصوفون بجميع معاني النفقات المحمود عليها صاحبها من طيب ما رزقهم ربهم من أموالهم وأملاكهم ، وذلك الحلال منه الذي لم يشبهه حرام"^(٥). ورجح هذا القول ابن جرير الطبري^(٦) وابن عطية^(٧)، والقرطبي^(٨).

القرآن

{وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)} [البقرة : ٤].
التفسير:

ومن صفات هؤلاء المتقين أنهم يؤمنون بجميع الكتب المنزلة، فيؤمنون بالكتاب الذي أنزل إليك وهو القرآن، ويؤمنون إيماناً مجملاً بما جاءت به الرسل من قبلك بالكتب السابقة، كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى وغيرها.. لا يفرقون بين كتب الله ولا بين رسله، و"بدأ بالقرآن مع أنه آخرها زمناً، لأنه مهيم على الكتب السابقة ناسخ لها"^(٩).
قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ} [البقرة: ٤]، "أي يصدقونه بكل ما جئت به عن الله تعالى وبما جاءت به الرسل من قبلك، لا يفرقون بين كتب الله ولا بين رسله"^(١٠).

قال قتادة: "فآمنوا بالفرقان وبالكتب التي قد خلت قبله من التوراة والزبور والإنجيل"^(١١).
قوله تعالى: {وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [البقرة: ٤]، "أي وبالبعث والنشر هم عالمون"^(١٢).
قال السدي: " هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب"^(١٣).

القرآن

{أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة : ٥]

التفسير:

- (١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧٨): ص ٣٨/١.
(٢) أنظر: تفسير الطبري (٢٨٧): ص ٢٤٣/١.
(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧٩): ص ٣٨/١.

- (٤) المحرر الوجيز: ٨٥/١.
(٥) تفسير الطبري: ٢٤٤/١.
(٦) أنظر: تفسير الطبري: ٢٤٣/١.
(٧) أنظر: المحرر الوجيز: ٨٥/١.
(٨) أنظر: تفسير القرطبي: ١٧٩/١.
(٩) تفسير ابن عثيمين: ٤١/١.
(١٠) صفوة التفاسير: ١٢٦/١.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (٨١): ص ٣٨/١.
(١٢) تفسير القرطبي: ١٨٠/١.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٣): ص ٣٨/١.

أولئك المتقون وهم "المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والإنفاق من الذي رزقهم الله والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل والإيقان بالدار الآخرة وهو مستلزم الاستعداد لها من الأعمال الصالحة وترك المحرمات

قوله تعالى: {أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ} [البقرة: ٤]، أي: المشار إليه ما تقدم ممن اتصفوا بالصفات الخمس على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى" (١).

قال سعيد بن جبیر: أي: "على بينة من ربهم" (٢).

قال قتادة: "قوم استحقوا الهدى والفلاح بحق، فأحقه الله لهم، وهذا نعت أهل الإيمان" (٣).

قوله تعالى: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة: ٤]، "أي: وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية في جنات النعيم" (٤).

قال قتادة: "قوم استحقوا الهدى والفلاح بحق، فأحقه الله لهم، وهذا نعت أهل الإيمان" (٥).

قال أبو العالية: "هذه الأربع الآيات من فاتحة السورة- في المؤمنين" (٦).

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)} [البقرة: ٦].

التفسير:

إن الذين جحدوا ما أنزل إليك من ربك استكباراً وطغياناً، لن يقع منهم الإيمان، سواء أخوفتهم وحذرتهم من عذاب الله، أم تركت ذلك؛ لإصرارهم على باطلهم.

اختلف في سبب نزول هذه الآية على أقوال:

أحدها: أنها "نزلت في أبي جهل وخمسة من أهل بيته". قاله الضحاك (٧).

الثاني: أنها "نزلت في أهل القليب" (٨) قليب بدر. منهم أبو جهل، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وعقبة بن أبي معيط والوليد بن المغيرة" (٩)، قاله الربيع (٩).

قال ابن حجر: "وكذا حكاه أبو حيان ولم ينسبه لقائل (١٠)، وأقره، وفيه خطأ لأن الوليد بن المغيرة مات بمكة قبل الهجرة (١١)، وعقبة بن أبي معيط إنما قتل بعد رحيل المسلمين من بدر راجعين إلى المدينة قتل بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصفراء باتفاق أهل العلم بالمغازي" (١٢).

(١) صفوة التفاسير: ١٧١/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٥): ص ٣٩/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٠): ص ٤٠/١.

(٤) صفوة التفاسير: ٢٦/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٠): ص ٤٠/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٧): ص ٣٩/١.

(٧) أخرج ابن إسحاق ومن طريقه ابن جرير (٨٤/١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن صدر سورة البقرة إلى المائة منها نزل في رجال سماهم بأعيانهم وأنسابهم من أحبار يهود ومن المنافقين من الأوس والخزرج. وإسناد ابن إسحاق حسن.

(٨) في "القاموس" مادة قلب "ص ١٦٣": "القليب: البئر، أو العادية القديمة منها، ويؤنت".

(٩) أنظر: تفسير الطبري (٢٩٨): ص ٢٢/١.

(١٠) أصل القول دون ذكر الأسماء مروى بالسند عن الربيع بن أنس كما في تفسير الطبري "٢٥٢/١" ونصه: "آيتان في قادة الأحزاب: إن الذين كفروا ... فهم الذين قتلوا يوم بدر". قال ابن عطية في "١/١٥٢": "هكذا حكى هذا القول، وهو خطأ؛ لأن قادة الأحزاب قد أسلم كثير منهم، وإنما نزلت ترتيب الآية في أصحاب القلب ... وعلّة تخطنته لهذا القول انصراف ذهنه إلى غزوة الخندق - والله أعلم - وليس هذا بلازم، فالمقصود من الأحزاب هنا المشركون الذين تحزبوا على المسلمين في بدر، وهذا قول أبي العالية، ويرويه عنه الربيع كما في "تفسير ابن كثير" ٤٥/١. [حاشية العجّاب: ٢١٠/١].

الثالث : أنها نزلت في قادة الأحزاب، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ}. قاله أبو العالية^(٣).

قلت: الآية عامة، ومعناها الخصوص فيمن سبقت عليه كلمة العذاب، وسبق في علم الله أنه يموت على كفره، أراد الله أن يعلم الناس أن فيهم من هذا حاله دون أن يعين أحداً- والله أعلم-.
قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [البقرة: ٦]، "أي: إن الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، سواءً أُنذرتهم يا محمد بن عذاب الله وخوفتهم منه أم لم تحذرهم، لا يصدقون بما جنتهم به"^(٤).
قال السدي: يعني: "إن أنذرت الكفار أم لم تنذرهم فهو عليهم سواء، يعني: الذين لا يؤمنون"^(٥).

قال أبو العالية: "آيتان في قادة الأحزاب: {إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون}، قال: هم الذين ذكرهم الله في هذه الآية: {ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار}"^(٦).

القرآن

{خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)} [البقرة: ٧].
التفسير:

طبع الله على قلوب هؤلاء وعلى سمعهم، وجعل على أبصارهم غطاء؛ بسبب كفرهم وجحودهم وعنادهم من بعد ما تبين لهم الحق، فلم يوقفهم للهدى، ولهم عذاب شديد في نار جهنم.
قوله تعالى: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً} [البقرة: ٧]، "أي: طبع الله على قلوب هؤلاء وعلى سمعهم، وجعل على أبصارهم غطاء؛ بسبب كفرهم وجحودهم وعنادهم من بعد ما تبين لهم الحق، فلم يوقفهم للهدى"^(٧).
قال سعيد المقبري: "ختم الله على قلوبهم بالكفر"^(٨).

(١) قال ابن إسحاق في كلامه على كفاية الله نبيه أمر المستهزئين: "حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، أو غيره من العلماء: أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم يطوفون بالبيت فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه فمر به الأسود بن المطلب، فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمي، ومر به الأسود بن عبيد يعوث، فأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنه فمات منه حبنا [هو انتفاخ البطن من داء]، ومر به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله، كان أصابه قبل ذلك بسنين، وهو يجر سبيله [أي: فضول ثيابه] وذلك أنه مر برجل من خزاعة وهو يريش نبلاً له، فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش في رجله ذلك الخدش، وليس بشيء، فانتقض به [أي: تجدد] فقتله... "انظر "سيرة ابن هشام" ١/ ٤١٠".

(٢) العجاف في بيان الأسباب: ١/ ٢٣٠. والذي في سيرة ابن هشام ١/ ٦٤٤ ما يلي: "قال ابن إسحاق: حتى إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصفراء قتل النضر بن الحارث، ثم خرج حتى إذا كان بعرق الظبية قتل عقبة بن أبي معيط. قال ابن هشام: عرق الظبية عن غير ابن إسحاق" ا. هـ باختصار.

ولا يمكن قبول هذا السبب لأن الآية تدل على أنها نزلت في كفار أحياء لا أموات!
(٣) ذكره أبو حيان في "البحر" ١/ ٥٠ وتسلسله عنده الثاني وهو نفس القول الماضي الذي ذكره برقم الرابع، وكل ما هنالك أنه قسمه إلى قسمين: قادة الأحزاب وأصحاب القليب، وفي هذا نظر. والآية من سورة إبراهيم "٢٨".

(٤) صفوة التفاسير: ٢٧/١.

(٥) تفسير يحيى بن سلام: ٨٠٢/٢.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٣): ص ٤٠/١.

(٧) التفسير الميسر: ٣.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٦): ص ٤١/١.

عن السدي: " {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ}، يقول: فلا يسمعون ولا يعقلون" (١)،
قوله: {وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}، يقول: "جعل على أبصارهم غشاوة، يقول: على أعينهم فهم لا
يبصرون" (٢).

قال أبو مالك: " {ختم الله}، يعني: طبع الله" (٣).
قال مجاهد: "الطبع ثبتت الذنوب على القلب تحف به من كل نواحيه حتى تلتقي عليه.
فالتقاؤها عليه الطبع. والطبع الختم" (٤).
قال مجاهد: "القلب مثل الكف، فإذا أذنب ذنباً قبض أصبعاً حتى يقبض أصابعه كلها -
وكان أصحابنا يرون أنه الرآن" (٥).
وعن مجاهد أيضاً: "الرآن أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الأفعال، والأفعال أشد ذلك
كله" (٦).

قال قتادة: "استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه، ف ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى
أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى، ولا يسمعون ولا يفقهون، ولا يعقلون" (٧).
قلت: وقد صحّ بنظيره عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " إنَّ المؤمنَ إذا أذنب
ذنبا كانت نُكتهُ سوداءَ في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر، صكَّلت قلبه، فإن زاد زادت حتى تُعلق
قلبه، فذلك " الرآن " الذي قال الله جل ثناؤه : {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [سورة
المطففين : ١٤] (٨).

فيتبين لنا من الحديث: " أنَّ الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ
الختم من قبل الله عز وجلّ والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر منها مخلص، فذلك هو
الطبع. والختم الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ}، نظيرُ
الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف، التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفضّ
ذلك عنها ثم حلّها. فكذا لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصّف الله أنه ختم على قلوبهم، إلا بعد
فضّه خاتمته وحلّه رباطه عنها" (٩).

القرآن

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)} [البقرة : ٨]
التفسير:

- (١) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٥):ص ٤١/١.
- (٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠١):ص ٤٢/١.
- (٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٧):ص ٤١/١.
- (٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٩):ص ٤١/١.
- (٥) أخرجه الطبري (٣٠١):ص ٢٥٨/١.
- أي: إنَّ الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله عز وجلّ والطبع، فلا
يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر منها مخلص، فذلك هو الطبع، والختم الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله :
(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ) ، نظيرُ الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف ، التي لا
يوصل إلى ما فيها إلا بفضّ ذلك عنها ثم حلّها. فكذا لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصّف الله أنه ختم على قلوبهم
، إلا بعد فضّه خاتمته وحلّه رباطه عنها.
- (٦) أخرجه الطبري (٣٠٣):ص ٢٥٩/١.
- (٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٨):ص ٤١/١.
- (٨) رواه أحمد في المسند ٧٩٣٩ (٢ : ٢٩٧ حليبي)، ورواه الحاكم ٢ : ٥١٧، ورواه الترمذي ٤ : ٢١٠، وابن
ماجه ٢ : ٢٩١.
- (٩) تفسير الطبري: ٢٦١-٢٦١.

ومن الناس فريق يتردد متحيراً بين المؤمنين والكافرين، وهم المنافقون الذين يقولون بألسنتهم: صدقنا بالله وباليوم الآخر، وهم في باطنهم كاذبون لم يؤمنوا. سبب النزول:

قال مجاهد: " هذه الآية إلى ثلاث عشرة ، في نعت المنافقين" (١). وروي عن الربيع (٢)، وابن جريج (٣)، وأبي العالية (٤) والحسن البصري (٥)، وقتادة (٦)، والسدي (٧)، مثل ذلك.

فلما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات (٨)، ثم عرف حال الكافرين بهاتين الآيتين {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)} [البقرة : ٦ - ٧]، شرع تعالى في بيان حال المنافقين في ثلاثة عشرة آية، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ولما كان أمرهم يشبهه على كثير من الناس أظن في ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق، كما أنزل سورة براءة فيهم، وسورة المنافقين فيهم، وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور، تعريفاً لأحوالهم لتجنب، ويجتنب من تلبس بها أيضاً (٩).

قوله تعالى: {وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} [البقرة : ٨] "أي: وما هم بمصدقين، فيما يزعمون أنهم به مُصدقون" (١٠).

قال أبو العالية: " ولاء المنافقون" (١١). قال ابن أبي حاتم: " وكذلك فسره الحسن، وقتادة، والسدي (١٢).

عن سعيد بن جبیر: " قوله: {وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ}، قال: مصدقين" (١٣).

القرآن

{يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)} [البقرة : ٩]

التفسير:

يعتقدون بجهلهم أنهم يخادعون الله والذين آمنوا بإظهارهم الإيمان وإضمارهم الكفر، وما يخدعون إلا أنفسهم؛ لأن عاقبة خداعهم تعود عليهم، ومن فرط جهلهم لا يحسبون بذلك؛ لفساد قلوبهم. فإن المنافقين "من الغفلة بحيث لا يخدعون إلا أنفسهم في غير شعور! إن الله بخداعهم عليم والمؤمنون في كنف الله فهو حافظهم من هذا الخداع اللئيم. أما أولئك الأغفال فهم يخدعون أنفسهم

(١) أخرجه الطبري (٣١٣)، و(٣١٤)، و(٣١٦):ص ٢٦٩/١، ولفظه: " هذه الآية إلى ثلاث عشرة ، في نعت المنافقين".

(٢) أنظر: تفسير الطبري (٣١٨):ص ٢٧٠/١.

(٣) أنظر: تفسير الطبري (٣١٩):ص ٢٧٠/١.

(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠٥):ص ٤٢/١.

(٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٤٢/١، وتفسير ابن كثير: ٤٧/١، والعجاب في أسباب: ٢٣٢/١.

(٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٤٢/١، وتفسير ابن كثير: ٤٧/١، والعجاب في أسباب: ٢٣٢/١.

(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٤٢/١، وتفسير ابن كثير: ٤٧/١، والعجاب في أسباب: ٢٣٢/١.

(٨) وهي قوله تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)} [البقرة : ٢ - ٥]

(٩) أنظر: تفسير ابن كثير: ١٧٦/١.

(١٠) تفسير الطبري: ٢٧٢/١.

(١١) تفسير ابن أبي حاتم (١٠٥):ص ٤٢/١.

(١٢) تفسير ابن أبي حاتم: ٤٢/١.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٦):ص ٤٢/١.

ويغشونها. يخدعونها حين يظنون أنهم أربحوها وأكسبوها بهذا النفاق، وهم في الوقت ذاته يوردونها موارد التهلكة. وينتهون بها إلى شر مصير! ^(١).

قوله تعالى: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا} [البقرة: ٩]، "أي يخالفون الله، ويخادعون المؤمنين بقولهم إذا رأوهم أمنا" ^(٢).

قال ابن جرير: يظهر "لا إله إلا الله" يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم، وفي أنفسهم غير ذلك" ^(٣).

قوله تعالى: {وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [البقرة: ٩]، "أي: وما يخدعون في الحقيقة إلا أنفسهم لأن وبال فعلهم راجع عليهم وما يدرون" ^(٤).

قال قتادة: "نعت المنافق: خنع الأخلاق، يصدق بلسانه وينكر بقلبه، ويخالف بعلمه، ويصبح على حال ويسمى على غيره، ويسمى على حال ويصبح على غيره، يتكفأ تكفأ السفينة كلما هبت ريح هب معها" ^(٥).

القرآن

{فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)} [البقرة: ١٠]

التفسير:

في قلوبهم شكٌ وفساد فابتلوا بالمعاصي الموجبة لعقوبتهم، فزادهم الله شكًا، ولهم عقوبة موجعة بسبب كذبهم ونفاقهم.

قوله تعالى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ} [البقرة: ١٠]، أي: في قلوبهم: "شك ونفاق" ^(٦).

واختلف في قوله تعالى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ} [البقرة: ١٠]، على وجهين:

أحدها: المرض: الزنا. قاله عكرمة ^(٧) وطاوس ^(٨).
الثاني: أنه: الشك. قاله أبو العالية ^(٩)، ومجاهد ^(١٠)، والحسن ^(١١)، وعكرمة ^(١٢)، والربيع بن أنس ^(١٣)، والسدي ^(١٤)، وقتادة ^(١٥).

والمرض الذي وصف الله جل ثناؤه أنه في قلوب المنافقين، هو الشك في اعتقادات قلوبهم وأديانهم، وما هم عليه - في أمر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر نبوته وما جاء به - مقيمون ^(١٦).

(١) في ظلال القرآن (١/ ٤٢-٤٣)

(٢) تفسير البغوي: ٦٥/١-٦٦.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٤٦/١) ز وتفسير ابن كثير: ١٧٨/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٢٧٧/١، وصفوة التفاسير: ٢٩/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٨): ص ٤٣/١.

(٦) تفسير الثعلبي: ١٥٤/١، وانظر: تفسير البغوي: ٦٦/١، وانظر: صفوة التفاسير: ٢٩/١.

(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠٩): ص ٤٣/١.

(٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٠): ص ٤٣/١.

(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٣): ص ٤٣/١.

(١٠) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم ٤٣/١.

(١١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم ٤٣/١.

(١٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم ٤٣/١.

(١٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم ٤٣/١.

(١٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم ٤٣/١.

(١٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم ٤٣/١.

(١٦) انظر: تفسير الطبري: ٢٨١/١.

قوله تعالى: {فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا} [البقرة: ١٠]، أي: "فزادهم الله رجساً فوق رجسهم، وضللاً فوق ضلالهم"^(١).

وذكر التابعون في قوله تعالى: {فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا} [البقرة: ١٠]، وجوها:

أحدها: {فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا}: "أي: شگا". قاله أبو العالية^(٢).

الثاني: أن: "المرض مرضان: مرض زنا، ومرض نفاق" قاله زيد بن علي^(٣)، وعكرمة^(٤).

الثالث: وقيل: "فزادهم الله مرضاً، أي: نفاقاً". قاله سعيد بن جبیر^(٥).

قوله تعالى: {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [البقرة: ١٠]، "أي: ولهم عذاب مؤلم بسبب

كذبهم في دعوى الإيمان، واستهزائهم بآيات الرحمن"^(٦).

قال أبو العالية: "الأليم: الموجه في القرآن كله"^(٧). قال ابن أبي حاتم: "وكذلك فسره سعيد

بن جعفر، والضحاك بن مزاحم، وقتادة وأبو مالك، وأبو عمران الجوني"^(٨).

القرآن

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)} [البقرة: ١١]

التفسير:

وإذا نُصحوا ليُكفُوا عن الإفساد في الأرض بالكفر والمعاصي، وإفشاء أسرار المؤمنين، وموالات الكافرين، قالوا كذباً وجدالاً إنما نحن أهل الإصلاح.

قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ} [البقرة: ١١]، "أي: وإذا قال لهم بعض

المؤمنين: لا تسعوا في الأرض بالإفساد بإثارة الفتن، والكفر والصدِّ عن سبيل الله"^(٩).

قال السدي: "أما لا تفسدوا في الأرض، فإن الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية"^(١٠).

قال أبو العالية: "لا تعصوا في الأرض، وكان فسادهم ذلك معصية الله لأنه من عصي الله

في الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة"^(١١).

وروي عن قتادة نحو ذلك^(١٢).

(١) صفوة التفاسير: ٢٩/١.

(٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٥): ص ٤٤/١.

(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٦): ص ٤٤/١.

زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي، أبو الحسين المدني، إمام زاهد فقيه، فصيح، ثقة، وهو الذي ينسب إليه الزيدية، خرج في خلافة هشام بن عبد الملك فقتل بالكوفة سنة ١٢٢ هـ، وكان مولده سنة ثمانين من الهجرة.

انظر: "وفيات الأعيان" ١٢٢/٥، و"سير أعلام النبلاء" ٣٨٩/٥، و"تهذيب التهذيب" ١/٦٦٨، و"تهذيب تاريخ ابن عساکر" ١٧/٦، و"الأعلام" ٥٩/٣.

(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٧): ص ٤٤/١.

(٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٨): ص ٤٤/١.

(٦) صفوة التفاسير: ٢٩/١.

(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٩): ص ٤٤/١.

(٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ص ٤٤/١.

(٩) صفوة التفاسير: ٣٠/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٢): ص ٤٥/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢١): ص ٤٤-٤٥/١.

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٤٥/١.

عن الربيع: "وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض، يقول: لا تعصوا في الأرض {قالوا إنما نحن مصلحون}، قال: فكان فسادهم ذلك معصية الله جل ثناؤه، لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصيته، فقد أفسد في الأرض، لأن إصلاح الأرض والسماء بالطاعة"^(١).

القرآن

{أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ} (١٢) {البقرة : ١٢}

التفسير:

ألا فانتبهوا أيها الناس، إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد^(٢)، وإنهم هم المفسدون حقاً لا غيرهم، ولكن لا يفطنون ولا يحسون، لانطماس نور الإيمان في قلوبهم، ولجهلهم وبلادتهم وعدم فهمهم للأمر.

أخرج ابن أبي حاتم" عن أبي العالية في قوله: {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ}، قال: هم المنافقون"^(٣).

القرآن

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ} (١٣) {البقرة : ١٣}

التفسير:

وإذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس أي كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك مما أخبر المؤمنين به وعنه وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر وترك الزواجر، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء، يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله ﷺ، ألا أنهم هم السفهاء ولكنهم من تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى، والبعد عن الهدى^(٤).

عن أبي العالية: {قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ}، يعنون: أصحاب محمد- صلى الله عليه وسلم"^(٥). وكذا فسره السدي^(٦).

القرآن

{وَإِذَا لُقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} (١٤) {البقرة : ١٤}

التفسير:

وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا : آمنا وأظهروا لهم الإيمان والموالاة غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانعة وليشركوهم فيما أصابهم من خير ومغنم، وإذا خلوا إلى ساداتهم وكبرائهم من أحيار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين، قالوا : إنا نحن على دينكم وعلى مثل ما أنتم عليه من الإعتقاد، وإنما نستهزئ بالقوم ونسخر منهم بإظهار الإيمان^(٧).

(١) أخرجه الطبري(٣٤٠):ص٢٨٨/١.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ١٨١/١.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم(١٢٥):ص٤٥/١.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير: ١٨٢/١، وتفسير القرطبي: ٢٠٥/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٠):ص٤٦/١.

(٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٤٦/١.

(٧) انظر: تفسير ابن كثير: ١٨٢/١.

قوله تعالى: {وَإِذَا لَفُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا} [البقرة: ١٤]، أي "وإذا رأوا المؤمنين وصادفوهم أظهروا لهم الإيمان والموالاتة نفاقاً ومصانعة"^(١).
 قال قتادة: "ليس بهم إلا مخافة على دمائهم وأموالهم، يصانعوهم بذلك"^(٢).
 قوله تعالى: {وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ} [البقرة: ١٤]، "أي: وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائهم وكبرائهم، أهل الضلال والنفاق"^(٣).
 قال أبو مالك: قوله: {خلوا}، يعني: مضوا"^(٤).
 واختلف في معنى: {شَيَاطِينِهِمْ} [البقرة: ١٤]، على أقوال:
 أحدها: شياطينهم من اليهود. قاله أبو العالية^(٥) والربيع^(٦) والسدي^(٧).
 الثاني: أي: رؤسائهم وقادتهم في الشرك والشرك. قاله قتادة^(٨).
 الثالث: أنهم المشركون. قاله قتادة-أيضاً-^(٩).
 الرابع: أصحابهم من المنافقين والمشركين. قاله مجاهد^(١٠)، والربيع-أيضاً-^(١١).

القرآن

{اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)} [البقرة: ١٥]
 التفسير:

الله يجازيهم على استهزائهم بالإمهال ثم بالنكال، ويزيدهم -بطريق الإمهال والترك- في ضلالهم وكفرهم وكذبهم يتخبطون ويترددون ويتحIRON^(١٢).
 قوله تعالى: {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} [البقرة: ١٥]، "أي: الله يجازيهم على استهزائهم بالإمهال ثم بالنكال"^(١٣).

عن أبي صالح في قوله: " {الله يستهزئ بهم} قال: يقال: لأهل النار وهم في النار اخرجوا وتفتح لهم أبواب النار فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم فذلك قوله {الله يستهزئ بهم}، ويضحك عليهم المؤمنون حين غلقت دونهم ذلك قوله {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون} [المطففون الآية ٣٤ - ٣٥ الآية]"^(١٤).
 قوله عز وجل: {وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [البقرة: ١٥]، أي: " ويُمهلهم; ليزدادوا ضلالاً وحيرة وتردداً"^(١٥).

- (١) صفوة التفاسير: ٣٠/١.
- (٢) تفسير ابن المنذر: ٣٤٩/١.
- (٣) صفوة التفاسير: ٣٠/١.
- (٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٥):ص ٤٧/١.
- (٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٤٨/١.
- (٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٤٨/١.
- (٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٤٠):ص ٤٨/١.
- (٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٣٨):ص ٤٧/١، ونحوه في تفسير الطبري (٣٥٢):ص ٢٩٧/١.
- (٩) أنظر: تفسير الطبري (٣٥٣):ص ٢٩٧/١.
- (١٠) أنظر: تفسير الطبري (٣٥٤)، و(٣٥٥)، و(٣٥٨):ص ٢٩٧-٢٩٨، وابن أبي حاتم (١٣٩):ص ٤٧/١.
- (١١) أنظر: تفسير الطبري (٣٥٦):ص ٣٩٨/١.
- (١٢) أنظر: تفسير ابن كثير: ١٨٢/١.
- (١٣) صفوة التفاسير: ٣٠/١.
- (١٤) الدر المنثور: ٧٩/١، وعزاه إلى ابن المنذر.
- (١٥) التفسير الميسر: ٣.

قال قتادة: "أي" في ضلالتهم يعمهون^(١). وروي عن الربيع^(٢) نحوه.
 عن مجاهد: " {فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}، قال: يترددون"^(٣)، وروي عن الربيع^(٤)، مثله.
 و"الطُعْيَانُ": أصله مجاوزة الحد، من قولك: طَعَى فلان يطعَى طُعْيَانًا، إذا تجاوز في الأمر
 حده فبغى، ومنه قوله الله: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا طَغَى} [سورة العلق : ٦، ٧]، أي
 يتجاوز حدّه، وقوله في فرعون: {إِنَّهُ طَغَى} [طه : ٢٤] أي أسرف في الدعوى حيث قال: {أَنَا
 رَبُّكُمْ الْأَعْلَى} [النازعات : ٢٤]^(٥)، ومنه قول أمية بن أبي الصلت^(٦):
 وَدَعَا اللَّهَ دَعْوَةً لَاتَ هُنَا بَعْدَ طُعْيَانِهِ، فَظَلَّ مُشِيرًا
 وفي قوله تعالى: {يَمْدُهُمْ} [البقرة: ١٥]، قولان:
 أحدهما: يملئ لهم، وهو قول السدي^(٧).
 الثاني: يزيدهم، وهو قول مجاهد^(٨).

والراجع هو ما قاله مجاهد، بأن معنى {وَيَمْدُهُمْ}: يزيدهم، على وجه الإملاء والترك لهم
 في عُتْوِهِمْ وتمردهم، كما وصف ربنا أنه فعل بنظرائهم في قوله {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ
 يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْصُونَ} [سورة الأنعام : ١١٠]، يعني نذرهم ونتركهم فيه،
 ونملي لهم ليزدادوا إثمًا إلى إثمهم، ولا وجه لقول من قال: ذلك بمعنى "يَمْدُ لهم"، لأنه لا تدافع
 بين العرب وأهل المعرفة بلغتها أن يستجيزوا قول القائل: "مدّ النهر نهرًا آخر"، بمعنى: اتصل
 به فصار زائدًا ماء المتصل به بماء المتصل - من غير تأوّل منهم. ذلك أن معناه: مدّ النهر نهرًا
 آخر. فكذلك ذلك في قول الله: {وَيَمْدُهُمْ فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْصُونَ}^(٩).

القرآن

{أُولَئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)} [البقرة : ١٦]
 التفسير:

أولئك المنافقون باعوا أنفسهم في صفقة خاسرة، فأخذوا الكفر، وتركوا الإيمان، فما كسبوا شيئًا، بل
 خسروا الهداية، وهذا هو الخسران المبين.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ} [البقرة: ١٦]، "أي: الموصوفون بتلك
 الصفات استبدلوا الكفر بالإيمان، وأخذوا الضلالة ودفعوا ثمنها الهدى"^(١٠).
 واختلفوا في قوله تعالى: {اسْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ} [البقرة: ١٦]، على وجهين:

- (١) أخرجه الطبري (٣٦٨): ص ٣٠٩/١.
- (٢) أخرجه الطبري (٣٦٩): ص ٣٠٩/١.
- (٣) أنظر: تفسير الطبري (٣٧٥)، و(٣٧٦)، و(٣٧٧)، و(٣٧٨): ص ٣١١/١.
- (٤) أنظر: تفسير الطبري (٣٧٩): ص ٣١١/١.
- (٥) أنظر: تفسير القرطبي: ٢٠٨/١.
- (٦) ديوانه: ٣٤ مع اختلاف في الرواية. والضمير في قوله "ودعا الله" إلى فرعون حين أدركه الغرق. والهاء
 في قوله "طغيانه" إلى فرعون، أو إلى الماء لما طغا وأطبق عليه. وقوله "لات هنا"، كلمة تدور في كلامهم
 يريدون بها: "ليس هذا حين ذلك"، والتاء في قولهم "لات" صلة وصلت بها "لا"، أصلها "لا هنا" أي ليس
 هنا ما أردت، أي مضى حين ذلك. و"هنا" مفتوحة الهاء مشددة النون، مثل "هنا" مضمومة الهاء مخففة
 النون. وقوله: "مشيرًا"، أي مشيرًا بيده في دعاء ربه أن ينجيه من الغرق.
- (٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٤): ص ٤٨/١.
- (٨) أخرجه الطبري: (٣٦٥)، ص ٣٠٧/١، وابن أبي حاتم (١٤٥): ص ٤٨/١، والخبر ساقه ابن كثير ٣١ / ١،
 والسيوطي ٣١ / ١، والشوكاني ٣٣ / ١.
- (٩) أنظر: تفسير الطبري: ٣٠٧/١-٣٠٨.
- (١٠) صفوة التفاسير: ٣١/١.

أحدهما : معناه: استحبوا الكفر على الإيمان. قاله قتادة^(١).
 إذ عَبر عنه بالشراء، لأن الشراء يكون فيما يستحبه مشتريه، فإما أن يكون على معنى
 شراء المعاوضة فعلاً، لأن المنافقين لم يكونوا قد آمنوا ، فبييعوا إيمانهم، وهؤلاء وجَّهوا معنى قول
 الله جل ثناؤه {اسْتَرَوْا} إلى معنى اختاروا، لأن العرب تقول : اشتريت كذا على كذا، واسترَّيَّته -
 يَعْنُون اخترَّته عليه^(٢).
 الثاني: أنهم: آمنوا ثم كفروا. قاله مجاهد^(٣).
 قوله تعالى: {فَمَا رَیَحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} [البقرة: ١٦]، "أي: ما ربحت صفقتهم
 في هذه المعارضة والبيع، وما كانوا راشدين في صنيعهم ذلك، لأنهم خسروا سعادة الدارين"^(٤).
 قال قتادة: "قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ، ومن الجماعة إلى الفرقة،
 ومن الأمن إلى الخوف ، ومن السنة إلى البدعة"^(٥).

القرآن

{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ} [البقرة : ١٧]

التفسير:

إن مثل المنافقين في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، كمثل رجل
 استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله وتأنس بها فبينما هو
 كذلك إذ طفئت ناره وصار في ظلام شديد لا يُبصر ولا يهتدي.
 قال ابن عباس: " هذا مثل ضربه الله للمنافقين أنهم كانوا يتعززون بالإسلام فينا المسلمين
 ويقاسمونهم الفء فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز كما سلب صاحب النار ضوءه"^(٦). وروي عن أبي
 العالية^(٧)، وعطاء الخراساني^(٨) مثل ذلك.
 قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا} [البقرة: ١٧]، "أي مثالهم في نفاقهم وحالهم
 العجيبة فيه كحال شخص أوقد ناراً ليستدفئ بها ويستضيء"^(٩).
 قال أبو العالية: " مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فإنما ضوء النار ما أوقدتها، فإذا خمدت ذهب
 نورها. وكذلك المنافق كلما تكلم بكلمة الإخلاص- بلا إله إلا الله- أضاء له فإذا شك وقع في
 الظلمة"^(١٠).

قال عطاء الخراساني: " هذا مثل المنافق يبصر أحيانا ثم يدركه عمى القلب"^(١١). وروي عن
 عكرمة^(١٢)، والحسن^(١٣)، والسدي^(١)، والربيع بن أنس^(٢)، نحو ذلك.

(١) أنظر: تفسير الطبري (٣٨٢): ص ٣١٢/١.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٣١٣/١.

(٣) أنظر: تفسير الطبري (٣٨٣)، و (٣٨٤): ص ٣١٢/١.

(٤) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(٥) أخرجه الطبري (٣٨٥): ص ٣١٦-١: ٣١٧.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٨): ص ٥٠/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٩): ص ٥٠/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٠): ص ٥٠/١-٥١.

(٩) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٩): ص ٥٠/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٠): ص ٥٠/١-٥١.

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٥١/١.

(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٥١/١.

قوله تعالى: {فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ} [البقرة: ١٧]، "أي فلما أنارت المكان الذي حوله فأبصر وأمن، واستأنس بتلك النار المشعة المضيئة"^(٣).

قال مجاهد: "أما إضاءة النار فأقبالهم إلى المؤمنين والهدى"^(٤).

عن السدي: "فلما أضاءت ما حوله، زعم أن أناسا دخلوا في الإسلام مقدم النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة ثم إنهم نافقوا فكان مثلهم كمثل رجل كان في ظلمة فأوقد نارا فلما أضاءت ما حوله من قذى أو أذى فأبصره حتى عرف ما يتقي منها فبينما هو كذلك إذ أطفئت ناره، فأقبل لا يدري ما يتقي من أذى، فذلك المنافق كان في ظلمة الشرك فأسلم فعرف الحلال والحرام، والخير من الشر، فبينما هو كذلك إذ كفر فصار لا يعرف الحلال من الحرام ولا الخير من الشر"^(٥).

قوله تعالى: {ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ} [البقرة: ١٧]، "أي أطفأهم الله بالكلية، فتلاشت النار وُعدَمَ النور"^(٦).

قال مجاهد: "ذهب نورهم: إقبالهم إلى الكفار والضلالة"^(٧).

قال الضحاك: "فهو إيمانهم الذي تكلموا به"^(٨).

عن قتادة: حتى إذا ماتوا - يعني - المنافقين، ذهب بنورهم"^(٩).

قوله تعالى: {وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ} [البقرة: ١٧] "أي: وأبقارهم في ظلماتٍ كثيفة وخوف شديد، يتخبطون فلا يهتدون"^(١٠).

عن الضحاك: "أما الظلمة فهي ضلالتهم وكفرهم"^(١١).

قال الحسن: "فذلك حين يموت المنافق فيظلم عليه عمله عمل السوء، فلا يجد له عملا من خير عمل به يصدق به قول لا إله إلا هو"^(١٢). وروي عن قتادة^(١٣) نحوه.

القرآن

{صُمُّ بَكْمٍ عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} [البقرة: ١٨]

التفسير:

هم صُمٌّ عن سماع الحق سماع تدبير، بَكْمٌ عن النطق به، عُمِّيٌّ عن إِبْصَارِ نور الهداية؛ لذلك لا يستطيعون الرجوع إلى الإيمان الذي تركوه، واستعاضوا عنه بالضللال.

قوله تعالى: {صُمُّ} [البقرة: ١٨]، "أي هم كالصم لا يسمعون خيرا"^(١٤).

قال السدي: "فهم الخرس عمي"^(١٥).

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٥١/١.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٥١/١.

(٣) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦١): ص ٥١/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٢): ص ٥١/١.

(٦) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٣): ص ٥١/١.

(٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٦٥): ص ٥١/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٤): ص ٥١/١.

(١٠) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٩): ص ٥٢/١، ونحوه في تفسير الطبري (٣٩٢): ص ٣٢٣/١.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٠): ص ٥٢/١.

(١٣) أنظر: تفسير الطبري (٣٩١): ص ٣٢٣/١.

(١٤) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٣): ص ٥٣/١.

قال قتادة: "صم عن الحق فهم لا يسمعونه"^(١).
 قوله تعالى: {بُكْمٌ} [البقرة: ١٨]، "أي" كالحرص لا يتكلمون بما ينفعهم"^(٢).
 قال قتادة: "بكم عنه [أي: الحق]، فهم لا ينطقون به"^(٣).
 قال أبو مالك: "خرسا عن الكلام بالإيمان، فلا يستطيعون الكلام"^(٤).
 قوله تعالى: {عُمِّيٌّ} [البقرة: ١٨]، "أي: كالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله"^(٥).
 قال قتادة: "عمي عنه [أي: عن الحق] فهم لا يبصرونه"^(٦).
 قوله تعالى: {فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} [البقرة: ١٨]، "أي: لا يرجعون عما هم فيه من الغي والضلال"^(٧).
 قال السدي: "صم بكم عمي فهم لا يرجعون إلى الإسلام"^(٨). وروي عن الربيع بن أنس^(٩) نحوه.
 قال قتادة: "أي: لا يتوبون ولا يذكرون"^(١٠).

القرآن

{أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)} [البقرة: ١٩]
 التفسير:

أو تُسببه حال فريق آخر من المنافقين يظهر لهم الحق تارة، ويشكون فيه تارة أخرى، حال جماعة يمشون في العراء، فينصب عليهم مطر شديد، تصاحبه ظلمات بعضها فوق بعض، مع قصف الرعد، ولمعان البرق، والصواعق المحرقة، التي تجعلهم من شدة الهول يضعون أصابعهم في آذانهم؛ خوفاً من الهلاك، والله تعالى محيط بالكافرين لا يفوته ولا يعجزونه.
 قوله تعالى: {أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ} [البقرة: ١٩]، "أي أو مثلهم في حيرتهم وترددهم كمثل قوم أصابهم مطر شديد، أظلمت له الأرض، وأرعدت له السماء، مصحوب بالبرق والرعد والصواعق"^(١١).

واختلف في قوله تعالى: {أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ} [البقرة: ١٩]، على قولين: أحدهما: أنه المطر: قاله أبو العالية^(١٢)، والحسن^(١٣)، وسعيد بن جبير^(١٤) ومجاهد^(١٥)، وعطاء^(١) وعطية العوفي^(٢)، وقاتدة^(٣)، والسدي^(٤)، والربيع بن أنس^(٥).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٤): ص ٥٣/١.

(٢) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٧٤): ص ٥٢/١.

(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٧٥): ص ٥٣/١.

(٥) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٤): ص ٥٣/١.

(٧) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٨): ص ٥٣/١.

(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ص ٥٣/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٩): ص ٥٣/١.

(١١) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(١٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٥٤/١.

(١٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٥٤/١.

(١٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٥٤/١.

(١٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٥٤/١.

الثاني: أنه: السحاب. قاله الضحاك^(٦)، ومنه قول علقمة بن عبدة^(٧):
 كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ ... صَوَّاعِفُهَا لَطِيرُهُنَّ دَبِيبٌ
 فَلَا تُعْدِلِي بَيْنِي وَبَيْنَ مُعَمَّرٍ ... سُقَيْتِ غَوَادِي الْمُرْنِ حِينَ تَصُوبُ
 قوله تعالى: {فِيهِ ظُلُمَاتٌ} [البقرة: ١٩]، "أي: في ذلك السحاب ظلماتٌ داجية"^(٨).
 عن الضحاك: "فِيهِ ظُلُمَاتٌ"، أما الظلمة، فالضلالة"^(٩).
 قوله تعالى: {وَرَعْدٌ} [البقرة: ١٩]، "أي: "ورعدٌ قاصف"^(١٠).
 وفي تفسير قوله تعالى {وَرَعْدٌ} [البقرة: ١٩] وجهان:
 أحدهما: أن الرعد: ريح. قاله أبو الجلد^(١١).
 الثاني: أنه ملكٌ ينشق بالغيث، كما ينشق الراعي بغنمه، فسمي الصوتُ رعداً باسم ذلك الملك، قاله
 مجاهد^(١٢)، وعكرمة^(١٣)، وأبو صالح^(١٤) وقتادة^(١٥).
 قوله تعالى: {وبرقٌ} [البقرة: ١٩]، "أي: "وبرقٌ خاطف"^(١٦).
 قال عطاء: "مثل ضرب للكافر"^(١٧).
 قال الضحاك: "البرق فالإيمان. عني بذلك أهل الكتاب"^(١٨).
 قال الربيع: "البرق: اصطفك البرد"^(١٩).
 قال كعب: "البرق تصفيق ملك البرد. وحكى حماد بيده، لو ظهر لأهل الأرض
 لصعقوا"^(٢٠).
 قال مجاهد: "البرق مصنع ملك يسوق به السحاب"^(٢١). وروي عن ابن جريج^(٢٢) نحوه.

القرآن

- (١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٥٤/١.
- (٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٥٤/١.
- (٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٥٤/١.
- (٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٥٤/١.
- (٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ص ٥٤/١.
- (٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٨١): ص ٥٤/١.
- (٧) ديوانه: ٢٩، ط. دار صادر، ١٩٩٦. أي أن الطير التي لم تستطع أن تطير فزعاً ورعباً دبّت دبيباً تطلب النجاة.
- (٨) صفوة التفاسير: ٣١/١.
- (٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٨٤): ص ٥٤/١.
- (١٠) صفوة التفاسير: ٣١/١.
- (١١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٨٧): ص ٥٥/١، وتفسير الطبري (٤٣٧)، و (٤٣٨): ص ٣٤١/١-٣٤٢.
- (١٢) أنظر: تفسير الطبري (٤١٩)، و (٤٢٠)، و (٤٢١)، و (٤٢٩)، و (٤٣٢): ص ٣٣٨/١-٣٤٠.
- (١٣) أنظر: تفسير الطبري (٤٢٩)، و (٤٣١)، و (٤٣٥): ص ٣٤٠/١-٣٤١.
- (١٤) أنظر: تفسير الطبري (٤٢٢): ص ٣٣٨/١.
- (١٥) أنظر: تفسير الطبري (٤٣٠): ص ٣٤٠/١.
- (١٦) صفوة التفاسير: ٣١/١.
- (١٧) أخرجه الطبري (٤٦٤): ص ٣٥١/١.
- (١٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٩٥): ص ٥٥/١، وتفسير الطبري (٤٦٠): ص ٣٥٠/١.
- (١٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٩٢): ص ٥٦/١.
- (٢٠) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٩٣): ص ٥٦/١.
- (٢١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٩٤): ص ٥٦/١.
- (٢٢) أنظر: تفسير الطبري (٤٥٠): ص ٣٤٤/١.

{يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)} [البقرة: ٢٠]

التفسير:

يقارب البرق -من شدة لمعانه- أن يسلب أبصارهم، ومع ذلك فكُلَّمَا أضاء لهم مشَوْا في ضوءه، وإذا ذهب أظلم الطريق عليهم فيقفون في أماكنهم. ولولا إمهال الله لهم لسلب سمعهم وأبصارهم، وهو قادر على ذلك في كل وقت، إنه على كل شيء قدير.

قوله تعالى: {يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ} [البقرة: ٢٠]، "أي يقارب البرق لشدة وقوته وكثرة لمعانه أن يذهب بأبصارهم فيأخذها بسرعة"^(١).

قال قتادة: هو المنافق إذا كثر ماله وأصاب رخاء وعافية قال للمسلمين: أنا معكم وعلى دينكم، وإذا أصابته النوائب قام متحيراً؛ لأنه لا يحتسب أجرها"^(٢).

قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ} [البقرة: ٢٠]، أي: لو أراد الله "لأذهب سمعهم وأبصارهم"^(٣).

قال أبو العالية: "ذكر أسماعهم وأبصارهم التي عاثوا بها في الناس"^(٤).

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ٢٠]، "أي: لا يعتريه عجز في كل شيء فعله"^(٥).

قال محمد بن إسحاق: "أي: إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير"^(٦).

القرآن

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)} [البقرة: ٢١]

التفسير:

أيها الناس (الكفار والمؤمنون) اخضعوا وذلوا لله سبحانه وتعالى، الذي أوجدكم من العدم، وأوجد من قبلكم من الأمم الماضية، إذا عبدتم الله وحده، اتقيتم بذلك سخطه وعذابه، صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى.

سبب النزول:

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ} [البقرة: ٢١]، "يعني: وخلق الذين من قبلكم"^(٧).

قال السدي: "يقول: خلقكم وخلق الذين من قبلكم"^(٨). وروي عن مجاهد نحو ذلك^(٩).

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ٢١]، "أي: لأجل أن تتقوا الله عز وجل"^(١٠).

واختلف في قوله: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ٢١] على وجهين:

(١) صفوة التفسير: ٣١/١.

(٢) ذكره الثعلبي في "تفسيره" ٥٦/١، وأخرجه "الطبري" في "تفسيره" ١٥٥/١، وذكره السيوطي في "الدر"

وعزاه إلى عبد بن حميد وابن جرير ٧٢/١، وقد ورد نحوه عن ابن عباس. انظر: "تفسير الطبري" ١٥٤/١،

و"تفسير ابن أبي حاتم" ٥٩/١، "الدر" ٧٢/١.

(٣) تفسير الطبري: ٣٦٠/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٢١٢): ص ٥٩/١.

(٥) تفسير ابن عثيمين: ٣٥٨/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٢١٤): ص ٥٩/١.

(٧) تفسير ابن عثيمين: ٧٣/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٢١٧): ص ٦٠/١.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٦٠/١. حكاه دون سند.

(١٠) تفسير ابن عثيمين: ٢٢٥/١.

أحدهما: لعلمك تتقون بعبادتكم ربكم الذي خلقكم، وطاعتكم إياه فيما أمركم به ونهاكم عنه، وإفراذكُم له العبادة، لتتقوا سخطه وغضبه أن يحلّ عليكم، وتكوئوا من المتقين الذين رضي عنهم ربهم. وهو معنى قول الضحاك^(١).

قال الضحاك: "لعلمك تتقون النار بالصلوات الخمس"^(٢).

الثاني: لعلمك تُطيعونه. قاله مجاهد^(٣).

عن أبي مالك: "قوله: {لَعَلَّكُمْ}، يعني: غير آية في الشعراء {لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} [الشعراء : ١٢٩]، يعني: كأنكم تخلدون"^(٤).

القرآن

{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)} [البقرة : ٢٢]
التفسير:

جعل الله الأرض فراشاً موطئاً يستقر عليها استقراراً كاملاً، وجعل السماء بمنزلة البناء وبمنزلة السقف، وأنزل من السماء مطراً عذياً فراثاً أنزله سبحانه بقدرته، فأخرج بذلك المطر أنواع الثمر والفاواكه والخضار، فلا تجعلوا لله أشباهاً ونظراء من المخلوقين فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبونه، وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مدبرون، وأنتم تعلمون أن الله ليس له شريك ولا نظير، لا في الخلق والرزق والتدبير، ولا في الألوهية والكمال.

قوله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا} [البقرة : ٢٢]، أي: "جعل لكم الأرض مهاداً موطئاً وقراراً يستقر عليها"^(٥).

عن قتادة: "الذي جعل لكم الأرض فراشاً"، قال: مهاداً لكم"^(٦). وروي عن الربيع بن أنس^(٧) مثل ذلك.

قوله تعالى: {والسمااء بناءً} [البقرة : ٢٢]، أي: وسقفاً للأرض مرفوعاً فوقها كهيئة القبة"^(٨). قال قتادة: "جعل السماء سقفاً لك"^(٩).

قوله تعالى: {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} [البقرة: ٢٢]، أي: "أنزل من السماء مطراً"^(١٠).

عن أم عبد الله يعني- ابنة خالد بن معدان عن أبيها، قال: "إن المطر ماء يخرج من تحت العرش فينزل من سماء إلى سماء حتى يجتمع في السماء الدنيا فيقع في شيء يقال له الإبزيم فيجتمع فيه ثم يجيء السحاب السوداء فتدخله فتشربه مثل شرب الإسفنجة فيسوقها الله حيث يشاء"^(١١).

قوله تعالى: {فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ} [البقرة: ٢٢]، أي: أي: "فأخرج بذلك المطر مما أنبتوه في الأرض من زرعهم وعرسهم ثمرات"^(١٢).

(١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٢١٩): ص ٦٠/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢١٩): ص ٦٠/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٢٠): ص ٦٠/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٢١٨): ص ٦٠/١.

(٥) تفسير الطبري: ٣٦٥/١.

(٦) أخرجه الطبري (٤٧٦): ص ٣٦٥/١.

(٧) أخرجه الطبري (٤٧٧): ص ٣٦٦/١.

(٨) صفوة التفاسير: ٣٥/١.

(٩) أخرجه الطبري (٤٧٩): ص ٣٦٧/١.

(١٠) تفسير الطبري: ٣٦٧/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٢٥): ص ٦١/١.

(١٢) تفسير الطبري: ٣٦٧/١.

عن عكرمة قال: "ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشباً أو في البحر لؤلؤة"^(١).

قوله تعالى: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً} [البقرة: ٢٢]، أي: لا تُصَيِّرُوا لله نظراء ومشابهين في العبادة"^(٢).

روي عن عكرمة: "فلا تجعلوا لله أنداداً، أن تقولوا: لولا كلبنا لدخل علينا اللصّ الدار، لولا كلبنا صحّاح في الدار، ونحو ذلك"^(٣).

عن أبي العالية في قوله: "أنداداً"، أي: عدلاً شركاً"^(٤). وروي عن الربيع بن أنس وقتادة والسدي وأبي مالك وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك"^(٥).

قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٢]، أي: "وأنتم تعلمون أنها لا تخلق شيئاً ولا ترزق، وأنّ الله هو الخالق الرازق وحده، ذو القوة المتين"^(٦).

قال مجاهد: "تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل"^(٧).

واختلف في الذين عُنُوا بهذه الآية، على قولين"^(٨).

أحدهما: عَنَى بها جميع المشركين من مُشركي العرب وأهل الكتاب. قاله قتادة"^(٩).

الثاني: عنى بذلك أهل الكتابين، أهل التوراة والإنجيل. قاله مجاهد"^(١٠).

القرآن

{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: ٢٣]

التفسير:

وإن كنتم -أيها الكافرون المعاندون- في شكّ من القرآن الذي نزلناه على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وترعمون أنه ليس من عند الله، فهاتوا سورة تماثل سورة من القرآن، واستعينوا بمن تقدرون عليه من أعيانكم، إن كنتم صادقين في دعواكم.

قوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ} [البقرة: ٢٣]، "أي: وإذا كنتم أيها الناس في شك وارتياب"^(١١).

عن أبي العالية: "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ"، قال: في شك"^(١٢). قال ابن أبي حاتم: "وكذلك فسره الحسن وقتادة والربيع بن أنس"^(١٣).

قوله تعالى: {مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا} [البقرة: ٢٣]، "أي: من صدق هذا القرآن، المعجز في بيانه، وتشريع، ونظمه على عبدنا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم"^(١٤).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٢٧): ص ٦١/١.

(٢) أنظر: تفسير ابن عثيمين: ٧٦/١.

(٣) أخرجه الطبري (٤٨٥): ص ٣٦٩/١.

(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٢٣٠): ص ٦٢/١.

(٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٦٢/١.

(٦) صفوة التفاسير: ٣٥/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٣٢): ص ٦٢/١.

(٨) أنظر: تفسير الطبري: ٣٧٠/١-٣٧١.

(٩) أنظر: تفسير الطبري (٤٨٧): ص ٣٧٠/١.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري (٤٨٨)، (٤٨٩)، و(٤٩٠): ص ٣٧١/١.

(١١) صفوة التفاسير: ٣٥/١.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٣٥): ص ٦٣/١.

(١٣) تفسير ابن أبي حاتم: ص ٦٣/١.

قال الحسن: "فهذا قول الله لمن شك من الكفار فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم"^(٢).
 قوله تعالى: {فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ} [البقرة: ٢٣]، "أي فأتوا بسورةٍ واحدةٍ من مثل هذا القرآن، في البلاغة والفصاحة والبيان"^(٣).
 قال قتادة: "يعني: من مثل هذا القرآن حقًا وصدقًا، لا باطل فيه ولا كذب"^(٤). وروي عن مجاهد نحوه^(٥).
 قوله تعالى: {وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ} [البقرة: ٢٣]، أي: وادعوا "الذين تشهدون لهم بالألوهية، وتعبدونهم كما تعبدون الله، ادعوهم ليساعدوكم في الإتيان بمثله"^(٦).
 قال أبو مالك: "يعني: شركاءكم"^(٧).
 قال مجاهد: ناس يشهدون"^(٨).

القرآن

{فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)}
 [البقرة: ٢٤]

التفسير:

فإن عجزتم الآن -وستعجزون مستقبلًا لا محالة- فاتقوا النار بالإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم وطاعة الله تعالى. هذه النار التي حطبها الناس والحجارة، أُعدت للكافرين بالله ورسوله.
 قوله تعالى: {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا} [البقرة: ٢٤]، "أي فإن لم تقدروا على الإتيان بمثل سورة من سوره، وعجزتم في الماضي عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه، مع استعانتكم بالفصحاء والعباقرة والبلغاء"^(٩).
 قال قتادة: "فإن لم تطيقوه"^(١٠).
 قوله تعالى: {وَلَنْ تَفْعَلُوا} [البقرة: ٢٤]، "أي ولن تقدروا في المستقبل أيضاً على الإتيان بمثله"^(١١).
 قال قتادة: "ولن تطيقوه"^(١٢). وفي لفظ: "أي لا تقدرين على ذلك، ولا تطيقونه"^(١٣).
 قوله تعالى: {فَاتَّقُوا النَّارَ} [البقرة: ٢٤]، "أي فاحذروا عذاب الله، واحذروا نار الجحيم التي جعلها الله جزاء المكذبين"^(١٤).
 قوله تعالى: {فَاتَّقُوا النَّارَ وَفُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [البقرة: ٢٤]، "أي اتقوا النار التي مادتها التي تُشعل بها وتُضرم لإيقادها هي الكفار والأصنام التي عبدها من دون الله"^(١٥).

(١) صفوة التفاسير: ٣٥/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٣٦): ص ٥٣/١.

(٣) صفوة التفاسير: ٣٥/١.

(٤) أخرجه الطبري (٤٩١)، (٣٩٢): ص ٣٧٣/١-٢٧٤.

(٥) أخرجه الطبري (٤٩٣)، و(٣٩٤)، و(٣٩٥): ص ٣٧٤/١.

(٦) تفسير ابن عثيمين: ٨٢/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٤١): ص ٦٤/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٤٢): ص ٦٥/١.

(٩) صفوة التفاسير: ٣٥/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٤٣): ص ٦٤/١.

(١١) صفوة التفاسير: ٣٦/١.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٤٣): ص ٦٤/١.

(١٣) أخرجه الطبري (٥٠١): ص ٣٧٩/٢٤.

(١٤) صفوة التفاسير: ٣٦/١.

قال مجاهد: " حجارة أنتن من الجيفة- من كبريت"^(٢).
 قال السدي: " فأما الحجارة فهي حجارة في النار من كبريت أسود يعذبون به مع النار"^(٣).
 قال ابن جريج: " حجارة من كبريت أسود في النار، قال: وقال لي عمرو بن دينار: حجارة
 أصلب من هذه وأعظم"^(٤).

القرآن

{وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ
 ثَمَرَةٍ رُزِقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤَا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ (٢٥)} [البقرة: ٢٥]

التفسير:

وبشر -أيها الرسول- الذين آمنوا بالله وبمحمد ﷺ، وبما جاء به من عند ربه، وصدقوا إيمانهم ذلك
 وإقرارهم بأعمالهم الصالحة من واجبات ومستحبات، أن لهم جنات تجري من تحت أشجارها أنهار،
 كلما أعطوا عطاء ورزقوا رزقاً من ثمار الجنة قالوا قد رزقنا الله هذا النوع من قبل، فإذا ذاقوه
 وجدوه شيئاً جديداً في طعمه ولذته، وإن تشابه مع سابقه في اللون والمنظر والاسم، ولهم في
 الجنات زوجات مطهرات.

قوله تعالى: {أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [البقرة: ٢٥]، أي: "أي بأن لهم حدائق
 وبساتين ذات أشجار ومساكن، تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهار الجنة"^(٥).

عن مسروق، قال: نخل الجنة نضيدٌ من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القلال، كلما
 نزلت ثمرة عادت مكانها أخرى، وماؤها يجري في غير أهدود"^(٦).

واختلفوا في قوله تعالى {كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُزِقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ
 قَبْلُ} [البقرة: ٢٥] على قولين^(٧):

أحدهما: أن معناه: أن هذا الذي رزقناه من ثمار الجنة، مثل الذي رزقناه من ثمار الدنيا، قاله
 مجاهد^(٨)، وقتادة^(٩).

وقولهم هذا على وجه التعجب، وليس في الدنيا شيء مما في الجنة سوى الأسماء، فكأنهم
 تعجبوا لما رأوه من حسن الثمرة وعظم خلقها^(١٠).

وعلى هذا القول، يكون معنى: {مِنْ قَبْلُ}: أي: في الدنيا، وفيه وجهان^(١١):

أحدهما: أنهم قالوا هذا الذي وعدنا به في الدنيا.

والثاني: هذا الذي رزقنا في الدنيا؛ لأن لونها يشبه لون ثمار الدنيا، فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير
 ذلك^(١٢).

(١) صفوة التفاسير: ٣٦/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٤٦): ص ٦٤/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٤٥): ص ٦٤/١.

(٤) أخرجه الطبري (٥٠٦): ص ٣٨٢/١.

(٥) صفوة التفاسير: ٣٦/١.

(٦) أخرجه الطبري (٥٠٩): ص ٣٨٤/١.

(٧) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٠٤/١.

(٨) أنظر: تفسير الطبري (٥٢٤)، و(٥١٥): ص ٣٨٦/١.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٥١٣): ص ٣٨٦/١.

(١٠) انظر: تفسير القرطبي: ٢٤٠/١.

(١١) انظر: تفسير القرطبي: ٢٤٠/١.

(١٢) انظر: تفسير القرطبي: ٢٤٠/١.

والقول الثاني: أن ثمار الجنة إذا جُنيت من أشجارها ، استخلف مكانها مثلها ، فإذا رأوا ما استخلف بعد الذي جُنِي ، اشتبه عليهم ، فقالوا : {هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ} ، وهو قول يحيى بن أبي كثير^(١) . وعلى هذا فإن قوله تعالى {من قبل} ، يعني في الجنة لأنهم يرزقون ثم يرزقون ، فإذا أتوا بطعام وثمار في أول النهار فأكلوا منها ، ثم أتوا منها في آخر النهار قالوا: هذا مثل الذي كان بالأمس ، لشدة مشابهة بعضه بعضاً ، لقوله تعالى: {وَأْتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا} ، فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعماً غير طعم الأول ، وكذا قال الربيع بن أنس وقال مجاهد: يقولون : ما أشبهه به!^(٢) .
والراجح هو القول الأول ، أي: أنهم كلما رزقوا من ثمارها رزقوا قالوا: هذا كما رزقنا من قبل في الدنيا؛ وإنما اشتبه عليهم ، لأن الله أجرى لهم ما يعرفون شكله ، ولكن طعم ثمار الجنة فوق الوصوف حلاوة. وذلك لكون الكلام لا يستقيم أن يقولوا ذلك عن ثمار الجنة وتشابهاً شكلاً ولونا مرةً بعد مرةً في أول دخولهم فيها ولم يذوقوا من ثمارها شيء^(٣) ، وهكذا وجه الطبري رأيه وهو حسن في باب النظر في وجوه الكلام.
قوله تعالى: {وَأْتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا} [البقرة: ٢٦] ، "أي: متشابهاً في الشكل والمنظر ، لا في الطعم والمخبر"^(٤) .

وذكروا في قوله تعالى: {وَأْتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا} ، وجوهاً من التفسير: أحدها : أن معنى التشابه أن كله خيار يشبه بعضه بعضاً وليس كثمار الدنيا ، التي لا تتشابه لأن فيها خياراً وغير خيار ، وهذا قول الحسن^(٥) ، وقتادة^(٦) ، وابن جريج^(٧) .
الثاني : أن التشابه في اللون دون الطعم فكان ثمار الجنة في ألوان ثمار الدنيا ، وإن خالفتها في الطعم ، وهذا قول مجاهد^(٨) ، والربيع بن أنس^(٩) ، وقتادة^(١٠) ، وعكرمة^(١١) .
الثالث: أن التشابه في اللون والطعم ، قاله مجاهد^(١٢) ، ويحيى بن سعيد^(١٣) .
الرابع : أن التشابه في الأسماء دون الألوان والطعم ، فلا تشبه ثمار الجنة شيئاً من ثمار الدنيا في لون ولا طعم ، وهذا قول ابن الأشجعي^(١٤) .

والراجح- والله أعلم- أن التشابه، في اللون والمنظر، والطعم مختلف، بدليل قوله تعالى: {كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ} [البقرة : ٢٥] ، "كلما رُزِقُوا من الجنان من ثمرة من ثمارها رزقاً قالوا : هذا الذي رُزِقْنَا من قبل هذا في الدنيا : فأخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم قالوا ذلك ، ومن أجل أنهم أتوا بما أتوا به من ذلك في الجنة متشابهاً ، يعني بذلك تشابه

(١) أنظر: تفسير الطبري(٥١٨):ص٣٨٧/١.

(٢) أنظر: تفسير الطبري: ٣٨٦/١، وتفسير القرطبي: ٢٤٠/١.

(٣) أنظر: تفسير الطبري: ٣٨٧/١-٣٨٨.

(٤) صفوة التفاسير: ٣٦/١.

(٥) أنظر: تفسير الطبري(٥١٩)، و(٥٢٠)، و(٥٢١):ص٣٨٩/١.

(٦) أنظر: تفسير الطبري(٥٢٢):ص٣٨٩/١-٣٩٠.

(٧) أنظر: تفسير الطبري(٥٢٣):ص٣٩٠/١.

(٨) أنظر: تفسير الطبري(٥٢٥)، و(٥٢٦)، و(٥٢٨)، و(٥٢٩):ص٣٩٠/١-٣٩١.

(٩) أنظر: تفسير الطبري(٥٢٧):ص٣٩٠/١.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري(٥٣٢):ص٣٩١/١.

(١١) أنظر: تفسير الطبري(٥٣٣):ص٣٩١/١.

(١٢) أنظر: تفسير الطبري(٥٣٠)، و(٥٣١):ص٣٩١/١.

(١٣) أنظر: تفسير الطبري(٥٣١):ص٣٩١/١.

(١٤) أنظر: تفسير الطبري(٥٣٤):ص٣٩١/١-٣٩٢.

ما أتوا به في الجنة منه ، والذي كانوا رُزقوه في الدنيا ، في اللون والمرأى والمنظر ، وإن اختلفا في الطعم والذوق ، فتباينا ، فلم يكن لشيء مما في الجنة من ذلك نظير في الدنيا"^(١).

قوله تعالى: {وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ} [البقرة: ٢٥] ، "أي: ولهم في الجنة زوجاتٌ من الحور العين مطهّرات من الأقدار والأدناس الحسية والمعنوية"^(٢).

واختلف في تفسير قوله تعالى: {وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ} [البقرة: ٢٥] على أقوال: أحدها: من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمني والولد، وهو قول مجاهد^(٣)، وروي نحوه عن عطاء^(٤).

الثاني: مطهرة من الأذى والمأثم، وهو قول قتادة^(٥).

الثالث: مطهرة من الحيض. وهو قول الحسن^(٦).

والقول الرابع: أن قوله تعالى {مُطَهَّرَةٌ}، يشمل طهارة الظاهر وطهارة الباطن، أي: "أنهن طهّرن من كل أذى وقذى وريبة، مما يكون في نساء أهل الدنيا، من الحيض والنفاس والغائط والبول والمخاط والبصاق والمني، وما أشبه ذلك من الأذى والأدناس والريب والمكاره"^(٧).

قوله تعالى: {وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٢٦] ، "أي" دائمون لا يموتون فيها ولا يخرجون منها"^(٨).

قال سعيد بن جبیر: "يعني: لا يموتون"^(٩).

القرآن

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦)} [البقرة : ٢٦]

التفسير:

إن الله لا يمنعه الحياء من أن يضرب مثلا كان بعوضة أم أدنى منها، لاشتمال الأمثال على الحكمة، وإيضاح الحق، والله لا يستحيي من الحق، فأما الذين آمنوا فیتفهمونها، ويتفكرون فيها، فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل، ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلا علموا أنها حق، وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثاً، بل لحكمة بالغة، ونعمة سابغة، فيعترضون ويتحيرون، فيزدادون كفراً إلى كفرهم، كما ازداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم، الخارجين عن طاعة الله، وما يضل به إلا المعاندين لرسول الله؛ الذين صار الفسق وصفهم؛ فلا يبعون به بدلاً فاقتضت حكمته تعالى إضلالهم لعدم صلاحيتهم للهدى، كما اقتضت حكمته وفضله هداية من اتصف بالإيمان وتحلى بالأعمال الصالحة.

اختلفوا في سبب نزول هذه الآية على قولين:

(١) تفسير الطبري: ٣٩٢/١.

(٢) صفوة التفاسير: ٣٦/١.

(٣) أنظر: تفسير الطبري (٥٤٠)، و(٥٤١)، و(٥٤٢)، و(٥٤٣)، و(٥٤٤)، و(٥٤٩): ص ٣٩٥-٣٩٦.

(٤) أنظر: تفسير الطبري (٥٥٣): ص ٣٩٧/١.

(٥) أنظر: تفسير الطبري (٥٤٦)، و(٥٤٧)، و(٥٤٨): ص ٣٩٦/١.

(٦) أنظر: تفسير الطبري (٥٥١)، و(٥٥٢): ص ٣٩٧/١.

(٧) تفسير الطبري: ٣٩٥/١.

(٨) تفسير البيهقي: ٧٤/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٦٩): ص ٦٨/١.

أحدها: قال قتادة: "لما ذكر الله العنكبوت والذباب ، قال المشركون : ما بال العنكبوت والذباب يذكران ؟ فأُنزل الله : {إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها}"^(١). ونقل الواحدي عن الحسن^(٢) مثل ذلك.

الثاني: وهو قول الربيع- ان : " هذا مثل ضربه الله للذباب ، إن البعوضة تحيا ما جاءت ، فإذا سمنت ماتت. وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب الله لهم هذا المثل في القرآن : إذا امتلأوا من الدنيا رياء أخذهم الله عند ذلك. قال : ثم تلا: {قَلَمًا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَعَثَةٌ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ } [سورة الأنعام : ٤٤]"^(٣).

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا} [البقرة: ٢٦] ، " إن الله تعالى لا يستحيي من الحق أن يذكر شيئا ما، قل أو أكثر، ولو كان تمثيلا بأصغر شيء، كالبعوضة والذباب ونحو ذلك، مما ضربه الله مثلا لِعَجَز كل ما يُعَبَد من دون الله"^(٤).

عن مجاهد: " {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا}: الأمثال كبيرها وصغيرها، يؤمن به المؤمنون، ويعلمون أنه الحق من ربهم أخذهم الله فأهلكهم"^(٥).

عن أبي العالية: " {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا}، فإذا جاءت آجالهم وانقطعت مدتهم، صاروا كالبعوضة، تحيا ما جاءت وتموت إذا رويت، فكذلك هؤلاء الذين ضرب لهم هذا المثل إذا امتلأوا من الدنيا رياء أخذهم الله فأهلكهم"^(٦).

قوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ} [البقرة: ٢٦] ، أي: "فأما الذين صدقوا الله ورسوله فيعلمون أن الله حق، لا يقول غير الحق، وأن هذا المثل من عند الله"^(٧).

قال الربيع: أي " أن هذا المثل الحق من ربهم ، وأنه كلام الله ومن عنده"^(٨).

قال قتادة: " أي يعلمون أنه كلام الرحمن ، وأنه الحق من الله"^(٩).

قال مجاهد: " يؤمن بها المؤمنون ، ويعلمون أنها الحق من ربهم ، ويهديهم الله بها"^(١٠).
قوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا} [البقرة: ٢٦] ، أي: " وأما الذين جحدوا آيات الله ، وأنكروا ما عرفوا ، وستروا ما علموا أنه حق، فيتعجبون ويقولون: ماذا أراد الله من ضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء الحقيرة؟"^(١١).

قال مجاهد: " ويعرفه الفاسقون فيكفرون به"^(١).

(١) أخرجه الطبري (٥٥٨):ص ٤٠٠/١، وانظر (٥٥٦):ص ٣٩٩/١-٤٠٠.

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي: ٢٣، قال الواحدي: "وقال الحسن وقتادة: لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتاب وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله. فأُنزل الله هذه الآية". وانظر: تفسير عبد الرزاق (٦٤/١).

(٣) أخرجه الطبري (٥٥٥):ص ٣٩٩/١. وفي رواية أخرى عنه بنحوه، " إلا أنه قال : فإذا خلت آجالهم وانقطعت مدتهم (٢) ، صاروا كالبعوضة تحيا ما جاءت ، وتموت إذا رويت ، فكذلك هؤلاء الذين ضرب الله لهم هذا المثل ، إذا امتلأوا من الدنيا رياء أخذهم الله فأهلكهم. فذلك قوله : (حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَعَثَةٌ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) [سورة الأنعام : ٤٤] ". [تفسير الطبري: (٥٥٦):ص ٣٩٩/١].

(٤) التفسير الميسر: ٥.

(٥) أخرجه ابن ابي حاتم (٢٧١):ص ٦٨/١.

(٦) أخرجه ابن ابي حاتم (٢٧٠):ص ٦٨/١.

(٧) صفوة التفاسير: ٣٨/١.

(٨) أخرجه الطبري (٥٦٥):ص ٤٠٧/١.

(٩) أخرجه الطبري (٥٦٥):ص ٤٠٧/١.

(١٠) أخرجه الطبري (٥٦٦):ص ٤٠٧/١.

(١١) انظر: تفسير الطبري: ٤٠٧/١، و صفوة التفاسير: ٣٨/١.

قوله تعالى: {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ} [البقرة: ٢٦]، "أي ما يضل بهذا المثل أو بهذا القرآن إلا الخارجين عن طاعة الله، الجاحدين بآياته"^(١).
قال قتادة: "فسقوا فأضلهم الله على فسقهم"^(٢).
قال مجاهد: "يعرفه المؤمنون فيؤمنون به، ويعرفه الفاسقون فيكفرون به"^(٣).

القرآن

{الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [البقرة: ٢٧]
التفسير:

من صفات هؤلاء الكفار أنهم ينقضون العهد الذي بينهم وبين الله عزّ وجلّ؛ من بعد تغليظه وتأكيد، وهو الإيمان به، وبرسله، ويقطعون كل ما أمر الله به أن يوصل، كالأرحام، ونصرة الرسل، ونصرة الحق، والدفاع عن الحق، ويسعون لما به فساد الأرض فساداً معنوياً كالمعاصي؛ وفساداً حسياً كتخريب الديار، وقتل الأنفس، وألئك هم الناقصون أنفسهم حظوظها - بمعصيتهم الله - من رحمته.

قوله تعالى: {الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ} [البقرة: ٢٧]، أي: الذين يتركون ويخالفون، أمر الله الذي عهد إليهم يوم الميثاق بعد توثق الله فيه، بأخذ عهده بالوفاء له ، بما عهد إليهم في ذلك"^(٤).

قال أبو العالية: "هي ست خصال في المنافقين إذا كانت فيهم الظهره على الناس أظهروا هذه الخصائص: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظهره عليهم أظهروا الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا"^(٥).

قال السدي: "هو ما عهد إليهم في القرآن، فأفروا به، ثم كفروا فنقضوه"^(٦).
قوله تعالى: {وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ} [البقرة: ٢٧]، "أي: ويقطعون كل ما أمر الله به أن يوصل، كالأرحام، ونصرة الرسل، ونصرة الحق، والدفاع عن الحق"^(٧).
واختلفوا في قوله: {وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ} [البقرة: ٢٧]، على وجهين: أحدهما: قيل: أنه الرحم والقراية، وهو قول السدي^(٨)، وقتادة^(٩).
والثاني: أن الذي أمر الله تعالى به أن يوصل، هو رسوله، فقطعوه بالتكذيب والعصيان، وهو قول الحسن البصري^(١٠).

(١) أخرجه الطبري (٥٦٦): ص ٤٠٧/١.

(٢) صفوة التفاسير: ٣٨/١.

(٣) أخرجه الطبري (٥٦٩): ص ٤٠٩/١.

(٤) أخرجه الطبري (٥٦٦): ص ٤٠٧/١.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٤١٤/١، وتفسير الثعلبي: ١٧٣/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٨٨): ص ٧١/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٩٠): ص ٧١/١.

(٨) انظر: تفسير الطبري: ٤١٧/١، وتفسير ابن كثير: ٢١١/١.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٢٩٣): ص ٧٢/١.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٥٧٤): ص ٤١٦/١.

(١١) نقلا عن: النكت والعيون: ٩٠/١.

والقول الأول هو الأشبه بالصواب، "لأن فيه حمل اللفظ على مدلوله من العموم، ولا دليل واضح على الخصوص"^(١)، وقد رحجه ابن جرير قائلاً: "وقد بين ذلك في كتابه، فقال تعالى: {قَهْلُ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ} [سورة محمد: ٢٢]، وإنما عني بالرحم، أهل الرحم الذين جمعتهم وإياه رحمُ والدة واحدة، وقطع ذلك: ظلمه في ترك أداء ما ألزم الله من حقوقها، وأوجب من برّها، وَوَصَلُّهَا: أداء الواجب لها إليها من حقوق الله التي أوجب لها، والتعطفُ عليها بما يحقُّ التعطف به عليها"^(٢).

قوله تعالى: {وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ} [البقرة: ٢٧]، "أي: ويسعون لما به فساد الأرض فساداً معنوياً كالمعاصي؛ وفساداً حسياً كتخريب الديار، وقتل الأنفس"^(٣). قال السدي: "يعملون فيها بالمعصية"^(٤).

القرآن

{كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)} [البقرة: ٢٨]

التفسير:

كيف تجحدون وجود الله أو تعبدون معه غيره، و قد كنتم عدماً في أصلاب آبائكم لا تُعرفون ولا تُذكرون، فأخرجكم إلى الوجود وأنعم عليكم بأصناف النعم، ثم يميتكم عند استكمال آجالكم، ثم يحييكم حين يبعثكم، ثم إليه ترجعون فيجازيكم الجزاء الأوفى. قال الحسن: "ذكر الموت مرتين هنا لأكثر الناس، وأما بعضهم فقد أماتهم ثلاث مرات، {أو كالذي مر على قرية}، {ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم}، {فخذ أربعة من الطير}، الآيات"^(٥).

وقد ذكروا في قوله تعالى: {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} [البقرة: ٢٨]، وجوها من التفسير:

أحدها: {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا} أي: لم تكونوا شيئاً، {فَأَحْيَاكُمْ} أي خلقكم، {ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ} عند انقضاء آجالكم، {ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} يوم القيامة، قاله أبو مالك^(٦)، ومجاهد^(٧)، وأبو العالية^(٨). الثاني: أن قوله: {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا} يعني في القبور {فَأَحْيَاكُمْ} للمساءلة، {ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ} في قبوركم بعد مساءلتكم، ثم يحييكم عند نفخ الصور للنشور، لأن حقيقة الموت ما كان عن حياة، وهذا قول أبي صالح^(٩).

الثالث: أن قوله: {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا} يعني في أصلاب آبائكم، {فَأَحْيَاكُمْ} أي أخرجكم من بطون أمهاتكم، {ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ} الموتة التي لا بد منها، {ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} للبعث يوم القيامة، وهذا قول قتادة^(١٠). ولكل من الأقوال السابقة وجه ومذهب من التفسير -والله أعلم-.

(١) البحر المحيط: ١٠٥/١.

(٢) تفسير الطبري: ٤١٥/١.

(٣) أنظر: تفسير الطبري: ٤١٧/١، وتفسير ابن كثير: ٢١١/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٩٦): ص ٧٢/١.

(٥) نقلاً عن: البحر المحيط: ١٠٨/١.

(٦) أنظر: تفسير الطبري (٥٧٨)، و (٥٧٩): ص ٤١٨/١.

(٧) أنظر: تفسير الطبري (٥٨٠): ص ٤١٩/١.

(٨) أنظر: تفسير الطبري (٥٨٢): ص ٤١٩/١.

(٩) أنظر: تفسير الطبري (٥٨٤): ص ٤١٩/١.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري (٥٨٥): ص ٤١٩/١ - ٤٢٠.

قوله تعالى: {ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة : ٢٨]، أي: "بعد الحشر - فيجازيكم بأعمالكم"^(١).
قال أبو العالية: "ترجعون إليه بعد الحياة"^(٢).

القرآن

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} {البقرة : ٢٩}

التفسير:

هو الذي أوجد لكم - برأ بكم ورحمة - جميع ما على الأرض من الأشجار، والزرورع، والأنهار، والجبال.. للانتفاع والاستمتاع والاعتبار، ثم قصد إلى السماء، فجعلها سبع سماوات سوية طباقاً غير متناثرة قوية متينة، وهو لا يخفى عليه شيء سبحانه.

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} [البقرة: ٢٩]، أي: "هو الذي أوجد عن علم وتقدير على ما اقتضته حكمته جلّ وعلا، وعلمه جميع ما على الأرض، للانتفاع والاستمتاع والاعتبار"^(٣).

قال قتادة: "أي: سخر لكم ما في الأرض جميعاً كرامة من الله، ونعمة لابن آدم"^(٤).

قال مجاهد: "خلق الله الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان فذلك حين يقول: ثم استوى إلى السماء وهي دخان. قال بعضهم فوق بعض، وسبع أرضين بعضهم تحت بعض"^(٥).

قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ} [البقرة: ٢٩]، أي: "ثم قصد إلى السماء"^(٦).

عن أبي العالية في قوله: "ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ" يقول: ارتفع"^(٧). وروي عن الحسن^(٨)، والربيع بن أنس^(٩) مثله.

فقوله: {اسْتَوَىٰ} معناه: قصد إلى خلقها، إذ ترد كلمة "استوى" في القرآن على ثلاثة معاني: أحدها: لا تعدى بالحرف، فيكون معناها: «الكمال والتمام»، كما في قوله عن موسى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [القصص : ١٤].

الثاني: أن تكون بمعنى: «علا» و«ارتفع»، وذلك إذا عدت بـ «على»، كما في قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف : ٥٤]، وقوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ} [طه : ٥]، وقوله تعالى: {لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} [الزخرف : ١٣].

الثالث: أن تكون بمعنى: «قصد» كما إذا عدت بـ «إلى»، كما في هذه الآية: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة : ٢٩]،

(١) محاسن التأويل: ٢٨١/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٠٣): ص ٧٣/١.

(٣) تفسير السعدي: ٤٨/١، وتفسير ابن عثيمين: ١٠٩/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٠٧): ص ٧٥/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٠٥): ص ٧٤/١.

(٦) التفسير الميسر: ٥.

(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٠٨): ص ٧٥/١.

(٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٧٥/١.

(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٧٥/١.

أي: لما خلق تعالى الأرض، قصد إلى خلق السماوات { فسواهن سبع سماوات } فخلقها وأحكمها، وأتقنها^(١).

قوله تعالى: { فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ } [البقرة: ٢٩]، "أي صيّرهن وقضاهن سبع سماوات محكمة"^(٢).

قال الربيع بن أنس: "سوى خلقهن"^(٣). وروي عن أبي العالية^(٤)، مثل ذلك.

قال قتادة: "بعضهن فوق بعض، بين كل سمانين مسيرة خمسمائة عام"^(٥).

قال مجاهد: "بعضهن فوق بعض، وسبع أرضين بعضهن تحت بعض"^(٦).

قوله تعالى: { وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [البقرة: ٢٩]، "أي وهو عالم بكل ما خلق وذراً"^(٧).

قال سعيد بن جبير: "يعني من أعمالكم عليم"^(٨).

القرآن

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) } [البقرة: ٣٠]
التفسير:

واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك، حين قال ربك للملائكة، أني جاعل في الأرض قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، فقالت الملائكة: يا ربنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك، فنحن ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك ونقدسك، فقال الله: إنني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفساد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم.

قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: ٣٠]، "أي: : اذكر يا محمد حين قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك: إي خالق في الأرض ومنتخب فيها خليفة يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها"^(٩).

قال السدي: "فاستشار الملائكة في خلق آدم"^(١٠). وكذا روي عن قتادة^(١١).

روي عن محمد بن إسحاق: "قوله {إنني جاعل في الأرض خليفة}، يقول: ساكنا وعامرا يسكنها ويعمرها خلقاً، ليس منكم"^(١٢).

عن الحسن، وقاتدة، قالوا: قال الله تعالى ذكره لملائكته: " {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}، قال لهم: إنني فاعل"^(١٣).

(١) انظر: تفسير السعدي: ٤٨/١.

(٢) صفوة التفاسير: ٣٩/١.

(٣) أخرجه الطبري (٥٨٩): ص ٤٣١/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٣١٠): ص ٧٥/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٠٩): ص ٧٥/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٣١١): ص ٧٥/١.

(٧) صفوة التفاسير: ٣٩/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٣١٢): ص ٧٥/١.

(٩) صفوة التفاسير: ٤١/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٣١٤): ص ٧٦/١.

(١١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧٦/١).

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٣١٦): ص ٧٦/١، والطبري (٦٠٠): ص ٤٤٩/١.

(١٣) أخرجه الطبري (٥٩٧): ص ٤٤٧/١.

قوله تعالى: {قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا} [البقرة: ٣٠]، "أي: قالوا على سبيل التعجب والاستعلام: كيف تستخلف هؤلاء، وفيهم من يفسد في الأرض بالمعاصي" (١).

قال ابن سابط: "يعنون الحرام" (٢).

قوله تعالى: {وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ} [البقرة: ٣٠]، أي: يريق الدماء بالبغي والاعتداء!! (٣).
قال البغوي: "أي كما فعل بنو الجان فقاوسوا الشاهد على الغائب، وإلا فهم ما كانوا يعلمون

الغيب" (٤).

وذكر أهل التفسير في قوله تعالى: {قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ} [البقرة: ٣٠]، وجوها:

أحدها: أن الجن بنو الجان كانوا في الأرض قبل خلق آدم، فأفسدوا فيها، وسفكوا الدماء، ومعنى الآية: "أتجعل فيها من يفسد فيها كما أفسدت الجن، ويسفك الدماء، كما سفكوا". وهذا قول أبي العالية (٥)، والحسن (٦)، والربيع (٧).

الثاني: أن الله أعلم الملائكة، أنه إذا كان في الأرض خلق، أفسدوا فيها وسفكوا الدماء. قاله قتادة (٨)، والسدي (٩)، وابن سابط (١٠).

والثالث: وقيل: أبصر بعض الملائكة خلق آدم وبعض الأمور في أم الكتاب. قاله أبو جعفر محمد بن علي (١١).

قوله تعالى: {وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ} [البقرة: ٣٠]، ونحن "ننزهك عما لا يليق بك مثلبسين بحمدك" (١٢).

واختلف في "تسبيح الملائكة"، على قولين:

أحدهما: معناه: نصلي لك. وهذا قول السدي (١٣).

الثاني: أن تسبيحهم: سبحان الله على عرْفه في اللغة، أي التسبيح المعلوم، قاله قتادة (١٤)، والحسن (١٥) نحو ذلك، وهذا هو الصحيح، وهو قول عامة المفسرين (١).

(١) صفوة التفاسير: ٤١/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٢٠): ص ٧٧/١.

(٣) صفوة التفاسير: ٤١/١.

(٤) تفسير البغوي: ٧٩/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٢٢): ص ٧٧/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٢٣): ص ٧٧/١.

(٧) أنظر: تفسير الطبري (٦٠٢): ص ٤٥٠/١-٤٥١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٢٤): ص ٧٧/١-٧٨.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٢٥): ص ٧٨/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٢٦): ص ٧٨/١، والطبري (٦٠٣): ص ٤٥١/١، و(٦٠٨): ص ٤٦٢/١.

(١١) أنظر تفسير ابن أبي حاتم (٣٢٧): ص ٧٨/١. قال ابن أبي حاتم: "حدثنا أبي ثنا هشام الرازي ثنا ابن المبارك عن معروف- يعني ابن خريز المكي عن سمع أبا جعفر محمد بن علي يقول: السجل ملك، وكان هاروت وماروت من أعوانه، وكان له كل يوم ثلاث لمحات ينظرهن في أم الكتاب، فنظر نظرة لم تكن له فأبصر فيها خلق آدم وما فيه من الأمور، فأسر ذلك إلى هاروت وماروت وكانا من أعوانه، فلما قال إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء قالا ذلك استطالة على الملائكة".

(١٢) صفوة التفاسير: ٤١/١.

(١٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٣٠): ص ٧٩/١، والطبري (٦١٩): ص ٤٧٤/١.

(١٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٢٩): ص ٧٩/١، والطبري (٦٢٠): ص ٤٧٤/١، وأنظر: تفسير عبد الرزاق ١/٦٥.

(١٥) أنظر: تفسير البغوي: ٧٩/١، قال: "قال الحسن: نقول سبحان الله وبحمده وهو صلاة الخلق، وصلاة البهائم وغيرهما، سوى آدميين وعليها يرزقون".

قال قتادة: "التسبيح، التسبيح"^(٢).
 قوله تعالى: {وَتَقَدَّسُ لَكَ} [البقرة: ٣٠]، "أي نثني عليك بالقدس والطهارة"^(٣).
 واختلفوا في تفسير قوله تعالى: {وَتَقَدَّسُ لَكَ} [البقرة: ٣٠]، على وجوه:
 أحدها: أن التقديس: هو التطهير والتعظيم، قاله الضحاك^(٤).
 الثاني: أن تقديس الملائكة لربها: صلاتها له. قاله قتادة^(٥)، والسدي^(٦).
 والثالث: أي: نعظّمك ونمجدك. قاله أبو صالح^(٧) ومجاهد^(٨).
 الرابع: أن التقديس معناه: لا نعصي ولا نأتي شيئاً تكررُهُ. قاله ابن إسحاق^(٩).
 والراجح هو القول الأول، ومنه قولهم: "سُبُوحٌ قُدُوسٌ"، يعني بقولهم: "سُبُوحٌ"، تنزيهٌ
 لله، وبقولهم: "قُدُوسٌ"، طهارةٌ له وتعظيم، ولذلك قيل للأرض: "أرضٌ مُقدَّسةٌ"، يعني بذلك
 المطهرة^(١٠).
 قوله تعالى: {قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٣٠]، أي: "أعلم من المصالح ما هو خفيٌ
 عليكم، ولي حكمة في خلق الخليقة لا تعلمونها"^(١١).
 واختلف أهل العلم في تفسير قوله تعالى: {قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، وذكروا وجهين:
 أحدهما: إني أعلم أن فيكم من يعصيني وهو إبليس. قاله مجاهد^(١٢)، والسدي^(١٣).
 وذلك مما اطلع عليه من إبليس، وإضماره المعصية لله وإخفائه الكبر، مما اطلع عليه تبارك
 وتعالى منه وخفي على ملائكته.
 الثاني: إني أعلم ما لا تعلمون، من أنه يكون من ذلك الخليفة أهلُ الطاعة والولاية لله. قاله قتادة^(١٤)،
 وبه قال أكثر أهل العلم. والله أعلم.

القرآن

{وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
 (٣١) [البقرة: ٣١]
 التفسير:

- (١) انظر مثلاً: تفسير الطبري: ٤٧٤/١. وتفسير ابن كثير: ٢٢٠-٢٢١، والدر المنثور ١: ٤٦، والشوكاني ١: ٥٠.
 (٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٢٩): ص ٧٩/١.
 (٣) تفسير البيهقي: ٧٩/١.
 (٤) أنظر: تفسير الطبري (٦٢٥): ص ٤٧٦/١.
 (٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٣٢): ص ٧٩/١، والطبري (٦٢١): ص ٤٧٤/٦.
 (٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٧٩/١.
 (٧) أنظر: تفسير الطبري (٦٢٢): ص ٤٧٥/١.
 (٨) أنظر: تفسير الطبري (٦٢٣): ص ٤٧٥/١.
 (٩) أنظر: تفسير الطبري (٦٢٤): ص ٤٧٦/١.
 (١٠) انظر: تفسير الطبري: ٤٧٥/١.
 (١١) صفوة التفاسير: ٤١/١.
 (١٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٣٤): ص ٧٩/١، والطبري (٦٢٨)، و(٦٢٩)، و(٦٣٠)، و(٦٣١)، و(٦٣٢)،
 و(٦٣٣)، و(٦٣٤)، و(٦٣٥)، و(٦٣٦)، و(٦٣٧): ص ٤٧٧-٤٧٩.
 (١٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٧٩/١.
 (١٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٣٥): ص ٧٩/١، والطبري (٦٣٩): ص ٤٧٩/١.

وعلم الله آدم أسماء الأشياء، وما هو مسمى بها، ثم عرض المسميات على الملائكة قائلاً لهم: أخبروني بأسماء من عرضته عليكم، إن كنتم صادقين بأنكم أولى بالاستخلاف في الأرض منهم لكون بني آدم يفسدون في الأرض.

قوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} [البقرة: ٣١]، أي: علمه "أسماء المسميات كلها"^(١).

اختلف في المراد في هذه الأسماء التي علمها الله آدم، على وجوه:

أحدها: أسماء الملائكة. قاله الربيع بن خثيم^(٢).

الثاني: علمه أسماء النجوم فقط. قاله حميد الشامي^(٣).

الثالث: أسماء جميع الأشياء، قاله قتادة^(٤)، ومجاهد^(٥)، وسعيد بن جبير^(٦)، والحسن^(٧)، والربيع^(٨).

فقالوا: أنه تعالى علمه أسماء كل شيء، ذواتها وصفاتها وأفعالها، أسماء الملائكة وأسماء

النبیین وأسماء نرية آدم وأسماء البحار والأشجار والأحجار والأواني، واختار هذا القول ابن كثير رحمه الله، لعموم قوله تعالى {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}^(٩)، ولحديث الشفاعة الطويل لما يأتون الناس

إليه .. فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، وعلمك أسماء كل شيء"^(١٠) (١١).

قوله تعالى: {ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ} [البقرة: ٣١]، أي: عرض المسميات"^(١٢) على

الملائكة.

(١) صفوة التفاسير: ٤١/١.

(٢) أنظر: تفسير الطبري (٦٥٩): ص ٤٨٥/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٣٩): ص ٨٠/١..

(٤) أنظر: تفسير الطبري (٦٥٥)، و(٦٥٦) و(٦٥٧): ص ٤٨٥-٤٨٠/١..

(٥) أنظر: تفسير الطبري (٦٤٧)، و(٦٤٨)، و(٦٤٩): ص ٤٨٣/١.

(٦) أنظر: تفسير الطبري (٦٥٠): ص ٤٨٣/١.

(٧) أنظر: تفسير الطبري (٦٥٧): ص ٤٨٥-٤٨٤/١.

(٨) أنظر: تفسير الطبري (٦٥٨): ص ٤٨٥/١.

(٩) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٢٣/١.

(١٠) صحيح البخاري برقم (٤٤٧٦)، و صحيح مسلم برقم (١٩٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٢٤٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣١٢).

(١١) قال البخاري في تفسير هذه الآية من كتاب التفسير من صحيحه: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا مسلم، حدثنا هشام، حدثنا قتادة، عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقال لي خليفة: حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد، عن قتادة عن أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال - "يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا؟ فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هُنَاكُم، ويذكر ذنبه فيستحي؛ انتوا نوحًا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتونه فيقول: لست هُنَاكُم. ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحي. فيقول: انتوا خليل الرحمن، فيأتونه، فيقول: لست هُنَاكُم؛ فيقول: انتوا موسى عبدًا كلمه الله، وأعطاه التوراة، فيأتونه، فيقول: لست هُنَاكُم، ويذكر قتل النفس بغير نفس، فيستحي من ربه؛ فيقول: انتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمة الله وروحه، فيأتونه، فيقول: لست هُنَاكُم، انتوا محمدًا عبدًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني، فأنتقل حتى أستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا رأيت ربي وقعت ساجدًا، فيدعني ما شاء الله، ثم يقال: ارفع رأسك، وسل تعطه، وقل يُسْمَع، واشفع تُسْتَفَع، فأرفع رأسي، فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيجد لي حدًا فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه، وإذا رأيت ربي مثله، ثم أشفع فيجد لي حدًا فأدخلهم الجنة، ثم أعود الرابعة فأقول: ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود."

هكذا ساق البخاري هذا الحديث هاهنا. وقد رواه مسلم والنسائي من حديث هشام، وهو ابن أبي عبد الله الدستوائي، عن قتادة، به. وأخرجه مسلم والنسائي وابن ماجه من حديث سعيد، وهو ابن أبي عروبة، عن قتادة. [صحيح البخاري برقم (٤٤٧٦)، و صحيح مسلم برقم (١٩٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٢٤٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣١٢)].

(١٢) تفسير السعدي: ٤٨/١.

وفيما عرضه عليهم قولان^(١) :
أحدهما : أنه عرض عليهم الأسماء دون المسميات. قاله قتادة^(٢)، ومجاهد^(٣).
الثاني : أنه عرض عليهم المُسمَّينَ بها. قاله الحسن^(٤)، ومجاهد^(٥)، وقاتدة^(٦)-أيضا-
قال الحسن وقاتدة: "علمه اسم كل شيء : هذه الخيل ، وهذه البغال ، وما أشبه ذلك. وجعل يُسمي كل شيء باسمه ، وعُرِضت عليه أمة أمة"^(٧).
قوله تعالى: {فَقَالَ أُبَيُّونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ} [البقرة: ٣١]، أي: "أخبروني بأسماء هذه المخلوقات التي ترونها"^(٨).
عن الحسن وقاتدة - قالوا: "أُبَيُّونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" أي لم أخلق خلقًا إلا كنتم أعلم منه، فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين"^(٩).

القرآن

{قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} {البقرة : ٣٢}

التفسير:

قالت الملائكة: سبحانك لا علم لنا بوجه من الوجوه إلا ما علمتنا إياه فضلا منك وجودا، إنك أنت العليم في شؤون خلقك، الحكيم في تدبيرك.
قوله تعالى: {قَالُوا سُبْحَانَكَ} [البقرة: ٣٢]، أي: قالت الملائكة: "تنزيها لك"^(١٠).
وذكروا في معنى قوله {سُبْحَانَكَ} [البقرة: ٣٢]، على وجهين:
أحدهما: أنه "اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء". قاله ميمون بن مهران^(١١).
عن النضر بن عربي قال: "سأل رجل ميمون بن مهران عن "سبحان الله". فقال: اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء"^(١٢).
الثاني: أن "سبحان الله" اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه. قاله الحسن^(١٣).
قوله تعالى: {لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا} [البقرة: ٣٢]، أي: "نحن لا علم لنا إلا ما علمتنا إياه"^(١٤).
قال ابن إسحاق: "أي إنما أجبتك فيما علمتنا، فأما ما لم تعلمنا فإنك أعلم به منا"^(١٥).

(١) أنظر: النكت والعيون: ١٠٠/١.

(٢) أنظر: تفسير الطبري(٦٦٤):ص٤٨٧/١. ولفظه: "علمه اسم كل شيء ، ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة".

(٣) أنظر: تفسير الطبري(٦٦٦):ص٤٨٨/١. ولفظه: "يعني عرض الأسماء ، الحمامة والغراب".

(٤) أنظر: تفسير الطبري(٦٦٧):ص٤٨٨/١.

(٥) أنظر: تفسير الطبري(٦٦٥):ص٤٨٨/١. ولفظه: "عرض أصحاب الأسماء على الملائكة".

(٦) أنظر: تفسير الطبري(٦٦٧):ص٤٨٨/١.

(٧) أخرجه الطبري(٦٦٧):ص٤٨٨/١.

(٨) تفسير البغوي: ٨٠/١.

(٩) أخرجه الطبري(٦٧٣):ص٤٩٠/١.

(١٠) تفسير البغوي: ٨٠/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٤):ص٨١/١.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٤):ص٨١/١.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٥):ص٨١/١.

(١٤) صفوة التفاسير: ٤١/١.

(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٦):ص٨١/١.

وقولهم هذا "اعترف من الملائكة أنهم ليسوا يعلمون إلا ما علمهم الله، هذا مع أنهم ملائكة مقرَّبون إلى الله عزَّ وجلَّ"^(١)، فكان في ذلك أوضح الدلالة وأبينُّ الحجة، على كذب مقالة كلِّ من ادعى شيئاً من علوم الغيب من الحُزاة والكهنة والعاقبة والمنجِّمة^(٢).

قوله تعالى: {إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ} [البقرة: ٣٢]، أي: "إنك ذو العلم الواسع الشامل المحيط بالماضي والحاضر، والمستقبل"^(٣).

قال محمد بن إسحاق: " {العليم}، أي: عليم بما تخفون"^(٤).

قوله تعالى: {الْحَكِيمُ} [البقرة: ٣٢]، أي: "إنك أنت الحكيم في أمرك"^(٥).

قال أبو العالية: " {الحكيم}: حكيم في أمره"^(٦).

قال: محمد بن جعفر بن الزبير: " {الحكيم}: الحكيم في عذره وحقته إلى عباده"^(٧).

القرآن

{قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} {البقرة: ٣٣}

التفسير:

قال الله تعالى لآدم: أخبر الملائكة بأسماء هذه المسميات، وعندما أنبأهم باسمائها، تبين للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذه الخليفة، قال تعالى لهم: قلت لكم إني أعلم ما غاب في السماوات والأرض وأعلم ما تظهرون وما تخفون.

قوله تعالى: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ} [البقرة: ٣٣]، أي: قال الله تعالى لآدم: " أعلمهم بالأسماء التي عجزوا عن علمها"^(٨).

عن مجاهد: " {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}: قال: اسم الحمامة والغراب، واسم كل شيء. وروي عن سعيد بن جبير والحسن وقتادة نحو ذلك"^(٩).

قوله تعالى: {فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ} [البقرة: ٣٣]، أي: فلما "أخبرهم بكل الأشياء، وسمَّى كل شيء باسمه"^(١٠).

قال مجاهد: " {فلما أنبأهم}، أنبأ آدم الملائكة بأسمائهم، أسماء أصحاب الأسماء"^(١١).

قوله تعالى: {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [البقرة: ٣٣]، "أي: قال تعالى للملائكة: ألم أنبئكم بأني أعلم ما غاب في السماوات والأرض عنكم"^(١٢).

قال الحسن: " فجعل آدم ينبئهم بأسمائهم ويقول: هذا اسم كذا وكذا من خلق الله، وهذا اسم كذا وكذا فعلم الله آدم من ذلك ما لم يعلموا حتى علموا أنه أعلم منهم. قال: فلما أنبأهم بأسمائهم، قال: {ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض}"^(١).

(١) تفسير ابن عثيمين: ٨١/١.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٤٩٤/١.

(٣) تفسير ابن عثيمين: ١٢١/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٤٧): ص ٨١/١.

(٥) تفسير الثعلبي: ١٧٨/١، وانظر: تفسير البغوي: ٨٠/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٤٨): ص ٨١/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٤٩): ص ٨٢/١.

(٨) صفوة التفاسير: ٤١/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٥١): ص ٨٢/١.

(١٠) صفوة التفاسير: ٤١/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٥٢): ص ٨٢/١.

(١٢) صفوة التفاسير: ٤١/١.

قوله تعالى: {وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة: ٣٣]، أي: وأعلم "ما تظهرون وما كنتم تخفون في أنفسكم" (٢).

وذكروا في تفسير قوله تعالى: {وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة: ٣٣]، وجهين (٣):
أحدهما: ما أسره إبليس من الكبر والعصيان في نفسه، وهذا قول سعيد بن جبير (٤)، والضحاك (٥)،
وعبدالله بن بريده (٦).

الثاني: أن الذي كتموه: ما أضمره في أنفسهم أن الله تعالى لا يخلق خلقاً إلا كانوا أكرم عليه منه، وهو قول الحسن البصري (٧)، وقتادة (٨)، وأبي العالية (٩)، والربيع بن أنس (١٠).
والراجح-والله أعلم- هو القول الأول، أي: الذي كانوا يكتُمونه، ما كان منطويًا عليه إبليس من الخلاف على الله في أمره، والتكبر عن طاعته.

القرآن

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)} [البقرة
: ٣٤]

التفسير:

اذكر إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم وتعظيماً؛ وعبودية لله تعالى، فامتثلوا أمر الله وبادروا كلهم بالسجود، إلا إبليس امتنع عن السجود واستكبر عن أمر الله وعلى آدم، وكان في علم الله تعالى من الكافرين.

قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ} [البقرة: ٣٤]، " واذكر -أيها الرسول- للناس تكريم الله لآدم حين قال سبحانه للملائكة: اسجدوا لآدم إكراماً له وإظهاراً لفضله" (١١).
قال الحسن: "ثم أمرهم أن يسجدوا لآدم فسجدوا له كرامة من الله أكرم بها آدم، وليعلموا أن الله لا يخفى عليه شيء وأنه يصنع ما أراد" (١٢).
عن أبي العالية في قول الله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ}، قال: "لملائكة الذين كانوا في الأرض" (١٣).

عن قتادة، قوله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ}، فكانت الطاعة لله، والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته" (١٤).
قوله تعالى: {فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ} [البقرة: ٣٣]، "أي: فسجدوا جميعاً له غير إبليس امتنع مما أمر به وتكبر عنه" (١٥).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٥٣): ص ٨٢/١.

(٢) انظر: تفسير الثعلبي: ١٧٩/١، وتفسير ابن كثير: ٢٢٨/١.

(٣) أنظر: النكت والعيون: ١٠٠/١.

(٤) أنظر: تفسير الطبري (٦٨٠): ص ٤٩٨/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٥٤): ص ٨٢/١.

(٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٥٥): ص ٨٣/١.

(٧) أخرجه الطبري (٦٨٢): ص ٤٩٩/١.

(٨) أخرجه الطبري (٦٨٣): ص ٤٩٩/١.

(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٥٦): ص ٨٣/١.

(١٠) أخرجه الطبري (٦٨٤): ص ٤٩٩/١-٥٠٠، وتفسير ابن أبي حاتم (٣٥٧): ص ٨٣/١.

(١١) التفسير الميسر: ٦.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٥٩): ص ٨٣/١.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٥٨): ص ٨٣/١.

(١٤) تفسير الطبري (٧٠٧): ص ٥١٢/١.

قال قتادة: "حسد عدو الله إبليس آدم على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا ناري وهذا طيني. فكان بدء الذنوب الكبير، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم"^(٢).
 قوله تعالى: {وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[البقرة: ٣٣]، "أي: صار بإبائه واستكباره من الكافرين حيث استنبح أمر الله بالسجود لآدم"^(٣).
 عن عبد الله بن بريدة، قوله: "{وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}، من الذين أبوا، فأحرقتهم النار"^(٤).
 عن أبي العالية أنه كان يقول: "{وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}، يعني: من العصاة"^(٥). وروي عن الربيع^(٦) مثل ذلك.
 عن السدي: {وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}، قال: من الكافرين الذين لم يخلقهم الله يومئذ، يكونون بعد"^(٧).

وعن الحسن: "انه كان من الكافرين ، وليس قبله كافرا، كما كان من الجن، وليس قبله جن، وكما تقول : كان آدم من الإنس، وليس قبله إنسي"^(٨).
 عن السدي، قال : كان اسم إبليس (الحارث)، وإنما سمي إبليس حين ألبس متحيراً"^(٩).
 وقد اختلفوا هل إبليس من الجن أم من الملائكة، على ثلاثة أقوال:
 القول الأول: أنه كان من الملائكة، فلما عصى الله تعالى أخرجه من صف الملائكة، قاله قتادة^(١٠)،
 ومحمد بن إسحاق^(١١)، وسعيد بن جبير^(١٢)، وسعيد بن المسيب^(١٣) ونسبه ابن عطية والقرطبي والشوكاني إلى الجمهور^(١٤).
 القول الثاني: أنه من الجن. قاله الحسن البصري^(١٥)، وسعد بن مسعود^(١٦)، وشهر بن حوشب^(١٧)،
 ورجحه ابن تيمية والسيوطي والزمخشري وابن كثير والشنقيطي^(١٨).
 القول الثالث: أن إبليس كان أصله من الملائكة فمسخه الله من الجن لما عصاه. وهذا قول قتادة^(١٩)،
 ومحمد بن إسحاق^(١).

(١) انظر: صفوة التفاسير: ٤٣/١، وتفسير ابن عثيمين: ١٢٥/١.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٣٦٤): ص ٨٤/١.

(٣) صفوة التفاسير: ٤٣/١.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٣٦٦): ص ٨٤/١.

(٥) تفسير الطبري (٧٠٥): ص ٥١١/١، وابن أبي حاتم (٣٦٧): ص ٨٥/١.

(٦) أنظر: تفسير الطبري (٧٠٦): ص ٥١١/١.

(٧) تفسير ابن أبي حاتم (٣٦٩): ص ٨٥/١.

(٨) نقلا عن: النكت والعيون: ١٠٣/١.

(٩) تفسير الطبري (٧٠٤): ص ٩٩/١.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري (٦٩٣): ص ٥٠٤/١.

(١١) أنظر: تفسير الطبري (٦٩٥): ص ٥٠٥/١.

(١٢) أنظر: تفسير الطبري (٦٩٢): ص ٥٠٤/١.

(١٣) أنظر: تفسير الطبري (٦٩٢): ص ٥٠٤/١.

(١٤) راجع في ذلك تفاسيرهم عند آية البقرة والكهف. مع كتاب الدر المنثور للسيوطي: ٥٦٥ / ٩.

(١٥) أنظر: تفسير الطبري (٦٩٦)، و(٦٩٧): ص ٥٠٦/١.

(١٦) أنظر: تفسير الطبري (٦٩٩): ص ٥٠٧/١.

(١٧) أنظر: تفسير الطبري (٦٩٨): ص ٥٠٦-٥٠٧.

(١٨) راجع في ذلك تفاسيرهم عند آية البقرة والكهف كما سبق وبضاف إلى هذه المصادر كتاب السيوطي الدر المنثور وتفسير ابن جرير ، أما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد ذكر رأيه في مجموع الفتاوى ٤ / ٣٤٦ وابن عثيمين في كتابه الذي أفرده لسورة الكهف عند آيتها التي تحدثت عن قصة آدم وإبليس وكذا في فتاويه ورقم الفتوى ١٠٨، أما السيوطي فذكر رأيه في (تفسير الجلالين).

(١٩) أنظر: تفسير الطبري (٦٩٣): ص ٥٠٤/١.

والراجح : أن إبليس لم يكن من الملائكة، وهو الصحيح، لقوة أدلته. وهو الذي عليه المحققون من أهل العلم. - والله أعلم.

القرآن

{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)} [البقرة : ٣٥]

التفسير:

وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك حواء - وكان خلقها من ضلعه الأيسر - الجنة وكلا منها أكلاً رغداً واسعاً لاجتر فيه من أصناف الثمار والفواكه، ولا تقربا هذه الشجرة بالأكل منها وهي الحنطة أو الكرم أو غيرهما، فتصيرا من الظالمين العاصين.

قوله تعالى {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [البقرة: ٣٥]، قلنا يا آدم "أسكن في جنة الخلد مع زوجك حواء" (٢).

عن أشعث الحداني: "كانت حواء من نساء الجنة، وكان الولد يرى في بطنها إذا حملت أذكر أم أنثى من صفاتها" (٣).

قوله تعالى: {وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا} [البقرة: ٣٥]، "أي كلا من ثمار الجنة أكلاً رغداً واسعاً" (٤).
ونكروا في "الرغد"، وجهان:

أحدهما : أنه العيش الواسع ، وهذا قول الضحاك (٥).

الثاني : أنه أراد الحلال الذي لا حساب فيه ، وهو قول مجاهد (٦).

قوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: ٣٥]، "أي: ولا تأكلا من هذه الشجرة فتصيروا من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله" (٧).

اختلف أهل التفسير في الشجرة التي تُهيا عنها ، على أقوال :

أحدها : أنها السنبلة. قاله الحسن البصري (٨)، ووهب بن منبه (٩)، وعطية العوفي (١٠)، وأبو مالك (١١)، ومحارب بن دثار (١٢)، وعبد الرحمن بن أبي ليلى (١٣).

وقال وهب بن منبه: "هي البر ولكن الحبة منها في الجنة ككلى البقر، ألين من الزبد، وأحلى من العسل" (١٤).

الثاني أنها الكرم، وهذا قول سعيد بن جبير (١٥)، والشعبي (١٦)، والسدي (١٧)، وجعدة بن هبيرة (١٨).

(١) أنظر: تفسير الطبري (٦٩٥): ص ٥٠٥/١.

(٢) صفوة التفاسير: ٤٣/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٢٧٧): ص ١٤٤٨/٥.

(٤) صفوة التفاسير: ٤٣/١.

(٥) تفسير الطبري (٧١٦): ص ٥١٥/١-٥١٦.

(٦) تفسير الطبري (٧١٣): ص ٥١٥/١.

(٧) صفوة التفاسير: ٤٣/١.

(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٨٦/١.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٨٦/١.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٨٦/١.

(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٨٦/١.

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٨٦/١.

(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٨٦/١.

(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٧٨): ص ٨٦/١.

(١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٨٦/١.

الثالث : أنها الثَّين ، وهذا قول مجاهد^(٤)، وقتادة^(٥)، وابن جريج^(٦)، ويحكيه عن بعض الصحابة .
الرابع : أنها شجرة الخلد التي تأكل منها الملائكة . قاله يعقوب بن عتبة^(٧) .
الخامس: النخلة. قاله أبو مالك^(٨) .

والصواب: أن هذه الشجرة غير معلومة النوع، وأنه لا علم عندنا أي شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يَضَع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن، ولا في السنة الصحيحة^(٩)، فتبقى على إبهامها. والله أعلم.

قال وهب بن منبه: "لما أسكن الله آدم وزوجه الجنة نهاه عن الشجرة، وكانت شجرة غصونها متشعب بعضها في بعض، وكان لها ثمر يأكله الملائكة لخدمهم، وهي الثمرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته"^(١٠) .

قال أبو العالية: "كانت الشجرة من أكل منها أحدث، ولا ينبغي أن يكون في الجنة حدث"^(١١) .

قال سعيد بن المسيب: "ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل، ولكن حواء سقته الخمر، حتى إذا سكر قادته إليها فأكل"^(١٢) .

القرآن

{فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقَلْنَا اهْبُطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦)} [البقرة : ٣٦]

التفسير:

فأوقعهما الشيطان في الخطيئة: بأن وسوس لهما حتى أكلا من الشجرة، فتسبب في إخراجهما من الجنة ونعيمها، وقال الله لهما: اهبطوا إلى الأرض بما اشتعلتما عليه من ذريتكما بعضكم لبعض عدوٌّ من ظلم بعضكم بعضاً، ولكم في الأرض موضع قرار ومتاع ما تتمتعون به من نباتها إلى حين وقت انقضاء آجالكم.

قوله {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا} [البقرة: ٣٦]، أي: دعاهما إلى الزلّة^(١٣)، فزحزحهما^(١) عن القصد المستقيم، بتزيينه ووسوسته وإغوائه^(٢).

-
- (١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٨٦/١.
 - (٢) انظر: تفسير الطبري (٧٣١): ص ٥١٩/١.
 - (٣) انظر: تفسير الطبري (٧٣٣): ص ٥١٩/١.
 - (٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٧٩): ص ٨٦/١.
 - (٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ص ٨٦/١.
 - (٦) انظر: تفسير الطبري (٧٤٠): ص ٥٢٠/١.
 - (٧) انظر: تفسير الطبري (٧٢٧): ص ٥١٨/١.
 - (٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٨٠): ص ٨٦/١.
 - (٩) انظر: تفسير الطبري: ٥٢٠/١-٥٢١.
 - (١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٨٢): ص ٨٦/١.
 - (١١) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٨١): ص ٨٦/١.
 - (١٢) أخرجه الطبري (٧٤٩): ٥٣٠/١.
 - (١٣) الزلّة: الخطيئة، وهي في أصل اللغة: عثور القدم، انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٤/٣، والمفردات للراغب: ٢١٤، والمحزر الوجيز لابن عطية: ١٨٦/١، والبحر المحيط لأبي حيان: ١٥٩/١، وقد جاءت آيات أخرى تبين كيفية دعاء الشيطان الأبوين إلى ذلك، منها قوله- عز وجل-: {فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} [الأعراف: ٢٠-٢١]، وقوله- عز وجل-: {قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى}

عن الحسن: {فأزلهما}، قال: من قبل الزلزل^(٣). وروي عن قتادة مثل ذلك^(٤).
 عن عاصم بن بهدلة: "فأزلهما"، قال: فنحاهما^(٥).
 عن عكرمة قال: "إنما سمي الشيطان، لأنه تشيطن"^(٦).
 واختلفوا، هل خلص إليهما الشيطان حتى باشرهما بالكلام وشافهما بالخطاب أم لا ؟
 فذكروا قولين:

أحدهما: أن الشيطان خلص إليهما. قاله وهب بن منبه^(٧)، وأبو العالية^(٨)، وأكثر المفسرين.
 واستدلوا بقوله تعالى: {وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} [الأعراف: ٢١].
 الثاني: أنه لم يخلص إليهما، وإنما أوقع الشهوة في أنفسهما، ووسوس لهما من غير مشاهدة، لقوله
 تعالى: {فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ} [الأعراف: ٢٠]، وهو قول محمد بن إسحاق^(٩).
 والقول الأول أظهر وأشهر. والله تعالى أعلم.
 قوله تعالى: {وَقَلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} [البقرة: ٣٦]، "أي اهبطوا من الجنة إلى
 الأرض والخطاب لأدم وحواء وإبليس متعادين يبغى بعضكم على بعض بتضليله"^(١٠).
 وذكر ابن أبي حاتم أخبارا حول مكان هبوطهم في الأرض^(١١). وهي روايات لا اعلم
 درجة صحتها، وقد قال ابن كثير: "لو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود علي المكلفين، في أمر
 دينهم أو دنياهم، لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله صلى الله عليه وسلم، وإن هذه الأخبار من
 الإسرائيليات"^(١٢).

[طه: ١٢٠]. ولفظ ابن حجر هنا نص كلام البيهقي في معالم التنزيل: ٨٣/١ وهو من موارد الفتح-كما في موارد
 ابن حجر العسقلاني في علوم القرآن من خلال كتابه فتح الباري لمحمد أنور صاحب: ٢٣٠-٢٣١، وانظر: جامع
 البيان للطبري: ٥٢٤/١، والوسيط للواحدي: ١٢٢/١، وتيسير المنان تفسير القرآن للكوكباني: ٨٨٣/٢-٨٨٤،
 والتحرير والتنوير لابن عاشور: ٤٣٣/١. و{فأزلهما} في الآية تحتل معنيين: أ-بمعنى استزلهما، أي: دعاهما إلى
 الزلة مزيئا لهما الخطيئة حتى وقعا فيها، وقال به كثير من المفسرين وهو قول الحافظ هنا، انظر: مجاز القرآن لأبي
 عبيدة: ٣٨/١، وغريب القرآن لليزيدي: ٦٨، وجامع البيان للطبري: ٥٢٤/١ وغيرها. ب-من زل عن المكان إذا
 تنحى عنه ولم يثبت فيه، والمعنى: ناهما عن الجنة وأبعدهما عنها بسبب خطيئتهما بالأكل من الشجرة، والشيطان
 لا يستطيع تحية العبد وزحزحته وإنما يقدر على الوسوسة التي هي سبب التنحية، وذلك مجاز كما في البحر المحيط
 لأبي حيان: ٥٩/١، والدر المصون للسمين: ١٩٣/١، وغيرهما. وانظر: القولين في: شرح الهداية للمهدي:
 ١٦٣/١، الحجة في علل القراءات السبع للفارسي: ١٣/٢-١٤، الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي بن أبي
 طالب: ٢٣٦/١، الدر المصون للسمين الحلبي: ١٩٢/١-١٩٣، وغيرها.
 (١) انظر: معاني القرآن للزجاج: ١١٥/١، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي: ٣٢.
 (٢) أي: الطاعة-وهو في حق الأبوين ترك ارتكاب المحظور-والتي كانا بسببها متنعمين في الجنة فأخرجهما إبليس
 منها بتزيينه لهما الأكل من الشجرة التي ناهما الله تعالى عن الأكل منها.
 (٣) تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٤):ص٨٧/١.
 (٤) تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٥):ص٨٧/١.
 (٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٣):٨٧/١.
 (٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٧): ٨٧/١.
 (٧) أنظر: تفسير الطبري(٧٤٢):ص٥٢٦-٥٢٥/١.
 (٨) تفسير الطبري(٧٤٥):ص٥٢٧/١.
 (٩) تفسير الطبري(٧٤٦)، و(٧٤٧):ص٥٢٨-٥٢٩.
 (١٠) صفة التفاسير: ٤٤/١، وانظر: تفسير البيهقي: ٨٤/١، وتفسير المراعي: ٨٧/١.
 (١١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٨٨/١-٨٩. من تلك الأماكن: الصفا والمروة، أرض هند، بين مكة وطائف... الخ.
 (١٢) أنظر: تفسيره: ٣٩٥/٣.

قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ} [البقرة: ٣٦]، "أي لكم في الدنيا موضع استقرار بالإقامة فيها وتمتع بنعيمها إلى وقت انقضاء آجالكم"^(١).
 واختلف في قوله تعالى: {إِلَىٰ حِينٍ} [البقرة: ٣٦]، على وجوه:
 أحدها: إلى الموت، وهذا قول من يقول المستقر هو المقام في الدنيا. قاله السدي^(٢).
 والثاني: إلى قيام الساعة، وهذا قول من يقول المستقر هو القبور. قاله مجاهد^(٣).
 والثالث: إلى أجل. قاله الربيع^(٤).

القرآن

{فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)} [البقرة : ٣٧]

التفسير:

استقبل آدم دعوات من ربه وألهمه إياها، وهي قوله تعالى: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [سورة الأعراف : ٢٣]، فدعاه بها، فتاب الله عليه، وغفر له ذنبه إنه تعالى هو التواب لمن تاب من عباده، الرحيم بهم.
 قوله تعالى: {فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ} [البقرة: ٣٧]، "أي استقبل آدم دعوات من ربه ألهمه إياها فدعاه بها"^(٥).

واختلف في الكلمات التي تلقاها آدم من ربه، على أقوال:

أحدها: قوله {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف : ٢٣] وهذا قول قتادة^(٦)، ومجاهد^(٧).

الثاني: قول آدم: اللهم لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، ربّ إني ظلمت نفسي، فاغفر لي، إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، إني ظلمت نفسي، فتاب عليّ، إنك أنت التواب الرحيم، وهذا قول مجاهد^(٨)، وعبدالرحمن بن يزيد بن معاوية^(٩).

الثالث: أن آدم قال لربه إذ عصاه: ربّ أرايت إن تبت وأصلحت؟ فقال ربه: إني راجعك إلى الجنة، وكانت هي الكلمات التي تلقاها من ربه، وهذا قول قتادة^(١٠)، وأبي العالية^(١١)، والسدي^(١٢).

الرابع: أن آدم قال لربه إذ عصاه: يا رب، خطيئتي التي أخطأتها، شيء كتبتة علي قبل أن تخلقني، أو شيء ابتدئته من قبل نفسي؟ قال: بلى، شيء كتبتة عليك قبل أن أخلقك. قال: فكما كتبتة عليّ فاغفره لي. قاله عبيد بن عمير^(١٣).

وهذه الأقوال وإن كانت مختلفة الألفاظ، فإن معانيها متفقة في أن الله جل ثناؤه لقي آدم كلمات، فتلقاها من ربه فقبلهن وعمل بهن، وتاب بقبله إياهن وعمله بهن إلى الله من خطيئته

(١) صفوة التفسير: ٤٤/١.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٤٠٢): ص ٩٠/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٧٧٢): ص ٥٤٠/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٧٧٣): ص ٥٤٠/١.

(٥) صفوة التفسير: ٤٤/١.

(٦) انظر: تفسير الطبري (٧٩١): ص ٥٤٦/١.

(٧) انظر: تفسير الطبري (٧٨٧): ص ٥٤٥/١.

(٨) انظر: تفسير الطبري (٧٨٨): ص ٥٤٥/١.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٧٨٦): ص ٥٤٤-٥٤٥/١.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٧٧٨): ص ٥٤٣/١.

(١١) انظر: تفسير الطبري (٧٧٩): ص ٥٤٣/١.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (٧٨٠): ص ٥٤٣/١.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (٧٨١)، و(٧٨٢)، و(٧٨٣)، و(٧٨٤) و(٧٨٥): ص ٥٤٤/١.

(١)، والراجح هو قوله تعالى: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف : ٢٣]، وهو قول عامة أهل العلم مثل ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير والضحاك ومجاهد^(٢).

قوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ٣٧]، "أي إن الله كثير القبول للتوبة، واسع الرحمة للعباد"^(٣).

قال محمد بن إسحاق: {الرحيم}: يرحم العباد على ما فيهم^(٤).
وقال سعيد بن جبير: "رحيم بهم بعد التوبة"^(٥).

القرآن

{قُلْنَا اهْبُطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة : ٣٨]

التفسير:

قال الله لهم: اهبطوا من الجنة جميعاً، وسيأتيتكم أنتم وذررياتكم المتعاقبة ما فيه هدايتكم إلى الحق، فمن عمل بها فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا.

قوله تعالى: {قُلْنَا اهْبُطُوا مِنْهَا جَمِيعًا} [البقرة: ٣٨]، أي: قال الله لهم " اهبطوا من الجنة إلى الأرض"^(٦).

عن أبي صالح مولى أم هانئ، قال: "يعني: آدم وحواء والحية"^(٧). روي عن السدي نحو ذلك- وزاد فيه إبليس^(٨).

قال السدي: " فهبطوا فنزل آدم بالهند. وأنزل معه بالحجر الأسود، وأنزل بقبضة من ورق الجنة فبثه بالهند فنبت شجر الطيب. فإنما أصل ما يجاء به من الهند من الطيب- من قبضة الورق التي هبط بها آدم، وإنما قبضها آدم حين أخرج من الجنة أسفا على الجنة حين أخرج منها"^(٩).

قوله تعالى: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى} [البقرة : ٣٨]، "أي: فإن يأتيكم مني شريعة ورسول وبيان ودعوة"^(١٠).

قال أبو العالية: " الهدى: الأنبياء والرسول، والبيان"^(١١).

قال الحسن: " الهدى: القرآن"^(١٢).

قوله تعالى: {فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ} [البقرة : ٣٨]، أي: "فمن عمل بها"^(١٣).

قال أبو خالد: " {فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ}، يعني: كتابي"^(١).

(١) انظر: تفسير الطبري: ٥٤٢/١ وما بعدها.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٢٤/١.

(٣) صفوة التفاسير: ٤٤/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٤١٤): ص ٩٢/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٤١٥): ص ٩٢/١.

(٦) صفوة التفاسير: ٤٤/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٤١٦): ص ٩١/١.

(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٩٢/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٤١٨): ص ٩٢/١.

(١٠) التفسير البسيط: ٤١٦/٢.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤١٩): ص ٩٣/١.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٢١): ص ٩٣/١.

(١٣) التفسير الميسر: ٧.

قوله تعالى: {قَلَّا خَوْفٌ عَلَيْنَهُمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة : ٣٨]، "أي لا ينالهم خوف ولا حزن في الآخرة"^(٢).

قال سعيد بن جبير: "لا خوف عليهم، يعني: في الآخرة"^(٣). وعنه كذلك: "ولا هم يحزنون"، يعني: لا يحزنون للموت"^(٤).

القرآن

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (٣٩) [البقرة : ٣٩]
التفسير:

والذين جحدوا وكذبوا بآياتنا المتلوة ودلائل توحيدنا، أولئك الذين يلزمون النار، هم فيها ماكثون أبداً لا يفنون ولا يخرجون.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [البقرة: ٤٠]، الذين كفروا بالله، فاستكبروا عن طاعته، ولم ينفقوا لها، وكذبوا "بالكتاب والرسول"^(٥).

قال قتادة: {والذين كفروا}، "المشركون من قريش"^(٦).

وفي تفسير قوله تعالى: {بِآيَاتِنَا} [البقرة : ٣٩]، قولان:

أحدهما: أن "آيات الله فمحمد صلى الله عليه وسلم". قاله السدي^(٧).

الثاني: أنها القرآن. قاله سعيد بن جبير^(٨).

قوله تعالى: {وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ} [البقرة : ٣٩]، "أي: الملازمون لها، ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه"^(٩).

عن أبي مالك: "{أَصْحَابُ النَّارِ}: يعذبون فيها"^(١٠).

قوله تعالى: {هُم فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة : ٣٩]، أي: "لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون"^(١١).

قال سعيد بن جبير: "يعني: لا يموتون"^(١٢).

القرآن

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} (٤٠) [البقرة : ٤٠]

التفسير:

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٢٤): ص ٩٣/١.

(٢) صفوة التفاسير: ٤٤/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٢٥): ص ٩٣/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٢٦): ص ٩٣/١.

(٥) تفسير ابن عثيمين: ١/١٤١، ومحاسن التأويل: ٢٩٥/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٢٧): ص ٩٤/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٢٨): ص ٩٤/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٢٩): ص ٩٤/١.

(٩) تفسير السعدي: ٥٠.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٣٠): ص ٩٤/١.

(١١) تفسير السعدي: ٥٠.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٩٠٤): ص ٥٤٧/٢.

يا ذرية يعقوب اذكروا نعمي الكثيرة عليكم^(١)، واشكروا لي، وأتموا وصيتي لكم: بأن تؤمنوا بكتبي ورسلي جميعاً، وتعملوا بشرائعي، فإن فعلتم ذلك أتمم لكم ما وعدتكم به من الرحمة في الدنيا، والنجاة في الآخرة، وإيائي - وحدي - فخافوني، واحذروا نعمتي إن نقضتم العهد، وكفرتكم بي. قوله تعالى: {بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم} [البقرة: ٤٠]، أي: "يا أولاد إسرائيل اذكروا ما أنعمت به عليكم وعلى آبائكم"^(٢).

قال أبو العالية: "نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل وأنزل عليهم الكتب"^(٣). قال مجاهد: "فنعمة الله التي أنعم بها على بني إسرائيل فيما سمى وفيما سوى ذلك، فجر لهم الحجر وأنزل عليهم المن والسلوى وأنجاهم من عبودية آل فرعون"^(٤). قوله تعالى: {وَأَوْفُوا بعهدي} [البقرة: ٤٠]، "أي أدوا ما عاهدتموني عليه"^(٥). قال أبو العالية: "عهدته إلى عبادة دينه الإسلام أن يتبعوه"^(٦). .. وروي عن الضحاك، وقتادة والسدي، والربيع نحو ذلك^(٧). قوله تعالى: {وإيائي فارهبون} [البقرة: ٤٠]، "أي لا ترهبوا إلا إيائي"^(٨). قال أبو العالية: "وإيائي فارهبون"، فاحشون"^(٩). وكذا روي عن السدي والربيع ابن أنس وقتادة^(١٠).

القرآن

{وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ} ((٤١)) [البقرة: ٤١]

التفسير:

وأمنوا- يا بني إسرائيل- بالقرآن الذي أنزلته على محمد نبي الله ورسوله، موافقاً لما تعلمونه من صحيح التوراة، ولا تكونوا أول فريق من أهل الكتاب يكفر به، ولا تستبدلوا آياتي ثمناً قليلاً من حطام الدنيا الزائل، وإيائي وحدي خافوني في ذلك فاعملوا بطاعتي واتركوا معصيتي. سبب النزول:

قال أبو سنان: "أنزلت في يهود يثرب"^(١١). قوله تعالى: {وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ} [البقرة: ٤١]، أي: وصدقوا بالذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن موافقاً لما تعلمونه من صحيح التوراة^(١).

(١) قال الإمام الطبري: "ونعمته التي أنعم بها على بني إسرائيل جلّ ذكره ، اصطفاؤه منهم الرسل ، وإنزاله عليهم الكتب ، واستنقاذه إياهم مما كانوا فيه من البلاء والضرّاء من فرعون وقومه ، إلى التمكين لهم في الأرض ، وتفجير عيون الماء من الحجر ، وإطعام المن والسلوى. فأمر جل ثناؤه أعقابهم أن يكون ما سلف منه إلى آبائهم على دُكر ، وأن لا ينسوا صنيعه إلى أسلافهم وآبائهم ، فيحلّ بهم من النقم ما أحلّ بمن نسي نعمه عنده منهم وكفرها ، وجدد صنائعه عنده" (انظر تفسيره: ٥٥٥/١).

(٢) صفوة التفاسير: ٤٦/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٣٥): ص ٩٥/١، والطبري (٨٠٣): ص ٥٥٥-٥٥٦.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٣٦): ص ٩٥/١.

(٥) صفوة التفاسير: ٤٦/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٣٩): ص ٩٥/١.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٩٥/١.

(٨) تفسير ابن عثيمين: ١٤٣/١.

(٩) تفسير ابن أبي حاتم (٤٤٣): ص ٩٦/١.

(١٠) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٩٦/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٤٨): ص ٩٧/١.

قال مجاهد: "بما أنزلت"، القرآن^(٢). {مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ}: "الإنجيل"^(٣).
قال ابو العالية: يقول: "يا معشر أهل الكتاب، آمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم، يقول: لأنهم
يجدون محمدا مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل"^(٤). وروي عن الربيع بن أنس، وقتادة، نحو
ذلك^(٥).

قوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ} [البقرة: ٤١]، "أي أول من كفر به"^(٦).
وقال أبو العالية: "لا تكونوا أول من كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم"^(٧). وروي عن
الحسن والسدي والربيع بن أنس نحو ذلك^(٨).
قوله تعالى: {وَلَا تَسْتُرُوا بِآيَاتِي} [البقرة: ٤١]، "أي لا تستبدلوا بآياتي البيئات التي أنزلتها
عليكم"^(٩).

قال سعيد بن جبیر: "إن آياته: كتابه، الذي أنزل إليهم"^(١٠).
قال السدي: "يقول: لا تأخذوا طمعا قليلا وتكتموا اسم الله، فذلك الطمع وهو الثمن"^(١١).
قوله تعالى: {ثُمَّ قَلِيلًا} [البقرة: ٤١]، أي: "شيئا يسيرا"^(١٢).
قال سعيد بن جبیر: "إن الثمن القليل، هو الدنيا وشهواتها"^(١٣).
قال الحسن: "الثمن القليل: الدنيا بحذافيرها"^(١٤).
قال ابو العالية: "يقول: لا تأخذوا عليه أجرا، قال: وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول: يا
ابن آدم، علم مجانا كما علمت مجانا"^(١٥).

قال أهل العلم: "ثُمَّ قَلِيلًا"، وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل، التي يتوهمون
انقطاعها، إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله واستحبوها، وأثروها"^(١٦).
قوله تعالى: {وَأَيَّايَ فَاتَّقُونَ} [البقرة: ٤١]، "أي لا تتقوا إلا إياي"^(١٧).
قال طلق بن حبيب: "التقوى، أن يعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله،
والتقوى أن يترك معصية الله مخافة عذاب الله على نور من الله"^(١٨).

القرآن

- (١) أنظر: تفسير الطبري: ٥٦٠/١، وتفسير ابن كثير: ٢٤٢/١.
- (٢) تفسير ابن أبي حاتم (٤٤٥): ص ٩٧/١.
- (٣) تفسير ابن أبي حاتم (٤٤٥): ص ٩٧/١.
- (٤) تفسير ابن أبي حاتم (٤٤٤): ص ٩٦/١.
- (٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٩٧/١.
- (٦) تفسير النسفي: ٦١/١.
- (٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٤٧): ص ٩٧/١.
- (٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٩٧/١.
- (٩) صفوة التفاسير: ٤٦/١.
- (١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٥٠): ص ٩٧/١.
- (١١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٥١): ص ٩٧/١.
- (١٢) تفسير الثعلبي: ١٨٧/١.
- (١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٥٠): ص ٩٧/١.
- (١٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٥٢): ص ٩٨/١.
- (١٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٤٩): ص ٩٧/١.
- (١٦) تفسير السعدي: ٥٠.
- (١٧) تفسير ابن عثيمين: ١٤٨/١.
- (١٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٥٣): ص ٩٨/١.

{وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ (٤٢)} [البقرة : ٤٢]

التفسير:

ولا تخلطوا الحق الذي بيّنته لكم بالباطل الذي افتريته، واحذروا كتمان الحق الصريح من صفة نبي الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم التي في كتبكم، وأنتم تعلمون أنه الحق وتجدونها مكتوبة عندهم، فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم.

قوله تعالى {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ} [البقرة: ٤٢]، "أي لا تخلطوا الحق المنزل من الله بالباطل الذي تخترعونه"^(١).

وفي قوله: {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ} [البقرة: ٤٢]، وجهان من التفسير:

أحدهما: لا تخلطوا الحق بالباطل. وهذا قول أبي العالية^(٢)، سعيد بن جبير^(٣)، والربيع بن أنس^(٤). قال أبو العالية: "ولا تخلطوا الحق بالباطل، وأدوا النصيحة لعباد الله في أمر محمد- صلى الله عليه وسلم"^(٥). وروي عن سعيد بن جبير والربيع بن أنس نحو ذلك^(٦).

الثاني: اليهودية والنصرانية بالإسلام، وهو قول الحسن^(٧)، ومجاهد^(٨)، وقتادة^(٩).

قال قتادة: "لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام، إن دين الله الإسلام واليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله"^(١٠). وروي عن الحسن نحوه^(١١).

و"اللبس": هو الخط، لبست عليه الأمر ألبسه، إذا مزجت بينه بمشكلة وحقه بباطله قال الله تعالى {وَلَلْبِئْسَ مَا يَلْبِسُونَ} [الأنعام : ٩]^(١٢)، ومنه ومنه قول العجاج^(١٣):

لَمَّا لَبَسْنَا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ... غَنِينٌ وَأَسْتَبْدَلْنَا زَيْدًا مَنِيَّ
فقوله (لبسنا) أي: خلطنا.

ومن ذلك قول الخنساء^(١٤):

ترى الجليس يقول الحق تحسبه ... رشدا وهيئات فانظر ما به التيسا

صدق مقالته واحذر عداوته ... واليس عليه أمورا مثل ما ليسا

قوله تعالى: {وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ} [البقرة: ٤٢]، أي: "ولا تكتموا الحق الذي تعرفونه"^(١٥).

قال أبو العالية: "كتموا نعت محمد وهم يجدونه مكتوبا عندهم"^(١٦).

وفي "الحق" الذي كتموه، وجهان:

(١) صفوة التفاسير: ٤٦/١.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٤٥٤): ص ٩٨/١.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٩٨/١٠.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٩٨/١٠.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٥٤): ص ٩٨/١.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٩٨/١٠.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٩٨/١٠.

(٨) أنظر: تفسير الطبري (٨٢٥): ص ٥٦٨/١.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٤٥٥): ص ٩٨/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٥٥): ص ٩٨/١.

(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٩٨/١٠.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٥٦٧/١، وتفسير ابن القرطبي: ٣٤٠/١.

(١٣) ديوانه: ٦٥. غني عن الشيء واستغنى: طرحه ورمى به من عينه ولم يلتفت إليه.

(١٤) البيهقي ذكرهما القرطبي في تفسيره: ٣٤٠/١.

(١٥) تفسير المراغي: ٩٧/١.

(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٥٦): ص ٩٨/١، والطبري (٨٢٩): ص ٥٧٠/١.

أحدها: أنه أمر محمد-صلى الله عليه وسلم-. قاله مجاهد^(١)، والسدي^(٢)، وأبو العالية^(٣)، وروي عن الربيع بن أنس^(٤)، مثل ذلك.

قال السدي: "الحق هو محمد-صلى الله عليه وسلم"^(٥).

الثاني: أنه الإسلام. قاله الحسن^(٦)، وقتادة^(٧).

قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٤٢]، أي: "والحال أنكم تعلمون صنيعكم"^(٨). قال قتادة: "وهم يعلمون أنه رسول الله، وكنتموا الإسلام وهم يعلمون أنه دين الله"^(٩).

القرآن

{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكُعُوا مَعَ الرَّكَّاعِينَ (٤٣)} [البقرة: ٤٣]

التفسير:

وإدخلوا في دين الإسلام: بأن تقيموا الصلاة على الوجه الصحيح، كما جاء بها نبي الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وتؤدوا الزكاة المفروضة على الوجه المشروع، وتصلوا مع المصلين من أمته صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} [البقرة: ٤٣]، "أي: اتوا بها مستقيمة بشروطها، وأركانها، وواجباتها، ومكملاتها"^(١٠).

عن قتادة، في قوله: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}، قال: فريضتان واجبتان، فأدوهما إلى الله"^(١١).

قال الحسن: "فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها وبالزكاة"^(١٢). وروي عن عطاء بن أبي رباح وقتادة نحو ذلك^(١٣).

قال الزهري: "إقامتها أن تصلي الصلوات الخمس لوقتها"^(١٤).

و"إقامة الصلاة": "أداؤها - بحدودها وفروضها والواجب فيها - على ما فرضت عليه، كما يقال: أقام القوم سوقهم، إذا لم يعطوها من البيع والشراء فيها"^(١٥)، وكما قال الشاعر^(١٦):

أَقَمْنَا لِأَهْلِ الْعِرَاقِ بِنِ سُوْقٍ أَلْ ... ضَرَّابٍ فَخَامُوا وَوَلُّوا جَمِيعًا

قوله تعالى: {وَأَتُوا الزَّكَاةَ} [البقرة: ٤٣]، "يعني: وأدوا زكاة أموالكم المفروضة"^(١٧).

(١) أنظر: تفسير الطبري (٨٣٤): ص ٥٧١/١.

(٢) أنظر: تفسير الطبري (٨٣٦): ص ٥٧١/١، وابن أبي حاتم (٤٥٨): ص ٩٩/١.

(٣) أنظر: تفسير الطبري (٨٣٧): ص ٥٧١/١-٥٧٢.

(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٩٩/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٥٨): ص ٩٨/١، والطبري (٨٢٩): ص ٥٧٠/١.

(٦) نقلًا عن: البحر المحيط: ١٥١/١.

(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٤٦٠): ص ٩٩/١. ولفظه: "وكنتموا الإسلام وهم يعلمون أنه دين الله".

(٨) تفسير ابن عثيمين: ١٥٢/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٦٠): ص ٩٩/١.

(١٠) تفسير ابن عثيمين: ١٥٦/١.

(١١) تفسير الطبري (٨٣٩): ص ٥٧٢/١.

(١٢) تفسير ابن أبي حاتم (٤٦١): ص ٩٩/١.

(١٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ص ٩٩/١.

(١٤) تفسير ابن أبي حاتم (٤٦٢): ص ٩٩/١.

(١٥) تفسير الطبري: ٢٤١/١.

(١٦) البيت ذكره الطبري ولم أتعرف على قائله. انظر: تفسير الطبري: ٢٤١/١.

(١٧) تفسير الثعلبي: ١٨٨/١.

وفي قوله تعالى {وَأَتُوا الزَّكَاةَ} [البقرة : ٤٣]، وجهان: أحدهما: أن المراد: هو أداء الصدقة المفروضة. قاله الحسن^(١)، وقتادة^(٢)، وعكرمة^(٣)، وهو الصحيح.

قال الحسن: " فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها مع الصلاة"^(٤). وروي عن قتادة مثله^(٥).

قال عكرمة: " زكاة المال من كل مائتي درهم قفلة خمسة دراهم"^(٦).
الثاني: أن المراد: صدقة الفطر. قاله الحارث العكلي^(٧).

والراجح- والله أعلم- هو القول الأول -والله أعلم-.

قوله تعالى: {وَأَرْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} [البقرة: ٤٣]، " أي صلوا مع المصلين"^(٨).
روي عن مجاهد في قوله تعالى: {واركعوا}، قال: "صلوا"^(٩).

القرآن

{تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة : ٤٤]
التفسير:

كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير، وتتركوا أنفسكم فلا تأمروا بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامر الله.

سبب النزول:

قال قتادة: " كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبر، ويخالفون، فغيرهم الله"^(١٠). وروي عن السدي^(١١)، وابن جريج^(١٢)، نحو ذلك.

قوله تعالى: {تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ} [البقرة: ٤٤]، أي: " تأمرون الناس بطاعة الله وتتركون أنفسكم والحال أنكم تتلون التوراة"^(١٣).

قال السدي: " كانوا يأمرون الناس بطاعته، وهم يعصونه"^(١٤). وروي قتادة^(١٥)، وابن جريج^(١٦) نحوه.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٦٧): ص ١٠٠/١.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ص ١٠٠/١.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ص ١٠٠/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٦٧): ص ١٠٠/١.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ص ١٠٠/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٦٦): ص ١٠٠/١.

(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٤٦٨): ص ١٠٠/١.

(٨) تفسير ابن عثيمين: ١٥٦/١. قال ابن عثيمين: " وإنما قلنا ذلك، لأنه لا يُتعبد لله بركوع مجرد".

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٧٠): ص ١٠٠/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٧٧): ص ١٠١/١، والطبري (٨٤٣): ص ٨/٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري (٨٤٢): ص ٨/٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (٨٤٤): ص ٨/٢.

(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٩/٢، وفتح القدير: ٧٧/١. [بتصرف]

(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٧٨): ص ١٠١/١.

(١٥) انظر: تفسير الطبري (٨٤٣): ص ٨/٢.

(١٦) انظر: تفسير الطبري (٨٤٤): ص ٨/٢.

قوله تعالى: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة ٤٤]، " يعني: أفلا يكون لكم عقول تدركون بها خطاكم، وضلالكم؟! " (١).

قال زيد بن أسلم: " أفلا تتفكرون " (٢).

والعقل: "يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيدة الإنسان بتلك القوة عقلٌ. وإلى الأول أشار صلى الله عليه وسلم بقوله: «ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل» (٣)، وإلى الثاني أشار بقوله: «ما كسب أحد شيئاً أفضل من عقل يهديه إلى هدى أو يرده عن ردى» (٤)، وهذا العقل هو المعنى بقوله: وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ [العنكبوت: ٤٣] ، وكلّ موضع ذمّ الله فيه الكفار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأول، نحو: وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِ{البقرة: ١٧١}، إلى قوله: {صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فُهْمٌ لَا يَعْقِلُونَ} [البقرة: ١٧١]، ونحو ذلك من الآيات، وكلّ موضع رفع فيه التكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إلى الأول. وأصل العقل: الإمساك والاستمساك" (٥).

والعقل أصله: المنع (٦)، وعقل الإنسان هو "تميزه الذي به فارق جميع الحيوان، سمي عقلاً لأنه يعقله أي يمنعه عن التورط في الهلكة، كما يعقل العقال البعير عن ركوب رأسه، ومن هذا سميت الدية عقلاً لأنها إذا وصلت إلى ولي المقتول عقلته عن قتل الجاني، أي منعت" (٧).

القرآن

{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: ٤٥]

التفسير:

واستعينوا في أموركم كلها بالصبر، وكذلك الصلاة، وإنها لشاقة ثقيلة إلا على الخاشعين الذليلين لأمر الله.

قوله تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} [البقرة: ٤٥]، "أي: استعينوا على أموركم بالصبر، والصلاة" (٨).

قال ابن جريج: "إنهما معونتان على رحمة الله" (٩).

وفي الصبر المأمور به ، قولان:

أحدهما : أنه الصبرُ على طاعته ومرضاته، والكف عن معصيته. قاله أبو العالية (١٠).

(١) تفسير ابن عثيمين: ١٥٨/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٧٤): ص ١٠١/١.

(٣) الحديث عن أبي هريرة عن النبي قال: «إن الله لما خلق العقل قال له: أقبِلْ. فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أشرف منك، فبك أخذ وبك أعطي» .

قال ابن تيمية: إنه كذب موضوع باتفاق، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط وأبو نعيم بإسنادين ضعيفين. انظر: الإحياء مع تخريجه ٨٣ / ١، وحلية الأولياء ٣١٨ / ٧، وكشف الخفاء ٢٣٦ / ١.

(٤) الحديث عن عمر قال: قال رسول الله: «ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى، ويرده عن ردى، وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله» ا. هـ. قال العراقي: أخرجه ابن المحبّر في العقل، وعنه الحارث بن أبي أسامة. انظر: الإحياء ٨٣ / ١. قلت: داود بن المحبّر كذاب، وقال ابن حجر: وأكثر (كتاب العقل) الذي صنّفه موضوعات. مات سنة ٢٠٦ هـ. انظر: تقريب التهذيب ص ٢٠٠.

(٥) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ٥٧٧-٥٧٨.

(٦) أنظر: مقاييس اللغة: ٦٩/٤.

(٧) التفسير البسيط: ٤٥٠/٢، وانظر: "تهذيب اللغة" (عقل) ١ / ٢٥٢٤، وانظر: "اللسان" (عقل) ٥ / ٣٠٤٧.

(٨) تفسير ابن عثيمين: ١٦٠/١.

(٩) أخرجه الطبري (٨٥٤): ص ١٥/٢.

عن أبي العالية: "استعينوا بالصبر والصلاة على مرضاة الله، واعلموا أنها من طاعة الله" (٢).

عن محمد بن طلحة الأسدي: "استعينوا بالصبر على الصيام" (٣).
الثاني: أنه الصوم، وهو قول مجاهد (٤)، وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا حَزَبَهُ أمرٌ استعان بالصلاة والصيام (٥).

قال مجاهد: "الصبر: الصيام" (٦).

قال سعيد بن جبير: "الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب فيه، واحتسابه عند الله، ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر" (٧).

وقال ابن أبي حاتم: "سمعت أبا بكر حبش بن الورد البغدادي بمكة وسأل أصحابه عن الصبر ما هو؟ فقال بعضهم: هو الصلاة ونزعوا بقول الله: واستعينوا بالصبر والصلاة فقال: قد ميز الله بينهما، فقال: استعينوا بالصبر والصلاة فلم يجعله صلاة، وقال: جعلهما شيئين وقال بعضهم: الصبر هو الصيام. وقال بعضهم: الصبر أن يصبر على الشيء. فقال: ما معنى يصبر؟ فلم يرض جواب أحد. وسأله أن يخبرهم، فقال: الصبر هو الثبات في الشيء" (٨).

والصحيح أن "الصبر": هو حبس النفس على ما تكرهه، وهو المعنى المشهور للصبر، وكل من حبس شيئاً فقد صبره، ومنه الحديث في رجل أمسك رجلاً وقتله آخر، فقال: "أقتلوا القاتل، واصبروا الصابر" (٩)، أي: احبسوا الذي حبسه حتى يموت، وكذلك لو حبسَ رجل نفسه على شيء يريده قال: صبرت نفسي (١٠)، قال عنتره (١١):

فَصَبْرْتُ عَارِفَةً لِدَلِكْ حُرَّةً ... تَرَسُو إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطَّلُعُ

قوله تعالى: {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِذَا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: ٤٥]، "أي وإن الصلاة لشاقة صعبة الاحتمال إلا على المخبتين لله الخائفين من شديد عقابه" (١٢).

روي عن مجاهد في قوله: {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ}، قال: الصلاة" (١٣).

عن الضحاك، في تفسير قوله تعالى {الكبيرة}، قال: "الثقيلة" (١٤).

(١) أنظر: تفسير الطبري (٨٥٣): ص ١٤/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٨١): ص ١٠٢/١، والطبري (٨٥٣): ص ١٤/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٨٢): ص ١٠٢/١.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٤٨٠): ص ١٠٢/١. ونقله ابن كثير في تفسيره: ٢٥١/١.

(٥) أنظر: تفسير الطبري (٨٤٩): ص ١٢/١. أخرج عن حذيفة قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة".

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٤٨٠): ص ١٠٢/١. ونقله ابن كثير في تفسيره: ٢٥١/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٨٥): ص ١٠٢/١.

(٨) تفسير ابن أبي حاتم: ١٠٢/١.

(٩) الحديث ذكره أبو عبيد في "غريب الحديث" بدون سند، وفي الهامش قال المحقق: زاد في (ر). قال سمعت عبد الله بن المبارك يحدثه عن إسماعيل بن أمية يرفعه. "غريب الحديث" ١/١٥٥، وذكره الثعلبي ١/٦٩ أ، والأزهري في "تهذيب اللغة" عن أبي عبيد ٢/١٩٧٢، وهو في "الفائق" ٢/٢٧٦، "النهاية في غريب الحديث" ٣/٨، "غريب الحديث" لابن الجوزي ١/٥٧٨، وذكره في "كنز العمال" عن أبي عبيدة عن إسماعيل بن أمية مرسلًا، ١٠/١٥٠. (١٠) انظر التفسير البسيط: ٤٥١/٢.

(١١) البيت في "غريب الحديث" لأبي عبيد ١/١٥٥، "تهذيب اللغة" (صبر) ٢/١٩٧٢، "مقاييس اللغة" (صبر) ٣/٣٢٩، و"تفسير الثعلبي" ١/٦٩ أ، "اللسان" (صبر) ٤/٢٣٩١، و (عرف) ٥/٢٨٩٩، و"تفسير القرطبي" ١/٣١٧، "فتح القدير" ١/١٢٤، "ديوان عنتره" ص ٢٦٤. يقول: صبرت عارفة: أي حبست نفسي عارفة لذلك، أي نفسه، والعارفة الصابرة، ترسو: أي تثبت وتستقر، تطلع: تطلع نفس الجبان إلى حلقه من الفزع والخوف.

(١٢) تفسير المراغي: ١٠٢/١.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٨٦): ص ١٠٣/١.

وقوله تعالى: {إِنَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة : ٤٥]، أي: "إلا على الذليلين لأمر الله"^(٢).
 اختلف في المعنى بـ"الخاشعين"، على قولين:
 أحدهما: المؤمنين حقاً. قاله مجاهد^(٣).
 الثاني: الخائفين من الله. قال أبو العالية^(٤).
 قلت: والقولان السابقان متداخلتان وصحیحتان، فيمكن القول بأن الخاشع لله هو: المتواضع
 لله والمستكين لطاعته والمتذل من مخافته، وأصل (الخشوع): التواضع والتذل والاستكانة،
 والإخبات^(٥)، ومنه قول جرير^(٦):
 لما أتى خير الزبير تواضعت ... سور المدينة والجال الخشع
 قوله "الجال الخشع": أي: متذلة لعظم المصيبة بفقد الزبير.

القرآن

{الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة : ٤٦]

التفسير:

الذين يوقنون أنهم ملاقو ربهم جلّ وعلا بعد الموت، وأنهم إليه راجعون يوم القيامة للحساب
 والجزاء.
 قوله تعالى: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ} [البقرة: ٤٦]، "أي الذين يتيقنون بأنهم سيلاقون
 الله عزّ وجلّ؛ وذلك يوم القيامة"^(٧).
 قال أبو العالية: "الظن -ها هنا- يقين"^(٨). وروي عن مجاهد^(٩)، والسدي^(١٠)، والربيع بن
 أنس^(١١)، وقتادة^(١٢)، وابن جريج^(١٣)، مثل ذلك.
 عن سعيد في قوله: {الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم}، قال الذين شروا أنفسهم لله، ووطنوها
 على الموت"^(١٤).

(١) أخرجه الطبري (٨٥٦): ص ١٥/٢، وابن أبي حاتم (٤٨٧): ص ١٠٣/١.

(٢) تفسير ابن عثيمين: ١٦١/١.

(٣) أنظر: تفسير الطبري (٨٥٨): ص ١٦/١.

(٤) أنظر: تفسير الطبري (٨٥٧): ص ١٦/١.

(٥) تفسير الطبري: ١٧/٢، وانظر: الكشاف: ١٣٥/١.

(٦) ديوان جرير: ٣٤٥، والنقائض: ٩٦٩، وقد جاء منسوبا له في تفسيره (١: ٢٨٩ / ٧ / ١٥٧ بولاق)،
 وطبقات ابن سعد: ٧٩ / ١/٣، وسيبويه: ١: ٢٥، والأضداد لابن الأنباري: ٢٥٨، والخزانة: ٢: ١٦٦. استشهد
 به سيبويه على أن تاء التأنيث جاءت للفعل، لما أضاف "سور" إلى مؤنث وهو "المدينة"، وهو بعض منها.
 قال سيبويه: "وربما قالوا في بعض الكلام: "ذهبت بعض أصابعه"، وإنما أنت البعض، لأنه أضافه إلى مؤنث
 هو منه، ولو لم يكن منه لم يؤنثه. لأنه لو قال: "ذهبت عبد أمك" لم يحسن. (١: ٢٥). وهذا البيت يعبر به
 الفرزدق بالغدر ويهجوه، فإن الزبير بن العوام رضي الله عنه حين انصرف يوم الجمل، عرض له رجل من بني
 مجاشع رهط الفرزدق، فرماه فقتله غيلة. ووصف الجبال بأنها "خشع". يريد عند موته، خشعت وطأطات من
 هول المصيبة في حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن قبح ما لقي من غدر بني مجاشع.

(٧) تفسير ابن عثيمين: ١٦٦/١، وانظر: تفسير السعدي: ٥١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٩٣): ص ١٠٣/١، والطبري (٨٦١): ص ١٩/١.

(٩) أنظر: تفسير الطبري (٨٦٢): ص ١٩/١.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري (٨٦٤): ص ١٩/١.

(١١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٠٣/١.

(١٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٠٣/١.

(١٣) أنظر: تفسير الطبري (٨٦٥): ص ١٩/١.

(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٩٤): ص ١٠٤/١.

قوله تعالى: {وَأَتَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة : ٤٦]، " أي معادهم إليه يوم الدين" (١).
قال أبو العالية: " يستيقنون أنهم يرجعون إليه يوم القيامة" (٢).

القرآن

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)} [البقرة : ٤٧]

التفسير:

يا ذرية يعقوب تذكروا نعمي الكثيرة عليكم، واشكروا لي عليها، وتذكروا أنني فضلتكم على عالمي زمانكم بجعل النبوة والملك من أسلافكم، والكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل.
قوله تعالى: {وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة: ٤٧]، " أي وأعطيتكم الفضل والزيادة على غيركم من الشعوب" (٣).

قال قتادة: " فضلهم على عالم ذلك الزمان" (٤). وروي عن مجاهد (٥)، وابن زيد (٦) مثل ذلك.
وقال أبو العالية: " بما أعطوا من الملك والرسول والكتب ، على عالم من كان في ذلك الزمان ، فإن لكل زمان عالماً" (٧).

قلت: ظاهر هذه الآية أن بني إسرائيل هم أفضل العالمين، بينما المعروف أن أمة محمد ﷺ هي أفضل الأمم على الإطلاق، والمقصود بالفضل الوارد في هذه الآية الكريمة ثلاثة وجوه، وهي:

أحدها: إن المقصود بالعالم في الآية الجمع الكثير من الناس، وعلى هذا يكون تفضيل بني إسرائيل على مجموعة من الناس لا على جميع البشر، والدليل على ذلك مأخوذ من قول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنبياء: {وَتَجَيَّأُ وَكُوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء : ٧١]، فالمراد بالعالمين الواردة في الآية لا يشمل جميع الناس، إنما هو مخصوص بفتنة معينة من الخلق، وكذلك الأمر بالنسبة للأرض لا يُراد بها كل بقاعها وإنما إشارة إلى أرض معينة ومخصوصة.
الثاني: المقصود بالفضل هنا أي بما أفاض الله سبحانه وتعالى عليهم من النعم دون غيرهم، والتي خصهم بها عن الناس، بالإضافة إلى جعل النبوة والملك في أسلافهم، وذلك باعتبار أن الخطاب كان موجهاً لهم وقت نزول القرآن الكريم، ودليل ذلك قول الله سبحانه وتعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَأَنَّا كُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} [المائدة : ٢٠].

الثالث: المقصود بالفضل الوارد في الآية هو فقط في زمانهم، والدليل على ذلك قول الله سبحانه وتعالى: {وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [الدخان : ٣٢]. وبه قال قتادة (٨)، ومجاهد (٩)، وأبو العالية (١٠). وهذا مذهب الجمهور.

(١) صفوة التفاسير: ٤٨/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٩٥): ص ١٠٤/١.

(٣) تفسير المراغي: ١٠٤/١.

(٤) أخرجه الطبري (٨٦٨): ص ٢٤/٢.

(٥) أخرجه الطبري (٨٧٠): ص ٢٤/٢.

(٦) أخرجه الطبري (٨٧٢): ص ٢٤/٢.

(٧) أخرجه الطبري (٨٦٩): ص ٢٤/٢.

(٨) أخرجه الطبري (٨٦٨): ص ٢٤/٢.

(٩) أخرجه الطبري (٨٧٠): ص ٢٤/٢.

(١٠) أخرجه الطبري (٨٦٩): ص ٢٤/٢.

القرآن

{وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)} [البقرة : ٤٨]

التفسير:

وخافوا يوم القيامة، يوم لا يغني أحد عن أحد شيئاً، ولا يقبل الله شفاعته في الكافرين، ولا يقبل منهم فدية، ولو كانت أموال الأرض جميعاً، ولا يملك أحد في هذا اليوم أن يتقدم لنصرتهم وإنقاذهم من العذاب.

قوله تعالى: {وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا} [البقرة: ٤٨]، أي: "واخشوا عقاب يوم لا تقضي فيه نفس عن أخرى شيئاً من الحقوق"^(١).

قال السدي: "أما تجزي، فتغني"^(٢). وروي عن سعيد بن جبير^(٣) وأبي مالك^(٤) نحوه.

قال أبو مالك: "يعني: لا تغني نفس مؤمنة عن نفس كافرة من المنفعة شيئاً"^(٥).

قوله تعالى: {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} [البقرة: ٤٨]، "أي لا تقبل شفاعته في نفس كافرة بالله أبداً"^(٦).

قال الحسن: "يوم القيامة يوم لا ينعف فيه شفاعته شافع أحداً"^(٧). قال ابن أبي حاتم: "يعني من الكفار"^(٨).

وظاهر الآية عدم قبول الشفاعة مطلقاً يوم القيامة لكنه بين في مواضع أخرى أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار" وأن قوله: {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ}، إنما هي لمن مات على كفره غير تائب إلى الله عز وجل"^(٩)، والشفاعة لغيرهم بدون إذن رب السموات والأرض، أما الشفاعة للمؤمنين بإذنه فهي ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، والشفاعة لا تكون إلا بشرطين:

أحدهما: أن يأذن الله بها .

والثاني: أن يكون راضياً عمن شفع وعمن شفع له .

كما قال تعالى:

- {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [البقرة : ٢٥٥] .

- {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} [طه : ١٠٩] .

- {لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا} [مريم : ٨٧] .

- {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} [طه : ١٠٩] .

- {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سبا : ٢٣] .

وقد أجمع أهل السنة والجماعة، أن شفاعته الأنبياء والصالحين تقبل في العصاة من المؤمنين ، خلافاً للمعتزلة ، قالوا : الكبيرة تخلد صاحبها في النار ، وأنكروا الشفاعة ، وهم على ضربين :

(١) صفوة التفاسير: ٤٨/١ .

(٢) أنظر: تفسير الطبري(٨٧٤):ص٢٧/٢ .

(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٠٤/١ .

(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٩٩):ص١٠٤/١ .

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٩٩):ص١٠٤/١ .

(٦) صفوة التفاسير: ٤٨/١ .

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٠٠):ص١٠٥/١ .

(٨) تفسير ابن أبي حاتم: ١٠٥/١ .

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٣٣/٢ .

طائفة أنكرت الشفاعة إنكاراً كلياً وقالوا : لا تقبل شفاعة أحد في أحد ، واستدلوا بظواهر آيات ، وخص تلك الظواهر أصحابنا بالكفار لثبوت الأحاديث الصحيحة في الشفاعة^(١) .
 فمن نقل الإجماع عن السلف في إثبات الشفاعة الإمام أبو الحسن الأشعري حيث قال عن السلف أنهم: «أجمعوا على أن شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر من أمته، وعلى أنه يخرج من النار قوماً من أمته بعد ما صاروا حمماً..»^(٢) .
 ونقل النووي عن القاضي عياض^(٣) أنه قال عن الشفاعة: أجمع السلف والخلف ومن بعدهم من أهل السنة عليها^(٤) .
 قوله تعالى: {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} [البقرة: ٤٨]، أي: "ولا يقبل منهم فدية، ولو كانت أموال الأرض جميعاً"^(٥) .

واختلف في قوله تعالى {وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ} [البقرة: ٤٨] على وجهين:
 أحدهما: أن "العدل": الفدية، "وسميت عدلاً لأن المفدي يعدل بها : أي يساويها"^(٦)، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ} [آل عمران : ٩١] وقال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المائدة : ٣٦] وقال تعالى: {وَأِنْ تَعَدَّلْ كُلُّ إِلَّاةٍ لَأُخَذَ مِنْهَا} [الأنعام : ٧٠]، وقال: {قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} الآية [الحديد : ١٥] . وهذا قول أبي العالية^(٧)، والسدي^(٨)، وقتادة^(٩) .
 عن أبي العالية: " {وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ} يعني: فداء"^(١٠) . وروي عن أبي مالك والحسن وسعيد بن جبيرة وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك^(١١) .

الثاني: معناه: لا فريضة ولا نافلة. قاله عمير بن هانئ^(١٢) .
 والقول الأول أظهر في تفسير هذه الآية، لما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما سئل ما العدل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "العدل الفدية"^(١٣) .
 قوله تعالى: {وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} [البقرة: ٤٨]، "أي: ليس لهم من يمنعهم وينجيهم من عذاب الله"^(١٤) .

عن الحسن: " {وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ}، قال: يوم القيامة"^(١) .

(١) انظر: البحر المحيط: ١٦٠/١ .
 (٢) أبو الحسن الأشعري- رسالة أصول أهل السنة والجماعة المسماة برسالة الثغر- ت د. محمد السيد الجلند (الرياض: دار اللواء، ١٤١٠هـ) ط٢، ص ٩٠ .
 (٣) عياض بن موسى اليحصبي، أبو الفضل، عالم المغرب، فقيه، محدث، نسابة، ولي قضاء سبتة ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة، توفي بمراكش سنة ٥٤٤ هـ. انظر: وفيات الأعيان ج ١، ص ٣٩٢، والأعلام للزركلي ج ٥، ص ٩٩ .
 (٤) أبو زكريا يحيى بن شرف النووي -شرح صحيح مسلم- (القاهرة: المطبعة المصرية ومكتبتها) ج ٣، ص ٣٥ .

(٥) التفسير الميسر: ٧ .

(٦) البحر المحيط: ١٦١/١ .

(٧) انظر: تفسير الطبري (٨٨١): ص ٣٤/٢ .

(٨) انظر: تفسير الطبري (٨٨٢): ص ٣٤/٢ .

(٩) انظر: تفسير الطبري (٨٨٣): ص ٣٤/٢ .

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٠١): ص ١٠٥: ١ .

(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٠٥/١ .

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥٠٣): ص ١٠٥/١ .

(١٣) ضعيف، ولم أجده عن غير الطبري، نقله عنه ابن كثير ١ : ٢٥٧، والسيوطي ١ : ٦٨ .

(١٤) صفوة التفاسير: ٤٨/١ .

القرآن

{وَأَذِّنْ لِكُلِّ قَوْمٍ نَبِيًّا مِمَّنْ أَلْفَرَعُونَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَعْنَةٌ لِكُلِّ قَوْمٍ} [البقرة: ٤٩]

التفسير:

واذكروا نعمتنا عليكم حين أنقذناكم من بطش فرعون وأتباعه، وهم يُذيقونكم أشدَّ العذاب، فيكثرون من ذبَّح أبنائكم، وترك بناتكم للخدمة والامتهان، وفي ذلك اختبار لكم من ربكم، وفي إنجائكم منه نعمة عظيمة، تستوجب شكر الله تعالى في كل عصوركم وأجيالكم.

قوله تعالى {وَأَذِّنْ لِكُلِّ قَوْمٍ نَبِيًّا مِمَّنْ أَلْفَرَعُونَ} [البقرة: ٤٩]، "أي: واذكروا إذ أنقذناكم من آل فرعون" (٢).

قرأ إبراهيم النخعي: {وَأَذِّنْ لِكُلِّ قَوْمٍ} على الواحد (٣).

قوله تعالى: قوله تعالى: {يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ} [البقرة: ٤٩]، يعني: "يكلّفونكم ويذيقونكم أشدَّ العذاب وأسوأه" (٤).

وفي العذاب الذي كانوا يسومونهم، قولان:

أحدهما: أن فرعون كان يعذبهم بجعلهم خدما وخولا، واستخدم بعضهم في أعماله، ومن لم يكن منهم في صنعة، فعليه الجزية. قاله ابن إسحاق (٥).
الثاني: وقيل: أن فرعون: "جعلهم في الأعمال القذرة، وجعل يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم". قاله السدي (٦).

قوله تعالى: {يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ} [البقرة: ٤٩]، "أي: يقتلون الذكور" (٧).

قال أبو العالية: "إن فرعون ملكهم أربع مائة سنة فقالت له الكهنة: سيولد العام بمصر غلام يكون هلاكك على يديه، فبعث في أهل مصر نساء قوايل فإذا ولدت امرأة غلاما أتى به فرعون فقتله ويستحيي الجوارح" (٨).

قال السدي: "كان من شأن فرعون أنه رأى رؤيا في منامه أن نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، وأحرقت بيوت مصر، فدعا السحرة والكهنة والقافة والحازة- وأما القافة: فهم العاقبة. وأما الحازة: فهم الذين يزجرون الطير- فسألهم عن رؤياه فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه يعني بيت المقدس رجل يكون على وجهه هلاك مصر، فأمر بني إسرائيل أن لا يولد غلام إلا ذبحوه ولا يولد لهم جارية إلا تركت، وقال للقبط: انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجا فأدخلوهم واجعلوا بني إسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة. فجعل بني إسرائيل في أعمال غلمانهم. فجعل لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح، فلا يكبر الصغير، وقذف الله في مشيخة بني إسرائيل الموت فأسرع فيهم، فدخل رؤوس القبط على فرعون فكلموه فقالوا: إن هؤلاء القوم قد وقع فيهم الموت فيوشك أن يقع العمل على غلماننا بذبح

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٠٤): ص ١٠٥/١.

(٢) تفسير ابن عثيمين: ٧٥/١.

(٣) أنظر: تفسير الثعلبي: ١٩١/١.

(٤) تفسير الثعلبي: ١٩١/١.

(٥) أنظر: تفسير الطبري (٨٨٩): ص ٤٠/٢.

(٦) أنظر: تفسير الطبري (٨٩٠): ص ٤١/٢.

(٧) تفسير المراغي: ١١٠.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٠٥): ص ١٠٦/١، و(٨٩١٥): ص ١٥٥٥/٥، والطبري (٨٩٣): ص ٤٣/٢.

أبنائهم فلا يبلغ الصغار فيفنى الكبار، فلو أنك كنت تبقي من أولادهم؟ فأمر أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة^(١).

قوله تعالى: { وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ } [البقرة: ٤٩]، أي: " يتركونهن أحياء"^(٢).

قال ابن جريج: " يسترقون نساءكم"^(٣).

وضعه الطبري قائلاً: " ذلك تأويل غير موجود في لغة عربية ولا أعجمية"^(٤).

قوله تعالى: { وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ } [البقرة: ٤٩]، أي: "في إنجائكم منهم نعمة عظيمة"^(٥).

وفي قوله تعالى: { وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ } [إبراهيم: ٦]، وجهان:

أحدهما: أن معناه: اختبار والامتحان. وهو قول جمهور أهل التفسير^(٦).

الثاني: أن معناه: نعمة، أي: نعمة من ربكم عظيمة. روي ذلك عن الحسن^(٧)، وأبي مالك^(٨)، والسدي^(٩)، ومجاهد^(١٠)، وابن جريج^(١١).

قال السدي: " أما البلاء فالنعمة"^(١٢). وروي عن أبي مالك^(١٣)، ومجاهد^(١٤)، وابن جريج^(١٥).

نحوه.

قال مجاهد: " نعمة من ربكم عظيمة"^(١٦).

قال ابن جريج: " نعمة عظيمة"^(١٧).

والظاهر - والله أعلم - أن كلا القولين صحيح، لأن " { وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ }"، راجع إلى الأمرين: إلى المنحة التي هي الإنجاء من آل فرعون المقتضية للشكر، وإلى المحنة التي هي ذبحهم واستحيائهم للنساء المقتضية للصبر"^(١٨).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٠٦): ص ١/٦-٦، والطبري (٨٩٥): ص ٤٣/٢-٤٤.

(٢) تفسير البيهقي: ٩١/١.

(٣) أخرجه الطبري (٨٩٨): ص ٤٦/٢.

(٤) تفسير الطبري: ٤٧/٢. ثم قال: " وذلك أن الاستحياء إنما هو استفعال من الحياة نظير " الاستبقاء " من " البقاء "، و " الاستسقاء " من " السقي " . وهو من معنى الاسترقاق بمعزل".

(٥) تفسير الثعلبي: ١٩٢/١.

(٦) أنظر: تفسير الطبري: ٤٨/٢.

أي: أنظر: النكت والعيون: ١٢٣/٣.

أو أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٠٦/١. حكاه دون ذكر الإسناد.

(٧) أنظر: تفسير الطبري (٩٠٠): ص ٤٨/٢.

(٨) أنظر: تفسير الطبري (٩٠١)، و (٩٠٢): ص ٤٨/٢-٤٩.

(٩) أنظر: تفسير الطبري (٩٠٣): ص ٤٩/٢.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري (٩٠٠): ص ٤٨/٢.

(١١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٠٦/١. حكاه دون ذكر الإسناد.

(١٢) أنظر: تفسير الطبري (٩٠١)، و (٩٠٢): ص ٤٨/٢-٤٩.

(١٣) أنظر: تفسير الطبري (٩٠٣): ص ٤٩/٢.

(١٤) أنظر: تفسير الطبري (٩٠١)، و (٩٠٢): ص ٤٨/٢-٤٩.

(١٥) أنظر: تفسير الطبري (٩٠٣): ص ٤٩/٢.

(١٦) أنظر: تفسير الطبري (٩٠١)، و (٩٠٢): ص ٤٨/٢-٤٩.

و«البلاء»: يكون بمعنى النعمة وبمعنى الشدة ، فالله تعالى قد يختبر على النعمة بالشكر، وعلى الشدة بالصبر وقال : الله تعالى: {وَنبَلِّغُكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} [الأنبياء: ٣٥] (١).

القرآن

{وَادِّ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} (٥٠) [البقرة : ٥٠]

التفسير:

واذكروا نعمتنا عليكم، حين فصلنا بسببكم البحر، وجعلنا فيه طرقاً يابسة، فعبرتم، وأنقذناكم من فرعون وجنوده، ومن الهلاك في الماء، فلما دخل فرعون وجنوده طرقكم أهلكناهم في الماء أمام أعينكم.

قوله تعالى: {وَادِّ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ} [البقرة: ٥٠]، أي: اذكروا أيضاً إذ "فصلنا بكم البحر" (٢).

قال ابن إسحاق: "أوحى الله إلى البحر - فيما ذكر لي : إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له. قال : فبات البحر يضرب. بعضه بعضاً فرقا من الله وانتظاره أمره، فأوحى الله جل وعز إلى موسى : أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه بها ، وفيها سلطان الله الذي أعطاه ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، أي كالجبل على نشز من الأرض يقول الله لموسى : {فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تُخْشَى} [طه : ٧٧]، فلما استقر له البحر على طريق قائمة يَبَسٍ سلك فيه موسى ببني إسرائيل ، وأتبعه فرعون بجنوده" (٣). وروي عن السدي (٤)، وعبدالله بن شداد بن الهاد (٥)، وعمرو بن ميمون الأودي (٦)، نحو ذلك.

قال عمرو بن ميمون الأودي: " لما خرج موسى ببني إسرائيل، بلغ ذلك فرعون فقال: لا تتبعوهم حتى يصيح الديك. قال فو الله ما صاح ليلتئذ ديك حتى أصبحوا، فدعا بشاة فذبحت ثم قال: لا أفرغ من كبدها حتى يجتمع إلي ستمائة ألف من القبط. فلم يفرغ حتى اجتمع إليه ستمائة ألف من القبط، ثم سار فلما أتى موسى قال له رجل من أصحابه يقال له يوشع بن نون: أين أمر ربك يا موسى؟ قال: أمامك يشير إلى البحر. فاقترح يوشع فرسه في البحر حتى بلغ الغمر فذهب به الغمر «١» ثم رجع فقال: أين أمر ربك يا موسى، فو الله ما كذبت ولا كذبت ففعل ذلك ثلاث مرار، ثم أوحى الله إلى موسى: أن اضرب بعصاك البحر فاضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم. يقول مثل الجبل، ثم سار موسى ومن معه واتبعهم فرعون في طريقهم حتى إذا تناموا فيه أطبقه الله عليهم، فلذلك قال " {أَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} " (٧).

قوله تعالى: {فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} [البقرة : ٥٠]، "أي:

نجيناكم من الغرق وأغرقنا فرعون وقومه وأنتم تشاهدون ذلك" (٨).

قال قتادة: " أي والله لفرق لهم البحر، حتى صار طريقاً يبسا يمشون فيه، فأنجيناهم وأغرق آل فرعون عدوهم، نعماً من الله يعرفهم بها لكي ما يشكروا ويعرفوا حقه" (٩).

(١) انظر: تفسير البيهقي: ٩١/١.

(٢) تفسير الطبري: ٥٠/٢.

(٣) أخرجه الطبري (٩٠٦): ص ٥١/٢-٥٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٩١٠): ص ٥٤/٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٩٠٥)، و (٩٠٧): ص ٥١/٢-٥٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري (٩٠٨): ص ٥٣/٢، وابن أبي حاتم (٥٠٨): ص ١٠٧/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٠٨): ص ١٠٠/١-١٠٧.

(٨) صفوة التفاسير: ٥٠/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٠٩): ص ١/١-٧.

القرآن

{وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١)} [البقرة: ٥١]

التفسير:

واذكروا نعمتنا عليكم: حين واعدنا موسى أربعين ليلة لإنزال التوراة هداية ونورا لكم، فإذا بكم تنتهزون فرصة غيابه هذه المدة القليلة، وتجعلون العجل الذي صنعتموه بأيديكم معبودا لكم من دون الله - وهذا أشنع الكفر بالله- وأنتم ظالمون باتخاذكم العجل إلهًا. قوله تعالى: {وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً}[البقرة: ٥١]، "أي واذكروا إذ واعدنا موسى أربعين ليلة"^(١).

قال أبو العالية: "يعني: ذا القعدة وعشرا من ذي الحجة، وذلك حين خلف موسى أصحابه واستخلف عليهم هارون، فمكث على الطور أربعين ليلة، وأنزل عليه التوراة في الألواح، فقربه الرب نجيا وكلمه، وسمع صريف القلم، وبلغنا أنه لم يحدث في الأربعين ليلة حتى هبط من الطور"^(٢).

قال ابن إسحاق: "وهو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله"^(٣).

وقال ابن إسحاق قال: وعد الله موسى - حين أهلك فرعون وقومه، ونجاه وقومه ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر، فتم ميقات ربه أربعين ليلة، يلقاه ربه فيها ما شاء، واستخلف موسى هارون على بني إسرائيل، وقال: إني متعجل إلى ربي فاخلفني في قومي ولا تتبع سبيل المفسدين. فخرج موسى إلى ربه متعجلا للقيته شوقا إليه، وأقام هارون في بني إسرائيل ومعه السامري يسير بهم على أثر موسى ليلحقهم به"^(٤). وروي عن السدي^(٥) نحو ذلك.

قوله تعالى: {ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ}[البقرة: ٥١]، أي: "ثم اتخذتم في أيام مواعدة موسى العجل إلهًا من بعد أن فارقتكم موسى متوجها إلى الموعد"^(٦).

روي عن السدي^(٧)، وابن إسحاق^(٨)، ومجاهد^(٩)، وأبي العالية^(١٠): "{العجل}"، "تمثال من ذهب صنعه السامري، وقال لبني إسرائيل: {هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ}[طه: ٨٨]"^(١١)، "أي: تركه هاهنا وخرج بطلبه".

قال أبو العالية: "وإنما سمي العجل، لأنهم عجلوا فاتخذوه قبل أن يأتيهم موسى"^(١٢).

وقال مجاهد: قوله: {العجل}، حسيل البقرة، ولد البقرة"^(١٣).

قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ}[البقرة: ٥١]، "أي معتدون في تلك العبادة ظالمون لأنفسكم"^(١).

(١) تفسير ابن عثيمين: ١٨١/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٥١١): ص ١٠٧/١، والطبري (٩١٤): ص ٦٢/٢.

(٣) أخرجه الطبري (٩١٣): ص ٦١/٢.

(٤) أخرجه الطبري (٩١٦): ص ٦٢/٢.

(٥) أنظر: تفسير الطبري (٩١٧): ص ٦٢/٢-٦٣.

(٦) تفسير الطبري: ٦٣/٢.

(٧) أنظر: تفسير الطبري (٩١٩): ص ٦٤/٢-٦٥.

(٨) أنظر: تفسير الطبري (٩٢٠): ص ٦٥/٢-٦٦.

(٩) أنظر: تفسير الطبري (٩٢٣): ص ٦٨/٢.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري (٩٢٤): ص ٦٨/٢.

(١١) تفسير ابن عثيمين: ١٨١/١.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٥١٢): ص ١٠٨/١.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣): ص ١٠٨/١.

عن مجاهد: "قوله: {ظالمون}، قال: أصحاب العجل"^(٢).

القرآن

{ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة: ٥٢]

التفسير:

ثمَّ تجاوزنا عن هذه الفعلة المنكرة، وقبَلنا توبتكم بعد عودة موسى؛ رجاءً أن تشكروا الله على نعمه وأفضاله، ولا تتمادوا في الكفر والطغيان.

قوله تعالى: {ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ} [البقرة: ٥٢]، أي: "محونا ذنوبكم بعد عبادتكم العجل"^(٣).

قال أبو العالية: "يعني من بعد ما اتخذوا العجل"^(٤). وروي عن الربيع بن أنس مثل ذلك^(٥).
قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة: ٥٢]، أي: "لكي تشكروا عفوي عنكم وصنيعي إليكم"^(٦).

عن أبي مالك: قوله: "{لَعَلَّكُمْ}"، يعني: "كي"^(٧).

قال عون بن عبدالله: "إن {لعل}، من الله واجب"^(٨).
تشكرون"^(٩).

و"الشكر يكون بالقلب: وهو إيمان القلب بأن النعمة من الله عزّ وجلّ، وأن له المنّة في ذلك؛ ويكون باللسان: وهو التحدث بنعمة الله اعترافاً، لا افتخاراً؛ ويكون بالجوارح: وهو القيام بطاعة المنعم"^(١٠).

القرآن

{وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [البقرة: ٥٣]

التفسير:

واذكروا نعمتنا عليكم حين أعطينا موسى الكتاب الفارق بين الحق والباطل -وهو التوراة-؛ لكي تهتدوا من الضلالة.

قوله تعالى: {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ} [البقرة: ٥٣]، أي واذكروا نعمتي أيضاً حين أعطيت موسى التوراة الفارقة بين الحق والباطل"^(١١).

روي " عن قتادة في قوله: {الكتاب}، قال التوراة"^(١٢). وهو قول جمهور المفسرين^(١٣).

(١) صفوة التفاسير: ٥٠/١.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٥١٤): ص ١٠٨/١.

(٣) تفسير البغوي: ٩٥/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٥١٥): ص ١٠٨/١.

(٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٠٨/١.

: تفسير ابن أبي حاتم: ١٠٨/١.

(٦) تفسير البغوي: ٩٥/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٥١٧): ص ١٠٨/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٥١٦): ص ١٠٨/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٥١٨): ص ١٠٨/١.

(١٠) تفسير ابن عثيمين: ١٠٧/١.

(١١) صفوة التفاسير: ٥٠/١.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٢٠): ص ١٠٩/١.

(١٣) أنظر: روح المعاني: ٢٦٠/١.

وقال مجاهد: " {الكتاب}: هو الفرقان، فرقان بين الحق والباطل"^(١). وروي عن أبي العالية^(٢)، والربيع بن أنس^(٣)، نحو ذلك. كم وبين ما تخافون"^(٤).

واختلف في تفسير {الفرقان} [البقرة: ٥٣]، -هنا-، على وجوه: أحدها: أن {الفرقان}: ما في التوراة من فرق بني الحق والباطل، فيكون ذلك نعتاً للتوراة. قاله أبو العالية^(٥)، ومجاهد^(٦)، والربيع بن أنس^(٧)، وهو قول جمهور أهل التفسير^(٨). واحتجوا من وجهين:

الأول: أن العرب تكرر الشيء إذا اختلفت ألفاظه، ومنه قول عدي بن زيد^(٩):
وَقَدَّتْ الْأَدِيمَ لِرَأْهِشِيهِ ... وَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمِينًا
فَقَوْلُهُ (كَذِبًا وَمِينًا)، عطف (المين) على (الكذب)، وهو بمعناه.
وقال عنتره^(١٠):

حُبَيْتٌ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ... أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمَّ الْهَيْتَمِ
والثاني: أن الله تعالى ذكر لموسى الفرقان في غير هذا الموضع، وهو قوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ} [الأنبياء: ٤٨]. فعلى هذا الفرقان هو الكتاب، والكتاب هو الفرقان، ولكن ذكر بلفظين مختلفين^(١١)، والعطف هنا من باب عطف الصفة على الموصوف؛ والعطف يقتضي المغايرة؛ والمغايرة يكتفي فيها بأدنى شيء؛ قد تكون المغايرة بين ذاتين؛ وقد تكون المغايرة بين صفتين؛ وقد تكون بين ذات وصفة؛ فمثلاً: قوله تعالى: {خلق السماوات والأرض} [الأنعام: ١]: المغايرة بين ذاتين؛ وقوله تعالى: {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤)} [الأعلى: ١ - ٤]: المغايرة بين صفتين؛ وقوله تعالى هنا:

- (١) أنظر: تفسير الطبري (٩٢٩)، و(٩٣٠)، و(٩٣١): ص ٧٠/٢، وتفسير ابن أبي حاتم: ١٠٩/١.
- (٢) أنظر: تفسير الطبري (٩٢٨): ص ٧٠/٢، وتفسير ابن أبي حاتم (٥٢١): ص ١٠٩/١.
- (٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٠٩/١.
- (٤) التفسير البسيط: ٥٢٥/٢، وانظر: معاني القرآن للزجاج: ٤٦١ / ٢، تهذيب اللغة" (فرق): ٢٧٧٩ / ٣، والصاح: (فرق) ٤ / ١٥٤٠، واللسان: (فرق) ٦ / ٣٣٩٩.
- (٥) أنظر: تفسير الطبري (٩٢٨): ص ٧٠/٢، وتفسير ابن أبي حاتم (٥٢١): ص ١٠٩/١.
- (٦) أنظر: تفسير الطبري (٩٢٩)، و(٩٣٠)، و(٩٣١): ص ٧٠/٢، وتفسير ابن أبي حاتم: ١٠٩/١.
- (٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٠٩/١.
- (٨) رجه الطبري: ٧٠ / ٢، ٧١، والنحاس في "إعراب القرآن" ٢٢٥ / ١، "تفسير الثعلبي" ٧٣ / ١، وتفسير ابن عطية" ٢١٦ / ١، والبخاري في "تفسيره" ٧٣ / ١، وابن الجوزي في "زاد المسير" ٨١ / ١، وتفسير ابن كثير" ١ / ٩٧، و معاني القرآن للفراء: ٣٧ / ١، ومعاني القرآن للزجاج: ١٠٥ / ١.
- (٩) في "معاني القرآن" للفراء ٣٧ / ١، "الشعر والشعراء" ص ١٣٢، "إعراب القرآن" للنحاس ١ / ١٧٥، "تفسير الثعلبي" ١ / ١٩، ٧٣، "أمالي المرتضى" ٢ / ٢٥٨، "المستقصى" ١ / ٢٤٣، "مغني اللبيب" ٢ / ٣٥٧، "الهمع" ٥ / ٢٢٦، "معاهد التنصيص" ١ / ٣١٠، "اللسان" (مين) ٧ / ٤٣١١، والقرطبي في "تفسيره" ١ / ٣٩٩، "الدر المصون" ١ / ٣٥٨.
- والبيت ضمن قصيدة قالها عدي بن زيد، في قصة طويلة مشهورة بين الزبأ وجذيمة وردت في كتب التاريخ والأدب.
- ويروي (قدمت) و (الراش) عرق في باطن الذراع و (المين) بمعنى: الكذب، ورد البيت.
- (١٠) ورد البيت في "تهذيب اللغة" (شرح) ١٨٥٧ / ٢، "اللسان" (شرح) ٤ / ٢٢٣٨، "تفسير الثعلبي" ١ / ٧٣، "تفسير القرطبي" ١ / ٣٤١، "الدر المصون" ١ / ٣٥٨، "فتح القدير" ١ / ١٣٥، و"ديوان عنتره" ص ١٨٩.
- و(الطلل): ما شخص من الدار من وتد وغيره، (تقادم): طال عهده بأهله فتغير، (أقوى): خلا من أهله.
- (١١) أنظر: معاني القرآن للزجاج: ١٠٥ / ١، والتفسير البسيط: ٥٢٦ / ٢.

{الكتاب والفرقان}: المغايرة بين ذات وصفة؛ {الكتاب} نفس التوراة؛ و{الفرقان} صفته؛ فالعطف هنا من باب عطف الصفة على الموصوف^(١).
القول الثاني: أن "{الفرقان}: انفراق البحر وهو من عظيم الآيات، يدلّ عليه قوله تعالى: {وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ}" قاله يمان بن رباب^(٢).
القول الثالث: أن "{الفرقان}: هو "علم الكتاب وتبينه وحكمته". قاله سعيد بن جبير^(٣).
والصحيح هو قول جمهور أهل التفسير، بأن {الفرقان} هو الكتاب الذي فرق به بين الحق والباطل، وهو نعت للتوراة وصفة لها. والله أعلم.
قوله تعالى: {عَلَّكُم تَهْتَدُونَ}، "أي لكي تهتدوا بالتدبر فيها والعمل بما فيها من أحكام"^(٤).
عن سعيد بن جبير في قول الله عز وجل: {عللكم}، يعني (لكي)^(٥).

القرآن

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)} [البقرة : ٥٤]
التفسير:

واذكروا نعمتنا عليكم حين قال موسى لقومه: إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل إلهًا، فإنه أعظم الظلم، فتوبوا إلى الله الذي خلقكم وأبدعكم: وهذه التوبة بأن يقتل بعضكم بعضًا، فمن قتل فحي يرزق ومن بقي قبلت توبته وطهرهم الله بذلك، وهذا خير لكم عند خالقكم من الخلود الأبدي في النار، فامتثلتم ذلك، فمن الله عليكم بقبول توبتكم، إنه تعالى هو التواب لمن تاب من عباده، الرحيم بهم.

قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ} [البقرة: ٥٤]، "أي: واذكروا إذ قال موسى لقومه: يا قوم إنكم ضررتم بأنفسكم بسبب اتخاذكم العجل إلهًا تعبدونه من دون الله"^(٦).

قال الحسن: "فقال ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع، وحين قال الله: ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا قال: فذلك حين يقول موسى: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل"^(٧).
عن مجاهد: قوله: "{بِاتِّخَاذِكُمُ} قال: حلي استعاروه من آل فرعون. فقال لهم هارون: أحرقوه تطهروا منه"^(٨).

واختلف في {العجل} هل بقي من ذهب؟
فقال الجمهور بأنه بقي من ذهب^(٩).

(١) أنظر: تفسير ابن عثيمين: ١/١٨٣.

(٢) ذكره الثعلبي في تفسير: ١/١٩٧، والبغوي: في تفسيره: ١/٧٣، وحكاه الواحدي عن الزجاج عن يمان بن رباب، ولم أجد هذا القول في "معاني القرآن" للزجاج، وممن نسبه للزجاج ابن الجوزي في "زاد المسير" ١/ ٨١، وهذا القول ذكره الفراء في "المعاني" ١/ ٣٧، وأبو الليث في "تفسيره" ١/ ٣٥٤، أنظر: "تفسير ابن عطية" ونسبه لابن زيد ١/ ٢٩٥، "تفسير القرطبي" ١/ ٣٤١.

(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥٢٢): ص ١/١٠٩.

(٤) صفوة التفاسير: ٥٠/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٢٣): ص ١/١٠٩.

(٦) تفسير ابن عثيمين: ١/١٨٦.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٢٥): ص ١/١٠٩.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٢٤): ص ١/١٠٩.

(٩) أنظر: المحرر الوجيز: ١/١٤٥.

وقال الحسن بن أبي الحسن: "صار لحما ودما"^(١).
والأول أصح-و الله أعلم-، لأن الخلق من اللحم والدم من اختصاص الخالق وحده.
قوله تعالى: {فَتُوبُوا إِلَى بَارئِكُمْ} [البقرة: ٥٤]، "أي ارجعوا إليه من معصيته إلى طاعته"^(٢).
قال أبو العالية: "أي: إلى خالفكم"^(٣). وكذلك فسره سعيد بن جبير والربيع بن أنس^(٤).
قوله تعالى: {فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ} [البقرة: ٥٤]، أي: "ليقتل البريء المجرم"^(٥).
قال مجاهد: " قام بعضهم إلى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضا لا يحن رجل على رجل قريب ولا بعيد"^(٦).

عن سعيد بن جبير ومجاهد قالا: "قام بعضهم إلى بعض بالخناجر فقتل بعضهم بعضا لا يحنو رجل على قريب ولا بعيد، حتى ألوى موسى بثوبه، فطرحوا ما بأيديهم، فكشف عن سبعين ألف قتيل، وإن الله عز وجل أوحى إلى موسى أن حسبي فقد اكتفيت، فذلك حين ألوى موسى ثوبه"^(٧).

قال قتادة: " أمر القوم بشديد من الأمر، فقاموا يتناحرون بالشفار، فقتل بعضهم بعضا حتى بلغ الله فيهم نعمته وسقطت الشفار من أيديهم، فأمسك عنهم القتل. فجعله لحيم توبة، وللمقتول شهادة"^(٨).

قال الحسن: " أصابت بني إسرائيل ظلمة حنسد فقتل بعضهم بعضا ثم انكشف عنهم، فجعل توبتهم في ذلك"^(٩).

قوله تعالى: {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ} [البقرة: ٥٤]، "أي ما ذكر من التوبة والقتل أنفع لكم عند الله من العصيان والإصرار على الذنوب لما فيه من العذاب"^(١٠).
قال سعيد بن جبير: {خَيْرٌ لَّكُمْ}، "يعني: أفضل"^(١١).
قوله تعالى: {فَتَّابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ٥٤]، " أي قبل توبتكم إنه عظيم المغفرة واسع التوبة"^(١٢).

قال السدي: " فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف، فكان من قتل من الفريقين كان شهيدا حتى كثر القتل حتى كادوا أن يهلكوا حتى قتل منهم سبعون ألفا، وحتى دعا موسى وهارون: ربنا أهلك بني إسرائيل، ربنا اليقية، اليقية! فأمرهم أن يضعوا السلاح، وتاب عليهم، فكان من قتل من الفريقين كان شهيدا، ومن كان بقي كان مكفرا عنه، فذلك قوله: {فَتَّابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} "^(١٣).

القرآن

- (١) المحرر الوجيز: ١٤٥/١.
- (٢) تفسير ابن عثيمين: ١٨٦/١.
- (٣) أخرجه الطبري (٩٤٦): ص ٧٨/٢.
- (٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١١٠/١.
- (٥) تفسير الثعلبي: ١٩٨/١.
- (٦) أنظر: تفسير الطبري (٩٣٥): ص ٧٢/٢.
- (٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٢٨): ص ١١٠/١.
- (٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٢٩): ص ١١٠/١.
- (٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٣٠): ص ١١٠/١.
- (١٠) تفسير المراغي: ١٢١/١.
- (١١) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٣١): ص ١١٠/١.
- (١٢) صفوة التفاسير: ٥٠/١.
- (١٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥٣٣): ص ١١١/١. ولفظه: " فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف..".

{وَادَّ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥)}
[البقرة : ٥٥]

التفسير:

واذكروا إذ قلتم: يا موسى لن نصدقك في أن الكلام الذي نسمعه منك هو كلام الله، حتى نرى الله عياناً، فنزلت نار من السماء رأيتموها بأعينكم، ففتلنكم بسبب ذنوبكم، وجرأتكم على الله تعالى. قوله تعالى: {وَادَّ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [البقرة: ٥٥]، "أي: واذكروا أيضاً يا بني إسرائيل إذ قلتم يا موسى: لن نصدق بما جئت به حتى نرى الله علانية"^(١). عن قتادة، ووالربيع بن أنس: " {جهرة}، أي: عياناً"^(٢).

قوله تعالى: {فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} [البقرة : ٥٥]، فنزلت نار من السماء رأيتموها بأعينكم، ففتلنكم بسبب ذنوبكم"^(٣). قال قتادة: " أخذتهم الصاعقة أي ماتوا"^(٤). قال السدي: " الصاعقة نار"^(٥).

قال الربيع بن أنس: " هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه. قال: فسمعوا كلاماً فقالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة قال: فسمعوا صوتاً فصعقوا، يقول ماتوا"^(٦). قال عروة بن رويم: " سأل بنو إسرائيل موسى فقالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخبرهم أنهم لن يطيقوا ذلك، فأبوا، فسمعوا من كلام الله فصعق بعضهم وبعض ينظرون، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء"^(٧).

عن عيسى بن يونس: " ثم بعث الذين صعقوا، وصعق الآخرون، ثم بعثوا، فقال الله: {فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون} إلى قوله: {لعلكم تشكرون}"^(٨). واختلف في سبب الموت أي شيء كان، على وجهين: أحدها: أن ناراً وقعت من السماء، فأحرقتهم. قاله السدي^(٩). الثاني: أخذتهم الرجفة، وهي الصاعقة، فماتوا جميعاً. قاله ابن إسحاق^(١٠). و"الصاعقة": هي "الصوت الشديد من الجو، ثم يكون منها نار فقط، أو عذاب، أو موت، وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الأشياء تأثيرات منها"^(١١)، و"الصاعقة والصاعقة يتقاربان، وهما الهدية الكبيرة، إلا أن الصعق يقال في الأجسام الأرضية، والصعق في الأجسام العلوية.

القرآن

{ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)} [البقرة : ٥٦]
التفسير:

- (١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١/١٩١.
- (٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٣٥): ١/١١١.
- (٣) التفسير الميسر: ٨.
- (٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٣٨): ص ١/١١٢.
- (٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٤٠): ص ١/١١٢.
- (٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٣٩): ص ١/١١٢.
- (٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٤٢): ص ١/١١٢. وعروة تابعي عامة حديثه مراسيل لقي أنسا و ابا كبشة.
- (٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٣٧): ص ١/١١٢.
- (٩) أنظر: الطبري (٩٥٣): ص ٨٢-٨٣. تفسير ابن أبي حاتم (٥٤٠): ص ١/١١٢.
- (١٠) أنظر: تفسير الطبري (٩٥٤): ص ٨٣/٢.
- (١١) مفردات غريب القرآن، الراغب: ٤٤٩.

ثم أحييناكم من بعد موتكم بالصاعقة؛ لتشكروا نعمة الله عليكم، فهذا الموت عقوبة لهم، ثم بعثهم الله لاستيفاء آجالهم.

قوله تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ} [البقرة: ٥٦]، أي " ثم أحييناكم من بعد موتكم بالصاعقة التي أهلكتكم" (١).

قال قتادة: " ثم بعثهم الله تعالى، ليكملوا بقية آجالهم" (٢).

قال الربيع بن أنس: " فبعثوا من بعد موتهم، لأن موتهم ذاك كان عقوبة لهم، فبعثوا لبقية آجالهم" (٣).

واختلف في قوله {ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ} [البقرة: ٥٦]، على وجهين:

أحدهما: أن المراد: ثم أحييناكم. يعني: إحيائهم بعد موتهم لاستكمال آجالهم، وهذا قول قتادة (٤)، والربيع بن أنس (٥).

قال قتادة: " ثم بعثهم الله ليكملوا بقية آجالهم" (٦).

قال الربيع بن أنس: " فبعثوا من بعد موتهم لأن موتهم ذلك كان عقوبة لهم فبعثوا من بعد الموت ليوفوا آجالهم" (٧).

الثاني: أن المراد: ثم بعثناكم أنبياء. يعني: أنهم بعد الإحياء سألوا أن يبعثوا أنبياء فبعثهم الله أنبياء، وهذا قول السدي (٨).

قال السدي: " فماتوا. فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا

أنتيتهم وقد أهلكت خيارهم؟ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا « ١ »

فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل، ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا رجلا رجلا ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون. قال: فذلك قوله: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ} (٩).

والصحيح هو الجمع بين القولين، فيكون تفسير الآية: {فَأَخَذْنَاكُمْ الصَّاعِقَةَ}، ثم أحييناكم {من بعد موتكم}، {وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}، إلى إحيائنا إياكم من بعد موتكم، {ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ}، أنبياء {لعلكم

تشكرون} (١٠).

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة : ٥٦]، أي: "لتشكروا الله سبحانه وتعالى" (١١).

عن عون بن عبد الله: قوله: " {لَعَلَّكُمْ} "لعل" من الله واجبة" (١٢).

القرآن

{وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوىَ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)} [البقرة : ٥٧]

التفسير:

(١) تفسير الطبري: ٨٥/٢.

(٢) أخرجه الطبري (٩٦٠):ص ٨٩/٢.

(٣) أخرجه الطبري (٩٦١):ص ٨٩/٢.

(٤) أنظر: تفسير الطبري (٩٦٠):ص ٨٩/٢.

(٥) أنظر: تفسير الطبري (٩٦١):ص ٨٩/٢.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٤٣):ص ١١٢/١، والطبري (٩٦٠):ص ٨٩/٢.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٤٤):ص ١١٢/١.

(٨) أنظر: تفسير الطبري (٩٥٥):ص ٨٥/٢.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٤٥):ص ١١٣/١، والطبري (٩٥٥):ص ٨٥/٢.

(١٠) تفسير الطبري: ٨٥/٢.

(١١) تفسير ابن عثيمين: ١٩٣/١. (بتصرف بسيط).

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٤٦):ص ١١٣/١.

واذكروا نعمتنا عليكم حين كنتم تنتهون في الأرض؛ إذ جعلنا السحاب مظلاً عليكم من حرِّ الشمس، وأنزلنا عليكم المنّ، وهو شيء يشبه الصمغ طعمه كالعسل، وأنزلنا عليكم السّلوى وهو طير يشبه السّمائي، وقلنا لكم: كلوا من طيبات ما رزقناكم، ولا تخالفوا دينكم، فلم تمتثلوا. وما ظلمونا بكفران النعم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون؛ لأن عاقبة الظلم عائدة عليهم.

قوله تعالى: {وَوَظَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ} [البقرة: ٥٧]، "أي سترناكم بالسحاب من حر الشمس وجعلناه عليكم كالظّلة"^(١).

قال قتادة: "كان هذا في البرية، ظلل الغمام من الشمس"^(٢). وروي عن الحسن نحو ذلك^(٣). و(الغَمَامُ): جمع (غمامة)، كما السحاب جمع سحابة، (والغمام) هو ما غم السماء فألبسها من سحاب وقتام، وغير ذلك مما يسترها عن أعين الناظرين. وكل مغطى فالعرب تسميه مغموماً^(٤)، وأصل الغمام من (الغم): ستر الشيء، ومنه: الغمام لكونه ساتراً لضوء الشمس. قال تعالى: {يَأْتِيهِمْ اللهُ فِي ظِلٍّ مِنَ الْغَمَامِ} [البقرة: ٢١٠]. والغمى مثله، ومنه: غم الهلال، ويوم غم، وليلة غمة وغمى، قال الشاعر^(٥):

ليلة غمى طامس هلالها ... أو غلتها ومكره إيغالها
وغمة الأمر أي كربة، ومنه قوله تعالى: {ثُمَّ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ أَمْرُكُمْ غَمَةً} [يونس: ٧١]، يقال: غم وغمة. أي: كرب وكربة، والغمامة: خرقة تشد على أنف الناقة وعينها، وناصية غماء: تستر الوجه^(٦).

وفي {الغَمَامِ} الذي ظلله الله عليهم، قولان:
أحدهما: أنه السحابة، قاله قتادة^(٧)، والحسن^(٨)، والربيع أنس^(٩)، وأبي مجلز^(١٠)، والضحاك^(١١)، والسدي^(١٢)، وقاتدة^(١٣).

الثاني: أنه الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة، لم يكن إلا لهم، قال تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} [البقرة: ٢١٠]. قاله مجاهد^(١٤).

قال مجاهد: "ليس بالسحاب، هو الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة، ولم يكن إلا لهم"^(١٥).
الثاني: أنه السحاب البارد الذي يكون به الجو بارداً، ويتولد منه رطوبة، فيبرد الجو. حكاه ابن جريج^(١).

- (١) صفوة التفاسير: ٥٢/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٤٨): ص ١١٣/١.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ص ١١٣/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ٩٠/٢. وتفسير القرطبي: ٤٠٥/١-٤٠٦.
(٥) الرجز في اللسان (غم)؛ والمجمل ٦٨٠/٣؛ والمشوف المعلم ٥٥٣/٢؛ وأساس البلاغة (غمم)، ولم ينسب. وإصلاح المنطق ص ٢٨٢.
(٦) انظر مفردات ألفاظ القرآن، الراغب: ٥٧٩-٥٨٠.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٤٨): ص ١١٣/١.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ص ١١٣/١.
(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١١٣/١.
(١٠) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١١٣/١.
(١١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١١٣/١.
(١٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١١٣/١.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٤٨): ص ١١٣/١.
(١٤) أنظر: تفسير الطبري (٩٦٢)، و(٩٦٣): ص ٩٠/٢، وتفسير ابن أبي حاتم (٥٤٩): ص ١١٣/١.
(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٤٩): ص ١١٣/١.

قال ابن جريج: قال آخرون: هو غمام أبرد من هذا وأطيب^(٢).
والقول الأول هو قول جمهور أهل التفسير، وهو الأقرب إلى الصواب - والله أعلم -
وقوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} [البقرة: ٥٧]، أي و"أنعمنا عليكم"^(٣) بالمن
والسلوى.

قال قتادة: "كان المن ينزل عليهم مثل الثلج"^(٤).
واختلف في «المن» ما هو وتعيينه على أقوال:
أحدها: أنه الترنجيبين^(٥) - بتشديد الراء وتسكين النون ذكره النحاس، ويقال: الطرنجيبين بالطاء -
قاله، وعامر^(٦)، والضحاك^(٧)، وعلى هذا أكثر المفسرين^(٨).
الثاني: أنه صمغة حلوة. قاله مجاهد^(٩).
الثالث: أنه شراب. قاله الربيع بن انس^(١٠).

قال الربيع: "كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء، ثم يشربونه"^(١١).
وقال قتادة: "يسقط عليهم في محلثهم سقوط الثلج، أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل،
يسقط عليهم من طلوع الفجر، إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا
تعدى ذلك فسد ولم يبق، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه
لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشتته ولا لشيء يطلبه، وهذا كله في البرية"^(١٢).
الرابع: أنه العسل. قاله عامر أيضا^(١٣)، ومنه قول أمية بن الصلت في وصف تيه بني اسرائيل
وما رزقوا فيه^(١٤):

-
- (١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥٥٠): ص ١١٣/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٥٠): ص ١١٣/١.
(٣) صفوة التفسير: ٥٢/١.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٦٨): ص ٩٢/٢.
(٥) ويصح بالتاء (الترنجيبين) راجع لسان العرب: ٩٦ / ١٠، وهو ظل ينزل من الهواء ويجتمع على أطراف الشجر
في بعض البلدان، وقيل: هو ندى شبيه العسل جامد متحبب ينزل من السماء، وقيل: يشبه الكمأة.
(٦) أنظر: تفسير الطبري (٩٧٧): ص ٩٣/٢.
(٧) نقله الثعلبي عنه، انظر: تفسيره: ٢٠٠/١، ونسبه في زاد المسير (٧١ / ١) : الى ابن عباس ومقاتل، وذكر بقية
الأقوال.
(٨) وكونه المراد بالمن في الآية قول الأكثر كما أفاده البيهقي في معالم التنزيل: ٩٧/١، والقرطبي في الجامع لأحكام
القرآن: ٤٠٦/١، وأبو حيان في البحر المحيط: ٢١٤/١، والخازن في لباب التأويل: ٤٧١، والشوكاني في فتح
القدير: ١٢٩/١. وقال به ابن عباس في رواية عنه ومقاتل كما في زاد المسير لابن الجوزي: ٨٤/١، وقال به أيضاً:
ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: ٤٩، والسمرقندي في بحر العلوم: ١٢١/١، والزمخشري في الكشاف: ٢٨٢/١،
والواحدي في كتابيه الوسيط: ١٤٢/١، والوجيز: ١٤٢/١، والرازي في مفاتيح الغيب: ٩٣/١، والبيضاوي في أنوار
التنزيل: ٥٧/١، وأبو السعود في إرشاد العقل السليم: ١٠٤/١.
(٩) أنظر: تفسير الطبري (٩٦٦): ص ٩٢/٢.
(١٠) أخرجه الطبري (٩٦٩): ص ٩٢/٢.
(١١) أخرجه الطبري (٩٦٩): ص ٩٢/٢.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٥٦): ص ١١٤/١.
(١٣) أنظر: تفسير الطبري (٩٧١): ص ٩٢/٢.
(١٤) ديوانه: ٣٤ - ٣٥. في الأصول والديوان. " ولا مثمورا ". مضيع: بموضع ضياع وهوان وهلاك. يقال:
هو بدار مضیعة (بفتح الميم وكسر الضاد)، كأنه فيها ضائع. وهو مفعلة، وطرح التاء منها كما يقولون: المنزل
والمنزلة. ومزرع: مصدر ميمي من " زرع " يعني ليس بذی زرع، ومعمر: أي أهل ذهب خرابه. ونصب "
ولا معمرورا "، عطفاً على محل " بذی مزرع "، وهو نصب. وأثرت هذه الكلمة، لأنها هي التي تتفق مع سياقه
الشعر، ولأن التحريف في " معمر " و " مثمور " سهل، ولما سترى في شرح البيت الثالث.

فرأى الله أنهم بمَضِيْع ... لا بذِي مَزْرَع ولا معمورا
قَنَسَاها عليهم غاديات ... ومرى مزنهم خلایا وخورا
عسلا ناطفا وماء فراتا ... وحليبا ذا بهجة مثمورا
المثمور : الصافي من اللبن، فجعل المن الذي كان ينزل عليهم عسلا ناطفا، والناطف : هو
القاطر^(١).

قال عامر: "عسلکم هذا جزء من سبعین جزءا من المن"^(٢).
الخامس: أنه خبز الرقاق. قاله وهب^(٣).

قال وهب: "خبز الرقاق مثل الذرة أو مثل النقي"^(٤).

السادس: أنه الزنجبيل. قاله السدي^(٥).

قال السدي: "فأنزل الله عليهم المن، فكان يسقط على شجرة الزنجبيل"^(٦).

وروي عن عكرمة قال: المن شيء أنزله الله عليهم مثل الطل، شبه الرب الغليظ"^(٧).
والراجح أن "المن" هو : "كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب، وغير ذلك، مما ليس
لهم فيه عمل ولا كد، فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاما وحلاوة، وإن مزج مع الماء صار
شرابا طيبا، وإن ركب مع غيره صار نوعا آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده"^(٨)؛ وهذا
الرأي يعضده حديث الرسول-صلى الله عليه وسلم-: "الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين"^(٩).
كما يمكن إرجاع المن بأنه مادة صمغية جوية تنزل على شجر البادية تشبه الدقيق المبلول
فيه حلاوة إلى حموضة، فإن أكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مزج معه الماء صار شراباً طيباً،
وإن ركب مع غيره صار نوعاً آخر^(١٠)، وعلى هذا القول يمكن حمل أكثر أقوال المفسرين أعلاه

(١) انظر: تفسير الطبري: ٩٤/٢-٩٥. وقوله: ناطف، من نطف ينطف: قطر. وهو مشروح بعد - أي يقطر من
السماء. والفرات: أشد الماء عنوبة. ووصف اللبن بأنه ذو بهجة. وهي الحسن والنضارة، لأنه لم يؤخذ زبده،
فيريح، وتذهب لمعة الزبد منه، فاستعار البهجة لذلك. أما قوله: "مثمورا"، فهي في المطبوعة "ممرورا"،
وفي المخطوطة في الصلب كانت تقرأ "مثمورا" ثم لعب فيها قلم الناسخ في الثاء والميم، ثم كتب هو نفسه في
الهامش: "مزمورا"، ثم شرح في طرف الصفحة فقال: "المزمور: الصافي من اللبن". وذلك شيء لا وجود
له في كتب اللغة، وقد رأيت أنه كتب في البيت الأول "مثمورا"، ورجحت أن صوابها "معمورا"، ورجحت
في هذا البيت أن يكون اختلط عليه حين كتب "مثمورا" فعاد فجعلها "مزمورا".

ولم أجد "مثمورا" في كتب اللغة، ولكن يقال: الثمير والتميرة: اللبن الذي ظهر زبده وتحبب قال ابن شميل: إذا
مخض رؤي عليه أمثال الحصف في الجلد، ثم يجتمع فيصير زبدا، وما دامت صغارا فهو ثمير. ويقولون: إن
لبنك لحسن الثمر، وقد أثمر مخاضك. فكأنه قال: "مثمورا" ويعني "ثميرا"، لأن فعلا بمعنى مفعول هنا.

(٢) أخرجه الطبري(٩٧١):ص٩٢/٢.

(٣) أنظر: تفسير الطبري(٩٧٢):ص٩٢/٢.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٧):ص١١٤/١.

(٥) أنظر: تفسير الطبري(٩٧٣):ص٩٣/٢.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٥):ص١١٤/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٥٤):ص١١٤/١.

(٨) تفسير ابن كثير: ٢٦٨/١.

(٩) رواه أحمد والشيخان والترمذي، من حديث سعيد بن زيد. ورواه أيضًا أحمد والشيخان وابن ماجه، من حديث
أبي سعيد وجابر. ورواه أبو نعيم في الطب، من حديث ابن عباس وعائشة. انظر مثلا، المسند: ١٦٢٥، ١٦٢٦.
والجامع الصغير: ٦٤٦٣. وزاد المعاد لابن القيم ٣: ٣٨٣. وتفسير ابن كثير ١: ١٧٤ - ١٧٦، وقد ساق
كثيرا من طرقه.

(١٠) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/١٢٢، ومحاسن التأويل للقاسمي: ١٣٢/٢، والتحرير والتنوير لابن

عاشور: ٥٠٩/١.

عليه، باعتبار كل قول منها ذكر وصفاً للمن سواء في كيفية النزول أم مكان وجوده أم طعمه أم طريقة تناوله. والله أعلم.

وكذا اختلف في المعنى بقوله تعالى {السَّلْوَى} [البقرة: ٥٧]، على أقوال: أحدها: أنه طائر ناعم يسمى "السَّمَانِي"، قاله عامر^(١)، والضحاك^(٢). قال وهب: "سألت بنو إسرائيل موسى اللحم فقال الله: لأطعمنهم من أقل لحم يعلم في الأرض، فأرسل عليهم ريحا فأذرت عن مساكنهم السلوى وهو السمانى، مثل ميل في ميل قيد رمح في السماء، فخبوا للغد فنتن اللحم وخبز الخبز"^(٣). الثاني: أنه طائر شبيه بالسَّمَانِي. قاله السدي^(٤)، والربيع^(٥). الثالث: أنه طائر سمين، يشبه الحمام. قاله وهب^(٦). قال وهب: "طير سمين مثل الحمام فكان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت"^(٧). قال عكرمة: "عكرمة وأما السلوى فطير، كطير يكون باطنه أكبر من العصفور أو نحو ذلك"^(٨).

وقال قتادة: "كان السلوى من طير إلى الحمرة يحشرها عليهم الريح الجنوب، فكان الرجل منهم يذبح منها قدر ما يكفيه يومه، ذلك فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشيء ولا يطلبه"^(٩).

الرابع: أنه العسل^(١٠)، قال خالد بن زهير الهذلي^(١١):
وَقَاسَمَهَا بِاللَّهِ جَهْدًا لَأَنْتُمْ ... أَلْدُّ مِنَ السَّلْوَى إِذَا مَا تَشَوَّرُهَا
قال أبو إسحاق: "السلوى: طائر، وغلط خالد بن زهير، وظن أنه العسل"^(١٢).
وقد اختلف الروايات في سبب تظليل الله جل ثناؤه الغمام، وإنزاله المن والسلوى على هؤلاء القوم؟

(١) انظر: تفسير الطبري (٩٨٧)، و(٩٨٩): ص ٩٦/٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري (٩٩٠): ص ٩٧/٢.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٦١): ص ١١٥/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري (٩٨٠): ص ٩٦/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري (٩٨٦): ص ٩٧/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري (٩٨٤): ص ٩٦/٢.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٦٣): ص ١١٦/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٦٤): ص ١١٦/١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٦٢): ص ١١٥/١.
(١٠) ذكره الثعلبي في "تفسيره" عن المؤرج السدوسي ١/ ٧٥ أ، وعن ابن الأعرابي: السلوى: طائر، وهو في غير القرآن: العسل، ونحوه عن ابن الأنباري "التهذيب" (سلا) ١٧٢٦/٢.
(١١) ورد البيت في "شرح أشعار الهذليين" ١/ ٢١٥، "تهذيب اللغة" (سلا) ٢/ ١٧٢٦، "تفسير الطبري" ٨/ ١٤١، "الصاحح" (سلا) ٦/ ٢٣٨١، "تفسير الثعلبي" ١/ ٧٥ أ، "المخصص" ٥/ ١٥، ١٤/ ٢٤١، "اللسان" (سلا) ٤/ ٢٠٨٦، "تفسير القرطبي" ١/ ٣٤٧، "البحر المحيط" ١/ ٢٠٥، ٤/ ٢٧٩، "الدر المصون" ١/ ٣٧٠، "فتح القدير" ١/ ١٣٨، "الخرزانه" ٥/ ٨٢، "زاد المسير" ١/ ٨٤.
والبيت من قصيدة لخالد بن زهير يخاطب أبا ذؤيب الهذلي، في قصة حصلت بينهما حول امرأة كانا يترددان عليها، ذكرها السكري في "شرح أشعار الهذليين". و (السلوى) هاهنا: العسل، و (الشور): أخذ العسل من مكانه.
(١٢) التفسير البسيط: ٢/ ٥٤٩، وعلى هذا فقد غلط كذلك ابن عطية في "تفسيره" ١/ ٣٠٦، وانظر "تفسير القرطبي" ١/ ٣٤٨.

وأقرب الروايات أنه: "لما تاب الله على قوم موسى، وأحيا السبعين الذين اختارهم موسى بعد ما أماتهم، أمرهم الله بالسير إلى أريحا، وهي أرض بيت المقدس . فساروا حتى إذا كانوا قريبا منها بعث موسى اثني عشر نقيبا . فكان من أمرهم وأمر الجبارين وأمر قوم موسى، ما قد قص الله في كتابه، فقال قوم موسى لموسى : {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنُ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [المائدة : ٢٤]، فغضب موسى فدعا عليهم فقال : {قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة : ٢٥]، فكانت عَجَلُهُ من موسى عجلها، فقال الله تعالى: {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة : ٢٦]، فلما ضرب عليهم التيه، ندم موسى، وأتاه قومه الذين كانوا معه يطيعونه فقالوا له : ما صنعت بنا يا موسى ؟ فلما ندم، أوحى الله إليه : أن لا تأس على القوم الفاسقين - أي لا تحزن على القوم الذين سميتهم فاسقين - فلم يحزن، فقالوا : يا موسى كيف لنا بماء ههنا ؟ أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن - فكان يسقط على شجر الترنجيبين - والسلوى وهو طير يشبه السماني فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير، إن كان سميئا ذبحة وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه . فقالوا : هذا الطعام، فأين الشراب ؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، فشرب كل سبط من عين . فقالوا : هذا الطعام والشراب ؟ فأين الظل ؟ فظل عليهم الغمام . فقالوا : هذا الظل، فأين اللباس ؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان، ولا يتخرق لهم ثوب، فذلك قوله : {وَوَطَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى} [البقرة : ٥٧]، وقوله : {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ} [البقرة : ٦٠] (١).

قوله تعالى: {كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة: ٥٧]، "أي: وقلنا لهم كلوا من لذائذ نعم الله" (٢).

قال الحسن: "أما إنه لم يذكر أصفركم وأحمركم ولكنه قال ينتهون إلى حلاله" (٣).
قوله تعالى: {وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [البقرة : ٥٧]، "أي: و ما نقصونا شيئا، لا يظلمون بهذا إلا أنفسهم" (٤).
عن الحسن: "ولكن كانوا أنفسهم يظلمون": قال : "ينقصون" (٥).

القرآن

{وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فكلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة : ٥٨]

التفسير:
واذكروا نعمتنا عليكم حين قلنا: ادخلوا مدينة "بيت المقدس" فكلوا من طيباتها في أي مكان منها أكلا هنيئا، وكونوا في دخولكم خاضعين لله، ذليلين له، وقولوا: ربنا ضع عنا ذنوبنا، نستجب لكم ونعف ونسترها عليكم، وسنزيد المحسنين بأعمالهم خيرا وثوابا.
قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ} [البقرة: ٥٨]، أي: "واذكروا يا بني إسرائيل إذ قلنا ادخلوا هذه القرية" (٦).

(١) انظر الأخبار في: تفسير الطبري: ٩٧/٢-٩٨.

(٢) صفوة التفاسير: ٥٢/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٦٥): ص ١١٦/١.

(٤) تفسير ابن عثيمين: ١٩٦/١.

(٥) انظر: تفسير يحيى بن سلام: ٦٢/١.

(٦) تفسير ابن عثيمين: ١٩٩/١.

واختلفوا في تعيين {القرية}، على قولين:
الأول: أنها بيت المقدس. قاله قتادة^(١)، والسدي^(٢)، والربيع^(٣)، وهو قول الجمهور^(٤).
الثاني: أنها: الرملة والأردن وفلسطين وتدمر، قاله الضحاك^(٥).
والراجح هو القول الأول، وهو قول الجمهور. والله أعلم.
قوله تعالى: {فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا} [البقرة: ٥٨]، "أي كلوا منها أكلاً واسعاً
هنيئاً"^(٦).

قال مجاهد: {رغداً}: "لا حساب عليهم"^(٧).
قال السدي: "رغداً": الهنيء"^(٨).
قوله تعالى: {وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا} [البقرة: ٥٨]، "أي: وادخلوا باب القرية منحنين
متواضعين"^(٩).
قال مجاهد: "باب الحطة من باب إيلياء من بيت المقدس"^(١٠). وروي عن السدي^(١١)،
والضحاك^(١٢) نحوه.

قال مجاهد: "فدخلوا على شق"^(١٣).
عن السدي: "فدخلوا مقنعي رؤسهم"^(١٤).
قال الربيع بن انس: "وكان سجود أحدهم على خده"^(١٥).
قوله تعالى: {وَقُولُوا حِطَّةٌ} [البقرة: ٥٨]، "أي: قولوا يا ربنا حطّ عنا ذنوبنا واغفر لنا
خطايانا"^(١٦).

والـ{حِطَّةُ}: من قول القائل: "حط الله عنك خطاياك فهو يحطها حطة"^(١٧)، واختلف أهل
العلم في تفسيره على أقوال:
أحدها: أن معناه: احطط عنا خطايانا، وهو قول الحسن^(١٨)، وقتادة^(١٩)، وعطاء^(٢٠). قال به كثير من
أهل العلم^(١).

-
- (١) أنظر: تفسير الطبري (٩٩٩): ص ١٠٢/٢.
(٢) أنظر: تفسير الطبري (١٠٠٠): ص ١٠٢/٢-١٠٣.
(٣) أنظر: تفسير الطبري (١٠٠١): ص ١٠٣/٢.
(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٤٠٩/١.
(٥) نقلاً: عن تفسير الثعلبي: ٢٠١/١، وتفسير القرطبي: ٤٠٩/١.
(٦) صفوة التفاسير: ٥٢/١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٧٠): ص ١١٧/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٧١): ص ١١٧/١.
(٩) صفوة التفاسير: ٥٢/١.
(١٠) أنظر: تفسير الطبري (١٠٠٣): ص ١٠٣/٢، وتفسير ابن أبي حاتم (٥٧٤): ص ١١٧/١.
(١١) أنظر: تفسير الطبري (١٠٠٥): ص ١٠٤/٢.
(١٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١١٧/١.
(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١١٨/١. ذكر نحوه عن السدي.
(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١١٨/١. ذكر نحوه عن السدي.
(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٧٨): ص ١١٨/١.
(١٦) صفوة التفاسير: ٥٢/١.
(١٧) تفسير الطبري: ١٠٥/٢.
(١٨) أنظر: تفسير الطبري (١٠٠٩): ص ١٠٥/٢، وابن أبي حاتم (٥٨٤): ص ١١٩/١.
(١٩) انظر: ابن أبي حاتم (٥٨٤): ص ١١٩/١.
(٢٠) أنظر: تفسير الطبري (١٠١٤): ص ١٠٦/٢.

الثاني: أن معناه: قولوا "لا إله إلا الله". روي ذلك عن عكرمة^(٢)، كأنهم وجهوا تأويله : قولوا الذي يحط عنكم خطاياكم، وهو قول لا إله إلا الله .
الثالث: أن {حِطَّةٌ} المغفرة، فكأنه أمر بالاستغفار، قاله عطاء^(٣)، والحسن^(٤)، وقتادة^(٥)، والربيع بن أنس^(٦).

وأحسن هذه الوجوه وأقربها إلى التحقيق القول الأول، والله أعلم.
قوله تعالى: {نَعْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ} [البقرة: ٥٨]، "أي نمح ذنوبكم ونكفر سيئاتكم"^(٧).
قال قتادة: "من كان خاطئاً غفرت له خطيئته"^(٨).
قوله تعالى: {وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ٥٨]، "أي نزيد من أحسن إحساناً، بالثواب العظيم، والأجر الجزيل"^(٩).
قال قتادة: "من كان محسناً زيد في إحسانه"^(١٠).

القرآن

{فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [البقرة : ٥٩]

التفسير:

فبدل الجائرون الضالون من بني إسرائيل قول الله، وحرّفوا القول والفعل جميعاً، إذ دخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شعرة، واستهزءوا بدين الله، فأنزل الله عليهم عذاباً من السماء؛ بسبب تمردهم وخروجهم عن طاعة الله.

قوله تعالى: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ} [البقرة: ٥٩]، أي: "فاختار الذين ظلموا منهم على وجه التبديل والمخالفة قولاً غير الذي أمروا أن يقولوه، فقالوا خلافه"^(١١).
واختلف في قوله تعالى: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ} [البقرة: ٥٩] على

وجهين :

أحدها: أنهم: "دخلوا الباب يزحفون على أستاهم، وقالوا : حبة في شعيرة". روي ذلك عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-^(١٢)، وعلى هذا القول عامة المفسرين، وقد روي عن عطاء^(١)، ومجاهد^(٢)، وعكرمة^(٣)، وقتادة^(٤)، والضحاك^(٥)، والحسن^(٦)، والربيع^(٧)، ويحيى بن رافع^(٨) نحو ذلك.

(١) انظر: غريب القرآن وتفسيره للزبيدي: ٧٠، معاني القرآن للأخفش: ٢٦٩/١، تفسير ابن أبي حاتم: ١٨٥/١، النكت والعيون للماوردي: ١٢٦/١، المفردات للراغب: ١٢٢، الكشاف للزمخشري: ٢٨٣/١، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٥٨/١، إرشاد العقل السليم لأبي السعود: ١٠٤/١، محاسن التأويل للقاسمي: ١٣٤/٢، وغيرها.

(٢) أنظر: تفسير الطبري (١٠١٥): ص ١٠٧/٢، وابن أبي حاتم (٥٨٢): ص ١١٨/١.

(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١١٨/١.

(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١١٨/١.

(٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١١٨/١.

(٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١١٨/١.

(٧) صفوة التفاسير: ٥٢/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٨٥): ص ١١٩/١.

(٩) صفوة التفاسير: ٥٢/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٨٦): ص ١١٩/١.

(١١) انظر: تفسير الطبري: ١١٢/٢، وتفسير ابن عثيمين: ٢٠١/١.

(١٢) عن أبي هريرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله لبني إسرائيل : " ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم " ، فبدلوا ودخلوا الباب يزحفون على أستاهم ، وقالوا : حبة في شعيرة . (رواه أحمد في المسند : ٨٢١٣ ج ٢ ص ٣١٨ حليبي) ، عن عبد الرزاق ، بهذا الإسناد ، ولكن بلفظ " حبة في شعرة " . وكذلك

الثاني: أنهم قالوا: حنطة حمراء فيها شعيرة. قاله عكرمة^(٩)، وأبو الكنود^(١٠).
وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول
والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجداً، فدخلوا يزحفون على أستاذهم من قبل أستاذهم رافعي رؤوسهم،
وأمروا أن يقولوا: حطة، أي: احطط عنا ذنوبنا، فاستهزؤوا فقالوا: حنطة في شعرة، وهذا في
غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن
طاعته؛ ولهذا قال: {فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}^(١١)، ومعنى
السجود في قوله تعالى عند الدخول، أي: "الانحناء شكراً لله تعالى لا لأن بابها قصير كما قيل، إذ لا
جدوى له، والظاهر أن المقصود من السجود مطلق الانحناء لإظهار العجز والضعف كيبلا يفطن لهم
أهل القرية وهذا من أحوال الجوسسة، ولم تتعرض لها التوراة ويبعد أن يكون السجود المأمور به
سجود الشكر لأنهم داخلون متجسسين لا فاتحين وقد جاء في الحديث الصحيح أنهم بدلوا وصية
موسى فدخلوا يزحفون على أستاذهم كأنهم أرادوا إظهار الزمانة فأفراطوا في التصنع بحيث يكاد أن
يفتضح أمرهم لأن بعض التصنع لا يستطاع استمراره"^(١٢).
قوله تعالى: {فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ} [البقرة: ٥٩]، أي: "فأنزل الله عليهم
عذاباً من السماء؛ بسبب تمردهم وخروجهم عن طاعة الله"^(١٣).
واختلف أهل التفسير في معنى "الرجز"، في قوله تعالى: {فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا
مِنَ السَّمَاءِ} [البقرة: ٥٩]، على أقوال:
أحدها: أنه الطاعون، قاله سعيد بن جبير^(١٤)، وهو قول الجمهور^(١٥).
وروي عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص عن سعد بن مالك وأسامة بن زيد وخزيمة بن
ثابت قالوا: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم: الطاعون رجز عذاب، عذب به قوم من
الثاني: أنه الغضب. وهو قول أبي العالية^(١).

رواه البخاري ٦ : ٣١٢ ، و ٨ : ٢٢٨ - ٢٢٩ (فتح الباري) ، من طريق عبد الرزاق. وذكر الحافظ (٨ : ٢٢٩) أن
لفظ "شعرة" رواية أكثر رواة البخاري ، وأن رواية الكشميهني "شعيرة" . وذكره ابن كثير ١ : ١٨٠ ، ونسبه
أيضاً لمسلم والترمذي ، من رواية عبد الرزاق).

- (١) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٢٠/١.
- (٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٢٠/١.
- (٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٢٠/١.
- (٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٢٠/١.
- (٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٢٠/١.
- (٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٢٠/١.
- (٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٢٠/١.
- (٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٢٠/١.
- (٩) أنظر: تفسير الطبري(١٠٣١):ص:١١٥/٢.
- (١٠) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٥٨٨):ص:١١٩/١.
- (١١) تفسير ابن كثير: ٢٧٧/١.
- (١٢) انظر: تفسير ابن عاشور: ٥١٥.
- (١٣) التفسير الميسر: ٩.
- (١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٢٠/١.
- (١٥) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٧٧/١-٢٧٨. واختاره جماعة من أهل التفسير منهم ابن عاشور.(انظر: تفسيره:
٥١٦/١). والطاعون: قيل: هو مرض خاص معروف عن العلماء والأطباء، وقيل: بل هو كل مرض عام (وباء)
، يؤدي إلى وفاة الكثيرين من الناس، وبذلك فإن كل مرض يسمى طاعوناً ويكون سببه معلوماً حسب قواعد الطب
الحسي فإنه ليس طاعوناً على الحقيقة، أي ليس بالطاعون الذي جاءت به الأحاديث، بل قد يكون وباء.
- (١٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٩١):ص:١٢٠/١.

الثالث: أنه العذاب. قاله قتادة^(٢)، والحسن^(٣)، وأبو مالك^(٤)، ومجاهد^(٥)، والسدي^(٦).
الرابع: وقيل: إما الطاعون أو اليرد. قاله الشعبي^(٧).

والقول الأول هو الأقرب إلى الصواب، وذلك لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الطاعون رجزٌ أو عذابٌ أرسلَ على بني إسرائيلَ أو على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرضٍ فلا تقدّموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه"^(٨)، وقد روى أنه مات منهم في ساعة بالطاعون أربعة وعشرون ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً^(٩).
قوله تعالى: {يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [البقرة: ٥٩]، أي: بما كانوا "يعصون ويخرجون من أمر الله تعالى"^(١٠).

قال قتادة: "بما كانوا يعصون"^(١١).

قال ابن إسحاق: "أي: بما تعدوا في أمري"^(١٢).
وقرأ النخعي: {يفسقون}، بكسر السين^(١٣).

القرآن

{وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [البقرة: ٦٠]
التفسير:

واذكروا نعمتنا عليكم - وأنتم عطاش في النّية- حين دعانا موسى -بضراعة- أن نسقي قومه، فقلنا: اضرب بعصاك الحجر، فاضرب، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، بعدد القبائل، مع إعلام كل قبيلة بالعين الخاصة بها حتى لا يتنازعوا، وقلنا لهم: كلوا واشربوا من رزق الله، ولا تسعوا في الأرض مفسدين.

قوله تعالى: {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ} [البقرة: ٦٠]، "أي اذكروا يا بني إسرائيل حين طلب موسى السقيا لقومه وقد عطشوا في النّية"^(١٤).

قال قتادة: "فاستسقى موسى، فأمر بحجر أن يضربه بعصاه"^(١٥).

وقال قتادة: "كان هذا إذ هم في البرية اشتكوا إلى نبيهم الظمّ، فأمروا بحجر طوري - أي: من الطور - أن يضربه موسى بعصاه . فكانوا يحملونه معهم، فإذا نزلوا ضربه موسى بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، لكل سبط عين معلومة مستفيض ماؤها لهم"^(١).

(١) أنظر: تفسير الطبري (١٠٣٩): ص ١١٧/٢.

(٢) أنظر: تفسير الطبري (١٠٣٨): ص ١١٧/٢.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥٩٢): ص ١٢٠/١.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥٩٢): ص ١٢٠/١.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥٩٢): ص ١٢٠/١.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥٩٢): ص ١٢٠/١.

(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥٩٤): ص ١٢٠/١، وانظر: تفسير ابن كثير: ٢٧٧/١-٢٧٨.

(٨) رواه البخاري (٣٤٧٣)، ومسلم (٢٢١٨) عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما .

(٩) انظر: تفسير الكشاف: ١٤٣/١.

(١٠) تفسير اليعقوبي: ٩٩/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٩٥): ص ١٢٠/١.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٩٦): ص ١٢٠/١.

(١٣) المحرر الوجيز: ١٥١/١.

(١٤) صفوة التفاسير: ٥٤/١.

(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٩٧): ص ١٢١/١.

واختلف أهل التفسير في نوع (الألف واللام) في قوله {الْحَجَرِ} [البقرة: ٦٠]، على وجهين^(٢): أحدهما: أن (الألف واللام) للجنس، "أي: اضرب الشيء الذي يقال له الحجر"^(٣)، وعلى هذا أنه لم يكن حجرا معينا، بل كان موسى يضرب أي حجر كان من عرض الحجارة فينفجر عيوننا لكل سبط عين، وكانوا اثني عشر سبطا ثم تسيل كل عين في جدول إلى السبط الذي أمر أن يسقيهم. وهذا قول وهب بن منبه^(٤).

وعن الحسن: "لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه"^(٥).
الثاني: أن (الألف واللام) للعهد، وعليه أنه كان حجرا مخصوصا بعينه، وقد روي عن قتادة^(٦)، بأنه كان حجرا من جبل الطور.

ثم اختلفوا في تحديده، على أقوال:
أحدها: أنه كان مثل رأس الثور. قاله عطية العوفي^(٧).
الثاني: كان الحجر من الكدان، قاله أبو روق^(٨).
الثالث: أنه الحجر الذي وضع موسى ثوبه عليه ليغتسل حين رموه بالأدرة^(٩). قاله سعيد بن جبير^(١٠).

قوله تعالى: {فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا} [البقرة: ٦٠]، "أي فاضرب فتدفق الماء منه بقوة وخرجت منه اثنتا عشرة عينا بقدر قبائلهم"^(١١).
قال مجاهد: "خافوا الظما في تيههم حين تاهوا، فانفجر لهم الحجر اثنتي عشرة عينا، ضربه موسى"^(١٢).

قوله تعالى: {قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ} [البقرة: ٦٠]، "أي علمت كل قبيلة مكان شربها لئلا يتنازعوا"^(١٣).

قال مجاهد: "لكل سبط منهم عين، كل ذلك كان في تيههم حين تاهوا"^(١٤).
قال سعيد بن جبير: "كان موسى يضع الحجر ويقوم من كل سبط رجل، ويضرب موسى الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عينا، فينتضح من كل عين على رجل فيدعو ذلك الرجل سبطه إلى تلك العين"^(١٥).

قوله تعالى: {كُلُوا واشربوا من رزق الله ولا تَعْتُوا في الأرض مُفْسِدِينَ} [البقرة: ٦٠]، "أي قلنا لهم: كلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذا الماء، من غير كد منكم ولا تعب، بل هو من خالص إنعام الله، ولا تطغوا في الأرض بأنواع البغي والفساد"^(١).

(١) أخرجه الطبري (١٠٤٣): ص ١٢٠/٢.

(٢) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٠٣/١، و تفسير البغوي: ١٠٠/١، والكشاف: ١٤٤/١.

(٣) الكشاف: ١٤٤/١.

(٤) نقله عنه الثعلبي في تفسيره: ٢٠٣/١، وانظر: تفسير البغوي: ١٠٠/١.

(٥) الكشاف: ١٤٤/١. وقال: "وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة".

(٦) أنظر: تفسير الطبري (١٠٤٣): ص ١٢٠/٢.

(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥٩٩): ص ١٢١/١.

(٨) أنظر: تفسير الثعلبي: ٢٠٣/١.

(٩) الأدرة: نفخ في الخصيتين.

(١٠) أنظر: تفسير الثعلبي: ٢٠٣/١.

(١١) صفوة التفاسير: ٥٤/١.

(١٢) أخرجه الطبري (١٠٤٧): ص ١٢٠/٢.

(١٣) صفوة التفاسير: ٥٤/١.

(١٤) أخرجه الطبري (١٠٤٦): ص ١٢٠/٢.

(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٠٥): ص ١٢٢/١.

قال أبو العالية: " يقول: لا تسعوا في الأرض فساداً"^(٢). وروي عن اقتادة^(٣)، نحو ذلك.
وقال أبو مالك: " يعني: لا تمشوا بالمعاصي"^(٤).

القرآن

{وَادِّ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)} [البقرة: ٦١]

التفسير:

واذكروا حين أنزلنا عليكم الطعام الحلو، والطير الشهي، فبطرتم النعمة كعادتكم، وأصابكم الضيق والملل، فقلتم: يا موسى لن نصبر على طعام ثابت لا يتغير مع الأيام، فادع لنا ربك يخرج لنا من نبات الأرض طعاماً من البقول والخضر، والقثاء والحبوب التي تؤكل، والعدس، والبصل، قال موسى -مستنكراً عليهم-: أتطلبون هذه الأطعمة التي هي أقل قدرًا، وتتركون هذا الرزق النافع الذي اختاره الله لكم؟ اهبطوا من هذه البادية إلى أي مدينة، تجدوا ما اشتهيتم كثيرًا في الحقول والأسواق، ولما هبطوا تبين لهم أنهم يُقدِّمون اختيارهم في كل موطن -على اختيار الله، ويؤثرون شهواتهم على ما اختاره الله لهم؛ لذلك لزمتهم صفة الذل وفقر النفوس، وانصرفوا ورجعوا بغضب من الله؛ لإعراضهم عن دين الله، ولأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين ظلمًا وعدوانًا؛ وذلك بسبب عصيانهم وتجاوزهم حدود ربهم.

قوله تعالى: {وَادِّ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ} [البقرة: ٦١]، أي: "واذكروا حين أنزلنا عليكم الطعام الحلو، والطير الشهي، فبطرتم النعمة كعادتكم، وأصابكم الضيق والملل، فقلتم: يا موسى لن نصبر على طعام ثابت لا يتغير مع الأيام"^(٥).

قال قتادة: ملوا طعامهم، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه قبل ذلك"^(٦).

قال عمرو بن حماد: "أجموا، يعني: بشموا، قال أبو زرعة: فأجموا: أي: كرهوه"^(٧).

قوله تعالى: {فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا} [البقرة: ٦١]، أي: "فادع لنا ربك يخرج لنا من نبات الأرض طعاماً من البقول والخضر، والقثاء والحبوب التي تؤكل، والعدس، والبصل"^(٨).

قال قتادة: "إنهم لما قدموا الشام فقدوا أطعمتهم التي كانوا يأكلونها فقالوا: فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها"^(٩).

قال الحسن: "فبطروا ذلك ولم يصبروا عليه وذكروا عيشهم الذي كانوا يعيشون فيه، وكانوا قوما أهل أعداس وبصل وبقول وفوم، فذكروا عيشهم من ذلك فقالوا: {وَادِّ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ

(١) صفوة التفاسير: ٥٤/١.

(٢) أخرجه الطبري (١٠٥٠): ص ١٢٣/٢.

(٣) أخرجه الطبري (١٠٥٢): ص ١٢٣/٢.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٠٨): ص ١٢٢/١.

(٥) التفسير الميسر: ٩.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٦١١): ص ١٢٣/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٦١٠): ص ١٢٢/١.

(٨) التفسير الميسر: ٩.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٦١٢): ص ١٢٣/١.

عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَأَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا"^(١).

قال أبو العالية: "كان طعامهم السلوى وشرابهم المن، فسألوا ما ذكروا"^(٢).

وذكر السادة التابعون في قوله تعالى: {وَفُومِهَا} [البقرة: ٦١]، وجهين اثنين:

أحدهما: أنه (الحنطة)، قاله قتادة^(٣)، والحسن^(٤)، وأبو مالك^(٥)، والسدي^(٦)، وأكثر المفسرين^(٧)، وهو اختيار النحاس^(٨)، ومن ذلك قول أحيحة بن الجلاح^(٩):

قد كنت أغنى الناس شخصا واحدا ... وَرَدَ المدينة عن زراعة فوم

وقد ذكر أن تسمية الحنطة والخبز جميعا " فوما " من اللغة القديمة . حكي سماعا من أهل هذه اللغة : (فوموا لنا)، بمعنى اختبزوا لنا^(١٠).

قال الفراء: " فإن (الفوم) فيما ذكر لغة قديمة، وهي الحنطة والخبز جميعا قد ذكرا. قال

بعضهم: سمعنا العرب من أهل هذه اللغة يقولون: فوموا لنا، بالتشديد لا غير، يريدون اختبزوا"^(١١).

القول الثاني: أنه (الثوم)، قاله مجاهد^(١٢)، والربيع^(١٣)، وهو اختيار الكلبي^(١٤)، والنضر بن

شميل^(١٥)، والكسائي^(١٦)، والمعرج^(١٧)، واحتجوا عليه بوجوه^(١٨):

أحدها: يدل عليه قراءة ابن مسعود : {وثومها}^(١٩).

الثاني: أن الثوم للعدس والبصل أوفق من الحنطة، ومنه قول حسان^(٢٠):

وأنتم أناس لنام الأصول ... طعامكم الفوم والحوقل

يعني: الثوم والبصل.

الثالث: أن المراد لو كان هو الحنطة لما جاز أن يقال: أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير لأن الحنطة أشرف الأطعمة.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦١٦): ص ١٢٣/١-١٢٤.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٠٩): ص ١٢٢/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٠٦٥)، و(١٠٦٦): ص ١٢٨/٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٠٦٥)، و(١٠٦٦): ص ١٢٨/٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٠٦٧): ص ١٢٨/٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري (١٠٦٨): ص ١٢٨/٢.

(٧) أنظر: المحرر الوجيز: ١٥٣/١.

(٨) انظر: تفسير القرطبي: ١، ٤٢٥، ومعاني القرآن للفراء: ٤١/١.

(٩) والبيت في اللسان (فوم)، ونسبه لأبي محجن الثقفي، أنشده الأخفش له، وروايته:

قد كنت أحسبني كأغني واحد ... نزل المدينة ...

وفي الروض الأنف ٢ : ٤٥ نسبه لأحيحة، أو لأبي محجن، ورواه " سكن المدينة " .

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ١٣٠/٢.

(١١) معاني القرآن: ٤١/١.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (١٠٧٧): ص ١٢٩/٢.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (١٠٧٨): ص ١٢٩/٢.

(١٤) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٠٥/١، والنكت والعيون: ١٢٩/١، ومفاتيح الغيب: ٥٣٢/٣.

(١٥) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٠٥/١، والنكت والعيون: ١٢٩/١، ومفاتيح الغيب: ٥٣٢/٣.

(١٦) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٠٥/١، والنكت والعيون: ١٢٩/١، ومفاتيح الغيب: ٥٣٢/٣.

(١٧) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٠٥/١، والنكت والعيون: ١٢٩/١، ومفاتيح الغيب: ٥٣٢/٣.

(١٨) انظر: الكشاف: ١٤/١، ومفاتيح الغيب: ٥٣٢/٣.

(١٩) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٠٥/١.

(٢٠) لم اجده في الديوان، وأورده ابن عادل الحنبلي في اللباب: ١١٧/٢، والقرطبي في تفسيره: ٤٢٥/١.

والقول الأول هو الأقرب إلى الصواب، وذلك لأن (الفوم)، الحنطة بلسان بني هاشم^(١).
 والله تعالى أعلم.
 قوله تعالى: {قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ} [البقرة: ٦١]، "أي: أتأخذون الذي هو أدنى بدلاً عن الذي هو خير"^(٢).
 قال قتادة: "يقول: أستبدلون الذي هو شر بالذي هو خير منه"^(٣). وفي لطف: "أستبدلون الذي هو أدنى - الذي هو شر - بالذي هو خير"^(٤). وروي عن الحسن نحو ذلك^(٥).
 عن مجاهد قوله: "الذي هو أدنى"، قال: أردأ^(٦).
 قوله تعالى: {اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ} [البقرة: ٦١]، أي: "اهبطوا أي مصر من الأمصار تجدون ما سألتكم"^(٧).
 قال السدي: "فلما خرجوا من التيه رفع المن والسلوى وأكلوا البقول"^(٨).
 وقد اختلف أهل التفسير في قوله تعالى {اهْبِطُوا مِصْرًا} [البقرة: ٦٦]، نظير اختلاف القراءة في قراءته، وذكروا فيه وجهين^(٩):
 أحدهما: أنه مصر من الأمصار. قاله قتادة^(١٠)، والسدي^(١١)، ومجاهد^(١٢).
 ومن حجتهم: أن الله جعل أرض الشام لبني إسرائيل مساكن بعد أن أخرجهم من مصر .
 وإنما ابتلاهم بالتية بامتناعهم على موسى في حرب الجبابرة، إذ قال لهم: {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَىٰ آدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ} قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنُذْخِلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنُذْخِلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [المائدة: ٢١ - ٢٤]، فحرم الله جل وعز على قائل ذلك دخولها حتى هلكوا في التية.
 وابتلاهم بالتيهان في الأرض أربعين سنة، ثم أهبط ذريتهم الشام، فأسكنهم الأرض المقدسة، وجعل هلاك الجبابرة على أيديهم مع يوشع بن نون - بعد وفاة موسى بن عمران . فرأينا الله جل وعز قد أخبر عنهم أنه كتب لهم الأرض المقدسة، ولم يخبرنا عنهم أنه ردهم إلى مصر بعد إخراجهم إليها منها، فيجوز لنا أن نقرأ: " اهبطوا مصر "، وتناولها أنه ردهم إليها، قالوا: فإن احتج محتج بقول الله جل ثناؤه: {فَأَخْرَجْنَاَهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الشعراء: ٥٧ - ٥٩]، قيل لهم: فإن الله جل ثناؤه إنما أورثهم ذلك، فملكهم إياها ولم يرددهم إليها، وجعل مساكنهم الشام^(١٣).

(١) تفسير الطبري: ١٢٩/٢.

(٢) تفسير ابن عثيمين: ٢١٢/١.

(٣) أخرجه الطبري (١٠٧٩): ص ١٣١/٢.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٦١٧): ص ١٢٤/١.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٢٤/١.

(٦) أخرجه الطبري (١٠٨٠): ص ١٣١/٢-١٣٢.

(٧) تفسير ابن عثيمين: ٢١٢/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٢١): ص ١٢٤/١.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ١٣٣/٢-١٣٤.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري (١٠٨١): ص ١٣٣/٢.

(١١) أنظر: تفسير الطبري (١٠٨٢): ص ١٣٣/٢.

(١٢) أنظر: تفسير الطبري (١٠٨٤): ص ١٣٣/٢.

(١٣) انظر: تفسير الطبري: ١٣٤/٢-١٣٥.

والثاني: أنه مصر التي كان فيها فرعون. قاله أبو العالية^(١)، والربيع^(٢).
ويسند هذا القول، أمران:

الأول: قوله تعالى: {فَأَخْرَجْنَاَهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاَهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الشعراء: ٥٧ - ٥٩]، وقوله تعالى: {كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِنِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاَهَا قَوْمًا آخَرِينَ} [الدخان: ٢٥ - ٢٨]، قالوا: فأخبر الله جل ثناؤه أنه قد ورثهم ذلك وجعلها لهم، فلم يكونوا يرثونها ثم لا ينتفعون بها. قالوا: ولا يكونون منتفعين بها إلا بمصير بعضهم إليها، وإلا فلا وجه للانتفاع بها، إن لم يصيروا، أو يصير بعضهم إليها.
والثاني: أنها في قراءة أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود: {اهبطوا مصر}، بغير ألف، قالوا: ففي ذلك الدلالة البينة أنها (مصر) بعينها^(٣).

قوله تعالى: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ} [البقرة: ٦١]، "أي لزمهم الذل والهوان وضرب عليهم الصغار والخزي الأبدي الذي لا يفارقهم مدى الحياة"^(٤).
عن عطية: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ}، قال: الخراج^(٥).
قال الضحاك: "والمسكنة: الجزية"^(٦).
عن الحسن وقتادة في قوله: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ}، قالوا: يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون^(٧).

قال الحسن: "أدرکتهم هذه الأمة، وإن المجوس لتجبيهم الجزية"^(٨).
قال الحسن: "أذلهم الله فلا منعة لهم، وجعلهم الله تحت أقدام المسلمين"^(٩).
عن أبي العالية: "والمسكنة" قال: الفاقة^(١٠). وروي عن السدي والربيع نحو ذلك^(١١).
عن السدي: في "قوله: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ}، قال: الفقر"^(١٢).
قوله تعالى: {وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ} [البقرة: ٦٦]، "أي: انصرفوا ورجعوا بالغضب والسخط الشديد من الله"^(١٣).

قال سعيد بن جبیر: "استوجبوا سخط"^(١٤).
قال الربيع: "فحدث عليهم غضب من الله"^(١٥).
وقال الضحاك: "استحقوا الغضب من الله"^(١٦).

(١) أنظر: تفسير الطبري (١٠٨٦): ص ١٣٤/٢.

(٢) أنظر: تفسير الطبري (١٠٨٧): ص ١٣٤/٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٣٥/٢. وانظر: تفسير القرطبي: ٤٢٩/١ وما بعدها.

(٤) صفوة التفسير: ٥٤/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٢٨): ص ١٢٥/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٢٩): ص ١٢٥/١.

(٧) تفسير الطبري (١٠٨٨): ص ١٣٧/٢.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٢٥): ص ١٢٥/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٢٦): ص ١٢٥/١.

(١٠) تفسير الطبري (١٠٨٩): ص ١٣٧/٢.

(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٥/١.

(١٢) أخرجه الطبري (١٠٩٠): ص ١٣٧/٢.

(١٣) صفوة التفسير: ٥٤/١.

(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٣٠): ص ١٢٥/١.

(١٥) أخرجه الطبري (١٠٩٢): ص ١٣٨/٢.

(١٦) أخرجه الطبري (١٠٩٣): ص ١٣٨/٢.

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [البقرة: ٦١]،
 "أي: فعلنا بهم من إحلال الذل والمسكنة والسخط بهم بسبب كفرهم بآيات الله جوداً واستكباراً
 وقتلهم رسل الله ظلماً وعدواناً"^(١).

عن الحسن: "أن الله عز وجل، ما أمر نبياً بالحرب إلا نصره فلم يُقتل، وإنما خلى بين الكفار
 وبين قتل من لم يؤمر بالقتال من الأنبياء"^(٢).

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [البقرة: ٦١]، أي: "المشار إليه ما سبق من
 كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق بسبب ارتكابهم أنواع المعاصي واعتدائهم حدود الله"^(٣).
 قال قتادة: "اجتنبوا المعصية والعدوان فإن بهما هلك من هلك قبلك من الناس"^(٤).

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا
 فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٦٢]
 التفسير:

إن المؤمنين من هذه الأمة، الذين صدقوا بالله ورسله، وعملوا بشرعه، والذين كانوا قبل بعثة محمد
 صلى الله عليه وسلم من الأمم السالفة من اليهود، والنصارى، والصابئين- وهم قوم باقون على
 فطرتهم، ولا دين مقرر لهم يتبعونه- هؤلاء جميعاً إذا صدقوا بالله تصديقاً صحيحاً خالصاً، وبيوم
 البعث والجزاء، وعملوا عملاً مرضياً عند الله، فتوابهم ثابت لهم عند ربهم، ولا خوف عليهم فيما
 يستقبلونه من أمر الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا. وأما بعد بعثة محمد صلى
 الله عليه وسلم خاتماً للنبيين والمرسلين إلى الناس كافة، فلا يقبل الله من أحد ديناً غير ما جاء به،
 وهو الإسلام.

سبب النزول:

عن مجاهد، قال: "لما قص سلمان على النبي - صلى الله عليه وسلم - قصة أصحاب الدير
 قال: "هم في النار" قال سلمان: فأظلمت علي الأرض فنزلت: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا} إلى
 قوله: {يَحْزَنُونَ} قال: فكأنما كشف عني جبل"^(٥).

قال السدي: "نزلت هذه الآية في أصحاب سلمان الفارسي، فبينما هو يحدث النبي صلى الله
 عليه وسلم إذ ذكر أصحابه فأخبره خبرهم فقال: كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك، ويشهدون
 أنك ستبعث نبياً، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له نبي الله- صلى الله عليه وسلم: يا سلمان هم
 من أهل النار، فاشتد ذلك على سلمان، فأنزل الله تعالى هذه الآية: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا
 وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، فكان إيمان اليهود أنه من تمسك بالتوراة وسنة
 موسى حتى جاء عيسى، فلما جاء عيسى كان من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمناً
 مقبولاً منه، حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم: فمن لم يتبع محمداً- صلى الله عليه وسلم- منهم
 ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل كان هالكا"^(٦). وروي عن سعيد بن جبير نحو هذا^(٧).

(١) صفوة التفاسير: ٥٤/١.

(٢) أنظر: النكت والعيون: ١٣٠/١.

(٣) الكشاف: ١٤٦/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٣٣): ص ٢٦١/١.

(٥) أسباب النزول للواحي: ٢٤، وانظر: العجائب في بيان الأسباب: ٢٥٥-٢٥٦، وتفسير

الطبري (١١١٣): ص ١٥٤-١٥٥.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٣٦): ص ١٢٧/١، والطبري (١١١٢): ص ١٥٠-١٥٤.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٢٧/١.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [البقرة : ٦٢]، أي: "إن المؤمنين من هذه الأمة، الذين صدّقوا بالله ورسله، وعملوا بشرعه، والذين كانوا قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم من الأمم السالفة من اليهود، والنصارى، والصابئين- وهم قوم باقون على فطرتهم، ولا دين مقرر لهم يتبعونه- هؤلاء جميعًا إذا صدّقوا بالله تصديقًا صحيحًا خالصًا، وبيوم البعث والجزاء، وعملوا عملاً مرضيًا عند الله"^(١).

وقد اختلفت أهل العلم في المعنيين بالـ«الصابئة»، على أقوال أحدها : أنهم قوم بين المجوس واليهود والنصارى، وليس لهم دين. قاله مجاهد^(٢)، وعطاء^(٣). الثاني: أنهم منزلة بين اليهود والنصارى. قاله سعيد بن جبير^(٤). الثالث : قبيلة بين المجوس واليهود، ولا تؤكل ذبائحهم ولا تتكح نساؤهم. قاله الحسن^(٥)، ومجاهد^(٦)، وابن أبي نجیح^(٧).

الرابع: هم فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور. قاله أبو العالية^(٨)، الضحاك^(٩)، والسدي^(١٠)، والربيع بن أنس^(١١)، وجابر بن زيد^(١٢).

الخامس : هم قوم يعيدون الملائكة ويصلون إلى القبلة. قاله قتادة^(١٣)، وزیاد بن أبيه^(١٤). السادس : أنهم طائفة من أهل الكتاب. قاله السدي^(١٥).

وأظهر الأقوال – والله أعلم – قول مجاهد: أنهم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين وإنما هم باقون على فطرتهم، ولادين مقرر يتبعونه ويقتضونه^(١٦).

نستنتج مما سبق، بأن الصابئة أحد أمرين: أحدهما: أن تكون فرقة واحدة لكن بعضهم انخرط مع المجوسية والبعض مع أهل الكتاب والبعض اعتزل جميع الأديان.

والثاني: أن تكون فرقة الصابئة، عبارة عن فرق متعددة ومذاهب متفرقة، كل فرقة لها طابع خاص تستقل به عن الفرقة الأخرى، فالجامع بينهم جميعاً المسمى – فقط – أما الحقيقة ففيه اختلاف فيما بينهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة : ٦٢]، أي: "هؤلاء جميعًا إذا صدّقوا بالله تصديقًا صحيحًا خالصًا، وبيوم البعث والجزاء، وعملوا عملاً مرضيًا عند الله، فنوابهم ثابت لهم عند ربهم"^(١).

-
- (١) التفسير الميسر: ٩.
- (٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٣٨):ص١/١٢٧.
- (٣) أنظر: تفسير الطبري(١١٠٦):ص٢/١٤٦.
- (٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٣٧):ص١/١٢٧.
- (٥) أنظر: تفسير الطبري(١١٠٣):ص٢/١٤٦.
- (٦) أنظر: تفسير الطبري(١١٠٢):ص٢/١٤٦.
- (٧) أنظر: تفسير الطبري(١١٠٤):ص٢/١٤٦.
- (٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٣٩):ص١/١٢٧، وتفسير الطبري(١١١٠):ص٢/١٤٧.
- (٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٢٧/١.
- (١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٢٧/١.
- (١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٢٧/١.
- (١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٢٧/١.
- (١٣) أنظر: تفسير الطبري(١١٠٩):ص٢/١٤٧.
- (١٤) أنظر: تفسير الطبري(١١٠٨):ص٢/١٤٧. زياد بن أبيه: هو والى العراق في زمن معاوية رضي الله عنه.
- (١٥) أنظر: تفسير الطبري(١١١١):ص٢/١٤٧.
- (١٦) انظر: تفسير ابن كثير، ١٠٤/١.

عن قتادة: {فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ}، قال: "أجر كبير لحسناتهم، وهي الجنة"^(٢).
 قوله تعالى: {وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} [البقرة: ٦٢]، "أي: ليس على هؤلاء المؤمنين خوف في
 الآخرة، حين يخاف الكفار من العقاب"^(٣).
 قال سعيد بن جبیر: "يعني في الآخرة"^(٤).
 قوله تعالى: {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٦٢]، ولا يحزنون "على ما مضى من الدنيا"^(٥).
 قال سعيد بن جبیر: "يعني: لا يحزنون للموت"^(٦).

القرآن

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣)}

[البقرة: ٦٣]

التفسير:

واذكروا -يا بني إسرائيل- حين أخذنا العهد المؤكّد منكم بالإيمان بالله وإفراده بالعبادة، ورفعنا جبل
 الطور فوقكم، وقلنا لكم: خذوا الكتاب الذي أعطيناكم بجدّ واجتهاد واحفظوه، وإلا أطبقنا عليكم
 الجبل، ولا تنسوا التوراة قولاً وعملاً كي تتقوني وتخافوا عقابي.

قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ} [البقرة: ٦٣]، أي: "اذكروا إذا أخذنا ميثاقكم"^(٧).

قال أبو العالية: "أخذ موثيقهم أن يخلصوا له ولا يعبدوا غيره"^(٨).

قال المفسرون: "إن موسى لما أتاهم بالتوراة فرأوها وما فيها من التغليظ كبر ذلك عليهم
 وأبوا أن يقبلوا ذلك، فأمر الله جبلاً من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام على رؤوسهم مثل
 الظلة، وكان العسكر فرسخاً في فرسخ والجبل كذلك، وأوحى الله إلى موسى إن قبلوا التوراة وإلا
 رضختهم بهذا الجبل، فلما رأوا ذلك وأن لا مهرب لهم، قبلوا ما فيها وسجدوا من الفزع، وجعلوا
 يلاحظون الجبل وهم سجدوا، فمن أجل ذلك يسجد اليهود على أنصاف وجوههم، فهذا معنى أخذ
 الميثاق في حال رفع الجبل فوقهم، لأن في هذه الحالة قيل لهم: {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ} [وكان فيما
 آتاهم الله تعالى الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم -]"^(٩).

قوله تعالى: {وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ} [البقرة: ٦٣]، أي: ورفعناه فوق رؤوسكم"^(١٠).

روي عن قتادة^(١١)، وعطاء^(١٢)، وعكرمة^(١٣)، والحسن^(١٤)، والضحاك^(١٥)، والربيع بن
 وأبي صخر^(١٦)، ومجاهد^(١٧): أن الطور اسم جبل.

(١) التفسير الميسر: ٩.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٤٨): ص ١٢٩/١.

(٣) صفوة التفسير: ٥٥/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٠١): ص ٢٠٨/١.

(٥) تفسير ابن عثيمين: ٢٢٣/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٠١): ص ٢٠٨/١.

(٧) تفسير ابن عثيمين: ٢٢٤/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٤٩): ص ١٢٩/١.

(٩) التفسير البسيط: ٦٣٠/٢.

(١٠) أنظر: تفسير ابن عثيمين: ٢٢٤/١.

(١١) أنظر: تفسير الطبري (١١١٨): ص ١٥٨/٢.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٥٣): ص ١٢٩/١.

(١٣) أنظر: تفسير الطبري (١١٢١): ص ١٥٩/٢.

(١٤) أنظر: تفسير الطبري (١١١٦)، و (١١١٧): ص ١٥٨/٢.

(١٥) أنظر: تفسير الطبري (١١١٦)، و (١١١٧): ص ١٥٨/٢.

قال مجاهد : "رُفِعَ الجبل فوقهم كالسحابة، فقيل لهم: لتؤمننَّ أو ليقعن عليكم، فأمنوا" (٤).
وروي عن عطاء مثل ذلك (٥).

قال مسلم البطين: "رفعته الملائكة" (٦).

قال عطاء: "رفع فوقهم الجبل على بني إسرائيل فقال: لتؤمنن به أو ليقعن عليكم" (٧).
قال السدي: "فلما أبوا أن يسجدوا أمر الله أن يقع عليهم فنظروا إليه وقد غشيهم فسقطوا
سجدا فسجدوا على شق ونظروا بالشق الآخر فرحمهم الله وكشفه عنهم. فقالوا ما سجدة أحب إلى
الله من سجدة كشف بها العذاب عنهم فهم يسجدون كذلك. وذلك قول الله: ورفعنا فوقكم الطور" (٨).
قوله تعالى: {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ} [البقرة: ٦٣]، "أي: اقبلوا ما أعطيناكم من التوراة،
واعملوا به بقوة" (٩).

قال الحسن: "يعني: التوراة" (١٠).

واختلف في قوله {بِقُوَّةٍ} [البقرة: ٦٣]، على ثلاثة وجوه:

أحدها: معناه: بجد واجتهاد. قاله قتادة (١١)، والسدي (١٢).

عن قتادة: {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ}، قال: والقوة: الجِد، وإلا دفته عليكم. قال: فأقروا بذلك
أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة. قال أبو محمد: "وإلا دفته عليكم"، أي: دفعته" (١٣).
الثاني: تعملوا بما فيه. قاله مجاهد (١٤).

الثالث: بطاعة. قاله أبو العالية (١٥)، والربيع بن أنس (١٦).

والقول الأول هو الأقرب إلى الصواب، وبه قال جمهور أهل التفسير (١٧).

قوله تعالى: {وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ} [البقرة: ٦٣]، "أي اذكروا كل ما فيه، واعملوا به" (١٨).

قال أبو العالية: "يقول أقروا ما في التوراة واعملوا به" (١٩). وروي عن الربيع (٢٠) نحو ذلك.
وقال ابن وهب: سألت ابن زيد عن قول الله: {وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ}، قال: اعملوا بما فيه بطاعة
الله وصدق. قال: وقال: اذكروا ما فيه، لا تنسوه ولا تغفلوه" (٢١).

(١) أنظر: تفسير الطبري (١١١٦)، و(١١١٧): ص ١٥٨/٢.

(٢) أنظر: تفسير الطبري (١١١٦)، و(١١١٧): ص ١٥٨/٢.

(٣) أنظر: تفسير الطبري (١١١٦)، و(١١١٧): ص ١٥٨/٢.

(٤) أخرجه الطبري (١١١٦): ص ١٥٨/٢.

(٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦٥٣): ص ١٢٩/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٥٠): ص ١٢٩/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٥٣): ص ١٢٩/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٥٤): ص ١٣٠/١.

(٩) تفسير ابن عثيمين: ٢٢٥/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٥٥): ص ١٣٠/١.

(١١) أنظر: تفسير الطبري (١١٢٩): ص ١٦١/٢.

(١٢) أنظر: تفسير الطبري (١١٣٠): ص ١٦١/٢.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٥٨): ص ٣٠/١.

(١٤) أنظر: تفسير الطبري (١١٢٦): ص ١٦٠/٢.

(١٥) أنظر: تفسير الطبري (١١٢٨): ص ١٦٠/٢-١٦١.

(١٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٣٠/١.

(١٧) أنظر: تفسير الطبري: ١٦١/٢، وتفسير ابن كثير: ٤٣٧/١، وتفسير الرازي: ١٠٠/٢.

(١٨) تفسير ابن عثيمين: ٢٢٥/١.

(١٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٥٩): ص ١٣٠/١، وانظر: تفسير الطبري (١١٣٣): ص ١٦٢/٢.

(٢٠) أنظر: تفسير الطبري (١١٣٤): ص ١٦٢/٢، وتفسير ابن أبي حاتم: ١٣٠/١.

(٢١) أخرجه الطبري (١١٣٥): ص ١٦٢/٢.

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة : ٦٣]، أي لأجل أن تتقوا الله عز وجل^(١).
قال مجاهد: "لعلكم تطيعونه"^(٢).

القرآن

{ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤)} [البقرة: ٦٤]
التفسير:

ثم خالفتم وعصيتم مرة أخرى، بعد أخذ الميثاق ورفع الجبل كشأنكم دائماً. فلولا فضل الله عليكم ورحمته بالتوبة، والتجاوز عن خطاياكم، لصرتم من الخاسرين في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: {ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ} [البقرة: ٦٤]، أي: "ثم أعرضتم عن الميثاق والوفاء به"^(٣).
قال قتادة: "من بعد ما آتاهم"^(٤).

قوله تعالى: {فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [البقرة: ٦٤]، أي: "فلولا فضل الله عليكم ورحمته بالتوبة، والتجاوز عن خطاياكم لصرتم من الخاسرين في الدنيا والآخرة"^(٥).

قال أبو العالية: "فضل الله، الإسلام، ورحمته، القرآن"^(٦). وروي عن الربيع مثل ذلك^(٧).

عن سعيد بن جبير: "فلولا، قال يعني: هلا"^(٨).

القرآن

{وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)} [البقرة : ٦٥]
التفسير:

ولقد علمتم -يا معشر اليهود- ما حلَّ من البأس بأسلافكم من أهل القرية التي عصت الله، فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت، فاحتالوا لاصطياد السمك في يوم السبت، بوضع الشباك وحفر البرك، ثم اصطادوا السمك يوم الأحد حيلة إلى المحرم، فلما فعلوا ذلك، مسخهم الله قردة منبوذين.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ} [البقرة: ٦٥]، أي: "ولقد عرفتم الذين تجاوزوا حدي، وركبوا ما نهيتهم عنه في يوم السبت"^(٩).

قال السدي: "هم أهل أيلياء فكانت الحيتان إذا كانت يوم السبت- وقد حرم الله على اليهود أن يعملوا في السبت- لم يبق حوت في البحر إلا خرج حتى يخرج خراطيمهن من الماء، فإذا كان يوم الأحد لزم من مقل^(١٠) البحر فلم ير منهن شيء حتى يكون يوم السبت"^(١١). وروي عن قتادة نحو ذلك^(١٢).

(١) تفسير ابن عثيمين: ٢٢٥/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٢٠): ص ٦٠/١.

(٣) الكشاف: ٤٧/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٦٠): ص ١٣١/١.

(٥) التفسير الميسر: ١٠.

(٦) أخرجه الطبري (١١٣٦): ص ١٦٦/٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري (١١٣٧): ص ١٦٦/٢.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٦١): ص ١٣١/١.

(٩) تفسير الطبري: ١٦٦/٢.

(١٠) أي: غمس.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٦٩): ص ١٣٢/١.

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ص ١٣٢/١.

قال قتادة: " نهوا عن صيد الحيتان في السبت فكانت تشرع إليهم يوم السبت فبلوا بذلك، فاعتدوا فاصطادوها فجعلهم الله قردة خاسئين" (١).

وقوله تعالى {فِي السَّبْتِ} (٢)، أي: في الحكم الذي حكم الله به عليهم يوم السبت؛ وذلك أن الله حرم عليهم العمل والصيد في ذلك اليوم ليتفرغوا للعبادة؛ فابتلاهم بكثرة الحيتان يوم السبت حتى تكون فوق الماء شرعاً، ثم لا يرونها بعد ذلك؛ فتحيلوا على صيدها بحيلة، حيث وضعوا شباكاً يوم الجمعة، فتدخل فيه الحيتان إذا جاءت يوم السبت، ثم يأخذونها يوم الأحد، ويقولون: نحن لم نصدّها يوم السبت (٣).

قوله تعالى: {فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [البقرة: ٦٥]، " فقلنا للذين اعتدوا في السبت فصيروا قردة منبوذين" (٤)

قال عطاء: " افترقوا ثلاث فرق: فرقة أكلت، وفرقة اعتزلت ولم تنه، وفرقة نهت ولم تعتزل، فنودي الذين اعتدوا في السبت ثلاثة أصواب نودوا يا أهل القرية فانتبهت طائفة، ثم نودوا يا أهل القرية فانتبهت طائفة أكثر من الأولى. ثم نودوا يا أهل القرية فانتبهت الرجال والنساء والصبيان. فقال الله لهم: كونوا قردة خاسئين فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان، ألم أنهكم؟ فيقولون برعوسهم. أي: بلى" (٥).

قال قتادة: " فصاروا قردة لها أذنان، تعاوى بعد ما كانوا رجالاً ونساء" (٦).

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [البقرة: ٦٥]، على

وجهين:

الأول: أنهم مُسِخُوا قِرَدَةً، فصاروا لأجل اعتدائهم في السبت في صورة القردة المخلوقين من قبل، في الأيام الستة. قاله قتادة (٧)، والسدي (٨).

الثاني: أنهم لم يمسخوا قردة، وإنما مسخت قلوبهم، وهو مثل ضربه الله لهم، كما قال تعالى: {كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} [الجمعة: ٥]. قاله مجاهد (٩). واعترض عليه الطبري (١٠) وابن كثير (١١). قال مجاهد: " مسخت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة وخنزير، وإنما هو مثل ضربه الله لهم مثل الحمار يحمل أسفاراً" (١٢).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٦٧): ص ١٣٢/١.

(٢) وهذه القصة مبسطة في سورة الأعراف، حيث يقول تعالى: {وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا تَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [الأعراف: ١٦٣] القصة بكمالها.

(٣) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١/١٢٨. وانظر الأخبار حول ذلك في تفسير الطبري (١١٣٩)، و (١١٤٠)، و (١١٤١) و (١١٤٢) ص ١١/١٦٨-١٧٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٢/١٧٤.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٦٨): ص ١٣٢/١.

(٦) أنظر: تفسير الطبري (١١٤٠): ص ١٧٠/٢-١٧١.

(٧) أنظر: تفسير الطبري (١١٤٠)، و (١١٤١): ص ١٧٠/٢-١٧١.

(٨) أنظر: تفسير الطبري (١١٤٢): ص ١٧٢/٢.

(٩) أنظر: تفسير الطبري (١١٤٣)، و (١١٤٤): ص ١٧٢/٢-١٧٣.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري: ٢/١٧٣.

(١١) تفسير ابن كثير: ٢٨٩/١. قال ابن كثير: "وهذا قول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره، قال الله تعالى: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ} الآية [المائدة: ٦٠]".

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٧٢): ص ١٣٣/١، و الطبري (١١٤٣)، و (١١٤٤): ص ١٧٢/٢-١٧٣.

قلت: والصحيح في هذه المسألة: أن مسخهم قرودا، إنما كان معنويًا لا صورياً خلاف ما ذهب إليه مجاهد^(١)، رحمه الله-

وفي قوله تعالى: {خاسئين} [البقرة: ٦٥]، قولان:
أحدها: أن معناه: أدلة صاغرين، وهذا قول أبي العالية^(٢)، والربيع^(٣)، ومجاهد^(٤)، وقتادة^(٥)، وأبي مالك^(٦).
الثاني: معناه: صاغرين. قاله مجاهد^(٧).
و"الخاسئ": "المبعد المطرود، كما يخسأ الكلب"^(٨).

القرآن

{فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلَقَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦)} [البقرة : ٦٦]

التفسير:

فجعلنا هذه القرية عبرة لمن بحضرتها من القرى، يبلغهم خبرها وما حلَّ بها، وعبرة لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب، وجعلناها تذكرة للصالحين؛ ليعلموا أنهم على الحق، فيثبتوا عليه.
قوله تعالى: {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا} [البقرة : ٦٦]، أي "فجعلنا عقوبتنا ومسخنا إياهم عقوبة زاجرة لمن يأتي بعدها من الأمم"^(٩).

(١) إن المروي عن مجاهد أنه سبحانه وتعالى مسخ قلوبهم بمعنى الطبع والختم لا أنه مسخ صورهم وهو مثل قوله تعالى: {كمثل الحمار يحمل أسفارا} (الجمعة: ٥) ونظيره أن يقول الأستاذ للمتعلم البليد الذي لا ينجح في تعليمه: كن حماراً، واحتج على امتناعه بأمرين:

الأول: أن الإنسان هو هذا الهيكل المشاهد والبنية المحسوسة فإذا أبطلها وخلق في تلك الأجسام تركيب القرد وشكله كان ذلك إعداماً للإنسان وإيجاداً للقرد فيرجع حاصل المسخ على هذا القول إلى أنه تعالى أعدم الأعراض التي باعتبارها كانت تلك الأجسام إنساناً وخلق فيها الأعراض التي باعتبارها كانت قرداً فهذا يكون إعداماً وإيجاداً لا أنه يكون مسخاً.

والثاني: إن جوزنا ذلك لما أمنا في كل ما نراه قرداً وكلباً أنه كان إنساناً عاقلاً، وذلك يفضي إلى الشك في المشاهدات.

وأجيب عن الأول بأن الإنسان ليس هو تمام هذا الهيكل، وذلك لأن هذا الإنسان قد يصير سميماً بعد أن كان هزيلاً، وبالعكس فالأجزاء متبدلة والإنسان المعين هو الذي كان موجوداً والباقي غير الزائل، فالإنسان أمر وراء هذا الهيكل المحسوس، وذلك الأمر إما أن يكون جسماً سارياً في البدن أو جزءاً في بعض جوانب البدن كقلب أو دماغ أو موجوداً مجرداً على ما يقوله الفلاسفة وعلى جميع التقديرات فلا امتناع في بقاء ذلك الشيء مع تطرق التغير إلى هذا الهيكل وهذا هو المسخ وبهذا التقدير يجوز في المالك الذي تكون جثته في غاية العظم أن يدخل حجرة الرسول عليه السلام.

وعن الثاني أن الأمان يحصل بإجماع الأمة، ولما ثبت بما قررنا جواز المسخ أمكن إجراء الآية على ظاهرها، ولم يكن بنا حاجة إلى التأويل الذي ذكره مجاهد رحمه الله وإن كان ما ذكره غير مستبعد جداً، لأن الإنسان إذا أصر على جهالته بعد ظهور الآيات وجلاء البيّنات فقد يقال في العرف الظاهر إنه حمار وقرد، وإذا كان هذا المجاز من المجازات الظاهرة المشهورة لم يكن في المصير إليه محذور ألينة. (انظر: تفسير الرازي: ١٠٤/٢).

(٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦٧٤): ص ١٣٣/١.

(٣) أنظر: تفسير الطبري (١١٤٩): ص ١٧٥/٢.

(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٣٣/١.

(٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٣٣/١.

(٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٣٣/١.

(٧) أنظر: تفسير الطبري (١١٤٦)، و(١١٤٧): ص ١٧٥/٢.

(٨) تفسير الطبري: ١٧٤/٢، وانظر: "تهذيب اللغة" (خساً) ١/ ١٠٢٨، "جمهرة أمثال العرب" ٣/ ٢٣٧، "الصحاح" (خساً) ٤٧/١.

(٩) تفسير الطبري: ١٧٥/٢.

قال أبو العالية: "أي عقوبة"^(١).
وأصل "النكال"، العقوبة^(٢)، كما قال عدي بن زيد العباد^(٣):
لا يسخط الضليل ما يسع العبد... د ولا في نكاله تنكير
قوله تعالى: {لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا} [البقرة: ٦٦]، "أي: لمن يأتي بعدها من الأمم"^(٤).
قال سعيد بن جبير: "من حضرتها يومئذ من الناس"^(٥).
وقال إسماعيل بن أبي خالد: "ما كان قبلها من الماضين في شأن السبت"^(٦). وروي عن
قتادة وعطية نحو ذلك.
وقال أبو العالية: "أي عقوبة لما خلا من ذنوبهم"^(٧)، وروي عن الربيع بن أنس، ومجاهد
والسدي وفتادة في رواية معمر والحسن وعكرمة نحو ذلك^(٨).
قال السدي: "أما {ما بين يديها}: فما سلف من عملهم"^(٩).
قوله تعالى: {وَمَا خَلَفَهَا} [البقرة: ٦٦]، "أي: جعلنا مسخهم قردة عبرة لمن شهدها
وعاينها"^(١٠).
قال أبو العالية: "أي: عبرة لمن بقي بعدهم من الناس"^(١١). وروي عن الربيع بن أنس نحو
ذلك^(١٢).
قال عطية: "لما كان من بعدهم من بني إسرائيل، لا يعملوا فيها بمثل أعمالهم"^(١٣).
قال السدي: " {وما خلفها}، فمن كان بعدهم من الأمم، أن يعصوا فيصنع الله بهم مثل
ذلك"^(١٤).
وروي عن مجاهد: " {وما خلفها}: التي قد أهلكوا بها. يعني: خطاياهم"^(١٥). وروي عن
قتادة نحو ذلك^(١٦).
قوله تعالى: {وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ٦٦]، "أي عظة وذكرى لكل عبد صالح متق لله
سبحانه وتعالى"^(١٧).
قال الربيع: "فكانت موعظة للمتقين خاصة"^(١٨). وروي عن أبو العالية^(١٩) مثل ذلك.

- (١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٧٥): ص ١٣٣/١.
- (٢) أنظر: تهذيب اللغة: ٤ / ٣٦٦٥، واللسان " ٨ / ٤٥٤٤، تفسير الطبري: ١٧٧/٢.
- (٣) البيت في تفسير الطبري: ١٧٧/٢، ولم أجده في الكرايم التي ذكرت قصيدة عدي بن ياد التي كتبها في النعمان من محبسه.
- (٤) صفوة التفاسير: ٥٦/١.
- (٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٧٩): ص ١٣٤/١.
- (٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٧٨): ص ١٣٤/١.
- (٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦٧٧): ص ١٣٤/١.
- (٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٣٤/١، وانظر: تفسير الثعلبي: ٢١٣/١.
- (٩) أنظر: تفسير الطبري (١١٦٢): ص ١٧٨/٢.
- (١٠) صفوة التفاسير: ٥٦/١.
- (١١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٨١): ص ١٣٤/١.
- (١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٣٤/١.
- (١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٨٣): ص ١٣٥/١.
- (١٤) أنظر: تفسير الطبري (١١٦٢): ص ١٧٨/٢.
- (١٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٨٢): ص ١٣٥/١.
- (١٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٣٤/١.
- (١٧) صفوة التفاسير: ٥٧/١.
- (١٨) تفسير الطبري (١١٧٠): ص ١٨١/٢.
- (١٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦٨٥): ص ١٣٥/١.

واختلف في المعنى بقوله تعالى: {وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ٦٦]، على وجهين^(١):
الأول: المراد بهم: الذين من بعدهم إلى يوم القيامة. قاله الحسن^(٢)، وقتادة^(٣)، وابن جريج^(٤)، وهو قول الجمهور.

والثاني: أن المراد بهم: أمة محمد صلى الله عليه وسلم. قاله السدي^(٥)، وعطية^(٦).
والقول الأول هو الصحيح، لأنه أعم، وعليه الجمهور. والله أعلم.
و"المراد بالموعظة هاهنا الزاجر، أي: جعلنا ما أحلنا بهؤلاء من البأس والنكال في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله، وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم، كما روي عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا تُرْتَكَبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللَّهِ بِأَدْنَى الْحَيْلِ"^(٧)،^(٨).

القرآن

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧)} [البقرة: ٦٧]

التفسير:

واذكروا يا بني إسرائيل جناية أسلافكم، وكثرة تعنتهم وجدالهم لموسى عليه الصلاة والسلام، حين قال لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، فقالوا -مستكبرين-: أتجعلنا موضعاً للسخرية والاستخفاف؟ فردَّ عليهم موسى بقوله: أستجير بالله أن أكون من المستهزئين.

قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً} [البقرة: ٦٧]، أي: "واذكروا يا بني إسرائيل جناية أسلافكم، وكثرة تعنتهم وجدالهم لموسى عليه الصلاة والسلام، حين قال لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة"^(٩).

قال عبدة السلماني: "كان رجل في بني إسرائيل عقيم لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم، حتى تسلحوا وركب بعضهم إلى بعض، فقال ذوو الرأي والنهي: علام يقتل بعضكم بعضاً، وهذا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فيكم؟ فأتوا موسى فذكروا ذلك له فقال: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً} ف {قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}. قال: فلو لم يعترضوا البقرة، لأجزت

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٩٣/١.

(٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦٨٦): ص ١٣٥/١.

(٣) تفسير الطبري (١١٦٧): ص ١٨١/٢.

(٤) تفسير الطبري (١١٧١): ص ١٨٢/٢.

(٥) تفسير الطبري (١١٦٩): ص ١٨١/٢، وابن أبي حاتم (٦٨٨): ص ١٣٥/١.

(٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦٨٧): ص ١٣٥/١.

(٧) حديث مرفوع عن أبي هريرة، أخرجه الإمام ابن بطة العكبري في إبطال الحيل - رقم (٥٦) - قال: حدثنا به أبو الحسن أحمد بن مسلم، حدثنا الحسن بن محمد الصباح الزعفراني، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. الحديث. وانظر: الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية " (ق ٢/١١ و ١٤٤ و ٢). وقال ابن كثير في تفسيره (٢٩٣/١): " هذا إسناد جيد، وأحمد بن محمد مسلم هذا وثقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي، وباقي رجاله مشهورون على شرط الصحيح". وقال ابن القيم في تهذيب السنن (١٠٣/٥): "إسناده حسن وإسناده مما يُصححه الترمذي". وقال الإلباني في (إرواء الغليل (٣٧٥/٥): "وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات معروفون من رجال التهذيب، غير أبي الحسن أحمد بن محمد بن مسلم وهو المخرمي، كما جاء منسوباً في أكثر من موضع في كتابه الآخر الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية".

(٨) تفسير ابن كثير: ٢٩٣/١.

(٩) التفسير الميسر: ١٠.

عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها. فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً. فأخذوها بملء جلدها ذهباً فذبحوها فضرّبوه ببعضها فقام، فقالوا: من قتلك؟ فقال: هذا لابن أخيه، ثم مال ميتاً، فلم يعط من ماله شيء، ولم يورث قاتل بعد^(١). وروي عن أبي العالية^(٢)، والسدي^(٣)، وقادة^(٤)، ومجاهد^(٥)، ووهب بن منبه^(٦)، ومحمد بن كعب القرظي^(٧)، ومحمد بن قيس^(٨). نحو هذه القصة.

قال السدي: "قالوا لموسى: "يا رسول الله، ادع لنا حتى يبين لنا من صاحبه فيؤخذ، فوالله إن ديته علينا لهينة، فقال لهم موسى: {إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة}^(٩)".

وهذه السياقات كلها عن عبدة وأبي العالية والسدي وغيرهم، فيها اختلاف ما، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل وهي مما يجوز نقلها، ولكن لا نصدق ولا نكذب فهذا لا نعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا، -والله أعلم-^(١٠).

قوله تعالى: {قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [البقرة: ٦٧]، "فقالوا -مستكبرين-: أتجعلنا موضعاً للسخرية والاستخفاف؟ فردّ عليهم موسى بقوله: أستجير بالله أن أكون من المستهزئين"^(١١).

عن السدي: "فقال لهم موسى: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا: أتخذنا هزواً نسألك عن القتل ومن قتله، وتقول اذبحوا بقرة، أتهزأ بنا؟ فقال موسى: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين"^(١٢).

القرآن

{قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَنَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ} [البقرة: ٦٨]

التفسير:

قالوا: ادع لنا ربك يوضح لنا صفة هذه البقرة، فأجابهم: إن الله يقول لكم: صفتها ألا تكون مسنة هرة، ولا صغيرة قتيّة، وإنما هي متوسطة بينهما، فسارعوا إلى امتثال أمر ربكم.

قوله تعالى: {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ} [البقرة: ٦٨]، "أي سله لأجلنا أن يكشف لنا عن الصفات المميزة لها"^(١٣).

قال عبدة السلماني: "فلو لم يعترضوا البقرة، لأجزت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها"^(١٤).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٩٠): ص ١٣٥/١.

(٢) نقلاً عن تفسير ابن كثير: ٢٩٤/١، قال ابن كثير: "رواه آدم بن أبي إياس في تفسيره".

(٣) أنظر: تفسير الطبري (١١٧٤): ص ١٨٥/٢-١٨٧.

(٤) أنظر: تفسير الطبري (١١٧٥): ص ١٨٧/٢.

(٥) أنظر: تفسير الطبري (١١٧٦)، و (١١٧٧): ص ١٨٧/٢.

(٦) أنظر: تفسير الطبري (١١٧٨): ص ١٨٧/٢.

(٧) أنظر: تفسير الطبري (١١٨٢): ص ١٨٩/٢.

(٨) أنظر: تفسير الطبري (١١٨٢): ص ١٨٩/٢.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٨٩): ص ١٣٥/١.

(١٠) أنظر: تفسير ابن كثير: ٢٩٨/١.

(١١) التفسير الميسر: ١٠.

(١٢) تفسير ابن أبي حاتم (٦٩١): ص ١٣٦/١.

(١٣) تفسير المراغي: ١٤٣/١.

(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٩٠): ص ١٣٥/١.

قوله تعالى: {إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بُكْرٌ} [البقرة: ٦٨]، أي: إنها بقرة" لا مسنة ولا قتيبة"^(١).

واختلف في معنى {الفارض} [البقرة: ٦٨]، على وجهين:
أحدهما: الفارض: المسنة (الهرمة)، قاله مجاهد^(٢)، وأبو العالية^(٣)، والربيع^(٤)، وقتادة^(٥)،
والسدي^(٦)، والضحاك^(٧)، ووهب بن منبّه^(٨)، وعطاء الخراساني^(٩)، وبه قال جمهور أهل التفسير.
يقال منه فرضت تفرض فروضا، أي أسنت، ويقال للشيء القديم فارض، قال الراجز^(١٠):

شيب أصداعي فرأسي أبيض ... محامل فيها رجال فرض
يعني هرمي، قال آخر^(١١) :

لعمرك قد أعطيت جارك فارضا ... تساق إليه ما تقوم على رجل
أي: قديما، وقال آخر^(١٢) :

يا رب ذي ضغن علي فارض ... له قروء كقروء الحائض
الثاني: أن الفارض: لا كبيرة ولا صغيرة، قد ولدت بطنا أو بطنين. قاله مجاهد^(١٣)، وروي عن
عطية^(١٤) مثل ذلك.

واختلف في معنى {البكر} [البقرة: ٦٨]، على وجهين:
أحدهما: معناه: الصغيرة التي لم تحمل. قاله مجاهد^(١٥)، وقتادة^(١٦)، وأبو العالية^(١٧)، والربيع^(١٨).
الثاني: لم تلد إلا ولدا واحدا. قاله السدي^(١٩).

(١) تفسير البيضاوي: ٨٦/١.

(٢) أنظر: تفسير الطبري (١١٨٤)، و(١١٨٨): ص ١٩١/٢.

(٣) أنظر: تفسير الطبري (١١٩٠): ص ١٩٢/٢.

(٤) أنظر: تفسير الطبري (١١٩١): ص ١٩٢/٢.

(٥) أنظر: تفسير الطبري (١١٩٢): ص ١٩٢/٢.

(٦) أنظر: تفسير الطبري (١١٩٤): ص ١٩٢/٢.

(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٣٧/١.

(٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٣٧/١.

(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٣٧/١.

(١٠) أنظر: الصحاح للجوهري: (محافل) بالفاء وفيه رواية أخرى رواها ابن الاعرابي هي: (محامل بيض وقوم فرض) يريد أنهم ثقال كالمحامل. وانظر: اللسان مادة (فرض).

(١١) لبيت في تفسير القرطبي ٤٤٨/١، ومجمع البيان ١٣١/١، والرواية فيهما: (أعطيت جارك). وعزي مع آخر في البحر ٢٤٨/١ إلى خفاف بن ندبة السلمي، انظر شعره: ١٣٣. وعزي في اللسان والتاج (ف ر ض) إلى علقمة بن عوف. وهو بلا نسبة في الأفعال للسرقسطي ١٥/٤، والدرّ المصون ٤٢٠/١، والأضداد: ٣٧٦. وفي الإتيان في علوم القرآن: يساق... يقوم، وهو تصحيف

(١٢) مجالس ثعلب: ٣٦٤، والمعاني الكبير: ٨٥٠، ١١٤٣، والحيوان ٦: ٦٦ - ٦٧، والأضداد: ٢٢،

وكتاب القرطين ١: ٤٤، ٧٧، واللسان) فرض (، وغيرها، وصواب إنشاده:

يارب مولى حاسد مباحض ... عليّ ذي ضغن وضب فارض

والضب: الغيظ والحقد تضمه في القلب. قروء وأقراء جمع قرء) بضم فسكون: (وهو وقت الحيض قال ابن قتيبة " أي له أوقات تهيج فيها عداوته"، وقال الجاحظ: " كأنه ذهب إلى أن حقه يخبو ثم يستعر، ثم يخبو ثم يستعر. "

(١٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦٩٥): ص ١٣٧/١.

(١٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٣٧/١.

(١٥) أنظر: تفسير الطبري (١١٩٦): ص ١٩٢/٢.

(١٦) أنظر: تفسير الطبري (١٢٠٠): ص ١٩٣/٢.

(١٧) أنظر: تفسير الطبري (١٢٠٢): ص ١٩٣/٢.

(١٨) أنظر: تفسير الطبري (١٢٠٣): ص ١٩٣/٢.

(١٩) أنظر: تفسير الطبري (١٢٠٤): ص ١٩٣/٢، وابن أبي حاتم (٦٩٨): ص ١٣٧/١.

قوله تعالى: {عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ} [البقرة: ٦٨]، " أي وسط بين الكبيرة والصغيرة" (١).
قال الحسن: أي: بين الهرمة والفتية" (٢).

واختلف في معنى العوان [البقرة: ٦٨]، على قولين:
أحدها: النصف التي قد ولدت بطنا أو بطنين، وهي أقوى ما تكون من البقر وأحسنه، بخلاف الخيل،
وهذه الدلالة المعني بها في الآية أي: وسط قد ولدت بطنا أو بطنين. وهذا مذهب أبي العالية (٣)،
ومجاهد (٤)، والسدي (٥)، والربيع بن أنس (٦)، وعطاء الخراساني (٧)، وقتادة (٨)، والضحاك (٩)،
وعكرمة (١٠).

ومن ذلك قول الشاعر يصف فرسا (١١):

كमित بهيم اللون ليس بفارض ... ولا بعوان ذات لون مخصف
فرس أخصف : إذا ارتفع البلق من بطنه إلى جنبه.
ومنه قول الأخطل (١٢):

وما بمكة من شُمت مُحَقَّلة ... وما بيثرب من عُون وأبكار
الثاني: العوان: التي قد ولدت مرة بعد مرة، قاله مجاهد (١٣)، وحكاه أهل اللغة (١٤).
ومنه حرب عوان : قد قوتل فيها مرتين فما زاد، يمثل ذلك بالمرأة التي ولدت بطنا بعد
بطن، قال زهير (١٥) :

إذا لقحت حرب عوان مضرة ... ضروس تهر الناس أنيابها عصل
وكذلك يقال: (حاجة عوان)، إذا كانت قد قضيت مرة بعد مرة، ومنه قول الفرزدق (١٦):

(١) صفة التفاسير: ٥٩/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٠٢): ص ١٣٨/١.

(٣) أنظر: تفسير الطبري (١٢١٢): ص ١٩٦/٢.

(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧٠١): ص ١٣٨/١، وتفسير الطبري (١٢٠٦): ص ١٩٥/٢.

(٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧٠٠): ص ١٣٨/١.

(٦) أنظر: تفسير الطبري (١٢١٣): ص ١٩٦/٢.

(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٣٨/١.

(٨) أنظر: تفسير الطبري (١٢١٤): ص ١٩٦/٢.

(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٣٨/١.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري (١٢٠٩): ص ١٩٥/٢.

(١١) تفسير القرطبي: ١ / ٤٤٩، لسان العرب: ٧ / ٢٠٤.

(١٢) ديوانه: ١١٩، وهو يخالف ما رواه الطبري، وقبله:

إني حلفت برب الراقصات وما ... أضحى بمكة من حجب وأستار
وبالهدى - إذا احمرت مذارعها ... في يوم نسك وتشريق وتنحار

وما بزمزم من شُمت محلقه ... وما بيثرب من عون وأبكار

يعني : حلقوا رؤوسهم ، وقد تحلّلوا من إحرامهم وقضوا حجّتهم ، والشُمت جمع أشمت : وهو الذي خالط سواد شعره
ببياض الشيب . فإن صحت رواية الطبري "شُمت مُحَقَّلة" ، فكأنها من الحفيل والاحتفال : وهو الجد والاجتهاد ، يقال
منه : رجل ذو حفيل ، وذو حفل وحفلة : له جد واجتهاد ومبالغة فيما أخذ فيه من الأمور . فكأنه عنى : مجتهدون
في العبادة والنسك.

(١٣) نقلا عن المحرر الوجيز: ١٦٢/١، والقرطبي: ٤٤٩/١. قال المحقق: وأخرج قول المجاهد الطبري: ٨٩/٢.

وهذا خطأ، لأن الطبري لم يخرج عنه بهذا المعنى ولا بنحوه، وإنما أخرج عنه معنى القول الأول،

فقال (١٢٠٦): ص ١٩٥/٢: "ولدت بطنا أو بطنين"، وفي لفظ آخر (١٢٠٧): ص ١٩٥/٢: "العانس النصف"، ولفظه
الأخر (١٢٠٨): ص ١٩٥/٢: "العوان: النصف"، وفي موضع آخر (١٢١٤): ص ١٩٥/٢: "قد نتجت بكرة أو بكرتين".

(١٤) أنظر: المحرر الوجيز: ١٦٢/١.

(١٥) شرح ديوان زهير لثعلب: ١٠٤.

قعود لدى الأبواب طلاب حاجة ... عوان من الحاجات أو حاجة بكرة

القرآن

{قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لُونُهَا تَسْرُّ النَّظِيرِينَ
[البقرة : ٦٩]}

التفسير:

فعادوا إلى جدالهم قائلين: ادع لنا ربك يوضح لنا لونها. قال: إنه يقول: إنها بقرة صفراء شديدة الصفرة، تسرُّ من ينظر إليها.

قوله تعالى: {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونُهَا} [البقرة: ٦٩]، "أي: ادع لنا ربك يبين لنا ما لون البقرة التي أمرتنا بذبحها"^(٢).

قال الضحاك: "سل لنا ربك يبين لنا ما لونها"^(٣).

قوله تعالى: {قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لُونُهَا} [البقرة: ٦٩]، "أي إنها بقرة صفراء، شديدة الصفرة"^(٤).

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: {صَفْرَاءُ} [البقرة: ٦٩]، على قولين:

أحدهما: أن معناه: سوداء شديدة السواد. قاله الحسن^(٥).

قال الحسن: "الفاقع: سوداء شديدة السواد"^(٦).

وقال الحسن: "كانت بقرة وحشية"^(٧).

الثاني: أن معناه: صفراء القرن والظلف. قاله سعيد بن جبير^(٨)، وفي رواية أشعث عن الحسن^(٩).

قوله تعالى: {فَاقِعٌ لُونُهَا} [البقرة: ٦٩]، "يعني: خالص لونها"^(١٠).

قال قتادة: "هي الصافي لونها"^(١١). وروى عن أبي العالية^(١٢)، والربيع^(١٣)، والسدي^(١٤)،

ذلك.

قال سعيد بن جبير: "صافية اللون"^(١٥).

(١) ديوان الفرزدق: ٢٢٧، وطبقات فحول الشعراء: ٢٥٦، وتاريخ الطبري: ١٣٨، وغيرها، والشعر في زياد، وقبله:

دعاني زياد للعتاء ولم أكن ... لأقربه ما ساق ذو حسب وفرا
وعند زياد، لو يريد عطاءهم، ... رجال كثير قد يرى بهم فقرا

ويروى: قعودا، ورواية ابن سلام "طالب حاجة"، ونصب "أو حاجة بكرة" عطا على محل "حاجة عوان"، فمحلها نصب بقوله: "طلاب".

(٢) تفسير الطبري: ١٩٨/٢.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٠٣): ص ١٣٨/١.

(٤) صفوة التفسير: ٥٩/١.

(٥) أنظر: تفسير الطبري (١٢١٨)، و(١٢١٩): ص ١٩٩/٢. في رواية محمد بن يوسف، وأبي رجاء.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٧١٥): ص ١٤٠/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٠٤): ص ١٣٨/١.

(٨) أنظر: تفسير الطبري (١٢٢٢): ص ١٩٩/٢.

(٩) أنظر: تفسير الطبري (١٢٢٠): ص ١٩٩/٢.

(١٠) تفسير الطبري: ٢٠١/٢.

(١١) أخرجه الطبري (١٢٢٥): ص ٢٠١/٢.

(١٢) أخرجه الطبري (١٢٢٦): ص ٢٠١/٢.

(١٣) أخرجه الطبري (١٢٢٧): ص ٢٠١/٢.

(١٤) أخرجه الطبري (١٢٢٨): ص ٢٠١/٢.

(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٧١١): ص ١٣٩/١.

قال عطاء الخراساني: "شديد الصفرة"^(١).
 قال عطية العوفي: "تكاد تسود من صفرتها"^(٢).
 و(الفقوع)، في الصفر، نظير النصوع في البياض، وهو شدته وشفائه، ومنه قول
 الشاعر^(٣):

حملت عليه الورد حتى تركته ... ذليلاً يسفُ التراب واللون فاقع
 قوله: {تَسْرُ النَّاطِرِينَ} [البقرة: ٦٩]، "أي: تعجب الناظرين"^(٤).
 قال قتادة: "أي تعجب الناظرين"^(٥). وروي عن السدي^(٦) مثل ذلك.
 قال وهب: "إذا نظرت إليها، يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها"^(٧).

القرآن

{قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠)} [البقرة
 : ٧٠]
 التفسير:

قال بنو إسرائيل لموسى: ادع لنا ربك يوضح لنا صفات أخرى غير ما سبق؛ لأن البقر -بهذه
 الصفات- كثير فاشتبه علينا ماذا نختار؟ وإننا -إن شاء الله- لمهتدون إلى البقرة المأمور بذبحها.
 قوله تعالى: {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا} [البقرة: ٧٠]، أي: "قال
 بنو إسرائيل لموسى: ادع لنا ربك يوضح لنا صفات أخرى غير ما سبق؛ لأن البقر -بهذه الصفات-
 كثير فاشتبه علينا ماذا نختار؟"^(٨).

عن طلحة بن مصرف: قوله: "تتشابه علينا": ذابحوها"^(٩).
 عن يحيى بن يعمر: "يقرأ "إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا" قال: البقر أكثر من البقر"^(١٠).

القرآن

{قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذُلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْنَا
 بِالْحَقِّ فَدَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)} [البقرة: ٧١]
 التفسير:

قال لهم موسى: إن الله يقول: إنها بقرة غير مذلة للعمل في حراثة الأرض للزراعة، وغير معدة
 للسقي من الساقية، وخالية من العيوب جميعها، وليس فيها علامة من لون غير لون جلدها. قالوا:
 الآن جئنا بحقيقة وصف البقرة، فاضطروا إلى ذبحها بعد طول المراوغة، وقد قاربوا ألا يفعلوا
 ذلك لعنادهم. وهكذا شددوا فشدد الله عليهم.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٧١٠): ١٣٩/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٧١٣): ١٣٩/١.

(٣) البيت ورد في تفسير الطبري ص: ٢٠٢/٢، ولم أتعرف على قائله. والورد فرسه.

(٤) معاني القرآن للزجاج: ١٥٢/١.

(٥) أخرجه الطبري (١٢٣١): ص ٢٠٢/٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري (١٢٣٣): ص ٢٠٢/٢.

(٧) أخرجه الطبري (١٢٣٢): ص ٢٠٢/٢.

(٨) التفسير الميسر: ١٠.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٢١): ١٤١/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٢٠): ص ١٤١/١.

قوله تعالى: {قَالَ إِنَّهُ يُقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ} [البقرة: ٧١]، "أي: إنها ليست مذلة بالحرثة"^(١).

قال قتادة: "ليست بذلول تثير الأرض"^(٢).

قال مجاهد: "ليست بذلول فتفعل ذلك"^(٣).

قال الحسن: "كانت وحشية"^(٤).

قوله تعالى: {وَلَا تُسْقِي الْحَرْثَ} [البقرة: ٧١]، "أي ليست بساقية"^(٥).

قال قتادة: "ولا تسقي الحرث"^(٦).

قوله تعالى: {مُسْلَمَةٌ} [البقرة: ٧١]، "أي: صحيحة لا عيب فيها"^(٧).

وختلف أهل التفسير في المعنى الذي سلمت منه، فوصفها الله بالسلامة منه، وذكره فيه

وجهين:

أحدهما: مسلمة من الشية، أي: لا بياض فيها ولا سواد. قاله مجاهد^(٨).

قال مجاهد: "مسلمة من الشية"^(٩).

والثاني: مسلمة من العيوب. قاله قتادة^(١٠)، وأبو العالية^(١١)، والربيع^(١٢).

قال قتادة: "لا عيب فيها"^(١٣).

وقال عطاء الخراساني: "مسلمة القوائم والخلق"^(١٤).

والقول الثاني هو الصحيح، "لأن سلامتها لو كانت من سائر أنواع الألوان سوى لون جدها، لكان في قوله: {مسلمة} مكنتى عن قوله: {لا شية فيها}، وفي قوله: {لا شية فيها}، ما

يوضح عن أن معنى قوله: {مسلمة}، غير معنى قوله: {لا شية فيها}"^(١٥).

قوله تعالى: {لَا شِيَةَ فِيهَا} [البقرة: ٧١]، أي: "لا لون فيها يخالف لون جدها"^(١٦).

قال الحسن: "ليس فيها بياض"^(١٧).

قال قتادة: "لا بياض فيها"^(١٨).

قال مجاهد: "لا بياض ولا سواد"^(١٩).

عن السدي: "لا شية فيها} من بياض ولا سواد ولا حمرة"^(٢٠).

(١) تفسير ابن كثير: ٣٠٠/١.

(٢) أخرجه الطبري (١٢٥٢): ص ٢١٣/٢.

(٣) أخرجه الطبري (١٢٥٢): ص ٢١٣/٢.

(٤) أخرجه الطبري (١٢٥٤): ص ٢١٣/٢.

(٥) تفسير البغوي: ١٠٨/١.

(٦) أخرجه الطبري (١٢٥٢): ص ٢١٣/٢.

(٧) تفسير ابن كثير: ٣٠٠/١.

(٨) أنظر: تفسير الطبري (١٢٥٥)، و(١٢٥٦)، و(١٢٥٧): ص ٢١٣/٢-٢١٤.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٣٢): ص ١٤٢/١.

(١٠) أنظر: تفسير الطبري (١٢٥٨): ص ٢١٤/٢.

(١١) أنظر: تفسير الطبري (١٢٦٠): ص ٢١٤/٢.

(١٢) أنظر: تفسير الطبري (١٢٦١): ص ٢١٤/٢.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٣٣): ص ١٤٢/١.

(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٣٤): ص ١٤٢/١.

(١٥) انظر: تفسير الطبري: ٢١٤/٢.

(١٦) تفسير الطبري: ٢١٥/٢.

(١٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٣٦): ص ١٤٣/١.

(١٨) تفسير عبدالرزاق (٦٩): ص ٢٧٥/١.

(١٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٣٥): ص ١٤٢/١.

عن عطاء بن أبي مسلم: {لا شيةَ فيها} قالوا: لونها واحد بهيم^(١). وروي عن عطية العوفي ووهب بن منبه وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك^(٢).

وأصله من: وشي الثوب، وهو تحسين عيوبه التي تكون فيه، بضروب مختلفة من ألوان سداه ولحمته، ومنه قيل للساعي بالرجل إلى السلطان أو غيره: (واش)، لكذبه عليه عنده، وتحسينه كذبه بالأباطيل، يقال منه: وشيت به إلى السلطان وشاية، ومنه قول كعب بن زهير^(٤):
تسعى الوشاة جنابيهما وقولهم... إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول^(٥).

قوله تعالى: {قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ} [البقرة: ٧١]، "أى بحقيقة وصف البقرة، وما بقي إشكال في أمرها"^(٦).

قال قتادة: "قالوا: الآن بينت لنا"^(٧).

قوله تعالى {فَدَبَّحُوا} [البقرة: ٧١]، أي: "فذبح قوم موسى البقرة"^(٨).

عن عطاء قال: الذبح والنحر في البقر سواء لأن الله عز وجل يقول: فذبحوها^(٩). وروي عن الزهري وقتادة نحو ذلك^(١٠).

قال مجاهد: "كان الذبح فيهم، والنحر فيكم"^(١١).

قوله تعالى: {وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ} [البقرة: ٧١]، أي: "وقد قاربوا أن يدعوا ذبحها"^(١٢).

وقد اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله كادوا أن يضيعوا فرض الله عليهم، في ذبح ما أمرهم بذبحه من ذلك، وذكرنا فيه ثلاثة أقوال^(١٣):

أحدها: أنهم كادوا ألا يفعلوا لغلاء ثمنها. قاله محمد بن كعب القرظي^(١٤)، ومحمد بن قيس^(١٥)، نحوه عن مجاهد^(١٦)، ووهب بن منبه^(١٧)، ورواية أبي عن أبيه عن ابن عباس^(١٨)، وأبي العالية^(١٩)، وعبيدة^(٢٠) وابن زيد^(٢١).

-
- (١) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٣٨٧): ص ١٤٣/١.
- (٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٣٧): ص ١٤٣/١.
- (٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٤٣/١.
- (٤) ديوانه: ١٩، وسيرة ابن هشام ٤: ١٥٣، والروض الأنف ٢: ٣١٤، والفائق (قحل) ورواية الديوان بجنبيها " ورواية ابن هشام: " تسعى الغواة ". وقوله: " جنابيهما ". والجناب: الناحية، ويريد ناحية الجنب. يقال: " جنبيه، وجانبيه، وجنابيه، والضمير في قوله: " جنابيهما " لناقته التي ذكرها قبل. وقوله: " وقولهم: إنك ". " حال، أي: وهم يقولون، والمعنى يكثرون القول عليه: إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول، كأنهم لا يقولون غير ذلك، ترهيبا له وتخويفا.
- (٥) انظر: تفسير الطبري: ٢١٥-٢١٦.
- (٦) الكشف: ١٥٢/١.
- (٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٣٩): ص ١٤٣/١.
- (٨) تفسير الطبري: ٢١٨/٢.
- (٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٤٠): ص ١٤٣/١.
- (١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٤٣/١.
- (١١) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٤١): ص ١٤٣/١.
- (١٢) تفسير الطبري: ٢١٨/٢.
- (١٣) انظر: تفسير الطبري: ٢١٩-٢٢٠.
- (١٤) أنظر: تفسير الطبري (١٢٧٤): ص ٢١٩/٢.
- (١٥) أنظر: تفسير الطبري (١٢٧٦): ص ٢١٩/٢.
- (١٦) أنظر: تفسير الطبري (١٢٨٠)، و(١٢٨١): ص ٢٢٠/٢.
- (١٧) أنظر: تفسير الطبري (١٢٨٢): ص ٢٢٠/٢.
- (١٨) أنظر: تفسير الطبري (١٢٨٣): ص ٢٢٠/٢-٢٢١.
- (١٩) أنظر: تفسير الطبري (١٢٨٤): ص ٢٢١/٢.

وروي عن السدي: قال "اشتروها بوزنها عشر مرات ذهباً، فباعهم صاحبها إياها وأخذ ثمنها"^(٣).

وعن محمد بن سيرين، عن عبيدة قال: اشتروها بملء جلدنا دنانير"^(٤). وهذا الوجه فيه نظر، "لأن كثرة ثمنها لم يثبت إلا من نقل بني إسرائيل. وفيه اختلاف، ثم قد قيل في ثمنها غير ذلك. كما سيأتي في كلام عكرمة الثاني: وقيل: لخوف الفضيحة في ظهور القاتل. وهذا قول وهب"^(٥). الثالث: وقيل: لصغر خطرها وقلة قيمتها، كما روي ذلك عن عكرمة"^(٦). قال عكرمة: "ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير"^(٧). وروي عن الحسن قال: "كانت وحشية"^(٨).

وكثير من المفسرين- رحمهم الله-، قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيراً لكتاب الله، محتجين بقوله صلى الله عليه وسلم: "حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"^(٩)، والذي نرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيراً لكتاب الله قطعاً إذا لم تصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أن مرتبتها كما قال صلى الله عليه وسلم: "لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذبوهم"^(١٠)، فإذا كانت مرتبتها أن تكون مشكوكاً فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به والقطع بألفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة، التي يغلب على الظن كذبها أو كذب أكثرها، معاني لكتاب الله، مقطوعاً بها ولا يستريب بهذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل"^(١١).

القرآن

{وَإِذ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢)} [البقرة : ٧٢]

التفسير:

واذكروا إذ قتلتم نفساً فتنازعتم بشأنها، كلٌ يدفع عن نفسه تهمة القتل، والله مخرج ما كنتم تخفون من قتل القتيل.

قوله تعالى: {وَإِذ قَتَلْتُمْ نَفْسًا}[البقرة ٧٢]، أي "واذكروا يا بني إسرائيل إذ قتلتم نفساً"^(١٢). قال مجاهد: "صاحب البقرة رجل من بني إسرائيل قتله رجل فألقاه على باب ناس آخرين، فجاء أهل المقتول فادعوا دمه، فاقتلوا"^(١٣).

- (١) أنظر: تفسير الطبري(١٢٨٥):ص٢٢١/٢.
- (٢) أنظر: تفسير الطبري(١٢٧٨):ص٢٢١/٢.
- (٣) أخرجه الطبري(١٢٧٨):ص٢٢٠/٢.
- (٤) أخرجه الطبري(١٢٧٩):ص٢٢٠/٢.
- (٥) أنظر: تفسير الطبري(١٢٨٩):ص٢٢١/٢.
- (٦) أنظر: تفسير الطبري(١٢٨٨):ص٢٢١/٢.
- (٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٤٤):ص١٤٤/١. قال ابن كثير: "وهذا إسناد جيد عن عكرمة، والظاهر أنه نقله عن أهل الكتاب أيضاً".
- (٨) أخرجه الطبري(١٢٥٤):ص٢١٣/٢.
- (٩) سنن أبي داود(٣٦٦٢):ص٣٢٢/٣، ومصنف ابن أبي شيبة(١٨٢):ص٢٣٦/٦.
- (١٠) صحيح البخاري(٢٥٣٩):ص٩٥٤/٢.
- (١١) انظر: تفسير السعدي:٥٥-٥٦.
- (١٢) تفسير الطبري: ٢٢٢/٢.
- (١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٤٥):ص١٤٤/١.

وهذا الكلام مقدم على أول القصة، التقدير : وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها، فقال موسى : إن الله يأمركم بكذا. وهذا الأسلوب كقوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيمًا} [الكهف : ١ - ٢] أي أنزل على عبده قيما ولم يجعل له عوجا، ومثله كثير في القرآن الكريم^(١).

قوله تعالى: {فَادَارَأْتُمْ فِيهَا} [البقرة ٧٢]، أي: فاختلفتم فيها^(٢).
قال مجاهد: "اختلفتم فيها"^(٣).

وقال عطاء الخراساني: "اختلفتم فيها"^(٤). وروي عن الضحاك مثل ذلك^(٥).

وروي عن ابن جريج: "قال بعضهم : أنتم قتلتموه. وقال الآخرون : أنتم قتلتموه"^(٦).

عن محمد بن سيرين، عن عبيدة قال: كان في بني إسرائيل رجل عقيم وله مال كثير، فقتله ابن أخ له، فجره فألقاه على باب ناس آخرين، ثم أصبحوا، فادعاه عليهم، حتى تسلح هؤلاء وهؤلاء، فأرادوا أن يقتلوا، فقال، ذوو النهي منهم: أتقتلون وفيكم نبي الله؟ فأمسكوا حتى أتوا موسى، فقصوا عليه القصة، فأمرهم أن يذبوا بقرة فيضربوه ببعضها، فقالوا: أتخذنا هزوا؟ قال: أعود بالله أن أكون من الجاهلين^(٧).

قال قتادة: "قتيل كان في بني إسرائيل. ففذف كل سبط منهم سبطا به ، حتى تفاقم بينهم الشر، حتى ترافعوا في ذلك إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم. فأوحى الله إلى موسى: أن اذبح بقرة فاضربه ببعضها. فذكر لنا أن وليه الذي كان يطلب بدمه هو الذي قتله، من أجل ميراث كان بينهم"^(٨).

عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس - دخل حديث بعضهم في حديث بعض، قالوا: "إن سبطا من بني إسرائيل، لما رأوا كثرة شرور الناس، بنوا مدينة فاعتزلوا شرور الناس، فكانوا إذا أمسوا لم يتركوا أحدا منهم خارجا إلا أدخلوه، وإذا أصبحوا قام رئيسهم فنظر وتشرف، فإذا لم ير شيئا فتح المدينة، فكانوا مع الناس حتى يمسا. وكان رجل من بني إسرائيل له مال كثير، ولم يكن له وارث غير ابن أخيه، فطال عليه حياته، فقتله ليرثه، ثم حمله فوضعه على باب المدينة، ثم كمن في مكان هو وأصحابه. قال: فتشرف رئيس المدينة على باب المدينة، فنظر فلم ير شيئا. ففتح الباب، فلما رأى القتيل رد الباب: فناداه ابن أخي المقتول وأصحابه: هيهات! قتلتموه ثم تردون الباب؟ وكان موسى لما رأى القتل كثيرا في أصحابه بني إسرائيل، كان إذا رأى القتل بين ظهري القوم. أخذهم. فكاد يكون بين أخي المقتول وبين أهل المدينة قتال، حتى لبس الفريقان السلاح، ثم كف بعضهم عن بعض. فأتوا موسى فذكروا له شأنهم، فقالوا: يا رسول الله، إن هؤلاء قتلوا قتيلا ثم ردوا الباب. وقال أهل المدينة: يا رسول الله، قد عرفت اعتزالنا الشرور، وبنينا مدينة - كما رأيت-

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٤٥٥/١.

(٢) انظر: البخاري-فتح-: ٥٠٧/٦. وهذا القول قول ابن عباس ومجاهد والسدي، انظر تفسير ابن أبي حاتم:

٢٢٨/١، وجامع البيان للطبري: ٢٢٢/٢، وزاد المسير لابن الجوزي: ١٠١/١، والنكت والعيون للماوردي:

١٤٢/١. كما قال به أبو عبيدة في مجاز القرآن: ٤٥/١، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: ٥٤/١، وابن جرير في

جامع البيان: ٢٢٢/٢.

(٣) أخرجه الطبري(١٢٩٢):ص٢٢٥/٢.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٤٧):ص١٤٤/١.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٤٤/١.

(٦) أخرجه الطبري(١٢٩٤):ص٢٢٥/٢.

(٧) أخرجه الطبري(١٣٠١):ص٢٢٧/٢-٢٢٨.

(٨) أخرجه الطبري(١٢٩٨):ص٢٢٦/٢.

نعتزل شرور الناس، ما قتلنا ولا علمنا قاتلا. فأوحى الله تعالى ذكره إليه: أن يذبحوا بقرة، فقال لهم موسى: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة^(١).
 قوله تعالى: {وَاللَّهُ مُخْرَجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة: ٧٢]، "أي مظهر ما تخفونه"^(٢).
 عن مجاهد: {والله مخرج ما كنتم تكتمون}، قال: "ما تغيبون"^(٣).
 ومعنى (الإخراج)، -هنا-: "الإظهار والإعلان لمن خفي ذلك عنه، وإطلاعهم عليه، كما قال الله تعالى ذكره: {أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} [النمل: ٢٥] يعني بذلك: يظهره ويطلعهم من مخبئه بعد خفائه.. والذي كانوا يكتُمونه فأخرجه، هو قتل القاتل القاتل.. حتى أظهره الله وأخرجه، فأعلن أمره لمن لا يعلم أمره"^(٤).

القرآن

{فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٧٣]
 التفسير:

فقلنا: اضربوا القاتل بجزء من هذه البقرة المذبوحة، فإن الله سيبعثه حيًّا، ويخبركم عن قاتله. فضربوه ببعضها فأحياء الله وأخبر بقاتله. كذلك يحيي الله الموتى يوم القيامة، ويريكم- يا بني إسرائيل- معجزاته الدالة على كمال قدرته تعالى؛ لكي تتفكروا بعقولكم، فتمتنعوا عن معاصيه.
 قوله تعالى: {فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَبَعْضِهَا} [البقرة: ٧٣]، "أي: اضربوا هذا القاتل ببعض هذه البقرة"^(٥).

واختلفوا في ذلك البعض الذي ضربوا القاتل على أقوال^(٦):
 أحدها: فخذها. قاله مجاهد^(٧)، وعكرمة^(٨)، وقتادة^(٩).

قال قتادة: "فضرب بفضها فقام، فقال: قتلني فلان"^(١٠).
 الثاني: البضعة بين الكتفين. قاله السدي^(١١).
 الثالث: عضم من عظامها. قاله أبو العالية^(١٢).

قلت: والأقرب أنهم كانوا مخيرين في أبعاض البقرة لأنهم أمروا بضرب القاتل ببعض البقرة وأي بعض من أبعاض البقرة ضربوا القاتل به، فإنهم كانوا ممتثلين لمقتضى قوله: {اضربوه ببعضها} والإتيان بالمأمور به يدل على الخروج عن العهدة على ما ثبت في أصول الفقه، وذلك يقتضي التخيير.

قوله تعالى: {كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى} [البقرة: ٧٣]، "أي مثل إحياء هذا القاتل يحيي الله عزّ وجلّ الموتى"^(١٣).

(١) أخرجه الطبري: ٢٢٧/٢٤.

(٢) صفوة التفاسير: ٥٩/١.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٧٤٨): ص ١٤٤/١، وتفسير الطبري (١٣٠٣)، و (١٣٠٤): ص ٢٢٩/٢.

(٤) تفسير الطبري: ٢٢٨/٢.

(٥) تفسير ابن عثيمين: ٢٤٠/١.

(٦) انظر: تفسير الرازي: ١١٦/٢. وتفسير الطبري: ٢٣٠/٢-٢٣١.

(٧) أنظر: تفسير الطبري (١٣٠٥): ص ٢٢٩/٢، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٤٥/١.

(٨) أنظر: تفسير الطبري (١٣٠٧): ص ٢٣٠/٢، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧٥٢): ص ١٤٥/١.

(٩) أنظر: تفسير الطبري (١٣١٠): ص ٢٢٩/٢، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٤٥/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٥٢): ص ١٤٥/١.

(١١) أنظر: تفسير الطبري (١٣١١): ص ٢٣٠/٢.

(١٢) أنظر: تفسير الطبري (١٣١٢): ص ٢٣١/٢.

(١٣) تفسير ابن عثيمين: ٢٤٠/١.

قال الحسن: "فضربوه ببعضها، فقام حيا، فقال: قتلني فلان، ثم مات، لم يزد على ذلك" (١).

القرآن

{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)} [البقرة: ٧٤]

التفسير:

ولكنكم لم تنتفعوا بذلك؛ إذ بعد كل هذه المعجزات الخارقة اشتدت قلوبكم وغلظت، فلم يُنفذ إليها خير، ولم تَلِنْ أمام الآيات الباهرة التي أريتكموها، حتى صارت قلوبكم مثل الحجارة الصماء، بل هي أشد منها غلظة؛ لأن من الحجارة ما يتسع وينفج حتى تنصب منه المياه صبا، فتصير أنهارا جارية، ومن الحجارة ما يتصدع فينشق، فتخرج منه العيون والينابيع، ومن الحجارة ما يسقط من أعالي الجبال من خشية الله تعالى وتعظيمه. وما الله بغافل عما تعملون.

قوله تعالى: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ} [البقرة: ٧٤]، "أي: اشتدت وغلظت، فلم تؤثر فيها الموعدة" (٢).

قال أبو العالية: "يعني به بني إسرائيل" (٣).

قوله تعالى: {مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ} [البقرة: ٧٤]، "أي: من بعد رؤية المعجزات الباهرة" (٤).

قال قتادة: "من بعد ما أراه ما أحيا من الموتى، ومن بعد ما أراه من أمر القتل ما أراه" (٥).

قوله تعالى: {وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ} [البقرة: ٧٤]، "يعني إن بعض الحجارة تتفجر منها الأنهار" (٦).

عن مجاهد، قوله: {وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ} [البقرة: ٧٤] إلى قوله {وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [البقرة: ٧٤]، قال: «كل حجر يتفجر منه الماء، أو ينشق عن ماء، أو يهبط من جبل، فمن خشية الله عز وجل، نزل بذلك القرآن» (٧). وروي عن ابن جريج (٨) مثل ذلك.

قوله تعالى: {وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [البقرة: ٧٤]، "أي من الحجارة ما يتصدع إشفاقا من عظمة الله فينبع منه الماء، ومنها ما يتفتت ويتردى من رعوس الجبال من خشية الله" (٩).

قال قتادة: "ثم عذر الحجارة ولم يعذر شقي ابن آدم. فقال: {وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} (١٠).

قال ابن إسحاق: "فأخبر تعالى ذكره أن من الحجارة ما هو ألين من قلوبهم لما يدعون إليه من الحق" (١).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٥٤): ص ١٤٥/١.

(٢) تفسير السعدي: ٥٥.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٥٥): ص ١٤٦/١.

(٤) صفوة التفاسير: ٥٩/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٥٧): ص ١٤٦/١.

(٦) تفسير ابن عثيمين: ٢٤٦/١.

(٧) تفسير مجاهد: ٢٠٧، وتفسير الطبري (١٣١٧): ص ٢٤٠/٢.

(٨) أخرجه الطبري (١٣٢٢): ص ٢٤٠/٢-٢٤١.

(٩) صفوة التفاسير: ٦٠/١.

(١٠) أخرجه الطبري (١٣١٩): ص ٢٤٠/٢.

قوله تعالى: {وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة : ٧٤]، أي: وما الله "بتارك عقوبة ما تعملون، بل يجازيكم به"^(٢).
قال سعيد بن جبير: "يعني بما يكون عليهم"^(٣).
وأصل (الغفلة) عن الشيء، "تركه على وجه السهو عنه، والنسيان له"^(٤).

القرآن

{أَفْتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة : ٧٥]

التفسير:

أيها المسلمون أنسيتم أفعال بني إسرائيل، فطمعت نفوسكم أن يصدّق اليهودُ بدينكم؟ وقد كان علماءهم يسمعون كلام الله من التوراة، ثم يحرفونه بصرفه إلى غير معناه الصحيح بعد ما عقلوا حقيقته، أو بتحريف ألفاظه، وهم يعلمون أنهم يحرفون كلام رب العالمين عمداً وكذباً.
قوله تعالى: {أَفْتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ} [البقرة: ٧٥]، "أي أترجون يا معشر المؤمنين أن يسلم اليهود ويدخلوا في دينكم"^(٥).

عن قتادة: "أفتطمعون أن يؤمنوا لكم"، الآية، قال: هم اليهود"^(٦).
قال مجاهد: "يعني: «الذين يعرفونه، والذين يكتفونهم والأميين منهم والذين نبذوا ما أوتوا من الكتاب وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، هؤلاء كلهم يهود"^(٧).
واختلفوا في الخطاب الموجه في قوله تعالى {أَفْتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ} [البقرة: ٧٥]، على أقوال:

أحدهما: أنه خطاب مع المؤمنون، تقديره أفتطمعون أن تصدقوا نبيكم. قاله أبو العالية^(٨)، وقاتادة^(٩).
الثاني: أنه خطاب مع الرسول والمؤمنين. قاله الربيع بن أنس^(١٠) والحسن^(١١).
قال الربيع: "يعني: أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، {أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ}، يقول: أفتطمعون أن يؤمن لكم اليهود؟"^(١٢). وروي عن الحسن نحو ذلك^(١٣).
وهذا القول الأخير "أليق بالظاهر لأنه عليه السلام وإن كان الأصل في الدعاء فقد كان في الصحابة من يدعوهم إلى الإيمان ويظهر لهم الدلائل وينبهم عليها، فصح أن يقول تعالى: {أَفْتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ} ويريد به الرسول ومن هذا حاله من أصحابه وإذا كان ذلك صحيحاً فلا وجه لترك الظاهر"^(١٤).

(١) انظر: تفسير الطبري (١٣١٦): ص ٢٤٠/٢.

(٢) تفسير الثعلبي: ٢٢١/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٦٧): ص ١٤٧/١.

(٤) تفسير الطبري: ٢٤٤/٢.

(٥) صفوة التفاسير: ٦٢/١.

(٦) أخرجه الطبري (١٣٢٧): ص ٢٤٤/٢.

(٧) تفسير مجاهد: ٢٠٧.

(٨) نقلا عن: زاد المسير: ١٠٣/١.

(٩) نقلا عن: زاد المسير: ١٠٣/١.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧٦٩): ص ١٤٨/١.

(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٤٨/١.

(١٢) أخرجه الطبري (١٣٢٦): ص ٢٤٤/٢.

(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٤٨/١.

(١٤) مفاتيح الغيب: ٥٦٠/٣.

قوله تعالى: {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ} [البقرة: ٧٥]، "أي: والحال قد كان طائفة من أبحارهم وعلماهم يتلون كتاب الله ويسمعونه بيناً جلياً ثم يبدلون معناه وتأويله ويغيرونه"^(١).

قال الربيع بن أنس: "يسمعون الوحي، يسمعون من ذلك ما كان يسمع أهل النبوة، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون"^(٢).

عن السدي: {يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ}، قال: "هي التوراة حرفوها"^(٣).
وقال أبو العالية: "عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمد- صلى الله عليه وسلم-، فحرفوه عن مواضعه"^(٤).

قال محمد بن إسحاق: "فيما حدثني بعض أهل العلم أنهم قالوا لموسى: يا موسى، قد حيل بيننا وبين رؤية الله، فأسمعنا كلامه حين يكلمك. فطلب ذلك موسى إلى ربه، فقال: نعم. مرهم أن يتطهروا وليطهروا ثيابهم ويصوموا، ففعلوا ثم خرج بهم حتى أتوا الطور، فلما غشيبهم الغمام أمرهم موسى فوقعوا سجوداً، وكلمه ربه، فلما سمعوا كلامه يأمرهم وبينهاهم حتى عقلوا عنه ما سمعوا ثم انصرف بهم إلى بني إسرائيل"^(٥).

وقد اختلف أهل التفسير في الذين عنى الله بقوله {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ} [البقرة: ٧٥]، على ثلاثة أقوال^(٦):

أحدهما: أنهم علماء اليهود والذين يحرفونه التوراة فيجعلون الحلال حراماً والحرام حلالاً ابتغاءً لأهوائهم وإعانة لراشبيهم. وهذا قول مجاهد^(٧) والسدي^(٨).

والثاني: أنهم الذين اختارهم موسى من قومه، فسمعوا كلام الله فلم يمتثلوا أمره وحرفوا القول في إخبارهم لقومهم، وهذا قول الربيع بن أنس^(٩) وابن إسحاق^(١٠).

واستنكره هذا القول الحكيم الترمذي^(١١)، وابن عطية^(١٢)، وابن الجوزي^(١٣)، وقالوا: بأن التكليم، من فضائل موسى واختصاصه^(١٤).

قوله تعالى: {مَنْ بَعْدَ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: ٧٥]، "أي من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم، وهم يعلمون أنهم مفترون مبطلون"^(١٥).

قال قتادة: "هم اليهود وكانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه بعد ما سمعوه ووعوه"^(١٦).

(١) صفوة التفاسير: ٦٢/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٧١): ص ١٤٨/١.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧٧٤): ص ١٤٩/١.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧٧٥): ص ١٤٩/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٧٢): ص ١٤٨/١.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٢٤٦/٢-٢٤٧، والنكت والعيون: ١٤٧/١-١٤٨.

(٧) انظر: تفسير الطبري (١٣٢٨): ص ٢٤٥/٢.

(٨) انظر: تفسير الطبري (١٣٣٠): ص ٢٤٦/٢.

(٩) انظر: تفسير الطبري (١٣٣٢): ص ٢٤٦/٢، وابن أبي حاتم (٧٧١): ص ١٤٨/١.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (١٣٣٣)، و(١٣٣٤): ص ٢٤٦/٢-٢٤٧.

(١١) نقلاً عن: زاد المسير: ١٠٣/١-١٠٤، قال ابن الجوزي: "وقد أنكروا بعض أهل العلم منهم الترمذي صاحب النوادر هذا القول إنكار شديد وقال إنما خص بالكلام موسى وحده".

(١٢) أنظر: المحرر الوجيز: ١٦٨/١.

(١٣) انظر: زاد المسير: ١٠٣/١.

(١٤) انظر: زاد المسير: ١٠٣/١، والمحرر الوجيز: ١٦٨/١.

(١٥) صفوة التفاسير: ٦٢/١.

(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٧٦): ص ١٤٩/١.

قال السدي: " فيعلمون أنهم قد أذنبوا"^(١).

القرآن

{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦)} [البقرة: ٧٦]

التفسير:

هؤلاء اليهود إذا لقوا الذين آمنوا قالوا بلسانهم: آمنا بدينكم ورسولكم المبشر به في التوراة، وإذا خلا بعض هؤلاء المنافقين من اليهود إلى بعض قالوا في إنكار: أتحدثون المؤمنين بما بين الله لكم في التوراة من أمر محمد؛ لتكون لهم الحجة عليكم عند ربكم يوم القيامة؟ أفلا تفقهون فتحذروا؟ في سبب نزول الآية قولان:

أحدها: عن قتادة قال: " كانوا يقولون إنه سيكون نبي"^(٢)، فخلا بعضهم إلى بعض فقالوا: أتحدثونهم بهذا فيحتجون عليكم به"^(٣). وروي عن أبي العالية نحو ذلك^(٤).

الثاني: عن عكرمة: أن امرأة من اليهود أصابت فاحشة فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يبتغون منه الحكم رجاء الرخصة، فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عالمهم وهو ابن صوريا، فقال له: احكم. قال فجبوه. قال عكرمة: التجبية يحملونه على حمار ويجعلون وجهه إلى ذنب الحمار - وذكر فيه كلاما - فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبحكم الله حكمت؟ أو بما أنزل على موسى؟ قال: لا. ولكن نساءنا كن حسانا فأسرع فيهن رجالنا فغيرنا الحكم، وفيه أنزلت: {وإذا خلا بعضهم إلى بعض}، قال عكرمة: إنهم غيروا الحكم منذ ستمائة سنة"^(٥). والقول الثاني أوفق بسياق الآية. والله أعلم.

قوله تعالى: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا} [البقرة: ٧٦]، " هؤلاء اليهود إذا لقوا الذين آمنوا قالوا بلسانهم: آمنا بدينكم ورسولكم المبشر به في التوراة"^(٦). قال الربيع بن أنس: وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا قال هم اليهود"^(٧). وروي عن قتادة نحوه^(٨).

قال السدي: " هؤلاء ناس من اليهود، آمنوا ثم نافقوا"^(٩). قوله تعالى: {وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ} [البقرة: ٧٦]، " وإذا خلا بعض هؤلاء المنافقين من اليهود إلى بعض قالوا في إنكار: أتحدثون

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٧٧): ص ١٤٩/١.

(٢) أي في آخر الزمن. انظر: العجائب في بيان الأسباب: ٢٦٨/١.

(٣) تفسير عبدالرزاق: ٨، وانظر: العجائب في بيان الأسباب: ٢٦٨/١-٢٦٩.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٣٤١): ص ٢٥١/٢، من طريق أبي العالية ولفظه: يعني بما أنزل الله في كتابكم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧٨٠): ص ١٥٠/١.

والخير ضعيف. ففي السند حفص بن عمر العدني وهو متفق على ضعفه. انظر "الجرح والتعديل" ١٨٢/٣ "والمجروحين" ٢٥٧/١ "و"تهذيب الكمال" ٤٢/٧ "و"الميزان" ٥٦٠/١ "و"التهذيب" ٤١٠/٢ "والحكم مختلف فيه انظر ترجمته في "الميزان" ٥٦٩/١. وفي ترجمته موسى بن عبد العزيز العدني الراوي عن الحكم في "الميزان" ٢١٢-٢١٣ "قال الذهبي أيضا: "وحديثه في المنكرات لا سيما والحكم بن أبان ليس بالثابت أيضا". [انظر: حاشية العجائب: ٢٧٠/١].

(٦) التفسير الميسر: ١٠.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٧٨): ص ١٤٩/١.

(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٤٩/١.

(٩) أخرجه الطبري (١٣٣٨): ص ٢٥٠/٢.

المؤمنين بما بيّن الله لكم في التوراة من أمر محمد؛ لتكون لهم الحجة عليكم عند ربكم يوم القيامة؟^(١)

قال الحسن: "وإذا خلا بعضهم إلى بعضهم، قال بعضهم: لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما في كتابكم، ليحاجوكم به عند ربكم فيخصمونكم"^(٢).

عن قتادة: {لِيَحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ}، قال: "ليحتجوا به عليكم"^(٣).

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ} [البقرة: ٧٦]، على أقوال:

أحدها: بما أنزل الله عليكم في التوراة، من نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم- وبعثه {لِيَحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ}، قاله أبو العالية^(٤) وقتادة^(٥).

الثاني: أنهم أرادوا قول يهود بني قريظة، حين شبههم النبي -صلى الله عليه وسلم-، بأنهم إخوة القردة، فقالوا: من حدثك بهذا؟ وذلك حين أرسل إليهم، علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وهذا قول مجاهد^(٦).

الثالث: أن ناساً من اليهود أسلموا، ثم نافقوا فكانوا يحدثون المسلمين من العرب، بما عُدّب به أبائهم، فقال بعضهم لبعض، أحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب، وهذا قول السدي^(٧).

الرابع: قال عطاء الخراساني: "بما قضى لكم وعليكم"^(٨).

قوله تعالى: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٧٦]، "أي: أفليست لكم عقول تمنعكم من أن تحدثوهم بما يكون لهم في حجة عليكم؟"^(٩).

قال زيد بن أسلم: "أفلا تتفكرون"^(١٠).

القرآن

{أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [البقرة: ٧٧]

التفسير:

أيفعلون كلّ هذه الجرائم، ولا يعلمون أن الله يعلم جميع ما يخفونه وما يظهره؟
اختلف في الذي أسروه هؤلاء، على وجوه^(١١):

أحدها: أن الذي أسروه كفرهم، والذي أعلنوه الإيمان. قاله قتادة^(١٢)، وأبو العالية^(١٣)، وروي عن الحسن والربيع نحو ذلك^(١٤).

(١) التفسير الميسر: ١١.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧٨٥): ص ١٥١/١.

(٣) أخرجه الطبري (١٣٤٣): ص ٢٥٢/٢.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧٨١): ص ١٥٠/١، وتفسير الطبري (١٣٤١): ص ٢٥٠/٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٣٤٢)، و(١٣٤٣): ص ٢٥١/٢-٢٥٢.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧٨٢): ص ١٥٠/١، وتفسير الطبري (١٣٤٥)، و(١٣٤٦)، و(١٣٤٧): ص ٢٥٢/٢-٢٥٣.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧٨٣): ص ١٥٠/١، وتفسير الطبري (١٣٤٨): ص ٢٥٣/٢.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٨٤): ص ٥١/١.

(٩) صفوة التفاسير: ٦٢/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٧٤): ص ١٠١/١.

(١١) انظر: تفسير البحر الميط: ٤٤١/١.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (١٣٥٠): ص ٢٥٦/٢.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (١٣٥١): ص ٢٥٦/٢-٢٥٧.

(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٥١/١.

قال أبو العالية: "يعني ما أسروا من كفرهم بمحمد وتكذيبهم به وهم يجدونه مكتوبا عندهم"^(١).

عن أبي العالية في قوله: {وما يعلنون}، حين قالوا للمؤمنين: آمنا"^(٢). وروي عن الحسن وقتادة والربيع نحو ذلك^(٣).

الثاني: كان ما أسروا أنهم إذا تولوا عن أصحاب محمد وخلا بعضهم إلى بعض تناهوا أن يخبر أحدهم منهم أصحاب محمد بما فتح الله عليهم في كتابهم خشية أن يحاجهم أصحاب محمد بما في كتابهم عند ربهم ليخاصموهم. قاله الحسن^(٤).

وفي هذه الآية وما أشبهها دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يغضي عن المنافقين، مع أن الله أظهره على نفاقهم، وذلك رجاء أن يؤمنوا، فأغضى عنهم، حتى قبل الله منهم من قبل، وأهلك من أهلك.

القرآن

{وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)} [البقرة : ٧٨]
التفسير:

ومن اليهود جماعة يجهلون القراءة والكتابة، ولا يعلمون التوراة وما فيها من صفات نبي الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وما عندهم من ذلك إلا أكاذيب وظنون فاسدة.
قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ} [البقرة: ٧٨]، أي "من اليهود أميون لا يحسنون القراءة والكتابة"^(٥).

قال أبو العالية: "يعني اليهود"^(٦). وروي عن الربيع^(٧)، ومجاهد^(٨) نحو ذلك.

وقد تعددت أقوال أهل العلم في تعريف (الأميين)، على وجوه^(٩):

أحدها: أن الأمي: الذي لا يكتب ولا يقرأ، وهو قول مجاهد^(١٠).
والثاني: أن الأميين: قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله، ولا كتابا أنزله الله، وكتبوا كتابا بأيديهم، وقال الجهال لقومهم: هذا من عند الله، وهذا قول ابن عباس^(١١).

والثالث: وقال أبو عبيدة: "إنما قيل لهم أميون لنزول الكتاب عليهم، كأنهم نسبوا إلى أم الكتاب، فكأنه قال: ومنهم أهل الكتاب لا يعلمون الكتاب"^(١٢).

والرابع: وقيل: هم قوم من أهل الكتاب، رفع كتابهم لذنوب ارتكبوها فصاروا أميين^(١٣).
والخامس: أنهم نصارى العرب. قاله عكرمة والضحاك^(١).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٨٦): ص ١٥١/١.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧٨٨): ص ١٥١/١.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٥١/١.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧٨٧): ص ١٥١/١.

(٥) تفسير البيهقي: ١١٤/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٨٩): ص ١٥٢/١، والطبري (١٣٥٢): ص ٢٥٧/٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري (١٣٥٣): ص ٢٥٧/٢.

(٨) انظر: تفسير الطبري (١٣٥٤): ص ٢٥٧/٢.

(٩) انظر: تفسير القرطبي: ٥/٢.

(١٠) انظر: النكت واعيون: ١٤٩/١.

(١١) نقل عنه القرطبي: ٥/٢، وانظر نحوه في تفسير الطبري (١٣٥٨): ص ٢٥٨/٢.

(١٢) نقله عنه القرطبي: ٥/٢، والسمين الحلبي في الدر المصون: ٤٤٥/٢، وابن عادل الحنبلي في اللباب: ٣٠٣/٢،

والذي في مجا القرآن لأبي عبيدة: ٩٠/١: "أن الأميين هم الذين لم يأتهم الأنبياء بالكتب".

(١٣) انظر: تفسير القرطبي: ٥/٢.

السادس: أنهم المجوس. قاله علي - رضي الله عنه-^(٢).
والقول الأول أظهر مع تفسير الآية، والله تعالى أعلم. وقال به الماوردي^(٣) وابن عطية^(٤)،
والقرطبي^(٥)، وغيرهم.

قوله تعالى: {لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ} [البقرة: ٧٨]، "أي: ليس لهم حظ من كتاب الله"^(٦).
قال إبراهيم النخعي: "ومنهم من لا يحسن أن يكتب"^(٧).
قال قتادة: "لا يعلمون الكتاب ولا يدرون ما فيه"^(٨). وعنه أيضا: "إنما هم أمثال البهائم، لا
يعلمون شيئا"^(٩).
وقال أبو العالية: "لا يدرون ما فيه"^(١٠). أي من الكتاب، وروي عن ابن عباس مثل
ذلك^(١١).

وعني بـ{الكتاب}: "التوراة، ولذلك أدخلت فيه (الألف واللام)، لأنه قصد به كتاب معروف
بعينه"^(١٢).

قوله تعالى: {إِلَّا أَمَانِيَّ} [البقرة: ٧٨]، "أي: إلا قراءة بدون فهم للمعنى"^(١٣).
واختلف أهل التفسير في قوله تعالى {لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ} [البقرة: ٧٨]، على قولين:
أحدهما: "إِلَّا أَمَانِيَّ": يعني: "إلا كذبا". قاله مجاهد^(١٤).
ومنه قول عثمان رضي الله عنه: "لا تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيمينتي منذ
بايعت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم"^(١٥)، فقوله "ما تمنيت"، أي: ما كذبت.

-
- (١) انظر: تفسير القرطبي: ٥/٢.
 - (٢) انظر: المحرر الوجيز: ١/١٦٩، وتفسير الطبري: ٥/٢.
 - (٣) انظر: النكت واعيون: ١/١٤٩.
 - (٤) انظر: المحرر الوجيز: ١/١٦٩.
 - (٥) انظر: تفسير القرطبي: ٥/٢.
 - (٦) تفسير السعدي: ٥٦.
 - (٧) أخرجه الطبري: (١٣٥٦): ص ٢٥٧/٢-٢٥٨.
 - (٨) أخرجه الطبري: (١٣٦٠): ص ٢٦٠/٢.
 - (٩) أخرجه الطبري: (١٣٥٩): ص ٢٥٩/٢-٢٦٠.
 - (١٠) أخرجه الطبري: (١٣٦١): ص ٢٦٠/٢.
 - (١١) أخرجه الطبري: (١٣٦٢): ص ٢٦٠/٢.
 - (١٢) تفسير الطبري: ٢/٢٦٠.
 - (١٣) تفسير ابن عثيمين: ١/٢٥٦.
 - (١٤) تفسير مجاهد: ١/٨١، وأخرجه الطبري (١٣٦٦): ص ٢٦١/٢، وابن أبي حاتم (٧٩٤): ص ١٥٢/١.
 - (١٥) أخرجه ابن ماجه في سنن (١١٣/١) قال: حدثنا علي بن محمد حدثنا وكيع حدثنا الصلت بن دينار عن عقبه بن صهبان قال: سمعت عثمان بن عفان يقول: وذكر الحديث، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير - (ج ٥ / ص ١٩٢) قال: حدثنا أحمد بن زهير التستري ثنا محمد بن عبيد بن ثعلبة ثنا أبو يحيى الحماني ثنا عبد الأعلى بن أبي المساور عن الشعبي عن زيد بن أرقم قال: أرسلني النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر رضي الله عنه فبشرته بالجنة ثم أرسلني إلى عمر رضي الله عنه فبشرته بالجنة ثم أرسلني إلى عثمان فبشرته بالجنة على بلوي تصيبه فأخذ عثمان بيدي فانطلق أو ذهب بي حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ما هذه البلوى التي تصيبني؟ فوالله ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست فرجي بيمينتي منذ أسلمت أو منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام فقال له: إن الله مقمصك قميصا فإن أردك المنافقون على خلعه فلا تخلعه. وذكر ابن حجر في المطالب العلية (١١ / ٧٦) عن الصقر بن عبد الرحمن ابن بنت مالك بن مغول، ثنا عبد الله بن إدريس، عن المختار بن فلفل، عن أنس، قال: « جاء النبي صلى الله عليه وسلم، فدخل إلى بستان، فجاءت آت، ففتح الباب، فقال: « يا أنس، « قم فافتح له، وبشره بالجنة، وبشره بالخلافة من بعدي » قال: قلت: يا رسول الله، أعلمه؟ قال: « أعلمه » فإذا أبو بكر، قلت: أبشر بالجنة، وأبشر بالخلافة من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جاء آت، ففتح الباب، فقال: « يا أنس » فذكر بمثله سواء، فإذا عمر، فقلت له: أبشر بالجنة، وبالخلافة

ومنه قول الشاعر^(١):
ولكنما ذاك الذي كان منكما ... أمائي ما لاقت سماء ولا أرضا
الثاني: {إلا أمائي}، يعني: أنهم يَمْتَنُونَ على الله ما ليس لهم. قاله قتادة^(٢)، ومجاهد^(٣)، وأبو
العالية^(٤).

قال الحسن: " هؤلاء ناس من اليهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئا كما قال الله، فكانوا
يتكلمون بالظنون بغير ما في كتاب الله، ويقولون: هو من الكتاب، أماني يَتَمَنُونَهَا"^(٥).
قوله تعالى: {وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} [البقرة: ٧٨]، أي: "إلا يشكون، ولا يعلمون حقيقته
وصحته"^(٦).

وذكروا في قوله تعالى: {وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} [البقرة: ٧٨]، وجهين:
أحدهما: يكذبون، قاله مجاهد^(٧).
الثاني: يظنون الظنون بغير الحق. قاله قتادة^(٨) وأبو العالوية^(٩)، والربيع^(١٠).

القرآن

{فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ تُرُوبًا بِهِ تَمَّ قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ
مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)} [البقرة: ٧٩]
التفسير:

فهلاك ووعيد شديد لأخبار السوء من اليهود الذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند
الله وهو مخالف لما أنزل الله على نبيه موسى عليه الصلاة والسلام؛ ليأخذوا في مقابل هذا عرض
الدنيا. فلهم عقوبة مهلكة بسبب كتابتهم هذا الباطل بأيديهم، ولهم عقوبة مهلكة بسبب ما يأخذونه في
المقابل من المال الحرام، كالرشوة وغيرها.
في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: أنها نزلت في اليهود الذين "عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمد صلى الله
عليه وسلم فحرفوه عن مواضعه، يبتغون بذلك عرضا من عرض الدنيا". قاله أبو العالوية^(١١).

من بعد أبي بكر قال: ثم جاء أت، فدق الباب، فقال: «يا أنس، قم فافتح له، وبشره الجنة، وبشره بالخلافة من
بعد عمر، وأنه مقتول» قال: فخرجت، فإذا عثمان، فقلت له: أبشر بالجنة، وبالخلافة من بعد عمر، وأنتك
مقتول فدخل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: يا رسول الله، والله ما تغنيت، ولا تمنيت، ولا مسست
فرجي منذ بابتك قال: «هو ذاك يا عثمان» هذا حديث موضوع، قد أخرجه ابن أبي خيثمة في تاريخه من
طريق عبد الأعلى بن أبي المساور وأخرجه البزار من طريق بكر بن المختار وبكر، وعبد الأعلى وإهيان،
والصقر أوهي منهما، فلعله تحمله عن بكر، أو عبد الأعلى، فقلبه عن عبد الله بن إدريس ليروج، ولو كان هذا
وقع، ما قال أبو بكر للأنصار: قد رضيت لكم أحد الرجلين: عمر، أو أبا عبيدة ولما قال عمر: الأمر شورى في
سنة.

- (١) لم أتعرف على قائله، والبيت من شواهد الماوردي في النكت والعيون: ١٥٠/١.
- (٢) انظر: تفسير الطبري (١٣٧١): ص ٢٦١/٢.
- (٣) انظر: تفسير الطبري (١٣٦٨): ص ٢٦١/٢.
- (٤) انظر: تفسير الطبري (١٣٧٢): ص ٢٦١/٢.
- (٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٧٩٧): ص ٥٣!/١.
- (٦) تفسير الطبري: ٢٦٥/٢.
- (٧) انظر: تفسير الطبري (١٣٧٤): ص ٢٦٦/٢.
- (٨) انظر: تفسير الطبري (١٣٧٨): ص ٢٦٦/٢.
- (٩) انظر: تفسير الطبري (١٣٧٩): ص ٢٦٦/٢-٢٦٧.
- (١٠) انظر: تفسير الطبري (١٣٨٠): ص ٢٦٧/٢.
- (١١) انظر: تفسير الطبري (١٣٩٤): ص ٢٧١/٢.

الثاني: وقيل أنها نزلت في: "ناس من اليهود كتبوا كتابا من عندهم، يبيعونه من العرب، ويحدثونهم أنه من عند الله، ليأخذوا به ثمنا قليلا". قاله السدي^(١)، ومجاهد^(٢)، وقتادة^(٣).

قوله تعالى: {قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [البقرة: ٧٩]، "أي هلاك وعذاب لأولئك الذين حرّفوا التوراة، وكتبوا تلك الآيات المحرفة بأيديهم"^(٤).

واختلف أهل التفسير في تحريف اليهود للكتاب على قولين:

أحدهما: أنه: "كان ناس من اليهود كتبوا كتابا من عندهم، يبيعونه من العرب، ويحدثونهم أنه من عند الله، ليأخذوا به ثمنا قليلا". قاله السدي^(٥)، ومجاهد^(٦)، وقتادة^(٧).

والثاني: أنه في اليهود، "عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم فحرفوه عن مواضعه، يبتغون بذلك عرضا من عرض الدنيا". قاله أبو العالية^(٨).

اختلف أهل التفسير في قوله {قَوْلٌ} [البقرة: ٧٩]، على أقوال:

أحدها: أنه ما يسيل من صديد في أصل جهنم. قاله أبو العياض^(٩)، وشقيق^(١٠).
الثاني: أنه الحزن، قاله ابن كيسان^(١١).

يقال: تويل الرجل إذا دعا بالويل، وإنما يقال ذلك عند الحزن والمكروه، ومنه قوله: {قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [البقرة: ٧٩]، ومنه قول الشاعر^(١٢):

تَوَيْلٌ إِذْ مَلَأْتُ يَدِي وَكَانَتْ ... يَمِينِي لَا تَعْلُ بِالْقَلِيلِ

الثالث: أن الويل وإد في جهنم، وهذا قول عطاء بن يسار^(١٣).
الرابع: أنه النار، قاله عمر مولى عفرة^(١٤).

قوله تعالى: {ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَ شَيْءٌ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا} [البقرة: ٧٩]، "أي بعدما كتبوه بأيديهم، وعرفوا أنه من صنع أيديهم، يقولون هذا أنزل من عند الله لينالوا به عرض الدنيا وحطامها الفاني"^(١٥).

قال قتادة: "كان ناس من بني إسرائيل كتبوا كتباً ليتأكلوا بها الناس، ثم قالوا: «هذه من عند الله، وما هي من عند الله»"^(١٦).

قال السدي: "كان ناس من اليهود يكتبون كتابا من عندهم ويبيعونه من العرب ويحدثونهم أنه من عند الله فيأخذون ثمنا قليلا"^(١).

(١) انظر: تفسير الطبري (١٣٨٨): ص ٢٧١/٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٣٩٠): ص ٢٧٠/٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٣٩٢): ص ٢٧١/٢.

(٤) صفوة التفاسير: ٦٣/١.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٣٨٨): ص ٢٧١/٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري (١٣٩٠): ص ٢٧٠/٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري (١٣٩٢): ص ٢٧١/٢.

(٨) انظر: تفسير الطبري (١٣٩٤): ص ٢٧١/٢.

(٩) انظر: تفسير الطبري (١٣٨٢)، و (١٣٨٣)، و (١٣٨٤): ص ٢٦٧/٢-٢٦٨، وابن أبي حاتم (٧٩٩): ص ١٥٣/١.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (١٣٨٥): ص ٢٦٨/٢.

(١١) انظر: الممتع في التصريف: ٥٦٨/٢، ولسان العرب: ٤٩٣٩/٨، والمعجم المفصل: ٥٨٧/٦.

(١٢) لم أتعرف على قائله، والبيت في: الممتع في التصريف "٥٦٨/٢، وفي "لسان العرب" ٤٩٣٩/٨، "المعجم المفصل" ٥٨٧/٦.

(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٨٠٠): ص ٢٥٣/١، والطبري (١٣٩٦): ص ٢٧١/٢-٢٧٢.

(١٤) انظر: النكت والعيون: ٢٢٦/٦.

(١٥) تفسير ابن عثيمين: ٢٥٨/١. (بتصرف بسيط).

(١٦) أخرجه عبدالرزاق (٨٠): ص ٢٧٨/١.

عن الحسن: قوله: "ليشتروا به ثمنًا قليلاً": كذبا وفجورا، {وما هو من عند الله} قال: ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون" (١).

روي عن إبراهيم، أنه كره كتابة المصاحف بالأجر وتلا هذه الآية: {فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم} (٢).

واختلف في سبب وصف "الثلثين" بالقليل، في قوله تعالى: {لِيَسْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا} [البقرة: ٧٩]، وذكروا فيه وجهين:

أحدهما: أن الثلثين هو عرض الدنيا، ووصفه بالقليلة لفنائها، كما قال تعالى: {قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ}، وهذا قول أبي العالية (٣).

وسئل الحسن عن قوله: {ثمنًا قليلاً}، قال: "الثلثين القليل الدنيا بحذافيرها" (٤).

الثاني: أن الثلثين القليل هو الرشا والمآكل التي كانت لهم، ووصفه بالقليل لكونه حراما. روي عن السدي (٥) نحو ذلك.

فيمكن القول بأن صف الله تعالى ما يأخذه بالقليلة، إما لفنائها وعدم ثباته، وإما لكونه حراما، لأن الحرام لا بركة فيه ولا يربو عند الله. قال ابن إسحاق والكلبي: كانت صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابهم ربعة أسمر، فجعلوه آدم سبطا طويلا، وقالوا لأصحابهم وأتباعهم: انظروا إلى صفة النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي يبعث في آخر الزمان ليس يشبهه نعت هذا، وكانت للأحبار والعلماء رياسة ومكاسب، فخافوا إن بينوا أن تذهب مآكلهم ورياستهم، فمن ثم غيروا (٦).

قوله تعالى: {فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ} [البقرة: ٧٩]، "فلهم عقوبة مهلكة بسبب كتابتهم هذا الباطل بأيديهم" (٧).

قال أبو العالية: "عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمد - صلى الله عليه وسلم - فحرفوه عن مواضعه، يبتغون بذلك غرض الدنيا. قال الله عز وجل: {فويل لهم مما كتبت أيديهم} (٨).

قوله تعالى: {وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} [البقرة: ٧٩]، "أي: ولهم عقوبة مهلكة بسبب ما يأخذه في المقابل من المال الحرام، كالرشوة وغيرها" (٩).

قال أبو العالية: "يعني: من الخطية" (١٠).

القرآن

{وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠)} [البقرة: ٨٠]

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٠٦): ص ١٥٤/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٠٩): ص ١٥٥/١.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٨٠٧): ص ١٥٤/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٣٩٤): ص ٢٧١/٢.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٨١٠): ص ٥٥/١.

(٦) انظر: تفسير الطبري (١٣٨٨): ص ٢٧٠/٢.

(٧) انظر: تفسير القرطبي: ٩/٢.

(٨) التفسير الميسر: ١٢.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٨١١): ص ١٥٥/١.

(١٠) التفسير الميسر: ١٢.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (٨١٢): ص ١٥٥/١.

التفسير:

وقال بنو إسرائيل: لن تصيبنا النار في الآخرة إلا أياماً قليلة العدد. قل لهم -أيها الرسول مبطلا دعواهم-: أعندكم عهد من الله بهذا، فإن الله لا يخلف عهده؟ بل إنكم تقولون على الله ما لا تعلمون بافتراءكم الكذب.

اختلف في سبب نزول الآية على أقوال:

أحدها: كانت يهود يقولون: إنما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما يعذب الله الناس يوم القيامة بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوماً واحداً من أيام الآخرة، وإنها سبعة أيام. فأنزل الله في ذلك من قولهم: {وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة} الآية. روي نحوه عن مجاهد^(١).

الثاني: أن اليهود قالت إن الله أقسم أن يدخلهم النار أربعين يوماً عدد عبادتهم العجل، فأكذبهم الله، كما تقدم. قاله قتادة^(٢)، وعن السدي^(٣)، وأبو العالية^(٤)، والضحاك^(٥)، وعكرمة^(٦).

قال عكرمة: "خاصمت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة وسيخلفنا إليها قوم آخرون. يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم- وأصحابه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم- بيده على رؤوسهم: بل أنتم فيها خالدون مخلدون لا يخلفكم إليها أحد فأنزل الله: وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة"^(٧).

الثالث: زعم اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوباً أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم. وقالوا: إنما نعذب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك. قاله الضحاك^(٨).

قوله تعالى: {وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة} [البقرة: ٨٠]، أي قال اليهود "لن ندخل النار إلا أياماً قلائل"^(٩).

وفي "الأيام المعدودة"، قولان:

أحدهما: أنها أربعون يوماً، وهذا قول قتادة^(١٠)، والسدي^(١١)، وعكرمة^(١٢)، وأبي العالية^(١٣)، ورواه الضحاك عن ابن عباس^(١٤).

قال قتادة: "قالوا: أياماً معدودة بما أصبنا في العجل قال الله: {قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده}"^(١٥).

قال قتادة: "قالت اليهود: لن ندخل النار إلا تحلة القسم خلال عدد الأيام التي عبدنا فيها العجل"^(١).

(١) أخرجه الطبري (١٤١٢)، و(١٤١٣)، و(١٤١٤): ص: ٢٧٨/٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٤٠٠): ص: ٢٧٥/٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٤٠١): ص: ٢٧٥/٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٤٠٢): ص: ٢٧٥/٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٤٠٨): ص: ٢٧٧/٢.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٨١٥): ص: ١٥٦/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٨١٥): ص: ١٥٦/١.

(٨) انظر: تفسير الطبري (٨١٤): ص: ١٥٦/١.

(٩) صفوة التفاسير: ٦٣/١.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (١٤٠٣): ص: ٢٧٥/٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري (١٤٠١): ص: ٢٧٥/٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (١٤٠٦)، و(١٤٠٧): ص: ٢٧٧-٢٧٦/٢.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (١٤٠٢): ص: ٢٧٥/٢.

(١٤) انظر: تفسير الطبري (١٣٩٩): ص: ٢٧٤-٢٧٥.

(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٨١٦): ص: ١٥٦/١.

الثاني : أن المعودة التي تمسهم فيها النار سبعة أيام، لأنهم زعموا، أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة، وأنهم يُعَدَّبُونَ عن كل ألف سنة يوماً، وهذا قول مجاهد^(١)..
 قوله تعالى: {قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ} [البقرة : ٨٠]، أي: قل لهم - أيها الرسول مبطلا دعواهم-: أعندكم عهد من الله بهذا، فإن الله لا يخلف عهده؟^(٢).
 قال مجاهد: " موثقا من الله بذلك أنه كما تقولون؟"^(٣).
 قال قتادة: " فقال الله: أتخذتم عند الله عهدا بهذا الذي تقولون؟ ألكم بهذا حجة وبرهان"^(٤).
 وروي عن الربيع بن أنس^(٥) نحو ذلك.
 قال الحسن: " أي: هل عندكم من الله من عهد أنه ليس معذبكم؟ أم هل أرضيتم الله بأعمالكم فعملتم بما افترض عليكم وعهد إليكم"^(٦).
 قوله تعالى: {أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٨٠]، "أي أم تكذبون على الله فتقولون عليه ما لم يقوله"^(٧).
 قال قتادة: " قال القوم الكذب والباطل، وقالوا على الله ما لا يعلمون"^(٨).

القرآن

{بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)} [البقرة : ٨١]

التفسير:

فحُكِّمَ اللهُ ثابت: أن من ارتكب الآثام حتى جَرَّتْهُ إلى الكفر، واستولت عليه ذنوبه من جميع جوانبه وهذا لا يكون إلا فيمن أشرك بالله، فالمشركون والكفار هم الذين يلازمون نار جهنم ملازمة دائمة لا تنقطع.

قوله تعالى: {بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً} [البقرة: ٨١]، " أي: بلى: تصيبكم النار أنتم ومن ارتكب الآثام حتى جَرَّتْهُ إلى الكفر"^(٩).

واختلف في تفسير {بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً} [البقرة: ٨١]، على وجهين^(١٠):
 أحدهما : أنها الشرك، وهذا قول أبي وائل^(١١)، وأبي العالية^(١٢)، ومجاهد^(١٣)، وعكرمة^(١٤)،
 والحسن^(١٥) - في أحد قوليه-، وقتادة^(١٦)، والربيع بن أنس^(١٧).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٨١٨):ص ١٥٧/١.

(٢) أخرجه الطبري (١٤١٢)، و(١٤١٣)، و(١٤١٤):ص ٢٧٨/٢.

(٣) التفسير الميسر: ١٢.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٨١٩):ص ١٥٧/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٨١٨):ص ١٥٧/١.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٥٧/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٢٠):ص ١٥٧/١.

(٨) صفوة التفاسير: ٦٣/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٢١):ص ١٥٧/١.

(١٠) التفسير الميسر: ١٢. [بتصرف]

(١١) انظر: تفسير ابن كثير: ٣١٥/١.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (١٤٢١):ص ٢٨١/٢.

(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٥٨/١.

(١٤) انظر: تفسير الطبري (١٤٢٢):ص ٢٨٤-٢٨٥.

(١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٥٨/١.

(١٦) انظر: تفسير الطبري (١٤٢٧):ص ٢٨٢/٢.

عن مجاهد: "وأحاطت به خطيئته"، قال: ما أوجب الله فيه النار" (٤).
 عن ابن جريج قال، "قلت لعطاء: {وأحاطت به خطيئته}، قال: الشرك، ثم تلا: {وَمَنْ جَاءَ
 بِالسَّيِّئَةِ فَكَتَبَتْ وَجُوهَهُمْ فِي النَّارِ} [النمل: ٩٠]" (٥).
 وهذا قول أكثر السلف (٦)، وحكي الواحدي الإجماع (٧) ولعل الذي دفعه لحكاية الإجماع، الرد
 على من حمل الآية على عصاة المؤمنين، كالمعتزلة والخوارج. والله أعلم.
 الثاني: أن "السيئة" كبائر الذنوب التي وعد الله تعالى عليها النار، وأن "الخطيئة" هي الكفر، وهذا
 قول السدي (٨) والحسن (٩)، وقواه ابن عطية: فقال: "ولفظ الإحاطة تقوي هذا القول" (١٠).
 عن سلام بن مسكين قال: "سأل رجل الحسن عن قوله: {وأحاطت به خطيئته}، فقال: ما
 ندري ما الخطيئة، يا بني اتل القرآن، فكل آية وعد الله عليها النار، فهي الخطيئة" (١١).
 والراجح هو أن "السيئة" التي ذكر الله في هذا المكان، فإنها الشرك بالله، وهو اختيار الإمام
 الطبري إذ تعضده مجموعة من الروايات حسنة الإسناد (١٢).
 وأصحاب القولين على أن الآية إنما هي في الكفار لا في العصاة؛ لأن الله توعد أهل هذه
 الآية بالخلود في النار، وهذا إنما يكون في حق الكفار فقط، قال الواحدي: "والمؤمنون لا يدخلون
 في حكم هذه الآية، لأن الله تعالى أوعد بالخلود في النار من أحاطت به خطيئته، وتقدمت منه سيئة
 هي الشرك، والمؤمن ومن عمل الكبائر فلم يوجد منه شرك" (١٣).
 قوله تعالى: {وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} [البقرة: ٨١]، أي "اجتمعت عليه فمات عليها، قبل الإنابة
 والتوبة منها" (١٤).
 واختلف أهل التفسير في معنى قوله تعالى: {وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} [البقرة: ٨١]، وذكروا فيه
 وجوها:
 أحدها: أنه مات عليها، وهذا قول السدي (١٥)، والربيع بن خثيم (١٦)، والضحاك (١٧)، وأبي رزين (١٨)،
 والأعمش (١٩).

-
- (١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٥٨/١.
 (٢) انظر: تفسير الطبري (١٤٢٤): ص ٢٨١/٢.
 (٣) انظر: تفسير الطبري (١٤٢٨): ص ٢٨٢/٢.
 (٤) انظر: تفسير الطبري (١٤٢٢): ص ٢٨٥-٢٨٤/٢.
 (٥) انظر: تفسير الطبري (١٤٢٧): ص ٢٨٢/٢.
 (٦) انظر: "مجموع فتاوي ابن تيمية" ٤٨/١٤ وما بعدها، و"البحر المحيط" ١/ ٢٧٩، و"تفسير ابن كثير" ١/ ١١٩، وكتاب "الإجماع في التفسير" ص ١٧٧.
 (٧) التفسير البسيط: ٩٨/٣.
 (٨) انظر: تفسير الطبري (١٤٢٦): ص ٢٨٢-٢٨١/٢.
 (٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٨٢٤): ص ١٥٨/١.
 (١٠) المحرر الوجيز: ١٧١/١.
 (١١) أخرجه الطبري (١٤٣٥): ص ٢٨٥/٢.
 (١٢) انظر: تفسير الطبري: ٢٨١/٢.
 (١٣) الوسيط: ١٦٥/١.
 (١٤) تفسير الطبري: ٢٨٤/٢.
 (١٥) انظر: تفسير الطبري (١٤٤١): ص ٢٨٦/٢.
 (١٦) انظر: تفسير الطبري (١٤٣٠): ص ٢٨٤/٢، وابن أبي حاتم (٨٢٨): ص ١٥٨/١.
 (١٧) انظر: تفسير الطبري (١٤٢٩): ص ٢٨٤/٢.
 (١٨) انظر: تفسير الطبري (١٤٣٧): ص ٢٨٥/٢.
 (١٩) انظر: تفسير الطبري (١٤٣٩): ص ٢٨٥/٢.

قال الربيع بن خثيم: "الذي يموت على خطاياها من قبل أن يتوب"^(١).
 قال الضحاك: "قال : مات بذنبه"^(٢).
 قال السدي: "فمات ولم يتب"^(٣).
 الثاني: أن معناه: سَدَّتْ عليه مسالك النجاة، وهذا قول ابن السراج^(٤).
 الثالث: وقال مجاهد: "وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ" قال: بقلبه"^(٥).
 الرابع: وقيل: أحاط به شركه. قاله أبو وائل^(٦)، وعطاء^(٧)، والحسن -في رواية عباد بن منصور-^(٨).
 الخامس: أن الخطيئة: الكبيرة الموجبة. قاله أبو العالية^(٩)، ومجاهد^(١٠)، والحسن^(١١)، وقتادة^(١٢)، وقتادة^(١٣)، والربيع بن أنس^(١٤).
 وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، والله أعلم. ويذكر هاهنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عمرو بن قتادة عن عبد ربه، عن أبي عياض، عن عبد الله بن مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إِيَّاكُمْ وَمَحَقَرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجْلِ حَتَّى يَهْلِكَنَّهُ". وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهنّ مثلاً كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، وأججوا ناراً، فأنضجوا ما قذفوا فيها^(١٥)^(١٤).
 قوله تعالى: {فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة : ٨١]، " أي فالنار ملازمة لهم لا يخرجون منها أبداً"^(١٦).
 قال السدي: " لا يخرجون منها أبداً"^(١٧).

القرآن

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة : ٨٢]
 التفسير:

وحكم الله الثابت في مقابل هذا: أن الذين صدّقوا بالله ورسله تصديقاً خالصاً، وعملوا الأعمال المتفكّقة مع شريعة الله التي أوحاها إلى رسله، هؤلاء يلازمون الجنة في الآخرة ملازمة دائمة لا تنقطع.

- (١) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٢٨):ص١٥٨/١.
- (٢) أخرجه الطبري(١٤٢٩):ص٢٨٤/٢.
- (٣) انظر: تفسير الطبري(١٤٤١):ص٢٨٦/٢.
- (٤) انظر: النكت والعيون: ١٥٣/١، والتفسير البسيط: ٩٩/٣.
- (٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٢٥):ص١٥٨/١.
- (٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٥٨/١.
- (٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٥٨/١.
- (٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٥٨/١.
- (٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٢٩):ص٥٩/١.
- (١٠) انظر: تفسير الطبري(١٤٣٢):ص٢٨٤-٢٨٥.
- (١١) انظر: تفسير الطبري(١٤٣٥):ص٢٨٥/٢.
- (١٢) انظر: تفسير الطبري(١٤٣٣):ص٢٨٥/٢.
- (١٣) انظر: تفسير الطبري(١٤٤٠):ص٢٨٥/٢.
- (١٤) المسند (٤٠٢/١) الرقم(٣٨٠٣). حسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٨٧).
- (١٥) انظر: تفسير ابن كثير: ٣١٦-٣١٥/١.
- (١٦) صفوة التفاسير: ٦٣/١.
- (١٧) أخرجه الطبري(١٤٤٤):ص٢٨٧/٢.

عن زيد بن اسلم: " {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة : ٨٢]، قال: رسول الله وأصحابه" (١).

القرآن

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ} { (٨٣) [البقرة : ٨٣]

التفسير:

واذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم عهدًا مؤكدًا: بأن تعبدوا الله وحده لا شريك له، وأن تحسنوا للوالدين، وللأقربين، وللأولاد الذين مات أبؤهم وهم دون بلوغ الحلم، وللمساكين، وأن تقولوا للناس أطيب الكلام، مع أداء الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم أعرضتم ونقضتم العهد -إلا قليلا منكم ثبت عليه- وأنتم مستمرون في إعراضكم.

قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [البقرة: ٨٣]، " أي اذكروا إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل" (٢).

قال ابن جريج: " الميثاق الذي أخذ عليهم في سورة المائدة (٣)" (٤). وروي عن أبي العالفة نحوه (٥).

قوله تعالى: {لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ} [البقرة : ٨٣]، أي: " بأن لا تعبدوا غير الله" (٦).

قال أبو العالفة: " أخذ موثيقهم أن يخلصوا له ولا يعبدوا غيره" (٧).

قوله تعالى: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [البقرة: ٨٣]، أي: " وأمرناهم بالوالدين إحسانا" (٨).

عن الحسن: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}، يقول: برا" (٩).

وأما "الإحسان" الذي أخذ عليهم وبالوالدين الميثاق، فيشمل: " فعل المعروف لهما، والقول الجميل، وخفض جناح الذل رحمة بهما، والتحنن عليهما، والرأفة بهما، والدعاء بالخير لهما، وما أشبه ذلك من الأفعال التي ندب الله عباده أن يفعلوا بهما" (١٠).

قوله تعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} [البقرة: ٨٣]، " أي قولاً حسناً بخفض الجناح، ولين

الجانب، مع الكلام الطيب" (١١).

وقد اختلف أهل التفسير في قوله تعالى {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} [البقرة: ٨٣]، على أقوال:

(١) أخرجه ابن ابي حاتم (٨٣١): ص ١٥٩/١.

(٢) تفسير ابن عثيمين: ٢٦٦/١.

(٣) ذكره في الآية (٧) {وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [المائدة : ٧].

والآية (١٢): {وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} [المائدة : ١٢]

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٣٥): ص ١٦٠/١.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٨٣٤): ص ١٦٠/١.

(٦) صفوة التفاسير: ٦٥/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٣٤): ص ١٦٠/١.

(٨) تفسير القرطبي: ١٣/٢.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٢٣٠): ص ٢٣٢٣/٧.

(١٠) تفسير الطبري: ٢٩٢/٢.

(١١) صفوة التفاسير: ٦٦/١.

أحدهما : قولوا للناس معروفًا . قاله أبو العالية^(١)، والحسن^(٢) .
 قال الحسن: فالحسن من القول تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتحلم وتعفو وتصفح،
 وتقول للناس حسنا كما قال الله، وهو كل خلق حسن رضيه الله"^(٣) .
 الثاني: قولوا: الحسن من القول. قاله عطاء بن أبي رباح^(٤)، وجعفر^(٥) .
 والقولان متشابهان فيما بينهما، يحثان على مكارم الأخلاق. والله أعلم.
 عن عطاء بن أبي رباح: "وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا"، قال: للناس كلهم"^(٦) . وكذا روي عن
 عكرمة^(٧) .

واختلف في نسخ قوله تعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}[البقرة: ٨٣]، على قولين:
 أحدهما: حكى المهدي عن قتادة أن قوله: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} منسوخ بآية السيف^(٨) .
 وقال إسماعيل بن أبي خالد: " هذه الآية أمر بها قبل أن يؤمر بالجهاد"^(٩) .
 الثاني: أن الآية محكمة، وقولوا جميع الناس حسنا، وحسن القول للكافر أمره بالمعروف ونهيه
 عن المنكر^(١٠)، وهذا قول عطاء بن أبي رباح^(١١)، وأبي جعفر المدني^(١٢) .
 والراجح -والله أعلم- أن هذا خبر من الله تعالى عما خاطب به بني إسرائيل، وعليه فإنه
 خبر عن الماضي لا يدخل عليه النسخ^(١٣)، لأنه أليق بسياق الآية، فإله أخبرنا بما أخذ من الميثاق
 على بني إسرائيل، وأما المسلمون فليسوا مخاطبين بهذه الآية.
 قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}[البقرة: ٨٣]، أي: "أدوا الصلاة بحقوقها الواجبة
 عليكم فيها واعطوا الزكاة مستحقها"^(١٤) .
 قال قتادة: "فريضة واجبتان"^(١٥) .

القرآن

{وَادَّأَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَأَتْسِفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرَجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ
 [البقرة: ٨٤]}

التفسير:

واذكروا -يا بني إسرائيل- حين أخذنا عليكم عهدًا مؤكدًا في التوراة: يحرم سفك بعضكم دم بعض،
 وإخراج بعضكم بعضًا من دياركم، ثم اعترفتم بذلك، وأنتم تشهدون على صحته.

قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ} [البقرة: ٨٤]، أي: "واذكروا يا بني إسرائيل- حين أخذنا عليكم عهدًا مؤكدًا في التوراة: يحرم سفك بعضكم دم بعض، وإخراج بعضكم بعضًا من دياركم"^(١).

قال السدي: "إن الله أخذ على بني إسرائيل في التوراة أن لا يقتل بعضهم بعضًا"^(٢).
عن أبي العالية: {لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ}، يقول: لا يقتل بعضكم بعضًا"^(٣). وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحوه^(٤).

قوله تعالى: {وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ} [البقرة: ٨٤]، أي "ولا يخرج بعضكم بعضًا من داره"^(٥).

قال أبو العالية: "يقول: لا يخرج بعضكم بعضًا من الديار وكان في بني إسرائيل إذا استضعفوا قوما أخرجوهم من ديارهم، وقد أخذ عليهم الميثاق أن لا يسفكوا دماءهم ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم"^(٦). وروي عن الحسن والسدي ومقاتل بن حيان نحو قول الأول إلى "نكر الديار"^(٧).

قوله تعالى: {ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ} [البقرة: ٨٤]، "أي: قبلتم ذلك وأقررتم به، وأنتم أيها الباقون المخاطبون تشهدون أن هذا حق"^(٨).
قال أبو العالية: "يقول: أقررتم بهذا الميثاق وأنتم شهود"^(٩). وروي عن الربيع مثله^(١٠).

القرآن

{ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتِوكُمْ أُسَارَى ثِقَادُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفْتُونُونَ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بَبَعْضِ مَا جَزَاءٌ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة: ٨٥]

التفسير:

ثم أنتم يا هؤلاء يقتل بعضكم بعضًا، ويخرج بعضكم بعضًا من ديارهم، ويتقوى كل فريق منكم على إخوانه بالأعداء بغيا وعدوانًا. وأن يأتوكم أسارى في يد الأعداء سعيتم في تحريرهم من الأسر، بدفع الفدية، مع أنه محرم عليكم إخراجهم من ديارهم. ما أبح ما تفعلون حين تؤمنون ببعض أحكام التوراة وتكفرون ببعضها! فليس جزاء من يفعل ذلك منكم إلا ذلًا وفضيحة في الدنيا، ويوم القيامة يردُّهم الله إلى أفظع العذاب في النار، وما الله بغافل عما تعملون.
سبب النزول:

قال السدي: "فكانت قريظة حلفاء الأوس، وكانت النضير حلفاء الخزرج، فكانوا يقتتلون في حرب سمير فتقاتل بنو قريظة مع حلفائها. النضير وحلفائهم. وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها

(١) التفسير الميسر: ١٣.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٥١): ص ١٦٢/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٥١): ص ١٦٢/١.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٦٣/١.

(٥) تفسير الثعلبي: ٢٢٩/١، وانظر: تفسير المراغي: ١٦١/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٥٣): ص ١٦٣/١.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ص ١٦٣/١.

(٨) انظر: معاني القرآن للزجاج: ١٦٥/١، والتفسير البسيط للواحدي: ١١٥/٣.

(٩) أخرجه الطبري (١٤٦٧): ص ٣٠١/٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (١٤٦٨): ص ٣٠١/٢.

ويغلبون فيخربون ديارهم ويخرجونهم منها فإذا أسر رجل من الفريقين كليهما جمعوا له حتى يفدوه فتعيرهم العرب بذلك، ويقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم، قالوا: أمرنا أن نفديهم وحرّم علينا قتالهم، قالوا: إنا نستحي أن يستدل بحلفائنا. فذلك حين عيرهم الله فقال ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ قَرِيبًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾^(١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٥]، "أي ثم أنتم بعد ذلك التوكيد في الميثاق تنقضون العهد فتقتلون أنفسكم"^(٢).

قال الربيع بن أنس: "يقول: يقتل بعضهم بعضاً"^(٣). وروي عن الحسن وقتادة نحو ذلك^(٤). وقد اختلف أهل التفسير فيمن عني بهذه الآية، نحو اختلافهم فيمن عني بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾^(٥) على أقوال:

أحدهما: أن الآية خطاب لقريظة والنضير وبني قينقاع، وذلك أن النضير وقريظة حالفت الأوس، وبني قينقاع حالفت الخزرج، فكانوا إذا وقعت الحرب بين بني قيلة ذهبت كل طائفة من بني إسرائيل مع أحلافها فقتل بعضهم بعضاً وأخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، وكانوا مع ذلك يفدي بعضهم أسرى بعض اتباعاً لحكم التوراة وهم قد خالفوها بالقتال والإخراج^(٦). قاله السدي^(٧). قال ابن إسحاق: "ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج - فيما بلغني - نزلت هذه القصة"^(٨).

الثاني: قال أبو العالية: "كان في بني إسرائيل: إذا استضعفوا قوماً أخرجوهم من ديارهم. وقد أخذ عليهم الميثاق أن لا يسفكوا دماءهم، ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم"^(٩). قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُونَ قَرِيبًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٥]، "أي كما طردتموهم من ديارهم من غير التفات إلى العهد الوثيق"^(١٠).

روي عن الحسن، وقتادة، قالوا: "يخرجونهم من ديارهم معهم"^(١١). قوله تعالى: ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [البقرة: ٨٥]، "أي: تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم"^(١٢).

عن سعيد بن جبير: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ بعد المعصية، ﴿الْعُدْوَانِ﴾: بعض الظلم^(١٣). قال السدي: "نزلت هذه الآية في قيس بن خطيم: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ قَرِيبًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾"^(١٤).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٥٧): ص ١٦٤/١، والطبري (١٤٧٢): ص ٣٠٧/٢-٣٠٨.

(٢) تفسير المراغي: ١٦١/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٥٨): ص ١٦٤/١.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٨٥٨): ص ١٦٤/١.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٣٠٥/٢-٣٠٧.

(٦) انظر: المحرر الوجيز: ١٧٤/١، وتفسير الطبري: ٣٠٦/٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري (١٤٧٢): ص ٣٠٧/٢-٣٠٨.

(٨) انظر: تفسير الطبري (١٤٧١): ص ٣٠٤/٢-٤٠٥.

(٩) أخرجه الطبري (١٤٧٤): ص ٣٠٧/٢.

(١٠) صفوة التفاسير: ٦٦/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٥٩): ص ١٦٤/١.

(١٢) صفوة التفاسير: ٦٦/١.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٦٢)، (٨٦٣): ص ١٦٥/١.

(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٦١): ص ١٦٤/١.

قوله تعالى: {وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ} [البقرة: ٨٥]، " وأن يأتوكم أسارى في يد الأعداء سعيتم في تحريرهم من الأسر، بدفع الفدية، مع أنه محرم عليكم إخراجهم من ديارهم" (١).
 قال أبو العالية: " وقد أخذ عليهم الميثاق إن أسر بعضهم أن يفادوهم، فأخرجوهم من ديارهم ثم فادوهم" (٢).
 قال قتادة: " والله إن فداءهم لإيمان، وإن إخراجهم لكفر" (٣).
 عن عبد خير قال: " غزونا مع سلمان بن ربيعة الباهلي بلنجر، فحاصرنا أهلها ففتحنا المدينة وأصينا سبايا، واشترى عبد الله بن سلام يهودية بسبعمئة درهم، فلما مر برأس الجالوت نزل به فقال له عبد الله: يا رأس الجالوت هل لكم في عجز هاهنا من أهل دينك تشتريها مني؟ قال: نعم. قال: أخذتها بسبعمئة درهم. قال: فإني أربك سبعمائة أخرى قال: فإني قد حلفت أن لا أنقصها من أربعة آلاف. قال: لا حاجة لي فيها. قال: والله لتشتريها مني أو لتكفرن بدينك الذي أنت عليه. قال: ادن مني، فدنا منه فقرا في أذنه التي في التوراة: إنك لا تجد مملوكا في بني إسرائيل إلا اشتريته فأعتقته: {وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ}، قال: أنت عبد الله بن سلام؟ قال: نعم. قال: فجاء بأربعة فأخذ عبد الله ألفي درهم، ورد عليه ألفين" (٤).
 قوله تعالى: {أَفْتَوْمُنُونَ بَبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ} [البقرة: ٨٥]، "أي: أفتؤمون ببعض أحكام التوراة وتكفرون ببعض" (٥).

قال السدي: " كان إيمانهم ببعض الكتاب حين فدوا الأسارى" (٦).
 قال أبو العالية: " آمنوا بالفدية فدوا وكفروا بالإخراج من الديار فأخرجوا" (٧).
 قال عطاء الخراساني: " فكفرهم أنهم كانوا يقتلون أبناءهم وأنفسهم. وإيمانهم أنهم كانوا يرون حقا عليهم أن يفادوا من وجدوا منهم أسيرا" (٨).
 قوله تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة: ٨٥]، " ويوم القيامة يردهم الله إلى أفظع العذاب في النار، وما الله بغافل عما تعملون" (٩).
 عن عبد الله بن حبيب قال " يكون أول الآية عاما وآخرها خاصا وقرأ هذه الآية: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة: ٨٥] " (١٠).

القرآن

- (١) التفسير الميسر: ١٣.
- (٢) تفسير ابن أبي حاتم (٨٦٦): ص ١٦٥/١.
- (٣) تفسير ابن أبي حاتم (٨٦٨): ص ١٦٦/١.
- (٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٦٥): ص ١٦٥/١.
- هو "عبد خير بن يزيد الهمداني". أدرك الجاهلية، وروي عن أبي بكر، وابن مسعود وعلي، وزيد بن أرقم، وعائشة. وهو تابعي ثقة. مترجم في التهذيب.
- (٥) صفوة التفاسير: ٦٦/١.
- (٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٦٩): ص ١٦٦/١، وعنه أيضا (٨٧١): ص ١٦٦/١: " كان إيمانهم ببعض الكتاب حين فدوا الأسارى وكفروهم حين قتل بعضهم بعضا".
- (٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٧٢): ص ١٦٦/١.
- (٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٧٣): ص ١٦٦/١.
- (٩) التفسير الميسر: ١٣.
- (١٠) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٨٥٦): ص ٢٥٨/٧.

{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦)} [البقرة ٨٦ :]

التفسير:

أولئك هم الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة، فلا يخفف عنهم العذاب، وليس لهم ناصر ينصرهم من عذاب الله.

قال ابن عباس : "نزلت في اليهود، الذين تقدم ذكرهم أنهم آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض"^(١).

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ} [البقرة: ٨٦]، أي: "هؤلاء اليهود الذين نقضوا العهد، اختاروا الدنيا على الآخرة"^(٢).

عن سعيد بن جبیر في قول الله: {أُولَئِكَ}: الذين ذكر الله في هذه الآية"^(٣).
قال قتادة: "استحبوا قليل الدنيا على كثير الآخرة"^(٤).

قوله تعالى: {فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} [البقرة: ٨٦]، "أي لا يهون عنهم، لا زمنًا، ولا شدة، ولا قوة ولا أحد يمنع عنهم عذاب الله"^(٥).

قال أبو العالية: "هو كقوله: {هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون} [المرسلات: ٣٥]"^(٦).

القرآن

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)} [البقرة : ٨٧]

التفسير:

ولقد أعطينا موسى التوراة، وأتبعناه برسل من بني إسرائيل، وأعطينا عيسى ابن مريم المعجزات الواضحات، وقويناها بجبريل عليه السلام. أفكلما جاءكم رسول بوحى من عند الله لا يوافق أهواءكم، استعليتم عليه، فكذبتم فريقًا وقتلتم فريقًا؟

قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [البقرة: ٨٧]، "أي أعطينا موسى التوراة"^(٧).

عن زياد بن أبي مريم في قوله: {آتَيْنَا}، قال: أعطينا"^(٨).

قوله تعالى: {وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ} [البقرة: ٨٧]، "أي أتبعنا من بعده بالرسل"^(٩).

عن أبي مالك، قوله: {وَقَفَّيْنَا}، يعني: أتبعنا"^(١٠).

قوله تعالى: {وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ} [البقرة: ٨٧]، "أي قويناه وشددنا أزره بجبريل عليه السلام"^(١).

(١) انظر: زاد المسير: ١١٢/١.

(٢) تفسير ابن عثيمين: ٢٧٦/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٧٦): ص ١٦٧/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٧٧): ص ١٦٧/١.

(٥) تفسير ابن عثيمين: ٢٧٧/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٧٨): ص ١٦٧/١.

(٧) صفوة التفاسير: ٦٨/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٧٩): ص ١٦٨/١.

(٩) تفسير ابن عثيمين: ٢٨١/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٨٠): ص ١٦٨/١.

قال الضحاك" يقول : نصرناه"^(٢).
و«الأيد» و«الأد»: القوة، يقال: أَيْدَهُ وأَيْدَهُ إِذَا قَوَاهُ، وَآدَ يَيْدُ أَيُّدًا: إِذَا قَوِيَ، قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ^(٣):

فَأَنْتَ أَعَالِيهِ وَأَدَتْ أَصُولُهُ وَمَالَ بَقْنِيَّانِ مِنَ الْبُسْرِ أَحْمَرَا
أَي: قَوِيَتْ وَإِيَادُ كُلِّ شَيْءٍ: مَا يَقْوَى بِهِ^(٤)، يُقَالُ مِنْهُ: أَيْدَكَ اللَّهُ، أَي: قَوَاكَ، وَهُوَ رَجُلٌ ذُو
أَيْدٍ، وَذُو آدٍ، يُرَادُ: ذُو قُوَّةٍ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْعَجَّاجِ^(٥):
مَنْ أَنْ تَبَدَّلْتَ بِأَدِي آدَا

يعني : بشبابي قوة المشيب، ومنه قول الآخر^(٦):
إِنْ الْقَدَاحُ إِذَا اجْتَمَعَ فِرَامِهَا ... بِالْكَسْرِ ذُو جَدِّ وَبَطْشُ أَيِّدٍ
يعني بالأيد : القوي^(٧).

واختلف أهل التفسير في معنى {رُوحُ الْقُدُسِ} [البقرة: ٨٧]، على وجوه:
القول الأول: أنه جبريل عليه السلام^(٨)^(٩) والقدس: الطهارة، هو قول قتادة^(١٠)، والربيع بن أنس^(١١)،
والسدي^(١٢)، والضحاك^(١٣)، ومحمد ابن كعب القرظي^(١)، وعطية العوفي^(٢)، وإسماعيل بن أبي
خالد^(٣)، و شهر بن حوشب^(٤). واختاره الزجاج^(٥)، والطبري^(٦)، والشنقيطي^(٧)، وغيرهم.

- (١) صفوة التفاسير: ٦٨/١.
(٢) أخرجه الطبري(١٤٨٤):ص٣١٩/٢.
(٣) يصف نخيلاً، انظر "ديوانه" ص ٦٠، "لسان العرب" ١/ ١٨٩ (مادة أيد). "المعجم المفصل" ٣/ ١٤٠.
(٤) ينظر "تهذيب اللغة" ١/ ٩٦، "اللسان" ١/ ١٨٩، وفيه: وإياد كل شيء: ما يقوى به من جانيبه، وهما إياداه.
(٥) تهذيب اللغة" ١/ ٩٦، "اللسان" ١/ ١٨٩.
(٥) زيادة ديوانه: ٧٦، و"اللسان (أود) (أيد) ومجاز القرآن: ٤٦، وأمالى الزجاجي: ٣٩ في خبر، ورواه: فإن تبدلت بأدي آدا ... لم يك ينأد فأمسى إنأدا
والقواعد: القواعد من النساء، جمع على جمع المذكر، كما قال القطامي: أبصارهن إلى الشبان مائلة ... وقد أراهن عني غير صداد
يعني: غير صواد.
(٦) ينسب البيت - من أبيات - لعبد الملك بن مروان، والصواب أنه لعبد الله بن عبد الأعلى ابن أبي عمرة الشيباني. مولى بني شيبان (تاريخ الطبري ٤: ٢٢ / وسمط اللألى: ٩٦٣ ترجمته)
(٧) انظر: تفسير الطبري: ٣١٩/٢-٣٢٠.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٦٩/١-٢٧٠، جامع البيان للطبري: ٣٢٠/٢، النكت والعيون للماوردي: ١٥٦/١، زاد المسير لابن الجوزي: ١١٢/١. وذهب إليه: الزجاج في معاني القرآن: ١٦٨/١، والطبري في جامع البيان: ٣٢١/٢، والماوردي في النكت والعيون: ١٥٦/١، وابن عطية في المحرر الوجيز: ٢٨٧/١، والرازي في مفاتيح الغيب: ١٩١/١، والقرظي في الجامع لأحكام القرآن: ٢٤/٢، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ١٥٥/١، والسمين الحلبي في الدر المصون: ٢٩٤/١، وغيرهم.
(٩) انظر: النكت والعيون: ١٥٦/١.

واختلفوا في سبب تسمية (جبريل)، بروح القدس، على ثلاثة أقوال :
أحدها : أنه سُمِّيَ رُوحًا، لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْأَرْوَاحِ لِلْأَبْدَانِ، بِحَيْثُ بِمَا يَأْتِي بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: {وَمَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ} [الأنعام: ١٢٢]، أَي: "كَانَ كَافِرًا فَهَدَيْنَاهُ".
والثاني: أنه سمي روحاً، لأن الغالب على جسمه الروحانية، لرقته، وكذلك سائر الملائكة، وإنما يختص به جبريل تشريفاً .
والثالث : أنه سمي روحاً، لأنه كان بنكوتين الله تعالى له روحاً من عنده من غير ولادة .

- (١٠) انظر: تفسير الطبري(١٤٨٥):ص٣٢٠/٢
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٤٨٨):ص٣٢٠/٢
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٤٨٦):ص٣٢٠/٢
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٤٨٧):ص٣٢٠/٢

ويؤيده قوله -صلى الله عليه وسلم-: "اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك"^(٨).
ومنه قول حسان^(٩):

وجبريل رسول الله ينادي ... وروح القدس ليس به خفاء
وعن شهر بن حوشب الأشعري: "أن نفرًا من اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقالوا: أخبرنا عن الروح. فقال: "أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل؟
وهو الذي يأتيني؟" قالوا: نعم"^(١٠).
القول الثاني: أن روح القدس: اسم الله الأعظم الذي كان عيسى يُحيي به الموتى^(١١)، قاله سعيد بن
جبير^(١٢).

والقول الأول أظهر، وهو قول الجمهور، لأن التسمية فيه أظهر مما عده^(١٣)، ولأن التأييد
به على الحقيقة، ولأن الله-جل ثناؤه-أخبر أنه أيد عسى به في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ

-
- (١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٨٨٤): ص ١٦٨/١.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٦٨/١.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٨٨٣): ص ١٦٨/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري (١٤٨٩): ص ٣٢٠/٢.
(٥) انظر: معاني القرآن: للزجاج: ١٦٨/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري: ص ٣٢٠/٢.
(٧) انظر: أضواء البيان: ٤٥٣/٢.
(٨) وكذا عزاه المزي في تحفة الأشراف (١٠/١٢) للبخاري، وقال الحافظ ابن حجر في "النكت الظراف": "لم أر
هذا الموضع في صحيح البخاري، وقد وصله أحمد والطبراني وصححه الحاكم".
(٩) ديوانه: ١٧/١، ١٨، و"سيرة ابن هشام" ٤٢١/٢، ٤٢٤، والسهيلي ٢/٢٨٠، وابن سيد الناس ٢/١٨١،
و"تهذيب ابن عساكر" ٤/١٣٠، ١٣١.
ونص الحديث: (حديث مرفوع) "أَخْبَرَنَا أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ نَصْرِ الصَّيْدِي لَانِي، بِقِرَاءَتِي عَلَيْهِ بِأَصْبَهَانَ،
قُلْتُ لَهُ: أَخْبَرْتَكُمْ قَاطِمَةُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ، قِرَاءَةً عَلَيْهِ، أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رِيْدَةَ، أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ
سُلَيْمَانَ بْنُ أَحْمَدَ الطَّبْرَانِي، حَدَّثَنَا مُطَلِّبُ بْنُ شُعَيْبِ الْأَزْدِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، حَدَّثَنَا خَالِدُ
بْنُ يَزِيدَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ، عَنْ عُمَارَةَ بْنِ غَزِيَّةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،
عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "أَهْجُوا فَرِيضًا فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ رَسَقِ النَّبْلِ"، فَأَرْسَلَ
إِلَى ابْنِ رَوَاحَةَ، فَقَالَ: أَهْجُهُمْ فَهَجَاهُمْ، فَلَمْ يَرْضَ، فَأَرْسَلَ إِلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ،
فَلَمَّا دَخَلَ حَسَّانُ، قَالَ: قَدْ أَنْزَلْنَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دَلْعَ لِسَانَهُ فَجَعَلَ يُحْرَكُهُ، فَقَالَ: وَالَّذِي
بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لِأَفْرِيئَهُمْ قَرِي الْأَدِيمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَعْجَلْ فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ فَرِيضَ
بِأَنْسَابِهَا، وَإِنْ لِي فِيهِمْ نَسَبًا حَتَّى يَخْلُصَ لَكَ نَسَبِي"، فَأَتَاهُ حَسَّانُ ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ خَلَصَ لِي
نَسَبُكَ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لِأَسْأَلُكَ مِنْهُمْ كَمَا نَسَلُ الشَّعْرَةَ مِنَ الْعَجِينِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لِحَسَّانَ: "إِنَّ رُوحَ الْفُؤَادِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَاقَحْتَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ"، قَالَ: فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَسَقَى وَاشْتَقَى". قَالَ حَسَّانُ: هَجَوْتُ مُحَمَّدًا فَاجَبْتُ عَنْهُ وَعَبَدْتُ اللَّهَ فِي
ذَلِكَ الْجَزَاءِ هَجَوْتُ مُحَمَّدًا بَرًّا حَنِيفًا رَسُولَ اللَّهِ شَيْمَةَ الْوَقَاءِ فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعَرَضِي لِعَرَضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ
تَكَلَّمْتُ بِبَيْتِي إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُبِيرُ النَّقْعَ مِنْ كَنَفِي كَدَاءُ تُنَازِعُنِي الْأَعْيَةَ مُصْعِدَاتٍ عَلَى أَكْتِافِهَا الْأَسْلُ الطَّمَاءُ تَظَلُّ جِيَادُنَا
مُتَمَطِّرَاتٍ تَلَطَّمُهُنَّ بِالْخُمْرِ النَّسَاءُ فَإِنْ أَعْرَضْتُمْ عَنَّا اعْتَمَرْنَا وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لِضِرَابِ يَوْمٍ
يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَنْشَأُ وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا يَقُولُ الْحَقَّ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ وَقَالَ اللَّهُ قَدْ يَسَّرْتُ جُنْدًا هُمُ الْأَنْصَارُ
عَرَضَتْهَا الْلِقَاءُ تَلَاقِي مِنْ مَعَدِّ كُلِّ يَوْمٍ سِيَابٍ أَوْ قِتَالٍ أَوْ هِجَاءٍ فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سِوَا
وَجِبْرِيلَ رَسُولَ اللَّهِ فَيُنَازِعُهُ الْفُؤَادَ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِحَوْثِهِ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ شُعَيْبِ بْنِ اللَّيْثِ، عَنْ أَبِيهِ
، عَنْ جَدِّهِ، بِإِسْنَادِهِ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: يُبَارِينِ الْأَعْيَةَ".
(١٠) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤٨٩): ص ٣٢٠/٢، من طريق سلمة عن ابن إسحاق به.
(١١) انظر: تفسير للطبري: ٣٢١/٢، وتفسير ابن أبي حاتم: ٢٧٠/١-٢٧١، وغيرهما.
(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٦٩/١.
(١٣) انظر: تفسير الرازي: ١٦٣/٢.

مَرِيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ اِذْ اٰتٰتُكَ بَرُوۡحَ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَاِذْ عَلَّمٰتُكَ الْكِتٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرٰةَ وَالْاِنْجِيْلَ} [المائدة: ١٠١]، وكونه اسم الله الأعظم الذي كان عيسى يحي به الموتى يحتاج إلى نقل صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم. أما كون المراد روح عيسى-عليه السلام-فوجه تأييد عيسى به متكلف. والله أعلم.

و"القدس"، فيه قولان:

أحدهما: هو الله تعالى، ولذلك سُمِّي عيسى عليه السلام روح القدس، لأن الله تعالى كونه من غير أب، وهذا قول الحسن^(١)، والربيع^(٢)، وجعفر^(٣).
والثاني: أن القدس: البركة، وهو قول السدي^(٤).

قوله تعالى: {أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ} [البقرة: ٨٧]، "أي: أفكلما جاءكم يا بني إسرائيل رسول بما لا يوافق هواكم تكبرتم عن اتباعه"^(٥).
قال مجاهد: "يعني: اليهود من بني إسرائيل"^(٦).

وهذا القول: هو "نهاية الذم لهم، لأن اليهود من بني إسرائيل كانوا إذا اتاهم الرسول بخلاف ما يهون كذبوه، وإن تهيأ لهم قتله قتلوه، وإنما كانوا كذلك لإرادتهم الرفعة في الدنيا وطلبهم لذاتها والترؤس على عامتهم وأخذ أموالهم بغير حق، وكانت الرسل تبطل عليهم ذلك فيكذبونهم لأجل ذلك ويوهمون عوامهم كونهم كاذبين ويحتجون في ذلك بالتحريف وسوء التأويل، ومنهم من كان يستكبر على الأنبياء استكبار إبليس على آدم"^(٧).

و"الهوى": "ما تميل إليه أنفسهم من الانخلاع عن القيود الشرعية والانغماس في أنواع المذات والتصميم على العقائد الضالة"^(٨).

قوله تعالى: {فَقَرِيۡفًا كَذٰبًا وَفَرِيۡفًا تَقۡلُوۡنَ} [البقرة: ٨٧]، أي: "طائفة منهم كذبتموهم وطائفة قتلتموهم"^(٩).

قال سعيد بن جبیر: "فريقا: يعني طائفة"^(١٠).

القرآن

{وَقَالُوا قُلُوۡبُنَا غُلْفٌۢ بَلۡ لَّعَنَهُمُ اللّٰهُ بِكُفْرِهِمۡ قَلِيۡلًا مَا يُؤۡمِنُوۡنَ (٨٨)} [البقرة: ٨٨]

التفسير:

وقال بنو إسرائيل لنبي الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم: قلوبنا مغطاة، لا ينفذ إليها قولك. وليس الأمر كما ادَّعوا، بل قلوبهم ملعونة، مطبوع عليها، وهم مطرودون من رحمة الله بسبب جحودهم، فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلا لا ينفعهم.

قوله تعالى: {وَقَالُوا قُلُوۡبُنَا غُلْفٌۢ} [البقرة: ٨٨]، "أي في أكنة لا تفقه ولا تعي ما تقوله يا محمد"^(١).

(١) انظر: النكت والعيون: ١٥٦/١.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٨٨٧): ص ١٦٩/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٤٩٣): ص ٣٢٢/٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٤٩٢): ص ٣٢٢/٢، وتفسير ابن أبي حاتم (٨٨٨): ص ١٦٩/١.

(٥) صفوة التفاسير: ٦٨/١.

(٦) انظر: تفسير الطبري (١٤٩٦): ص ٣٢٣/٢.

(٧) انظر: تفسير الرازي: ١٦٣/٢.

(٨) التحرير والتنوير: ٥٩٨/١.

(٩) صفوة التفاسير: ٦٨/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٩١): ص ١٧٠/١.

وفي تفسير قوله تعالى: {قُلُوبُنَا غُلْفٌ} [البقرة: ٨٨]، قولان: أحدهما: يعني: في أَعْطِيَةٍ وَأَكِنَّةٍ لا تفقه، وهذا قول مجاهد^(٦)، وقتادة^(٣)، والسدي^(٤)، والأعمش^(٥)، وأبو العالية^(١)، وسعيد بن جبير^(٧)، وعكرمة^(٨). قال عكرمة: "عليها طابع"^(٩).

وقول اليهود هذا: هو استهزاء وإنكار وجدد لما أتى به محمد-عليه السلام-: فقالوا قلوبنا عليها غشاوة، فهي في أوعية، فلا تعي ولا تفقه ما تقول يا محمد^(١٠). وقد روي عن حذيفة قال: "القلوب أربعة - ثم ذكرها - فقال فيما ذكر: وقلب أغلف، معصوب عليه، فذلك قلب الكافر"^(١١).

الثاني: يعني: أوعية للعلم^(١٢)، وهذا قول عطية^(١٣)، وعطاء الخراساني^(١٤). وروي عن عطية: "أوعية للمنكر"^(١٥).

وروي عن الحسن في قوله: "قُلُوبُنَا غُلْفٌ"، قال: لم نختن"^(١٦).

قوله تعالى: {بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ} [البقرة: ٨٨]، "أي طردهم وأبعدهم من رحمته بسبب كفرهم وضلالهم فقليل من يؤمن منهم"^(١٧). قال قتادة: "لا يؤمن منهم إلا قليل"^(١٨).

روى الفراء عن الكسائي: "مررنا بأرض قل ما ينبت الكراث والبصل، يريدون لا ينبت شيننا"^(١٩).

وقوله: {بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ}، تسجيل عليهم وفضح لهم بأنهم صمموا على الكفر والتمسك بدينهم من غير التفات لحجة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما صمموا على ذلك عاقبهم الله باللعن

-
- (١) صفوة التفاسير: ٦٨/١.
(٢) انظر: تفسير الطبري (١٥٠٠)، و(١٥٠١)، و(١٥٠٢): ص ٣٢٦/٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري (١٥٠٤): ص ٣٢٦/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري (١٥٠٨): ص ٣٢٧/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري (١٥٠٣): ص ٣٢٦/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري (١٥٠٧): ص ٣٢٦/٢.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٧٠/١.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٨٩٩): ص ١٧١/١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٩٩): ص ١٧١/١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٣٢٥/٢-٣٢٦.
(١١) أخرجه الطبري (١٤٩٧): ص ٣٢٧/٢، والخبر هذا موقوف على حذيفة، وإسناده جيد، إلا أنه منقطع.
(١٢) قال ابن القيم: "وأما قول من قال: هي أوعية للحكمة، فليس في اللفظ ما يدل عليه البتة. وليس له في القرآن نظير يحمل عليه، ولا يقال مثل هذا اللفظ في مدح الإنسان نفسه بالعلم والحكمة، فأين وجدتم في الاستعمال قول القائل: قلبي غلاف، وقلوب المؤمنين العالمين غلف، أي أوعية للعلم. والغلاف قد يكون وعاء للجيد والرديء. فلا يلزم من كون القلب غلافا أن يكون داخله العلم والحكمة. وهذا ظاهر جدا". [تفسير القرآن الكريم لابن القيم: ص ١٣٨].
(١٣) انظر: تفسير الطبري (١٥١٠)، و(١٥١٠)، و(١٥١٢): ص ٣٢٧/٢.
(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٨٩٣): ص ١٧٠/١.
(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٩٨): ص ١٧٠/١.
(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٩٦): ص ١٧٠/١.
(١٧) صفوة التفاسير: ٦٨/١.
(١٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٠٠): ص ١٧١/١.
(١٩) نقله عنه الثعلبي: ٢٣٤/١، و انظر: تفسير ابن كثير: ٣٢٥/١، وتفسير القرطبي "٢٣ / ٢، و"البحر المحيط" ٣٠٢.

والإبعاد عن الرحمة والخير فحرمهم التوفيق والتبصر في دلائل صدق الرسول، فاللعنة حصلت لهم عقابا على التصميم على الكفر وعلى الإعراض عن الحق^(١)، وفي ذلك رد لما أوهموه من أن قلوبهم خلقت بعيدة عن الفهم لأن الله خلقهم كسائر العقلاء مستطيعين لإدراك الحق لو توجهوا إليه بالنظر وترك المكابرة. وهذا معتقد أهل الحق من المؤمنين عدا الجبرية^(٢)، وإن أعظم الذنوب ما تكون عقوبة الله تعالى عليها الإلزام بذنوب أشد منها، فأعقب استكبار اليهود على الأنبياء وتكذيبهم وقتلهم أن الله لعنهم وطبع على قلوبهم، فلا يفقهون الحق ولا يقبلونه^(٣)، ويقول علماء السلف: إن من بركة الحسنة وعلامة قبولها الحسنة تتبعتها. وإن من شؤم المعصية وعقابها المعصية تتبعتها.

القرآن

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [البقرة : ٨٩]
التفسير:

وحين جاءهم القرآن من عند الله مصدقا لما معهم من التوراة جحدوه، وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وكانوا قبل بعثته يستنصرون به على مشركي العرب، ويقولون: قُرْبَ مبعث نبي آخر الزمان، وستنبعه ونقاتلكم معه. فلما جاءهم الرسول الذي عرفوا صفاته وصدقه كفروا به وكذبوه. فلعنة الله على كل من كفر بنبي الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وكتابه الذي أوحاه الله إليه. ذكر التابعون في سبب نزول الآية وجوها:

أحدها: قال السدي: "كانت العرب تمر بيهود فيلقون منهم أذى، وكانت اليهود تجد نعت محمد في التوراة، ويسألون الله أن يبعثه فيقاتلون معه العرب، فلما جاءهم محمد - صلى الله عليه وسلم - كفروا به حسدا، وقالوا: إنما كانت الرسل من بني إسرائيل، فما بال هذا من بني إسماعيل"^(٤).
الثاني: قال أبو العالية: "كانت اليهود تستنصر بمحمد صلى الله عليه وسلم على مشركي العرب، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجد مكتوبا عندنا حتى يعذب المشركين ويقتلهم! فلما بعث الله محمدا، ورأوا أنه من غيرهم، كفروا به حسدا للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه

(١) يقول العلامة ابن قيم الجوزية: "فإن قيل: فما معنى الإضراب: ب«بل» على القول الذي قويتموه؟ أما على القول الآخر فظاهر، أي ليست قلوبكم محلا للعلم والحكمة، بل مطبوع عليها. قيل: وجه الإضراب هنا في غاية الظهور. وهو أنهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته، بل جعل قلوبهم داخلة في غلف فلا تفقهه. فكيف تقوم به عليهم الحجة؟ وكأنهم ادعوا أن قلوبهم خلقت في غلف، فهم معذورون في عدم الإيمان. فاكذبهم الله وقال: ﴿بَلْ لَعْنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم، وأثروه على الإيمان. فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة.

والمعنى: إن الله تعالى لم يخلق قلوبهم غلفا لا تعي ولا تفقه، ثم أمرهم بالإيمان، وهم لا يفقهونه، بل اكتسبوا أعمالا عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها". [تفسير القرآن الكريم لابن القيم: ص: ١٣٨].

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٦٠٠/١.

(٣) مستفاد من كلام الحرالي رحمه الله نقلا عن نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٢/ ٣٤). قال: كما كان في حق إبليس مع آدم عليه السلام، فانتظم صدر هذه السورة إظهار الشيطنتين من الجن (إبليس) ومن الإنس (اليهود) وهو الذي انختم به القرآن في قوله: ﴿مَنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (الناس: ٦) ليتصل طرفاه، فيكون لا أول له ولا آخر، والفاتحة محيطية به لا يقال: هي أوله ولا آخره، ولذلك ختم بعض القراء بوصله (= قرأ الناس ثم (ألم) البقرة) حتى لا يتبين له طرف، كما قالت المرأة العربية لما سُئلت عن بنيتها: هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها. انتهى كلامه. فسبحان من جعل كلام متصلا بكلمة واحدة لا أول لها ولا آخر.

(٤) أسباب النزول للواحدي: ٢٩، وأخرجه الطبري (١٥٢٧): ص: ٣٣٥/٢.

وسلم: فقال الله: {فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين} (١). وروي عن قتادة (٢)، والسدي (٣)، وعطاء (٤)، نحو ذلك.

الثالث: أن اليهود كانوا يقولون لمخالفهم عند القتال: هذا نبي قد أظل زمانه ينصرنا عليكم، فلما بعث الله تعالى ذكره رسوله من قريش واتبعناه، كفروا به. يقول الله تعالى: {فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به}، قاله قتادة الأنصاري (٥) وروي عن مجاهد (٦) نحوه.

الرابع: أن اليهود من قبل مبعث محمد عليه السلام ونزول القرآن، كانوا يستفتحون به على الناس. قاله علي الأزدي (٧).

قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ} [البقرة: ٨٩]، "أي: ولما جاءهم كتاب من عند الله وهو القرآن المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة" (٨).

قال قتادة: "وهو القرآن الذي أنزل على محمد، مصدق لما معهم من التوراة والإنجيل" (٩). وروي عن الربيع مثل ذلك (١٠).

قوله تعالى: {وَكَاثُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا} [البقرة: ٨٩]، "وكانوا قبل بعثته يستنصرون به على مشركي العرب، ويقولون: قُرب مبعث نبي آخر الزمان، وستتبعه ونقاتلكم معه" (١١).

وذكر أهل التفسير في قوله تعالى: {يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا} [البقرة: ٨٩]، وجهين:

أحدهما: معنى "يستفتحون": أي: يعلمون خبره من الناس مرة، ويستنبطون ذكره من الكتب مرة (١٢). ف"كانوا يخبرون بصحة أمر النبي - صلى الله عليه وسلم -" (١٣)، روي نحوه عن قتادة (١٤).

قال قتادة: "كانوا يقولون إنه سيأتي نبي، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به" (١٥).

الثاني: أنهم: كانوا يقولون إنا ننصر بمحمد صلى الله عليه وسلم على عبدة الأوثان. روي نحوه عن أبي العالية (١٦)، والسدي (١٧)، وعطاء (١٨)، ومجاهد (١٩).

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥٢٦): ص ٣٣٥/٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٥٢٥): ص ٣٣٥-٣٣٤/٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٥٢٧): ص ٣٣٥/٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٥٢٨): ص ٣٣٥/٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٥١٩): ص ٣٣٣-٣٣٢/٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري (١٥٣٠): ص ٣٣٦/٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري (١٥٢٣): ص ٣٣٤/٢.

(٨) انظر: تفسير السعدي: ٥٨، وتفسير ابن عثيمين: ٢٨٩/١.

(٩) أخرجه الطبري (١٥١٨): ص ٣٣٢/٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (١٥١٩): ص ٣٣٢/٢.

(١١) التفسير الميسر: ١٣.

(١٢) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٥٨/١، وانظر: البحر المحيط: ٢٦٠/١.

(١٣) معاني القرآن: ١٧١/١.

(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٩٠٤): ص ١٧٢-١٧١/١.

(١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٩٠٤): ص ١٧٢-١٧١/١.

(١٦) انظر: تفسير الطبري (١٥٢٦): ص ٣٣٥/٢.

(١٧) انظر: تفسير الطبري (١٥٢٧): ص ٣٣٥/٢.

(١٨) انظر: تفسير الطبري (١٥٢٨): ص ٣٣٥/٢.

(١٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٩٠٧): ص ١٧٢/١.

قال أبو العالية: "كانت اليهود تستنصر بمحمد صلى الله عليه وسلم- على مشركي العرب، يقولون:

اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبا عندنا حتى يعذب المشركين ونقتلهم، فلما بعث الله محمدا، ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسدا للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله- فقال الله: {فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين}"^(١).

و«الاستفتاح»: طلب الفتح، والفتح ضربان، فتح إلهي، وهو النصر بالوصول إلى العلوم والهدايات التي هي ذريعة إلى الثواب والمقامات المحمودة، وفتح دنيوي، وهو النصر في الوصول إلى اللذات البدنية وعلى الأول قوله: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}، وقوله {فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ} وعلى الثاني قوله: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ}"^(٢).

قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ} [البقرة: ٨٩]، "أي فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم الذي عرفوه حق المعرفة، كفروا برسالته"^(٣).

قال سعيد بن جبير: "هم اليهود، عرفوا محمدا أنه نبي وكفروا به"^(٤).

عن مجاهد: "فلما جاءهم ما عرفوا، فكان من غيرهم كفروا به {فلعنة الله على الكافرين}"^(٥).

القرآن

{بِئْسَمَا اسْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ} [البقرة: ٩٠]

التفسير:

قُبِحَ ما اختاره بنو إسرائيل لأنفسهم؛ إذ استبدلوا الكفر بالإيمان ظلماً وحسداً لإنزال الله من فضله القرآن على نبي الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فرجعوا بغضب من الله عليهم بسبب جودهم بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، بعد غضبه عليهم بسبب تحريفهم التوراة. وللجاحدين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم عذابٌ يذللهم ويخزيهم.

قوله تعالى: {بِئْسَمَا اسْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ} [البقرة: ٩٠]، "أي بسئ الشيء التافه الذي باع به هؤلاء اليهود أنفسهم"^(٦).

قال السدي: "باعوا به أنفسهم"^(٧).

قال مجاهد: "شروا الحق بالباطل، وكتمان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بأن

بينوه"^(٨).

قوله تعالى: {أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ} [البقرة: ٩٠]، "أي كفرهم بالقرآن الذي أنزله الله"^(٩).

قال أبو العالية: "اليهود، كفروا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم"^(١٠).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٠٦): ص ١٧٢/١، والطبري (١٥٢٦): ص ٣٣٥/٢.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٥٧/١.

(٣) صفوة التفاسير: ٦٨/١.

(٤) أخرجه الطبري (١٥٣١): ص ٣٣٦/٢.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٩٠٧): ص ١٧٢/١.

(٦) صفوة التفاسير: ٦٨/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٠٨): ص ١٧٢/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٠٩): ص ١٧٢/١.

(٩) صفوة التفاسير: ٦٨/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٩١٠): ص ١٧٣/١.

قوله تعالى: {بَغِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [البقرة: ٩٠]، "أي حسداً منهم لأجل أن ينزل الله وحياً من فضله على من يشاء ويصطفيه من خلقه"^(١).

قال ابو العالية: "هم اليهود قال لنبيه- صلى الله عليه وسلم-: {بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً}، يعني: حسداً"^(٢).

قال اللحياني^(٣): "بغيت على أخيك بغياً، أي: حسدته، وقال الله تعالى: {ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيُصْرِتَهُ اللَّهُ} [الحج: ٦٠]، وقال: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} [الشورى: ٣٩] فالبغي أصله الحسد، ثم سمي الظلم بغياً؛ لأن الحاسد يظلم المحسود جهده إرادة زوال نعمة الله عليه عنه"^(٤).

قوله تعالى: {فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ} [البقرة: ٩٠]، "أي رجعوا بغضب من الله زيادة على سابق غضبه عليهم"^(٥).

قال سعيد بن جبير: "فبأوا بغضب على غضب}، يقول: استوجبوا"^(٦)..

واختلف في تفسير قوله تعالى: {فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ} [البقرة: ٩٠]، على ثلاثة وجوه:

أحدها: أن الغضب الأول: بكفرهم بعبادة عيسى عليه السلام والإنجيل، والثاني: كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن. قاله أبو العالية^(٧)، وعكرمة^(٨) وقتادة^(٩) والشعبي^(١٠)، ومجاهد^(١١)، وعبيد بن عمير^(١٢).

الثاني: الغضب الأول: بعبادتهم العجل، والثاني: بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وتبديل نعتة. قاله السدي^(١٣).

الثالث: أن معناه: "بإثم استحقوا به النار على إثم تقدم استحقوا به النار". قاله الزجاج^(١٤). وروي نحوه عن سعيد بن جبير^(١٥).

وتجدر الإشارة بأن: "الغضب صفة وصف الله تعالى نفسه بها، وليس غضبه كغضبنا، كما أن ذاته ليست مثل ذواتنا، فليس هو مماثلاً لأبداننا ولا لأرواحنا، وصفاته كذاته سبحانه، وما قيل: إن الغضب من الانفعالات النفسانية، فيقال: نحن وذواتنا منفعة، فكونها انفعالات فينا لا يجب أن يكون الله منفعلاً بها. كما أن نفسه المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين. فصفاته كذلك ليست كصفات المخلوقين، ونسبة صفة المخلوق إليه كنسبة صفة الخالق إليه. وليس المنسوب كالمنسوب،

(١) صفوة التفاسير: ٦٨/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٩١١): ١٧٣/١.

(٣) هو علي بن حازم اللحياني، لغوي معروف، عاصر الفراء وتصدر في أيامه. انظر ترجمته في "طبقات النحويين واللغويين" ص ١٩٥، "إنباه الرواة" ٢/٢٥٥، "معجم الأدباء" ١٤/١٠٦.

(٤) تهذيب اللغة: ٣٦٧/١، وانظر: التفسير البسيط: ١٥١/٣.

(٥) صفوة التفاسير: ٦٨/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٩١٣): ١٧٣/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٩١٤): ١٧٣/١، وتفسير الطبري (١٥٥٣): ٣٤٦/٢.

(٨) انظر: تفسير الطبري (١٥٤٧)، و(١٥٤٨): ٣٤٥/٢-٣٤٨.

(٩) انظر: تفسير الطبري (١٥٥١): ٣٤٦/٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (١٥٥٠): ٣٤٦/٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري (١٥٥٢): ٣٤٦/٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (١٥٥٥): ٣٤٧/٢.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (١٥٥٤): ٣٤٦/٢، وابن أبي حاتم (٩١٧): ١٧٤/١.

(١٤) انظر: معاني القرآن للزجاج: ١٧٤/١، ونقله الواحدي في التفسير البسيط: ١٥٣/٣، وانظر: البحر المحيط: ٣٠٦/١.

(١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٩١٦): ١٧٤/١، ولفظه: "استوجبوا سخطا على سخط".

والمنسوب إليه كالمُنسوب إليه. كما قال صلى الله عليه وسلم: "إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته"^(١)، فشبه الرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي"^(٢). وهذا يتبين بقاعدة: "هي أن كثيراً من الناس يتوهم في بعض الصفات، أو في كثير منها، أو أكثرها، أو كلها، أنها تماثل صفات المخلوقين؛ ثم يريد أن ينفي ذلك الذي فهمه فيقع في أربعة أنواع من المحاذير"^(٣):

الأول: كونه مثل ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين، وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل.

الثاني: أنه إذا جعل ذلك هو مفهومها وعطله بقيت النصوص معطلة عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله، فيبقى مع جنايته على النصوص، وظنه السيئ الذي ظنه بالله ورسوله - حيث ظن أن الذي يفهم من كلامهما هو التمثيل الباطل - قد عطل ما أودع الله ورسوله في كلامهما من إثبات الصفات لله، والمعاني الإلهية اللائقة بجلال الله سبحانه.

الثالث: أنه ينفي تلك الصفات عن الله بغير علم، فيكون معطلا لما يستحقه الرب تعالى.

الرابع: أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الأموات والجمادات، أو صفات المعدومات.

فيكون قد عطل صفات الكمال التي يستحقها الرب تعالى، ومثله بالمنقوصات والمعدومات، وعطل النصوص عما دلت عليه من الصفات، وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات، فيجمع في الله وفي كلام الله بين التعطيل والتمثيل"^(٤). سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً. أفاده الإمام ابن تيمية. عليه الرحمة، في القاعدة التدمرية. والله تعالى أعلم.

القرآن

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْتِنَا بِنُورٍ وَمَا نَدْعُوهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فِيمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]

التفسير:

وإذا قال بعض المسلمين لليهود: صدقوا بما أنزل الله من القرآن، قالوا: نحن نصدق بما أنزل الله على أنبيائنا، ويجحدون ما أنزل الله بعد ذلك، وهو الحق مصدقاً لما معهم. فلو كانوا يؤمنون بكتبهم حقاً لأنموا بالقرآن الذي صدقها. قل لهم -يا محمد-: إن كنتم مؤمنين بما أنزل الله عليكم، فلماذا قتلتم أنبياء الله من قبل؟

قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ [البقرة: ٩١]، "يعني ويجحدون بما وراء التوراة"^(٥).

قال ابو العالية: "أي: بما بعده- يعني: ما بعد التوراة-"^(٦). وروي عن قتادة، والربيع نحو ذلك"^(٧).

(١) رواه البخاري في كتاب التوحي: (٧٤٣٤): ٤٢٩/١٣، وابن خزيمة: التوحيد: ١٧٨ وما بعدها، وابن أبي عاصم: السنة: ١٩٣.

(٢) تفسير القاسمي (محاسن التأويل): ٣٥٠/١.

(٣) انظر: التدمرية: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع، ابن تيمية: ٧٩-٨١. ونقله القاسمي في محاسن التأويل: ٣٥٠/١.

(٤) التدمرية: ٧٩-٨١.

(٥) تفسير الطبري: ٣٤٨/٢.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٢١): ص ١٧٤/١.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٧٤/١.

عن السدي: " {وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ}؛ وهو القرآن. يقول الله: {وهو الحق مصدقا لما معهم} ^(١).

قوله تعالى: {وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ} [البقرة: ٩١]، "مع أنه هو الحق موافقا لما معهم من كلام الله" ^(٢).

عن الحسن: {وَهُوَ الْحَقُّ}، قال: القرآن كله ^(٣).
قوله تعالى: {قُلْ قَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ} [البقرة: ٩١]، "أي قل لهم يا محمد إذا كان إيمانكم بما في التوراة صحيحا، فلم كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل؟" ^(٤).

قال السدي: "فقال الله وهو يعيرهم: {قلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين}" ^(٥).

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة: ٩١]، "أي إن كنتم معتقدين الإيمان" ^(٦).

قال ابن إسحاق: "إن كنتم صدقتم نبيني، بما جاءكم به عني" ^(٧).

القرآن

{وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢)} [البقرة : ٩٢]

التفسير:

ولقد جاءكم نبي الله موسى بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقه، كالطوفان والجراد والقمل والضفادع، وغير ذلك مما ذكره الله في القرآن العظيم، ومع ذلك اتخذتم العجل معبودا، بعد ذهاب موسى إلى ميقات ربه، وأنتم متجاوزون حدود الله.

قوله تعالى: {ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ} [البقرة: ٩٢]، أي: "ثم اتخذتم العجل من بعد موسى إليها" ^(٨).

قال أبو العالية: "وإنما سمي العجل، لأنهم عجلوا فاتخذوه قبل أن يأتيهم موسى" ^(٩).

قال مجاهد: "العجل حسيل البقرة- ولد البقرة" ^(١٠).

قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ} [البقرة: ٩٢]، أي وأنتم "ضارون لأنفسكم بالمعصية واضعون العبادة في غير موضعها" ^(١١).

عن مجاهد: "ظالمون" {ظالمون}، قال: أصحاب العجل" ^(١٢).

قال محمد بن إسحاق: "يعني قوله: {وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ}، أي: المنافقين الذين يظهرون بالأسنتهم الطاعة وقلوبهم مصرة على المعصية" ^(١٣).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٢٢): ص ١٧٤/١.

(٢) صفوة التفسير: ٦٩/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٢٣): ص ١٧٥/١.

(٤) صفوة التفسير: ٦٩/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٢٥) ب: ١٧٥/١.

(٦) تفسير القرطبي: ٣٠/٢. وانظر: تفسير الطبري: ٣٥١/٢.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٢٦): ١٧٥/١.

(٨) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٥/٢.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٥١٢): ص ١٠٨/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٥١٣): ص ١٠٨/١.

(١١) تفسير البغوي: ٩٥/١.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٥١٤): ص ١٠٨/١.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٢٩): ص ١٧٥/١.

القرآن

{وَأَذِّنَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِنَسَمَا يَا مَرْكُم بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)} [البقرة : ٩٣]

التفسير:

واذكروا حين أخذنا عليكم عهدًا مؤكدًا بقبول ما جاءكم به موسى من التوراة، فنقضتم العهد، فرفعنا جبل الطور فوق رؤوسكم، وقلنا لكم: خذوا ما آتيناكم بجدٍّ، واسمعوا وأطيعوا، وإلا أسقطنا الجبل عليكم، فقلتم: سمعنا قولك وعصينا أمرك؛ لأن عبادة العجل قد امتزجت بقلوبكم بسبب تماديكم في الكفر. قل لهم -أيها الرسول-: فَبِحَ ما يأمركم به إيمانكم من الكفر والضلال، إن كنتم مصدِّقين بما أنزل الله عليكم.

قوله تعالى: {قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا} [البقرة: ٩٣]، أي: "قالوا: سَمِعْنَا قولك وَعَصَيْنَا أمرك"^(١).

قال إسماعيل بن أبي خالد: "يقول: قد سمعنا ما تقول وعصيناك"^(٢).

عن الحسن: "سمعنا بالأذان وعصينا بالقلوب"^(٣).

قوله تعالى: {وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ} [البقرة: ٩٣]، "أي خالط حبه قلوبهم، وتغلغل في سويدائها بسبب كفرهم"^(٤).

واختلف أهل العلم في قوله تعالى: {وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ} [البقرة: ٩٣]، على وجهين^(٥):

أحدهما: أن معناه: وأشربوا في قلوبهم حب العجل، فقوله تعالى: {وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ}، أي: حل فيها محل الشرب وقبلوه، يقال: ثوب مشرب أي: مصبوغ^(٦). وهذا قول الجمهور: كقتادة^(٧)، وأبي العالية^(٨)، والربيع^(٩)، وذهب إلي الفراء^(١٠)، والزجاج^(١١)، وابن قتيبة^(١٢)، وأبو عبيدة^(١٣)، والطبري^(١٤)، والواحدي^(١٥)، وابن الجوزي^(١٦)، والزمخشري^(١٧)، والبيضاوي^(١٨)، والرازي^(١٩)، وابن عطية^(٢٠)، والقرطبي^(٢١)، والسمين الحلبي^(٢٢)، وغيرهم.

(١) تفسير البيضاوي: ٩٤/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٣٠): ص ١٧٦/١.

(٣) ذكره في الواحدي في الوسيط" ١٧٦ / ١، وذكره أبو حيان في البحر المحيط: ٣٠٨ / ١ ولم ينسبه.

(٤) صفوة التفاسير: ٧٠/١.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٧/٢-٣٥٨.

(٦) انظر: الكشاف للزمخشري: ٢٩٧/١، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٧٠/١، وقال السمين الحلبي في الدر المصون:

٣٠٥/١. والإشراب: مخالطة المائع بالجامد ثم اتسع فيه حتى قيل في الألوان نحو: أشرب بياضه حمرة، والمعنى:

أنهم دأخلهم حب عبادته كما داخل الصيغ الثوب.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٩٣٤): ص ١٧٦/١.

(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٩٣٥): ص ١٧٦/١.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٩٣٦): ص ١٧٦/١.

(١٠) انظر: معاني القرآن: ٦١/١.

(١١) انظر: معاني القرآن: ١٧٥/١.

(١٢) انظر: تفسير غريب القرآن: ٥٨.

(١٣) انظر: مجاز القرآن: ٤٧/١.

(١٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٧/٢-٣٥٨.

(١٥) انظر: الوسيط: ١٧٦/١.

(١٦) انظر: زاد المسير: ١١٥/١-١١٦.

(١٧) انظر: الكشاف: ٢٩٧/١.

(١٨) تفسير البيضاوي: ٩٤/١.

قال قتادة: "أشربوا حبه حتى خلس ذلك إلى قلوبهم"^(٥).
الثاني: أن المعنى: أنهم سقوا الماء الذي ذري فيه سحالة العجل. قاله سعيد بن جبير^(٦)،
والسدي^(٧).

قال سعيد بن جبير: "لما أحرق العجل برد ثم نسف فحسوا الماء حتى عادت
وجوههم كالزعران"^(٨).

قال السدي: "السدي قال: أخذ موسى العجل فذبحه البرد، ثم ذر في البحر فلم يبق
بحر يجري يومئذ إلا وقع فيه شيء ثم قال لهم موسى: اشربوا منه فاشربوا فمن كان يحبه خرج على
شاربيه الذهب فذلك حين يقول: {وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم}^(٩).

والراجح-والله أعلم- هو القول الأول، وهو قول الجمهور، وأن قوله تعالى {وأشربوا في
قلوبهم}، من مجاز الحذف^(١٠)، أي: أشربوا في قلوبهم حب العجل، فيقال منه: أشرب قلب فلان
حب كذا، بمعنى سقي ذلك حتى غلب عليه وخالط قلبه، كما قال زهير^(١١):

فصحوت عنها بعد حب داخل والحب يُشربُه فؤادك داء

وقد تقول العرب: "إذا سرك أن تنظر إلى السخاء فانظر إلى هرم، أو إلى حاتم"، فتجتزئ
بذكر الاسم من ذكر فعله، إذا كان معروفا بشجاعة أو سخاء أو ما أشبه ذلك من الصفات^(١٢)

القرآن

{قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
{[البقرة: ٩٤]}

التفسير:

قل -أيها الرسول- لليهود الذين يدعون أن الجنة خاصة بهم؛ لزعيمهم أنهم أولياء الله من دون
الناس، وأنهم أبناءه وأحبأؤه: إن كان الأمر كذلك فادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم بالموت،
إن كنتم صادقين في دعوكم هذه.

سبب النزول:

عن أبي العالية، قال: "قال الله تعالى لليهود: {إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ
دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ} [البقرة: ٩٤]، فلم يفعلوا حيث قالوا: {قَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٦٠٤/٣.

(٢) انظر: المحرر الوجيز: ٢٩٥/١.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٣٢/٢.

(٤) انظر: الدر المصون: ٣٠٦-٣٠٥/١.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٩٣٤): ص ١٧٦/١.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٩٣٢): ص ١٧٦/١.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٩٣٣): ص ١٧٦/١.

(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٩٣٢): ص ١٧٦/١.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٩٣٣): ص ١٧٦/١.

(١٠) أي: حذف المضاف، انظر: الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السلام: ١١، وكتاب
الطراز ليحيى بن حمزة العلوي: ١٠٥/٢-١٠٦، وحذف المضاف هنا لدلالة الكلام عليه لأن القلوب لا يصح وصفها
بتشرب العجل على الحقيقة، انظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي: ٧.

(١١) ديوانه: ٣٣٩، وهو هناك "تشربه" بضم التاء وسكون الشين وكسر الراء ونصب "فؤادك"، وشرحه فيه
دليل على ذلك، فإنه قال: "تدخله" وقال: "تشربه" تلزمه ولكن استدلال الطبري، كما ترى يدل على ضبطه
مبنيا للمجهول، ورفع "فؤادك". وحب داخل، وداء داخل: قد خالط الجوف فأدخل الفساد على العقل والبدن.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٥٨/٢-٣٥٩.

هُودًا أَوْ نَصَارَى} [البقرة : ١١١]، وقالوا: {نَحْنُ أَنْبَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} [المائدة : ١٨]، فقال الله لهم ذلك^(١). وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك^(٢).
 قوله تعالى: {فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة : ٩٤]، "أي: إن كان الأمر كذلك فادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم بالموت، إن كنتم صادقين في دعواكم هذه"^(٣).
 قال الربيع: "وذلك بأنهم قالوا: {لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى}، وقالوا: {نحن أبناء الله وأحباؤه}"^(٤).
 عن أبي العالية قال: "قالت اليهود: {لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى}، وقالوا: {نحن أبناء الله وأحباؤه}، فقال الله: {قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين}، فلم يفعلوا"^(٥).
 عن أبي العالية: "{إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} بما تقولون إنه كما تقولون"^(٦).

القرآن

{وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥)} [البقرة : ٩٥]

التفسير:

ولن يفعلوا ذلك أبداً؛ لما يعرفونه من صدق النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومن كذبهم وافترائهم، وبسبب ما ارتكبه من الكفر والعصيان، المؤدبين إلى حرمانهم من الجنة ودخول النار. والله تعالى عليم بالظالمين من عباده، وسيجازيهم على ذلك.
 قوله تعالى: {وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} [البقرة: ٩٥]، أي ولن يفعلوا ذلك أبداً؛ لما يعرفونه من صدق النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومن كذبهم وافترائهم، وبسبب ما ارتكبه من الكفر والعصيان، المؤدبين إلى حرمانهم من الجنة ودخول النار"^(٧).
 قوله تعالى: {بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} [البقرة: ٩٥]، "بما أسلفته أيديهم"^(٨).
 عن عباد بن منصور عن الحسن قال: "قول الله: {ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم}، فقلت: رأيت لو أنهم أحبوا الموت حين قال لهم فتمنوا أراهم كانوا ميئين؟ قال: لا. والله ما كانوا ليموتوا لو تمنوا الموت، وما كانوا ل يتمنوه، وقد قال الله ما سمعت: {ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين}"^(٩).
 قوله تعالى: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [البقرة: ٩٥]، "أي عالم بظلمهم وإجرامهم وسيجازيهم على ذلك"^(١٠).
 عن قتادة: "{وَاللَّهُ عَلِيمٌ}، قال: عالم"^(١١).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٣٥): ص ١٧٧/١.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٧٧/١.

(٣) التفسير الميسر: ١٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٥٧٤): ص ٣٦٥/٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٥٧٣): ص ٣٦٤/٢-٣٦٥.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٣٩): ص ١٧٧/١.

(٧) التفسير الميسر: ١٣.

(٨) انظر: تفسير الطبري: ٣٦٧/٢.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٤١): ص ١٧٨/١.

(١٠) صفة التفاسير: ٧٠/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٤٢): ص ١٧٨/١.

القرآن

{وَلْتَجِدْنَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [البقرة : ٩٦]

التفسير:

ولتعلمن -أيها الرسول- أن اليهود أشد الناس رغبة في طول الحياة أيًا كانت هذه الحياة من الذلّة والمهانة، بل تزيد رغبتهم في طول الحياة على رغبات المشركين. يتمنى اليهودي أن يعيش ألف سنة، ولا يُبعده هذا العمر الطويل إن حصل من عذاب الله. والله تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وسيجازيهم عليها بما يستحقون من العذاب.

قوله تعالى: {وَلْتَجِدْنَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا} [البقرة: ٩٦]، "أي ولتجدنّ اليهود أشدّ الناس حرصاً على الحياة، وأحرص من المشركين أنفسهم، وذلك لعلمهم بأنهم صائرون إلى النار لإجرامهم"^(١).

قال الحسن: "المنافق أحرص الناس على حياة، وهو أحرص على الحياة من المشرك"^(٢).
قوله تعالى: {يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ} [البقرة: ٩٦]، "أي: يتمنى الواحد منهم أن يعيش ألف سنة"^(٣).

قال قتادة^(٤) ومجاهد^(٥): "قال: حَبَبَتْ إِلَيْهِمُ الْخَطِيئَةُ طَوْلَ الْعَمْرِ". وروي عن أبي نجيح مثله^(٦).
عن أبي العالية: "يَوَدُّ أَحَدُهُمْ، يعني: المجوس"^(٧).
وقوله تعالى: {وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ} [البقرة: ٩٦]، "أي وما طول العمر - مهما عمر - بمبعده ومنجيه من عذاب الله"^(٨).
قال أبو العالية: "وإن عمر فما ذاك بمغنيه من العذاب ولا منجيه منه"^(٩). وروي عن الربيع^(١٠)، نحو ذلك.

القرآن

{قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [البقرة : ٩٧]

التفسير:

قل-أيها الرسول- لليهود حين قالوا: إن جبريل هو عدونا من الملائكة: من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزل القرآن على قلبك بإذن الله تعالى مصدقًا لما سبقه من كتب الله، وهدايا إلى الحق، ومبشرًا للمصدقين به بكل خير في الدنيا والآخرة.

(١) صفوة التفاسير: ٧١/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٤٥): ص ١٧٨/١.

(٣) صفوة التفاسير: ٧١/١.

(٤) أخرجه الطبري (١٥٩٣): ص ٣٧٢/٢.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٤٩): ص ٧٩/١.

(٦) أخرجه الطبري (١٥٩٤): ص ٣٧٢/٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري (١٥٨٧): ص ٣٧١/٢.

(٨) صفوة التفاسير: ٧١/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٥١): ص ٧٩/١، والطبري (١٦٠١): ص ٣٧٦/٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (١٦٠٢): ص ٣٧٦/٢.

قد أجمع أهل العلم بالتفسير على أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم^(١)، وأن ميكائيل ولي لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك على أقوال^(٢):

أحدها: أن سبب قيلهم ذلك، كما من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر نبوته. قاله شهر بن حوشب الأشعري^(٣)، والقاسم بن أبي بزة^(٤).

الثاني: وقال آخرون: بل كان سبب قيلهم ذلك، من أجل مناظرة جرت بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبينهم، في أمر النبي صلى الله عليه وسلم. قاله الشعبي^(٥)، وقتادة^(٦)، والسدي^(٧).

الثالث: وقال أبو ليلي: "قالت اليهود للمسلمين: لو أن ميكائيل كان الذي ينزل عليكم لتبعناكم، فإنه ينزل بالرحمة والغيث، وإن جبريل ينزل بالعذاب والنقمة، وهو لنا عدو. قال: فنزلت هذه الآية: {من كان عدوا لجبريل}"^(٨). وروي عن عطاء نحو ذلك^(٩).

قوله تعالى: {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ} [البقرة: ٩٧]، "أي قل لهم يا محمد من كان عدواً لجبريل"^(١٠).

واختلف في سبب عداوة اليهود لجبريل-عليه السلام- على قولين:

والثاني: أن سبب عداوتهم له، لكونه يطلع على أسرارهم. قاله قتادة^(١١).

عن قتادة قال: "ذكر لنا أن عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم إلى اليهود، فلما أبصروه رحبوا به. فقال لهم عمر: أما والله ما جئت لحبكم ولا للرغبة فيكم، ولكن جئت لأسمع منكم. فسألهم وسألوه، فقالوا: من صاحب صاحبكم؟ فقال لهم: جبريل. فقالوا: ذاك عدونا من أهل السماء، يطلع محمداً على سرنا، وإذا جاء جاء بالحرب والسنة، ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل، وكان إذا جاء جاء بالخصب وبالسلم، فقال لهم عمر: أفتعرفون جبريل وتكفرون محمداً؟ ففارقهم عمر عند ذلك، وتوجه نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحدثه حديثهم، فوجده قد أنزل عليه هذه الآية: {قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله}"^(١٢).

الثاني: إن عداوتهم لكونه ينزل بالعذاب. وهذا مروى أبي ليلي^(١٣). وعطاء^(١)، وقتادة -أيضاً-

(٢)

(١) قال الإمام الرازي: "من الناس من استبعد أن يقول قوم من اليهود: إن جبريل عدوهم قالوا: لأننا نرى اليهود في زماننا هذا مطبقين على إنكار ذلك مصرين على أن أحداً من سلفهم لم يقل بذلك، واعلم أن هذا باطل لأن حكاية الله أصدق، ولأن جهلهم كان شديداً وهم الذين قالوا؛ {اجعل لنا إلهة كما لهم إلهة} (الأعراف: ١٣٨)". (انظر: تفسيره: ١٧٩/٢).

وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: "ومن عجيب تهافت اعتقادهم أنهم يثبتون أنه ملك مرسل من عند الله، ومع ذلك يبغضونه، وهذا أخط درجات الانحطاط في العقل والعقيدة، ولا شك أن اضطراب العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة لأنه يبنى عن تضافر آرائهم على الخطأ والأوهام" (انظر تفسيره: ٢٢١/١).

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٧/٢-٣٧٨. وتفسير القرطبي: ٣٦/٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٦٠٦): ٣٧٨/٢-٣٧٩.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٦٠٧): ٣٨٠/٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٦٠٨): ٣٨١/٢-٣٨٢، و(١٦١٤): ٣٨٥/٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري (١٦١٠)، و(١٦١١)، و(١٦١٢): ٣٨٢/٢-٣٨٣.

(٧) انظر: تفسير الطبري (١٦١٣): ٣٨٣/٢-٣٨٤.

(٨) أخرجه الطبري (١٦١٥): ٣٨٦/٢.

(٩) انظر: تفسير الطبري (١٦١٦): ٣٨٦/٢.

(١٠) صفة التفاسير: ٧١/١.

(١١) أخرجه الطبري (١٦١٠): ٣٨٢/٢.

(١٢) أخرجه الطبري (١٦١٠): ٣٨٢/٢.

(١٣) أخرجه الطبري (١٦١٥): ٣٨٦/٢.

قال قتادة: " قالت اليهود: «إن جبريل يأتي محمداً , وهو عدونا؛ لأنه يأتي بالشدة والحرب والسنة؟ , وإن ميكائيل ينزل بالرخاء، والعافية، والخصب، فجبريل عدونا». فقال: {من كان عدواً لجبريل} [البقرة: ٩٧]"^(٣).

والأقرب-والله أعلم- أن يكون سبب عداوتهم له، أنه كان ينزل القرآن على محمد -عليه السلام-، لأن قوله: {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ...} [البقرة: ٩٧] مشعر بأن هذا التنزيل لا ينبغي أن يكون سبباً للعداوة لأنه إنما فعل ذلك بأمر الله فلا ينبغي أن يكون سبباً للعداوة^(٤).

قوله تعالى: {فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة: ٩٧]، "أي فإن جبريل الأمين نزل هذا القرآن على قلبك يا محمد بأمر الله تعالى"^(٥).

قال أبو العالية: "نزل الكتاب على قلبك جبريل بإذن الله عز وجل"^(٦). وروي عن الحسن والربيع بن أنس نحوه^(٧).

وقوله تعالى: {مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} [البقرة: ٩٧]، "أي: مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية"^(٨).

قال أبو العالية: "يعني: من التوراة والإنجيل"^(٩). وروي عن قتادة، والربيع نحوه^(١٠). وتصديق الرسل السالفين من أول دلائل صدق المصدق لأن الدجاجة المدعين النبوات يأتون بتكذيب من قبلهم لأن ما جاءوا به من الهدى يخالف ضلالات الدجالين فلا يسعهم تصديقهم ولذا حذر الأنبياء السابقون من المتنبيين الكذبة كما جاء في مواضع من التوراة والأنجيل، والمراد بـ{مَا بَيْنَ يَدَيْهِ}: ما سبقه، وهو كناية عن السبق لأن السابق يجيء قبل المسبوق ولما كان كناية عن السبق لم يناف طول المدة بين الكتب السابقة والقرآن ولأن اتصال العمل بها بين أممها إلى مجيء القرآن فجعل سبقهما مستمراً إلى وقت مجيء القرآن فكان سبقهما متصلاً^(١١).

وقوله تعالى: {وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [البقرة: ٩٧]، "أي وفيه الهداية الكاملة، والبشارة السارة للمؤمنين بجنات النعيم"^(١٢).

قال قتادة: "جعل الله هذا القرآن: هدى وبشراً للمؤمنين، لأن المؤمن إذا سمع القرآن وحفظه ووعاه انتفع به واطمأن إليه، وصدق بموعود الله الذي، وعد وكان على يقين من ذلك"^(١٣).

القرآن

{مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة: ٩٨]
التفسير:

- (١) انظر: تفسير الطبري (١٦١٦): ص ٣٨٦/٢.
- (٢) انظر: العجايب في بيان الأسباب: ٢٩٨/١.
- (٣) تفسير عبدالرزاق (٩٢): ص ٢٨١/١.
- (٤) انظر: مفاتيح الغيب: ٦١١/٣.
- (٥) صفوة التفاسير: ٧١/١.
- (٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٥٤): ص ٨٠/١.
- (٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٨٠/١.
- (٨) صفوة التفاسير: ٧١/١.
- (٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٥٨): ص ١٨١/١.
- (١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٨١/١.
- (١١) تفسير ابن عاشور: ٦٢٢/١.
- (١٢) صفوة التفاسير: ٧١/١.
- (١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٥٩): ص ١٨١/١، والطبري (١٦٣٣): ص ٣٩٣/٢.

من عادى الله وملائكته، ورسله من الملائكة أو البشر، وبخاصة الملكان جبريل وميكال؛ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم، وميكال وليهم، فأعلمهم الله أنه من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر، وعادى الله أيضاً، فإن الله عدو للجاحدين ما أنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. سبب النزول:

عن مجالد أنبأ عامر قال: "انطلق عمر إلى اليهود: فقال: إني أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجدون محمداً في كتبكم؟ قالوا: نعم: فما يمنعكم أن تتبعوه؟ قالوا: إن الله لم يبعث رسولا إلا جعل له من الملائكة كفلاً، وإن جبريل كفل محمد وهو الذي يأتيه، وهو عدونا من الملائكة، وميكائيل سلمنا، لو كان ميكائيل هو الذي يأتيه، أسلمنا، قال فإني أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما نزلتاهما من رب العالمين؟ قالوا: جبريل عن يمينه، وميكائيل عن شماله، فقال عمر: وإن أشهد ما ينزلان إلا بإذن الله، وما كان ميكائيل ليسالم عدو جبريل، وما كان جبريل ليسالم عدو ميكائيل فبينما هو عندهم إذ مر النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا هذا صاحبك يا ابن الخطاب. فقام إليه عمر فأتاه وقد أنزل الله عليه: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]"^(١).

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى: أن يهوديا لقي عمر بن الخطاب، فقال: إن جبريل الذي يذكر صاحبكم عدو لنا. قال: فقال عمر: من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين قال: فنزلت على لسان عمر ابن الخطاب"^(٢). قوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨]، أي و "عادى على الوجه الأخص «جبريل وميكائيل»"^(٣).

قال الأعمش: "جبر: عبد، وإيل: الله"^(٤). عن عبد الله بن الحارث قال: "إيل: بالعبرانية"^(٥). عن علي بن الحسين قال: "أتدرون ما اسم جبريل من أسمائكم؟ قلنا: لا. قال اسمه عبد الله. قال: فتدرون ما اسم ميكائيل من أسمائكم؟ قلنا: لا. قال: اسمه عبيد الله وكل اسم مرجعه إلى إيل فهو إلى الله"^(٦).

عن عبد العزيز بن عمير، قال: "اسم جبريل في الملائكة خادم ربه. قال: فحدثت به أبا سليمان الداراني فانتفض، وقال: لهذا الحديث أحب إلي من كل شيء في دفتر كان بين يديه"^(٧). قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، "أي من عادى الله وعادى هؤلاء المقربين عند الله، فالله عدو له"^(٨).

عن عثمان بن حاضر حدثني جابر بن عبد الله قال: "يا ابن حاضر أتدري من الكافر؟ إن الله يقول بأنهم كفروا بالله ورسوله"^(٩).

القرآن

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٦٠): ص ١٨١/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٦١): ص ١٨٢/١.

(٣) صفة التفسير: ٧١/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٦٤): ص ١٨٢/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٦٧): ص ١٨٢/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٦٥): ص ١٨٢/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٦٨): ص ١٨٣/١.

(٨) تفسير المراغي: ١٧٦/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٦٩): ص ١٨٣/١.

{وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)} [البقرة : ٩٩]
التفسير:

ولقد أنزلنا إليك-أيها الرسول- آيات بينات واضحات تدل على أنك رسول من الله صدقا وحقا، وما ينكر تلك الآيات إلا الخارجون عن دين الله.
قوله تعالى: {وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ}[البقرة:٩٩]، " أي وما يجحد بهذه الآيات ويكذب إلا الخارجون عن الطاعة الماردون على الكفر"^(١).
قال مجاهد: "الفاسيقون، العاصون"^(٢).
و"الفسق": "العصيان والترك لأمر الله عز وجل، والخروج عن طريق الحق"^(٣).

القرآن

{أَوْكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)} [البقرة : ١٠٠]
التفسير:

ما أقبح حال بني إسرائيل في نقضهم للعهد!! فكلما عاهدوا عهدًا طرح ذلك العهد فريق منهم، ونقضوه، فتراهم يُبرمون العهد اليوم وينقضونه غدًا، بل أكثرهم لا يصدقون بما جاء به نبي الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.
قوله تعالى: {أَوْكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ}[البقرة:١٠٠]، أي "وكلمنا أعطوا عهداً نقضه جماعة منهم"^(٤).
قال قتادة: "نقضه فريق منهم"^(٥).
قال الحسن: "نعم، ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه، يعاهدون اليوم وينقضون غدا"^(٦).

وإنما قال "فريق"، لأن بعضهم لم ينقض^(٧).
قوله تعالى: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[البقرة:١٠٠]، "أي بل أكثر اليهود لا يؤمن بالتوراة الإيمان الصادق لذلك ينقضون العهود والمواثيق"^(٨).
قال السدي: "لا يؤمنون بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم"^(٩).

القرآن

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ آوَوْا الْكِتَابَ لِلَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)} [البقرة : ١٠١]
التفسير:

ولما جاءهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن الموافق لما معهم من التوراة طرح فريق منهم كتاب الله، وجعلوه وراء ظهورهم، شأنهم شأن الجهال الذين لا يعلمون حقيقته.

- (١) صفوة التفاسير: ٧٣/١.
- (٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٧١):ص١/١٨٣.
- (٣) لسان العرب:(فسق):ص١٠/٣٠٨.
- (٤) صفوة التفاسير: ٧٧٣/١.
- (٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٧٥):ص١٨٤.
- (٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٧٤):ص١٨٤.
- (٧) تفسير البيضاوي: ٩٧/١.
- (٨) صفوة التفاسير: ٧٣/١.
- (٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٧٦):ص١/١٨٤.

قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} [البقرة: ١٠١]، أي وحين جاءهم: رسول مرسل من عند الله. وهو محمد صلى الله عليه وسلم^(١).
 قال السدي: " : لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم"^(٢).
 قوله تعالى: {نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ} [البقرة: ١٠١]، "أي طرح أحبارهم وعلماؤهم التوراة وأعرضوا عنها بالكلية"^(٣).
 قال السدي: " لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوه بالتوراة فخاصموه بها ، فاتفتت التوراة والقرآن ، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف ، وسحر هاروت وماروت"^(٤).
 قال الشعبي: " هو بين أيديهم يقرؤونها، ولكن نبذوا العمل به"^(٥).
 قوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٠١]، أي: " كأنهم في نبتهم لكتاب الله وراء ظهورهم لا يعلمون أنه حق"^(٦).
 قال قتادة: " أي: أن القوم كانوا يعلمون ، ولكنهم أفسدوا علمهم ، وجدوا وكفروا وكتموا"^(٧).

وهذا تشبيه لهم بمن لا يعلم شيئا مع كونهم يعلمون علما يقينا من التوراة بما يجب عليهم من الإيمان بهذا النبي ولكنهم لما لم يعملوا بالعلم بل عملوا عمل من لا يعلم من نبذ كتاب الله وراء ظهورهم كانوا بمنزلة من لا يعلم^(٨).

القرآن

وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنْ اسْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) [البقرة : ١٠٢]

التفسير:

واتبع اليهود ما تحدث الشياطين به السحرة على عهد ملك سليمان بن داود. وما كفر سليمان وما تعلم السحر، ولكن الشياطين هم الذين كفروا بالله حين علموا الناس السحر؛ إفساداً لدينهم. وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين هاروت وماروت، بأرض "بابل" في "العراق"؛ امتحاناً وابتلاء من الله لعباده، وما يعلم الملكان من أحد حتى ينصحا ويحذرا من تعلم السحر، ويقولان له: لا تكفر بتعلم السحر وطاعة الشياطين. فيتعلم الناس من الملكين ما يحدثون به الكراهية بين الزوجين حتى يتفرقا. ولا يستطيع السحرة أن يضرروا به أحداً إلا بإذن الله وقضائه. وما يتعلم السحرة إلا شراً يضرهم ولا ينفعهم، وقد نقلته الشياطين إلى اليهود، فشاع فيهم حتى فضّلوه على كتاب الله. ولقد علم اليهود أن من اختار السحر وترك الحق ما له في الآخرة من نصيب في الخير. ولبئس ما باعوا به

(١) تفسير ابن عثيمين: ٣٢٣/١.

(٢) أخرجه الطبري (١٦٤٣): ص ٤٠٣/٢.

(٣) صفوة التفاسير: ٧٣/١.

(٤) أخرجه الطبري (١٦٤٤): ص ٤٠٤/٢.

(٥) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٤٢/١، وتفسير البغوي: ١/١٢٦، وفي بعض نسخ الثعلبي في "تفسيره" يقرؤونها، وفي بعضها: يقرؤونها، والتفسير البسيط: ١٨٢/٣.

(٦) تفسير ابن عثيمين: ٣٢٤/١.

(٧) أخرجه الطبري (١٦٤٥): ص ٤٠٤/٢.

(٨) فتح القدير: ١١٩/١.

أنفسهم من السحر والكفر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول، لو كان لهم علمٌ يثمر العمل بما وُعطوا به.

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها: قال سعيد بن جبیر: "كان سليمان يتتبع ما في أيدي الشياطين من السحر، فيأخذه فيدفعه تحت كرسيه في بيت خزانته. فلم تقدر الشياطين أن يصلوا إليه، فدنت إلى الإنس فقالوا لهم: أتريدون العلم الذي كان سليمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك؟ قالوا: نعم. قالوا: فإنه في بيت خزانته وتحت كرسيه. فاستنارته الإنس فاستخرجوه فعملوا به. فقال أهل الحجاز: كان سليمان يعمل بهذا، وهذا سحر! فأنزل الله جل ثناؤه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم براءة سليمان. فقال: {واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان} الآية، فأنزل الله براءة سليمان على لسان نبيه عليهما السلام"^(١).

وقال السدي: "على عهد سليمان - قال: كانت الشياطين تصعد إلى السماء، فتقع منها مقاعد للسمع، فيستمعون من كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موت أو غيب أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم، فتحدث الكهنة الناس، فيجدونه كما قالوا. حتى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم فأدخلوا فيه غيره، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة. فاكتتب الناس ذلك الحديث في الكتب، وفتشا في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب. فبعث سليمان في الناس فجمع تلك الكتب، فجعلها في صندوق، ثم دفنها تحت كرسيه. ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلا احترق، وقال: لا اسمع أحدا يذكر أن الشياطين تعلم الغيب إلا ضربت عنقه! فلما مات سليمان، وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان، وخلف بعد ذلك خلف، تمثل الشيطان في صورة إنسان، ثم أتى نفرا من بني إسرائيل، فقال: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبدا؟ قالوا: نعم. قال: فاحفروا تحت الكرسي. وذهب معهم فأراهم المكان. وقام ناحية. فقالوا له: فادن! قال: لا ولكني هاهنا في أيديكم، فإن لم تجدوه فاقتلوني! فحفروا فوجدوا تلك الكتب. فلما أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر. ثم طار فذهب. وفتشا في الناس أن سليمان كان ساحرا، واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب، فلما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم خاصموه بها، فذلك حين يقول: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ} [البقرة: ١٠٢]"^(٢).

وقال قتادة: "ذكر لنا، والله أعلم، أن الشياطين ابتدعت كتابا فيه سحر وأمر عظيم، ثم أفضوه في الناس وعلموهم إياه. فلما سمع بذلك سليمان نبي الله صلى الله عليه وسلم تتبع تلك الكتب، فأتى بها فدفنها تحت كرسيه، كراهية أن يتعلمها الناس. فلما قبض الله نبيه سليمان، عمدت الشياطين فاستخرجوها من مكانها الذي كانت فيه فعملوها الناس، فأخبروهم أن هذا علم كان يكتمه سليمان ويستأثر به. فعذر الله نبيه سليمان وبرأه من ذلك، فقال جل ثناؤه: {وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا}"^(٣).

قال قتادة: "كتبت الشياطين كتبا فيها سحر وشرك، ثم دفنت تلك الكتب تحت كرسي سليمان. فلما مات سليمان استخرج الناس تلك الكتب، فقالوا: هذا علم كتمناه سليمان! فقال الله جل وعز: {واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر}"^(٤).

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦٥٩): ص ٤١٣/٢-٤١٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٦٤٦): ص ٤٠٥/٢-٤٠٦، وابن أبي حاتم (٩٨٧): ص ١٨٦/١.

(٣) أخرجه الطبري (١٦٦٣)، ص ٤١٥/٢-٤١٦.

(٤) أخرجه الطبري (١٦٦٤): ص ٤١٦/٢.

الثاني: عن خصيف قال: "كان سليمان إذا نبتت الشجرة قال: لأي داء أنت؟ فنقول لكذا وكذا؛ فلما نبتت شجرة الخرنوبية قال: لأي شيء أنت؟ قالت: لمسجدك أخربه قال: تخربينه؟ قالت: نعم، قال: بنس الشجرة أنت، فلم يلبث أن توفي، فجعل الناس يقولون في مرضاهم: لو كان لنا مثل سليمان، فأخذت الشياطين فكتبوا كتابا وجعلوه في مصلى سليمان وقالوا: نحن ندلكم على ما كان سليمان يداوي به فانطلقوا فاستخرجوا ذلك الكتاب فإذا فيه سحر رقى فأنزل الله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان﴾ إلى قوله: ﴿فلا تكفروا﴾^(١).

الرابع: عن ابن إسحاق: "عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود عليه السلام، فكتبوا أصناف السحر: " من كان يحب أن يبلغ كذا وكذا، فليفعل كذا وكذا " . حتى إذا صنعوا أصناف السحر، جعلوه في كتاب ثم ختموا عليه بخاتم على نقش خاتم سليمان، وكتبوا في عنوانه: " هذا ما كتب أصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم "، ثم دفنوه تحت كرسيه. فاستخرجته بعد ذلك بقايا بني إسرائيل حين أحدثوا ما أحدثوا، فلما عثروا عليه قالوا: ما كان سليمان بن داود إلا بهذا! فأفشوا السحر في الناس وتعلموه وعلموه، فليس في أحد أكثر منه في يهود. فلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما نزل عليه من الله، سليمان بن داود وعده فيمن عده من المرسلين، قال من كان بالمدينة من يهود: ألا تعجبون لمحمد! يزعم أن سليمان بن داود كان نبيا! والله ما كان إلا ساحرا! فأنزل الله في ذلك من قولهم على محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾^(٢).

قال شهر بن حوشب: "لما سلب سليمان ملكه كانت الشياطين تكتب السحر في غيبة سليمان. فكتبت: "من أراد أن يأتي كذا وكذا، فليستقبل الشمس وليقل كذا وكذا، ومن أراد أن يفعل كذا وكذا، فليستدبر الشمس وليقل كذا وكذا". فكتبت وجعلت عنوانه: "هذا ما كتب أصف بن برخيا للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم"، ثم دفنته تحت كرسيه. فلما مات سليمان، قام إبليس خطيبا فقال: يا أيها الناس، إن سليمان لم يكن نبيا، وإنما كان ساحرا، فالتمسوا سحره في متاعه وبيوته. ثم دلهم على المكان الذي دفن فيه. فقالوا: والله لقد كان سليمان ساحرا! هذا سحره! بهذا تعبدنا، وبهذا قهرنا! فقال المؤمنون: بل كان نبيا مؤمنا! فلما بعث الله النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، جعل يذكر الأنبياء، حتى ذكر داود وسليمان، فقالت اليهود: انظروا إلى محمد! يخط الحق بالباطل! يذكر سليمان مع الأنبياء، وإنما كان ساحرا يركب الريح! فأنزل الله عذر سليمان: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾^(٣).

الخامس: عن الربيع: "إن اليهود سألوا محمدا صلى الله عليه وسلم زمانا عن أمور من التوراة، لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله عليه ما سأله عنه، فيخصمهم، فلما رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أنزل إلينا منا! وأنهم سألوه عن السحر وخاصموه به، فأنزل الله جل وعز: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾، وإن الشياطين عمدوا إلى كتاب فكتبوا فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك، فدفنوه تحت مجلس سليمان - وكان سليمان لا يعلم الغيب. فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخذعوا به الناس، وقالوا: هذا علم كان سليمان يكتمه ويحسد الناس عليه! فأخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم

(١) أسباب النزول للواحدي: ٣٣، إسناده ضعيف لإعضاله (انقطاع أكثر من اثنين متتاليين) ولضعف خصيف (تقريب التهذيب: ٢٢٤/١ - رقم: ١٢٦) ولضعف رواية عتاب بن بشير عن خصيف خاصة (تهذيب التهذيب: ٩١/٧).

(٢) أخرجه الطبري (١٦٥٠): ص ٤٠٧/٢-٤٠٨، و(١٦٦٧): ص ٤١٧/٢.

(٣) أخرجه الطبري (١٦٦٦): ص ٤١٦/٢-٤١٧.

بهذا الحديث ، فرجعوا من عنده وقد حزنوا ، وأدحض الله حجتهم^(١). وروي عن أبي العالية مثل لك^(٢).

السادس: قال أبو مجلز: "أخذ سليمان من كل دابة عهدا ، فإذا أصيب رجل فسئل بذلك العهد ، خلي عنه. فرأى الناس السجع والسحر ، وقالوا : هذا كان يعمل به سليمان! فقال الله جل ثناؤه : {وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر}^(٣)".

قوله تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [البقرة: ١٠٢] ، "أي واتبعوا طرق السحر والشعوذة التي كانت تحدثهم بها الشياطين في عهد ملك سليمان"^(٤).

عن الحسن: "وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ" قال: ثلث الشعر، وثلث السحر، وثلث الكهانة^(٥). قال الحسن: "واتبعته اليهود على ملكه. وكان السحر قبل ذلك في الأرض ولم يزل بها، ولكنه إنما اتبع على ملك سليمان"^(٦).

قال مجاهد: "كانت الشياطين تستمع الوحي من السماء، فما سمعوا من كلمة زادوا فيها مثلها. وإن سليمان أخذ ما كتبوا من ذلك فدفنه تحت كرسيه، فلما توفي وجدته الشياطين فعلته الناس"^(٧).

وقد اختلف أهل التفسير في الذين عنوا بقوله تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [البقرة: ١-٢] ، على وجهين:

أحدهما: أنهم اليهود الذين كانوا في زمان محمد عليه الصلاة والسلام، "لأنهم خاصموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوراة، فوجدوا التوراة للقرآن موافقة، تأمر من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وتصديقه، يمثل الذي يأمر به القرآن. فخاصموا بالكتب التي كان الناس اكتتبوها من الكهنة على عهد سليمان"^(٨). قاله السدي^(٩)، والربيع^(١٠).

الثاني: أنهم اليهود الذين كانوا في زمن سليمان عليه السلام، لأن أكثر اليهود ينكرون نبوة سليمان عليه السلام ويعدونه من جملة الملوك في الدنيا، فالذين كانوا منهم في زمانه لا يمتنع أن يعتقدوا فيه أنه إنما وجد ذلك الملك العظيم بسبب السحر. قاله ابن جريج^(١١)، وابن إسحاق^(١٢).

واختلف في قوله تعالى: {عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [البقرة: ١٠٢] ، على وجهين أحدهما: أن معناه: على عهد ملك سليمان. قاله السدي^(١٣)، وهو المشهور.

والثاني: في ملك سليمان، أي: في قصصه وصفاته وأخباره. روي نحوه عن سلمة بن إسحاق^(١٤).

(١) تفسير الطبري (١٦٤٧): ص ٤٠٦/٢-٤٠٧.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٩٨٥): ص ١٨٦/١.

(٣) أخرجه الطبري (١٦٦١): ص ٤١٤/٢-٤١٥.

(٤) صفة التفسير: ٧٣/١.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم (٩٨٣): ص ١٨٥/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٨٦): ص ١٨٦/١.

(٧) أخرجه الطبري (١٦٦٥): ص ٤١٦/٢.

(٨) تفسير الطبري: ٤٠٥/٢.

(٩) انظر: تفسير الطبري (١٦٤٦): ص ٤٠٥/٢-٤٠٦، وابن أبي حاتم (٩٨٧): ص ١٨٦/١، وقد ذكر الأثر ابن كثير،

انظر تفسيره: ٢٤٩/١.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (١٦٤٧): ص ٤٠٦/٢-٤٠٧.

(١١) انظر: تفسير الطبري (١٦٤٩): ص ٤٠٧/٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (١٦٥٠): ص ٤٠٧/٢-٤٠٨.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (١٦٤٦): ص ٤٠٥/٢-٤٠٦، وابن أبي حاتم (٩٨٧): ص ١٨٦/١.

(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٩٨٨): ص ١٨٦/١.

قوله تعالى: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ} [البقرة: ١٠٢]، " أي وما كان سليمان ساحراً ولا كفر بتعلمه السحر" (١).

قال سلمة بن إسحاق: "أي: ما علم بالسحر، والسحر كفر لمن عمل به" (٢).
وروي عن قتادة: "في قول الله: {وما كفر سليمان}، قال: ما كان عن مشورته ولا أمره" (٣).
قوله تعالى: {وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ} [البقرة: ١٠٢]، " أي ولكن الشياطين هم الذين علموا الناس السحر حتى فشا أمره بين الناس" (٤).
قال قتادة: " ولكنه شيء افتعلته الشياطين، وذكر لنا أن الشياطين ابتدعت كتباً، وكتبت سحراً وأمرنا عظيماً في الناس وعلموهم إياه" (٥).

عن ابن إسحاق: " {وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا}، أي: هم الذين صنعوا ما صنعوا" (٦).
قال الحسن: " اتباع السحر كفر، وليس من دين سليمان السحر. يقول: ولكن الشياطين كفروا بتركهم دين سليمان، واتباعهم ما تلت الشياطين على ملكه" (٧).
قوله تعالى: {وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بَيَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ} [البقرة: ١٠٢]، "أي: وكما اتبع رؤساء اليهود السحر، كذلك اتبعوا ما أنزل على الملكين وهما هاروت وماروت بمملكة بابل بأرض الكوفة، وقد أنزلهما الله ابتلاءً وامتحاناً للناس" (٨).

عن أبي العالية: "لم ينزل عليهما السحر، يقول: علما بالإيمان والكفر. فالسحر من الكفر. فهما ينهيان عنه أشد النهي" (٩). وروي عن خالد بن أبي عمران، والربيع بن أنس نحو ذلك. وفي {الملكين} [البقرة: ١٠٢]، قولان:

أحدهما: أن سحرة اليهود زعموا، أن الله تعالى أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك، وفي الكلام تقديم وتأخير، وتقديره: وما كفر سليمان، وما أنزل على الملكين، ولكن الشياطين كفروا، يعلمون الناس السحر ببيابِل هاروت وماروت، وهما رجلان ببيابِل. روي ذلك عن عطية (١٠).

عن عطية: {وما أنزل على الملكين}، قال: ما أنزل على جبريل وميكائيل السحر" (١١).
الثاني: أن هاروت وماروت ملكان، أهبطهما الله عز وجل إلى الأرض. قاله السدي (١٢)، والربيع (١٣)، ومجاهد (١٤).

قال مجاهد: " شأن هاروت وماروت أن عجبت الملائكة من ذنوب بني آدم وقد جاءتهم الرسل بالكتب، فقال لهم ربهم، اختاروا منكم اثنين أنزلهما يحكمان في الأرض، فكانا هاروت وماروت، فحكما فعديلا حتى أنزلت عليهما الزهرة في صورة أحسن امرأة تخاصم، فقالا لها انتينا

- (١) صفوة التفسير: ٧٣/١.
- (٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٩١): ص ١٨٧/١.
- (٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٩٠): ص ١٨٧/١.
- (٤) صفوة التفسير: ٧٣/١.
- (٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٩٢): ص ١٨٧/١.
- (٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٩٤): ص ١٨٧/١.
- (٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٩٣): ص ١٨٧/١.
- (٨) صفوة التفسير: ٧٣/١.
- (٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٩٨): ص ١٨٨/١.
- (١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٩٩٩): ص ١٨٨/١.
- (١١) أخرجه ابن أبي حاتم (٩٩٩): ص ١٨٨/١.
- (١٢) انظر: تفسير الطبري (١٦٨٦): ص ٤٣١/٢.
- (١٣) انظر: تفسير الطبري (١٦٨٧): ص ٤٣١/٢-٤٣٢.
- (١٤) انظر: تفسير الطبري (١٦٨٩): ص ٤٣٤/٢.

في البيت فكشفا عن عورتها وافتتنا، فطارت الزهرة فرجعت الزهرة حيث كانت، فعرجا إلى السماء فزجرا فاستشفعا برجل من بني آدم"^(١).

وقوله تعالى: {بِبَابِلَ} [البقرة: ١٠٢]، فإنه اسم قرية أو موضع من مواضع الأرض، وقد اختلف أهل العلم فيها على وجهين:

أحدها: أنها: بابل دُنْبَاوَدُ^(٢). قاله السدي^(٣).

الثاني: أنها من نصيبين إلى رأس العين. قاله قتادة^(٤).

قوله تعالى: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ}، أي: "وما يعلم الملكان أحدا من الناس الذي أنزل عليهما من التفريق بين المرء وزوجه، حتى يقولوا له: إنما نحن بلاء وفتنة لبني آدم، فلا تكفر بربك"^(٥).

قال الحسن: "نعم، أنزل الملكين بالسحر ليعلموا الناس البلاء الذي أراد الله أن يبنتلي به الناس، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلمان أحدا حتى يقولوا {إنما نحن فتنة فلا تكفر}. وهما يفتلان لا يعلمان أحدا حتى يقولوا: {إنما نحن فتنة فلا تكفر}"^(٦).

قال قتادة: "كان أخذ عليهما أن لا يعلما أحدا حتى يقولوا إنما نحن فتنة أي بلاء ابتلينا به فلا تكفر"^(٧).

قال السدي: "إن الملائكة فيما بينهم إذا علمته الإنس فصنع وعمل به كان سحرا"^(٨). وقد استدل بهذه الآية على أن السحر كفر ومتعلمه كافر^(٩)، وهو واضح في بعض أنواعه التي قدمتها^(١٠)، وهو التعبد للشياطين أو للكواكب، وأما النوع الآخر الذي هو من باب الشعوذة فلا يكفر به من تعلمه أصلا^(١١)، قال النووي^(١٢): "عمل السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع"^(١٣).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٠٩): ص ٩٢١/١.

(٢) يقع جبل دماوند ضمن سلسلة جبال البرز بالقرب من بحر خزر وعلى مسافة ٧٠ كيلو متر من مدينة طهران ويقع ضمن محافظة مازندران الإيرانية. هو جبل ذو نشاط بركاني ولكنه اليوم غير فعال، يمكن رؤية الجبل في الايام الغير مغبرة من محافظة طهران.

يسمى كذلك في الكتب القديمة بجبل دنيابوند اي بمعنى الحرارة.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٦٨٦): ص ٤٣١/٢، و (١٦٩٠): ص ٤٣٦/٢.

(٤) انظر: المحرر الوجيز: ١٨٧/١.

(٥) تفسير الطبري: ٤٤٠/٢.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠١١): ص ١٩٢/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠١٢): ص ١٩٢/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠١٤): ص ١٩٢/١.

(٩) انظر: أحكام القرآن لابن العربي: ٢٨/١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٤٣/٢، فتح القدير للشوكاني:

١٧٨/١، أحكام القرآن للجصاص: ٥٣/١، أضواء البيان للشنقيطي: ٤٤٢/٤، وغيرها.

(١٠) انظر: فتح الباري: ٢٣٢/١٠-٢٣٣.

(١١) هذا الإيضاح والتفصيل في حكم السحر وتعلمه هو غاية التحقيق في المسألة، وبه يزول الإشكال وتجتمع الأدلة، فالسحر الذي من قبل الشياطين كفر لأنه لا يتأتى بدون الشرك وعبادة الشياطين والكواكب، وعلى هذا النوع يحمل كلام من أطلق من أهل العلم كفر السحر والساحر ومعلمه ومتعلمه إذ أنهم لا يرون سحراً في الاصطلاح غيره، أما النوع الآخر فليس بسحر في الاصطلاح عندهم وإن سمي سحراً فعلى سبيل المجاز كتسمية القول البليغ والنميمة سحراً. أما سحر الأدوية والتدخين والاستعانة بخواص الأشياء والأخذ بالعيون وخداعها حتى ترى الشيء على خلاف ما هو عليه: فليس بكفر، ولكنه حرام حرمة شديدة لمضرة بعضه واعتماد بعضه على الكذب على الناس

وخداعهم، ويعزر من يفعله تعزيراً بليغاً، وعلى هذا النوع يحمل كلام من رأى من أهل العلم أن أنواعاً من السحر ليست بكفر، والله أعلم. انظر: الفروق للقرافي: ١٣٥/٤-١٤١، والمغني لابن قدامة: ٣٠٤/١٢، والإنصاف للمرداوي: ٣٤٩/١٠-٣٥٠، وتيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبد الله: ٣٨٣-٣٨٤، وأضواء البيان للشنقيطي:

٤٥٦/٤، ونواقض الإيمان القولية والعملية لـ د. العبد اللطيف: ٥٠٣ وما بعدها.

ومعنى (الفتنة) في كلام العرب: الابتلاء والامتحان^(٣)، وأصلها مأخوذ من قولك: فتنتُ الفضة والذهب: إنا أذبتهما بالنار؛ ليميز الرديء من الجيد، وتعرف جودتهما من الرداءة، ومن هذا قوله عز وجل: {يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْتَلُونَ} [الذاريات: ١٣]، أي: يحرقون بالنار، ومن هذا قيل للحجارة السود التي كأنها أحرقت بالنار: الفتين^(٤)، ثم جعل كل امتحان فتنة، وقد جعل الله امتحانه عبده المؤمنين بالأواء ليلو صبرهم فيثيبهم، أو جزعهم على ما ابتلاهم به فيجزئهم، جزاؤهم فتنة فقال: {الم (١) أَحْسِبَ النَّاسُ} إلى قوله: {وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} [العنكبوت: ١ - ٢] قيل في تفسيره: وهم لا يُبلون في أنفسهم وأموالهم، وكذلك قوله: {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [العنكبوت: ٣]، أي: اختبرنا^(٥). قوله تعالى: {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} [البقرة: ١٠٢]، "أي: يتعلمون منهما من علم السحر ما يكون سبباً في التفريق بين الزوجين"^(٦). قال قتادة: "وتفريقهم أن يمسكوا كل واحد منهما عن صاحبه ويبغضوا كل واحد منهما إلى صاحبه"^(٧).

قال قتادة: "يؤخذان أحدهما عن صاحبه ويعطفان واحدا منهما إلى صاحبه"^(٨). قوله تعالى: {وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة: ١٠٢]، "أي وما هم بما استعملوه من السحر يضررون أحداً إلا إذا شاء الله"^(٩). واختلفوا في تفسير قوله تعالى: {وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة: ١٠٢] على وجهين:

أحدهما: أنه يعني: "لا يضر هذا السحر إلا من دخل فيه". قاله الحسن^(١٠). والثاني: أن معناه: "من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط، ولا يستطيعون ضر أحد إلا بإذن الله". قاله الحسن كذلك^(١١).

وذكروا في قوله تعالى: {إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة: ١٠٢]، ثلاثة أوجه: أحدها: أن معناه: "إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد". قاله ابن إسحاق^(١٢)، أي: أن الله-عز وجل-تركه يفعل، ولو شاء لم يمكنه من ذلك ولم يسلطه على أحد من خلقه^(١٣). الثاني: أن معناه: "إلا ما سبق لها في قضاء الله وقدره. قاله عطية^(١٤). الثالث: إلا بمشيئة الله. قاله عطاء^(١).

-
- (١) انظر: شرح النووي على مسلم: ٢٥٢/١٤-٢٥٣ عند الكلام على حديث عائشة رقم: ٢١٨٩، وسحر لبيد بن الأعصم اليهودي للنبي صلى الله عليه وسلم.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٧١/٣٥، مختصر الفتاوى المصرية: ١٥١، حاشية ابن عابدين: ٢٤٠/٤، نواقض الإيمان القولية والعملية لـ د. العبد اللطيف: ٥٠٣، السحر بين الحقيقة والخيال لـ د. الحمد: ١٤٦.
(٣) انظر: مقاييس اللغة: ٤/٤٧٢، مادة: (فتن).
(٤) انظر: تهذيب اللغة: ٣/٢٧٣٨، مادة: (فتن).
(٥) انظر: التفسير البسيط: ٢٠٣/٣-٢٠٤، وتهذيب اللغة: ٣/٢٧٣٨، مادة: (فتن).
(٦) صفوة التفاسير: ٧٤/١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠١٥): ص ١٩٣/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠١٦): ص ١٩٣/١.
(٩) صفوة التفاسير: ٧٤/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠١٧): ص ١٩٣/١.
(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠١٨): ص ١٩٣/١.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠١٩): ص ١٩٣/١.
(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠٢٦): ص ٣١٢/١ رقم: ١٠٢٦، وتفسير كثير: ٣٦٤/١.
(١٤) ذكره الواحدي في "التفسير البسيط": ٣٢٥/١١.

قال المفسرون: "الإذن -ها هنا- تأويله: إرادة التكوين، أي: لا يضرّون بالسكر إلا من أراد الله أن يلحقه ذلك الضرر"^(٢).

قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلَقٍ} [البقرة: ١٠٢]، " أي ولقد علم اليهود الذين نبذوا كتاب الله واستبدلوا به السحر، أنهم ليس لهم حظ من رحمة الله ولا من الجنة لأنهم آثروا السحر على كتاب الله"^(٣).

قال قتادة: " وقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له في الآخرة"^(٤). وروي عن قتادة -أيضا-: "قوله: {وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ}، أي: استحبه"^(٥). وعن ابن أبي نجیح قوله: {وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ}، اشترى ما يفرق به بين المرء وزوجه"^(٦).

واختلف أهل التفسير في قوله: {مَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلَقٍ} [البقرة: ١٠٢]، على وجوه: أحدها: الخلاق، في هذا الموضع: النصيب. قاله مجاهد^(٧)، والسدي^(٨). الثاني: الخلاق: الحجة. قاله قتادة^(٩).

قال قتادة: " وقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له في الآخرة"^(١٠). الثالث: ليس له دين. قاله الحسن^(١١).

الرابع: ليس له في الآخرة جهة عند الله. قاله قتادة^(١٢).

والراجح أن "الخلاق" -هنا-: النصيب، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: " ليؤيدن الله هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم"^(١٣)، يعني لا نصيب لهم ولا حظ في الإسلام والدين. ومنه قول أمية بن أبي الصلت^(١٤):

يَدْعُونَ بالويل فيها لا خلاق لهم ... إلا سراييل من قطر وأغلال
يعني بذلك: لا نصيب لهم ولا حظ، إلا السراييل والأغلال^(١٥).

(١) ذكره عنه الثعلبي في "الكشف والبيان": ١٥٣/٥، والواحدي في "التفسير البسيط": ٣٢٥/١١، وابن الجوزي في "زاد المسير": ٦٧/٤.

(٢) التفسير البسيط: ٢٠٨/٣، وانظر: "معاني القرآن" للزجاج ١/١٨٦، "تفسير القرطبي" ٢/٤٩.

(٣) صفوة التفسير: ٧٤/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٢٩): ص ١٩٥/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٢٤): ص ١٩٥/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٢٥): ص ١٩٥/١.

(٧) انظر: تفسير الطبري: (١٧٠٩): ص ٤٥٢/٢.

(٨) انظر: تفسير الطبري: (١٧١٠): ص ٤٥٣/٢.

(٩) انظر: تفسير الطبري: (١٧١٢): ص ٤٥٣/٢.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٢٩): ص ١٩٥/١.

(١١) انظر: تفسير الطبري: (١٧١٣): ص ٤٥٣/٢.

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠٢٧): ص ١٩٥/١.

(١٣) رواه أحمد في المسند ٥ : ٤٥ (حلي)، من حديث أبي بكر، بلفظ: " إن الله سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ". وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٥ : ٣٠٢، ثم قال: " رواه أحمد والطبراني، ورجلها ثقات ". وذكره أيضاً بعده، من حديث أنس، وقال: " رواه البزار والطبراني في الأوسط، وأحد أسانيد البزار ثقات الرجال ". (كذا بالأصل). وذكره السيوطي في الجامع الصغير: ١٨٣٨، ونسبه للنسائي وابن حبان من حديث أنس، ولأحمد والطبراني من حديث أبي بكر. ونقل شارحه المناوي أن الحافظ العراقي قال: " إسناده جيد ". وحديث أنس رواه أيضاً أبو نعيم في الحلية ٦ : ٢٦٢. ورواه قبل ذلك ٣ : ١٣، من حديث الحسن مرسلًا. ثم أشار إلى حديث أنس. (١٤) ديوانه: ٤٧ بيت مفرد. وقوله " فيها "، أظنه يعني النار. والقطر: النحاس الذائب.

(١٥) انظر: تفسير الطبري: ٢/٤٥٣-٤٥٤.

قوله تعالى: {وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ} [البقرة: ١٠٢]، "أي: ولبئس هذا الشيء الذي باعوا به أنفسهم" (١).

قال السدي: "يعني: اليهود، يقول: بئس ما باعوا به أنفسهم" (٢).

القرآن

{وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)} [البقرة: ١٠٣]

التفسير:

ولو أن اليهود آمنوا وخافوا الله لأيقنوا أن ثواب الله خير لهم من السحر ومما اكتسبوه به، لو كانوا يعلمون ما يحصل بالإيمان والتقوى من الثواب والجزاء علماً حقيقياً لآمنوا.

قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا} [البقرة: ١٠٣]، "أي ولو أن أولئك الذين يتعلمون السحر آمنوا بالله وخافوا عذابه" (٣).

قال قتادة: "وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا} بما أنزل، {وَاتَّقَوْا}: اتقوا ما حرم الله" (٤).

قوله تعالى: {لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ} [البقرة: ١٠٣]، "أي لأثابهم الله ثواباً أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر" (٥).

قال أبو العالية: "أي: لثواب من عند الله خير" (٦). وروي عن الحسن وقاتدة، والسدي والربيع بن أنس نحو ذلك (٧).

و"المثوبة" -في كلام العرب-، مصدر من قول القائل: أثبتك إثابة وثواباً ومثوبة، و(الثواب) في الأصل معناه: ما رجع إليك من عائدة، وحقيقته: الجزاء العائد على صاحبه مكافأةً لما فعل، ومنه: التثويب في الأذان، إنما هو ترجيع الصوت، ولا يقال لصوتٍ مرةً واحدةً: تثويب، ويقال: ثوب الداعي: إذا كرر دعاه كما قال (٨):

إذا الداعي المَثُوبُ قال: يالاً

والتوب مشتقٌ من هذا، لأنه تاب لباساً بعد أن كان فُطناً أو غزلاً (٩).

ومنه: ثواب الله عز وجل عباده على أعمالهم، بمعنى إعطائه إياهم العوض والجزاء عليه، حتى يرجع إليهم بدل من عملهم الذي عملوا له (١٠).

القرآن

(١) صفوة التفاسير: ٧٤/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٣٠): ص ١٩٥/١، وتفسير الطبري (١٧١٦): ص ٤٥٥/٢.

(٣) صفوة التفاسير: ٧٤/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٣١)، (١٠٣٢): ص ١٩٥/١-١٩٦.

(٥) صفوة التفاسير: ٧٤/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٣٣): ص ١٩٦/١.

(٧) .

(٨) البيت نسب لزهير بن مسعود الضبي، ينظر: "لسان العرب" ٨ / ٤٩٧٦ (مادة: يا) غير منسوب. "المعجم

المفصل" ٦ / ٨١. ونسب إلى الفرزدق في "لسان العرب" ٧ / ٤١٠٥ (لوم).

(٩) انظر: التفسير البسيط: ٣ / ٢١٤، و"معاني القرآن" للزجاج ١ / ٢٠٦، "تهذيب اللغة" ١ / ٤٦٣ (مادة- ثاب)،

"المفردات" للراغب الأصبهاني ٨٩، "مقاييس اللغة" ١ / ٣٩٣، وقال: الثاء والواو والباء قياس صحيح من أصل

واحد وهو العود والرجوع.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٤٥٨/٢.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) } [البقرة : ١٠٤]

التفسير:

يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا للرسول محمد صلى الله عليه وسلم: راعنا، أي: راعنا سمعك، فافهم عنا وأفهمنا؛ لأن اليهود كانوا يقولونها للنبي صلى الله عليه وسلم يلوون ألسنتهم بها، يقصدون سبّه ونسبته إلى الرعونة، وقولوا- أيها المؤمنون- بدلا منها: انظرنا، أي انظر إلينا وتعهّدنا، وهي تؤدي المعنى المطلوب نفسه واسمعوا ما يتلى عليكم من كتاب ربكم وافهموه. وللجاحدين عذاب موجه. قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [البقرة: ١٤]، "أي: يا أيها الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله"^(١). عن خيثمة قال: ما تقرأون في القرآن: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، فإنه في التوراة: يا أيها المساكين"^(٢).

قوله تعالى: {لَا تَقُولُوا رَاعِنَا} [البقرة: ١٠٤]، أي: "لا تقولوا عند مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم راعنا"^(٣).

قال الحسن: "الراعن من القول: السخري منه، نهاهم الله عز وجل أن يسخروا من قول محمد صلى الله عليه وسلم، وما يدعوهم إليه من الإسلام"^(٤).

وقال أبو صخر: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أدبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين فقالوا: أرعنا سمعك فأعظم الله رسوله أن يقال ذلك له"^(٥). و"الراعن": الأحمق، والأرعن: مبالغة فيه"^(٦).

وقد اختلف أهل العلم في تفسير قوله: {لَا تَقُولُوا رَاعِنَا} [البقرة: ١٠٤]، على وجهين: أحدهما: أي: لا تقولوا خلافا. قاله عطاء^(٧)، ومجاهد^(٨) في رواية.

وقال عطاء: "كانت لغة تقولها الأنصار فنهى الله عنها. قال: لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا"^(٩).

الثاني: يعني: أرعنا سمعك، أي: اسمع منا ونسمع منك، وهذا مجاهد^(١٠)، والضحاك^(١١).

قال الضحاك: "كانوا يقولون للنبي- صلى الله عليه وسلم-: أرعنا سمعك، وإنما راعنا كقولك عاطفا"^(١٢). وروي عن أبي العالية وأبي مالك والربيع بن أنس وعطية العوفي وقتادة نحو ذلك^(١٣). واختلف أهل التفسير في السبب الذي من أجله نهى الله المؤمنين أن يقولوا {رَاعِنَا} [البقرة: ١٠٤]، على وجوه^(١٤):

(١) تفسير المراعي: ٤٣/١١، وانظر: صفوة التفسير: ٤٨٧/٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٣٦): ص ١٩٦/١.

(٣) تفسير ابن عثيمين: ٣٣٨/١.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١٠٤١): ص ١٩٧/١.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم (١٠٤٢): ص ١٩٧/١.

(٦) انظر: الصحاح للجوهري: ٢١٢٤/٥-٢١٢٥، القاموس المحيط للفيروز آبادي: ١٠٨٢، مفاتيح الغيب للرازي:

٢٤٢/٣، روح المعاني للألوسي: ٣٤٩/١.

(٧) انظر: تفسير الطبري (١٧٢٠): ص ٤٥٩/٢.

(٨) انظر: تفسير الطبري (١٧٢١)، و(١٧٢٢)، و(١٧٢٣)، و(١٧٢٤): ص ٤٥٩/٢.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٣٩): ص ١٩٧/١.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (١٧٢٦): ص ٤٦٠/٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري (١٧٢٧): ص ٤٦٠/٢.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٣٨): ص ١٩٦/١-١٩٧.

(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٩٧/١.

(١٤) انظر: تفسير الطبري: ٤٦٠/٢-٤٦١.

أحدها : أنها كلمة كانت اليهود تقولها لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- على وجه الاستهزاء والسب ؛ كما قالوا سمعنا وعصينا ، واسمع غير مسمع ، وراعنا لِيَأْ بِألسنتهم ، فُئهِىَ المسلمون عن قولها ، وهذا قول قتادة^(١)، وعطية^(٢).

الثاني: أنها كلمة ، كانت الأنصار في الجاهلية تقولها ، فنهاهم الله في الإسلام عنها. وهذا قول عطاء^(٣)، وأبي العالية^(٤)، وابن جريج^(٥).

الثالث: أن القائل لها ، كان رجلاً من اليهود دون غيره ، يقال له رفاعة بن زيد ، فُئهِىَ المسلمون عن ذلك ، وهذا قول السدي^(٦).

والراجح في هذه المسألة أن يقال : بأن الله جل ثناؤه قد أمر المؤمنين بتوقير نبيه صلى الله عليه وسلم وتعظيمه، وأمرهم أن يتخيروا لخطابه من الألفاظ أحسنها، ومن المعاني أرقها، فكان من ذلك قولهم : (راعنا) لما فيه من احتمال معنى : ارعنا نرعاك^(٧)، إذ كانت المفاعلة لا تكون إلا من اثنين، كما يقول القائل : "عاطنا، وحادثنا، وجالسنا"، بمعنى : افعل بنا ونفعل بك^(٨)، فكذلك نهى الله عز وجل المؤمنين أن يقولوا : راعنا، لما كان قول القائل : راعنا، محتملاً أن يكون بمعنى احفظنا ونحفظك، وارقبنا ونرقبك. من قول العرب بعضهم لبعض : رعاك الله: بمعنى حفظك الله وكلاك - ومحتملاً أن يكون بمعنى : أرعنا سمعك، من قولهم: أرعيت سمعي إرعاء - أو راعيته - سمعي رعاء أو مراعاة، بمعنى : فرغته لسماع كلامه، كما قال الأعشى ميمون بن قيس^(٩):
يُرْعِي إلى قول سادات الرجال إذا ... أبدوا له الحزم أو ما شاءه ابتدعا
يعني بقوله (يرعى)، يصغي بسمعه إليه مفرغه لذلك.

قوله تعالى: {وَقُولُوا انظُرْنَا} [البقرة: ١٠٤]، أي: ولكن قولوا "انتظرنا وارقبنا"^(١٠).

قال أبو صخر: "أمرهم الله أن يقولوا: {انظرننا}، ليعزروا رسوله ويوقروه"^(١١).

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {وَقُولُوا انظُرْنَا} [البقرة: ١٠٤]، على وجهين:

أحدهما: أن معناه: "اسمع منا". أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد وعطاء^(١٢).

الثاني: "أفهمنا يا محمد، بين لنا". وهذا مروى عن مجاهد-أيضاً-^(١٣).

وعن مجاهد: "أفهمنا ولا تعجل علينا سوف نتبعك إن شاء الله"^(١٤).

(١) انظر: تفسير الطبري (١٧٢٨): ص ٤٦٠/٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٧٢٩): ص ٤٦٠/٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٧٣٣)، و(١٧٣٤)، و(١٧٣٥): ص ٤٦١/٢-٤٦٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٧٣٦): ص ٤٦٢/٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٧٣٧): ص ٤٦٢/٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري (١٧٣٨): ص ٤٦٢/٢-٤٦٣.

(٧) ومعنى : أرعنا سمعك، حتى نفهمك وتفهم عنا. فهى الله تعالى ذكره أصحاب محمد أن يقولوا ذلك كذلك، وأن يفردوا مسألته بانتظارهم وإمهالهم، ليعقلوا عنه بتبجيل منهم له وتعظيم، وأن لا يسألوه ما سألوه من ذلك على وجه الجفاء والتجهم منهم له، ولا بالفظاظة والغلظة، تشبها منهم باليهود في خطابهم نبي الله صلى الله عليه وسلم، بقولهم له : {وَأَسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا} [النساء: ٤٦]. [انظر: تفسير الطبري: ٤٦٥/٢].

(٨) انظر: تفسير الطبري: ٤٦٤/٢-٤٦٥.

(٩) ديوانه: ٨٦، وهى فى هودة بن على كما سلف . يقول قبله :

يا هود ، يا خير من يمشى على قدم بحر المواهب للوراد والشرعا
وابتدع : أحدث ما شاء .

(١٠) صفوة التفاسير: ٧٦/١.

(١١) أخرج ابن أبي حاتم (١٠٤٥): ص ١٩٨/١.

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠٤٣): ص ١٩٧/١.

(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠٤٤): ص ١٩٨/١.

قوله تعالى: {وَاسْمَعُوا} [البقرة: ١-٤]، "أي: اسمعوا سماع استجابة، وقبول" (٢).
 قال الحسن: "أمرهم أن يسمعوا قوله، ويقبلوا عنه فأبوا ذلك وعصوا ربهم" (٣).
 قوله تعالى: {وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [البقرة: ١٠٤]، "أي وللإهود الذين نالوا من الرسول
 وسبّوه، عذاب أليم موجع" (٤).
 قال قتادة: "عذاب أليم، أي موجع" (٥).

القرآن

{مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ
 بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)} [البقرة: ١٠٥]

التفسير:

ما يحب الكفار من أهل الكتاب والمشركين أن يُنزلَ عليكم أدنى خير من ربكم قرآنًا أو علمًا، أو
 نصرًا أو بشارة. والله يختص برحمته من يشاء من عباده بالنبوة والرسالة. والله ذو العطاء الكثير
 الواسع.

قوله تعالى: {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ
 رَبِّكُمْ} [البقرة: ١٠٥]، "أي: ما يحب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون أن ينزلَ عليكم
 شيء من الخير، بغضًا فيكم وحسدًا لكم" (٦).

عن السدي: "أن رجلا من اليهود كان يدعى رفاعة بن زيد كان يأتي النبي صلى الله عليه
 وسلم- فإذا لقيه فكلمه قال: أرعني سمعك، ثم تقدم إلى المؤمنين فقال: {لَا تَقُولُوا رَاعِنَا} [البقرة: ١٠٤].
 ثم أخبرهم: {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ
 رَبِّكُمْ} [البقرة: ١٠٥]" (٧).

والود) "خالص المحبة" (٨).
 قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ} [البقرة: ١٠٥]، أي والله "يختص بالنبوة والوحي والفضل
 والإحسان، من شاء من عباده" (٩).

واختلف في معنى "الرحمة" -ها هنا-، على قولين:

أحدهما: أن الرحمة: الإسلام. قاله مجاهد (١٠)، والحسن (١١).

قال الحسن: "رحمته الإسلام يختص بها من يشاء" (١٢).

الثاني: أن الرحمة -هنا-: النبوة. قاله ومحمد بن علي بن الحسين (١٣)، ومجاهد (١٤)، والربيع بن أنس (١).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٤٦): ص ١٩٨/١.

(٢) تفسير ابن عثيمين: ٣٣٩/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٤٧): ص ١٩٨/١.

(٤) صفوة التفاسير: ٧٦/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٤٨): ص ١٩٨/١.

(٦) صفوة التفاسير: ٧٦/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٤٩): ص ١٩٨/١.

(٨) تفسير ابن عثيمين: ١٧٨/١.

(٩) صفوة التفاسير: ٧٦/١.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠٥١): ص ١٩٩/١، ولفظه: "القرآن والإسلام".

(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠٥٢): ص ١٩٩/١.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٥٢): ص ١٩٩/١.

(١٣) انظر: زاد المسير: ١٢٧/١.

(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠٥٠): ص ١٩٩/١.

والصواب: أن الرحمة هنا عامة بجميع أنواعها، والأقوال الأخرى هي ضمن الرحمة العامة التي في لفظ الآية، "فرحمته تعالى يشمل رحمة الدين، والدنيا؛ ومن ذلك رحمة الله بإنزال هذا الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن هذا الوحي الذي نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم هو من رحمة الله عليه، وعلينا، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧]"^(٢).

القرآن

{مَا نُنسخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِثْلَهَا أَوْ مِثْلُهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)}
[البقرة: ١٠٦]

التفسير:

ما نبذل من آية أو نُزلها من القلوب والأذهان نأت بأفْع لکم منها، أو نأت بمثلها في التكليف والثواب، ولكل حكمة. ألم تعلم -أيها النبي- أنت وأمتك أن الله قادر لا يعجزه شيء؟
سبب النزول:

قال قتادة: "كانت الآية تنسخ الآية، وكان نبي الله صلى الله عليه وسلم يقرأ الآية من السورة ثم ترفع فينسيها الله تعالى نبيه، فقال الله تعالى يقص على نبيه {مَا نُنسخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا}"^(٣).
وروي عن مجاهد^(٤)، والحسن^(٥) نحو ذلك.
قوله تعالى: {مَا نُنسخُ مِنْ آيَةٍ} [البقرة: ١٠٦]، "أي ما نبذل من حكم آية فنغيره بآخر"^(٦).
قال مجاهد: "أي: نمحو من آية"^(٧).
قال الضحاك: "ما ننسك"^(٨).

واختلف أهل العلم في تفسير قوله تعالى: {مَا نُنسخُ مِنْ آيَةٍ} [البقرة: ١٠٦]، على وجوه:
أحدها: أنه قبضها، وهو قول السدي^(٩).

قال السدي: "نسخها: قبضها"^(١٠). قال ابن أبي حاتم: يعني قبضها. رفعها مثل: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها ألبنة، وقوله- لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى إليهما ثالثا"^(١١).
الثاني: أنه إثبات خطها وتبديل حكمها، وهو قول مجاهد^(١٢).
الثالث: ومنهم من فسره بالنسخ بمعنى نسخت الكتاب، وهو قول عطاء^(١٣)، وسعيد بن المسيب^(١).

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٩٩/١.

(٢) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٧٩/١.

(٣) العجائب: ٣٤٩/١، وأخرجه الطبري (١٧٥١) ص: ٤٧٤/٢، ولفظه: "كان ينسخ الآية بالآية بعدها، ويقرأ نبي الله صلى الله عليه وسلم الآية أو أكثر من ذلك، ثم تنسى وترفع".

وعزاه السيوطي أيضاً إلى أبي داود في "الناسخ والمنسوخ" انظر الدر "١" / ٢٥٥ وفيه تنمة:
"يقول: فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها نهي".

(٤) تفسير الطبري (١٧٥٣) ص: ٤٧٤/٢.

(٥) تفسير الطبري (١٧٥٤) ص: ٤٧٤/٢.

(٦) صفوة التفسير: ٧٦/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٥٣) ص: ١٩٩/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٥٤) ص: ١٩٩/١.

(٩) انظر: تفسير الطبري (١٧٤٦) ص: ٤٧٣/٢.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٥٧) ص: ٢٠٠/١، و الطبري (١٧٤٦) ص: ٤٧٣/٢.

(١١) تفسير ابن أبي حاتم: ٢٠٠/١.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (١٧٤٩) ص: ٤٧٣/٢.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٥٦) ص: ١٩٩/١.

عن عطاء: "ما نسخ فيما ترك من القرآن" (٢). قال ابن أبي حاتم: "يعني: ترك لم ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم" (٣).
 والراجح أنه تبديلها (٤)، وهو الأشبه بالصواب، أي: ما ننقل من حكم آية، إلى غيره فنبدله ونغيره،
 وبه قال جمع من أهل التفسير، والله تعالى أعلم.
 قوله تعالى: {أَوْ نُنْسِهَا} [البقرة: ١٠٦]، أي "أو نتركها" (٥).
 واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {أَوْ نُنْسِهَا} [البقرة: ١٠٦]، على أقوال:
 أحدها: أنه من النسيان، ضد التذكر. روي سعد بن مالك (٦)، ومحمد بن كعب (٧)، وقتادة (٨)،
 وعكرمة (٩)، نحو هذا المعنى.
 الثاني: أن معناه: تثبت خطها، ونبدل حكمها. قاله مجاهد (١٠).
 الثالث: أن المعنى: نؤخرها. قاله أبو العالية (١١)، وعطاء (١٢).
 الرابع: أو نتركها نرفعها من عندكم. قاله عبيد بن عمير (١٣)، والربيع بن أنس (١٤)، والسدي (١٥).
 الخامس: أو نتركها لا نبدلها. قاله السدي (١٦).
 واختلفت القراءة في قوله تعالى: {مَا نُنَسِّخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا} [البقرة: ١٠٦]، على ثلاث قراءات (١٧):
 القراءة الأولى: بفتح النون الأولى في (ننسخ)؛ وضمها في (ننسخها) بدون همز، وهي قراءة أهل
 المدينة والكوفة.
 وقراءة غير الهمز على اختلاف وجوهها، فيها احتمالان (١٨):
 الإحتمال الأول: أنها من (النسيان)، وحينئذ يكون المراد به في بعض القراءات ضد الذكر وفي بعضها الترك.

الوجه الأول: أن يكون {ننسخها} بمعنى (النسيان)، ضد الذكر، والمعنى: ما ننسخ يا محمد من آية فنغير
 حكمها أو ننسخها، وقد ذكر أنها في مصحف عبد الله: {ما ننسخك من آية أو ننسخها نجية بمثلها}،
 فذلك تأويل: النسيان، وبهذا التأويل قال جماعة من أهل التأويل (١٩).

-
- (١) انظر: مفاتيح الغيب: ٦٤٠/٣.
 (٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٥٦): ص ١٩٩/١.
 (٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٩٩/١.
 (٤) وهو قول ابن عباس رضي الله عنه، انظر: تفسير الطبري (١٧٤٧): ص ٤٧٣/٢.
 (٥) تفسير الطبري: ٤٧٨/٢.
 (٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠٥٩)، و (١٠٦٠): ص ٢٠٠/١.
 (٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٠٠/١.
 (٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٠٠/١.
 (٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٠٠/١.
 (١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠٦٢): ص ٢٠٠/١.
 (١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٠١/١.
 (١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٠١/١.
 (١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠٦٤): ص ٢٠٠/١.
 (١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٠١/١.
 (١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٠١/١.
 (١٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠٦٦): ص ٢٠١/١.
 (١٧) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٨١/١.
 (١٨) انظر: تفسير الطبري: ٤٧٣/٢-٤٧٦، والمحزر الوجيز لابن عطية: ٣٢٠/١-٣٢١، الدر المصون للسمين: ٣٣٧/١، شرح الهداية للمهدوي: ١٧٨/١، الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي: ٢٥٩/١.
 (١٩) انظر: تفسير الطبري: ٤٧٤/٢.

وكذلك كان سعيد بن المسيب يقرؤها، فأنكر عليه سعد بن أبي وقاص، أخرجه النسائي^(١)، وصححه الحاكم^(٢).

عن القاسم بن ربيعة- يعني- ابن عبد الله بن ربيعة بن قانف قال: "قلت لسعد بن مالك: سمعت سعيد بن المسيب يقول: "ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها". فقال سعد: إن الله لم ينزل القرآن على سعيد ولا على أبيه فقراً سعد {ما ننسخ من آية أو ننسها}"^(٣).

وقد روي عن قتادة في قوله: "مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا" قال: كان الله تعالى ينسي نبيه ما يشاء وينسخ ما يشاء"^(٤).

وروي عن الحسن أنه قال في قوله: "أَوْ نُنْسِهَا"، قال: إن نبيكم صلى الله عليه وسلم أقرئ قرآناً ثم نسيه، فلم يكن شيئاً، ومن القرآن ما قد نسخ وأنتم تقرءونه"^(٥).

واسيتدل أصحاب هذا الوجه بقوله تعالى: "سُنِّفْتُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ" [الأعلى: ٦-٧]، فقد أعلم الله أنه يشاء أن يُنسى"^(٦).

وقد ضعف الزجاج أن تحمل الآية على (النسيان) الذي هو ضد الذكر، فقال: "وهذا القول عندي ليس بجائز، لأن الله عز وجل: قد أنبأ النبي - صلى الله عليه وسلم - في قوله {وَلَيْنُ شَيْئًا لَنَذَبَنَ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} إنه لا يشاء، أن يذهب بالذي أوحى به إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -"^(٧).

قوله تعالى: {نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا} [البقرة: ١٠٦]، "أي نأت بخير لكم منها"^(٨).

قال السدي: "نأت بخير من التي نسختها، أو مثل الذي تركناه"^(٩).

قال قتادة: "يقول: آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهي"^(١٠).

قوله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ١٠٦]، "أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله عليم حكيم قدير، لا يصدر منه إلا كل خير وإحسان للعباد"^(١١).

قال محمد بن إسحاق: "أي لا يقدر على هذا غيرك بسطانتك وقدرتك"^(١٢).

القرآن

{أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)} [البقرة: ١٠٨]
التفسير:

(١) في السنن الكبرى: ٢٨٩/٦ رقم: ١٠٩٩٦.

(٢) في المستدرک: ٢٤٢/٢ وقال: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه). وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره: ٥٥/١، وأبو عبيد في الناسخ والمنسوخ: ١٢ رقم: ١٥، وسعيد بن منصور في سننه: ٥٩٧/٢ رقم: ٢٠٨، وقال محققه: ٥٩٩/٢: (سنده ضعيف لجهالة القاسم بن عبد الله بن ربيعة)، وابن أبي داود في المصاحف: ١٠٧، والطبري في تفسيره (١٧٥٥)، و(١٧٥٧): ٤٧٤-٤٧٥.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٥٩): ص ٢٠٠/١.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٧٧/١. قاله عبد الرزاق، عن قتادة.

(٥) أخرجه الطبري (١٧٤٥): ص ٤٧٢/٢، وذكره ابن كثير في تفسيره.

(٦) تفسير الثعلبي: ١٨٩/١.

(٧) معاني القرآن: ١٨٩/١-١٩٠.

(٨) صفة التفسير: ٧٦/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٦٩): ص ٢٠١/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٧٠): ص ٢٠٢/١.

(١١) صفة التفسير: ٧٦/١.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٧١): ص ٢٠٢/١.

بل أتريدون- أيها الناس- أن تطلبوا من رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم أشياء بقصد العناد والمكابرة، كما طُلبَ مثل ذلك من موسى. علموا أن من يختر الكفر ويترك الإيمان فقد خرج عن صراط الله المستقيم إلى الجهل والضلال.

اختلف أهل التفسير في السبب الذي من أجله أنزلت هذه الآية، على أقوال: أحدها: أخرج الطبري وابن أبي حاتم، عن السدي: " {أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ}، أن يريهم الله جهرة. فسألت العرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالله فيروه جهرة" (١). وروي عن قتادة (٢).

الثاني: قال مجاهد: " سألت قريش محمدا أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، فقال : " نعم! وهو لكم كالمائدة لبني إسرائيل إن كفرتم! فأبوا ورجعوا ، فأنزل الله : {أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ}، أن يريهم الله جهرة" (٣).

الثالث: قال أبو العالية: "قال رجل : يا رسول الله ، لو كانت كفاراتنا كفارات بني إسرائيل! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اللهم لا نبغيها! ما أعطاكم الله خيراً مما أعطى بني إسرائيل ، كانت بنو إسرائيل إذا فعل أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها ، فإن كفرها كانت له خزياً في الدنيا ، وإن لم يكفرها كانت له خزياً في الآخرة ، وقد أعطاكم الله خيراً مما أعطى بني إسرائيل ، قال : {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء : ١١٠]. قال : وقال: " الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة ، كفارات لما بينهن " (٤). وقال : " من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر أمثالها ، ولا يهلك على الله إلا هالك " (٥)، فأنزل الله : {أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ} (٦).

قوله تعالى: {أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ} [البقرة: ١٠٨] ، "أي بل أتريدون يا معشر المؤمنين أن تسألوا نبيكم كما سأل قوم موسى نبيهم من قبل" (٧).
عن السدي: " {أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ} أن يريهم الله جهرة. فسألت العرب محمدا أن يأتيهم بالله فيرونه جهراً" (٨). وروي عن قتادة نحو ذلك (٩).
قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ} [البقرة: ١٠٨] ، أي: ومن "يستبدل الضلالة بالهدى ويأخذ الكفر بدل الإيمان" (١٠).

قال أبو العالية: "من يتبدل الشدة بالرخاء فقد ضل سواء السبيل" (١١).

(١) تفسير الطبري (١٧٧٨): ص ٤٩٠/٢، وابن أبي حاتم (١٠٧٧): ص ٢٠٣/١.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٧٧٩): ص ٤٩٠/٢، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٠٣/١.

(٣) أخرجه الطبري (١٧٨١)، وانظر: (١٧٨٠)، و(١٧٨٢): ص ٤٩٠/٢-٤٩١، وابن أبي حاتم (١٠٧٥): ص ٢٠٣/١.

(٤) صحيح مسلم (٢٣٣): ص ٢٠٩/١، والترمذي (٢١٤): ص ٤١٩/١.

(٥) صحيح مسلم (١٣١): ص ١١٨/١، وسنن الدارمي (٢٧٨٦): ص ٤١٤/٢، والمعجم الكبير (١٢٧٦٠): ١١٦٢/١٢.

(٦) أخرجه الطبري (١٧٨٣): ص ٤٩١/٢، وابن أبي حاتم (١٠٧٦): ص ٢٠٣/١، وهذا حديث مرسل ، من مراسيل

أبي العالية . وقد نقله ابن كثير ١ : ٢٧٩ ، عن الطبري . ونقله السيوطي ١ : ١٠٧ ، ونسبه للطبري وابن أبي حاتم . وأبو العالية الرياحي : ثقة من كبار التابعين ، كما قلنا في : ١٨٤ . ونزيد هنا أنه مترجم في التهذيب والكبير ٢٩٨/١/٢ ، والصغير : ١٠٩ ، وابن سعد ٧ / ١ / ٨١ - ٨٥ ، والإصابة ٢ : ٢٢١ . ولكن الاحتجاج بحديثه - كغيره من التابعين فمن بعدهم - هو في الإسناد المتصل ، أما المرسل والمنقطع ، فلا حجة فيهما .

(٧) صفوة التفسير: ٧٦/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٧٧): ص ٢٠٣/١.

(٩) .

(١٠) صفوة التفسير: ٧٦/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٧٨): ص ٢٠٣/١.

وهذا الذي قاله أبو العالية فهو مفهوم بعيد من ظاهر الخطاب، إلا أن يريد هما مستعارتين، أي الشدة على نفسه والرشاء لها عبارة عن العذاب والتنعيم، وأما المتعارف من شدة أمور الدنيا ورخائها فلا تفسر الآية به^(١)، والصواب أن معناه: ومن يستبدل الكفر، وهو الجحود بالله وبآياته، بالإيمان وهو التصديق بالله وبآياته والإقرار به^(٢).

قوله تعالى: {فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} [البقرة: ١٠٨]، " أي فقد حاد عن الجادة وخرج عن الصراط السوي"^(٣).

قال السدي: " عن عدل السبيل"^(٤).

وأصل "الضلال" عن الشيء، "الذهاب عند الحيد، ثم يستعمل في الشيء الهالك، والشيء الذي لا يؤبه له، كقولهم للرجل الخامل الذي لا ذكر له ولا نباهة^(٥)، ومعنى الضلال في الآية: الذهاب عن الاستقامة^(٦).

و"السواء": الوسط من كل شيء^(٧)، ووسط الطريق: هو الطريق الجادة الواضحة، لأنه يكون بين بنيات الطريق التي لا تنتهي إلى الغاية^(٨).

{السبيل} في اللغة: الطريق، والمراد به طريق الاستقامة^(٩)، و"هذه السبيل التي أخبر الله عنها، أن من يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواءها، هي الصراط المستقيم، الذي أمرنا بمسألته الهداية له بقوله: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)} [الفاحة: ٦ - ٧]"^(١٠).

القرآن

{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)} [البقرة: ١٠٩]

التفسير:

تمنى كثير من أهل الكتاب أن يرجعوكم بعد إيمانكم كفارًا كما كنتم من قبلُ تعبدون الأصنام؛ بسبب الحقد الذي امتلأت به نفوسهم من بعد ما تبين لهم صدق نبي الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به، فتجاوزوا عما كان منهم من إساءة وخطأ، واصفحوا عن جهلهم، حتى يأتي الله بحكمه فيهم بقتالهم وقد جاء ووقع، وسيعاقبهم لسوء أفعالهم. إن الله على كل شيء قدير لا يعجزه شيء. سبب النزول:

أخرج الواحدي وابن أبي حاتم، عن عبدالله بن كعب بن مالك: "أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يهجو النبي - صلى الله عليه وسلم - ويحرض عليه كفار قريش في شعره، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدمها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

(١) المحرر الوجيز: ١٥٩/١.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٤٩٤/٢.

(٣) صفوة التفسير: ٨٦/١.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم: ٢٠٤/١.

(٥) تفسير الطبري: ٤٩٥/٢-٤٩٦.

(٦) انظر: الوسيط: ١٩١/١.

(٧) انظر: المحرر الوجيز: ١٩٥/١.

(٨) تفسير ابن عاشور: ٦٦٧/١-٦٦٨.

(٩) روائع البيان: ٣٤/٢.

(١٠) تفسير الطبري: ٤٩٨/٢.

يؤذون النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه أشد الأذى، فأمر الله تعالى نبيه بالصبر على ذلك والعفو عنهم وفيهم أنزلت: {ود كثير من أهل الكتاب} إلى قوله: {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا} (١). وروي نحوه عن الزهري (٢) وقاتدة (٣).

قوله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} [البقرة: ١٠٩]، " أي تمنى كثير من اليهود والنصارى" (٤). قال الزهري: "هو كعب بن الأشرف" (٥).

قوله تعالى: {حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ} [البقرة: ١٠٩]، " أي حسداً منهم لكم حملتهم عليه أنفسهم الخبيثة" (٦).

عن الربيع بن أنس: " {من عند أنفسهم}: من قبل أنفسهم" (٧).

و"في الآية تنبيه أن كثيراً من أهل الكتاب، يتمنون ارتدادكم بعد إيمانكم حسداً، وقوله: {من عند أنفسهم} أي من عند هواهم كقوله تعالى: {وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}، وعبر عن الهوى بالنفس وهي الأمانة بالسوء، وبين أنهم فعلوا ذلك بعد وضوح الحق لهم، ولكنهم بحسدهم وهوائهم لا يتحرونه، ولا يحبون أن يتحراه غيرهم" (٨).

و"الحسد": كراهية نعمة على مستحق لها، وعدت من عظام الذنوب، إذ هو معاندة الله في إرادته، وهو شر من البخل، فإن الحسد بخل على الغير بنعمة من لا تنفد العطايا نعمه" (٩).

قوله تعالى: {مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} [البقرة: ٩]، " أي من بعد ما ظهر لهم بالبراهين الساطعة، أن دينكم هو الحق" (١٠).

قال قاتدة: " من بعد ما تبين لهم أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، والإسلام دين الله" (١١). وروي نحوه عن أبي العالية (١٢)، والربيع (١٣)، والسدي (١٤).

قال أبو العالية: " يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل فكفروا به حسداً وبغياً إذ كان من غيرهم" (١٥).

قوله تعالى: {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا} [البقرة: ٩]، " أي: " فتجاوزوا عما كان منهم من إساءة وخطأ واصفحوا عما كان منهم من جهل" (١٦).

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠٨٣): ص ٢٠٤-٢٠٥، واخرجه أبو داود في سننه كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة: ٣/١٥٤ (٣٠٠٠).

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠٨٢): ص ٢٠٤، وتفسير الطبري (١٧٨٦)، و(١٧٨٧): ص ٤٩٩/٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٧٨٦): ص ٤٩٩/٢.

(٤) صفوة التفاسير: ٧٦/١، وتفسير المراغي: ١٩٠/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٨٢): ص ٢٠٤/١.

(٦) صفوة التفاسير: ٧٦/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٨٥): ص ٢٠٥/١.

(٨) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٩١/١.

(٩) تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٩١/١.

(١٠) صفوة التفاسير: ٧٦/١.

(١١) أخرجه الطبري (١٧٩٠): ص ٥٠٢/٢.

(١٢) أخرجه الطبري (١٧٩١): ص ٥٠٢/٢.

(١٣) أخرجه الطبري (١٧٩٢): ص ٥٠٢/٢.

(١٤) أخرجه الطبري (١٧٩٣): ص ٥٠٢/٢.

(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٨٧): ص ٢٠٥/١، والطبري (١٧٩١): ص ٥٠٢/٢.

(١٦) تفسير الطبري: ٥٠٣/٢.

قال أبو العالية: "يقول: اعفوا عن أهل الكتاب، واصفحوا عنهم حتى يحدث الله أمرا، فأحدث الله بعد ذلك في سورة براءة، {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله} إلى قوله: {وهم صاغرون}"^(١). وروي عن قتادة، والسدي، والربيع بن أنس نحو ذلك^(٢).

و"الصفح": إزالة أثره من النفس، أي: الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه، وهو يشمل ترك العقاب وترك اللوم والتثريب، ومنه قوله تعالى: {أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا} [الزخرف: ٥]^(٣).

والفرق بين (العفو) و(الصفح)، أن "العفو" ترك المؤاخظة على الذنب؛ و (الصفح) الإعراض عنه؛ مأخوذ من صفحة العنق؛ وهو أن الإنسان يلتفت، ولا كأن شيئا صار. يوليه صفحة عنقه؛ ف "الصفح" معناه الإعراض عن هذا بالكلية وكأنه لم يكن؛ فعلى هذا يكون بينهما فرق؛ ف (الصفح) أكمل إذا اقترن ب(العفو)"^(٤).

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ١٠٩]، "أي لا يعتريه عجز في كل شيء فعله"^(٥). قال ابن إسحاق: "أي: إن الله على كل ما أراد بعباده من نعمة أو عفو قدير"^(٦).

القرآن

{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (١١٠) [البقرة: ١١٠]

التفسير:

واشتغلوا -أيها المؤمنون- بأداء الصلاة على وجهها الصحيح، وإعطاء الزكاة المفروضة. واعلموا أن كل خير تقدمونه لأنفسكم تجدون ثوابه عند الله في الآخرة. إنه تعالى بصير بكل أعمالكم، وسيجازيكم عليها.

قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [البقرة: ١١٠]، "أي: واشتغلوا -أيها المؤمنون- بأداء الصلاة على وجهها الصحيح، وإعطاء الزكاة المفروضة"^(٧).

عن الحسن في قوله: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}، قال: "فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها وبالزكاة"^(٨). وروي عن عطاء بن أبي رباح وقاتادة نحو ذلك^(٩).

وقال الزهري: "إقامتها أن تصلي الصلوات الخمس لوقتها"^(١٠).

و"إقامة الصلاة": "أداؤها - بحدودها وفروضها والواجب فيها - على ما فرضت عليه، كما يقال: أقام القوم سوقهم، إذا لم يعطلوا من البيع والشراء فيها"^(١١).

قوله تعالى: {وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ} [البقرة: ١١٠]، "أي وما تتقربوا إلى الله من صلاة أو صدقة أو عمل صالح فرضاً كان أو تطوعاً، تجدوا ثوابه عند الله"^(١٢).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٩٠): ص ٢٠٦/١..

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٠٦/١.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٧١/٢، وتفسير المراغي: ١٩٠/١.

(٤) تفسير ابن عثيمين: ٣٥٨/١.

(٥) تفسير ابن عثيمين: ٣٥٨/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٢١٤): ص ٥٩/١.

(٧) التفسير الميسر: ١٧.

(٨) تفسير ابن أبي حاتم (٤٦١): ص ٩٩/١.

(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ص ٩٩/١.

(١٠) تفسير ابن أبي حاتم (٤٦٢): ص ٩٩/١.

(١١) تفسير الطبري: ٢٤١/١.

قال سعيد بن جبير: " { ما تقدموا }، يعني: ما عملوا من الأعمال من الخير في الدنيا"^(٢).
 عن أبي العالية، في قوله: { تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ }، قال: " تجدوا ثوابه عند الله"^(٣). وروى عن
 الربيع بن أنس نحو ذلك^(٤).

القرآن

{وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
 (١١١)} [البقرة : ١١١]

التفسير:

ادّعى كلُّ من اليهود والنصارى أن الجنة خاصة بطائفته لا يدخلها غيرهم، تلك أو هامهم الفاسدة. قل
 لهم -أيها الرسول-: أحضروا دليلكم على صحة ما تدّعون إن كنتم صادقين في دعوكم.
 سبب النزول :

قال السدي: "نزلت في الذين قالوا: {لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى} أي: قالت
 اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا"^(٥).
 وروى عن أبي العالية قال: "قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا يهودي. وقالت النصارى: لن
 يدخل الجنة إلا نصراني"^(٦). وروى عن مجاهد، والربيع، والسدي نحو ذلك^(٧).
 قوله تعالى: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى} [البقرة: ١١١]، " أي قال
 اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وقال النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا"^(٨).
 قال ابن جريج: "إنما سميت اليهود من أجل أنهم قالوا: { إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ } [الأعراف : ١٥٦]"^(٩).
 عن ابن جريج: " إنما سموا نصارى من أجل أنهم نزلوا أرضا يقال لها "ناصره"^(١٠).
 قال قتادة: " إنما سموا نصارى، لأنهم كانوا بقرية يقال لها ناصرة ينزلها عيسى ابن مريم، فهو اسم
 تسموا به، ولم يؤمروا به"^(١١).

قال قتادة: " تسموا بقرية يقال لها "ناصره"، كان عيسى ابن مريم ينزلها"^(١٢).
 قوله تعالى: {تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ} [البقرة: ١١١]، " أي: تلك خيالاتهم وأحلامهم"^(١٣).
 قال أبو العالية: " أمانى تمنوها على الله بغير حق"^(١٤). وروى عن قتادة^(١٥)، والربيع^(١٦) نحو ذلك.

(١) صفوة التفاسير: ٧٦/١. [بتصرف بسيط].

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٩١): ص ٢٠٦/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٩٢): ص ٢٠٦/١.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٠٦/١.

(٥) العجائب: ٣٥٧/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٩٤): ص ٢٠٧/١.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٠٧/١.

(٨) صفوة التفاسير: ٧٨/١.

(٩) أخرجه الطبري (١٠٩٥): ص ١٤٥/٢.

(١٠) أخرجه الطبري (١٠٩٤): ص ١٤٣/٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري (١٠٩٦): ص ٥٠٨/٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (١٠٩٨): ص ١٤٥/٢.

(١٣) صفوة التفاسير: ٧٨/١.

(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٩٥): ص ٢٠٧/١.

(١٥) انظر: تفسير الطبري (١٨٠٢): ص ٥٠٨/٢.

(١٦) انظر: تفسير الطبري (١٨٠٣): ص ٥٠٨/٢.

و"الأمني" جمع أمنية؛ وهي ما يتمناه الإنسان بدون سبب يصل به إليه، "والعرب تسمى كل ما لا حجة عليه ولا برهان له تمنياً وغروراً، وضلالاً وأحلاماً وإسلام الوجه لله هو الانقياد والإخلاص له في العمل بحيث لا يجعل العبد بينه وبين ربه وسطاء يقربونه إليه زلفى، ويقال فلان ليس على شيء من كذا: أي ليس على شيء منه يعتد به ويؤبه به"^(١).
قوله تعالى: "قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ" [البقرة: ١١١]، "أي قل لهم يا محمد أنتوني بالحجة الساطعة على ما تزعمون"^(٢).

قال أبو العالية: "أي حجتكم"^(٣). وروي عن مجاهد، والسدي، والربيع نحو ذلك^(٤).

وقال قتادة: "بينتكم على ذلك، إن كنتم صادقين"^(٥).

و"البرهان": الحجة^(٦)، أي: الدليل الذي يوقع اليقين، وجمعه براهين، مثل قربان وقرايين، وسلطان وسلاطين^(٧).

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: ١١١]، أي: "إن كنتم صادقين في دعوكم"^(٨).

قال أبو العالية: "إن كنتم صادقين"، بما تقولون إنه كما تقولون"^(٩). وروي عن الربيع بن أنس نحو ذلك^(١٠).

القرآن

{بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (١١٢) [البقرة: ١١٢]

التفسير:

ليس الأمر كما زعموا أنّ الجنة تختص بطائفة دون غيرها، وإنما يدخل الجنة من أخلص لله وحده لا شريك له، وهو متبع للرسول محمد صلى الله عليه وسلم في كل أقواله وأعماله. فمن فعل ذلك فله ثواب عمله عند ربه في الآخرة، وهو دخول الجنة، وهم لا يخافون فيما يستقبلونه من أمر الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حظوظ الدنيا.

في سبب نزول الآية، ذكر الحافظ ابن حجر، رواية السدي^(١١)، التي ذكرناها في سبب نزول الآية السابقة^(١٢)، وعلى قول الحافظ، فلا بد أنهما نزلتا معاً، فتأمل^(١٣).

(١) تفسير المراغي: ١٩٥/١.

(٢) صفوة التفاسير: ٧٨/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٩٦): ص ٢٠٧/١.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٠٧/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٩٧): ص ٢٠٧/١.

(٦) انظر: تهذيب اللغة: ٣٢٢/١، واللسان: ٢٧١/١.

(٧) انظر: تفسير القرطبي: ٧٥ / ٢.

(٨) صفوة التفاسير: ٧٨/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٩٨): ص ٢٠٧/١.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٠٧/١.

(١١) العجائب: ٣٥٧/١، وتفسير ابن أبي حاتم (١٠٩٤): ص ٢٠٧/١، وقد روي عن أبي العالية ومجاهد، والربيع، نحو رواية السدي. انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٩٠٤): ص ٢٠٧/١.

(١٢) وهي [الآية: ١١١]: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

(١٣) انظر: العجائب: ٣٥٧/١.

قوله تعالى: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ} [البقرة: ١١٢]، أي: "ليس الأمر كما زعموا أنّ الجنة تختص بطائفة دون غيرها، وإنما يدخل الجنة مَنْ أخلص لله وحده لا شريك له، وهو متبع للرسول محمد صلى الله عليه وسلم في كل أقواله وأعماله"^(١).
قال أبو العالية: "من أخلص لله والحال أنه محسن"^(٢). وروى عن الربيع^(٣) نحو ذلك.
وعن سعيد بن جبير: "{مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ}، قال: من أسلم أخلص وجهه، قال: دينه"^(٤).
قال السدي: "أخبرهم أن من يدخل الجنة هو من أسلم وجهه لله الآية"^(٥).
قوله تعالى: {وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ١١٢]، أي: "ولا خوف عليهم في الآخرة ولا يعترهم حزنٌ أو كدر، بل هم في نعيمٍ مقيم"^(٦).
عن سعيد بن جبير في قوله: "{وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}، يعني في الآخرة، {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}، يعني: لا يحزنون للموت"^(٧).

القرآن

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [البقرة: ١١٣]

التفسير:

وقالت اليهود: ليست النصارى على شيء من الدين الصحيح، وكذلك قالت النصارى في اليهود وهم يقرؤون التوراة والإنجيل، وفيهما وجوب الإيمان بالأنبياء جميعاً. كذلك قال الذين لا يعلمون من مشركي العرب وغيرهم مثل قولهم، أي قالوا لكل ذي دين: لست على شيء، فالله يفصل بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، ويجازي كلا بعمله.
قوله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ} [البقرة: ١١٣]، "أي كفر اليهود بعيسى وقالوا ليس النصارى على دين صحيح معتدّ به فدينهم باطل"^(٨).
قال قتادة: "بلى قد كانت أوائل النصارى على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا"^(٩).
قوله تعالى: {وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ} [البقرة: ١١٣]، "أي وقال النصارى في اليهود مثل ذلك وكفروا بموسى"^(١٠).
قال الربيع بن أنس: "هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-"^(١١). وروى عن أبي العالية^(١٢)، وفتادة^(١٣)، نحو ذلك.

(١) التفسير الميسر: ١٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٩٩): ص ٢٠٨/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٨١٠): ص ٥١٠/٢، وتفسير ابن أبي حاتم: ٢٠٨/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٠٠): ص ٢٠٨/١.

(٥) أخرجه الطبري (١٨٠٩): ص ٥١٠/٢.

(٦) صفوة التفاسير: ٧٨/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٠١): ص ٢٠٨/١.

(٨) صفوة التفاسير: ٧٦/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٠٤): ص ٢٠٩/١.

(١٠) صفوة التفاسير: ٧٦/١.

(١١) تفسير الطبري: ١٨١٢: ٥١٤/٢، وانظر: العجائب: ٣٥٨/١.

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٠٥): ص ٢٠٩/١.

(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٠٩/١.

قوله تعالى: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ} [البقرة: ١١٣]، "أي كذلك قال مشركو العرب مثل قول أهل الكتاب قالوا: ليس محمد على شيء" (١).

وختلف في تفسير قوله تعالى {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١١٣]، على وجوه (٢): أحدها: أنه عنى بذلك مشركي العرب، لأنهم لا كتاب لهم. وهذا قول السدي (٣)، وهو قول الجمهور (٤).

قال السدي: "فهم العرب، قالوا: ليس محمد على شيء" (٥).

والثاني: أن المراد: اليهود، وكأنه أعيد قولهم، أي: "قالت النصارى مثل قول اليهود قبلهم". قاله الربيع (٦)، وقتادة (٧) وأبو العالية (٨).

قال أبو العالية: "قالت النصارى مثل قول اليهود قبلهم" (٩).

الثالث: أنهم: "أمم كانت قبل اليهود والنصارى، وقبل التوراة والإنجيل". قاله عطاء (١٠).

والقول الأول هو الظاهر، والأشبه بالصواب، "لأن كل اليهود والنصارى دخلوا في الآية، فمن ميز عنهم بقوله: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} يجب أن يكون غيرهم" (١١).

قوله تعالى: {قَالَهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [البقرة: ١١٣]، أي فإله "يحكم بين اليهود والنصارى، ويفصل بينهم بقضائه العادل فيما اختلفوا فيه من أمر الدين" (١٢).

عن الحسن: "حكم الله بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار" (١٣).

القرآن

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة: ١١٤]

التفسير:

لا أحد أظلم من الذين منعوا ذكر الله في المساجد من إقام الصلاة، وتلاوة القرآن، ونحو ذلك، وجدوا في تخريبها بالهدم أو الإغلاق، أو بمنع المؤمنين منها. أولئك الظالمون ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا المساجد إلا على خوف ووجل من العقوبة، لهم بذلك صغار وفضيحة في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب شديد.

اختلفوا في سبب نزول الآية على قولين:

- (١) صفوة التفاسير: ٧٨/١.
- (٢) انظر: تفسير الطبري: ٥١٥/٢-٥١٦، والمحرم الوجيز: ١٩٩/١، ومفاتيح الغيب: ١٠/٤، وتفسير القرطبي: ٧٦/٢.
- (٣) انظر: تفسير الطبري (١٨١٩): ص ٥١٧/٢، وابن أبي حاتم (١١٠٧): ص ٢٠٩/١.
- (٤) انظر: المحرم الوجيز: ١٩٩/١، والبحر المحيط: ٣٠٥/١.
- (٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٠٧): ص ٢٠٩/١، تفسير الطبري (١٨١٩): ص ٥١٧/٢.
- (٦) انظر: تفسير الطبري (١٨١٦): ص ٥١٧/٢.
- (٧) انظر: تفسير الطبري (١٨١٧): ص ٥١٧/٢.
- (٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٠٩): ص ٢٠٩/١.
- (٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٠٩): ص ٢٠٩/١.
- (١٠) انظر: تفسير الطبري (١٨١٨): ص ٥١٧/٢، وابن أبي حاتم (١١٠٨): ص ٢٠٩/١.
- (١١) مفاتيح الغيب: ١٠/٤، وانظر: البحر المحيط: ٣٠٥/١.
- (١٢) صفوة التفاسير: ٧٨/١.
- (١٣) انظر: الكشاف: ١٧٩/١، ومفاتيح الغيب: ١٠/٤.

أحدهما: أنها نزلت في " بختنصر وأصحابه، غزوا اليهود وخرّبوا بيت المقدس، وأعانتهم على ذلك النصراني من أهل الروم" (١). قاله قتادة (٢)، والسدي (٣).

الثاني: وأخرج ابن أبي حاتم " عن مجاهد: {ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها}، النصراني كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه" (٤).

والراجح، أن الله تعالى عنى بقوله {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا} [البقرة: ١١٤]، النصراني. "وذلك أنهم هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس، وأعانوا بختنصر على ذلك، ومنعوا مؤمني بني إسرائيل من الصلاة فيه بعد منصرف بختنصر عنهم إلى بلاده" (٥). والله أعلم.

قوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} [البقرة: ١١٤]، أي: "وأي امرئ أشدّ تعدياً وجراً على الله وخلافاً لأمره، من امرئ منع مساجد الله أن يعبد الله فيها" (٦). و"المساجد": جمع: مسجد، إن أريد به المكان المخصوص المَعْدَّ للصلاة الخمس، وإن أريد به موضع سجود الجبهة، فإنه بالفتح لا غير "مسجد" (٧).

وفي الذي {مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا} [البقرة: ١١٤]، قولان: أحدهما: أنه بُخِتَ نصر وأصحابه من المجوس الذين خربوا بيت المقدس، وهذا قول قتادة (٨). الثاني: أنهم النصراني الذين أعانوا (بُخِتَ نصر) على خرابه، وهذا قول السدي (٩)، واختاره الطبري (١٠).

قوله تعالى: {أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ} [البقرة: ١١٤]، "أي ما ينبغي لأولئك أن يدخلوها إلا وهم في خشية وخضوع، فضلاً عن التجرؤ على تخريبها أو تعطيلها" (١١). وفي تفسير قوله تعالى: {أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ} [البقرة: ١١٤]، قولان: أحدهما: خائفين بأداء الجزية، وهذا قول السدي (١٢).

قال السدي: "فإن الروم ظاهروا بخت نصر على خراب بيت المقدس. فليس في الأرض رومي يدخله اليوم إلا وهو خائف أن تضرب عنقه، أو قد أخيف بأداء الجزية فهو يؤديها" (١٣). والثاني: خائفين من الرعب، إن قدر عليهم عوقبوا، وهذا قول قتادة (١٤). قال قتادة: "وهم اليوم كذلك، لا يوجد نصراني في بيت المقدس إلا نهك ضرباً، وأبلغ إليه في العقوبة" (١٥).

(١) أسباب النول للواحد: ٣٦.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٨٢٣)، و(١٨٢٤): ص ٥٢٠/٢-٥٢١.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٨٢٥): ص ٥٢١/٢.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١١١٢): ص ٢١٠/١، وتفسير الطبري (١٨٢١)، و(١٨٢٢): ص ٥٢٠/٢.

(٥) تفسير الطبري: ٥٢١/٢-٥٢٢.

(٦) تفسير الطبري: ٥١٩/٢.

(٧) انظر: لسان العرب لابن منظور، باب الدال، فصل الميم، ٢٠٤-٢٠٥، وسيل السلام، للصنعاني، ١٧٩/٢.

(٨) انظر: تفسير الطبري (١٨٢٣)، و(١٨٢٤): ص ٥٢٠/٢-٥٢١، وابن أبي حاتم (١١١٣): ص ٢١٠/١.

(٩) انظر: تفسير الطبري (١٨٢٥): ص ٥٢١/٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٥٢١/٢-٥٢٢، ونقله عنه ابن كثير في تفسيره: ٣٨٨/١.

(١١) صفة التفسير: ٧٨/١.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (١٨٢٩): ص ٥٢٣/٢-٥٢٤.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١١١٦): ص ٢١١/١.

(١٤) انظر: تفسير الطبري (١٨٢٧)، و(١٨٢٨): ص ٥٢٣/٢.

(١٥) انظر: تفسير الطبري (١٨٢٧): ص ٥٢٣/٢.

قال قتادة: " وهم النصارى، فلا يدخلون المسجد إلا مسارقة، إن قدر عليهم عوقبوا"^(١).
قال قتادة: " أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين وهم النصارى فلا يدخلون المساجد إلا مسارقة"^(٢).

والصحيح، أن الخزي في الدنيا أعم من ذلك كله، وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة^{(٣)(٤)}.

وفي قوله تعالى: {لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ} [البقرة: ١١٤]، ثلاثة أوجه^(٥) :
أحدهما : أنه قتل الحربي وجزية الذمي. قاله قتادة^(٦).

قال قتادة: " يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون"^(٧).

الثاني : أنه فتح مدائنهم عمورية، وقسطنطينية، ورومية، وهذا قول السدي^(٨) وعكرمة^(٩)، ووائل بن داود^(١٠).

قال السدي: " أما خزيهم في الدنيا فإنه إذا قام المهدي فتح القسطنطينية وقتلهم فذلك الخزي"^(١١).

قلت: إن كل ذلك محتمل، لكون الخزي يجري مجرى القوبة والهوان والإذلال. والله أعلم.

القرآن

{وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)} [البقرة : ١١٥]
التفسير:

والله جهتا شروق الشمس وغروبها وما بينهما، فهو مالك الأرض كلها. فأى جهة توجهتم إليها في الصلاة بأمر الله لكم فإنكم مبتغون وجهه، لم تخرجوا عن ملكه وطاعته. إن الله واسع الرحمة بعباده، عليم بأفعالهم، لا يغيب عنه منها شيء.

اختلفوا في سبب نزول الآية على قولين:

أحدهما: عن قتادة: " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن أخاكم النجاشي قد مات فصلوا عليه. قالوا : نصلي على رجل ليس بمسلم ! قال فنزلت: { وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ } [سورة آل عمران : ١٩٩] ، قال : قتادة ، فقالوا : إنه كان لا يصلي إلى القبلة، فأنزل الله عز وجل : { والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله }"^(١٢).

(١) انظر: تفسير الطبري (١٨٢٨):ص٥٢٣/٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١١١٧):ص٢١١/١.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٩٠/١.

(٤) جاء في مسند الإمام أحمد(١٨١/٤): " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو : "اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة". قال ابن كثير: "حديث حسن".

(٥) انظر: النكت والعيون: ١٧٤/١-١٧٥، والكشاف: ١٨٠/١، ومفاتيح الغيب: ١٢/٣.

(٦) انظر: تفسير الطبري(١٨٣١):ص٥٢٥/٢، وتفسير ابن أبي حاتم(١١١٩):ص٢١١/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(١١١٩):ص٢١١/١.

(٨) انظر: تفسير الطبري(١٨٣٢):ص٥٢٥/٢، وابن أبي حاتم(١١١٨):ص٢١١/١.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢١١/١.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢١١/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(١١١٨):ص٢١١/١.

(١٢) تفسير الطبري(١٨٤٤):ص٥٣٢-٥٣٣.

الثاني: عن مجاهد: " لما نزلت : {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [سورة غافر : ٦٠] ، قالوا : إلى أين ؟ فنزلت: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} [البقرة : ١١٥]"^(١).

قوله تعالى: {وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} [البقرة: ١١٥]، " أي: والله جهتا شروق الشمس وغروبها وما بينهما، فهو مالك الأرض كلها. فأى جهة توجهتم إليها في الصلاة بأمر الله لكم فإنكم مبتغون وجهه، لم تخرجوا عن ملكه وطاعته"^(٢).

قال مجاهد: " حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة"^(٣). وروى عن الحسن نحو ذلك^(٤).

قال قتادة: " هي القبلة ثم نسختها القبلة إلى المسجد الحرام"^(٥).

قال قتادة: " كانوا يصلون نحو بيت المقدس ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة، وبعد ما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا، ثم وجه بعد ذلك نحو الكعبة البيت الحرام. فنسخها الله في آية أخرى: {فَلتُوَلِّينَا قِبْلَةً تَرْضَاهَا} إلى {وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} [البقرة: ١٤٤] ، قال: فنسخت هذه الآية ما كان قبلها من أمر القبلة"^(٦).

وقرأ الحسن : " {فأينما تولوا}، بفتح التاء، من التولي، يريد : فأينما توجهوا القبلة"^(٧).

القرآن

{وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦)} [البقرة : ١١٦]

التفسير:

وقالت اليهود والنصارى والمشركون: اتخذ الله لنفسه ولداً، تنزّه الله -سبحانه- عن هذا القول الباطل، بل كل من في السموات والأرض ملكه وعبده، وهم جميعاً خاضعون له، مسخّرون تحت تدبيره.

قوله تعالى: {وقالوا اتخذ الله ولداً سُبْحَانَهُ} [البقرة: ١١٦]، " أي: وقالت اليهود والنصارى والمشركون: اتخذ الله لنفسه ولداً، تنزّه الله -سبحانه-

عن هذا القول الباطل"^(٨).

قال قتادة: " إذا قالوا عليه البهتان سبج نفسه"^(٩).

عن الضحّاك: {سبحان}، يقول: سبحان عجب"^(١٠).

عن غالب بن عجرد: "حدثني رجل من أهل الشام في مسجد منى قال: بلغني أن الله لما خلق ما فيها من الشجر ولم يكن في الأرض شجرة يأتيها بنوا آدم إلا أصابوا منها منفعة، أو كان لهم فيها منفعة، ولم تنزل الأرض والشجر بذلك حتى تكلم فجرة بني آدم بتلك الكلمة العظيمة بقولهم: اتخذ الله ولداً فلما تكلموا بها اقتشعرت الأرض، وشاك الشجر"^(١١).

قوله تعالى: {بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} [البقرة: ١١٦]، " بل كل من في السموات والأرض ملكه وعبده، وهم جميعاً خاضعون له، مسخّرون تحت تدبيره"^(١).

(١) أخرجه الطبري (١٨٤٧): ص ٥٣٤/٢.

(٢) التفسير الميسر: ١٨.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٢٢): ص ٢١٢/١.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢١٢/١.

(٥) أخرجه الطبري (١٨٣٦): ص ٥٢٩/٢.

(٦) أخرجه الطبري (١٨٣٧): ص ٥٢٩/٢.

(٧) الكشف: ١٨٠/١.

(٨) التفسير الميسر: ١٨.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٢٥): ص ٢١٣/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٢٧): ص ٢١٣/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٢٦): ص ٢١٣/١.

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {كُلُّ لَه قَانِنُون} [البقرة: ١١٦]، على أربعة أقوال^(٢):
أحدها: أي: مطيعون، وهذا قول قتادة^(٣)، والسدي^(٤)، ومجاهد^(٥).
قال مجاهد: "مطيعون: طاعة الكافر في سجوده، سجود ظله وهو كاره"^(٦).
قال مجاهد: "مطيعون: كن إنسانا، فكان. وقال: كن حمارا، فكان"^(٧).
دليله: قوله تعالى {وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ} [الأحزاب: ٣٥]^(٨).
والثاني: أي: مقرون له بالعبودية، وهو قول عكرمة^(٩)، وأبو مالك^(١٠).
والثالث: أي: قائمون، يعني: يوم القيامة، وهذا قول الربيع^(١١).
الرابع: معناه: مخلصون. قاله سعيد^(١٢).

والراجح هو القول الأول، وهو القول عن مجاهد - وهو اختيار الإمام الطبري^(١٣) - يجمع الأقوال كلها، وهو أن القنوت: هو الطاعة والاستكانة إلى الله، وذلك شرعي وقدري، كما قال تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَّهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ} [الرعد: ١٥]، وقد ورد حديث فيه بيان معنى القنوت في القرآن، فروي عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة"^(١٤). والله أعلم.

القرآن

{بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [البقرة: ١١٧] التفسير:

- (١) التفسير الميسر: ١٨.
- (٢) انظر: النكت والعيون: ١٧٨/١، و تفسير الثعلبي: ٢٦٤/١.
- (٣) انظر: تفسير الطبري (١٨٥٠): ص ٥٣٨/٢.
- (٤) انظر: تفسير الطبري (١٨٥٣): ص ٥٣٨/٢.
- (٥) انظر: تفسير الطبري (١٨٥١)، و (١٨٥٢): ص ٥٣٨/٢.
- (٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٢٩): ص ٢١٣/١.
- (٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٣٠): ص ٢١٣/١.
- (٨) تفسير الثعلبي: ٢٦٤/١.
- (٩) انظر: تفسير الطبري (١٨٥٦): ص ٥٣٨/٢.
- (١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢١٤/١.
- (١١) انظر: تفسير الطبري (١٨٥٧): ص ٥٣٩/٢.
- (١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٣٤): ص ٢١٤/١.
- (١٣) قال الإمام الطبري: "إن معنى القنوت في الآية هو: "الطاعة والإقرار لله عز وجل بالعبودية، بشهادة أجسامهم بما فيها من آثار الصنعة، والدلالة على وحدانية الله عز وجل، وأن الله تعالى ذكره بارئها وخالقها. وذلك أن الله جل ثناؤه أكذب الذين زعموا أن الله ولدا بقوله: (بل له ما في السموات والأرض)، ملكا وخالقا، ثم أخير عن جميع ما في السموات والأرض أنها مقرة بدلائنها على ربها وخالقها، وأن الله تعالى بارئها وصانعها. وإن جحد ذلك بعضهم، فألسنتهم مذعنة له بالطاعة، بشهادتها له بآثار الصنعة التي فيها بذلك، وأن المسيح أحدهم، فأنى يكون لله ولدا وهذه صفته؟ وقد زعم بعض من قصرت معرفته عن توجيه الكلام وجهته، أن قوله: (كل له قانتون)، خاصة لأهل الطاعة وليست بعامية. وغير جائز ادعاء خصوص في آية عام ظاهرها، إلا بحجة يجب التسليم لها، لما قد بينا في كتابنا: "كتاب البيان عن أصول الأحكام"، وهذا خبر من الله جل وعز عن أن المسيح - الذي زعمت النصارى أنه ابن الله - مكذبهم هو والسموات والأرض وما فيها، إما باللسان، وإما بالدلالة. وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر عن جميعهم، بطاعتهم إياه، وإقرارهم له بالعبودية، عقيب قوله: (وقالوا اتخذ الله ولدا)، فدل ذلك على صحة ما قلنا". [تفسير الطبري: ٥٣٩/٢ - ٥٤٠].
- (١٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٤٩٢): ص ٦٤٨/٢، والمسند (٧٥/٣).

والله تعالى هو خالق السموات والأرض على غير مثال سبق. وإذا قَدَّرَ أمرًا وأراد كونه فإنما يقول له: "كن" فيكون.

قوله تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [البقرة: ١١٧]، "أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق" (١).

قال أبو العالية: "ابتدع خلقها، ولم يشركه في خلقها أحد" (٢). وروى عن الربيع نحو ذلك (٣). وقال السدي: "ابتدعها فخلقها، ولم يخلق قبلها شيئاً فيمتثل عليه" (٤). وروى عن مجاهد نحو ذلك (٥).

قوله تعالى: {فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [البقرة: ١١٧]، أي: "فإنما يأمره أن يكون موجوداً فيكون" (٦).

عن الضحاك قال: {فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}: وهذا من لغة الأعاجم. وهي بالعبرية: أصنع" (٧).

القرآن

{وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)} [البقرة: ١١٨]

التفسير:

وقال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم لنبي الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم على سبيل العناد: هلا يكلمنا الله مباشرة ليخبرنا أنك رسوله، أو تأتينا معجزة من الله تدل على صدقك. ومثل هذا القول قالته الأمم من قبل لرسولها عناداً ومكابرة؛ بسبب تشابه قلوب السابقين واللاحقين في الكفر والضلال، قد أوضحنا الآيات للذين يصدّقون تصديقاً جازماً؛ لكونهم مؤمنين بالله تعالى، متبعين ما شرعه لهم. اختلف في سبب نزول الآية على قولين:

أحدهما: وأخرج الطبري من طريق ابن أبي نجیح عن مجاهد قال: "هم النصارى، والذين من قبلهم: اليهود" (٨).

الثاني: وعن قتادة قال: "هم كفار العرب" (٩). وروى عن الربيع (١٠)، والسدي (١١) مثل ذلك.

والراجح: أن النصارى هم المعنيون بالآية، لأن ذلك في سياق خبر الله عنهم، وعن افتراءهم عليه وادعائهم له ولداً. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١١٨]، "أي: قال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم" (١٢).

(١) صفوة التفاسير: ٨٠/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٣٥): ص ٢١٤/١.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢١٤/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٣٦): ص ٢١٤/١.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢١٤/١.

(٦) تفسير المراغي: ٢٠٠/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٣٨): ص ٢١٥/١.

(٨) تفسير الطبري (١٨٦٠)، و (١٨٦١): ص ٥٥٠/٢-٥٥١، و (١٨٦٧)، و (١٨٦٨): ص ٥٥٤/٢.

(٩) أخرجه الطبري (١٨٦٣): ص ٥٥١/٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (١٨٦٤): ص ٥٥١/٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري (١٨٦٥): ص ٥٥١/٢-٥٥٢.

(١٢) تفسير السعدي: ٦٤.

واختلف فيمن عني الله بقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١١٨]، على ثلاثة أقوال^(١):
أحدهما: أنهم النصارى. قاله مجاهد^(٢).
الثاني: أنهم مشركو العرب، وهو قول أبي العالية^(٣)، وقتادة^(٤)، والربيع^(٥)، والسدي^(٦).
ويحتمل أن المراد النصارى، ذلك في سياق خبر الله عنهم، وعن افتراءهم عليه وادعائهم له ولدا^(٧).
قوله تعالى: {لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ} [البقرة: ١١٨]، "أي هلا يكلمنا الله بتصديق الرسل"^(٨).
روي عن قتادة في قوله: {لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ}، قال: فهلا يكلمنا الله!^(٩).
قوله تعالى: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ} [البقرة: ١١٨]، "أي مثل هذا القول، قال الذين من قبلهم"^(١٠).
واختلف فيمن عني الله بقوله: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ} [البقرة: ١١٨]، على قولين^(١١):
أحدهما: أنهم اليهود، وهو قول مجاهد^(١٢).
والثاني: أنهم اليهود والنصارى، "لأن الذين لا يعلمون هم العرب"^(١٣)، وهو قول قتادة^(١٤)،
والسدي^(١٥)، والربيع^(١٦).
وقال أبو العالية: "يعني اليهود والنصارى أو غيرهم"^(١٧).
قوله تعالى: {تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ} [البقرة: ١١٨]، "أي تماثلت قلوب هؤلاء وقلوب من قبلهم في العمى
والقسوة والعناد"^(١٨).
وفي قوله تعالى: {تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ} [البقرة: ١١٨]، وجهان^(١٩):
أحدهما: تشابهت قلوب اليهود لقلوب النصارى، وهذا قول مجاهد^(٢٠)، والحسن^(٢١).
قال الحسن: "تشابهت قلوبهم قلوب اليهود والنصارى، قال: وتشابههم أن اليهود قالت:
{ليست النصارى على شيء}، وأن النصارى قالت: {ليست اليهود على شيء}. قال الله: {كذلك قال
الذين من قبلهم مثل قولهم} ... {قد بينا الآيات لقوم يوقنون}"^(٢١).

- (١) تفسير الطبري: ٥٥٤/٢-٥٥٥.
(٢) انظر: تفسير الطبري (١٨٦٠)، و(١٨٦١): ص ٥٥٠/٢-٥٥١.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٤١): ص ٢١٥/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري (١٨٦٣): ص ٥٥١/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري (١٨٦٤): ص ٥٥١/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري (١٨٦٥): ص ٥٥١/٢-٥٥٢.
(٧) تفسير الطبري: ٥٥٢/٢.
(٨) تفسير ابن عثيمين: ٢٢/٢.
(٩) أخرجه الطبري (١٨٦٦): ص ٥٥٣/٢.
(١٠) تفسير ابن عثيمين: ٢٢/٢.
(١١) تفسير الطبري: ٥٥٤/٢-٥٥٥.
(١٢) انظر: تفسير الطبري (١٨٦٧)، و(١٨٦٨): ص ٥٥٤/٢.
(١٣) تفسير الطبري: ٥٤٤/٢.
(١٤) انظر: تفسير الطبري (١٨٧٩): ص ٥٤٤/٢.
(١٥) انظر: تفسير الطبري (١٨٧٠): ص ٥٤٤/٢.
(١٦) انظر: تفسير الطبري (١٨٧١): ص ٥٤٤-٥٤٤/٢.
(١٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٤٤): ص ٢١٦/١.
(١٨) تفسير المراغي: ٢٠٢/١.
(١٩) انظر: النكت والعيون: ١٨٠/١.
(٢٠) انظر: تفسير الطبري (١٨٧٣): ص ٥٥٥/٢.
(٢١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٤٥): ص ٢١٦/١.

والثاني : تشابهت قلوب مشركي العرب لقلوب اليهود والنصارى ، وهذا قول قتادة^(٢)، والربيع^(٣) .
قوله تعالى {قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [البقرة: ١١٨] ، "أي قد وضحنا الأدلة وأقمنا البراهين لقوم يطلبون الحق واليقين"^(٤) .

قال قتادة: "معتبرا لمن اعتبر"^(٥) .
و"الإيقان": "هو العلم الذي لا يخالجه شك"^(٦) .
فكل موقن، فقد عرف من آيات الله الباهرة، وبراهينه الظاهرة، ما حصل له به اليقين،
واندفع عنه كل شك وريب^(٧) .

القرآن

{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)} [البقرة : ١١٩]
التفسير:

إننا أرسلناك -أيها الرسول- بالدين الحق المؤيد بالحجج والمعجزات، فبلغه للناس مع تبشير المؤمنين بخيري الدنيا والآخرة، وتخويف المعاندين بما ينتظرهم من عذاب الله، ولست بعد البلاغ- مسئولا عن كفر من كفر بك؛ فإنهم يدخلون النار يوم القيامة، ولا يخرجون منها.
سبب النزول

قال محمد بن كعب: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليت شعري ما فعل أبوي؟ فنزلت : {وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ}"^(٨) . وروي عن داود بن أبي عاصم^(٩)، مثل ذلك. وهي روايات ضعيفة الإسناد^(١٠) .

قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ} [البقرة: ١١٩] ، أي: إننا أرسلناك يا محمد بالشرعية النيرة والدين القويم"^(١١) .
قال الحسن: "قوله الحق كله"^(١٢) .

القرآن

{وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَنْ أُتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)} [البقرة : ١٢٠]
التفسير:

ولن ترضى عنك -أيها الرسول- اليهود ولا النصارى إلا إذا تركت دينك واتبعته دينهم. قل لهم: إن دين الإسلام هو الدين الصحيح. ولئن اتبعت أهواء هؤلاء بعد الذي جاءك من الوحي ما لك عند الله

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٤٥):ص٢١٦/١ .

(٢) انظر: تفسير الطبري(١٨٨٣):٢/٥٥٥-٥٥٦ .

(٣) انظر: تفسير الطبري(١٨٨٤):٢/٥٥٦ .

(٤) صفوة التفاسير: ٨٠/١ .

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٤٦):ص٢١٦/١ .

(٦) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢/٢٣ .

(٧) تفسير السعدي: ٦٤ .

(٨) أخرجه الطبري(١٨٧٥):ص٥٥٨/٢ . حديث مرسل لا تقوم به حجة. واسناده ضعيف .

(٩) انظر: تفسير الطبري(١٨٧٧):ص٥٥٩/٢ .

(١٠) انظر: التقريب، ابن حجر(١٤٨٣):ص٢٨٦/٢، والعجاب: ١/٤٦٨-٣٧٢، والدر المنثور: ١/٢٧١، وأسباب النزول للواحي: ٣٩-٤٠ .

(١١) صفوة التفاسير: ٨٠/١ .

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٤٧):ص٢١٦/١ .

من وليّ ينفك، ولا نصير ينصرک. هذا موجه إلى الأمة عامة وإن كان خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: {قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى} [البقرة: ١٢٠]، "أي: ليس الهدى ما أنتم عليه؛ بل إن هدى الله وحده هو الهدى"^(١).

عن قتادة: "قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ، قال: خصومة، علمها الله محمداً- صلى الله عليه وسلم- وأصحابه رضي الله عنهم، يخاصمون بها أهل الضلالة"^(٢).

عن قتادة: "قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى، قال: ذكر لنا أن نبي الله- صلى الله عليه وسلم- كان يقول: لا تزال طائفة من أمّتي يقتتلون على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله"^(٣).

قوله تعالى: {وَلَمَّا اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} [البقرة: ١٢٠]، "أي: ولئن اتبعت أهواء هؤلاء بعد الذي جاءك من الوحي"^(٤).

عن محمد بن إسحاق: "بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ، فيما اقتضت عليك من الخبر"^(٥).

وأراد بقوله: {أَهْوَاءَهُمْ}: "ما يدعونه إليه من المهادنة والإمهال"^(٦).

وكان أحمد بن حنبل يكفر من يقول: "القرآن مخلوق، فقيل: بم كفرته؟ فقال: بآيات من كتاب الله تعالى: {وَلَمَّا اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} [البقرة: ١٤٥]، والقرآن من علم الله، فمن زعم أنه مخلوق فقد كفر"^(٧).

القرآن

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [البقرة: ١٢١]

التفسير:

الذين أعطيناهم الكتاب من اليهود والنصارى، يقرؤونه القراءة الصحيحة، ويتبعونه حق الاتباع، ويؤمنون بما جاء فيه من الإيمان برسول الله، ومنهم خاتمهم نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يحرفون ولا يبدلون ما جاء فيه. هؤلاء هم الذين يؤمنون بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وبما أنزل عليه، وأما الذين بدّلوا بعض الكتاب وكنتموا بعضه، فهؤلاء كفار بنبي الله محمد صلى الله عليه وسلم وبما أنزل عليه، ومن يكفر به فأولئك هم أشد الناس خساراً عند الله.

اختلف في سبب نزول الآية على ثلاثة أقوال:

أحدها: قال الضحاك^(٨): "نزلت فيمن آمن من اليهود"^(٩).

الثاني: عن قتادة في قوله: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ}، قال: اليهود والنصارى"^(١٠).

(١) تفسير ابن عثيمين: ٣٠/٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٥٤): ص ٢١٧/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٥٣): ص ٢١٧/١.

(٤) التفسير الميسر: ١٩.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٥٥): ص ٢١٧/١.

(٦) التفسير البسيط: ٢٨٦/٣.

(٧) تفسير القرطبي: ٩٤/٢.

(٨) انظر: أسباب النزول للواحدى: ٤٠.

(٩) أسباب النزول للواحدى: ٤٠.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٥٦): ص ٢١٨/١.

الثالث: وقال قتادة-في رواية-(^١) وعكرمة(^٢): "نزلت في أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم -"(^٣).
 قوله تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ} [البقرة: ١٢١]، "أي: أعطيناهم الكتاب"(^٤).
 واختلف في الذين عناهم الله تعالى بقوله {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ} [البقرة: ١٢١]، على قولين(^٥):
 أحدهما: أنهم المؤمنون برسول الله-صلى الله عليه وسلم-، والكتاب هو القرآن، وهذا قول قتادة(^٦).
 قال قتادة: "منهم أصحاب محمد- صلى الله عليه وسلم- الذين آمنوا بآيات الله، وصدقوا بها"(^٧).
 الثاني: أنهم علماء اليهود، والكتاب هو التوراة، وهذا قول زيد بت أسلم(^٨).
 قال زيد بن أسلم: "يتكلمون به كما أنزل ولا يكتُمونه"(^٩).
 والقول الثاني أولى بالصواب، وذلك، "لأن الآيات قبلها مضت بأخبار أهل الكتابين، وتبديل من بدل
 منهم كتاب الله، وتأولهم إياه على غير تأويله، وادعائهم على الله الأباطيل. ولم يجر لأصحاب
 محمد صلى الله عليه وسلم في الآية التي قبلها ذكر"(^{١٠}).
 قوله تعالى: {يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ} [البقرة: ١٢١]، "أي: يقرءونه قراءة حقة كما أنزل"(^{١١}).
 وفي تفسير قوله تعالى: {يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ} [البقرة: ١٢١]، أقوال:
 أحدها: يتبعونه حق اتباعه، فيحللون حلاله، ويحرمون حرامه، وهذا قول عكرمة(^{١٢})، والسدي(^{١٣})،
 وعطاء(^{١٤})، وأبي رزين(^{١٥})، ومجاهد(^{١٦})، وقيس بن سعد(^{١٧})، والحسن(^{١٨})، وإبراهيم النخعي(^{١٩})،
 وهو قول الجمهور.
 الثاني: أن المعنى: "يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمنتشابهه، يَكُونُ ما أشكل عليهم إلى عالمه. قاله
 حسن البصري"(^{٢٠}).
 والصواب أن المعنى: يتبعونه حق اتباعه، لإجماع الحجة من أهل العلم على أن ذلك تفسيره. والله
 أعلم.

القرآن

- (١) انظر: تفسير الطبري(١٨٧٨):ص٥٦٤/٢، وابن أبي حاتم(١١٦١):ص٢١٨/١.
 (٢) أسباب النزول للواحدى:٤٠.
 (٣) أسباب النزول للواحدى:٤٠.
 (٤) تفسير ابن عثيمين:٣٥/٢.
 (٥) انظر: تفسير الطبري: ٥٦٤-٥٦٥، وتفسير ابن كثير: ٤٠٣/١.
 (٦) انظر: تفسير الطبري(١٨٧٨):ص٥٦٤/٢.
 (٧) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٦١):ص٢١٨/١.
 (٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٦٢):ص٢١٩/١.
 (٩) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٦٢):ص٢١٩/١.
 (١٠) انظر: تفسير الطبري: ٥٦٤-٥٦٥.
 (١١) صفوة التفاسير: ٨١/١.
 (١٢) انظر: تفسير الطبري(١٨٨١):ص٥٦٦/٢.
 (١٣) انظر: تفسير الطبري(١٨٨٤):ص٥٦٦/٢.
 (١٤) انظر: تفسير الطبري(١٨٨٩)، و(١٩٠٠):ص٥٦٧/٢، ٥٦٨.
 (١٥) انظر: تفسير الطبري(١٨٩٠)، و(١٨٩١):ص٥٦٧/٢.
 (١٦) انظر: تفسير الطبري(١٨٩٢)، و(١٨٩٤)، و(١٨٩٥)، و(١٨٩٦)، و(١٨٩٧)، و(١٨٩٨)،
 و(١٨٩٩):ص٥٦٧/٢-٥٦٨.
 (١٧) انظر: تفسير الطبري(١٨٩٣):ص٥٦٨/٢.
 (١٨) انظر: تفسير الطبري(١٩٠١):ص٥٦٩/٢، وابن أبي حاتم(١١٥٨):ص٢١٨/١.
 (١٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢١٨/١.
 (٢٠) تفسير ابن كثير: ٤٠٣/١.

{ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) } [البقرة : ١٢٢]

التفسير:

يا ذرية يعقوب اذكروا نعمي الكثيرة عليكم، وأنني فضلتكم على عالمي زمانكم بكثرة أنبيائكم، وما أنزل عليهم من الكتب.

قوله تعالى: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } [البقرة: ١٢٢]، "أي يا أولاد إسرائيل" (١).

عن عبد الله بن الحارث، قال: (إيل)، الله بالعبرانية" (٢).

قوله تعالى: { اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ } [البقرة: ١٢٢]، أي: "اذكروا ما أنعمت به عليكم وعلى آبائكم" (٣).

عن أبي العالية: { اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ }، قال: " نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل، وأنزل عليهم الكتب" (٤).

عن مجاهد: { اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ }، يعني نعمته التي أنعم على بني إسرائيل، فيما سمي وفيما سوى ذلك: فجر لهم الحجر، وأنزل عليهم المن والسلوى، وأنجاهم من عبودية آل فرعون" (٥).

قوله تعالى: { وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } [البقرة: ١٢٢]، "أي وأعطيتكم الفضل والزيادة على غيركم من الشعوب" (٦).

قال قتادة: " فضلهم على عالم ذلك الزمان" (٧). وروي عن مجاهد (٨)، مثل ذلك.

قال أبو العالية: " بما أعطوا من الملك والرسل والكتب، على عالم من كان في ذلك الزمان، فإن لكل زمان عالما" (٩).

القرآن

{ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ } [البقرة : ١٢٣]

التفسير:

وخافوا أهوال يوم الحساب إذ لا تغني نفس عن نفس شيئاً، ولا يقبل الله منها فدية تنجيتها من العذاب، ولا تنفعها وساطة، ولا أحد ينصرها.

قوله تعالى: { وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا } [البقرة: ١٢٣]، أي: " وخافوا أهوال

يوم الحساب إذ لا تغني نفس عن نفس شيئاً" (١٠).

قال أبو العالية: "يعني: لا تغني نفس مؤمنة عن نفس كافرة من المنفعة شيئاً" (١١).

(١) تفسير ابن عثيمين: ١٤٢/١.

(٢) تفسير الطبري (٧٩٩): ص ٥٥٢/١.

(٣) صفوة التفاسير: ٤٦/١.

(٤) أخرجه الطبري (٨٠٢): ص ٥٥٦/١.

(٥) أخرجه الطبري (٨٠٣): ص ٥٥٦/١.

(٦) تفسير المراغي: ١٠٤/١.

(٧) أخرجه الطبري (٨٦٨): ص ٢٤/٢.

(٨) أخرجه الطبري (٨٧٠): ص ٢٤/٢.

(٩) أخرجه الطبري (٨٦٩): ص ٢٤/٢.

(١٠) التفسير الميسر: ١٩.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٩٩): ص ١٠٤/١.

قال السدي: "أما {تَجْزِي} فتعني"^(١). وكذا فسره سعيد بن جبير وأبو مالك^(٢). وكثير من الآيات القرآنية تؤكد بأن في يوم القيامة لا يغني أحد عن أحد، كما قال: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام: ١٦٤]، وقال: {لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس: ٣٧]، وقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَحْسِنُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا} [لقمان: ٣٣]، فهذه أبلغ المقامات: أن كلا من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئاً^(٣).

قوله تعالى: {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ} [البقرة: ١٢٣]، "أي لا يقبل منها فداء"^(٤).

واختلف في قوله تعالى {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ} [البقرة: ١٢٣] على وجوه:

أحدها: أن "العدل": الفدية، وسميت عدلاً لأن المفدي يعدل بها: أي يساويها"^(٥)، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ} [آل عمران: ٩١] وقال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المائدة: ٣٦] وقال تعالى: {وَإِنْ تَعَدَّلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا} [الأنعام: ٧٠]، وقال: {فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [الحديد: ١٥]. وهذا قول أبي العالية^(٦)، والسدي^(٧)، وقتادة^(٨).

الثاني: أنه الفريضة والناقلة. قاله عمير بن هانئ^(٩)، وهو قول وهذا قول غريب^(١٠).

والقول الأول أظهر في تفسير هذه الآية، لما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم

أنه لما سئل ما العدل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "العدل الفدية"^(١١).

قوله تعالى: {وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ} [البقرة: ١٢٣]، "أي لا يقبل من نفس عن نفس شفاعه"^(١٢).

قال الحسن: "يوم القيامة يوم لا ينفع فيه شفاعه شافع أحدا"^(١٣). قال ابن أبي حاتم: "يعني: من الكفار"^(١٤).

و"الشفاعة" هي التوسط للغير بجلب منفعة، أو دفع مضرة؛ فشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة^(١٥)، من جلب المنفعة؛ وشفاعته فيمن استحق النار ألا يدخلها^(١٦)،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٩٨): ص ١٠٤/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم: ص ١٠٤/١.

(٣) تفسير الطبري: ٥٧٣/٢.

(٤) صفوة التفاسير: ٤٨/١.

(٥) البحر المحيط: ١٦١/١.

(٦) انظر: تفسير الطبري (٨٨١): ص ٣٤/٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري (٨٨٢): ص ٣٤/٢.

(٨) انظر: تفسير الطبري (٨٨٣): ص ٣٤/٢.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٠٣): ص ١٠٥/١.

(١٠) ينظر: تفسير ابن كثير ١: ٢٥٦، والسيوطي ١: ٦٨.

(١١) ضعيف، ولم أجده عن غير الطبري، نقله عنه ابن كثير ١: ٢٥٧، والسيوطي ١: ٦٨.

(١٢) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٠٣/١.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٠٠): ص ١٠٥/١.

(١٤) تفسير ابن أبي حاتم: ١٠٥/١.

(١٥) راجع مسلماً ص ٧١٥، كتاب الإيمان، باب ٨٥: في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا أول الناس يشفع في الجنة..."، حديث رقم ٤٨٣ [٣٣٠] ١٩٦؛ وباب ٨٤: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم ٤٨٢ [٣٢٩] ١٩٥؛ وفيه: يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة...

(١٦) قال شيخنا محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في شرح العقيدة الواسطية: فهذه قد تستفاد من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم للمؤمنين بالمغفرة والرحمة على جنائزهم، فإنه من لازم ذلك أن لا يدخل النار كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: "اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين..." (١٧٧/٢ - ١٧٨)، وذكر الحافظ ابن حجر أن دليل هذا قوله صلى الله عليه وسلم في حديث حذيفة عند مسلم: "ونبيكم على الصراط يقول: رب سلم، رب سلم"

وفيمن دخلها أن يخرج منها^(٤)، من دفع المضرة؛ فيوم القيامة لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ولا يقبل من نفس عن نفس شفاعة أبداً^(١).
 قوله تعالى: {وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} [البقرة: ١٢٣]، "أي: لا يدفع عنهم أحد عذاب الله ولا يجيرهم من سطوة عقابه"^(٢).
 عن الحسن: {وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ}، فقال: يوم القيامة^(٣).

القرآن

{وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)} [البقرة: ١٢٤]

التفسير:

واذكر-أيها النبي- حين اختبر الله إبراهيم بما شرع له من تكاليف، فأدّاها وقام بها خير قيام. قال الله له: إني جاعلك قدوة للناس. قال إبراهيم: ربّ اجعل بعض نسلي أئمة فضلاً منك، فأجابه الله سبحانه أنه لا تحصل للظالمين الإمامة في الدين.
 قوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ} [البقرة: ١٢٤]، "أي: واذكر يا محمد حين اختبر الله عبده إبراهيم، بجملة من التكاليف الشرعية"^(٤).
 ثم اختلف أهل التفسير في صفة (الكلمات) التي ابتلى الله بها إبراهيم نبيه وخليفه صلوات الله عليه على أقوال:

أحدها: إنها خصال من سنن الإسلام .

قال قتادة: "ابتلاه بالختان، وحلق العانة، وغسل القبل والدبر، والسواك، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط"^(٥).

وقال أبو الخلد: "ابتلى إبراهيم بعشرة أشياء، هن في الإنسان: سنة: الاستنشاق، وقص الشارب، والسواك، ونتف الإبط، وقلم الأظفار، وغسل البراجم، والختان، وحلق العانة، وغسل الدبر والفرج"^(٦).

الثاني: أنها قوله: {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}، في مناسك الحج. قاله أبو صالح^(٧)، وروي عن مجاهد^(٨)، وعكرمة^(٩)، والربيع^(١٠) نحو ذلك.

(فتح الباري ٤٢٨/١١)؛ مسلم ص ٧١٥، كتاب الإيمان، باب ٨٤: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم ٤٨٢ [٣٢٩] ١٩٥.

(٤) راجع البخاري ص ٦٢٥ - ٦٢٦، كتاب التوحيد، باب ٣٦: كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، حديث رقم ٧٥١٠؛ ومسلماً ص ٧١٤، كتاب الإيمان، باب ٨٤: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم ٤٧٩ [٣٢٦] ١٩٣.

(١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٠٣/١.

(٢) صفوة التفاسير: ٨١/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٥٠٤): ص ١٠٥/١.

(٤) صفوة التفاسير: ٨٣/١. [بتصرف بسيط].

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٩١٢): ص ٩/٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري (١٩١٣): ص ٩/٢-١٠.

(٧) انظر: تفسير الطبري (١٩١٥)، و(١٩١٦): ص ١٠/٢-١١.

(٨) انظر: تفسير الطبري (١٩١٧)، و(١٩١٨)، و(١٩٢٠)، و(١٩٢١): ص ١١/٢.

(٩) انظر: تفسير الطبري (١٩١٩)، و(١٩٢٠): ص ١١/٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (١٩٢٢): ص ١١/٢-١٢.

قال مجاهد: "ابتلي بالآيات التي بعدها: {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَبَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة: ١٢٤]"^(١).

قال مجاهد: "قال الله لإبراهيم: إني مبتليك بأمر فما هو؟ قال: تجعلني للناس إماماً! قال: نعم. قال: ومن ذريتي. قال: لا ينال عهدي الظالمين. قال: تجعل البيت مثابة للناس. قال: نعم. [قال]: وأمناء. قال: نعم. [قال]: وتجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك. قال: نعم. [قال]: وترينا مناسكنا وتتوب علينا. قال: نعم. قال: وتجعل هذا البلد آمناً. قال: نعم. قال: وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم. قال: نعم"^(٢).

الثالث: أنها أمور ، منهن الختان. قاله الشعبي^(٣).

الرابع: أنها الخلال الست : الكوكب ، والقمر ، والشمس ، والنار ، والهجرة ، والختان ، التي ابتلي بهن فصبر عليهن. وهذا قول الحسن^(٤)،

عن أبي رجاء ، قال : قلت للحسن : " وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فآتمهن " . قال : ابتلاه بالكوكب ، فرضي عنه ؛ وابتلاه بالقمر ، فرضي عنه ؛ وابتلاه بالشمس ، فرضي عنه ؛ وابتلاه بالنار ، فرضي عنه ؛ وابتلاه بالختان"^(٥).

الخامس: أنها قوله: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ} [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩]. قاله السدي^(٦).

والصواب: أن هذه الكلمات التي هي محل الابتلاء والاختبار، أطلقها الله سبحانه وتعالى؛ فهي كلمات كونية؛ وشرعية؛ أو جامعة بينهما؛ واختلف المفسرون في هذه الكلمات؛ وأصح الأقوال فيها أن كل ما أمره به شرعاً، أو قضاه عليه قدراً، فهو كلمات؛ فمن ذلك أنه ابتلي بالأمر بذبح ابنه، فامتثل؛ لكن الله سبحانه وتعالى رفع ذلك عنه حين استسلم لربه؛ وهذا من الكلمات الشرعية؛ وهذا امتحان من أعظم الامتحانات؛ ومن ذلك أن الله امتحنه بأن أوقدت له النار، وألقي فيها؛ وهذا من الكلمات الكونية؛ وصبر، واحتساب؛ فأجابه الله منها، وقال تعالى: {يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم} [الأنبياء: ٦٩] ؛ وكل ما قدره الله عليه مما يحتاج إلى صبر، ومصابرة، أو أمره به فهو داخل في قوله تعالى: { بكلمات }.

قوله تعالى: {فَأْتَمَّهُنَّ} [البقرة: ١٢٤]، أي: "فآتم إبراهيم الكلمات"^(٧).

وذكروا في قوله تعالى: {فَأْتَمَّهُنَّ} [البقرة: ١٢٤]، وجوها:

أحدها: أن معناه: عمل بهن. قاله أبو العالية^(٨).

الثاني: وفي بهن. قاله الربيع^(٩).

الثالث: أداهن. قاله قتادة^(١٠).

(١) أخرجه الطبري (١٩٢١): ص ١١/٢.

(٢) أخرجه الطبري (١٩١٧): ص ١١/٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٩٣٠)، و(١٩٣١)، و(١٩٣٢): ص ١٣/٣-١٤.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٩٣٣)، و(١٩٣٤)، و(١٩٣٥)، و(١٩٣٦): ص ١٤/٢.

(٥) أخرجه الطبري (١٩٣٣): ص ١٤/٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري (١٩٣٧): ص ١٤/٢-١٥.

(٧) تفسير الطبري: ١٧/٣.

(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٧٣): ص ٢٢٢/١.

(٩) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٦٩/١.

(١٠) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٦٩/١.

قوله تعالى: {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} [البقرة: ١٢٤]، يعني: إني مصيرك للناس إماماً، يؤتم به ويقتدى به^(١).

قال أبو العالية: "فجعله الله إماماً يؤتم ويقتدى به"^(٢). وروي عن الحسن وعطاء الخراساني وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك^(٣).

قوله تعالى: {قَالَ وَمَنْ ذُرِّيَّتِي} [البقرة: ١٢٤]، "أي: واجعل من ذريتي إماماً يقتدى به"^(٤). قال أبو العالية: "فقال إبراهيم: يا رب ومن ذريتي يقول: اجعل من ذريتي، من يؤتم به ويقتدى به"^(٥).

قوله تعالى: {قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة: ١٢٤]، يعني: "لا يصيب تعهدي لك بهذا الظالمين"^(٦).

قال أبو العالية: "يقول: ليس كل ذريتك يا إبراهيم على حق"^(٧). قال عطاء: "فأبى أن يجعل ظالماً إماماً"^(٨). وروي عن مقاتل نحو ذلك^(٩). قال مجاهد: "قال: أما من كان منهم صالحاً فسأجعله إماماً يقتدى به. وأما من كان منهم ظالماً فلا، ولا نعمة عين"^(١٠).

وفي قوله تعالى: {قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة: ١٢٤]، وجوه^(١١):
أحدها: المراد: إنه سيكون في ذريتك ظالمون. وهذا قول مجاهد^(١٢).
الثاني: المعنى: لا أجعل إماماً ظالماً يقتدى به. وهذا قول مجاهد -في رواية ابن أبي نجيح عنه-^(١٣).
الثالث: أن المراد: لا يكون إمام مشرك. قاله سعيد بن جبير^(١٤).

والصواب في تفسير قوله تعالى {قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} أن يقال: لا يصيب تعهدي لك بهذا، الظالمين؛ و {عهدي} فاعل؛ و {الظالمين} مفعول به؛ أي أجعل من ذريتك إماماً؛ ولكن الظالم من ذريتك لا يدخل في ذلك. والله تعالى أعلم.
واختلفوا في تفسير (العهد) في قوله تعالى: {قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة: ١٢٤]، على أقوال:
أحدها: أنه النبوة، وهو قول السدي^(١٥).
الثاني: أنه الإمامة، وهو قول مجاهد^(١٦)، وعكرمة^(١٧).

(١) تفسير الطبري: ١٨/٣.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٧٤): ص ٢٢٢/١.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٢٢/١.

(٤) تفسير النسفي: ٨٥/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٧٧): ص ٢٢٢/١.

(٦) تفسير ابن كثير: ٤١٠/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٧٧): ص ٢٢٢/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٧٨): ص ٢٢٣/١.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٢٣/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٧٩): ص ٢٢٣/١.

(١١) انظر: تفسير ابن كثير: ٤١٠/١.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (١٩٦٢): ص ٢٤/٢.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (١٩٥١): ص ٢٤/٢.

(١٤) انظر: تفسير ابن كثير: ٤١٠/١.

(١٥) انظر: تفسير الطبري (١٩٤٥): ص ٢٠/٢، وابن أبي حاتم (١١٨٢): ص ٢٢٣/١.

(١٦) انظر: تفسير الطبري (١٩٤٦)، و (١٩٤٧)، و (١٩٤٩)، و (١٩٥٠)، و (١٩٥١)، و (١٩٥٣): ص ٢٠/٢-٢٢.

(١٧) انظر: تفسير الطبري (١٩٤٨): ص ٢١/٢.

الثالث : أنه الإيمان، وهو قول قتادة^(١)، وإبراهيم^(٢).
الرابع : أنه الرحمة، وهو قول عطاء^(٣).
الخامس : أنه دين الله، وهو قول أبي العالية^(٤)، والربيع^(٥)، والضحاك^(٦).
السادس: أنه طاعته. قاله الضحاك^(٧).
وأظهر هذه الأقوال قول من قال بأن العهد: الإمامة؛ لأنها المصدر بها في الآية، ولكنها إمامة خاصة وهي الإمامة في الدين لا في الدنيا كما يدل عليه السياق، والواقع بل الأظهر: أنها أخص من ذلك وهي النبوة فإن الأنبياء بعد إبراهيم-عليه السلام-كانوا من ذريته^(٨). والله أعلم.
وفي المراد بقوله: {الظالمين} [البقرة: ١٢٤]، وجوه:
أحدها: أنهم المشركون. قاله سعيد بن جبير^(٩)، والسدي^(١٠).
قال سعيد بن جبير: "الظالم في هذه الآية المشرك لا يكون إمام ظالماً. يقول: لا يكون إمام مشركاً"^(١١).
الثاني: أنهم أعداء الله. قاله الضحاك^(١٢).
قال الضحاك: "لا ينال طاعتي عدوي ولا أنحلها إلا وليا لي"^(١٣).
الثالث: أنهم العصاة. كما في ظاهر التنزيل. وهذا قول مجاهد^(١٤)، وعطاء^(١٥).
قال قتادة: "لا ينال عهد الله في الآخرة الظالمين، فأما في الدنيا فقد ناله الظالم، فأمن به، وأكل، وعاش"^(١٦).
قال قتادة: "إذا كان يوم القيامة قضى الله عهده وكرامته على أوليائه"^(١٧). وروى عن الحسن، وعكرمة نحو ذلك^(١٨).

القرآن

{وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)} [البقرة : ١٢٥]
التفسير:

- (١) انظر: تفسير الطبري (١٩٥٧)، و(١٩٥٨): ص ٢٢/٢-٢٣.
- (٢) انظر: تفسير الطبري (١٩٥٩): ص ٢٣/٢.
- (٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٨١): ص ٢٢٣/١.
- (٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٨٠): ص ٢٢٣/١.
- (٥) انظر: تفسير الطبري (١٩٦١): ص ٢٣/٢.
- (٦) انظر: تفسير الطبري (١٩٦٠): ص ٢٣/٢.
- (٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٨٣): ص ٢٢٣/١.
- (٨) انظر: البحر المحيط : ٣٧٧/١، مفاتيح الغيب: ٤٥/٤، محاسن التأويل: ٢٤٥/٢.
- (٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٨٤): ص ٢٢٤/١.
- (١٠) انظر: زاد المسير: ١٤١/١.
- (١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٨٤): ص ٢٢٤/١.
- (١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٨٥): ص ٢٢٤/١.
- (١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٨٥): ص ٢٢٤/١.
- (١٤) انظر: تفسير الطبري (١٩٤٦)، و(١٩٤٧)، و(١٩٤٩)، و(١٩٥٠)، و(١٩٥١)، و(١٩٥٣): ص ٢٠/٢-٢٢.
- (١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٨١): ص ٢٢٣/١، و(١١٨٦): ص ٢٢٤/١.
- (١٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٨٧): ص ٢٢٤/١.
- (١٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٨٨): ص ٢٢٤/١.
- (١٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٢٤/١.

واذكر -أيها النبي- حين جعلنا الكعبة مرجعاً للناس، يأتونه، ثم يرجعون إلى أهليهم، ثم يعودون إليه، ومجمعاً لهم في الحج والعمرة والطواف والصلاة، وأمناً لهم، لا يُغير عليهم عدو فيه. وقلنا: اتخذوا من مقام إبراهيم مكاناً للصلاة فيه، وهو الحجر الذي وقف عليه إبراهيم عند بنائه الكعبة. وأوحينا إلى إبراهيم وابنه إسماعيل: أن طهراً بيتي من كل رجس وذنس؛ للمتعبدين فيه بالطواف حول الكعبة، أو الاعتكاف في المسجد، والصلاة فيه.

وفي سبب نزول الآية، وجهان:

أحدهما: أخرج ابن أبي حاتم بسنده الصحيح عن جعفر بن محمد عن أبيه، سمع جابراً يحدث عن حجة النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: "لما طاف النبي- صلى الله عليه وسلم قال له عمر: هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: نعم قال: أفلا تتخذة مصلى. فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾^(١).

الثاني: حكى الثعلبي عن ابن كيسان قال: "ذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالمقام ومعه عمر فقال: يا رسول الله أليس هذا مقام إبراهيم؟ قال: بلى قال: أفلا نتخذة مصلى؟ قال: لم أؤمر بذلك، فلم تغب الشمس من يومهم حتى نزلت"^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، "أي: اذكر يا محمد للناس إذ صيرنا الكعبة مرجعاً يثوب الناس إليه، ويرجعون إليه من كل أقطار الدنيا"^(٣). قال زيد بن أسلم: "وهي الكعبة"^(٤).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، ثلاثة أوجه:

أحدها: مجمعاً، لاجتماع الناس عليه في الحج والعمرة. وهذا قول سعيد بن جبير^(٥)، وروي عن عكرمة وعطاء الخراساني^(٦)، وقتادة^(٧)، نحو ذلك.

الثاني: مرجعاً، من قولهم قد ثابت العلة إذا رجعت، ومنه قيل: ثاب إليه عقله، إذا رجع إليه بعد عزوبه عنه. وهذا قول أبي العالية^(٨)، وسعيد بن جبير في إحدى روايته^(٩)، وعطاء^(١٠) ومجاهد^(١١)، والحسن^(١٢)، وعطية^(١٣)، والربيع بن أنس^(١٤)، والسدي^(١٥)، والضحاك^(١٦)، وعبد بن أبي لبابة^(١٧). ومن ذلك قول ورقة بن نوفل في صفة الحرم^(١):

-
- (١) تفسير ابن أبي حاتم (١١٩٦): ص ٢٢٦/١.
 - (٢) العجائب في بيان الأسباب: ٣٧٨/١، وانظر: اللباب: ٢٩.
 - (٣) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٤٤/٢. [بتصرف بسيط].
 - (٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٨٩): ص ٢٢٤/١.
 - (٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١١٩٢): ص ٢٢٥/١.
 - (٦) تنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٢٥/١.
 - (٧) انظر: تفسير الطبري (١٩٧٥): ص ٢٨/٢.
 - (٨) تنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٢٥/١.
 - (٩) انظر: تفسير الطبري (١٩٧٢): ص ٢٨/٢.
 - (١٠) انظر: تفسير الطبري (١٩٦٩): ص ٢٧/٢.
 - (١١) انظر: تفسير الطبري (١٩٦٣)، و (١٩٦٤)، و (١٩٦٥): ص ٢٦/٢-٢٧.
 - (١٢) تنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٢٥/١.
 - (١٣) انظر: تفسير الطبري (١٩٧٠): ص ٢٧/٢-٢٨.
 - (١٤) انظر: تفسير الطبري (١٩٧٧): ص ٢٩/٢.
 - (١٥) انظر: تفسير الطبري (١٩٦٦): ص ٢٧/٢.
 - (١٦) تنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٢٥/١.
 - (١٧) انظر: تفسير الطبري (١٩٦٨): ص ٢٧/٢.

مثابا لأفناء القبائل كلها ... تخب إليه اليعملات الطلائح
وأكثر المفسرين قد فسروا لفظ {مَثَابَةٌ} بما وضع له لغة، فقالوا معناه: مرجعا^(٢).
وكل هذه الأقوال على أن مثابة: من تاب يثوب إذا رجع وهو الأظهر، وفسرها عطاء على
أنها من الثواب: الذي هو الجزاء، والمعنى: على أن البيت موضع ثواب يثاب فيه الناس بحجهم
واعتمارهم فيه^(٣).

قوله تعالى: {وَأَمَّا} [البقرة: ١٢٥]، "أي وجعلناه أمناً للناس"^(٤).
قال الربيع: "أما من العدو أن يحمل فيه السلاح ، وقد كان في الجاهلية يتخطف الناس من
حولهم وهم آمنون لا يُسَبَّون"^(٥).
وعن السدي : أما {أما}، فمن دخله كان أمناً^(٦).
وقال مجاهد: "تحريمه ، لا يخاف فيه من دخله"^(٧). وروي عن ابن عباس نحو ذلك^(٨).
قوله تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [البقرة: ١٢٥]، "أي وقلنا لهم اتخذوا من مقام
إبراهيم مصلى"^(٩).
وختلف في تفسير قوله تعالى: {مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ} [البقرة: ١٢٥]، على أقوال^(١٠):

(١) من أبيات طويلة لورقة بن نوفل في البداية والنهاية لابن كثير ٢ : ٢٩٧ ، والبيت في تفسير أبي حيان ١ : ٣٨٠ ،
بهذه الرواية ، وقبل البيت في ذكر أئينا إبراهيم عليه السلام :
فمتبع دين الذي أسس البنا وكان له فضل على الناس راجح
وأسس بنيانا بمكة ثابتا تلالاً فيه بالظلام المصباح

مثابا لأفناء
بنصب " مثابا " بيد أن الشافعي روى هذا البيت في الأم ٢ : ١٢٠ لورقة بن نوفل ، وعجزه . تخب إليه اليعملات
الذوامل
وكذلك جاء في القرطبي ٢ : ١١٠ :

مثابا لأفناء القبائل كلها تخب إليها اليعملات الذوامل
وعدها أبو حيان رواية في البيت ، وبهذه الرواية ذكره صاحب اللسان في (ثوب) منسوباً لأبي طالب ، وفي (ذمل)
غير منسوب . والظاهر أن الشافعي رحمه الله أخطأ في رواية البيت . وأخطأ صاحب اللسان في نسبته ، اشتبه عليه
بشعر أبي طالب في قصيدته المشهورة .

وأفناء القبائل : أخلاطهم ونزاعهم من هاهنا وهاهنا . وخبث الدابة تخب خبياً : وهو ضرب سريع من العدو .
واليعملات جمع يعملة وهي الناقة السريعة المطبوعة على العمل ، اشتق اسمها من العمل ، والعمل الإسراع والعجلة
والطلائع جمع طليح . ناقة طليح أسفار : جهدها السير وهزلها ، فهي ضامرة هزلاً . يعني الإبل أنضأها أصحابها
في إسراعهم إلى حج البيت . وأما " الذوامل " في الرواية الأخرى ، فهو جمع ذاملة . ناقة ذمول وذاملة : وهي التي
تسير سيرا لينا سريعاً .

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٣٦٨/١-٣٦٩، جامع البيان للطبري: ٢٦٦/٣-٢٧، تفسير القرآن العظيم لابن كثير:
٢١٠/١-٢١١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١١٠/٢، مجاز القرآن لأبي عبيدة: ٥٤/١، تفسير غريب القرآن لابن
قتيبة: ٦٣، فتح القدير للشوكاني: ٢٠٤/١، أنوار التنزيل للبيضاوي: ٨١١/١، الكشاف للزمخشري: ٣٠٩/١،
محاسن التأويل للقاسمي: ٢٤٧/٢، وغيرها.

(٣) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٣٥١/١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١١٠/٢، البحر المحيط لأبي حيان:
٣٨٠/١، الدر المصون للسمين: ٣٦٤/١، روح المعاني للالوسي: ٣٧٨/١.

(٤) تفسير ابن عثيمين: ٤٤/٢ .

(٥) أخرجه الطبري (١٩٨٢): ص ٢٩/٢ .

(٦) أخرجه الطبري (١٩٨٠): ص ٢٩/٢ .

(٧) أخرجه الطبري (١٩٨١): ص ٢٩/٢ .

(٨) انظر: تفسير الطبري (١٩٨٣): ص ٣٠/٢ .

(٩) تفسير المراغي: ٢١١/١ .

أحدها: أن {مقام إبراهيم}، هو الحج كله. وهو قول ابن عباس^(٢)، ومجاهد^(٣)، وعطاء^(٤)، والشعبي- في رواية^(٥).

الثاني: أنه عرفة والمزدلفة والجمار. وهو قول عطاء بن أبي رباح^(٦)، ومجاهد^(٧)، والشعبي^(٨).
الثالث: أنه الحرم كله^(٩). وهو قول مجاهد^(١٠)، وإبراهيم النخعي^(١١)، وكذا رواه الكلبي عن أبي صالح^(١٢).

الرابع: إن المراد بالمقام إنما هو (الحجر) الذي كان إبراهيم عليه السلام، يقوم عليه لبناء الكعبة، وهذا قول سعيد بن جبير^(١٣).

ثم هؤلاء ذكروا وجهين^(١٤):

أحدهما: هو الحجر الذي قام عليه حين رفع بناء البيت^(١٥)، وهو قول جابر وقتادة وسعيد بن إذ لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل، عليه السلام، به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، كلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى، يطوف حول الكعبة، وهو واقف عليه، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها هكذا، حتى تم جدارات الكعبة، بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت، وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب في جاهليتها؛ ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية^(١٦):

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣٣/٢-٣٧، وتفسير ابن أبي حاتم: ٣٧١/١ وزاد المسير لابن الجوزي: ١٤١/١، النكت والعيون للماوردي: ١٨٧/١، وتفسير ابن كثير: ٤١٣-٤١٨.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٩٩٠): ص ٣٣/٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٩٩١): ص ٣٣/٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٩٩٢): ص ٣٣/٢.

(٥) انظر: العيون للماوردي: ١٨٧/١.

(٦) انظر: تفسير الطبري (١٩٩٣): ص ٣٣/٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري (١٩٩٤): ص ٣٣/٢.

(٨) انظر: تفسير الطبري (١٩٩٦): ص ٣٣/٢.

(٩) الكشف والبيان للثعلبي: ١٤٨/١ ب، البسيط للواحدي: ٨٦/١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١١٣/٢، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٨١/١.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (١٩٩٨): ص ٣٤/٢.

(١١) هو: أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي، ثقة فقيه، ورع عابد، كان يرسل ويدلس، توفي عام: ٩٦ هـ. انظر: تهذيب الكمال للمزي: ٢٣٣/٢، المراسيل لابن أبي حاتم: ٨، جامع التحصيل للعلائي: ١٦٨، تهذيب التهذيب لابن حجر: ١٧٧/١.

(١٢) هو: أبو صالح باذان، ويقال: باذام مولئ أم هانئ، تابعي صاحب تفسير، متكلم فيه: وثقه العجلي، وقال ابن معين: لا بأس به، وأبى رد حديثه يحمى القطن، وروى عنه شعبة وروايته عنه تعديل كما يقول ابن تيمية. وترك حديثه ابن مهدي والجوزجاني وأبو حاتم والنسائي، واتهمه الأزدي بالكذب، وقال الحافظ: ضعيف يدلس. انظر: الضعفاء للنسائي: ٢٣، الضعفاء للبخاري: ٢٣، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم: ٤٣٧/١، مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٣٥٠/٢٤، تهذيب الكمال للمزي: ٦/٤، تهذيب التهذيب لابن حجر: ٤١٦/١.

(١٣) تفسير ابن أبي حاتم (١١٩٩): ص ٢٢٦/١.

(١٤) انظر: تفسير الرازي: ٤٥/٤-٤٦.

(١٥) هو قول ابن عباس في رواية سعيد ابن جبير عنه في البخاري-فتح: ٤٥٦/٦-٤٥٨ رقم: ٣٣٦٤، وقول جابر وقتادة وسعيد بن جبير. انظر: زاد المسير لابن الجوزي: ١٤٢/١، مفاتيح الغيب للرازي: ٥٣/٤، تفسير ابن أبي حاتم: ٣٧٣/١، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٨١/١، جامع البيان للطبري: ٣٥-٣٤/٣.

(١٦) انظر: زاد المسير لابن الجوزي: ١٤٢/١، مفاتيح الغيب للرازي: ٥٣/٤، تفسير ابن أبي حاتم: ٢٢٦-٢٢٧، والبحر المحيط لأبي حيان: ٣٨١/١، وتفسير الطبري: ٣٥-٣٤/٣.

(١٧) البيت في السيرة النبوية لابن هشام (٢٧٣/١). وانظر: تفسير ابن كثير: ٤١٧/١.

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضاً^(١).
 وثانيهما: وقيل: بل هو الذي وضعته زوج إسماعيل لإبراهيم حيث غسلت رأسه وهو راكب. وهو قول السدي^(٢)، وحكاها الرازي في تفسيره عن الحسن البصري وقتادة والربيع بن أنس^(٣).
 وقال ابن جبير ناقداً هذا القول: "ولو غسل رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه"^(٤).
 القول الخامس: أن {مقام إبراهيم}، هو مقامه الذي هو في المسجد الحرام. قاله قتادة^(٥)، والربيع^(٦)، والسدي^(٧).

والراجح: أن المقام هو (الحجر)^(٨) لما يعضده هذا القول من الأخبار، إذ ثبت بالأخبار أنه قام على هذا الحجر عند المغتسل ولم يثبت قيامه على غيره فحمل هذا اللفظ وعليه أكثر أهل العلم. وقد ثبت دليله عند مسلم^(٩)^(١٠) من حديث جابر^(١١)، وعند البخاري أيضاً^(١).

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٤١٧/١-٤١٨).

قال الشيخ ابن عثيمين: "اختلف المؤرخون: هل كان الحجر الذي كان يرفع عليه إبراهيم (ص) بناءً الكعبة لاصقاً بالكعبة، أو كان منفصلاً عنها في مكانه الآن؛ فأكثر المؤرخين على أنه كان ملصقاً بالكعبة، وأن الذي أخره إلى هذا الموضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وبناءً على ذلك يكون للخليفة حق النظر في إزاحته عن مكانه إذا رأى في ذلك المصلحة؛ أما إذا قلنا: إن هذا مكانه على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فالظاهر أنه لا يجوز أن يغير؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أقره؛ وإذا أقره النبي صلى الله عليه وسلم فليس لنا أن نؤخره عنه؛ وقد كتب أحد طلبه العلم رسالة في هذا الموضوع، وقرطها الشيخ عبد العزيز بن باز، ورأى أنه يجوز إزاحته عن مكانه من أجل المصلحة والتوسعة بناءً على المشهور عند المؤرخين أنه كان لاصقاً بالكعبة، ثم أحر؛ وهذا لا شك أنه لو أحر عن مكانه فيه دفع مفسدة وهي مفسدة هؤلاء الذين يتجمعون عنده في المواسم؛ وفيه نوع مفسدة وهي أنه يبعد عن الطائفتين في غير أيام المواسم؛ فهذه المصالح متعارضة هنا: هل الأولى بفاؤه في مكانه؛ أو الأولى بتأخيره عن مكانه؛ فإذا كانت المصالح متكافئة فالأولى أن يبقى ما كان على ما كان، وحذراً من التشويش واختلاف الآراء في هذه المسألة؛ ومسألة تضييق المصلين على الطائفتين هذا يمكن زواله بالتوعية إذا أفادت؛ أو بالمنع بالقهر إذا لم تفد؛ وفي ظني أنها قلت في السنوات الأخيرة بعض الشيء؛ لأن الناس صار عندهم وعي". (انظر: تفسيره: ٢٢/٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٠٠٢): ص ٣٥-٣٦، وتفسير القرطبي: ١١٣/٢، وقال ابن الجوزي في زاد المسير: ١٤٢/١: ذكره السدي عن ابن مسعود وابن عباس.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤١٤/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١١٩٩): ص ٢٢٦/١.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٠٠٠): ص ٣٥/٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري (٢٠٠١): ص ٣٥/٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري (٢٠٠٢): ص ٣٥/٢.

(٨) وقد اختار ذلك أيضاً وصوبه: الطبري في جامع البيان: ٣٨/٣، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١١٢/٢، والماوردي في النكت والعيون: ١٨٧/١، وابن الجوزي في زاد المسير: ١٤١/١، وابن العربي في أحكام القرآن: ٤٠/١، والشوكاني في فتح القدير: ٢٠٥/١، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ٢١٣/١، وقد حكى اتفاق المحققين عليه الرازي في مفاتيح الغيب: ٥٣/٤، وأبو حيان في البحر المحيط: ٣٨١/١.

(٩) هو: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، إمام حافظ، ثقة حجة، عالم بالفقه، صاحب الصحيح، توفي عام: ٢٦١هـ. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان: ١٩٤/٥، سير أعلام النبلاء: ٥٥٧/١٢، تذكرة الحفاظ: ٥٨٨/٢، وكلاهما للذهبي، تقريب التهذيب لابن حجر: ٩٣٨.

(١٠) أخرجه مسلم في صحيحه: ٨٨٦-٨٨٧ رقم: ١٢١٨ وفيه: (حتى إذا أتينا البيت معه، استلم الركن فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام- فقرأ {وَاتَّخَذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} فجعل المقام بينه وبين البيت).

(١١) هو: أبو عبد الله جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري السلمي-بفتح-صحابي ابن صحابي، أحد المكثرين من الرواية، شهد العقبة وتسعة عشر غزوة، ولم يشهد بدرأً واحداً، منعه أبوه، توفي عام: ٧٨هـ، وقيل غير ذلك. انظر: أسد الغابة لابن الأثير: ٣٠٧/١، الاستيعاب لابن عبد البر: ٢١٩/١، تهذيب الكمال للمزي: ٤٤٣/٤، الإصابة لابن حجر: ٤٣٤/١.

واختلف في معنى قوله تعالى: {مُصَلَّى} [البقرة: ١٢٥]، على قولين: أحدهما: مَدْعَى يَدْعِي فِيهِ، وهو قول مجاهد^(١). وهؤلاء وَجَّهُوا (المُصَلَّى) إِلَى أَنَّهُ (مُفْعَلٌ)، من قول القائل: (صليت) بمعنى دعوت، وقائلوا هذا القول، هم الذين قالوا: إن مقام إبراهيم هو الحج كله. ومعنى الآية على هذا القول: واتخذوا عرفة والمزدلفة والمشعر والجمار، وسائر أماكن الحج التي كان إبراهيم يقوم بها مَدَاعِيَّ تَدْعُونِي عِنْدَهَا، وتأتون بآبِإِبْرَاهِيمَ خَلِيلِي عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهَا، فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُهُ لِمَنْ بَعْدَهُ - من أوليائي وأهل طاعتي - إماما يقتدون به وبآثاره، فاقتدوا به. الثاني: أنه مصلى يصلي عنده، وهو قول قتادة^(٢)، والسدي^(٣)، والحسن البصري^(٤). والقول الثاني هو الراجح، لما يسنده من الخبر عن عمر بن الخطاب وجابر بن عبد الله، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٥). والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: {وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ} [البقرة: ١٢٥]، "أي: ووصينا إبراهيم وإسماعيل"^(٦).

عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره^(٧). {وإِسْمَاعِيلَ}: هو ابن إبراهيم؛ وهو أبو العرب؛ وهو الذبيح على القول الصحيح؛ يعني: هو الذي أمر الله إبراهيم أن يذبحه؛ وهو الذي قال لأبيه: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين} [الصافات: ١٠٢]؛ وقول من قال: (إنه إسحاق) بعيد؛ وقد قال بعض أهل العلم: إن هذا منقول عن بني إسرائيل: لأن بني إسرائيل يودون أن الذبيح إسحاق؛ لأنه أبوهم دون إسماعيل؛ لأنه أبو العرب عمهم؛ ولكن من تأمل آيات «الصافات» تبين له ضعف هذا القول.

قوله تعالى: {أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي} [البقرة: ١٢٥]، "أي أمرناهما بأن يصونا البيت من الأرجاس والأوثان"^(٨).

واختلف في تفسير قوله تعالى: {أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي} [البقرة: ١٢٥]، على أوجه^(٩): أحدها: من الأصنام. قاله مجاهد^(١٠)، وعبيد بن عمير^(١١)، وسعيد بن جبير^(١٢). الثاني: من الشرك. قاله مجاهد^(١٣)، وسعيد بن جبير^(١٤)، وأبو العالية^(١٥)، وقتادة^(١٦)، وعطاء^(١٧).

(١) انظر: البخاري في جامعه-فتح-: ٦٠١/١ رقم: ٤٠٢ من حديث أنس عن عمر قال: (وافقت ربي في ثلاث: فقلت يا رسول الله: لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت (وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى)... الحديث).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٠٠٤): ص ٣٧/٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٠٠٥): ص ٣٧/٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٠٠٦): ص ٣٧/٢.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٥٤/٤، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٨١/١. ولفظه: "أي: قبلة". وتعبير الحسن أولى من تعبير قتادة والسدي، لأن الصلاة أمامه أو بحذائه يطلق عليها صلاة عنده وليس هذا مراداً-رحمة الله على الجميع-.

(٦) أي الاستدلال على مشروعية الصلاة ركعتين خلف المقام، انظر البخاري-فتح-: ٥٩٥/١.

(٧) تفسير المراعي: ٢١٢/١.

(٨) انظر: تفسير الطبري (٢٠٠٧): ص ٣٨/٢.

(٩) صفة التفاسير: ٨٣/١.

(١٠) انظر: النكت والعيون: ١٨٨/١.

(١١) انظر: تفسير الطبري (٢٠١٤): ص ٤٠/٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢٠١١): ص ٤٠/٢.

(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢٠٦): ص ٢٢٧/١، وزاد "والريب، وقول الزور والرجس".

(١٤) انظر: تفسير الطبري (٢٠١٣): ص ٤٠/٢.

(١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢٠٧): ص ٢٢٨/١.

الثالث : من الأنجاس. روي عن سعيد بن جبير نحوه^(٤).
والراجح أن تطهير البيت يقصد به : تطهيره من الأرجاس الحسية والمعنوية، أي: إعداده وتخصيصه للمؤمنين بالله ، فلا يقربه مشرك ، ولا يطوف به ، ولا يعكف فيه إلا مؤمن خالص الإيمان، و(أن) تفسيرية؛ لأنّ (عهدنا) فيه معنى القول دون حروفه؛ أي أنّ العهد هو قوله تعالى: (طَهَّرًا بَيْتِي)؛ و(طَهَّرًا) فعل أمر؛ و(بيتي) المراد به الكعبة؛ وأضافها الله سبحانه وتعالى إلى نفسه إضافة تشريف. والله أعلم.

وإن قيل : فلم يكن على عهد إبراهيم ، قبل بناء البيت بيت يطهر، قيل : معناه: وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن ابنيا بيتي مُطَهَّرًا ، وهذا قول السدي^(٥).
قال السدي: "يقول: ابنيا بيتي للطائفين"^(٦).

وقد اختلف أهل التفسير في معنى {الطَائِفِينَ} [البقرة: ١٢٥]، في هذا الموضع على وجهين^(٧):

الأول: أنهم الغرباء الذين يأتون البيت الحرام من غربة، أي من أتاه من مكان بعيد. قاله سعيد بن جبير^(٨).

الثاني: أنهم الذين يطوفون به ، غرباء كانوا أو من أهله. وهذا قول عطاء^(٩).
والقول الثاني أولى، لأن (الطائف): هو الذي يطوف بالشيء دون غيره، والطارئ من غربة لا يستحق اسم (طائف بالبيت)، إن لم يطف به.

واختلف فيمن عنى الله بقوله {وَالْعَاكِفِينَ} [البقرة: ١٢٥]، على أقوال:
أحدها: أنه عنى به الجالس في البيت الحرام بغير طواف ولا صلاة. قاله عطاء^(١٠).
الثاني: أنهم المعتكفون المجاورون. قاله مجاهد^(١١)، وعكرمة^(١٢).

الثالث: أنهم أهل البلد الحرام. قاله قتادة^(١٣)، وسعيد بن جبير^(١٤)، وروي عن الربيع^(١٥)، نحو ذلك.
والراجح: أن (العاكف) في هذا الموضع ، المقيم في البيت مجاورا فيه بغير طواف ولا صلاة، لأن صفة " العكوف " ما وصفنا : من الإقامة بالمكان. والمقيم بالمكان قد يكون مقيما به وهو جالس ومصل وطائف وقائم ، وعلى غير ذلك من الأحوال. فلما كان تعالى ذكره قد ذكر - في قوله : {أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود} - المصلين والطائفين ، علم بذلك أن الحال التي عنى الله تعالى ذكره من " العاكف " ، غير حال المصلي والطائف ، وأن التي عنى من

-
- (١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٢٨/١.
(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٠١٥): ص ٤٠/٢.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٢٨/١.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢٠٦): ص ٢٢٧/١.
(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٠٠٩): ص ٣٩/٢.
(٦) أخرجه الطبري (٢٠٠٩): ص ٣٩/٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري: ٤٠/٢-٤١. ذكر الطبري أخبارا لكل من القولين: عن سعيد بن جبير في قوله : " للطائفين " قال ، من أتاه من غربة. و عن عطاء : " للطائفين " قال ، إذا كان طائفا بالبيت فهو من " الطائفين".
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢١١): ص ٢٢٨/١.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢٠٩): ص ٢٢٨/١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٠١٩): ص ٤٢/٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري (٢٠٢٠): ص ٤٢/٢.
(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢٠٢٠): ص ٤٣/٢.
(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢١٣): ص ٢٢٨/١.
(١٤) انظر: تفسير الطبري (٢٠٢٢): ص ٤٢/٢-٤٣.
(١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٢٨/١.

أحواله ، هو العكوف بالبيت ، على سبيل الجوار فيه ، وإن لم يكن مصليا فيه ولا راکعا ولا ساجدا^(١) .

وآختلف المفسرون في معنى {الرُّكْعُ السُّجُودُ} على قولين:
أحدهما: أن المراد بـ{الركع السجود}، المصلين. قاله عطاء^(٢)، وقتادة^(٣).
قلت: عبر عن الصلاة بالركوع والسجود؛ لأنهما ركنان فيها؛ فإذا أطلق جزء العبادة عليها كان ذلك دليلاً على أن هذا الجزء ركن فيها لا تصح بدونه؛ و{الرُّكْعُ} جمع راعٍ؛ و{السُّجُودُ} جمع ساجد.

وخص الركوع والسجود بالذكر لأنهما أقرب أحوال المصلي إلى الله تعالى^(٤).
القول الثاني: أنه إذا كان طائفا فهو من الطائفين، وإذا كان جالسا فهو من العاكفين، وإذا كان مصليا فهو من الركع السجود، وهو قول عطاء^(٥).
والصواب هو القول الأول، لأن من حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه. والله تعالى أعلم.

وهنا بدأ بـ{الطائفين}؛ لأن عبادتهم خاصة بهذا المسجد؛ ثم بـ{العاكفين}؛ لأن عبادتهم خاصة بالمساجد؛ لكنها أعم من الطائفين؛ وثالث بـ{الرُّكْعُ السُّجُودُ}؛ لأن ذلك يصح بكل مكان بالأرض؛ لقوله، عليه الصلاة والسلام: "جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً"^(٦)؛ فإذا يكون الله سبحانه وتعالى بدأ بالأخص فالأخص^(٧).

القرآن

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) [البقرة : ١٢٦]

التفسير:

واذكر -أيها النبي- حين قال إبراهيم داعياً: ربّ اجعل "مكة" بلداً آمناً من الخوف، وارزق أهله من أنواع الثمرات، وخصّ بهذا الرزق من آمن منهم بالله واليوم الآخر. قال الله: ومن كفر منهم فأرزقه في الدنيا وأمتعته متاعاً قليلاً ثم ألجئه مرغماً إلى عذاب النار. وبئس المرجع والمقام هذا المصير.
قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا} [البقرة: ١٢٦]، أي "واذكروا إذ قال إبراهيم"^(٧): ربي "اجعل مكة بلداً آمناً"^(٨).

قال الحسن: " هذا دعاء، دعا به إبراهيم فاستجاب له دعاءه فجعله بلداً آمناً"^(٩).
عن قتادة قال : "ذكر لنا أن الحرم حُرِّمَ بحياله إلى العرش، وذكر لنا أن البيت هبط مع آدم حين هبط. قال الله له : أهبط معك بيتي يطاف حوله كما يطاف حول عرشي، فطاف حوله آدم ومن

(١) تفسير الطبري: ٤٣/٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٠٢٤): ص ٤٤/٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٠٢٥): ص ٤٤/٢.

(٤) المحرر الوجيز: ٢٠٨/١.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب: ٤٧/٤، وانظر: تفسير الطبري (٢٠٢٥): ص ٤٤/٢، ولفظه هناك: "إذا كان يصلي فهو من {الركع السجود}" .

(٦) سبق تخريجه ٣٤٤/١.

(٧) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٩/٢.

(٨) معاني القرآن للزجاج: ٢٠٧/١.

(٩) تفسير المراغي: ٢١٣/١، و ١٦٠/١٣. [بتصرف بسيط].

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢١٨): ص ٢٢٩/١.

كان بعده من المؤمنين ، حتى إذا كان زمان الطوفان - حين أغرق الله قوم نوح - رفعه وطهره ، ولم تصبه عقوبة أهل

قوله تعالى: {وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [البقرة: ١٢٦] ، " أي وارزق يا رب المؤمنين من أهله وسكانه من أنواع الثمرات" (١).

قال عكرمة: " قال إبراهيم: وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله؟ قال الله: نعم" (٢). قال الزهري: " إن الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها في الطائف لدعوة إبراهيم خليل الله" (٣). وروي عن محمد بن مسلم الطائفي (٤) مثل ذلك.

و(الإيمان) في اللغة: التصديق؛ وفي الشرع: التصديق المستلزم للقبول، والإذعان؛ والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته؛ و(اليوم الآخر) هو يوم القيامة؛ وسمي آخر؛ لأنه لا يوم بعده؛ وسبق بيان ذلك (٥).

وقد "ذكر متعلق الإيمان ، وهو الله تعالى واليوم الآخر ، لأن في الإيمان بالله إيماناً بالصانع الواجب الوجود ، وبما يليق به تعالى من الصفات ، وفي الإيمان باليوم الآخر إيمان بالثواب والعقاب المرتبين على الطاعة والمعصية اللذين هما مناط التكليف المستدعي مخبراً صادقاً به ، وهم الأنبياء. فتضمن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالأنبياء ، وبما جاؤا به. فلما كان الإيمان بالله واليوم الآخر يتضمن الإيمان بجميع ما يجب أن يؤمن به ، اقتصر على ذلك ، لأن غيره في ضمنه" (٦).

قوله تعالى: {قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَمْتَعُهُ قَلِيلًا} [البقرة: ١٢٦] ، أي قال الله تعالى: وأرزق كفارهم أيضاً، وأمتعهم بهذا الرزق أمداً قليلاً، وهو مدة وجودهم في الدنيا" (٧). قال عكرمة: " قال الله: ومن كفر أيضاً فإني أرزقه من الدنيا، حين استرزق إبراهيم لمن آمن" (٨).

و"المتاع": هو كل ما انتفع به، وفسر هنا التمتع والإمتاع بالإبقاء ، أو بتيسير المنافع ، ومنه: { مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [آل عمران: ١٤] ، أي منفعتها التي لا تدوم، أو بالتزويد ، ومنه: { فَمَتَّعُوهُمْ } [الأحزاب: ٤٩] ؛ أي: زودوهن نفقة. و(المتع): ما يتبلغ به من الزاد ، والجمع: (متع)، ومنه: { مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ } [المائدة: ٩٦] (٩).

واختلف أهل التفسير في قائل هذا القول { وَمَنْ كَفَرَ فَأَمْتَعُهُ قَلِيلًا } [البقرة: ١٢٦] ، على وجهين: أحدهما: أن هذا القول من الله عز وجل لإبراهيم. قاله ابن إسحاق (١٠) وعكرمة (١١). الثاني: أنه قول إبراهيم-عليه السلام- على وجه المسألة منه ربه أن يرزق الكافر أيضاً من الثمرات بالبلد الحرام ، مثل الذي يرزق به المؤمن ويمتعه بذلك قليلاً. وهذا قول مجاهد (١٢). قال مجاهد: " يقول: ومن كفر فأرزقه أيضاً، ثم أضطره إلى عذاب النار" (١).

(١) صفة التفسير: ٨٣/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٢٠): ص ٢٣٠/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٢١): ص ٢٣٠/١.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢٢٢): ص ٢٣٠/١.

(٥) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٥٢/٢.

(٦) البحر المحيط: ٣٣٢/١.

(٧) تفسير المراغي: ٢١٣/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٢٥): ص ٢٣٠/١.

(٩) البحر المحيط: ٣٣٤/١.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٠٣٤): ص ٥٣/٢.

(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢٢٥): ص ٢٣٠/١.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢٠٣٦): ص ٥٣/٢.

والصواب: ما هو القول الأول، لقيام الحجة بالنقل المستفيض دراية بتصويب ذلك. وهو اختيار الإمام الطبري^(٢) كذلك^(٣).
 قوله تعالى: {ثُمَّ اضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [البقرة: ١٢٦]، أي: "ثم أدفعه إلى عذاب النار وأسوقه إليها وساء المصير عذاب النار"^(٤).
 قال ابن أبي نجیح: "ثم مصير الكافر إلى النار"^(٥).
 و"الاضطرار": هو أن يصير الفاعل بالتحذير والتهديد إلى أن يفعل ذلك الفعل اختياراً، كقوله تعالى: {فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ} [البقرة: ١٧٣] [الأنعام: ١٤٥] [النحل: ١١٥] فوصفه بأنه مضطر إلى تناول الميتة، وإن كان ذلك الأكل فعله فيكون المعنى: أن الله تعالى يلجئه إلى أن يختار النار والإستقرار فيها بأن أعلمه بأنه لو رام التخلص لمنع منه، لأن من هذا حاله يجعل ملجأ إلى الوقوع في النار، ثم بين تعالى أن ذلك بنس المصير، لأن نعم المصير ما ينال فيه النعيم والسرور، وبئس المصير ضده"^(٦).

القرآن

{وَأَذِ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)}

[البقرة : ١٢٧]

التفسير:

واذكر -أيها النبي- حين رفع إبراهيم وإسماعيل أسس الكعبة، وهما يدعوان الله في خشوع: ربنا تقبل منّا صالح أعمالنا ودعاءنا، إنك أنت السميع لأقوال عبادك، العليم بأحوالهم.
 قوله تعالى: {وَأَذِ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ} [البقرة: ١٢٧]، "أي: واذكر إبراهيم وإسماعيل، في حالة رفعهما القواعد من البيت الأساس"^(٧).
 و"القواعد": "جمع قاعدة، وهي السارية والأساس"^(٨).
 وقد اختلف في "القواعد" التي رفعها إبراهيم وإسماعيل من البيت، أما أحدهما ذلك ، أم هي قواعد كانت له قبلهما، وذكروا فيه أقوال^(٩):
 أحدها: أنها قواعد بيت كان بناه آدم أبو البشر بأمر الله إياه بذلك ، ثم درس مكانه وتعقّى أثره بعده ، حتى بوأه الله إبراهيم عليه والسلام ، فبناه. وهذا قول عطاء^(١٠).
 الثاني: أنها قواعد بيت كان الله أهبطه لأدم من السماء إلى الأرض ، يطوف به كما كان يطوف بعرشه في السماء ، ثم رفعه إلى السماء أيام الطوفان ، فرفع إبراهيم قواعد ذلك البيت. وهذا قول قتادة^(١١)، وأبي قلابة^(١٢)، وأبان^(١٣).

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٠٣٦): ص ٥٣/٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٥٤/٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٥٤/٢.

(٤) تفسير الطبري: ٥٦-٥٥/٢.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٢٧): ص ٢٣١/١.

(٦) تفسير الرازي: ٥٢/٤.

(٧) انظر: تفسير السعدي: ٦٦/١.

(٨) تفسير ابن كثير: ٤٢٧/١ وانظر: تفسير الطبري: ٥٧/٣.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٦٤-٥٧/٣.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٠٣٧): ص ٥٨-٥٧/٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري (٢٠٤٢): ص ٦٠-٥٩/٣.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢٠٤٠): ص ٥٩/٣.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (٢٠٤٣): ص ٦٠/٣.

الثالث: أنها كان موضع البيت ربوة حمراء كهيئة القبة. وذلك أن الله لما أراد خلق الأرض علا الماء زبدة حمراء أو بيضاء، وذلك في موضع البيت الحرام. ثم دحا الأرض من تحتها ، فلم يزل ذلك كذلك حتى بوأه الله إبراهيم ، فبناه على أساسه. وقالوا : أساسه على أركان أربعة في الأرض السابعة. وهذا قول مجاهد^(١)، وعمرو بن دينار^(٢)، وعطاء ب أبي رباح^(٣)، وكعب^(٤). قوله تعالى: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا} [البقرة: ١٢٧]، أي " قائلين: ربنا تقبل منا"^(٥). قال السدي: " بينان وهما يدعوان"^(٦).

قال الحسن: " وكان إسماعيل يقول وهما بينانيه، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم فتقبل منهما"^(٧). عن عبيد بن عمير الليثي قال: "بلغني أن إبراهيم وإسماعيل هما رفعا قواعد البيت"^(٨). قال السدي: " فانطلق إبراهيم حتى أتى مكة، فقام هو وإسماعيل وأخذا المعاول، لا يدریان أين البيت. فبعث الله ريحا يقال لها ریح الخجوج، لها جناحان ورأس في صورة حية، فكنتس لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، واتبعها بالمعاول يحفران، حتى وضعا الأساس. فذلك حين يقول: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ} [الحج: ٢٦] . فلما بنيا القواعد قبلغا مكان الركن، قال إبراهيم لإسماعيل: يا بني، اطلب لي حجرا حسنا أضعه هاهنا. قال: يا أبت، إني كسلان تعب. قال: علي بذلك. فانطلق فطلب له حجرا فجاءه بحجر فلم يرضه، فقال: انتني بحجر أحسن من هذا. فانطلق يطلب له حجرا، وجاءه جيريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض، ياقوتة بيضاء مثل الثغامة. وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس. فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن، فقال: يا أبت من جاءك بهذا؟ فقال: من هو أنشط منك! فبنياه"^(٩).

قوله تعالى: {إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: ١٢٧]، أي " نسألك أن تقبل، لأنك أنت السميع العليم"^(١٠). قال ابن إسحاق: {السميع}، أي: سميع بما يقولون"^(١١). عن سعيد بن جبیر في قول الله: {السميع العليم}، يعني: عالم بها"^(١٢).

القرآن

{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} ((١٢٨)) [البقرة: ١٢٨]

التفسير:

ربنا واجعلنا ثابتين على الإسلام، منقادين لأحكامك، واجعل من ذريتنا أمة منقادة لك، بالإيمان، وبصراً بمعالم عبادتنا لك، وتجاوز عن ذنوبنا. إنك أنت كثير التوبة والرحمة لعبادك. قوله تعالى: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ} [البقرة: ١٢٨]، "أي: ربنا واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك"^(١).

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٠٤٤): ص ٦٠/٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٠٤٥): ص ٦٠/٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٠٤٧): ص ٦١/٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٠٥٠): ص ٦٣/٣.

(٥) تفسير الطبري: ٦٥/٣.

(٦) أخرجه الطبري (٢٠٥١): ص ٦٤/٣.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٣٩): ص ٢٣٣/١.

(٨) انظر: تفسير الطبري (٢٠٥٤): ص ٦٦/٣.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢٠٥٣): ص ٦٥-٦٦/٣.

(١٠) تفسير الطبري: ٧٣/٣.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٤١): ص ٢٣٤/١.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٣٤/١).

قال إبراهيم: تجعلنا مسلمين لك؟ قال الله: نعم^(٢).
 وروي معقل ابن عبيد الله عن عبد الكريم: "واجعلنا مسلمين لك"، قال: مخلصين لك^(٣).
 قوله تعالى: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ} [البقرة: ١٢٨]، أي: "واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك"^(٤).

قال السدي: "يعنيان العرب"^(٥).
 عن عكرمة: "قال إبراهيم ومن ذريتنا أمة مسلمة لك فقال الله: نعم"^(٦).
 و(الأمة) في هذا الموضع ، فإنه يعني بها "الجماعة من الناس، من قول الله : {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [سورة الأعراف : ١٥٩]"^(٧).
 قوله تعالى: {وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا} [البقرة: ١٢٨]، "أي: وعلمنا شرائع عبادتنا ومناسك حجنا"^(٨).
 و"المناسك": جمع "منسك"، وهو الموضع الذي ينسك الله فيه ، ويتقرب إليه فيه بما يرضيه من عمل صالح : إما بذبح ذبيحة له ، وإما بصلاة أو طواف أو سعي ، وغير ذلك من الأعمال الصالحة. ولذلك قيل لمشاعر الحج(مناسكه)، لأنها أمارات وعلامات يعتادها الناس ، ويترددون إليها... وأصل (المنسك) في كلام العرب : الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه ، يقال : " لفلان منسك " ، وذلك إذا كان له موضع يعتاده لخير أو شر، ولذلك سميت المناسك (مناسك)، لأنها تعتاد ، ويتردد إليها بالحج والعمرة ، وبالأعمال التي يتقرب بها إلى الله"^(٩).
 ومن ثم اختلفوا هؤلاء في تفسير قوله : {مَنَاسِكِنَا} على قولين:
 القول الأول: أنها مناسك الحج ومعالمه. قاله قتادة^(١٠)، والسدي^(١١).
 القول الثاني: أن "المناسك": المذابح. قاله عطاء^(١٢)، ومجاهد^(١٣)، وعبيد بن عمير^(١٤).
 فكان تأويل هذه الآية ، على قول من قال ذلك : وأرنا كيف ننسك لك يا ربنا نساكننا ، فنذبها لك.

عن عطاء : "أرنا مناسكنا"، أخرجها لنا ، علمناها"^(١٥).
 عن مجاهد قال: "قال إبراهيم: أرنا مناسكنا فاتاه جبريل فأتى به البيت فقال: ارفع القواعد، وفرغ، وأتم البنين، ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا قال: هذا من شعائر الله، ثم انطلق به إلى المروة فقال: وهذا من شعائر الله، ثم انطلق به نحو منى. فلما كان في العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة، قال: كبر وارمه، فكبر ورماه ثم انطلق إبليس فقام عند الجمرة الوسطى فلما حاذى به جبريل وإبراهيم، قال: كبر وارمه فكبر ورماه فذهب إبليس. وكان الخبيث أراد أن يدخل في الحج

-
- (١) تفسير الطبري: ٧٣/٣-٧٤.
 (٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٤):ص:٢٣٤/١.
 (٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٥):ص:٢٣٤/١.
 (٤) تفسير الطبري: ٧٤/٣.
 (٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٦):ص:٢٣٤/١.
 (٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٧):ص:٢٣٤/١.
 (٧) تفسير الطبري: ٧٤/٣.
 (٨) صفوة التفاسير: ٨٣/١.
 (٩) تفسير الطبري: ٨٠/٣.
 (١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٣)، و(٢٠٦٤):ص:٧٦/٣.
 (١١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٥):ص:٧٦-٧٧.
 (١٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٦)، و(٢٠٦٧):ص:٧٧/٣.
 (١٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٦٨)، و(٢٠٦٩):ص:٧٨/٣.
 (١٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٧٠):ص:٧٨/٣.
 (١٥) أخرجه الطبري (٢٠٦٨): ٧٩/٣.

شيئاً فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام، وأخذ بيد إبراهيم حتى أتى عرفات قد عرفت ما أريتك قالها ثلاث مرات؟ قال: نعم. وروي عن ابن مجلز نحو ذلك غير أنه لم يذكر ذكر القواعد^(١). وروي وعن قتادة نحو ذلك. وزاد فيه: "وأراه حلق الرأس"^(٢).

قوله تعالى: {وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ١٢٨]، "أي ووفقنا للتوبة فنتوب فإنك عظيم المغفرة واسع الرحمة"^(٣).
قال عكرمة: "قال الله لإبراهيم إني مبتليك بأمر فما هو؟ قال إبراهيم: تجعلني للناس إماماً. قال الله: نعم. قال إبراهيم: وتتوب علينا. قال الله نعم"^(٤).

القرآن

{رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (١٢٩) {البقرة: ١٢٩} التفسير:

ربنا وابعث في هذه الأمة رسولا من ذرية إسماعيل يتلو عليهم آياتك ويعلمهم القرآن والسنة، ويطهرهم من الشرك وسوء الأخلاق. إنك أنت العزيز الذي لا يمتنع عليه شيء، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها.

قوله تعالى: {رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ} [البقرة: ١٢٩]، أي: ربنا: و"أرسل فيهم رسولا مرسلًا من عندك يقرأ عليهم كتابك الذي توحى إليه"^(٥).

عن السدي: " { وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ }، وهو محمد- صلى الله عليه وسلم-"^(٦).
قال أبو العالية: "يعني: أمة محمد- صلى الله عليه وسلم- فقيل له: قد استجيب لك، وهو كائن في آخر الزمان"^(٧).

عن سعيد بن جبير: " {آياتك}، يعني: القرآن"^(٨).
قال قتادة: "ف فعل الله ذلك، فبعث فيهم رسولا من أنفسهم يعرفون وجهه ونسبه، يخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد"^(٩).

قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [البقرة: ١٢٩]، أي و"يعلمهم القرآن العظيم والسنة المطهرة"^(١٠).

قال الحسن: "الكتاب: القرآن"^(١١). وروي عن يحيى بن أبي كثير نحو ذلك^(١٢).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٥٢): ص ٢٣٥/١.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم: ص ٢٣٥/١.

(٣) انظر: صفوة التفسير: ٨٣/١، وتفسير ابن عثيمين: ٦٣/٢.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٥٣): ص ٢٣٥/١.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٨٦/٣، وتفسير ابن عثيمين: ٦٢/٢.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٥٦): ص ٢٣٦/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٥٥): ص ٢٣٦/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٥٨): ص ٢٣٦/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٥٧): ص ٢٣٦/١.

(١٠) صفوة التفسير: ٨٣/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٥٩): ص ٢٣٦/١.

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٣٦/١.

قال محمد بن إسحاق: " يعلمهم الخير والشر ليعرفوا الخير فيعملوه والشر فيتقوه، ويخبركم برضائه عنكم إذا أطعموه لتستكثروا من طاعته، وتجتنبوا ما سخط منكم من معصيته" (١).
قال الحسن: " الحكمة: حكمة السنة" (٢). وروي عن أبي مالك وقتادة ويحيى بن أبي كثير نحو ذلك (٣).

واختلفوا في معنى: {الحكمة} في هذه الآية على أقوال (٤):
أحدها: أنها السنة. قاله قتادة (٥)، والحسن (٦)، وأبو مالك (٧)، ويحيى بن كثير (٨)، وغيرهم.
والدليل عليه أنه تعالى ذكر تلاوة الكتاب أولا وتعليمه ثانيا ثم عطف عليه الحكمة فوجب أن يكون المراد من الحكمة شيئا خارجا عن الكتاب، وليس ذلك إلا سنة الرسول عليه السلام (٩).
الثاني: أن «الحكمة»: يعنى: النبوّة. قاله السدي (١٠).

الثالث: أن «الحكمة»: العقل في الدين. قاله زيد بن أسلم (١١).
قلت: ولا منافاة بين الأقوال السابقة، فإذا كانت الحكمة هي الفهم في الدين، فالعلم بأحكامه لا يدرك علمها إلا ببيان سنة رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، والكل صفات الكتاب كأنه تعالى وصفه بأنه آيات، وبأنه كتاب، وبأنه حكمة. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: {وَيُزَكِّيهِمْ} [البقرة: ١٢٩]، أي: و"يطهرهم من رجس الشرك" (١٢).
قال ابن جريج: " يطهرهم من الشرك، ويخلصهم منه" (١٣). وروي عن الحسن (١٤) نحو ذلك.
قوله تعالى: {إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة: ١٢٩]، "أي إنك أنت القوى الذي لا يغلب ولا ينال بضم من توكل عليك، الحكيم في أفعالك في عبادك، فلا تفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة" (١٥).
عن أبي العالية: " {العزیز} : عزيز في نعمته إذا انتقم، {الحكيم} : الحكيم في أمره" (١٦).
قال محمد بن إسحاق: " {العزیز} : في نصرته ممن كفر به إذا شاء، {الحكيم} : الحكيم في عذره، ووجته إلى عبادته" (١٧).

القرآن

{وَمَنْ يَرْعُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّا مِنْ سَفَهَةِ نَفْسِهِ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [البقرة : ١٣٠]

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٦١): ص ٢٣٦/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٦٢): ص ٢٣٦/١.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٣٦/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٨٦/٣-٨٧. وتفسير ابن كثير: ٤٤٤/١.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٠٧٨): ص ٨٧/٣.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦٩٩٣): ص ١٢٤٠/٤.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦٩٩٣): ص ١٢٤٠/٤.

(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦٩٩٣): ص ١٢٤٠/٤.

(٩) تفسير الرازي: ٦٢/٤.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢٦٣): ص ٢٣٧/١.

(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢٦٤): ص ٢٣٧/١.

(١٢) صفة التفاسير: ٨٤/١.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (٢٠٨٢): ص ٨٨/٣.

(١٤) انظر: مفاتيح الغيب: ٦٠/٤.

(١٥) تفسير المراعي: ٢١٧/١.

(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٦٦)، (١٢٦٨): ص ٢٣٨/١.

(١٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٦٧)، (١٢٦٩): ص ٢٣٨/١.

التفسير:

ولا أحد يُعرض عن دين إبراهيم - وهو الإسلام- إلا سفيه جاهل، ولقد اخترنا إبراهيم في الدنيا نبياً ورسولاً وإنه في الآخرة لمن الصالحين الذين لهم أعلى الدرجات.

قوله تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ} [البقرة: ١٣٠]، يعني: "وأى الناس يزهد في ملة إبراهيم، ويتركها رغبة عنها إلى غيرها؟"^(١).

قال قتادة: "رغب عن ملته اليهود والنصارى، واتخذوا اليهودية والنصرانية، بدعة ليست من الله، وتركوا ملة إبراهيم - يعني الإسلام - حنيفاً؛ كذلك بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بملة إبراهيم"^(٢). وروي عن أبي العالية^(٣) نحوه.

و"الملة": "وهي السُّنة والمذهب"^(٤).

قوله تعالى: {إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} [البقرة: ١٣٠]، أي: "إلا من استخفَّ نفسه وامتهنها"^(٥).

قال ابن كيسان: "إلا من جهل نفسه"^(٦).

قال أبو روق: "عجز رأيه عن نفسه"^(٧).

قال يمان: "حمق رأيه"^(٨).

قوله تعالى: {وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا} [البقرة: ١٣٠]، أي: "ولقد: اخترناه من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة"^(٩).

قال أبو مالك: "قوله: اصطفى، يعني اختار"^(١٠).

قوله تعالى: {وَأِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [البقرة: ١٣٠]، أي: "وإن إبراهيم في الدار الآخرة لمن الصالحين"^(١١).

قال الحسن: "أي: من الذين يستوجبون على الله الكرامة وحسن الثواب، فلما كان خلوص الثواب في الآخرة دون الدنيا وصفه بما ينبئ عن ذلك"^(١٢).

قلت: إن الصالح هو من صلحت المعاملة بينه وبين الله وبين الناس على قدر الإمكان، فتعلم ما أمر الله بتعلمه وعمل به، ودعا إليه وصبر على طريق الحق، والله يتولى أمره، وقد قال الله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَأَخْرَجُوا فِي الآخِرَةِ لِمَا تَبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس: ٦٢-٦٤].

ولا تحيا الأمم ولا ترقى الشعوب إلا بعظمتها، وعظماء أمة الإسلام هم أهل الصلاح والإصلاح، الذين يحتسبون وجه الله سبحانه فيما ينالهم من العنت والمشقة حين تأدية واجبه وتحقيق رسالتهم، والذين يتركون في الناس الذكر الحسن في حياتهم وبعد مماتهم، هم البركة الحقيقية والخير التي لا تتضب، يعرف ذلك من لمس أثرهم، وحرص على القرب منهم، وشئان بين الجليس الصالح، وجليس السوء، فإذا كانت حاجة الأمم إليهم وتعلقها بهم لا تُقدَّر بثمن، فكيف

(١) تفسير الطبري: ٨٩/٣.

(٢) أخرجه الطبري (٢٠٨٣): ص ٨٩/٣.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢٧٠): ص ٢٣٨/١.

(٤) معاني القرآن للزجاج: ٢٠٩/١.

(٥) صفوة التفاسير: ٨٥/١.

(٦) تفسير الثعلبي: ٢٧٩/١.

(٧) تفسير الثعلبي: ٢٧٩/١.

(٨) تفسير الثعلبي: ٢٧٩/١.

(٩) صفوة التفاسير: ٨٥/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٧١): ص ٢٣٨/١.

(١١) تفسير الطبري: ٩١/٣.

(١٢) التفسير البسيط: ٣٣٦/٣، والبحر المحيط: ٣٩٥/١.

الحال إذا كان تناقص أعدادهم واختفاء آثارهم هو علمٌ من أعلام الساعة وأشراتها؟ ذلك هو ما أخبر به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صحابته تصريحاً وتلميحاً في غير ما مناسبة ، وكان من جملة إخباراته النبوية ما جاء في حديث مرداس الأسلمي رضي الله عنه مرفوعاً: "يذهب الصالحون الأول فالأول، وتبقى حُفالة، كحفالة الشعير والتمر، لا يباليهم الله باله"^(١)، وفي رواية: "لا يعبأ الله بهم الله بهم شيئاً"^(٢).

ومعنى "حُفالة": ما يسقط من قشر الشعير عند الغريلة، ومن التمر بعد الأكل، وقد جاء في رواية أخرى بلفظ "حثالة"، وهي بذات المعنى، وأما معنى "لا يباليهم الله باله": لا يرفع لهم قدر ولا يقيم لهم وزناً^(٣).

فهذا الحديث يشير صراحةً إلى أن موت الصالحين وتناقص أعدادهم هو من أشراف الساعة، وأن ذهابهم يكون شيئاً فشيئاً وليس مرةً واحدة، كما أن في الحديث السابق ترغيبٌ في الاقتداء بالصالحين، والتحذير من مخالفة طريقهم، خشية أن يكون من خالفهم ممن لا يباليه الله ولا يعبأ به، كما ذكر ذلك شراح الحديث.

وقريبٌ من الحديث السابق ما جاء في سنن ابن ماجه، ومسنند الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "لتنفقون كما يُنتقى التمر من أغفاله، فليذهبن خياركم، وليبقين شراركم، فموتوا ان استنطعتم"^(٤)، ومعنى (من أغفاله): أي مما لاخير فيه. وعنه رضي الله عنه، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "إنكم في زمان من ترك منكم عُشر ما أمر به هلك، ثم يأتي زمانٌ من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا"^(٥).

إن الحديث السابق يُسفر عن ذات الحقيقة، وهو أن صلاح المجتمعات أخذٌ بالتناقص مع مرور الوقت، كما يشير إلى النسبية والتفاوت في مستوى الصلاح بين الأجيال الأولى في الإسلام

(١) رواه البخاري(٦٤٣٤).

(٢) رواه البخاري موقوفاً على مرداس الأسلمي رضي الله عنه راوي الحديث(٤١٥٦).

(٣) يقول ابن حجر: "والحثالة ما سقط من قشر الشعير، والأرز، والتمر، والرديء من كل شيء"، قال: "ووجدت لهذا الحديث شاهداً من رواية الفزارية امرأة عمر بلفظ "تذهبون الخير فالخير حتى لا يبقى منكم إلا حثالة كحثالة التمر ينزرو بعضهم على بعض نزو المعز". [فتح الباري: ٢٥٢/١١]. ومعنى "لا يباليهم الله باله"، أي لا يعبأ بهم، ولا يرفع لهم قدراً، ولا يقيم لهم وزناً". [فتح الباري: ٢٥٢/١١]. وفي رواية: "يأتي زمان يغربل الناس فيه غريلة، يبقى منهم حثالة قد مرجت عهدهم وأماناتهم، واختلفوا فكانوا هكذا" وشبك بين أصابعه. قالوا: يا رسول الله، فما المخرج؟ قال: "تأخذون ما تعرفون، وتدعون ما تنكرون، وتقبلون على أمر خاصتكم"، إذا كان لديك صحبة طيبة أخوان في الله خاصين، "وتدعون أمر عامتكم" [رواه أبو داود: ٤٣٤٤، وصححه الألباني صحيح الجامع: ٤٥٨٥]، لأن الأكثرية ليسوا على الحق، الحديث رواه أحمد، وقال عنه أحمد شاكراً: "إسناده صحيح". [مسند أحمد: ٧٠٤٩].

يغربلون غريلة يذهب الأخيار، ويبقى الأشرار الأراذل، كما ينقى الدقيق بالغربال، حتى لا يبقى إلا الشيء السيئ من هذه الحثالة، ومرجت عهدهم، وأماناتهم اختلطت وفسدت، ولا عندهم عهد ولا أمانة، ينقضون العهود، ويخونون الأمانات، واختلف بعضهم ببعض، فهم في أمر مريب، لا يعرفون المعروف ولا ينكرون المنكر، وكذلك لا تعرف الأمين من الخائن، والبر من الفاجر، اختلطت الأمور لا يعرف الصالح من الطالح، وهذا ولا شك أنه وقع منه جزء كبير الآن، فالآن إذا أردت أن تميز إذا جاء رجل يخطب ابنتك أو أختك لا تعرف هذا صالح أو طالح، الناس الآن صار فيهم خلط كبير.

فتمييز الجيد لا يكاد يعرف، فالنفاق منتشر، وأشياء مخفية وأشياء لا تعرف وهكذا، ونصحهم بالإقبال على أمر خاصتهم لأن الإنسان يعرف الناس المقربين منه الذي يعرف حالهم، وأنهم على الخير يلتزم بهم.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٨) ، والبخاري في "التاريخ الكبير" ٢٥ / ٩ ، والحاكم ٤ / ٤٨٠ و ٤٨١ ، وقال الحاكم : " هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه " وأقره الذهبي.

(٥) روى الترمذي (٢٢٦٧) ، والطبراني في "المعجم الصغير" (١١٥٦) ، وأبو نعيم في "الحلية" (٣١٦/٧) . وقال أبو عبد الرحمن السائي : " هذا حديث منكر، رواه نعيم بن حماد، وليس بثقة". "العلل المتناهية" (٢/٣٦٩).

والأجيال اللاحقة على وجه العموم، وقد فُسر الحديث بأن العُشر المأمور به إنما المقصود به: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففي الرعيل الأوّل وفي فجر الإسلام كان الدين عزيزاً، وفي أنصاره كثرةً، فلا عُذر في التهاون في هذه الشعيرة العظيمة، ولكن حين يضعف الإسلام، وتكثر الظلمة، ويعم الفسق، ويكثر الدجالون، وتقل أنصار الدين، ويتوارى الحق فيعذر المسلمون فيما تركوه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لعدم القدرة، والله سبحانه وتعالى لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ولنا كذلك حذيفة بن اليمان عند ابن ماجه، وفيه: "يُدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يُدرى ما صيام ولا صلاة، ولا نسك ولا صدقة، ويبقى طوائف من الناس، الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله، فنحن نقولها"^(١)، وحديث أنس رضي الله عنه: "لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله"^(٢).

على أننا نوّكد أن هذه الأحاديث تتحدّث عن جانبٍ إخباريٍّ يتعلّق بفترةٍ زمنيّةٍ طويلةٍ تشمل أجيالاً متتالية، فليس المقصود نفي الخيريّة عن أمتنا أو أن تكون هذه الأحاديث سبباً في تسرّب اليأس من النفوس أو مدعاةً للتخاذل، فكما بيّنت السنة الخلل الحاصل فقد بيّنت أسبابه، وتجنّب الأسباب يكون الصلاح، والعبدُ إنما هو مكلفٌ بخاصّةٍ نفسه أن يُصلحها وليس مسؤولاً عن فساد غيره ما دام قد أدّى ما عليه، قال تعالى: {لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ} [الغاشية: ٢٢]. والله تعالى أعلم.

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٤٩)، والحاكم (٤٧٣/٤). قال الحاكم صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. قال البوصيري في الزوائد: (ق/١/٢٤٧): اسناده صحيح ورجاله ثقات. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: برقم (٨٧). (يُدرس) من درس الرسم دروساً: إذا عفا وهلك. (وشي الثوب): نقشه.

(٢) صحيح مسلم: (١٤٨). عض الرويات جاء فيها: (لا تُقَوْمُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يُقُولُ : لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ) وهي رواية أحمد في "المسند" (٢٦٨/٣) ، وابن حبان في صحيحه (٢٦٢/١٥) والحاكم (٥٤٠/٤) بل هي إحدى روايات مسلم كما نقله القاضي عياض من رواية ابن أبي جعفر . انظر النووي في "شرح مسلم" (١٧٨/٢). فهذه الرواية تفسر الرواية الأولى ، فيكون المعنى : لا تقوم الساعة على الموحدين الذين يقولون : لا إله إلا الله.

قلت: ومن أشرط الساعة ذهاب الصالحين وإرتفاع الأسافل، فقد وجاء في حديث حذيفة رضي الله عنه: قال صلى الله عليه وسلم: "ويقال للرجل: ما أعقله! وما أظرفه! وما أجده! وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان". (أخرجه البخاري في الرقاق، باب: رفع الأمانة (٦٤٩٧) واللفظ له، ومسلم في الإيمان (١٤٣) مختصراً). قال الشيخ يوسف الوابل: "وهذا هو الواقع بين المسلمين في هذا العصر، يقولون للرجل: ما أعقله! ما أحسن خلقه! ويفسونه بأبلغ الأوصاف الحسنة، وهو من أفسق الناس، وأقلهم ديناً وأمانة، وقد يكون عدواً للمسلمين، ويعمل على هدم الإسلام. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم". (أشرط الساعة (ص ١٨٢)).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنها ستأتي على الناس سنون خداعة، يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الروبيضة" قيل: وما الروبيضة؟ قال: "السفيه يتكلم في أمر العامة". (أخرجه أحمد (٢٩١/٢) واللفظ له، وابن ماجه في الفتن، باب: شدة الزمان (٤٠٣٦)، قال البوصيري: "هذا إسناد فيه مقال؛ إسحاق بن بكر بن أبي الفرات قال الذهبي في الكاشف: مجهول، وقال السليمانى: منكر الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات"، والحديث صححه الحاكم (٥١٢/٤)، والألباني في الصحيحة (١٨٨٧).

وفي حديث جبريل الطويل قوله: "ولكن سأحدثك عن أشرطها... وإذا كانت العراة الحفاة رؤوس الناس فذاك من أشرطها". (أخرجه البخاري في الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩) واللفظ له).

قال ابن رجب رحمه الله: "فإنه إذا صار الحفاة العراة رعاء الشاء وهم أهل الجهل والجفاء رؤساء الناس وأصحاب الثروة والأموال فإنه يفسد بذلك نظام الدين والدنيا؛ فإنه إذا كان رؤوس الناس من كان فقيراً عائلاً فصار ملكاً على الناس سواء كان ملكه عاماً أو خاصاً في بعض الأشياء فإنه لا يكاد يعطي الناس حقوقهم، بل يستأثر عليهم بما استولى عليهم من المال، وإذا كان مع هذا جاهلاً جافياً فسد بذلك الدين؛ لأنه لا يكون له همة في إصلاح دين الناس ولا تعليمهم، بل همته في جباية المال وإكثاره، ولا يبالي بما أفسد من دين الناس، ولا بمن أضاع من أهل حاجاتهم". (جامع العلوم والحكم (٤١/١)).

القرآن

{إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)} [البقرة : ١٣١]

التفسير:

وسبب هذا الاختيار مسارعتة للإسلام دون تردد، حين قال له ربه: أخلص نفسك لله منقادًا له. فاستجاب إبراهيم وقال: أسلمت لرب العالمين إخلاصًا وتوحيدًا ومحبة وإنابة. قوله تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ} [البقرة: ١٣١]، أي: "إذ قال له ربه: أخلص لي العبادة، واخضع لي بالطاعة"^(١). قال عطاء: "سَلِمَ نَفْسَكَ إِلَى اللَّهِ وَفَوَّضَ أَمْرَكَ إِلَيْهِ"^(٢). قوله تعالى: {قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [البقرة: ١٣١]، "أي قال [إبراهيم]: أخلصت ديني لله الذي فطر الخلق جميعاً"^(٣). قال الحسن: "سأله الإسلام فأعطاه إياه، وأجاب ربه فيه خيرا ومعرفة له، قال: أسلمت لرب العالمين"^(٤).

القرآن

{وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)} [البقرة : ١٣٢]

التفسير:

وحدث إبراهيم ويعقوب أبناءهما على الثبات على الإسلام قائلين: يا أبناءنا إن الله اختار لكم هذا الدين- وهو دين الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم- فلا تفارقوه أيام حياتكم، ولا يأتكم الموت إلا وأنتم عليه. قوله تعالى: {وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ} [البقرة: ١٣٢]، "أي وصى الخليل أبناءه باتباع ملته وكذلك يعقوب أوصى بملة إبراهيم"^(٥). قال قتادة: "يقول: ووصى بها يعقوب بنيه بعد إبراهيم"^(٦). قوله تعالى: {فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٢]، أي: فلا يأتكم الموت إلا وأنتم على الإسلام"^(٧).

عن طاوس: "فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون"، على الإسلام وعلى ذمة الإسلام"^(٨). والمقصود: هو النهي عن أن يكونوا على خلاف تلك الحال إذا ماتوا، والأمر بالثبات على الإسلام كقولك: لا تصل إلا وأنت خاشع، وتغيير العبارة للدلالة على أن موتهم لا على الإسلام موت لا خير فيه، وأن من حقه أن لا يحل بهم، ونظيره في الأمر: مت وأنت شهيد^(٩)، وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصد الخير ووفق له ويسر عليه، ومن نوى صالحًا ثبت عليه. وهذا لا يعارض ما جاء، في الحديث [الصحيح] "إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع"

(١) تفسير الطبري: ٩٢/٣.

(٢) تفسير الطبراني: ٨٧/١، وتفسير الثعلبي: ٢٧٩/١.

(٣) تفسير المراغي: ٢٢٠/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٧٤): ص ٢٣٩/١.

(٥) صفة التفسير: ٨٥/١.

(٦) أخرجه الطبري (٢٠٨٦): ٩٤/٣.

(٧) انظر: تفسير السعدي: ٦٦/١.

(٨) تفسير ابن أبي حاتم (١٢٧٧): ص ٢٣٩/١.

(٩) تفسير البيضاوي: ١٠٧/١، ونقله بتمامه أبو السعود في تفسيره: ١٦٤/١.

أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها" (١)؛ لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث: "فيعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس. وقد قال الله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل: ٥ - ١٠] (٢).

القرآن

{أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)} [البقرة: ١٣٣] التفسير:

أكنتم أيها اليهود حاضرين حين جاء الموت يعقوب، إذ جمع أبناءه وسألهم ما تعبدون من بعد موتي؟ قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدًا، ونحن له منقادون خاضعون.

قوله تعالى: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ} [البقرة: ١٣٣]، أي: أكنتم - يا معشر اليهود والنصارى، حضور يعقوب وشهوته إذ حضره الموت" (٣).

قال أبو العالية: "أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ" يعني أهل الكتاب" (٤). قال الحسن: "يقول: لم يشهد اليهود ولا النصارى ولا أحد من الناس يعقوب، إذ أخذ على بنيه الميثاق، إذ حضره الموت أن لا يعبدوا إلا إياه فأقروا بذلك، وشهد عليهم أن قد أقروا بعبادتهم، وأنهم مسلمون" (٥).

قوله تعالى: {قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ} [البقرة: ١٣٣]، أي: قالوا: "نعبد معبودك الذي تعبد، ومعبود آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق" (٦). قال أبو العالية: "فسمى عمه أباه" (٧).

قال موسى بن عبيدة: "سمعت محمد بن كعب يقول: الخال والد، والعم والد: قال ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك" (٨).

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣)، عن أبي عبدالرحمن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا - نطفة - ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها".

إن هذا حديث عظيم جامع لأحوال الإنسان من مبدأ خلقه ومجيئه إلى هذه الحياة الدنيا إلى آخر أحواله من الخلود في دار السعادة أو الشقاء، بما كان منه في الحياة الدنيا من كسب وعمل وفق ما سبق في علم الله وقدره وقضائه. (الوافي في شرح الأربعين (٢٤). وقال ابن الملقن - رحمه الله - لو أمعن الأئمة النظر في هذا الحديث كله من أوله إلى آخره، لوجدوه متضمنًا لعلوم الشريعة كلها ظاهرها وباطنها (الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (١٠ / ٥٩ ح ٣٩٦).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٤٦/١-٤٤٧.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٩٧/٣-٩٨. وقوله {شهداء} جمع شاهد أي حاضر. (انظر: تفسير القرطبي: ١٣٧/٢).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٧٨): ص ٢٣٩/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٧٩): ص ٢٤٠/١.

(٦) تفسير الطبري: ٩٨/٣.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٨٢): ص ٢٤٠/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٨٣): ص ٢٤٠/١.

قوله تعالى: {إِلَهًا وَاحِدًا} [البقرة: ١٣٣]، أي: "تَوَحَّدَهُ بِالْأَلُوْهِيَّةِ، وَنَخَلَصَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ، وَلَا نَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"^(١).
 عن عطاء: {إِلَهًا وَاحِدًا}، قال: إنه إله واحد، وإله كل شيء، وخالق كل شيء"^(٢).

القرآن

{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)}

[البقرة : ١٣٤]

التفسير:

تلك أُمَّةٌ من أسلافكم قد مضت، لهم أعمالهم، ولكم أعمالكم، ولا تُسألون عن أعمالهم، وهم لا يُسألون عن أعمالكم، وكلُّ سيجازى بما فعله، لا يؤخذ أحدٌ بذنب أحد، ولا ينفَعُ أحدًا إلا إيمانه وتقواه.

قوله تعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ} [البقرة: ١٣٤]، " أي تلك جماعة وجيل قد سلف ومضى"^(٣).

عن أبي مالك قوله: " {تلك}، يعني " هذه"^(٤).

قال أبو العالية^(٥)، والربيع^(٦)، وقتادة^(٧): " {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ} يعني : إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط"^(٨).

قوله تعالى: {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ} [البقرة: ١٣٤]، " أي لها ثواب ما كسبت ولكم ثواب ما كسبتم"^(٩).

قال سعيد بن جبیر: " يعني: ما عملت من خير أو شر"^(١٠).

قوله تعالى: {وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [البقرة: ١٣٤]، أي "لا تُسألون عن أعمال من سبقكم"^(١١).

القرآن

{وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)}

[البقرة : ١٣٥]

التفسير:

وقالت اليهود لأُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم: ادخلوا في دين اليهودية تجدوا الهداية، وقالت النصارى لهم مثل ذلك. قل لهم -أيها الرسول-: بل الهداية أن نتبع- جميعًا- ملة إبراهيم، الذي مال عن كل دين باطل إلى دين الحق، وما كان من المشركين بالله تعالى.

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٤٧/١ وتفسير الطبري: ٩٩/٣.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٨٤): ص ٢٤٠/١.

(٣) صفة التفسير: ٨٦/١.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١٢٨٦): ص ٢٤٠/١.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢٨٧): ص ٢٤١/١.

(٦) انظر: تفسير الطبري (٢١٤١): ص ١٢٨/٣.

(٧) انظر: تفسير الطبري (٢١٤٠): ص ١٢٨/٣.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٨٧): ص ٢٤١/١.

(٩) صفة التفسير: ٨٦/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٨٨): ص ٢٤١/١.

(١١) تفسير ابن عثيمين: ٨١/٢.

قوله تعالى: {قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [البقرة: ١٣٥]، أي: "قل يا محمد، بل نتبع ملة إبراهيم مستقيماً"^(١).

اختلف أهل التفسير في معنى قوله تعالى: {حَنِيفًا} [البقرة: ١٣٥]، على أقوال: أحدها: أن الحنيفية حج البيت، والحنيف هو الحاج. وهذا قول الحسن^(٢)، ومجاهد^(٣)، وعطية^(٤)، وكثير بن زياد^(٥)، وعبدالله بن قاسم^(٦)، والضحاك^(٧)، والسدي^(٨). وقالوا: "إنما سمي دين إبراهيم الإسلام (الحنيفية)، لأنه أول إمام لزم العباد - الذين كانوا في عصره، والذين جاءوا بعده إلى يوم القيامة - اتباعه في مناسك الحج، والالتزام به فيه. قالوا: فكل من حج البيت فنسك مناسك إبراهيم على ملته، فهو (حنيف)، مسلم على دين إبراهيم"^(٩). الثاني: أنها اتباع الحق، قاله مجاهد^(١٠)، والربيع بن أنس^(١١). الثالث: أنها: (الإخلاص): وقوله {بل ملة إبراهيم حنيفاً}، معناه: (بل ملة إبراهيم مخلصاً)، ف(الحنيف) "على قولهم: المخلص دينه لله وحده"^(١٢)، قاله السدي^(١٣)، وخصيف^(١٤). الرابع: أن الحنيف: المستقيم. قاله محمد بن كعب^(١٥)، وعيسى بن جارية^(١٦). الخامس: أن الحنيف: الذي يؤمن بالرسول كلهم من أولهم إلى آخرهم. قاله أبو قلابة^(١٧). السادس: أن الحنيف: الذي يستقبل البيت بصلاته، ويرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلاً. قاله أبو العالية^(١٨).

السابع: أن الحنيفية: شهادة أن لا إله إلا الله. يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات، والعمات، وما حرم الله عز وجل، والختان. وكانت حنيفة في الشرك: كانوا أهل الشرك، وكانوا يحرمون في شركهم الأمهات والبنات والخالات والعمات، وكانوا يحجون البيت، وينسكون المناسك. قاله قتادة^(١٩).

والصواب: أن (الحنيفية) هو الإستقامة على دين إبراهيم واتباعه على ملته، قال الإمام الطبري: "وذلك أن الحنيفية لو كانت حج البيت، لوجب أن يكون الذين كانوا يحجون في الجاهلية من أهل الشرك كانوا حنفاء. وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفاً بقوله: {ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين} [سورة آل عمران: ٦٧]، فكذا القول في الختان. لأن "الحنيفية" لو كانت

- (١) تفسير الطبري: ١٠٤/٣.
- (٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٦٥٠): ص ٦٧٣/٢، وتفسير الطبري (٢٠٩١): ص ١٠٤/٣.
- (٣) انظر: تفسير الطبري (٢٠٩٤): ص ١٠٦/٣.
- (٤) انظر: تفسير الطبري (٢٠٩٢)، و(٢٠٩٣): ص ١٠٥-١٠٤/٣.
- (٥) انظر: تفسير الطبري (٢٠٩٥): ص ١٠٦/٣.
- (٦) انظر: تفسير الطبري (٢٠٩٨): ص ١٠٦/٣.
- (٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١٢٩١): ص ٢٤١/١، و(٣٦٥٠): ص ٦٧٣/٢.
- (٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١٢٩١): ص ٢٤١/١، و(٣٦٥٠): ص ٦٧٣/٢.
- (٩) تفسير الطبري: ١٠٤/٣.
- (١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٠٩٩): ص ١٠٦/٣، وابن أبي حاتم (١٢٩٢): ص ٢٤١/١.
- (١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١٢٩٢): ص ٢٤١/١.
- (١٢) انظر: تفسير الطبري: ١٠٦/٣.
- (١٣) انظر: تفسير الطبري (٢١٠٠): ص ١٠٧/٣.
- (١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢٩٥): ص ٢٤٢/١.
- (١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢٩٣): ص ٢٤٢/١.
- (١٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٤٢/١.
- (١٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢٩٤): ص ٢٤٢/١.
- (١٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢٩٦): ص ٢٤٢/١.
- (١٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢٩٧): ص ٢٤٢/١.

هي الختان ، لوجب أن يكون اليهود حُنفاء. وقد أخرجهم الله من ذلك بقوله : { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا } [سورة آل عمران : ٦٧].

فقد صحَّ إذاً أن " الحنيفية " ليست الختان وحده ، ولا حجَّ البيت وحده ، ولكنه هو ما وصفنا : من الاستقامة على ملة إبراهيم ، واتباعه عليها ، والائتمام به فيها. فإن قال قائل : أو ما كان مَنْ كان من قبل إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، من الأنبياء وأتباعهم ، مستقيمين على ما أمروا به من طاعة الله استقامة إبراهيم وأتباعه ؟

قيل : بلى. فإن قال : فكيف أضيف " الحنيفية " إلى إبراهيم وأتباعه على ملته خاصة ، دون سائر الأنبياء قبله وأتباعهم ؟ قيل : إن كل من كان قبل إبراهيم من الأنبياء كان حنيفًا متبعًا طاعة الله ، ولكن الله تعالى ذكره لم يجعل أحدًا منهم إمامًا لمن بعده من عباده إلى قيام الساعة ، كالذي فعل من ذلك بإبراهيم ، فجعله إمامًا فيما بينه من مناسك الحج والختان ، وغير ذلك من شرائع الإسلام ، تعبدًا به أبدًا إلى قيام الساعة. وجعل ما سنَّ من ذلك علمًا مميزًا بين مؤمني عباده وكفارهم ، والمطيع منهم له والعاصي. فسمي الحنيف من الناس " حنيفًا " باتباعه ملته ، واستقامته على هديه ومنهاجه ، وسمي الضالُّ من ملته بسائر أسماء الملل ، فقيل : " يهودي ، ونصراني ، ومجوسي " ، وغير ذلك من صنوف الملل^(١).

القرآن

{ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [البقرة : ١٣٦]

التفسير :

قولوا -أيها المؤمنون- لهؤلاء اليهود والنصارى: صدقنا بالله الواحد المعبود بحق، وبما أنزل إلينا من القرآن الذي أوحاه الله إلى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وما أنزل من الصحف إلى إبراهيم وابنيه إسماعيل وإسحاق، وإلى يعقوب والأسباط -وهم الأنبياء من ولد يعقوب الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل الاثنتي عشرة- وما أعطي موسى من التوراة، وعيسى من الإنجيل، وما أعطي الأنبياء جميعًا من وحي ربهم، لا نفرق بين أحد منهم في الإيمان، ونحن خاضعون لله بالطاعة والعبادة.

قوله تعالى: { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ } [البقرة: ١٣٦]، "أي: قولوا -أيها المؤمنون- لهؤلاء اليهود والنصارى: صدقنا بالله الواحد المعبود بحق، وبما أنزل إلينا من القرآن الذي أوحاه الله إلى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وما أنزل من الصحف إلى إبراهيم وابنيه إسماعيل وإسحاق، وإلى يعقوب والأسباط -وهم الأنبياء من ولد يعقوب الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل الاثنتي عشرة-"^(٢).
قال قتادة: " أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا ويصدقوا بأبيائهم ورسوله كلهم ، ولا يفرقوا بين أحد منهم"^(٣).

عن قتادة قال: الأسباط، يوسف وإخوته، بنو يعقوب. ولد اثني عشر رجلا فولد كل وحل منهم أمة من الناس، فسموا: "أسباط"^(٤).

(١) تفسير الطبري: ١٠٧/٣-١٠٨.

(٢) التفسير الميسر: ٢١.

(٣) تفسير الطبري(٢١٠٣): ١١١/٣.

(٤) أخرجه الطبري(٢١٠٤):ص١١١/٣، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٤٣/١.

قال السدي: "أما الأسباط، فهم بنو يعقوب: يوسُف، وبنيامين، ورؤبيل، ويهوذا، وشمعون، ولاوي، ودان، وقهات"^(١).

عن الربيع، قال: "الأسباط" يوسف وإخوته بنو يعقوب، اثنا عشر رجلاً فولد لكل رجل منهم أمة من الناس، فسموا "الأسباط"^(٢).

قال محمد بن إسحاق: "نكح يعقوب بن إسحاق -وهو إسرائيل- ابنة خاله "ليا" ابنة "ليان بن توبيل بن إلياس"، فولدت له "رؤبيل بن يعقوب"، وكان أكبر ولده، و"شمعون بن يعقوب"، و"لاوي بن يعقوب" و"يهوذا بن يعقوب" و"ريالون بن يعقوب"، و"يشجر بن يعقوب"، و"دينة بنت يعقوب"، ثم توفيت "ليا بنت ليان". فخلف يعقوب على أختها "راحيل بنت ليان بن توبيل بن إلياس" فولدت له "يوسف بن يعقوب" و"بنيامين" -وهو بالعربية أسد- وولد له من سُرَّيْتين له: اسم إحداهما "زلفة"، واسم الأخرى "بلهية"، أربعة نفر: "دان بن يعقوب"، و"نَفْثالي بن يعقوب" و"جَاد بن يعقوب"، و"إشرب بن يعقوب" فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلاً نشر الله منهم اثني عشر سبطاً، لا يُحصى عددهم ولا يعلم أنسابهم إلا الله، يقول الله تعالى: (وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَّمًا) . [سورة الأعراف: ١٦٠]^(٣).

قوله تعالى: {وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ} [البقرة: ١٣٦]، أي: "وآمنا أيضاً بالتوراة التي آتاها الله موسى، وبالإنجيل الذي آتاه الله عيسى، والكتب التي آتى النبيين كلهم"^(٤).

قال قتادة: "أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به ويصدقوا بكتبه كلها وبرسله"^(٥).
وقال سليمان بن حبيب المحاربي: "إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل ولا نعمل بما فيها"^(٦).

وقد يسأل سائل: لم عبر الله تعالى بقوله: {وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل}، وفي موسى وعيسى قال تعالى: {وما أوتي موسى وعيسى}؛ فهل هناك حكمة في اختلاف التعبير؟
فالجواب: أن نقول - والله أعلم -: إن هناك حكمة لفظية، وحكمة معنوية:

فالحكمة اللفظية: لئلا تتكرر المعاني بلفظ واحد؛ لو قال: (ما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وما أنزل إلى موسى... وما أنزل إلى النبيين) تكررت أربع مرات؛ ومعلوم أن من أساليب البلاغة الاختصار في تكرار الألفاظ بقدر الإمكان.

وأما الحكمة المعنوية: فلأن موسى وعيسى دينهما باق إلى زمن الوحي، وكان أتباعهما يفتخرون بما أوتوا من الآيات؛ فالنصارى يقولون: عيسى بن مريم يحيي الموتى، ويفعل كذا، ويفعل كذا؛ وهؤلاء يقولون: إن موسى فلق الله له البحر، وأنجاه، وأغرق عدوه، وما أشبه ذلك؛ فبين الله سبحانه وتعالى في هذا أن هذه الأمة تؤمن بما أوتوا من وحي وآيات^(٧).

قوله تعالى: {لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٦]، أي: "لا تؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض ونحن له خاضعون بالطاعة، مذعنون له بالعبودية"^(٨).
قال قتادة: "أمر الله المؤمنين أن لا يفرقوا بين أحد منهم"^(٩).

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١٠٥): ص ١١١/٣-١١٢، وتفسير ابن أبي حاتم (١٣٠١): ص ٢٤٣/١.

(٢) أخرجه الطبري (٢١٠٦): ص ١١٢/٣.

(٣) أخرجه الطبري: ١١٢/٢٤-١١٣.

(٤) تفسير الطبري: ١١٠-١٠٩/٣.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٠٤): ص ٢٤٣/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٠٣): ص ٢٤٣/١.

(٧) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٣٨/٢.

(٨) تفسير الطبري: ١١٠-١٠٩/٣.

القرآن

{فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)} [البقرة : ١٣٧]

التفسير:

فإن آمن الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم بمثل الذي آمنتم به، مما جاء به الرسول، فقد اهتدوا إلى الحق، وإن أعرضوا فإنما هم في خلاف شديد، فسيكفيك الله -أيها الرسول- شرهم وينصرك عليهم، وهو السميع لأقوالكم، العليم بأحوالكم.

قوله تعالى: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا} [البقرة: ١٣٧]، "أي: فإن آمن أهل الكتاب بنفس ما آمن به معشر المؤمنين، فقد اهتدوا إلى الحق كما اهتديتم"^(٢).

عن الربيع: "ثم قال: {فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا}، فقال: من تكلم بهذا صدقا من قلبه -يعني- الإيمان فقد اهتدى"^(٣).

قوله تعالى: {وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ} [البقرة: ١٣٧]، "أي وإن أعرضوا عن الإيمان بما دعوتهم إليه، فاعلم أنهم إنما يريدون عداوتك وخلافك، وليسوا من طلب الحق في شيء"^(٤).

قال الربيع: " {وإن تولوا} عنه يعني عن الإيمان"^(٥).

قال محمد بن إسحاق: " {وإن تولوا} على كفرهم"^(٦).

{والشقاق}: من (شقَّ عليه هذا الأمر)، إذا كربه وآذاه، ثم قيل: (شاقَّ فلانٌ فلاناً)، بمعنى: نال كل واحد منهما من صاحبه ما كربه وآذاه، وأثقلته مساءته، ومنه قول الله تعالى ذكره: {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا} [النساء : ٣٥] بمعنى: فراق بينهما^(٧).

وذكر أهل التفسير في قوله تعالى: {فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ} [البقرة: ١٣٧]، وجوها^(٨):

أحدها: أن معناه: في خلاف. قاله أبو العالية^(٩)، وقتادة^(١٠) والربيع بن أنس^(١١)، وعطاء^(١٢).
ودليل هذا القول، قوله: {لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي} [هود: ٨٩]، أي خلافي^(١٣)، ومنه قول الشاعر^(١٤):
فكان إليها والذي اصطاد بكرها ... شقاقا وبعضهن أو لطم وأهجرا
الثاني: أي: في عداوة. قاله الحسن^(١٥)، وابن سلمة^(١٦) والسدي^(١٧).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٠٥): ص ٢٤٣/١.

(٢) صفة التفسير: ٨٧/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٠٨): ص ٢٤٤/١.

(٤) صفة التفسير: ٨٨/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٠٩): ص ٢٤٤/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣١٠): ص ٢٤٤/١.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ١١٥/٣-١١٦.

(٨) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٨٤/١، ومفاتيح الغيب: ٧٤/٤.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٣١١): ص ٢٤٤/١.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢١١٠): ص ١١٥/٣، وتفسير ابن أبي حاتم: ٢٤٤/١.

(١١) انظر: تفسير الطبري (٢١١١): ص ١١٥/٣، تفسير ابن أبي حاتم: ٢٤٤/١.

(١٢) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٨٤/١.

(١٣) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٨٤/١.

(١٤) لم أعرف على قائله، والبيت من شواهد الثعلبي في تفسيره: ٢٨٤/١.

(١٥) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٨٤/١، ومفاتيح الغيب: ٧٤/٤.

(١٦) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٨٤/١.

(١٧) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٨٤/١.

يقال: كان كل واحد منهما أخذ في شق صاحبه، أي في جهده وما يشق عليه من قوله: ﴿إِنَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ [النحل: ٧]، ودليله قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ١٣]، أي عادوا الله ورسوله^(١).

ومنه قول بشر بن أبي حازم^(٢):
وإنا فاعلموا أنا وأنتم ... بغاة ما حيننا في شقاق
أي: في عداوة^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، "أي سيكفيك يا محمد شرهم وأذاهم ويعصمك منهم، وهو تعالى يسمع ما ينطقون به ويعلم ما يضمرونه في قلوبهم من المكر والشر"^(٤).

عن نافع بن أبي نعيم، قال: أرسل إلي بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفان ليصلحه. فقلت له: إن الناس يقولون إن مصحفه كان في حجره حين قتل فوقع الدم على فسيكفيكم الله وهو السميع العليم. فقال نافع: بصرت عيني على هذه الآية^(٥).

القرآن

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]
التفسير:

الزموا دين الله الذي فطركم عليه، فليس هناك أحسن من فطرة الله التي فطر الناس عليها، فالزموها وقولوا نحن خاضعون مطيعون لربنا في اتباعنا ملة إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨]، "أي ما نحن عليه من الإيمان هو دين الله الذي صبغنا به وفطرنا عليه فظهر أثره علينا كما يظهر الصبغ في الثوب"^(٦).

واختلف في تفسير قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨]، على أقوال^(٧):
أحدها: أن المعنى: دين الله. وهو قول أبي العالية^(٨)، ومجاهد^(٩)، والحسن^(١٠)، وإبراهيم النخعي^(٢)،
النخعي^(٢)، وعبد الله بن كثير^(٣)، والضحاك^(٤)، وقتادة^(٥)، وعكرمة^(٦)، وعطية العوفي^(٧)، والربيع بن
الربيع بن أنس^(٨)، والسدي^(٩).

(١) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٨٤/١.

(٢) ديوان بشر الأسدي: ص ١٦٥، والبيت من قصيدة، مطلعها:

أهمت منك سلمى بانطلاق * وليس وصال غانية بباقي

وسبب هذا الشعر كما نقله ابن السيرافي في شرح أبيات سيبويه: أن قوما من آل بدر الفزاريين جاؤوا بني لأم من طي، فعمد بنو لأم إلى الفزاريين فجزوا نواصيهم وقالوا: قد مننا عليكم ولم نقتلكم، وبنو فزاراة حلفاء بني أسد، فغضب بنو أسد لأجل ما صنع بالبدريين، فأنشأ بشر هذه القصيدة يذكر فيها ما صنع ببني بدر ويقول للطائيين: فاذا قد جززتم نواصيهم فاحملوها إلينا وأطلقوا من قد أسرتهم منهم، وإن لم تفعلوا فاعلموا أنا نبغيمكم ونطلبكم، فإن أصبنا أحدا منكم طلبتمونا به، فصار كل واحد منا يبغى صاحبه، فنبقى في شقاق وعداوة أبدا. راجع ديوان بشر الأسدي: ص ١٦٥ يهجو أوس بن حارثة وفيه " ما حيننا " بدل " ما بقينا "، وشرح السيرافي: ج ٢ ص ١٤، وخزانة الأدب للبغدادي: ج ١٠ ص ٢٩٧.

(٣) انظر: تفسير الثعلبي: ٢٨٤/١.

(٤) صفوة التفاسير: ٨٨/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣١٢): ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٦) صفوة التفاسير: ٨٨/١.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ١١٨/٣-١١٩، وتفسير ابن كثير: ٤٥٠/١.

(٨) انظر: تفسير الطبري (٢١١٦): ص ١١٨/٣.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢١١٨)، و(٢١١٩)، و(٢١٢٠): ص ١١٨/٣.

قال قتادة: "إن اليهود تصبغ أبناءها يهوداً، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى، وأن صبغة الله الإسلام، فلا صبغة أحسن من الإسلام، ولا أظهر، وهو دين الله بعث به نوحاً والأنبياء" (١٠).
قال عطاء: "صبغت اليهود أبناءهم خالفوا الفطرة" (١١).

الثاني: أن {صبغة الله}: فطرة الله (١٢). قاله: مجاهد (١٣)، وعبدالله ابن كثير (١٤).
وعلى قول هؤلاء تفسير الآية: "بل نتبع فطرة الله وملته التي خلق عليها خلقه، وذلك الدين القيم. من قول الله تعالى ذكره: { فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [سورة الأنعام: ١٤]. بمعنى خالق السماوات والأرض: (١٥).

الثالث: أن {صبغة الله}، أي: وجهة الله؛ بمعنى القبلة. قاله ابن كيسان (١٦).
والصواب أن {صبغة الله} هو دين الله، وذلك للوجه التي ذكرها قتادة وعطاء. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} [البقرة: ١٣٨]، "أي: لا أحد أحسن من الله صبغة ديناً وتطهيراً، ونحن نعبده جلّ وعلا ولا نعبد أحداً سواه" (١٧).
قال أبو العالية: "أي" ومن أحسن من الله ديناً" (١٨)، وروي عن مجاهد وإبراهيم النخعي والحسن والسدي والربيع بن أنس وعبد الله بن كثير نحو ذلك (١٩).

القرآن

{قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩)}

[البقرة: ١٣٩]

التفسير:

قل -أيها الرسول لأهل الكتاب-: أتجادلوننا في توحيد الله والإخلاص له، وهو رب العالمين جميعاً، لا يختص بقوم دون قوم، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم، ونحن لله مخلصو العبادة والطاعة لا نشرك به شيئاً، ولا نعبد أحداً غيره.

- (١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٤٥/١.
- (٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٤٥/١.
- (٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٤٥/١.
- (٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٤٥/١.
- (٥) انظر: تفسير الطبري (٢١١٥): ص ١١٨/٣.
- (٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٤٥/١.
- (٧) انظر: تفسير الطبري (٢١٢١): ص ١١٨/٣.
- (٨) انظر: تفسير الطبري (٢١١٧): ص ١١٨/٣.
- (٩) انظر: تفسير الطبري (٢١٢٢): ص ١١٩/٣.
- (١٠) انظر: تفسير الطبري (٢١١٣): ص ١١٧/٣-١١٨.
- (١١) انظر: تفسير الطبري (٢١١٤): ص ١١٨/٣.
- (١٢) انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة: ٥٩.
- (١٣) انظر: تفسير الطبري (٢١٢٦)، و(٢١٢٧): ص ١١٩/٣.
- (١٤) انظر: تفسير الطبري (٢١٢٨): ص ١١٩/٣.
- (١٥) تفسير الطبري: ١٢٠/٣.
- (١٦) انظر: تفسير الثعلبي: ٥/٢، وتفسير الطبراني: ٩١/١.
- (١٧) تفسير البيهقي: ١٥٨/١، وصفوة التفسير: ٨٨/١.
- (١٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣١٥): ص ٢٤٥/١.
- (١٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٤٥/١.

قوله تعالى: {قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ} [البقرة: ١٣٩]، أي: "قل أخاصموننا وتجادلوننا في دين الله الذي أمرنا أن ندينه به"^(١).

عن مجاهد: {قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ}، قل: أخاصموننا؟"^(٢).
و"المحاجة": المقاومة في إظهار الحجة البينة للحجة، أي المقصد، وقد ألزمهم بهذه الآية الحجة المذكورة في قوله: {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى}، ولما كانت الشرائع مبنية بالقول المجمل على ثلاثة أشياء: الإقرار بالباري- عز وجل-، والعمل له والإخلاص في ذلك قال، قل لهم إنا قد تشاركنا في الإقرار بالله- عز وجل- وفي العمل له ونحن قد حصل لنا الإخلاص [في ذلك] من دونكم"^(٣).

قوله تعالى: {وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} [البقرة: ١٣٩]، أي: ونحن "مخلصون لله الدين، لا نشرك به شيئاً"^(٤).

عن أبي ثمامة: "قال الحواريون: يا روح الله أخبرنا من المخلص لله، قال: الذي يعمل لله لا يحب أن يحمده الناس"^(٥).

وحقيقة الإخلاص: استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن، والرياء أن يكون ظاهره خيراً من باطنه، والصدق في الإخلاص أن يكون باطنه أعمراً من ظاهره، وقيل: تصفية العمل من كل ما يشوبه^(٦). ولهذا قال القاضي عياض: "ترك العمل من أجل الناس رياءً، والعمل من أجل الناس شركٌ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما"^(٧).

القرآن

{أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدِهِ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠)} [البقرة : ١٤٠]

التفسير:

بل أتقولون مجادلين في الله: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط- وهم الأنبياء الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل الاثنتي عشرة من ولد يعقوب- كانوا على دين اليهود أو النصارى؟ وهذا كذب؛ فقد بُعِثُوا وماتوا قبل نزول التوراة والإنجيل. قل لهم -أيها الرسول-: أنتم أعلم بدينهم أم الله تعالى؟ وقد أخبر في القرآن بأنهم كانوا حنفاء مسلمين، ولا أحد أظلم منكم حين تخفون شهادة ثابتة عندكم من الله تعالى، وتدعون خلافها افتراء على الله. وما الله بغافل عن شيء من أعمالكم، بل هو مُحْصٍ لها ومجازيكم عليها.

قوله تعالى: {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى} [البقرة: ١٤٠]، أي "أم تقولون إن امتيازكم باليهودية أو النصرانية التي أنتم عليها إنما كان بأن هؤلاء الأنبياء كانوا عليها"^(٨).

(١) تفسير الطبري: ١٢٢/٣.

(٢) تفسير الطبري (٢١٢٩): ص ١٢١/٣.

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني: ٣٢٥/١.

(٤) تفسير ابن عثيمين: ٩٩/٢.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣١٧): ص ٢٤٦/١.

(٦) مدارج السالكين، لابن القيم، ٩١/٢.

(٧) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم، ٩١/٢.

(٨) تفسير المراغي: ٢٢٩/١.

قال أبو العالية: " زعم اليهود والنصارى أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى وإنما كانت اليهودية بعد هؤلاء بزمان"^(١).

قوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ} [البقرة: ١٤٠]، "يعني: لا أحد أظلم في كتمان الشهادة ممن كتم شهادة عنده من الله"^(٢).

قال الربيع: "أهل الكتاب، كتموا الإسلام وهم يعلمون أنه دين الله، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل: أنهم لم يكونوا يهود ولا نصارى، وكانت اليهودية والنصرانية بعد هؤلاء بزمان"^(٣). وروي عن مجاهد^(٤)، والحسن^(٥)، نحو ذلك.

قال قتادة: "أولئك أهل الكتاب كتموا الإسلام وهم يعلمون أنه دين الله، واتخذوا اليهودية والنصرانية، وكتموا محمداً صلى الله عليه وسلم، وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل"^(٦).

عن أبي العالية: " قال هم اليهود والنصارى كتموا الإسلام، وهم يعلمون أنه دين الله، وكتموا محمداً - صلى الله عليه وسلم- وهم يعلمون أنه رسول الله، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل أنه ليس يهودياً ولا نصرانياً"^(٧).

واختلف في قوله تعالى: {مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ} [البقرة: ١٤٠]، على قولين^(٨):

أحدهما: يريد علمهم بأن الأنبياء كانوا على الإسلام. قاله مجاهد^(٩)، والربيع^(١٠) والحسن^(١١). قال الحسن: " كانت شهادة الله الذي كتموا أنهم كانوا يقرءون في كتاب الله الذي أتاهم إن الدين الإسلام، وأن محمداً رسول الله، وأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا براء من اليهودية والنصرانية. فشهدوا لله بذلك، وأقروا به على أنفسهم فكتموا شهادة الله: عندهم من ذلك. فذلك ما كتموا من شهادة الله {وما الله بغافل عما تعملون}"^(١٢).

والثاني: يريد: ما كتموه اليهود من أمر محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته، وهم يعلمون ذلك ويجدونه في كتبهم. قاله قتادة^(١٣)، والربيع^(١٤).

والقول الأول أشبه بسياق الآية، إذ جاء إثر سرد قصة أنبيائه لهم. والله تعالى أعلم.

القرآن

{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)} [البقرة :

[١٤١

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣١٨): ص ٢٤٦/١.

(٢) تفسير ابن عثيمين: ١٠١/٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢١٣٥): ص ١٢٥/٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢١٣٢)، (٢١٣٣): ص ١٢٤/٣.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢١٣٤): ص ١٢٥/٣.

(٦) انظر: تفسير الطبري (٢١٣٦)، (٢١٣٧): ص ١٢٦/٣-١٢٧.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣١٩): ص ٢٤٦/١.

(٨) انظر: تفسير القرطبي: ١٤٧/٢، وتفسير ابن كثير: ٤٥١/١.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢١٣٢)، (٢١٣٣): ص ١٢٤/٣.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢١٣٥): ص ١٢٥/٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري (٢١٣٤): ص ١٢٥/٣.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٢٠): ص ٢٤٦/١.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (٢١٣٦)، (٢١٣٧): ص ١٢٦/٣-١٢٧.

(١٤) انظر: تفسير الطبري (٢١٣٦): ص ١٢٦/٣.

التفسير:

تلك أمة من أسلافكم قد مضت، لهم أعمالهم ولكم أعمالكم، ولا تُسألون عن أعمالهم، وهم لا يُسألون عن أعمالكم. وفي الآية قطع للتعلق بالمخلوقين، وعدم الاغترار بالانتساب إليهم، وأن العبرة بالإيمان بالله وعبادته وحده، واتباع رسله، وأن من كفر برسول منهم فقد كفر بسائر الرسل. قوله تعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ} [البقرة: ١٤١]، "أي: إن جماعة الأنبياء قد مضت بالموت"^(١).

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قوله: "تلك"، يعني "هذه"^(٢). وقوله تعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ} [البقرة: ١٤١]، يعني: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط. قاله قتادة^(٣)، والربيع^(٤)، وأبو العالية^(٥). و(الأمة) في الأصل: "المقصود، وسمي بها الجماعة، لأن الفرق تؤمها"^(٦). قال أبو المليح: "الأمة: ما بين الأربعين إلى المائة فصاعدا"^(٧). قوله تعالى: {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ} [البقرة: ١٤١]، "أي: لها ما كسبت من الأعمال، ولكم ما كسبتم منها"^(٨). قال سعيد بن جبیر: "يعني: ما عملت من خير أو شر"^(٩).

القرآن

{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢)} [البقرة: ١٤٢]

التفسير:

سيقول الجاهل وضعاف العقول من اليهود وأمثالهم، في سخرية واعتراض: ما الذي صرف هؤلاء المسلمين عن قبلتهم التي كانوا يُصلُّون إلى جهتها أول الإسلام؛ وهي "بيت المقدس" قل لهم -أيها الرسول-: المشرق والمغرب وما بينهما ملك لله، فليست جهة من الجهات خارجة عن ملكه، يهدي من يشاء من عباده إلى طريق الهداية القويم. وفي هذا إشعار بأن الشأن كله لله في امتثال أوامره، فحيثما وجَّهنا ثَوَجَّهنا.

قوله تعالى: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا} [البقرة: ١٤٢]، "أي: سيقول الجاهل وضعاف العقول من اليهود وأمثالهم، في سخرية واعتراض: ما الذي صرف هؤلاء المسلمين عن قبلتهم التي كانوا يُصلُّون إلى جهتها أول الإسلام؛ وهي "بيت المقدس"^(١٠). عن ابن جريج عن عطاء، ومجاهد، يزيد بعضهم على بعض: "مَا وَلَّاهُمْ": ما صرفهم"^(١١). وفي والمراد بـ{السفهاء} [البقرة: ١٤٢]، -ها هنا- أقوال:

(١) تفسير المراغي: ٢٣٠/١.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١٢٨٦): ص ٢٤٠/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢١٤٠): ص ١٢٨/٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢١٤١): ص ١٢٨/٣.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢٨٧): ص ٢٤١/١.

(٦) تفسير البيضاوي: ١٠٨/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٢١): ص ٢٤٦/١.

(٨) تفسير المراغي: ٢٣٠/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٨٨): ص ٢٤١/١.

(١٠) التفسير الميسر: ٢٢.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٢٥): ص ٢٤٧/١.

أحدها : أنهم اليهود ، وهو قول الحسن^(١) .
 وذلك " لكرهتهم التوجه إلى الكعبة، وأنهم لا يرون النسخ"^(٢)، ومن جهة أخرى أنهم كانوا يأنسون بموافقة الرسول لهم في القبلة، وكانوا يظنون أن موافقته لهم في القبلة ربما تدعوه إلى أن يصير موافقا لهم بالكلية، فلما تحول عن تلك القبلة استوحشوا من ذلك واغتموا وقالوا: قد عاد إلى طريقة آبائه، واشتاق إلى دينهم، ولو ثبت على قبلتنا لعلمنا أنه الرسول المنتظر المبشر به في التوراة، فقالوا: ما حكى الله عنهم في هذه الآية^(٣) .
 والثاني : المنافقون ، وهو قول السدي^(٤) .

عن السدي: "فأنزل الله في المنافقين: {سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم}"^(٥) .
 وذلك لحرصهم على الطعن والاستهزاء"^(٦) .
 والثالث : كفار قريش. حكاه الزجاج^(٧)، وقاله الحسن^(٨) .
 إذ أنهم: "قالوا: رغب عن قبلة آبائه ثم رجع إليها، والله ليرجعن إلى دينهم"^(٩) .
 الرابع: أنهم اليهود وأهل النفاق، عزاه ابن عطية للسدي^(١٠) .

إذ "قالها بعض اليهود والمنافقون استهزاء، وذلك أنهم قالوا: اشتاق الرجل إلى وطنه"^(١١) .

أن المراد بالسفهاء: الكفار وأهل النفاق واليهود، والآية عامة في هؤلاء كلهم ، يدل عليه وهو قوله: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} [البقرة : ١٣٠] فوجب أن يتناول الكل.

مع أن هذه الأقوال لا تعارض بينها لاحتمال أن يكون كل صاحب قول ذكر ذلك من باب التفسير بالجزء والمثال أو على سبيل بيان الطائفة التي نزلت فيهم الآية^(١٢)، إلا أن الأولى أن المراد بالسفهاء: الكفار وأهل النفاق واليهود، والآية عامة في هؤلاء كلهم ، يدل عليه وهو قوله: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} [البقرة : ١٣٠] فوجب أن يتناول الكل. لأن جمع السفهاء محلى بال وهو يفيد العموم فيدخل فيه الكل. والله أعلم.
 روي عن سعيد بن المسيب: "أن الأنصار صلت القبلة الأولى، قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم بثلاث حجج، وأن النبي صلى الله عليه وسلم صلى القبلة الأولى بعد قدومه المدينة ستة عشر شهراً"^(١٣) .

قلت : المشهور أن هذا التحويل قد تم في ليلة للنصف من شعبان للسنة الثانية من الهجرة ، وهذا القول خلاف ما قال به الجمهور. والله أعلم.
 وقد اختلف العلماء في السبب الذي كان من أجله يُصلي رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس ، قبل أن يُفرض عليه التوجه شطر الكعبة، وفيه قولان:
 أحدهما: أن ذلك كان باختيار من النبي صلى الله عليه وسلم. قاله عكرمة^(١٤)، والحسن البصري^(١)، البصري^(١)، والربيع^(٢) .

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٣٢٣):ص٢٤٧/١.

(٢) الكشاف: ١٩٨/١.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٤/٤، وتفسير الطبري: ١٣٩/٣-١٤٠، وزاد المسير: ١٥٣/١، والنكت والعيون للماوردي: ١٩٧/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري(٢١٤٨):ص١٣٠/٣، وابن أبي حاتم(١٣٢٤):ص٢٤٧/١.

(٥) انظر: تفسير الطبري(٢١٤٨):ص١٣٠/٣، وابن أبي حاتم(١٣٢٤):ص٢٤٧/١.

(٦) الكشاف: ١٩٨/١.

(٧) انظر: معاني القرآن: ٢١٨/١.

(٨) انظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٧٩/٤، زاد المسير لابن الجوزي: ١٥٣/١.

(٩) الكشاف: ١٩٨/١.

(١٠) انظر: المحرر الوجيز: ٢١٨/١.

(١١) المحرر الوجيز: ٢١٨/١. حكاه عن السدي.

(١٢) انظر: روح المعاني للألوسي: ٢/٢.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(٢١٥٧):ص١٣٧/٣، و(٢١٥٤):ص١٣٤/٣.

(١٤) انظر: تفسير الطبري(٢١٥٨):ص١٣٨/٣.

الثاني: أنه كان بفرض الله عز ذكره عليهم. وهو قول ابن جريج^(٣).
 قوله تعالى: {يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: ١٤٢]، أي " والله يسدّد من يشاء من خلقه ويُرشدّه إلى الطريق القويم على الحق الذي لا اعوجاج فيه"^(٤).
 قال أبو العالية: " يهديهم إلى المخرج من الشبهات والضلالات والفتنة"^(٥).

القرآن

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)} [البقرة: ١٤٣]

[١٤٣]

التفسير:

وكما هديناكم -أيها المسلمون- إلى الطريق الصحيح في الدين، جعلناكم أمة خياراً عدولاً لتشهدوا على الأمم في الآخرة أن رسلهم بلغتهم رسالات ربهم، ويكون الرسول في الآخرة كذلك شهيداً عليكم أنه بلغكم رسالة ربه. وما جعلنا -أيها الرسول- قبلة "بيت المقدس" التي كنت عليها، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة بـ "مكة"، إلا ليظهر ما علمناه في الأزل؛ علماً يتعلّق به الثواب والعقاب لتمييز من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيث توجهت، ومن هو ضعيف الإيمان فينقلب مرتدّاً عن دينه لشكّه ونفاقه. وإن هذه الحال التي هي تحول المسلم في صلاته من استقبال بيت المقدس إلى استقبال الكعبة لثقلها شاقّة إلا على الذين هداهم ومنّ عليهم بالإيمان والتقوى وما كان الله ليضيع إيمانكم به واتباعكم لرسوله، ويبطل صلاتكم إلى القبلة السابقة. إنه سبحانه وتعالى بالناس لرءوف رحيم.

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [البقرة: ١٤٣]، " أي كما هديناكم إلى الإسلام كذلك جعلناكم يا معشر المؤمنين أمة عدولاً خياراً"^(٦).

عن سعيد بن جبیر: " {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}، قال، عدولاً"^(٧). وروي عن مجاهد^(٨)، وقتادة^(٩)، والربيع^(١٠)، وعطاء^(١١)، وعبد الله بن كثير^(١٢)، وحبان بن أبي جيلة^(١٣) مثل ذلك. والدليل عليه: الآية والخبر والشعر والنقل والمعنى^(١٤):

أ- أما الآية فقوله تعالى: {قَالَ أَوْسَطُهُمْ} [القلم: ٢٨]، "أي: أعدلهم"^(١٥).

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢١٥٨): ص ١٣٨/٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢١٥٩): ص ١٣٨/٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢١٦١): ص ١٣٩/٣.

(٤) تفسير الطبري: ٢٨٦/٤.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٣٠): ص ٢٤٨/١.

(٦) صفوة التفاسير: ٩٠/١.

(٧) انظر: تفسير الطبري (٢١٦٩): ص ١٤٤/٣.

(٨) انظر: تفسير الطبري (٢١٧٠)، و (٢١٧١): ص ١٤٤/٣.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢١٧٢)، و (٢١٧٣): ص ١٤٤/٣.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢١٧٤): ص ١٤٤-١٤٤/٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري (٢١٧٥): ص ١٤٥/٣.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢١٧٧): ص ١٤٥/٣.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (٢١٧٦): ص ١٤٥/٣.

(١٤) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٤/٤.

(١٥) مفاتيح الغيب: ٨٤/٤.

ب- ومن الأخبار:

- ما أخرجه الطبري عن أبي سعيد، وأبي هريرة، عن النبي صلى الله في قوله : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}، قال ، عُدُولًا^(١).

- وروي عنه عليه الصلاة والسلام: "خير الأمور أوسطها"^(٢)، "أي أعدلها"^(٣).

- وقيل: كان النبي صلى الله عليه وسلم أوسط قريش نسبا، وقال عليه الصلاة والسلام: "عليكم بالنمط الأوسط"^(٤).

- وروي عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم. فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد ، فيقال لنوح : من يشهد لك؟ فيقول : محمد وأمته" قال : فذلك قوله : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} ^(٥). قال : الوسط: العدل ، فتدعون ، فتشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم"^(٦).

- وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يجيء النبي يوم القيامة [ومعه الرجل والنبي] ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه ، فيقال [لهم] هل بلغكم هذا ؟ فيقولون : لا. فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم. فيقال [له] من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته فيدعى بمحمد وأمته ، فيقال لهم : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم. فيقال : وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا صلى الله عليه وسلم فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا" فذلك قوله عز وجل : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} قال : "عدلا {لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}" ^(٧).

ج- وأما الشعر، فقول زهير^(٨):

هُمُ وَسَطٌ تَرْضَى الْأَنَامُ بِحُكْمِهِمْ ... إِذَا نَزَلَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي بِمُعْظَمِ

د-وأما النقل: فقال الجوهري: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}، أي عدلا"^(٩)، وهو الذي قاله الأخفش^(١٠)، والخليل^(١١)، وقطرب^(١٢)، وابن منظور^(١٣)، والفيروزآبادي^(١٤)، والرازي^(١٥)، وغيرهم. وغيرهم.

(١) تفسير الطبري(٢١٦٥)، و(٢١٦٦)، و(٢١٦٧)، و(٢١٦٨):ص٣/١٤٢-١٤٣، ورواه الإمام أحمد في المسند: ٩/٣.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان:(٦٦٥١):ص٥/٢٦١، عن مطرف وإسناده صحيح موقوف، ومن طريق ابن وهب(٢٧٣ /٣)، وإسناده ضعيف، و رواه البيهقي في السنن الكبرى (٢٧٣/٣):بإسناده عن عمرو بن الحارث، وقال هذا منقطع.

(٣) مفاتيح الغيب: ٨٤/٤.

(٤) قال العراقي في "تخريج الإحياء: ١ / ١٠٦: حديث: "عليكم بالنمط الأوسط"، رواه أبو عبيد في "غريب الحديث" موقوفا على علي بن أبي طالب، ولم أجده مرفوعا، وذكره في "اللسان" ٨ / ٤٨٣٣ "وسط" من كلام علي. وفي "تفسير القرطبي" ٢ / ١٤٠ - ١٤١: "عليكم بالنمط الأوسط، فإنه ينزل العالي وإليه يرتفع النازل". والنمط: جماعة من الناس أمرهم واحد، وقيل هو الطريقة.

(٥) المسند: ٣٢/٣.

(٦) صحيح البخاري برقم (٣٣٣٩ ، ٤٤٨٧) وسنن الترمذي برقم (٢٩٦١) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٠٠٧) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٨٤).

(٧) المسند: ٥٨/٣.

(٨) ديوانه: ٢٧/٢، و شرح المعلمات العشر: ٥٧.

(٩) الصحاح: ١١٦٧/٣، (وسط).

(١٠) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٤/٤، ولم أجده في معاني القرآن.

(١١) انظر: العين: ٢٧٩/٧. ولفظه: "والوسط من الناس وكل شيء: أعدلته، وأفضله، ليس بالغالي ولا المقصر".

(١٢) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٤/٤.

(١٣) انظر: لسان العرب: ٤٢٨/٧(وسط).

هـ- وأما المعنى، فمن وجوه^(٣):

أحدها: أن الوسط حقيقة في البعد عن الطرفين، ولا شك أن طرفي الإفراط والتفريط رديان فالمتوسط في الأخلاق يكون بعيدا عن الطرفين فكان معتدلا فاضلا.
وثانيها: إنما سمي العدل وسطا، لأنه لا يميل إلى أحد الخصمين، والعدل هو المعتدل الذي لا يميل إلى أحد الطرفين.

وثالثها: لا شك أن المراد بقوله: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا} طريقة المدح لهم، لأنه لا يجوز أن يذكر الله تعالى وصفا ويجعله كالعلة في أن جعلهم شهودا له ثم يعطف على ذلك شهادة الرسول إلا وذلك مدح فثبت أن المراد بقوله: (وسطا) ما يتعلق بالمدح في باب الدين، ولا يجوز أن يمدح الله الشهود حال حكمه عليهم بكونهم شهودا إلا بكونهم عدولا، فوجب أن يكون المراد في الوسط العدالة.

ورابعها: أن أعدل بقاع الشيء وسطه، لأن حكمه مع سائر أطرافه على سواء وعلى اعتدال، والأطراف يتسارع إليها الخلل والفساد والأوسط محمية محوطة فلما صح ذلك في الوسط صار كأنه عبارة عن المعتدل الذي لا يميل إلى جهة دون جهة.

وخامسها: أنه سمي العدل وسطا، من وسط الوادي والقاع، وهو خير موضح فيه، وأكثره كلاً وماءً، وذلك أن في غالب الأمر الماء ييرح وسط الوادي؛ لأنه في الصيف وشدة الحر ينحسر عن الأطراف إلى جوف الوادي، فيكون الكلاً هناك أكثر، ولذلك تقول العرب: انزل وسط الوادي، أي: خير مكان منه^(٤)، فعلى هذا (الوسط) اسم وصف به^(٥).

قوله تعالى: {لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [البقرة: ١٤٣]، " أي لتشهدوا على الأمم يوم القامة أن رسلهم بلغتهم"^(٦).

قال الحسن: " أي: عدلا على الناس"^(٧).

قال أبو العالية: " لتكونوا شهداء على الأمم التي خلت قبلكم، بما جاءتهم به رسلهم وبما كذبوهم"^(٨).

قوله تعالى: {وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣]، أي: " ويشهد عليكم الرسول أنه بلغكم"^(٩).

قال الحسن: " أي: عدلا"^(١٠).

قال عطاء: " يشهد أنهم قد آمنوا بالحق إذ جاءهم وقبلوه وصدقوا به"^(١١). وروي عن أبي العالية، وعكرمة، وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك"^(١٢).

(١) انظر: القاموس المحيط: ٦٩١/١ (وسط).

(٢) انظر: الصحاح: ٣٣٨، (وسط).

(٣) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٤/٤.

(٤) انظر: اللسان: (وسط).

(٥) انظر: التفسير البسيط: ٣٧٢/٣، ومعاني القرآن للزجاج: ٢١٩/١.

(٦) صفوة التفاسير: ٩٠/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٣٣): ص ٢٤٩/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٣٥): ص ٢٤٩/١.

(٩) صفوة التفاسير: ٩٠/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٣٨): ص ٢٥٠/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٣٧): ص ٢٥٠/١.

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ص ٢٥٠/١.

قلت: وكون النبي-صلى الله عليه و آله- شاهداً على أمته وعلى الناس أجمعين هذه حقيقة قرآنية قد نصّ عليها القرآن في سور عديدة وآيات كثيرة، منها الآية المبحوث عنها {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا} وهكذا قال تعالى في سورة الفتح: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الفتح: ٩]، ومنها قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا} [المزمل: ١٦]، بل يصرح القرآن المجيد بأن كل أمة من الأمم جعل الله عليها شهيداً منهم من نبي أو رسول أو إمام، قال تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء: ٤٢]، وقال تعالى: {وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [القصص: ٧٦]، وقال تعالى: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ} [النمل: ٩٠]، وقال تعالى: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} [النحل: ٨٥]، وقال تعالى: {وَوَضِعَ الْكِتَابَ وَجِيءَ بِالتَّبْيِينِ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [الزمر: ٧٠].

وقد يسأل السائل: من المراد من الأمة الوسط، هل هي الأمة الإسلامية بكاملها، تشهد على الناس ويشهد بعضها على بعض؟

فنقول: أجمع أهل العلم بأن الأمة الوسط هم الموصوفون بالعدالة والخيرية، ولا شك بأن الشاهد يجب أن يكون عادلاً وإلا لا يصح الاستشهاد به في الدنيا فضلاً عن الآخرة، قال تعالى: {وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ} [الطلاق: ٣]، والحال الأمة الإسلامية – بحكم الضرورة والبداهة – فيها العادل والظالم، والمؤمن والمنافق، والبر والفاجر، فكيف يستشهد الله تعالى بهم جميعاً؟ هذا ما لا يرتضيه العقل ويخالف الوجدان والذوق والمنطق السليم، والتحليل العلمي ويخالف أيضاً القرآن العظيم، يقول تعالى مخاطباً المؤمنين من هذه الأمة: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: ١٤١]، فقله تعالى: {وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ} لفظة "منكم" هنا للتبعيض، أي يتخذ بعضكم شهداء، فلو أن الأمة تشهد لقال: {ويتخذكم شهداء} وهذا دليل قرآني واضح على أن الشهداء على الأمة الإسلامية بعضها لا كلها. والله تعالى أعلم.

أما القول بأن الأمة الوسط الشهيدة على الناس، هي الأمة الإسلامية بأجمعها^(١)، فهذا فيه نظر، إذ روي عن الضحاك في قوله: " لتكونوا شهداء على الناس " ، يعني بذلك: الذين استقاموا على الهدى ، فهم الذين يكونون شهداء على الناس يوم القيامة ، لتكذيبهم رسل الله وكفرهم بأيات الله^(٢).

قوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ} [البقرة: ١٤٣]، " أي: وما أمرناك بالتوجه إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة"^(٣).
عن ابن جريج، قال: " قلت لعطاء: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا}؟ قال لي عطاء: بيت المقدس"^(٤). وروي عن عطية والسدي نحو ذلك^(٥).

(١) انظر: تفسير الدر المنثور: ١/١٤٤، نقلاً عن رجل مجهول إنه سال ابن عمر فقال: "والأمة الوسط أمة محمد(صلى الله عليه و آله) جميعاً.

(٢) تفسير الطبري(٢١٩٦):ص ١٥٢/٣.

(٣) صفوة التفاسير: ٩٠/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٣٤٠):ص ٢٥٠/١.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٥٠/١.

قوله تعالى: {إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ} [البقرة: ١٤٣]، أي "إلا لنختبر إيمان الناس فنعلم من يصدق الرسول، ممن يشكك في الدين ويرجع إلى الكفر لضعف يقينه"^(١).

قال الطبري: أي: "ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبه، أي: مرثداً عن دينه"^(٢).

وفي قوله تعالى: {إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ} [البقرة: ١٤٣]، ثلاثة أوجه^(٣):

قوله تعالى: {وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ} [البقرة: ١٤٣]، "أي وإن كان هذا التحويل لشاقاً وصعباً إلا على الذين هداهم الله"^(٤).

قال مجاهد: "يقول: ما أمروا به من التحول إلى الكعبة من بيت المقدس"^(٥)، وروي عن أبي العالية، وقتادة، ومقاتل بن حيان نحو ذلك^(٦).

عن قتادة: {هُدَى اللَّهُ}، قال: "عصم الله"^(٧).

قال الحسن: "سمعت الله يقول: {وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ}، فإني ممن هدى الله"^(٨).

والمراد بالهداية هنا: "هداية العلم، وهداية التوفيق؛ أما كونها هداية العلم فلأن الذين يخشون الله هم العلماء، كما قال الله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨] أي العلماء به، وبأسماؤه، وصفاته، وبأحكامه؛ هذه هي هداية العلم؛ لأنهم إذا علموا خشوا الله سبحانه وتعالى، ولم يكرهوا شريعته، ولم يكبر ذلك عليهم، ولم يشق؛ كذلك هداية التوفيق - وهي المهمة: إذا وفق العبد للانقياد لله سبحانه وتعالى سهل عليه دينه، وصار أيسر عليه من كل شيء، كما قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} [الليل: ٥-٧]"^(٩).

و"الكبر": "يراد به الشيء الشاق العظيم؛ ومنه قوله -صلى الله عليه وسلم- في صاحبَي القبرين: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير»^(١٠)، أي في أمر شاق عليهما"^(١١).

وفي قوله تعالى: {وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ} [البقرة: ١٤٣]، وجهان من التفسير:

أحدها: معناه وإن التولية عن بيت المقدس إلى الكعبة والتحويل إليها لكبيرة، وهذا قول مجاهد^(١١)، وقتادة^(١٢).

(١) صفوة التفاسير: ٩٠/١.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤٥٧/١.

(٣) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١١٠/٢.

(٤) صفوة التفاسير: ٩٠/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٤٤): ص ٢٥١/١.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٥١/١.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٣٤٥): ص ٢٥١/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٤٦): ص ٢٥١/١.

(٩) تفسير ابن عثيمين: ٤٩/٢.

(١٠) أخرجه البخاري ص ٢٠، كتاب الوضوء، باب ، حديث رقم ٢١٨، وأخرجه مسلم ص ٧٢٧، كتاب الطهارة، باب ٣٤: الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، حديث رقم ٦٧٧ [١١١] ٢٩٢.

(١١) تفسير ابن عثيمين: ٤٩/٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢٢١١)، و(٢٢١٢): ص ١٦٤/٣.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (٢٢١٣): ص ١٦٤/٣.

والتأنيث في قوله {كانت}، للتولية، لأنه قال: {ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها} ثم قال عطا على هذا: {وإن كانت لكبيرة} أي وإن كانت التولية. الثاني: إن الكبيرة هي القبلة بعينها التي كان رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يتوجه إليها من بيت المقدس قبل التحويل، وهذا قول أبي العالية الرياحي^(١). لأنه لا بد له من مذكور سابق وما ذاك إلا القبلة في قوله: {وما جعلنا القبلة التي كنت عليها} [البقرة: ١٤٣].

والراجح هو القول الأول، " لأن القوم إنما كُبر عليهم تحويل النبي صلى الله عليه وسلم وجهه عن القبلة الأولى إلى الأخرى، لا عين القبلة، ولا الصلاة. لأن القبلة الأولى والصلاة، قد كانت وهي غير كبيرة عليهم"^(٢).

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ} [البقرة: ١٤٣]، أي "ما كان الله يترك إيمانكم سدى بدون مجازاة عليه"^(٣).

قال الحسن: "أي: ما كان الله ليضيع محمدا وانصرافكم معه حيث انصرف، إن الله بالناس لرؤف رحيم"^(٤).

وعنى (الإيمان)، في هذا الموضع: (الصلاة). قاله: قتادة^(٥)، والسدي^(٦)، والربيع^(٧)، وداود بن أبي عاصم^(٨)، وسعيد بن مسيب^(٩). وفي سبب تسمية الصلاة بالإيمان، وجهان^(١٠):

أحدهما: أن الصلاة سميت إيمانا، لما كانت صادرة عن الإيمان والتصديق في وقت بيت المقدس وفي وقت التحويل، ولما كان الإيمان قطبا عليه تدور الأعمال وكان ثابتا في حال التوجه هنا وهنا ذكره، إذ هو الأصل الذي به يرجع في الصلاة وغيرها إلى الأمر والنهي، ولئلا تندرج في اسم الصلاة صلاة المنافقين إلى بيت المقدس فذكر المعنى الذي هو ملاك الأمر. والثاني: أنها سميت إيمانا، إذ هي من شعب الإيمان.

وقرأ الضحاك: {لِيُضَيِّعَ}، بفتح (الضاد) وشد (الياء)^(١١). قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ} [البقرة: ١٤٣]، "أي إن الله رءوف بعباده، لأنه ذو الرحمة الواسعة"^(١٢).

عن سعيد بن جبير: " {لرءوف}، قال: يرأف بكم، {رحيم}، يعني: بالمؤمنين"^(١٣).
عن سعيد بن أبي عروبة " {لرءوف رحيم}، يعني: رءوف رقيق"^(١٤).
قال محمد بن إسحاق: {رحيم}، قال: يرحم الله العباد على ما فيهم"^(١).

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٢١٤): ص ١٦٤/٣.

(٢) تفسير الطبري: ١٦٥/٣.

(٣) تفسير ابن عثيمين: ٥٠/٢.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٤٩): ص ٢٥٢/١.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٢٢٣): ص ١٦٨/٣.

(٦) انظر: تفسير الطبري (٢٢٢٤): ص ١٦٨/٣.

(٧) انظر: تفسير الطبري (٢٢٢٥): ص ١٦٨/٣.

(٨) انظر: تفسير الطبري (٢٢٢٦): ص ١٦٨/٣-١٦٩.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢٢١٩): ص ١٦٧/٣.

(١٠) انظر: المحرر الوجيز: ٢٢١/١.

(١١) انظر: المحرر الوجيز: ٢٢١/١.

(١٢) تفسير المراغي: ٨/٢.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٥١)، (١٣٥٣): ص ٢٥٢/١.

(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٥٠): ص ٢٥٢/١.

القرآن
 {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} (البقرة : ١٤٤)

التفسير:

قد نرى تحوُّل وجهك -أيها الرسول- في جهة السماء، مرة بعد مرة؛ انتظاراً لنزول الوحي إليك في شأن القبلة، فلنصرفنك عن "بيت المقدس" إلى قبلة تحبها وترضاها، وهي وجهة المسجد الحرام بـ "مكة"، فولِّ وجهك إليها. وفي أي مكان كنتم -أيها المسلمون- وأردتم الصلاة فتوجهوا نحو المسجد الحرام. وإن الذين أعطاهم الله علم الكتاب من اليهود والنصارى ليعلمون أن تحويلك إلى الكعبة هو الحق الثابت في كتبهم. وما الله بغافل عما يعمل هؤلاء المعترضون المشككون، وسيجازيهم على ذلك.

سبب لنزول:

قال السدي: "كان الناس يصلون قبل بيت المقدس، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجره، كان إذا صلى رفع رأسه إلى السماء ينظر ما يؤمر، وكان يصلي قبل بيت المقدس، فنسختها الكعبة. فكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب أن يصلي قبل الكعبة، فأنزل الله جل ثناؤه: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} الآية" (٣).

قوله تعالى: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} [البقرة: ١٤٤]، "أي قد نرى تردد نظرك جهة السماء حيناً بعد حين، تطلعا للوحي بتحويل القبلة إلى الكعبة" (٣).
 قال أبو العالية: "يقول: قد نرى نظرك إلى السماء" (٤).

قال الربيع: "يقول: نظرك في السماء. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقلب وجهه في الصلاة وهو يصلي نحو بيت المقدس، وكان يهوى قبلة البيت الحرام، فولاه الله قبلة كان يهواها" (٥).
 عن مجاهد، قال: "قالت اليهود: يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا! فكان يدعو الله جل ثناؤه، ويستقرض للقبلة، فنزلت: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، وانقطع قول يهود: يخالفنا ويتبع قبلتنا! - في صلاة الظهر، فجعل الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال" (٦).

وقد اختلف في السبب الذي من أجله كان صلى الله عليه وسلم يهوى قبلة الكعبة، وفيه قولان:

أحدهما: أنه كره قبلة بيت المقدس، من أجل أن اليهود قالوا: يتبع قبلتنا ويخالفنا في ديننا! قاله مجاهد (٧).

عن مجاهد قال: قالت اليهود: يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا! فكان يدعو الله جل ثناؤه، ويستقرض للقبلة، فنزلت: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٥٢): ص ٢٥٢/١.

(٢) أخرجه الطبري (٢٢٣٣): ص ١٧٣/٣.

(٣) تفسير المراغي: ٩/٢.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٥٦): ص ٢٥٣/١.

(٥) أخرجه الطبري (٢٢٣٢): ص ١٧٣/٣.

(٦) انظر: تفسير الطبري (٢٢٣٤): ص ١٧٣/٣-١٧٤.

(٧) انظر: تفسير الطبري (٢٢٣٤): ص ١٧٣/٣-١٧٤.

المسجد الحرام، -وانقطع قول يهود: يخالفنا ويتبع قبلتنا! - في صلاة الظهر، فجعل الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال"^(١).

الثاني: أنه كان يهوى ذلك ، من أجل أنه كان قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام. روي نحوه عن أبي العالية^(٢).

قال أبو العالية: { فلنولينك قبلة ترضاها }، وذلك أن الكعبة كانت أحب القبلتين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يقبل وجهه في السماء، وكان يهوى الكعبة، فولاه الله قبلة كان يهواها ويرضاها"^(٣).

قوله تعالى: {فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} [البقرة: ١٤٤]، " أي فلنوجهنك إلى قبلة تحبها، - وهي الكعبة"^(٤).

قال أبو العالية: " فولاه الله قبلة كان يهواها ويرضاها"^(٥).
قوله تعالى: {قَوْلَ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [البقرة: ١٤٤]، " أي: فاجعل وجهك بحيث يلي جهة المسجد الحرام"^(٦).

عن أبي العالية: {شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، يعني: تلقاءه"^(٧). وروي عن الربيع^(٨) مثله.

قال قتادة: " أي: تلقاء المسجد الحرام". وفي لفظ: " نحو المسجد الحرام"^(٩).

عن مجاهد: " {شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، نحوه"^(١٠).

وسمي المسجد (حراماً)؛ "لأنه يمنع فيه من أشياء لا تمنع في غيره، ولأنه محترم معظم؛ والمراد به الكعبة، وما حولها من البناء المعروف"^(١١).

قوله تعالى: {وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ} [البقرة: ١٤٤]، " أي إن اليهود والنصارى ليعلمون أن هذا التحويل للقبلة حق من عند الله"^(١٢).

عن السدي: " {وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، أنزل ذلك في اليهود"^(١٣).

أي: أن هؤلاء الأحرار والعلماء من أهل الكتاب، يعلمون أن التوجه نحو المسجد، الحق^(١٤) الذي فرضه الله عز وجل على إبراهيم وذريته وسائر عبادته بعده^(١٥)، وأن هذا التحويل كان في إشارة أنبيائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يصلي إلى القبلتين. والله أعلم.

قوله تعالى: {وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} [البقرة: ١٤٤]، " أي: وليس^(١) الله بغافل عما تعملون أيها المؤمنون يجازيكم به أحسن جزاء"^(٢).

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٢٣٤): ص ١٧٣/٣-١٧٤.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٥٨): ص ٢٥٣/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٥٨): ص ٢٥٣/١.

(٤) صفة التفسير: ٩٠/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٥٨): ص ٢٥٣/١.

(٦) تفسير المراغي: ١٠/٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري (٢٢٣٧)، ص ١٧٦/٣، وابن أبي حاتم (١٣٦١): ص ٢٥٤/١.

(٨) انظر: تفسير الطبري (٢٢٢٢٤٣٣٩): ص ١٧٧/٣.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢٢٤١)، و (٢٢٤٢): ص ١٧٦/٣.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٢٣٩)، و (٢٢٤٠): ص ١٧٦/٣.

(١١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٥٤/٢.

(١٢) صفة التفسير: ٩٠/١.

(١٣) أخرجه الطبري (٢٢٥٦): ص ١٨٣/٣.

(١٤) و(الحق) معناه الشيء الثابت؛ فإن أضيف إلى الخبر فهو الصدق؛ وإن أضيف إلى الحكم فهو العدل؛ قال الله تعالى: {وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً} [الأنعام: ١١٥].

(١٥) انظر: تفسير الطبري: ١٨٣/٣.

عن السدي قال: ثم أنزل الله في اليهود: { وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ } [البقرة: ١٤٤] (٣).

القرآن

{وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)} [البقرة: ١٤٥]

التفسير:

ولئن جئت -أيها الرسول- الذين أعطوا التوراة والإنجيل بكل حجة وبرهان على أن توجّهك إلى الكعبة في الصلاة هو الحق من عند الله، ما تبعوا قبلك عنادًا واستكبارًا، وما أنت بتابع قبلتهم مرة أخرى، وما بعضهم بتابع قبلة بعض. ولئن اتبعت أهواءهم في شأن القبلة وغيرها بعد ما جاءك من العلم بأنك على الحق وهم على الباطل، إنك حينئذ لمن الظالمين لأنفسهم. وهذا خطاب لجميع الأمة وهو تهديد ووعد لمن يتبع أهواء المخالفين لشريعة الإسلام (٤).
سبب النزول:

أخرج الطبري من طريق أسباط عن السدي قال: "وإنما أنزلت هذه الآية من أجل أن النبي صلى الله عليه وسلم لما حوّل إلى الكعبة، قالت اليهود: إن محمدًا اشتاق إلى بلد أبيه ومولده! ولو ثبت على قبلتنا لكانا نرجو أن يكون هو صاحبنا الذي ننتظر! فأنزل الله عز وجل فيهم: {وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم}، إلى قوله: {ليكنتمون الحق وهم يعلمون} (٥). وروي عن قتادة (٦)، نحوه.

قوله تعالى: {وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ} [البقرة: ١٤٤]، أي: "وما اليهود بتابعة قبلة النصارى، ولا النصارى بتابعة قبلة اليهود فمتوجهة نحوها" (٧).
قال السدي: "يقول: ما اليهود بتابعي قبلة النصارى، ولا النصارى بتابعي قبلة اليهود" (٨).
وروي عن ابن زيد وابن زيد (٩) مثله.

قوله تعالى: {وَلَيْنَ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} [البقرة: ١٤٤]، أي: "ولئن التمسيت يا محمد رضا هؤلاء اليهود والنصارى، فاتبعت قبلتهم بعد ما جاءك الحق اليقين، والعلم الذي لا شك فيه" (١٠).

عن محمد بن إسحاق: "قوله تعالى: { مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ } فيما اقتضت عليك من الخبر" (١١).

(١) قوله تعالى: (وما الله بغافل عما يعملون)؛ { ما } هنا حجازية؛ لأن القرآن بلغة قريش؛ والدليل على هذا قوله تعالى في سورة يوسف: { ما هذا بشرًا } [يوسف: ٣١] ؛ ولم يقل: «بشر» ؛ فالقرآن بلغة قريش؛ وقريش حجازيون؛ و{ ما } عندهم تعمل عمل «ليس».

(٢) تفسير الطبري: ١٨٤/٣. [بتصرف بسيط].

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٦٥): ص ٢٥٤/١.

(٤) تفسير السدي: ٧٢/١.

(٥) تفسير الطبري (٢٢٥٨): ص ١٨٦/٣، و(٢٢٠٤): ص ١٥٧/٣.

(٦) انظر: تفسير الطبري (٢١٦٣): ص ١٣٩/٣-١٤٠.

(٧) تفسير الطبري: ١٨٥/٣-١٨٦.

(٨) أخرجه الطبري (٢٢٥٧): ص ١٨٦/٣.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢٢٥٨): ص ١٨٦/٣.

(١٠) تفسير الطبري: ١٨٦/٣. [بتصرف بسيط].

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٦٦): ص ٢٥٥/١.

و(الهُوى)، هو الميل؛ ومنه يقال للنجم: (هُوى) إذا مال، وسقط؛ ويطلق (الهُوى) في الغالب على الميل عن الحق؛ ويقابله (الهُدى)؛ فيقال: اتبع الهوى بعد الهدى؛ وإن صح الحديث وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به"^(١) - فهو دليل على أن الهوى يكون في الخير كما يكون في الشر^(١).

القرآن

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٤٦]

التفسير:

الذين أعطيناهم التوراة والإنجيل من أحبار اليهود وعلماء النصارى يعرفون أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله بأوصافه المذكورة في كتبهم، مثل معرفتهم بأبنائهم. وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون صدقه، وثبوت أوصافه.

قوله تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ} [البقرة: ١٤٦]، "أي إن اليهود والنصارى يعرفون أن محمداً النبي الأمي خاتم الرسل كما يعرفون أبناءهم"^(٢).

واختلف في عود الضمير في قوله تعالى {يَعْرِفُونَهُ} [البقرة: ١٤٦]، على وجهين:

أحدهما: أنه عائد إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أي: يعرفونه معرفة جليلة، يميزون بينه وبين غيره كما يعرفون أبناءهم، لا تشبته عليهم وأبناء غيرهم. قاله مجاهد^(٣) وقتادة^(٤)، وخصيف بن عبد الرحمن^(٥)، وغيرهما، وهو قول أكثر المفسرين^(٦).

قال خصيف: "هم اليهود والنصارى. يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم وصفته في كتابهم، كما يعرفون أبناءهم"^(٧).

الثاني: أنه راجع إلى أمر القبلة: أي: علماء أهل الكتاب يعرفون أمر تحويل القبلة التي نقلت إليها كما يعرفون أبناءهم. قاله أبو العالية^(٨)، وقتادة^(٩)، والربيع بن أنس^(١٠)، والضحاك^(١١)، والسدي^(١٢)، واختاره الإمام الطبري^(١٣).

قال السدي: "يعرفون الكعبة أنها هي قبلة الأنبياء كما يعرفون أبناءهم"^(١٤).

(١) أخرجه البيهقي في شرح السنة ٢١٢/١ - ٢١٣، حديث رقم ١٠٤، قال النووي في آخر الأربعين النووية "حسن صحيح"، وقال الحافظ في الفتح ٢٨٩/١٣: أخرجه الحسن بن سفيان وغيره؛ ورجاله ثقات؛ وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣٩٤/٢): تصحيح هذا الحديث بعيد جداً من وجوه...

(١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٥٩/٢.

(٢) تفسير المراغي: ٩٤/٧.

(٣) عزاه إليه ابن عطية، انظر: المحرر الوجيز: ٢٢٤/١.

(٤) عزاه إليه ابن عطية، انظر: المحرر الوجيز: ٢٢٤/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٦٩): ص ٢٥٥/١.

(٦) انظر: تفسير الثعلبي: ١٣/٢، وقال في "البحر المحيط" ٤٣٥/١: "واختاره الزجاج ورجحه التبريزي، وبدأ به الزمخشري" وهو الذي رجحه أبو حيان.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٦٩): ص ٢٥٥/١.

(٨) عزاه إليهم في زاد المسير: ١٥٨/١.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٥٥/١، و زاد المسير: ١٥٨/١.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٥٥/١.

(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٥٥/١.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٦٨): ص ٢٥٥/١.

(١٣) انظر: تفسير الطبري: ١٨٧/٣.

والقول الأول أولى بالصواب، وذلك للوجوه الآتية^(٢):
أحدها: أن الضمير إنما يرجع إلى مذكور سابق، وأقرب المذكورات العلم في قوله: {من بعد ما جاءك من العلم} [البقرة: ١٤٥]، والمراد من ذلك العلم: النبوة، فكأنه تعالى قال: إنهم يعرفون ذلك العلم كما يعرفون أبناءهم، وأما أمر القبلة فما تقدم ذكره البتة.
وثانيها: أن الله تعالى ما أخبر في القرآن أن أمر تحويل القبلة مذكور في التوراة والإنجيل، وأخبر فيه أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مذكورة في التوراة والإنجيل، فكان صرف هذه المعرفة إلى أمر النبوة أولى.

وثالثها: أن المعجزات لا تدل أول دلالتها إلا على صدق محمد عليه السلام، فأما أمر القبلة فذلك إنما يثبت لأنه أحد ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فكان صرف هذه المعرفة إلى أمر النبوة أولى.
وفي سبب تخصيص ذكر الأبناء في المعرفة دون الأنفس في قوله تعالى {كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}، قال الرازي: "لأن الذكور أعرف وأشهر وهم بصحبة الآباء ألزم وبقلوبهم ألصق"^(٣).
وخص "الأبناء" في المعرفة بالذكر دون الأنفس وإن كانت ألصق لأن الإنسان يمر عليه من زمنه برهة لا يعرف فيها نفسه، ولا يمر عليه وقت لا يعرف فيه ابنه. وروي أن عمر قال لعبدالله بن سلام: أتعرف محمدا صلى الله عليه وسلم كما تعرف ابنك؟ فقال: نعم وأكثر، بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أمه^(٤).
قوله تعالى: {وَإِنَّ قَرِيْقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ} [البقرة: ١٤٦]، "أي: وإن جماعة منهم، ليخفون الحق ولا يعلنونه"^(٥).

وفي الحق الذي كتموه، قولان:

أحدهما: أنه النبي محمد-صلى الله عليه وسلم- يكتمه اليهود والنصارى. قاله مجاهد^(٦)، وقتادة^(٧).
قال مجاهد: "يكتمون محمداً صلى الله عليه وسلم، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل"^(٨).

ولهذا ذكر الله في سورة آل عمران أن بعضهم يقول لبعض: كيف تبيينون الهدى لمحمد، وأصحابه؟! إذا بينتموه يحاجوكم به عند الله أفلا تعقلون! فهم يتواصلون بالكتمان - والعياذ بالله^(٩).
الثاني: وقيل المراد: استقبال الكعبة^(١٠)، قاله الربيع^(١١)، والسدي^(١٢).

القرآن

{الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)} [البقرة: ١٤٧]

التفسير:

- (١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٦٨): ص ٢٥٥/١.
- (٢) انظر: مفاتيح الغيب: ١١٩/٤.
- (٣) مفاتيح الغيب: ١١٨/٤.
- (٤) تفسير القرطبي: ١٦٣/٢.
- (٥) صفة التفاسير: ٩٢/١.
- (٦) انظر: تفسير الطبري (٢٢٧٠): ص ١٨٩/٣.
- (٧) انظر: تفسير الطبري (٢٢٦٩): ص ١٨٩/٣.
- (٨) أخرجه الطبري (٢٢٧٠): ص ١٨٩/٣.
- (٩) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٦٢/٢.
- (١٠) انظر: تفسير القرطبي: ١٦٣/٢.
- (١١) انظر: تفسير الطبري (٢٢٧١): ص ١٩٠/٣، وابن أبي حاتم (١٣٧١): ص ٢٥٦/١.
- (١٢) عزاه في زاد المسير: ٥٨!/١.

الذي أنزل إليك -أيها النبي- هو الحق من ربك، فلا تكونن من الشاكين فيه. وهذا وإن كان خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم فهو موجه للأمة.

قوله تعالى: {الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} [البقرة: ١٤٧]، أي: "اعلم يا محمد أن الحق ما أعلمك ربك وأتاك من عنده، لا ما يقول لك اليهود والنصارى" (١).

قال الربيع: "يقول: لا تكن في شك، فإنها قبلتك وقبله الأنبياء من قبلك" (٢).

قوله تعالى: {فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَرِينَ} [البقرة: ١٤٧]، أي: "فلا تكونن من الشاكين" (٣).

وقد اختلف العلماء في تحديد نوع "المرية" في قوله {فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَرِينَ} [البقرة: ١٤٧]، على أقوال:

أحدها: فلا تكونن من الممترين في أن الذين تقدم ذكرهم علموا صحة نبوتك، وأن بعضهم عاند وكنتم، قاله الحسن (٤).

وثانيها: بل يرجع إلى أمر القبلة. قاله الربيع (٥).

قال الربيع: "يقول: فلا تكونن في شك من ذلك فإنها قبلتك وقبله الأنبياء قبلك" (٦).

قلت: الأقرب أن يكون المعنى فلا تكونن في شك من صحة نبوته وشرعه، "لأن أقرب المذكورات إليه قوله: {الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} فإذا كان ظاهره يقتضي النبوة وما تشتمل عليه من قرآن ووحى وشريعة، فقوله: {فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَرِينَ} وجب أن يكون راجعاً إليه" (٧). والله تعالى أعلم.

القرآن

{وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (١٤٨) [البقرة: ١٤٨]

التفسير:

ولكل أمة من الأمم قبلة يتوجه إليها كل واحد منها في صلاته، فبادروا - أيها المؤمنون- متسابقين إلى فعل الأعمال الصالحة التي شرعها الله لكم في دين الإسلام. وسيجمعكم الله جميعاً يوم القيامة من أي موضع كنتم فيه. إن الله على كل شيء قدير.

قوله تعالى: {وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا} [البقرة: ١٤٨]، "أي ولكل أمة جهة توليها في صلاتها" (٨).

قال أبو العالية: "قال: لليهودي وجهة هو موليتها، وللنصارى وجهة هو موليتها، وهداكم الله أنتم أيتها الأمة (القبلة) التي هي القبلة" (٩). وروي عن مجاهد في أحد قوليه. والضحاك، وعطاء، والسدي، والربيع نحو ذلك (١٠).

وروي عن مجاهد في قوله {لكل وجهة هو موليتها}، قال: "أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة" (١). وروي عن الحسن نحو ذلك (٢).

(١) تفسير الطبري: ١٩٠/٣.

(٢) أخرجه الطبري (٢٢٧٢): ص ١٩٠/٣.

(٣) صفوة التفاسير: ٩٢/١.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب: ١١٢/٤.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٣٧٣): ص ٢٥٦/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٧٣): ص ٢٥٦/١.

(٧) مفاتيح الغيب: ١١٢/٤.

(٨) تفسير المراغي: ١٤/٢.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٧٥): ص ٢٥٦/١.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٥٦/١.

وقال قتادة: "هي صلاتهم إلى بيت المقدس، وصلاتهم إلى الكعبة"^(٣).
يقال: "وليتته، ووليت إليه. إذا أقبلت إليه ووليت عنه إذا أدبرت عنه، وأصل التولية:
الانصراف"^(٤).

قد ذكر أهل العلم في قوله: {وَلِكُلِّ} [البقرة: ١٤٨]، وجهين:
أحدهما: أنه يتناول جميع الفرق، أعني المسلمين واليهود والنصارى والمشركين، وهو قول
الاصم^(٥)، قال: لأن في المشركين من كان يعبد الأصنام ويتقرب بذلك إلى الله تعالى كما حكى الله
تعالى عنهم في قوله: {هؤلاء شفعاؤنا عند الله} [يونس: ١٨].
الثاني: أن المراد: أهل الكتاب وهم: المسلمون واليهود والنصارى، والمشركون غير داخلين فيه. وهو
قول أبي العالية^(٦)، و"مجاهد في أحد قوليه. والضحاك، وعطاء، والسدي، والربيع"^(٧).
قوله تعالى: {فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ} [البقرة: ١٤٨]، أي: "فبادروا وسارعوا أيها المؤمنون إلى
فعل الخيرات"^(٨).

وذكروا في قوله تعالى: {فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ} [البقرة: ١٤٨]، وجهين من التفسير:
أحدهما: أن المعنى: "سارعوا في الخيرات". قاله أبو العالية^(٩)، والربيع بن أنس^(١٠).
الثاني: أن المراد: "اثبتوا على قبلكم. قاله الحسن^(١١).
قوله تعالى: {أَيُّمًا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللّهُ جَمِيعًا} [البقرة: ١٤٨]، أي: "في أيّ مكان وبقعة
تهلكون فيه، يأت بكم الله جميعاً يوم القيامة"^(١٢).
قال أبو العالية: "يعني: يوم القيامة"^(١٣). وروي عن السدي، والربيع بن أنس، نحو ذلك^(١٤).
وعن السدي: قوله {أَيُّمًا تَكُونُوا}، قال: من الأرض"^(١٥).
وعن الضحاك، في قوله: " {أَيُّمًا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللّهُ جَمِيعًا}، قال: البر والفاجر"^(١٦).
قوله تعالى: {إِنَّ اللّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ١٤٨]، "أي إنه تعالى قادر على كل
شيء"^(١٧).
قال محمد بن إسحاق: "أي: إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير"^(١٨).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٧٦): ص ٢٥٧/١.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٥٧/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٧٧): ص ٢٥٧/١.

(٤) تفسير الثعلبي: ١٣/٢.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب: ١٢٠/٤.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٣٧٥): ص ٢٥٦/١.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٥٦/١.

(٨) صفوة التفاسير: ٩٢/١.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٣٧٩): ص ٢٥٧/١.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٥٧/١.

(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٣٨١): ص ٢٥٧/١.

(١٢) تفسير الطبري: ١٩٧/٣.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٨٢): ص ٢٥٨/١.

(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٥٨/١.

(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٨٣): ص ٢٥٨/١.

(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٨٤): ص ٢٥٨/١.

(١٧) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(١٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٢١٤): ص ٥٩/١.

وعن محمد ابن إسحاق كذلك: "قوله: {على كل شيء قدير}، أي: لا يقدر على هذا غيرك بسلطانك وقدرتك"^(١).

القرآن
{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩)} [البقرة : ١٤٩]
التفسير:

ومن أي مكان خَرَجْتَ -أيها النبي- مسافراً، وأردت الصلاة، فوجه وجهك نحو المسجد الحرام. وإنَّ توجُّهك إليه لهو الحق الثابت من ربك. وما الله بغافل عما تعملونه، وسيجازيكم على ذلك.
قوله تعالى: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [البقرة: ١٤٩]، معناه: "ومن أي موضع خَرَجْتَ إلى أي موضع وجَّهتَ ، فحوّل يامحمد وجهك شطر المسجد الحرام"^(٢).
قال الحسن: "لئلا يحتج عليكم الظلمة"^(٣).

القرآن
{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأْتَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)} [البقرة : ١٥٠]
التفسير:

ومن أي مكان خرجت -أيها النبي- فتوجَّه إلى المسجد الحرام، وحيثما كنتم -أيها المسلمون-، بأي قطر من أقطار الأرض فولُّوا وجوهكم نحو المسجد الحرام؛ لكي لا يكون للناس المخالفين لكم احتجاج عليكم بالمخاصمة والمجادلة، بعد هذا التوجه إليه، إلا أهل الظلم والعناد منهم، فسيظنون على جدالهم، فلا تخافوهم وخافوني بامثال أمري، واجتتاب نهبي؛ ولكي أتم نعمتي عليكم باختيار أكمل الشرائع لكم، ولعلكم تهتدون إلى الحق والصواب.
سبب النزول:

قال السدي: "كان النبي صلى الله عليه وسلم يُصلي قِبَل بيت المقدس ، فنسختها الكعبة. فلما وجَّه قبل المسجد الحرام ، اختلف الناس فيها ، فكانوا أصنافاً ، فقال المنافقون : ما بالهم كانوا على قبلة زماناً ، ثم تركوها وتوجهوا إلى غيرها ؟ وقال المسلمون : لبيت شعرنا عن إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون قِبَل بيت المقدس! هل تقبل الله منا ومنهم ، أو لا ؟ وقالت اليهود : إنَّ محمداً اشتاق إلى بلد أبيه ومولده ، ولو ثبت على قبلتنا لكانا نرجو أن يكون هو صاحبنا الذي ننتظر! وقال المشركون من أهل مكة : تحبب على محمد دينه ، فتوجه بقبلته إليكم ، وعلم أنكم كنتم أهدى منه ، ويوشك أن يدخل في دينكم! فأنزل الله جل ثناؤه في المنافقين : " سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها " إلى قوله : " وإن كانت كبيرة إلا على الذين هدى الله " ، وأنزل في الآخرين الآيات بعدها"^(٤).

قوله تعالى: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [البقرة: ١٥٠]، أي: "من أي مكان وبقعة شخصت فخرجت يا محمد ، فول وجهك تلقاء المسجد الحرام"^(٥).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٧١): ص ٢٠٢/١.

(٢) تفسير الطبري: ١٩٨/٣.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٨٥): ص ٢٥٨/١.

(٤) أخرجه الطبري (٢٢٠٤): ص ١٥٧/٣-١٥٨.

(٥) تفسير الطبري: ١٩٩/٣.

وفي تكرار قوله تعالى : {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [البقرة: ١٥٠]، قولان^(١):

أحدهما: أن هذا تأكيد للأمر باستقبال الكعبة واهتمام بها ، لأن موقع التحويل كان صعبا في نفوسهم جدا ، فأكد الأمر ليرى الناس الاهتمام به فيخف عليهم وتسكن نفوسهم إليه .
والثاني: أنه أراد بالأول : ولّ وجهك شطر الكعبة، أي عاينها إذا صليت تلقاءها. ثم قال : {وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ} معاشر المسلمين في سائر المساجد بالمدينة وغيرها {فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}، ثم قال {ومن حيث خرجت}، يعني: وجوب الاستقبال في الأسفار ، فكان هذا أمرا بالتوجه إلى الكعبة في جميع المواضع من نواحي الأرض.

والقول الثاني أحسن من الأول، لأن فيه حمل كل آية على فائدة والله تعالى أعلم.
قوله تعالى: {وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} [البقرة: ١٥٠]، " أي: وحيثما كنتم أيها المؤمنون فتوجهوا في صلاتكم نحو الكعبة"^(٢).

عن الضحاك: " {وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}، قال: كل قبلة"^(٣).
قوله تعالى: {لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةً} [البقرة: ١٥٠]، " أي لنلا يكون لأولئك المحاجين في أمر القبلة وهم أهل الكتاب والمشركون وتبعهما المنافقون - حجة وسلطان عليكم"^(٤).
قال أبو العالية: " يعني به أهل الكتاب حين قالوا: صرف محمد صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة، وقالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه، وكان حجتهم على النبي صلى الله عليه وسلم عند انصرافه إلى البيت الحرام، أن قالوا: سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا"^(٥).
قال ابن أبي حاتم: " وروي عن مجاهد، وعطاء، والسدي وقتادة والربيع بن أنس والضحاك، قالوا: قد رجعت إلى قبلتنا"^(٦).

واختلف في المعنيين ب(الناس)، في الآية على ثلاثة أقوال:^(٧):
أحدها: أنهم مشركو العرب. قاله مجاهد^(٨)، وعطاء^(٩).
وحجتهم قولهم : "قدر رجعت إلى قبلتنا"^(١٠)، وقد أجبوا عن هذا بقوله : {قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرُقُ وَالْمَغْرِبُ} [البقرة : ١٤٢].
الثاني: أنهم أهل الكتاب. قاله قتادة^(١١)، والربيع^(١٢).
وفي حجتهم قولان:

القول الأول: "أنهم كانوا يقولون: ما درى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم نحن! وقولهم : يُخالفنا محمد في ديننا ويتبع قبلتنا! فهي الحجة التي كانوا يحتجون بها على رسول الله صلى الله عليه

(١) تفسير القرطبي: ١٦٨/٢.

(٢) صفوة التفاسير: ٩٠/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٨٦): ٢٥٨/١.

(٤) تفسير المراعي: ١٧/٢.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٨٧): ص ٢٥٨/١.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم: ٢٥٨/١.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ١٩٩/٣-٢٠٠، وتفسير القرطبي: ١٦٩/٢.

(٨) انظر: تفسير الطبري (٢٣٠٠)، و(٢٣-١)، و(٢٣٠٢): ص ٢٠٢/٣.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢٣٠٦): ص ٢٠٣/٣.

(١٠) تفسير الطبري (٢٢٩٢): ص ١٩٩/٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري (٢٢٩٢): ص ١٩٩/٣.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢٢٩٣): ص ١٩٩/٣-٢٠٠.

وسلم وأصحابه ، على وجه الخصومة منهم لهم ، والتمويه منهم بها على الجهال وأهل الغباء من المشركين" (١).

القول الثاني: " ذلك أنهم كانوا قد عرفوا أن الكعبة قبلة إبراهيم، وقد كانوا وجدوا في التوراة أن محمداً سيحول إليها، فحوله الله إليها لئلا يكون لهم حجة فيحتجون. بأن هذا النبي الذي نجده في كتابنا سيحول إليها ولم تحول أنت فلما حول النبي صلى الله عليه وسلم ذهب حجتهم ثم قال: إلا الذين ظلموا منهم يعني إلا أن يظلموكم فيكتوموا ما عرفوا" (٢).

الثالث: أنهم المنافقون. إذ قالوا: " إن هذا الرجل لا يثبت على دينه؛ ولو كان نبياً حقاً لثبت على دينه" (٣).

و(الحجة): " من الحج الذي هو القصد، لأنها مقصودة للمخاصم، ومنه: المحجة: لأنها تقصد بالسلوك. والمخاصمة يقال لها: الحاجة؛ لقصد كل واحد من الخصمين إلى إقامة بينته وإبطال ما في يد صاحبه" (٤).

قوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} [البقرة: ١٥٠]، أي: " لكن الذين ظلموا منهم لن تتجوا من محاجتهم، ومخاصمتهم" (٥).

قال الحسن: " يقول: لن يحتج عليكم بذلك إلا ظالم، فولوا وجوهكم شطره، لئلا يحتج عليكم الظلمة" (٦).

قال أبو العالية: " يعني: مشركي قريش، يقول: إنهم سيحتجون عليكم بذلك" (٧). وروي عن مجاهد، وعطاء وقتادة، والربيع بن أنس نحو ذلك (٨).

واختلف في نوع الاستثناء في قوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} [البقرة: ١٥٠]، أنه استثناء متصل، فيكون {الذين ظلموا} مستثنى من (الناس) ؛ لأن الناس منهم ظالم؛ ومنهم من ليس بظالم. والمعنى: " أنه لا حجة لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة للذين ظلموا، يعني اليهود وغيرهم من كل من تكلم في النازلة في قولهم ما وكأهم استهزاء، وفي قولهم: تحير محمد في دينه، وغير ذلك من الأقوال التي لم تتبع إلا من عابد وثن أو من يهودي أو من منافق" (٩).

وممن صحح الإستثناء على ظاهره: أبو العالية (١٠)، ومجاهد (١١)، وعطاء (١٢)، وقتادة (١٣)، والربيع (١٤)، والسدي (١٥)، وأبو روق (١٦) (١)، وقال به أبو حيان (٢)، "واختاره الطبري (٣)، وبدأ به ابن

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢٠٠/٣.

(٢) تفسير الثعلبي: ١٦/٢.

(٣) تفسير ابن عثيمين: ١٥٤/٢.

(٤) التفسير البسيط: ٤٠٦/٣، وانظر: "المفردات" ص ١١٥، "لسان العرب" ٢/ ٧٧٩ (حجج).

(٥) تفسير ابن عثيمين: ١٥٥/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٨٨): ص ٢٥٩/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٨٩): ص ٢٥٩/١.

(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٥٩/١.

(٩) المحرر الوجيز: ٢٢٥/١.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٣٨٩): ص ٢٥٩/١.

(١١) انظر: تفسير الطبري (٢٣٠٠)، و(٢٣٠١)، و(٢٣٠٢)؛ ٢٠٢/٣، تفسير ابن أبي حاتم: ٢٥٩/١.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢٣٠٦)؛ ٢٠٣/٣، وتفسير ابن أبي حاتم: ٢٥٩/١.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (٢٣٠٣)؛ ٢٠٢/٣، وتفسير ابن أبي حاتم: ٢٥٩/١.

(١٤) انظر: تفسير الطبري (٢٣٠٤)؛ ٢٠٢/٣، وتفسير ابن أبي حاتم: ٢٥٩/١.

(١٥) انظر: تفسير الطبري (٢٣٠٥)؛ ص ٢٠٢/٢.

(١٦) هو عطية بن الحارث الهمداني الكوفي صدوق، صاحب تفسير، عده ابن حجر من طبقة صغار التابعين، ينظر: "تقريب التهذيب" ص ٣٩٣ (٤٦١٥)، "الجرح والتعديل" ٣/ ٣٨٢.

ابن عطية^(٤)، ولم يذكر الزمخشري^(٥) غيره، وذلك أنه متى أمكن الاستثناء المتصل إمكانًا حسنًا كان أولى من غيره^(٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]، أي: "فلا تخافوهم"^(٧).

قال السدي: "يقول: لا تخشوا أن أردكم في دينهم"^(٨).

قال أهل العلم: "وفي هذا إيماء إلى أن صاحب الحق هو الذي يخشى جانبه، وأن المبطل ينبغي ألا يؤبه له، فإن الحق دائما يعلو، وما آفة الحق إلا ترك أهله له، وخوفهم من أهل الباطل"^(٩).

القرآن

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]

التفسير:

كما أنعمنا عليكم باستقبال الكعبة أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل، ويطهركم من دنس الشرك وسوء الأخلاق، ويعلمكم الكتاب والسنة وأحكام الشريعة، ويعلمكم من أخبار الأنبياء، وقصص الأمم السابقة ما كنتم تجهلون.

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا﴾ [البقرة: ١٥١]، أي: "كما اتممت عليكم نعمتي كذلك أرسلت فيكم رسولاً منكم"^(١٠).

قال أبو العالية: "يعني: محمداً صلى الله عليه وسلم"^(١١). وروي عن الربيع بن أنس نحو ذلك^(١٢).

قال مجاهد: "كما فعلت، فاذكروني"^(١٣). وروي عن عطاء^(١٤)، وأبي نجيح^(١٥) نحوه.

القرآن

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ [البقرة: ١٥٢]

التفسير:

أمر تعالى المؤمنين بذكره، ووعد عليه أفضل الجزاء، وهو الثناء في الملأ الأعلى على من ذكره، وخصوني -أيها المؤمنون- بالشكر قولاً وعملاً ولا تجحدوا نعمي عليكم.

-
- (١) انظر: تفسير الثعلبي: ١٦/٢.
 - (٢) انظر: البحر المحيط: ٣٨٤/١.
 - (٣) انظر: تفسير الطبري: ٢٠٤/٣.
 - (٤) انظر: المحرر الوجيز: ٢٢٥/١.
 - (٥) انظر: الكشاف: ٢٠٦/١.
 - (٦) البحر المحيط: ٣٨٤/١.
 - (٧) صفوة التفاسير: ٩٢/١.
 - (٨) أخرجه الطبري (٢٣٠٨): ص ٢٠٧/٣، وابن أبي حاتم (١٣٩٠): ص ٢٥٩/١.
 - (٩) تفسير المراغي: ١٧/٢.
 - (١٠) صفوة التفاسير: ٩٤/١.
 - (١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٩٢): ص ٢٥٩/١.
 - (١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٥٩/١.
 - (١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٣٩١): ص ٢٥٩/١، وتفسير الطبري (٢٣١٠): ص ٢١٠/٤، وتفسير الثعلبي: ١٩/٢، ومفاتيح الغيب: ١٢٢/٤.
 - (١٤) انظر: تفسير الثعلبي: ١٩/٢، ومفاتيح الغيب: ١٢٢/٤.
 - (١٥) انظر: تفسير الطبري (٢٣٠٩): ص ٢١٠/٣.

قوله تعالى: {فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [البقرة: ١٥٢]، "أي اذكروني بالعبادة والطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة"^(١).

أصل "الذكر" -في اللغة-: "التنبيه على الشيء، ومن نذكرك شيئاً فقد تنبهك عليه، وإذا ذكرته فقد تنبهت عليه، والذكرُ أُنْبَهُ من الأُنْثَى. وقوله: {وَأَنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ} [الزخرف: ٤٤] أي: شرف لك، من النباهة. ومعنى الذكر: حضور المعنى للنفس، ثم يكون تارة بالقلب، وتارة بالقول، وليس موجبه أن يكون بعد النسيان؛ لأنه يستعمل كثيراً دون أن يتقدمه نسيان"^(٢).

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [البقرة: ١٥٢]، على وجوه: أحدها: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي. قاله سعيد بن جبير^(٣)، وفي رواية" أذكركم برحمتي"^(٤). الثاني: اذكروني فيما افترضت عليكم، أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي. قاله الحسن^(٥). الثالث: يعني: "إن الله يذكر من ذكره، ويزيد من شكره، ويعذب من كفره". قاله أبو العالية^(٦)، وروي عن الحسن، والسدي، والربيع بن أنس، نحو ذلك^(٧).

الرابع: اذكروني في الرخاء أذكركم في البلاء. قاله سعيد بن جبير^(٨)، وبيانه: {قُلُوْنَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لِلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤]. قوله تعالى: {وَاشْكُرُوا لِي} [البقرة: ١٥٢]، "أي اشكروا نعمتي عليكم"^(٩). قال أبو العالية: "إن الله يزيد من شكره"^(١٠).

روي عن زيد بن أسلم: "أن موسى صلى الله عليه وسلم قال لربه: أي رب أخبرني كيف أشكرك. قال له ربه: تذكرني ولا تنساني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني"^(١١).

قوله تعالى: {وَلَا تَكْفُرُونَ} [البقرة: ١٥٢]، أي: "ولا تكفروا نعمتي بالجحود والعصيان"^(١٢). عن أبي العالية، "يعني قوله: {وَلَا تَكْفُرُونَ}، قال: إن الله يعذب من كفره"^(١٣). وروي، عن الربيع بن أنس نحو ذلك^(١٤).

عن زيد بن أسلم: "أن موسى صلى الله عليه وسلم قال له ربه: تذكرني ولا تنساني، فإذا نسيتني فقد كفرتني"^(١٥).

وقد ختم بجملة النهي: {وَلَا تَكْفُرُونَ}، "لأنه لما أمر بالشكر، لم يكن اللفظ ليبدل على عموم الأزمان، ولا يمكن التكليف باستحضار الشكر في كل زمان، فقد يذهل الإنسان عن ذلك في كثير

(١) صفوة التفسير: ٩٤/١.

(٢) التفسير البسيط: ٤١٩/٣، وانظر: "البحر المحيط" ١/٤٤٥ - ٤٤٦، "لسان العرب" ٣/١٥٠٧ - ١٥٠٩ (ذكر).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٣١٢): ص ٢١١/٣.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٩٩): ص ٢٦١/١.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٤٠٠): ص ٢٦١/١.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٣٩٦): ص ٢٦٠/١.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٦٠/١.

(٨) انظر: مفاتيح الغيب: ١٢٤/٤.

(٩) صفوة التفسير: ٩٤/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٠١): ص ٢٦١/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٠٢): ص ٢٦١/١.

(١٢) صفوة التفسير: ٩٤/١. [بتصرف بسيط].

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٠٣): ص ٢٦١/١.

(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٦١/١.

(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٠٤): ص ٢٦١/١.

من الأوقات. ونهى عن الكفران ، لأن النهي يقتضي الامتناع من المنهي عنه في كل الأزمان ، وذلك ممكن لأنه من باب التروك^(١).

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)} [البقرة : ١٥٣]

التفسير

يا أيها المؤمنون اطلبوا العون من الله في كل أموركم: بالصبر على النوائب والمصائب، وترك المعاصي والذنوب، والصبر على الطاعات والقربات، والصلاة التي تطمئن بها النفس، وتنهى عن الفحشاء والمنكر. إن الله مع الصابرين بعونه وتوفيقه وتسديده. وفي الآية: إثبات معية الله الخاصة بالمؤمنين، المقتضية لما سلف ذكره؛ أما المعية العامة، المقتضية للعلم والإحاطة فهي لجميع الخلق. قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} [البقرة: ١٥٣]، " أي: يا أيها الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله استعينوا على أمور دنياكم وآخرتكم ، بالصبر والصلاة " ^(٢).

قال ابن جريج: "إنهما معونتان على رحمة الله" ^(٣).

قال المفسرون: "إن جميع العبادات داخلة تحت قوله: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ} لأنه أراد الصبر عليها، ولكن خصت الصلاة بالذكر تخصيصاً وتفضيلاً، كقوله: {فِيهِمَا فَكِيهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ} [الرحمن: ٦٨]، وقوله {وَمَلَأْنٰكُمۡ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} [البقرة: ٩٨] ^(٤)، وفي الآية قدم الصبر على الصلاة "لأنها لا تكمل إلا به، أو لمناسبته لحال المخاطبين، ويجوز أن يراد بالصبر نوع منه وهو الصوم بقريئة ذكره مع الصلاة" ^(٥).

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٣]، أي إن الله مع الصابرين "بالنصر والمعونة والحفظ والتأييد" ^(٦).

عن علي بن الحسين قال: "إذا جمع الله الأولين والآخرين، ينادي مناد: أين الصابرون، ليدخلوا الجنة قبل الحساب. قال: فيقوم عنق من الناس، فتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين يا بني آدم؟ فيقولون: إلى الجنة قالوا: وقبل الحساب؟ قالوا نعم. قالوا: ومن أنتم؟ قالوا: الصابرون قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا على طاعة الله، وصبرنا عن معصية الله، حتى توفانا الله. قالوا: أنتم كما قلتم ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين" ^(٧).

وقال سعيد بن جبير: "الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه، واحتسابه عند الله رجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر" ^(٨).

القرآن

{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ (١٥٤)} [البقرة : ١٥٤]

(١) البحر المحيط: ٣٨٩/١.

(٢) تفسير المراغي: ٤٣/١١، وانظر: صفوة التفاسير: ٤٨٧/٢.

(٣) أخرجه الطبري (٨٥٤): ص ١٥/٢.

(٤) التفسير البسيط: ٤٥٦/٢.

(٥) تفسير الألوسي: ٢٤٨/١-٢٤٩.

(٦) صفوة التفاسير: ٩٤/١.

(٧) تفسير ابن أبي حاتم (١٤٠٦): ص ٢٦٢/١.

(٨) تفسير ابن أبي حاتم (١٤٠٧): ص ٢٦٢/١.

التفسير:

ولا تقولوا -أيها المؤمنون- فيمن يُقتلون مجاهدين في سبيل الله: هم أموات، بل هم أحياء حياة خاصة بهم في قبورهم، لا يعلم كيفيتها إلا الله - تعالى-، ولكنكم لا تُحسُّون بها. وفي هذا دليل على نعيم القبر. قوله تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ} [البقرة: ١٥٤]، " أي لا تقولوا للشهداء إنهم أموات" (١).

قال سعيد بن جبير: " يعني: الذين قتلوا في طاعة الله في قتال المشركين" (٢).

قال سعيد بن جبير: " يقول الله: لا تحسبهم أمواتا" (٣).

قوله تعالى: {بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ} [البقرة: ١٥٤]، " أي بل هم أحياء عند ربهم يرزقون ولكن لا تشعرون بذلك" (٤).

قال أبو العالية: " يقول هم أحياء في صدور طير خضر، يطرون في الجنة حيث شاءوا، ويأكلون من حيث شاءوا" (٥).

واختلف في حقيقة الموت والحياة في الآية، على قولين (٦):

أحدهما: أن المراد حقيقة الموت والحياة.

والثاني: وقيل: ذلك مجاز.

والظاهر هو القول الأول. والله أعلم، وإذا حمل الموت والحياة على الحقيقة فاختلوا، فقال قوم: معناه النهي عن قول الجاهلية أنهم لا يبعثون، فالمعنى: أنهم سيحيون بالبعث، فيثابون ثواب الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله. وأكثر أهل العلم على أنهم أحياء في الوقت. ومعنى هذه الحياة: بقاء أرواحهم دون أجسادهم، إذ أجسادهم نشاهد فسادها وفنائها. واستدلوا على بقاء الأرواح بعذاب القبر، وبقوله: {وَلَا كُنْ لَمْ تَشْعُرُونَ} معناه: لا تشعرون بكيفية حياتهم، ولو كان المعنى بإحياء أنهم سيحيون يوم القيامة، أو أنهم على هدى ونور، لم يظهر لنفي الشعور معنى، إذ هو خطاب للمؤمنين، وهم قد علموا بالبعث، وبأنهم كانوا على هدى. فلا يقال فيه: ولكن لا تشعرون، لأنهم قد شعروا به وبقوله: {وَيَسْتَنْبِشُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ}، وقد ذهب بعض الناس إلى أن الشهيد حي الجسد والروح، ولا يقدر في ذلك عدم الشعور به من الحي غيره. فنحن نراهم على صفة الأموات وهم أحياء، كما قال تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمْرٌ مَرَّ السَّحَابِ}، وكما ترى النائم على هيئته، وهو يرى في منامه ما ينعم به أو يتألم به" (٧).

واختلف في مستقر أرواح الشهداء على أقوال (٨):

أحدها: قيل: قبورهم يرزقون فيها.

والثاني: وقيل: في قباب بيض في الجنة يرزقون فيها، قاله أبو بشار السلمي (٩).

الثالث: أن أرواح الشهداء تعارف في طير بيض يأكلن من ثمار الجنة، وأن مساكنهم سِدرة المنتهى، قاله قتادة (١٠).

(١) صفوة التفسير: ٩٤/١.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١٤٠٩): ص ٢٦٢/١.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١٤١٠): ص ٢٦٢/١.

(٤) صفوة التفسير: ٩٤/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤١٢): ص ٢٦٣/١، وأخرجه الحاكم: ٢/ ٢٧١ كتاب التفسير حديث صحيح الإسناد.

(٦) انظر: البحر المحيط: ٣٩٠/١.

(٧) البحر المحيط: ٣٩٠/١-٣٩١.

(٨) انظر: البحر المحيط: ٣٩١/١.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢٣٢٤): ص ٢١٧/٣-٢١٨.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٣١٩): ص ٢١٥/٣.

الرابع: وقيل: يأكلون من ثمر الجنة ويجدون ريحها، وليسوا فيها، قاله مجاهد^(١).

وجاء في صحيح مسلم: "إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى قناديل مُعلّقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطلّاعة، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا، وأي شيء نبغي، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد إليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يُتركون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل في سبيلك، حتى نقتل فيك مرة أخرى؛ لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب جلّ جلاله: إني كتبتُ أنهم إليها لا يرجعون"^(٢).

وروي عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نَسَمَةُ المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه"^(٣). قال ابن كثير: "فيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً، وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن، تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً"^(٤).

وقد اختلف العلماء في هذا الوصف الذي اتصف به الشهيد، هل هو خاص به، أم أنه يشمل عموم المؤمنين؟:

القول الأول: أن هذا الوصف لم يخص مؤمناً شهيداً من غير شهيد.

روى كعب بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما نسمة^(٥) المؤمن طير يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه"^(٦). ففي هذا الحديث لم يخص مؤمناً شهيداً من غير شهيد^(٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية^(٨) - رحمه الله -: "الصحيح الذي عليه الأئمة وجماهير أهل السنة: أن الحياة، والرزق، ودخول الأرواح الجنة، ليس مختصاً بالشهيد. كما دلت على ذلك النصوص الثابتة، ويختص الشهيد بالذكر، لكون الظان يظن أنه يموت، فينكل عن الجهاد، فأخبر بذلك ليزول المانع من الإقدام على الجهاد والشهادة، كما نُهي عن قتل الأولاد خشية الإملاق، لأنه هو الواقع، وإن كان قتلهم لا يجوز مع عدم خشية الإملاق"^(٩).

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣١٧)، و(٢٣١٨): ص ٢١٥/٣.

(٢) صحيح مسلم برقم (١٨٨٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ولفظه مختلف لكن معناه واحد.

(٣) المسند (٤٥٥/٣).

(٤) تفسير ابن كثير: ٤٦٧/١.

(٥) نسمة: أي روح. انظر. النهاية: ٩٤/٥.

(٦) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجنائز، باب جامع الجنائز: ٢٤٠/١. والنسائي، كتاب الجنائز، باب أرواح المؤمنين، رقم ٢٠٧٣. وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى، رقم ٤٢٧١. قال ابن القيم في "الروح"، ص ٢٥٢: "الحديث من صحاح الأحاديث".

وقال ابن كثير: "هذا إسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة، فإن الإمام أحمد - رحمه الله - رواه عن محمد بن إدريس الشافعي - رحمه الله - عن مالك بن أنس الأصبحي - رحمه الله - عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه"، تفسير ابن كثير: ٤٠٤/١.

(٧) التمهيد: لابن عبد البر: ٥٩/١١.

(٨) هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، الدمشقي، ولد سنة ٦٦١ هـ، الإمام، الفقيه، المجتهد، المحدث، الحافظ، الأصولي، أبو العباس تقي الدين، شيخ الإسلام، وشهرته تغني عن الإطناب في ذكره، وبالإسهاب في أمره، تصانيفه كثيرة قيمة نافعة، منها: اقتضاء الصراط المستقيم، منهاج السنة، درء تعارض العقل والنقل. توفي سنة ٧٢٨ هـ. انظر: ذيل طبقات الحنابلة: ٣٨٧/٢، لابن رجب، والكواكب الدرية في مناقب المجدد ابن تيمية. مرعي بن يوسف الكرمي، والرد الوافر على من زعم: بأن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر، لابن ناصر الدين، وتذكرة الحفاظ للذهبي: ١٤٩٦/٤.

(٩) فتاوى ابن تيمية: ٣٣٢/٤، و ٢٧٨/٤.

وقد تابع ابن تيمية على قوله هذا: تلميذه ابن القيم في كتابه الروح^(١)، وابن كثير في تفسيره^(٢)، وشارح الطحاوية^(٣).

القول الثاني: أن هذا الوصف خاص بالشهداء لا غيرهم. وإن الآيات والأحاديث السابقة تدل على أنهم الشهداء دون غيرهم، وأما حديث: «إنما نسمة المؤمن...»، فتأويله: إنما نسمة المؤمن من الشهداء^(٤).

ونقل القرطبي عن ابن العربي أنه حكى إجماع الأمة على اختصاص الشهيد بهذا الوصف^(٥).

والذي يظهر أن هذا الإجماع غير صحيح، لمعارضته النص الصريح، والصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: «إنما نسمة المؤمن...»، بل حكى شيخ الإسلام -رحمه الله- خلاف ذلك وأن جماهير أهل السنة على أن هذا الوصف ليس مختصاً به، وبهذا قال بعض كبار العلماء من الشافعية كابن كثير والحنفية كابن أبي العز كما سبق، والله أعلم. والشهيد: القتل في سبيل الله^(٦).

القرآن

{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) [البقرة : ١٥٥]}

التفسير:

ولنختبرنكم بشيء يسير من الخوف، ومن الجوع، وبنقص من الأموال بتعسر الحصول عليها، أو ذهابها، ومن الأنفس: بالموت أو الشهادة في سبيل الله، وبنقص من ثمرات النخيل والأعناب والحبوب، بقلة ناتجها أو فسادها. وبشئ -أيها النبي- الصابرين على هذا وأمثاله بما يفرحهم ويسرهم من حسن العاقبة في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ}[البقرة : ١٥٥]، "ولنختبرنكم بشيء يسير من الخوف، ومن الجوع"^(٧).

عن سعيد بن جبیر: " {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ}، يعني: ولنبتلينكم، يعني: المؤمنين"^(٨). وقوله {بشئٍ}، أي: بقليل من ذلك فإن ما وقاهم عنه أكثر بالنسبة إلى ما أصابهم بألف مرة وكذا ما يصيب به معانديهم وإنما أخبر به قبل الوقوع ليوطنوا عليه نفوسهم ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به وليعلموا أنه شيء يسير له عاقبة حمي^(٩).

(١) ص ٢٥٩ وما بعدها.

(٢) ١٨٧/١، و ٤٠٤/١.

(٣) ابن أبي العز الحنفي، ص ٤٠٣-٤٠٤.

(٤) انظر: التمهيد، لابن عبد البر: ٦٤/٦-٦٥.

(٥) انظر: "التذكرة" ص ٦٣٥ للقرطبي، فقد نقل عن ابن العربي في كتابه "سراج المريدين" إجماع الأمة على اختصاص الشهيد بهذا الوصف.

وكتاب "سراج المريدين" مخطوط في دار الكتب المصرية تحت رقم (٢٠٣٤٨ ب).

وانظر: فهرست مخطوطات دار الكتب المصرية: ٤٥٨/١ (في ٢٤٥ لوحة).

(٦) مختار الصحاح، للرازي، ص ١٤٧.

(٧) التفسير الميسر: ٢٤.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤١٣): ص ٢٦٣/١.

(٩) تفسير أبي السعود: ١٨٠/١.

عن عطاء: {وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ}، قال: أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم^(١). وفي لفظ: "النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه"^(٢). قال أبو العالية: "قد ابتلاهم الله بذلك كله، وسينبئهم بما هو أشد من ذلك"^(٣). وروى عن الربيع نحو ذلك^(٤).

وقرأ الضحاك: {بأشياء}، على الجمع، والمعنى قريب بعضه من بعض^(٥). قوله تعالى: {وَنَقَصَ مِنَ الْأَمْوَالِ} [البقرة: ١٥٥]، أي: "وذهب بعض الأموال"^(٦). عن رجاء بن حيوة: "ونقص من الثمرات"، قال: حتى لا تحمل النخلة إلا ثمرة واحدة^(٧). و{الأموال}: "جمع (مال)؛ وهو كل ما يتموله الإنسان من نقود، ومتاع، وحيوان"^(٨). قوله تعالى: {وَيَسِّرْ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٥]، "أي: وبشر الصابرين على المصائب والبلايا بجنات النعيم"^(٩).

قال سعيد بن جبير: "يعني: بشرهم بالجنة"^(١٠). و"الصبر": "أصله الحبس، وثوابه غير مقدر"^(١١). وأصل "التبشير": "إخبار الرجل الرجل الخبير، يسره أو يسوءه، لم يسبقه به إلى غيره"^(١٢).

ونرى بأن هذه المصائب الخمس "الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقَصَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالنَّفْسِ وَالْتِمَرَاتِ" والجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكدات: "القسم، واللام، والنون"؛ والتقدير: واللّه لنبلونكم؛ والفعل هنا مع نون التوكيد مبني على الفتح؛ و"نبلو" بمعنى نخنبر.

القرآن

{الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: ١٥٦]

التفسير:

من صفة هؤلاء الصابرين أنهم إذا أصابهم شيء يكرهونه قالوا: إِنَّا عبيد مملوكون لله، مدبرون بأمره وتصريفه، يفعل بنا ما يشاء، وإنا إليه راجعون بالموت، ثم بالبعث للحساب والجزاء. قوله تعالى: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ} [البقرة: ١٥٦]، "أي نزل بهم كرب أو بلاء أو مكروه"^(١٣).

و"المصيبة": كل ما أذى المؤمن في نفس أو مال أو أهل، صغرت أو كبرت، حتى انطفاء المصباح لمن يحتاجه يسمى: مصيبة. وروى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه استرجع عند انطفاء مصباحه^(١)^(٢).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤١٤): ص ٢٦٣/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤١٥): ص ٢٦٣/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤١٧): ص ٢٦٣/١.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ص ٢٦٣/١.

(٥) انظر: المحرر الوجيز: ٢٢٨/١.

(٦) صفة التفاسير: ٩٤/١.

(٧) تفسير ابن أبي حاتم: ٢٦٤/١.

(٨) تفسير ابن عثيمين: ١٧٩/٢.

(٩) صفة التفاسير: ٩٤/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٢٠): ص ٢٦٤/١.

(١١) انظر: تفسير القرطبي: ١٧٣/٢.

(١٢) تفسير الطبري: ٢٢١/٣.

(١٣) صفة التفاسير: ٩٤/١.

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها خطاياها"^(٣)، والنصب التعب، والوصب: المرض، وقيل هو المرض اللازم^(٤).
قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: ١٥٦]، أي: إِنَّا عبيد مملوكون لله، مدبرون بأمره وتصريفه، يفعل بنا ما يشاء، وإنا إليه راجعون بالموت، ثم بالبعث للحساب والجزاء"^(٥).

عن الفضيل بن عياض: " قول العبد: إنا لله وإنا إليه راجعون تفسيرها: إني لله وإني إلى الله راجع"^(٦).

قال أهل العلم: "إن إسناد الإصابة إلى المصيبة ، لا إلى الله تعالى ، ليعم ما كان من الله ، وما كان من غيره. فما كان من الله فهو داخل تحت قوله : {إِنَّا لِلَّهِ} ، لأن في الإقرار بالعبودية تفويضاً للأمر إليه ، وما كان من غيره فتكليفه أن يرجع إلى الله في الإنصاف منه ، ولا يتعدى"^(٧).
قال سعيد بن جبير: " ما أُعطيَ أحدٌ ما أُعطيت هذه الأمة :{الذين إذا أصابتهم مصيبتهم قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمةٌ}، ولو أُعطيتهم مصيبتهم قالوا عليه السلام ، ألم تسمع إلى قوله : { يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ } [سورة يوسف : ٨٤]"^(٨).
وعن جوبير، عن الضحاك، قال: "كتب إليه رجل يسأله عن هذه الآية الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أخاصة هي؟ أو عامة؟ قال: هي لمن آمن بالتقوى وأدى الفرائض"^(٩).

القرآن

{أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} (١٥٧) { [البقرة : ١٥٧]
التفسير:

أولئك الصابرون لهم ثناء من ربهم ورحمة عظيمة منه سبحانه، وأولئك هم المهتدون إلى الرشاد.
قوله تعالى: {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ} [البقرة: ١٥٧]، " أي أولئك الموصوفون بما ذكر لهم ثناء وتمجيد ورحمة من الله"^(١٠).
قال أبو العالية: " يقول: فالصلوات والرحمة على الذين صبروا واسترجعوا"^(١١). وروي عن الربيع^(١٢) مثل ذلك.
قال جوبير: " هي لمن أخذ بالتقوى وأدى الفرائض"^(١).

(١) أخرجه: الطبراني في الكبير رقم (٧٨٢٤).

(٢) البحر المحيط: ٤٥١/١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المرضى باب: ما جاء في كفارة المرض (الفتح ٢٣٩/١١ برقم ٥٦٤١)، وأخرجه مسلم في كتاب البر واصله والأداب: باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك، حتى الشوكة يشاكها (٤/١٩٩٠ برقم ٢٥٧٢).

(٤) فتح الباري (١١/٢٤٢-٢٤٣).

(٥) التفسير الميسر: ٢٤.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٢٤): ص ٢٦٥/١.

(٧) البحر المحيط: ٤٥١/١-٤٥٢.

(٨) أخرجه الطبري (٢٣٣١): ص ٢٢٤/٣.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٢٣): ص ٢٦٥/١.

(١٠) صفوة التفاسير: ٩٤/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٢٨): ص ٢٦٦/١.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢٣٣٠): ص ٢٢٤/٣.

وعن سعيد بن جبير في قوله: "ورحمة"، يعني: رحمة لهم وأمنة من العذاب"^(٢).
وفي قوله تعالى: {صَلُّوا} [البقرة: ١٥٧]، قولان:
أحدهما: يعني: مغفرة من ربهم. قاله ابن جبير^(٣). ومنه قوله تعالى: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ} [التوبة: ١٠٣] يعني "استغفر لهم إن استغفارك سكن لهم"^(٤).
الثاني: أنها الثناء. قاله ابن كيسان^(٥).
وأصح الأقوال فيها أن المراد بها الثناء عليهم في المأ الأعلى؛ والمعنى أن الله يثني على هؤلاء في المأ الأعلى رفعا لذكرهم، وإعلاء لشأنهم^(٦). والله أعلم.
و"الصلاة من الله رحمة، ومن المخلوقين: الملائكة والإنس والجن القيام والركوع والسجود والدعاء والتسبيح، ومن الطير والهوام: التسبيح، ومنه قوله: {كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ} [النور: ٤١]"^(٧).
قوله تعالى: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة: ١٥٧]، أي وأولئك هم المهتدون إلى طريق السعادة"^(٨).
قال سعيد بن جبير: "يعني: من المهتدين بالاسترجاع عند المصيبة"^(٩).

القرآن

{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)} [البقرة: ١٥٨]
التفسير:

إن الصفا والمروة- وهما جبلان صغيران قرب الكعبة من جهة الشرق- من معالم دين الله الظاهرة التي تعبد الله عباده بالسعي بينهما. فمن قصد الكعبة حاجاً أو معتمراً، فلا إثم عليه ولا حرج في أن يسعى بينهما، بل يجب عليه ذلك، ومن فعل الطاعات طواعية من نفسه مخلصاً بها لله تعالى، فإن الله تعالى شاكر يثيب على القليل بالكثير، عليم بأعمال عباده فلا يضعها، ولا يبخرس أحداً مثقال ذرة.
ذكروا في سبب نزولها قولين:

أحدهما: قال الشعبي: "أن وثناً كان في الجاهلية على الصفا يسمى (إساقاً)، ووثناً على المروة يسمى (نائلة)، فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بالبيت مسحوا الوثنين. فلما جاء الإسلام وكسرت الأوثان، قال المسلمون: إن الصفا والمروة إنما كان يطاف بهما من أجل الوثنين، وليس الطواف بهما من الشعائر! قال: فأنزل الله: إنهما من الشعائر، "فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما"^(١٠). وروي عن يزيد^(١١)، وأنس بن مالك^(١٢)، ومجاهد^(١٣)، نحو ذلك.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٢٧): ص ٣٦٥/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٢٩): ص ٢٦٦/١.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٤٢٦): ص ٢٦٥/١.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٥١/١. [بتصرف بسيط].

(٥) انظر: البحر المحيط: ٤٥٢/١.

(٦) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٨٢!/٢.

(٧) التفسير البسيط: ٤٣٢/٣.

(٨) صفوة التفاسير: ٩٤/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٢٩): ص ٢٦٦/١.

(١٠) أخرجه الطبري (٢٣٣٥): ص ٣٣١ / ٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري (٢٣٣٧): ص ٢٣٢ / ٣.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢٣٣٨)، و (٢٣٣٩): ص ٢٣٢ / ٣.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (٢٣٤٣)، و (٢٣٤٤): ص ٢٣٥ / ٣.

وقد ذكر ابن إسحاق في كتاب السيرة أن إسافا ونائلة كانا بشرين، فزنيا داخل الكعبة فمسخا حجرين فنصبتهما فريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس، فلما طال عهدهما عبداً، ثم حولاً إلى الصفا والمروة، فنصبا هنالك، فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما، ولهذا يقول أبو طالب، في قصيدته المشهورة:

وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم ... بمفضى السيول من إساف ونائل^(١)
الثاني: وقال قتادة: "قوله: {إن الصفا والمروة من شعائر الله}، الآية، فكان حي من تهامة في الجاهلية لا يسعون بينهما، فأخبرهم الله أن الصفا والمروة من شعائر الله، وكان من سنة إبراهيم وإسماعيل الطواف بينهما"^(٢). وروي عن عائشة^(٣)، نحو ذلك.

والصواب: "إن الله تعالى ذكره قد جعل الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله، كما جعل الطواف بالبيت من شعائره، فأما قوله: {فلا جناح عليه أن يطوف بهما}، فجائز أن يكون قيل لكلا الفريقين اللذين تخوف بعضهم الطواف بهما من أجل الصنمين اللذين ذكرهما الشعبي، وبعضهم من أجل ما كان من كراهتهم الطواف بهما في الجاهلية، على ما روي عن عائشة، وأبي الأمرين كان من ذلك، فليس في قول الله تعالى ذكره: {فلا جناح عليه أن يطوف بهما}، الآية، دلالة على أنه عنى به وضع الحرج عن طاف بهما، من أجل أن الطواف بهما كان غير جائز بحظر الله ذلك، ثم جعل الطواف بهما رخصة، لإجماع الجميع على أن الله تعالى ذكره لم يحظر ذلك في وقت، ثم رخص فيه بقوله: {فلا جناح عليه أن يطوف بهما}^(٤).

وقد استدل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج^(٥)، لأنه عليه السلام طاف بينهما، وقال: "لتأخذوا عني مناسككم". فكل ما فعله في حجه تلك واجب لا بد من فعله في الحج، إلا ما خرج بدليل، والله أعلم^(٦).

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق (رقم النص ٤) ط، حميد الله، المغرب.

(٢) أخرجه الطبري (٢٣٤٩): ص ٢٣٦/٣، و(٢٣٥٢): ص ٢٣٨/٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٣٥٠)، و(٢٣٥١): ص ٢٣٦/٣-٢٣٧.

(٤) تفسير الطبري: ٢٣٩/٣-٢٤٠.

(٥) مع الاتفاق على مشروعية السعي للحج والعمرة إلا أن أهل العلم اختلفوا في حكمه، فقال مالك والشافعي وأحمد في أظهر روايته: هو ركن من أركان الحج لا ينوب عنه الدم، وقال أبو حنيفة: هو واجب ينوب عنه الدم، وقال أحمد في إحدى روايته: هو سنة لا يجب بتركه دم، والأول أظهر لقول عائشة رضي الله عنها- عند البخاري- فتح: ٧١٩/٣ رقم: ١٧٩٠، ومسلم: ٩٢٨/٢-٩٢٩ رقم: ١٢٧٧، واللفظ له: (فلعمري! ما أتم الله حج من لم يطف بين الصفا والمروة)، وانظر: الذخيرة للقرافي: ٢١٣/٣، نهاية المحتاج للرملي: ٣٢١/٣، الإفصاح لابن هبيرة: ٢٧٨/١، المغني لابن قدامة: ٢٣٨/٣، فتح القدير لابن الهمام: ٤٦٧/٢.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٧١/١. قد فصل الإمام الرازي في هذا الموضوع قائلًا:

قوله تعالى: {لا جناح عليهن} أنه لا إثم عليه، والذي يصدق عليه أنه لا إثم في فعله يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح، ثم يمتاز كل واحد من هذه الثلاثة عن الآخر بقيد زائد، فإذن ظاهر هذه الآية لا يدل على أن السعي بين الصفا والمروة واجب، أو ليس بواجب، لأن اللفظ الدال على القدر المشترك بين الأقسام لا دلالة فيه البتة على خصوصية من الرجوع إلى دليل آخر، إذا عرفت هذا فنقول: مذهب الشافعي رحمه الله أن هذا السعي ركن، ولا يقوم الدم مقامه، وعند أبي حنيفة رحمه الله أنه ليس بركن، ويقوم الدم مقامه، وروي عن ابن الزبير ومجاهد وعطاء، أن من تركه فلا شيء عليه، حجة الشافعي رضي الله عنه من وجوه:

أحدها: ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا"، فإن قيل: هذا الحديث متروك الظاهر، لأنه يقتضي وجوب السعي وهو العدو، ذلك غير واجب قلنا: لا نسلم أن السعي عبارة عن العدو بدليل قوله: {فاسعوا إلى ذكر الله} (الجمعة: ٩) والعدو فيه غير واجب، وقال الله تعالى: {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} (النجم: ٣٩) وليس المراد منه العدو، بل الجهد والاجتهاد في القصد والنية، سلمنا أنه يدل على العدو، ولكن العدو مشتمل على صفة ترك العمل به في حق هذه الصفة، فيبقى أصل المشي واجبًا.

قوله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} [البقرة: ١٥٨]، أي إن الصفا والمروة من
: "من أعلام دينه ومناسكه"^(١).

عن عكرمة قال: "الصفا والمروة من مساجد الله"^(٢).

{الصفا والمروة}، في هذا الموضع: الجبلين المسمَّين بهذين الاسمين اللذين في حرمه^(١)،
دون سائر الصفا والمرو، ولذلك أدخل فيهما: (الألف واللام)، ليعلم عباده أنه عنى بذلك الجبلين
المعروفين بهذين الاسمين، دون سائر الأصفاء والمرو^(٢).

وثانيها: ما ثبت أنه عليه السلام سعى لما دنا من الصفا في حجته، وقال: "إن الصفا والمروة من شعائر الله ابدؤا بما
بدأ الله به" فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت، وإذا ثبت أنه عليه السلام سعى وجب أن يجب علينا السعي
للقرآن والخبر، أما القرآن: فقوله تعالى: {واتبعوه} وقوله: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني} (آل عمران: ٣١)
وقوله: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة} (الأحزاب: ٢١) وأما الخبر فقوله عليه السلام: "خذوا عني
مناسككم" والأمر للوجوب.

وثالثها: أنه أسواط شرعت في بقعة من بقاع الحرم، أو يؤتى به في إحرام كامل فكان جنسها ركنا كطواف الزيارة،
ولا يلزم طواف الصدر لأن الكلام للجنس لوجوبه مرة، واحتج أبو حنيفة رضي الله عنه بوجهين:
أحدهما: هذه الآية وهي قوله: {لا جناح عليهن * أن يطوف بهما} وهذا لا يقال في الواجبات.
ثم إنه تعالى أكد ذلك بقوله: {ومن تطوع خيرا} فبين أنه تطوع وليس بواجب.
وثانيهما: قوله: "الحج عرفة" ومن أدرك عرفة فقد تم حجه، وهذا يقتضي التمام من جميع الوجوه، ترك العمل به في
بعض الأشياء، فيبقى معمولا به في السعي والجواب عن الأول من وجوه:

الأول: ما بينا أن قوله: {فلا جناح عليه} ليس فيه إلا أنه لا إثم على فاعله، وهذا القدر المشترك بين الواجب وغيره،
فلا يكون فيه دلالة على نفي الوجوب والذي يحقق ذلك قوله تعالى: {فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلوة إن
خفتم} (النساء: ١٠١) والقصر عند أبي حنيفة واجب، مع أنه قال فيه: {فلا جناح عليه} فكذا ههنا.
الثاني: أنه رفع الجناح عن الطواف بهما لا عن الطواف بينهما، وعندنا الأول غير واجب، وإنما الثاني هو الواجب.
الثالث: قال ابن عباس: كان على الصفا صنم وعلى المروة صنم وكان أهل الجاهلية يطوفون بهما ويتمسحون بهما
فلما جاء الإسلام كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمين فأنزل الله تعالى هذه الآية، إذا عرفت هذا فنقول
انصرفت الإباحة إلى وجود الصنمين حال الطواف لا إلى نفس الطواف كما لو كان في الثوب نجاسة يسيرة عندكم،
أو دم البراغيث عندنا، فقيل: لا جناح عليك أن تصلي فيه، فإن رفع الجناح ينصرف إلى مكان النجاسة لا إلى نفس
الصلوة.

الرابع: روي عن عروة أنه قال لعائشة: إني أرى أن لا حرج علي في أن لا أطوف بهما، فقالت: بنس ما قلت لو كان
كذلك لقال: أن لا يطوف بهما، ثم حكى ما تقدم من الصنمين، وتفسير عائشة راجح على تفسير التابعين، فإن قالوا:
قرأ ابن مسعود: (فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما) واللفظ أيضا محتمل له كقوله: {يبين الله لكم أن تضلوا} (النساء:
١٧٦) أي أن لا تضلوا، وكقوله تعالى: {أن تقولوا يوم القيامة} (الأعراف: ١٧٢) معناه: أن لا تقولوا، قلنا: القراءة
الشاذة لا يمكن اعتبارها في القرآن لأن تصحيحها يقدح في كون القرآن متواترا.
الخامس: كما أن قوله: {فلا جناح عليه} لا يطلق على الواجب، فكذلك لا يطلق على المندوب، ولا شك في أن السعي
مندوب، فقد صارت الآية متروكة العمل بظاهرها.

وأما التمسك بقوله: {فمن تطوع خيرا} فضعيف، لأن هذا لا يقتضي أن يكون المراد من هذا التطوع هو الطواف
المذكور أولا، بل يجوز أن يكون المقصود منه شيئا آخر قال الله تعالى: {وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين}
(البقرة: ١٨٤) ثم قال: {فمن تطوع خيرا فهو خير له} (البقرة: ١٨٤) فأوجب عليهم الطعام، ثم ندبهم إلى التطوع
بالخير فكان المعنى: فمن تطوع وزاد على طعام مسكين كان خيرا، فكذا ههنا يحتمل أن يكون هذا التطوع مصروفا
إلى شيء آخر وهو من وجهين:

أحدهما: أنه يزيد في الطواف فيطوف أكثر من الطواف الواجب مثل أن يطوف ثمانية أو أكثر.

الثاني: أن يتطوع بعد حج الفرض وعمرته بالحج والعمرة مرة أخرى حتى طاف بالصفا والمروة تطوعا وأما
الحديث الذي تمسكوا به فنقول: ذلك الحديث عام وحديثنا خاص والخاص مقدم على العام والله أعلم.(مفاتيح الغيب:
١٤٦/٤-١٤٧).

(١) صفة التفاسير: ٩٦/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٣٣):ص٢٦٧/١.

قوله تعالى: {فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ} [البقرة: ١٥٨]، " أي من قصد بيت الله للحج أو العمرة"^(٣).

و(العمرة) في اللغة: الزيارة؛ والمراد بها: زيارة البيت لأداء مناسك العمرة^(٤). والله أعلم.
قوله تعالى: {فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} [البقرة: ١٥٨]، " أي: لا حرج ولا إثم عليه أن يسعى بينهما"^(٥).

قال الطبري: أي: "فلا حرج عليه ولا مآثم في طوافه بهما"^(٦).

قال المراغي: أي "فلا يتخوفن من الطواف بهما"^(٧).

قال سعيد بن جبير: "فلا حرج"^(٨).

قال السدي: "الجناح: الإثم"^(٩).

وإنما نفى الإثم؛ لأنهم كانوا يتخرجون من الطواف بهما، "من أجل أن المشركين كانوا يطوفون بهما"^(١٠).

واختلف أهل العلم في وجوب طواف (الصفا والمروة)، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه سنة، قاله أنس^(١١)، وعطاء^(١٢)، ومجاهد^(١٣)، وعاصم^(١٤)، وأنس بن مالك^(١٥).

وحجتهم: قوله تعالى: {فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ}، فإنه يفهم منه التخيير، وهو ضعيف، لأن نفي الجناح يدل على الجواز الداخل في معنى الوجوب، فلا يدفعه"^(١٦).

الثاني: أنه واجب، يجبر بالدم. وهذا مذهب أبي حنيفة^(١٧)، والثوري^(١٨).

الثالث: أنه ركن. وهذا قول مالك^(١٩)، والشافعي^(٢٠) رحمهما الله^(٢١).

(١) وهو الجبل الذي يبدأ منه المسلمون سعيهم للحج أو العمرة، وسمي بذلك لأن حجاره ملساء، أو لأنه لا يخالطها طين أو تراب، قال أبو حيان: (وهو الذي يدل عليه الاشتقاق). انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٢٤٢/٢، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٧٩/٢، معالم التنزيل للبخاري: ١٧٢/١، البحر المحيط لأبي حيان: ٤٥٤/١، الدر المصون للسمين: ٤١٤/١، معجم البلدان لياقوت: ٤١١/٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٢٢٦/٣، وتفسير الثعلبي: ٢٤٢/٢-٢٥.

(٣) صفة التفاسير: ٩٦/١.

(٤) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٨٤/٢.

(٥) صفة التفاسير: ٩٦/١.

(٦) تفسير الطبري: ٣٣٠/٣.

(٧) تفسير المراغي: ٢٧/٢.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٣٤): ص ٢٦٧/١.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢٣٣٤): ص ٢٣١/٣.

(١٠) تفسير المراغي: ٢٧/٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري (٢٣٥٨): ص ٢٤٢/٣.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢٣٥٦): ص ٢٤١/٣.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (٢٣٦٠)، و(٢٣٦١): ص ٢٤٢/٣.

(١٤) انظر: تفسير الطبري (٢٣٥٨): ص ٢٤٢/٣.

(١٥) انظر: تفسير الطبري (٢٣٥٩): ص ٢٤٢/٣.

(١٦) تفسير البيضاوي: ١١٥/١.

(١٧) وفي بعض روايات أبي حنيفة: "إن ترك أكثر من ثلاثة أشواط فعليته دم، أو ثلاثة فأقل فعليته لكل شوط إطعام مسكين". [انظر: البحر المحيط: ٤٥٧/١].

(١٨) انظر: تفسير الطبري (٢٣٥٥): ص ٢٤١/٣، وتفسير البيضاوي: ١١٥/١، والبحر المحيط: ٤٥٧/١.

(١٩) انظر: لفظ مالك في الموطأ: ٣٧٤ - ٣٧٥، وتفسير الطبري (٢٣٥٣): ص ٢٤١/٣.

(٢٠) انظر لفظ الشافعي في الأم ٢: ١٧٨، وانظر: تفسير الطبري (٢٣٥٤): ص ٢٤١/٣.

(٢١) انظر: تفسير البيضاوي: ١١٥/١، والبحر المحيط: ٤٥٧/١.

واجتجوا بقوله عليه الصلاة والسلام: "اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي"^(١).
والراجح: "أن الطواف بهما فرض واجب، وأن على من تركه العود لقضائه، ناسياً كان، أو عامداً. لأنه لا يُجزيه غير ذلك، لتظاهر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه حج بالناس، فكان مما علمهم من مناسك حجهم الطواف بهما"^(١). والله أعلم.
قوله تعالى: {وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا} [البقرة: ١٥٨]، أي: ومن أكثر من الطاعة بالزيادة على الواجب"^(٢).

وفي تفسير قوله تعالى: {فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا} [البقرة: ١٥٨]، على وجهان:
أحدها: قيل: بالنقل على واجب الطواف، قاله مجاهد^(٣).
الثاني: وقيل: المراد تطوع خيراً في سائر العبادات. قاله الحسن^(٤).
والقول الثاني أولى بالصواب، لأنه أوفق لعموم اللفظ. والله تعالى أعلم، وتخصيص التطوع بالمستحب اصطلاح فقهي؛ أما في الشرع فإنه يشمل الواجب، والمستحب^(٥).
قوله تعالى: {فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ١٥٨]، أي: إن الله "مثيب على الطاعة، لا تخفى عليه"^(٦).

روي عن قتادة. قوله: {شَاكِرٌ عَلِيمٌ}، قال: إن الله لا يعذب شاكراً ولا مؤمناً"^(٧). وعنه كذلك: "لا شيء أشكر من الله، ولا أجزأ لخير من الله عز وجل"^(٨).
وقرن "العلم" بـ"الشكر"، لاطمئنان العبد إلى أن عمله لن يضيع فإنه معلوم عند الله، ولا يمكن أن يضيع منه شيء؛ يعني: إذا علم العامل أن الله تعالى شاكراً، وأنه عليم، فإنه سيطمئن غاية الطمأنينة إلى أن الله سبحانه وتعالى سيجزيه على عمله بما وعده به، ويعطيه أكثر من عمله^(٩).

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَدْمَا بَيِّنَاتٍ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩)} [البقرة: ١٥٩]
التفسير:

(١) أخرجه أحمد ٤٢١/٦ - ٤٢٢، حديث رقم ٢٧٩١١، وأخرجه ابن خزيمة ٢٣٢/٤ - ٢٣٣، حديث رقم ٢٧٦٤، ٢٧٦٥، وأخرجه الشافعي في مسنده ٣٥١/١ - ٣٥٢، حديث رقم ٩٠٧، وقال الألباني الحديث "صحيح" (الإرواء: ٢٦٩/٤ - ٢٧٠).

(٢) تفسير الطبري: ٢٤٣/٣. ومن تلك الأخبار:

- روي عن جابر أنه قال: "لما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصفا في حجه قال: " {إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله}، ابدؤوا بما بدأ الله بذكره. فبدأ بالصفا فرقي عليه". [تفسير الطبري (٢٣٦٥): ص ٢٤٣/٣].

- عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " {إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله }، فأتى الصفا فبدأ بها، فقام عليها، ثم أتى المروة فقام عليها، وطاف وسعى". [تفسير الطبري (٢٣٦٦): ص ٢٤٣/٣].

(٢) تفسير المراغي: ٢٨/٢.

(٣) انظر: البحر المحيط: ٤٥٧/١.

(٤) انظر: البحر المحيط: ٤٥٧/١، ومفاتيح الغيب: ١٣٩/٤.

(٥) تفسير ابن عثيمين: ٨٢/٢.

(٦) تفسير البيضاوي: ١١٥/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٣٧): ص ٢٦٨/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٣٨): ص ٢٦٨/١.

(٩) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٨٢/٢.

إن الذين يُخفون ما أنزلنا من الآيات الواضحات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به، وهم أحيار اليهود وعلماء النصارى وغيرهم ممن يكتم ما أنزل الله من بعد ما أظهرناه للناس في التوراة والإنجيل، أولئك يطردهم الله من رحمته، ويدعو عليهم باللعنة جميع الخليقة.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ} [البقرة: ١٥٩]، أي: "إن الذين يُخفون ما أنزلنا من الآيات الواضحات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به، وهم أحيار اليهود وعلماء النصارى وغيرهم ممن يكتم ما أنزل الله من بعد ما أظهرناه للناس في التوراة والإنجيل"^(١).

عن الحسن: {الكتاب}، قال: الكتاب: القرآن"^(٢).

عن السدي، عن أصحابه في قول الله عز وجل: {الْبَيِّنَاتِ}، قال: الحلال والحرام"^(٣).

قال أبو العالية: "هم أهل الكتاب، كتموا محمدا صلى الله عليه وسلم ونعته، وهم يجدونه مكتوبا عندهم، فكتموه حسدا وبغيا، وكتموا ما أنزل الله عليهم من أمره وصفته"^(٤). وروى عن قتادة، والسدي والربيع بن أنس، نحو ذلك"^(٥).

قوله تعالى: {أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} [البقرة: ١٥٩]، أي: "أولئك يطردهم الله من رحمته، ويدعو عليهم باللعنة جميع الخليقة"^(٦).

وأصل (اللعن) في اللغة الإبعاد والطرْد، كما قال الشماخ بن ضرار، وذكر ماءً ورد عليه^(٧):

دَعَرْتُ بِهِ الْفَطَا وَفَقَيْتُ عَنْهُ ... مَقَامَ الذَّنْبِ كَالرَّجُلِ اللَّعِينِ

يعني: مقام الذنب الطريد. و (اللعين) من نعت (الذنب)، وإنما أراد: مقام الذنب الطريد واللعين كالرجل^(٨).

وقال النابغة^(٩):

فبت كائني خرج لعين ... نفاه الناس أو أدنف طعين

واختلفوا في هؤلاء اللاعنين في قوله: {وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} [البقرة: ١٥٩]، على أقوال: أحدها: أنهم كل شيء في الأرض من حيوان وجماد إلا الثقلين الإنس والجن، وهذا قول الضحاك^(١٠).

الثاني: أنهم البهائم، إذا يبست الأرض قالت البهائم هذا من أجل عصاة بني آدم، وهذا قول مجاهد^(١١)، وعكرمة^(١٢).

(١) التفسير الميسر: ٢٤.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٤٢): ص ٢٦٩/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٤٣): ص ٢٦٩/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٤١): ص ٢٦٨/١.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٦٨/.

(٦) التفسير الميسر: ٢٤.

(٧) ديوانه: ٩٢، ومجاز القرآن ٤٦١، وروايته في ديوانه، "مقام الذنب" والضمير في "به" إلى "ماء" في قوله قبله: "وماء قد وردت لوصل أروى ... عليه الطير كالورق اللجين وأراد في البيت: مقام الذنب الطريد اللعين كالرجل. والرجل اللعين المطرود لا يزال منتبذا عن الناس، شبه الذنب به، يعني في ذله وشدة مخافته وذعره.

(٨) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٤/٣، وتفسير الثعلبي: ٢٩/٢.

(٩) البيت من شواهد الثعلبي في تفسيره: ٢٩/٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٣٨٩): ص ٢٥٧/٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري (٢٣٧٨)، و(٢٣٧٩)، و(٢٣٨٠)، و(٢٣٨١)، و(٢٣٨٣)، و(٢٣٨٤): ص ٢٥٥-٢٥٤/٣.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢٣٨٢): ص ٢٥٥/٣.

قال مجاهد: "الخنافس والعقارب والدواب، تقول: حبس عنا المطر بذنوب بني آدم" (١).
 قال مجاهد: "البهائم، الإبل والبقرة والغنم، تلعن عصاة بني آدم إذا أجدبت الأرض" (٢).
 الثالث: أنهم: كل دابة والجن والإنس. قاله عطاء (٣).
 الرابع: أنهم عباد الله أجمعون. قاله الحسن (٤).

الحامس: أنهم المؤمنون من الإنس والجن، والملائكة يلعنون مَنْ كَفَرَ بالله واليوم الآخر، وهذا قول قتادة (٥)، والربيع بن أنس (٦)، وأبي العالية (٧)، واختاره ابن عطية (٨)، والزجاج (٩)، وآخرون.
 والصواب أن "اللاعنون"، هم: الملائكة والمؤمنون، "لأن الله تعالى ذكره قد وصف الكفار بأن اللعنة التي تحلّ بهم إنما هي من الله والملائكة والناس أجمعين، فقال تعالى ذكره: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}، وكذلك اللعنة التي أخبر الله تعالى ذكره أنها حالة بالفريق الآخر: الذين يكتُمون ما أنزل الله من البينات والهدى من بعد ما بينه للناس، هي لعنة الله، ولعنة الذين أخبر أن لعنتهم حالة بالذين كفروا وماتوا وهم كفار، وهم "اللاعنون"، لأن الفريقين جميعاً أهلُ كفر" (١٠). والله أعلم.
 وقد ورد في الحديث المسند من طرق يشد بعضها بعضاً، عن أبي هريرة، وغيره: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من سُئِلَ عن علم فكنمه، أُلجم يوم القيامة بلجام من نار" (١١).
 والذي في الصحيح عن أبي هريرة أنه قال: "لولا آية في كتاب الله ما حدثتُ أحدًا شيئاً: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى} الآية" (١٢).

القرآن

{إِنَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)} [البقرة: ١٦٠]
 التفسير:

إلا الذين رجعوا مستغفرين الله من خطاياهم، وأصلحوا ما أفسدوه، وبَيَّنَّا ما كتموه، فأولئك أقبلت توبتهم وأجازيهم بالمغفرة، وأنا التواب على من تاب من عبادي، الرحيم بهم؛ إذ وفقهم للتوبة وقبلتها منهم.

قوله تعالى: {إِنَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا} [البقرة: ١٦٠]، "أي: لا الذين رجعوا مستغفرين الله من خطاياهم، وأصلحوا ما أفسدوه، وبَيَّنَّا ما كتموه" (١٣).
 عن سعيد بن جبیر: " {إِنَّا الَّذِينَ تَابُوا}، يعني من الشرك" (١٤).

- (١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٤٧): ص ٢٦٩/١.
- (٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٤٨): ص ٢٧٠/١.
- (٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٤٤٩): ص ٢٧٠/١.
- (٤) انظر: تفسير الثعلبي: ٣٠/٢.
- (٥) انظر: تفسير الطبري (٢٣٨٥)، و(٢٣٨٦): ص ٢٥٦-٢٥٧/٣.
- (٦) انظر: تفسير الطبري (٢٣٨٧): ص ٢٥٧/٣.
- (٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٤٤٥): ص ٢٦٩/١.
- (٨) المحرر الوجيز: ٢٣١/١. [بتصرف بسيط].
- (٩) نقله عنه الاختيار، القرطبي، ولم نقف عليه، انظر: تفسير القرطبي: ١٨٦/٢.
- (١٠) تفسير الطبري: ٢٥٧/٣-٢٥٨.
- (١١) (المسند (٢٦٣/٢) وقد توسع الحافظ الزيلعي في كتابه "تخريج أحاديث الكشاف" (٢٥٢/١ - ٢٥٧) في ذكر طرق هذا الحديث.
- (١٢) صحيح البخاري برقم (١١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٤٩٢).
- (١٣) التفسير الميسر: ٢٤.
- (١٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٥٢): ص ٢٧٠/١.

قال قتادة: " أصلحوا فيما بينهم وبين الله " ورسوله وبيئوا الذي جاءهم من الله ولم يكتموا ولم يجحدوا به، {فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم}"^(١).
 قوله تعالى: {فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ١٦٠]، أي: " فأولئك أقبل توبتهم وأجازيهم بالمغفرة، وأنا التواب على من تاب من عبادي، الرحيم بهم؛ إذ وفقهم للتوبة وقبلتها منهم"^(٢).
 عن أبي زرعة، قال: "إن أول شيء كتب: أنا التواب أتوب على من تاب"^(٣).
 وختم الكلام بهاتين الصفتين "ترغيباً في التوبة وإشعاراً بأن هاتين الصفتين هما له، فمن رجع إليه عطف عليه ورحمه"^(٤).

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١)}
 [البقرة: ١٦١]

التفسير:

إن الذين جحدوا الإيمان وكتموا الحق، واستمروا على ذلك حتى ماتوا، أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين بالطرده من رحمته.
 قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ} [البقرة: ١٦١]، أي: إن الذين جحدوا الإيمان وكتموا الحق، واستمروا على ذلك حتى ماتوا"^(٥).
 عباد بن منصور، قال: "سألت الحكم عن قوله: إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار قال: وكل كافر"^(٦).

و(الكفر) في اللغة: "بمعنى الستر؛ ومنها كُفِرَ النخل - أي وعاء طلعه - لستره الطلع"^(٧).
 قوله تعالى: {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [البقرة: ١٦١]، "أي: أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين بالطرده من رحمته"^(٨).
 قال أبو العالية: "إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله، ثم تلعه الملائكة، ثم يلعه الناس أجمعون"^(٩). وروي عن قتادة^(١٠) نحوه.

و(الملائكة): "عالم غيبي خُلِقوا من نور؛ وهم محجوبون عن الإنس؛ وربما يرونهم إما على الصورة التي خلقوا عليها، كما رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل على صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح^(١) قد سد الأفق^(٢)؛ وإما على صورة أخرى، كما رأى النبي صلى الله عليه

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٥٠): ص ٢٧٠/١.

(٢) التفسير الميسر: ٢٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٥٣): ص ٢٧٠/١.

(٤) البحر المحيط: ٤٥٩/١.

(٥) التفسير الميسر: ٢٤.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٥٥): ص ٢٧١/١.

(٧) تفسير ابن عثيمين: ٢٠١/٢-٢٠٢.

(٨) التفسير الميسر: ٢٤.

(٩) أخرجه الطبري (٢٣٩٤): ص ٢٦٢/٣، وانظر: تفسير ابن كثير: ٤٧٣/١.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٤٥٦): ص ٢٧١/١.

(١) راجع البخاري ص ٢٦٢، كتاب بدء الخلق، باب ٧: إذا قال أحدكم: أمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، حديث رقم ٣٢٣٢؛ ومسلماً ص ٧٠٨، كتاب الإيمان، باب ٧٧: معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى)...، حديث رقم ٤٣٢ [٢٨٠] ١٧٤.

وسلم جبريل على صورة دحية الكلبي^(٣)؛ وهم عباد الله عزّ وجلّ لا يستكبرون عن عبادته، ولا يستحسرون؛ يسبحون الليل والنهار لا يفترون؛ لا يأكلون، ولا يشربون؛ صُمّد - أي لا أجواف لهم؛ والملائكة عليهم السلام لهم وظائف، وأعمال خصهم الله سبحانه وتعالى بها؛ فإسرافيل، وميكائيل، وجبريل موكلون بما فيه الحياة؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يستفتح صلاة الليل بقوله: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل...»^(٤) الحديث؛ لأن هؤلاء الثلاثة موكلون بما فيه الحياة؛ والبعث من النوم حياة؛ ولهذا ناسب أن يكون هذا الاستفتاح في أول عمل يعمله الإنسان بعد أن توفاه الله عزّ وجلّ بالنوم؛ وهؤلاء الثلاثة أحدهم مكلف بما فيه حياة القلوب - وهو جبريل - والثاني بما فيه حياة الأبدان - وهو إسرافيل - والثالث بما فيه حياة النبات - وهو ميكائيل - وأفضلهم جبريل - ولهذا امتدحه الله عزّ وجلّ بقوله تعالى: {إنه ليقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين} [التكوير: ١٩، ٢٠] ، وبقوله تعالى: {فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً} [مريم: ١٧] ؛ فجبريل أفضل الملائكة على الإطلاق^(١).

واختلف في تفسير قوله تعالى {وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ} [البقرة: ١٦١]، على وجوه^(٢):

أحدها: أن المراد بـ{النَّاسُ أَجْمَعِينَ}: أهل الإيمان به وبرسوله خاصة، دون سائر البشر. قاله قتادة^(٣)، والربيع^(٤).

وضعه الطبري فقال: هذا "قولٌ ظاهرٌ التنزيل بخلافه، ولا برهان على حقيقته من خبر ولا نظر. فإن كان ظن أن المعنيّ به المؤمنون ، من أجل أن الكفار لا يلعنون أنفسهم ولا أولياءهم ، فإن الله تعالى ذكره قد أخبر أنهم يلعنونهم في الآخرة. ومعلومٌ منهم أنهم يلعنون الظلمة ، وداخلٌ في الظلمة كل كافر ، بظلمه نفسه ، وجوده نعمة ربه ، ومخالفته أمره"^(٥).
الثاني: أن ذلك يوم القيامة ، يُوقَفُ على رءوس الأشهاد الكافر فيلعنه الناس كلهم. قاله أبو العالية^(٦)، وقاتدة^(٧).

الثالث: أن ذلك قول القائل كائناً من كان: "لعن الله الظالم" ، فيلحق ذلك كل كافر ، لأنه من الظلمة. وهذا قول السدي^(٨).

والراجح أنه عنى الله بذلك جميع الناس، وهو قولهم: "لعن الله الظالم - أو الظالمين"، لأن كل أحد من بني آدم لا يمتنع من قيل ذلك كائناً من كان، ومن أي أهل ملة كان ، فيدخل بذلك في لعنته كل كافر كائناً من كان، لأن الله تعالى ذكره أخبر عن شهدهم يوم القيامة أنهم يلعنونهم فقال :

(٢) راجع البخاري ص ٢٦٢، كتاب بدء الخلق، باب ٧: إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء...، حديث رقم ٣٢٣٥؛ ومسلماً ص ٧٠٩، كتاب الإيمان، باب ٧٧: معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى)...، حديث رقم ٤٤٢ [٢٩٠] ١٧٧.

(٣) راجع مسلماً ص ٧٠٧، كتاب الإيمان، باب ٧٤: الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات وفرض الصلوات، حديث رقم ٤٢٣ [٢٧١] ١٦٧.

(٤) سبق تخريجه ٣١٥/١.

(١) تفسير ابن عثيمين: ٢٠٢/٢-٢٠٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٢٦١/٣-٢٦٢، وتفسير ابن كثير: ٤٧٣/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٣٩٢): ص ٢٦٢/٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٣٩٢): ص ٢٦٢/٣.

(٥) تفسير الطبري: ٢٦٢/٣.

(٦) أخرجه الطبري (٢٣٩٤): ص ٢٦٢/٣، وانظر: تفسير ابن كثير: ٤٧٣/١.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٤٥٦): ص ٢٧١/١.

(٨) انظر: تفسير الطبري (٢٣٩٥): ص ٢٦٢/٣، وتفسير ابن أبي حاتم (١٤٥٧): ص ٢٧١/١.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}[هود : ١٨]"(١).

القرآن

{خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٢)} [البقرة : ١٦٢]

التفسير:

دائمين في اللعنة والنار، لا يخفف عنهم العذاب، ولا هم يمهلون بمعذرة يعتذرون بها. قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا}[البقرة: ١٦٢]، "أي: خالدين في النار"(٢). قال أبو العالية: "يعني: {في النار}: في اللعنة"(٣). وروي عن الربيع بن أنس(٤) نحو ذلك. و"الخلود": "اللزوم أبداً، ومنه يقال: أخذ إلى كذا، أي: لزمه، وركن إليه"(٥). قوله تعالى: {لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ: {وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ}[البقرة: ١٦٢]، "أي: لا يخفف عنهم العذاب، ولا هم يمهلون بمعذرة يعتذرون بها"(٦).

قال أبو العالية: "هو كقوله: {هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِفُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْدِنُ لَهُمْ فَيَعْتَرُونَ}[المرسلات : ٣٥-٣٦]"(٧). وروي عن الربيع بن أنس نحو ذلك(٨).

وإنظار: هو التأجيل والتأخير قال تعالى: {فَنظَرْنَا إِلَى مِيسِرَةٍ}[البقرة: ٢٨٠] والمعنى: إن عذابهم لا يؤجل، بل يكون حاضراً متصلاً بعذاب مثله فكأنه تعالى أعلمنا أن حكم دار العذاب والثواب بخلاف حكم الدنيا فإنهم يمهلون فيها إلى أجل قدرها الله تعالى، وفي الآخرة لا مهلة البتة فإذا استمهلوا لا يمهلون، وإذا استغاثوا لا يغاثون وإذا استعتبوا لا يعتبون، وقيل لهم: {اخشسوا فيها ولا تكلمون}[المؤمنون: ١٠٨]، نعوذ بالله من ذلك، والحاصل أن هذه الصفات الثلاثة التي ذكرها الله تعالى للعقاب في هذه الآية دلت على يأس الكافر من الإنقطاع والتخفيف والتأخير(٩).

القرآن

{وَالْهَكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)} [البقرة : ١٦٣]

التفسير:

وإلهكم -أيها الناس- إله واحد متفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وعبودية خلقه له، لا معبود بحق إلا هو، الرحمن المتصف بالرحمة في ذاته وأفعاله لجميع الخلق، الرحيم بالمؤمنين. قوله تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}[البقرة: ١٦٣]، "أي لا معبود بحق إلا هو جلّ وعلا"(١٠). قال محمد بن إسحاق: "أي ليس معه غيره شريكا في أمره"(١١).

(١) تفسير الطبري: ٢٦٢/٣.

(٢) صصفوة التفاسير: ٩٦/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٥٨):ص٢٧١/١.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٧١/١.

(٥) التفسير البسيط: ٤٤٨/٣، وانظر: المفردات: ١٦٠، و مفاتيح الغيب: ١٤٣/٤.

(٦) التفسير الميسر: ٢٤.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم: ١٧١/١.

(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٧١/١.

(٩) مفاتيح الغيب: ١٤٤/٤.

(١٠) صفوة التفاسير: ٩٨/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٤٦٤):ص٢٧٢/١.

القرآن

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)} [البقرة :

[١٦٤

التفسير:

إن في خلق السماوات وارتفاعها واتساعها، والأرض بجمالها وسهولها وبحارها، وفي اختلاف الليل والنهار من الطول والقصر، والظلمة والنور، وتعاقبهما بأن يخلف كل منهما الآخر، وفي السفن الجارية في البحار، التي تحمل ما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء المطر، فأحيا به الأرض، فصارت مخضرة ذات بهجة بعد أن كانت يابسة لا نبات فيها، وما نشره الله فيها من كل ما دب على وجه الأرض، وما أنعم به عليكم من تغليب الرياح وتوجيهها، والسحاب المسير بين السماء والأرض - إن في كل الدلائل السابقة لآيات على وحدانية الله، وجليل نعمه، لقوم يعقلون مواضع الحجج، ويفهمون أدلته سبحانه على وحدانيته، واستحقاقه وحده للعبادة.

اختلف أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية الكريمة على قولين:

أحدهما: أنزلها عليه احتجاجاً له على أهل الشرك به من عبدة الأوثان.

قال عطاء: "نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة: {والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم}، فقال كفار قريش بمكة: كيف يسع الناس إله واحد؟ فأنزل الله تعالى ذكره: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ" ، إلى قوله: "لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" ، فبهذا تعلمون أنه إله واحد، وأنه إله كل شيء، وخالق كل شيء"^(١).

الثاني: أنها نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم، من أجل أن أهل الشرك سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم [آية] ، فأنزل الله هذه الآية، يعلمهم فيها أن لهم في خلق السموات والأرض وسائر ما ذكر مع ذلك، آية بينة على وحدانية الله، وأنه لا شريك له في ملكه، لمن عقل وتدبر ذلك بفهم صحيح. روي هذا المعنى عن أبي الضحى^(٢)، وعطاء بن أبي رباح^(٣)، وسعيد^(٤)، والسدي^(٥).

قال أبو الضحى: "لما نزلت هذه الآية عجب المشركون وقالوا: إن محمداً يقول: إلهكم إله واحد، فليأتنا بآية إن كان من الصادقين، فأنزل الله تعالى: {إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار}. إلى قوله: {لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}"^(٦).

قال عطاء: "نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة: {والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم}، فقال كفار قريش بمكة: كيف يتسع الناس إله واحد؟ فأنزل الله عز وجل: {إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر} إلى قوله: {لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، فبهذا تعلمون أنه إله واحد، وأنه إله كل شيء، وخالق كل شيء"^(٧).

والراجح - والله أعلم - "أن الله تعالى ذكره نبه عباده على الدلالة على وحدانيته وتفردته بالألوهية، دون كل ما سواه من الأشياء بهذه الآية. وجائز أن تكون نزلت فيما قاله عطاء، وجائز أن تكون فيما قاله سعيد بن جبير وأبو الضحى، ولا خبر عندنا بتصحيح قول أحد الفريقين يقطع

(١) أخرجه الطبري (٢٣٩٨): ص ٢٦٨/٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٣٩٩)، و(٢٤٠٠)، و(٢٤٠١): ص ٢٦٨/٣-٢٦٩.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٤٠٢): ص ٢٦٩/٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٤٠٣): ص ٢٦٩/٣-٢٧٠.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٤٠٤): ص ٢٧٠/٣.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٦١): ص ٢٧٢/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٦٢): ص ٢٧٢/١.

العدرَ ، فيجوز أن يقضيَ أحدُ لأحد الفريقين بصحة قولِ على الآخر. وأيُّ القولين كان صحيحًا ، فالمراد من الآية ما قلت^(١).

قوله تعالى: {وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ} [البقرة: ١٦٤]، أي: "وفي اختلاف الليل والنهار من الطول والقصر، والظلمة والنور، وتعاقبهما بأن يخلف كل منهما الآخر"^(٢).

عن وهب بن منبه: قال عزير عليه السلام: اللهم بكلمتك خلقت جميع خلقك فأتى على مشيئتك، لم تأن فيه مؤونة، ولم تنصب فيه نصبا، كان عرشك على الماء، والظلمة على الهواء، والملائكة يحملون عرشك ويسبحون بحمدك، والخلق مطيع لك، خاشع من خوفك، لا يرى فيه نور إلا نورك ولا يسمع فيه صوت إلا سمعك، ثم فتحت خزانة النور وطرائف الحكمة فكانا ليلا ونهارا يختلفان بأمرك^(٣).

قوله تعالى: {وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ} [البقرة: ١٦٤]، أي: إن في السفن التي تسير في البحر^(٤).

قال أبو مالك: " {الفلك}: السفينة"^(٥). وروي عن سعيد بن جبير مثله^(٦).
{الفلك}: "هي السفن والمراكب ونحوها، مما ألهم الله عباده صنعها، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ما أقدروهم عليها"^(٧)، وتخصيص {الفلك} بالذكر، "لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه، ولذلك قدمه على ذكر المطر والسحاب، لأن منشأهما البحر في غالب الأمر، وتأتيث الفلك لأنه بمعنى السفينة"^(٨).

قوله تعالى: {وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ} [البقرة: ١٦٤]، "أي وما أنزل الله من السحاب من المطر"^(٩).

عن شهر بن حوشب، أن أبا هريرة قال: "ما نزل قطر إلا بميزان"^(١٠).
قال عكرمة: "ينزل الله الماء من السماء السابعة فتقع القطرة منه على السحابة مثل البعير"^(١١).

والمطر الذي أنزله الله من السماء؛ وفيه آيات عظيمة، منها^(١٢):
أحدها: كونه ينزل رذاذاً هذا من آيات الله الدالة على رحمته؛ لأنه لو كان ينزل صباً لأهلك العالم.
الثاني: كونه ينزل من السماء لا يجري من الأرض هذا أيضاً من آيات الله؛ لأجل أن ينتفع به سهول الأرض، وجبالها؛ ولو كان يجري من الأرض لغرق الأسفل قبل أن يصل إلى الأعلى.
الثالث: كذلك من آيات الله كونه ينزل لا حاراً، ولا بارداً؛ البرد ذكره الله تعالى في سياق يدل على أنه نوع من الانتقام، فقال تعالى: {وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار} [النور: ٤٣] ؛ وإن كان الله قد يجعله رحمة؛ لكن الغالب أنه انتقام.

(١) تفسير الطبري: ٢٧٠/٣.

(٢) التفسير الميسر: ٢٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٦٦): ص ٢٧٣/١.

(٤) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢/٢١١. [بتصرف بسيط].

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٦٧): ص ٢٧٣/١.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٧٣/١.

(٧) تفسير السعدي: ٧٨/١.

(٨) تفسير البيضاوي: ١١٦/١.

(٩) صفوة التفاسير: ٩٨/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٦٨): ص ٢٧٤/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٦٩): ص ٢٧٤/١.

(١٢) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢/٢١٢.

قوله تعالى: {فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} [البقرة: ١٦٤]، "أي أحيا بهذا الماء الزروع والأشجار، بعد أن كانت يابسة مجدية ليس فيها حبوب ولا ثمار"^(١).
قال قتادة: "كما أحيا الله الأرض الميتة بهذا الماء، كذلك [يحيي] الله عز وجل الناس يوم القيامة"^(٢).

وأراد يموت الأرض: جدوبتها ويبوستها، فسامها موتا مجازا، وذلك أن الأرض إذا لم يصبها مطر لم تنبت، ولم تنم نباتا، وكانت من هذا الوجه كالميت، وإذا أصابها المطر أنبتت، ونحو هذا قوله: {وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت} [الحج: ٥]، فلما وصفت بالاهتزاز وهو الحركة عند نزول الماء، توصف عند إمساك الماء بالسكون، والعرب تسمي السكون موتا، قال الشاعر^(٣):

إني لأرجو أن تموت الريح ... فأسكن اليوم وأستريح
فيجوز أن يراد بالموت في هذه الآية: ضد الاهتزاز الذي وصفت به عند نزول الماء، ولما سمى ذلك موتا سمى إزالتها إحياء ليتجانس اللفظ"^(٤).
قوله تعالى: {وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ} [البقرة: ١٦٤]، "أي: نشر في الأرض من الدواب المتنوعة"^(٥).

قال السدي: "بث: خلق"^(٦).
قوله تعالى: {وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ} [البقرة: ١٦٤]، "أي وتوجيه الرياح وتصريفها بحسب الإرادة ووفق النظام على السنن الحكيمة"^(٧).

وفي قوله تعالى: {وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ} [البقرة: ١٦٤]، ثلاثة وجوه من التفسير:
الثاني: ينقل الشمال جنوباً والجنوب شمالاً، قاله الحسن^(٨).
الثالث: أن يجعلها تارة رحمة وتارة نقمة؛ قاله قتادة^(٩).

قال قتادة: "قادر الله ربنا على ذلك إذا شاء جعلها رحمة، وإذا شاء جعلها عذابا، وإذا شاء جعلها رحمة لواقع للسحاب ونشرا بين يدي رحمته، وعذابا ريحا عقيما لا تلقح إنما هي عذاب على من أرسلت عليه"^(١٠).

وفي تصريف هذه الرياح آيات: لو بقيت الريح في اتجاه واحد لأضرت بالعالم؛ لكنها تتقابل، فيكسر بعضها حدة بعض، ويذهب بعضها بما جاء به البعض الآخر من الأذى، والجراثيم، وغيرها؛ كذلك أيضاً في تصريفها آيات بالنسبة للسحاب فيجمع السحاب؛ وبعضها يفرقه؛ وبعضها يلحقه؛ وبعضه يدره، فيمطر، كما قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء} [الروم: ٤٨]، وقال تعالى: {وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين} [الحجر: ٢٢]؛ قال المفسرون: تلقح في السحاب؛ وفي تصريف

(١) صفوة التفاسير: ٩٨/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٧٢): ص ٢٧٤/١.

(٣) البيت في "اللسان" ٧/ ٤٢٩٥ (موت)، بغير نسبة. وينظر: "شأن الدعاء" ص ١١٦، "الحجة للقراء السبعة" ٢/ ٣٨١.

(٤) التفسير البسيط: ٤٥٧/٣، وانظر: مفاتيح الغيب: ١٩٨/٤-١٩٩.

(٥) تفسير السعدي: ٧٨. [بتصرف بسيط].

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٧٣): ص ٢٧٥/١.

(٧) تفسير المراغي: ٣٧/٢.

(٨) انظر: التتكت والعيون: ٢٦١/٥.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢٤٠٥): ص ٢٧٥/٣.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٧٤): ص ٢٧٥/١.

الرياح أيضاً آيات للسفن الشراعية؛ وفيه أيضاً آيات في إهلاك الناس، وإنجاء آخرين: أهلك الله به عاداً، وطرد به الأحزاب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ وأنجى الله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بهذه الرياح من شر الأحزاب؛ ومن تدبر هذا عرف ما فيها من قدرة الله، ورحمته، وعزته، وحكمته؛ لو أن جميع مكائن الدنيا كلها اجتمعت، وصارت على أقوى ما يكون من نفث هواء لا يمكن أن تحرك ساكناً إلا فيما حولها فقط؛ لكن أن تصل من أقصى الشمال إلى الجنوب، أو بالعكس فلا؛ والله - جل وعلا - يقول للشيء إذا أراد: {كُنْ فَيَكُونُ} [البقرة: ١١٧] ؛ فتجد الرياح شديدة شمالية؛ وفي لحظة تنعكس، وتكون جنوبية شديدة؛ هذه تمام القدرة العظيمة، حيث يدبر الله هذه الرياح بأمر لا يستطيعه البشر؛ ولهذا صار تصريف الرياح آية من آيات الله العظيمة الدالة على قدرته؛ ثم إن في تصريفها أيضاً مصالح للسفن الجوية؛ لأن لها تأثيراً على الطائرات - كما يقولون؛ وكذلك بالنسبة للسيارات لها تأثير^(١).

قوله تعالى: {لَا يَأْتِي لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة: ١٦٤]، "أي في كل هذه الظواهر عبر ومواعظ لمن يعقل ويتدبر وينظر في الأسباب"^(٢).

قال أبو الضحى: "يقول: في هذه الآيات لقوم يعقلون"^(٣).
 و{آيات}: "جمع آية؛ وهي العلامة المعينة لمعلومها؛ وصارت تلك آيات؛ لأنها دالة على كمال علم الله، وقدرته، ورحمته، وحكمته، وسلطانه، وغير ذلك من مقتضى ربوبيته"^(٤).

القرآن

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} [البقرة: ١٦٥]

التفسير:

ومع هذه البراهين القاطعة يتخذ فريق من الناس من دون الله أصناماً وأوثاناً وأولياء يجعلونهم نظراء لله تعالى، ويعطونهم من المحبة والتعظيم والطاعة، ما لا يليق إلا بالله وحده. والمؤمنون أعظم حبا لله من حب هؤلاء الكفار لله ولآلهتهم؛ لأن المؤمنين أخلصوا المحبة كلها لله، وأولئك أشركوا في المحبة. ولو يعلم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك في الحياة الدنيا، حين يشاهدون عذاب الآخرة، أن الله هو المتفرد بالقوة جميعاً، وأن الله شديد العذاب، لما اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم من دونه، ويتقربون بهم إليه.

قوله تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا} [البقرة: ١٦٥]، أي: ومع هذه البراهين القاطعة يتخذ فريق من الناس من دون الله أصناماً وأوثاناً وأولياء"^(٥).

اختلف أهل التفسير في "الأنداد" التي كان القوم اتخذوها، على قولين: أحدهما: أنها: آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله. وهذا قول قتادة^(٦)، ومجاهد^(٧)، والربيع^(٨)، وأبي العالية^(٩).

(١) تفسير ابن عثيمين: ٢١٦/٢-٢١٧.

(٢) تفسير المراعي: ٣٧/٢.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٧٧): ص ٢٧٥/١.

(٤) تفسير ابن عثيمين: ٢١٨/٢.

(٥) التفسير الميسر: ٢٤.

(٦) انظر: تفسير الطبري (٢٤٠٦): ص ٢٧٩/٣.

(٧) انظر: تفسير الطبري (٢٤٠٧)، و(٢٤٠٨): ص ٢٧٩/٣.

(٨) انظر: تفسير الطبري (٢٤٠٩): ص ٢٨٠/٣.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٤٧٨): ص ٢٧٦/١.

فكانوا يعبدونهم "لتقربهم إلى الله زلفى، ورجوا من عندها النفع والضر، وقصدوها بالمسائل، ونذروا لها النذور، وقربوا لها القرابين، وهو قول أكثر المفسرين، وعلى هذا الأصنام أُنَادَ بعضها لبعض، أي أمثال ليس إنها أُنَادَا الله، أو المعنى: إنها أُنَادَا الله تعالى بحسب ظنونهم الفاسدة"^(١).

الثاني: أنهم: سادتهم الذين كانوا يطيعونهم في معصية الله تعالى. قاله السدي^(٢).

فيحلون لمكان طاعتهم ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله^(٣).

والقائلون بهذا القول رجحوا هذا القول على الأول من وجوه^(٤):

الأول: أن قوله: {يحبونهم كحب الله} الهاء والميم فيه ضمير العقلاء.

الثاني: أنه يبعد أنهم كانوا يحبون الأصنام كمحبتهم الله تعالى مع علمهم بأنها لا تضر ولا تنفع.

الثالث: أن الله تعالى ذكره بعد هذه الآية: {إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا} [البقرة: ١٦٦]، وذلك لا يليق إلا بمن اتخذ الرجال أُنَادَا وأمثالا لله تعالى، يلتزمون من تعظيمهم والانقياد لهم، ما يلتزمه المؤمنون من الإنقياد لله تعالى.

والقول الأول أصح؛ والمعنى: أنهم يحبون هذه الأصنام، ويعتقدون أنها تنفع، وتضر؛ ولا فرق في ذلك بين من يتخذ محبوباً إلى الله عز وجل، أو غير محبوب إليه؛ فمن اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم نداً لله في المحبة، والتعظيم، كمن اتخذ صنماً من شجر، أو حجر؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الصنم كلاهما لا يستحق أن يكون نداً لله عز وجل؛ ولهذا لما نزلت: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون} [الأنبياء: ٩٨]، وكان ظاهر الآية يشمل الأنبياء الذين عُبِدوا من دون الله، استثناهم الله سبحانه وتعالى في قوله: {إن الذين سبقوا لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون} [الأنبياء: ١٠١] - ولو عُبِدوا من دون الله -؛ وقال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل قال له: «ما شاء الله وشئت»: «أجعلتني لله نداً!!! بل ما شاء الله وحده»^(٥)؛ فأنكر عليه أن يجعله نداً لله^(٥).

قوله تعالى: {يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} [البقرة: ١٦٥]، أي: "يحبونهم كحب الله ويسوون بينه تعالى وبينهم في الطاعة والتعظيم"^(٦).

قال أبو العالية: "يقول: يحبون تلك الأوثان كحب الله، أي: كحب الذين آمنوا ربهم"^(٧). وروي عن قتادة، والربيع، نحو ذلك^(٨).

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} [البقرة: ١٦٥]، أي: "أن الذين آمنوا أشد حبا لله من هؤلاء لأصنامهم"^(٩).

قال مجاهد: "من الكفار لأوثانهم"^(١٠).

قال أبو العالية: "من أهل الأوثان لأوثانهم"^(١١). وروي عن الربيع، وقاتدة ونحو ذلك^(١).

(١) مفاتيح الغيب: ١٧٤/٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٤١١): ص ٢٨٠/٣، وابن أبي حاتم (١٤٨١): ص ٢٧٦/١.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب: ١٧٤/٤.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب: ١٧٤/٤.

(٥) سبق تخريجه ٢١٧/١.

(٥) تفسير ابن عثيمين: ٩٧/٢.

(٦) تفسير المراغي: ٣٨/٢.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٨٢): ص ٢٧٦/١.

(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٧٦/١.

(٩) تفسير ابن عثيمين: ٩٨/٢.

(١٠) أخرجه الطبري (٢٤٠٦): ص ٢٧٩/٣.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٨٤): ص ٢٧٦/١.

وقال عكرمة: "أشد حبا في الآخرة"^(٢).
 وقال قتادة: "إن الكافر يعرض عن معبوده في وقت البلاء ويقبل على الله عز وجل لقوله:
 {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [العنكبوت: ٦٥]"^(٣).
 قوله تعالى: {وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [البقرة: ١٦٥]، "أي لو رأى الظالمون حين يشاهدون العذاب المعد لهم يوم القيامة أن القدرة كلها لله وحده"^(٤).
 قال الحسن: "يقول الله لمحمد: ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب، إنك ستراهم إذ يرون العذاب وحينئذ يعلمون أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب"^(٥).
 قال الربيع: "يقول: لو عاينوا العذاب"^(٦)، وروي عن أبي العالية^(٧) مثل ذلك.
 وقال قتادة: "العذاب، أي: عقوبة الآخرة"^(٨).
 و"الظالمون": "أي الذين نقصوا الله حقه، حيث جعلوا له أندادا؛ وهم أيضاً ظلموا أنفسهم - أي نقصوها حقا -؛ لأن النفس أمانة عندك يجب أن ترعاها حق رعايتها؛ ولهذا قال تعالى: {قد أفلح من زكاهها * وقد خاب من دساها} [الشمس: ٩، ١٠]؛ فالنفس أمانة عندك؛ فإذا عصيت ربك فإنك ظالم لنفسك"^(٩).
 وأصل: "الظلم" -في كلام العرب-: "وضع الشيء في غير موضعه، ومنه قول نابغة بني ذبيان^(١٠):"

إلا أوارِي لأياً ما أُبَيِّنُهَا ... وَالنُّؤْيُ كَالْحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الْجَدِّ
 فجعل الأرض مظلومة، لأن الذي حفر فيها النوى حفر في غير موضع الحفر، فجعلها مظلومة، لموضع الحفرة منها في غير موضعها، ومن ذلك قول ابن قميئة في صفة غيث^(١١):
 ظَلَمَ الْبِطَاحَ بِهَا انْهَالُ حَرِيصَةٍ ... فَصَفَا النَّطَافُ لَهُ بُعِيدَ الْمُقْلَعِ^(١٢).
 والمشرك: ظالم، لأنه وضع العبادة التي هي حق لله تعالى وحده، وضعها في المخلوق الضعيف الفقير، أو وضعها لصنم أو حجر أو شجر، ولأجل هذا البيان فإن القرآن يكثر الله فيه إطلاق الظلم على الشرك، كما قال تعالى عن العبد الصالح: {إِنَّ الشِّرْكََ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، وقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} قال: "بشرك"^(١٣)، ثم

- (١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٧٦/١.
 (٢) ذكره الثعلبي في تفسيره: ٣٣/٢.
 (٣) ذكره الثعلبي في تفسيره: ٣٤/٢.
 (٤) صفة التفسير: ٩٩/١.
 (٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٨٧) و(١٤٨٥): ص ٢٧٧/١.
 (٦) أخرجه الطبري (٢٤١٢): ص ٢٨٦/٣.
 (٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٤٨٦): ص ٢٧٧/١.
 (٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٨٨): ص ٢٧٧/١.
 (٩) تفسير ابن عثيمين: ٩٨/٢.
 (١٠) ديوانه: ٢٣، والجلد: الأرض الصلبة، يعني أنها لا تثبت شيئا فلا يرعاها أحد.
 (١١) البيت له في تفسير الطبري: ٥٢٤/١، جاء أيضاً في تفسيره: ٥٠ / ٢ منسوبا لعمر بن قميئة. وصحة نسبه إلى الحادرة الذبياني، وهو في ديوان الحادرة، قصيدة: ٤، البيت رقم: ٧، وشرح المفضليات: ٥٤. والبطاح جمع بطحاء وأبطح: وهو بطن الوادي. وأنهل المطر انهلالا: اشتد صوبه ووقعه. والحريصة والحارصة: السحابة التي تحرص مطرتها وجه الأرض، أي تقشره من شدة وقعها. والنطاف جمع نطفة: وهي الماء القليل يبقى في الدلو وغيره. وقوله: "بعيد المقلع": أي بعد أن أقلعت هذه السحابة. ورواية المفضليات: "ظلم البطاح له" وقوله: "له": أي من أجله.
 (١٢) تفسير الطبري: ٥٢٣/١-٥٢٤.
 (١٣) رواه البخاري: كتاب الأنبياء (٣٦٣٦): باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلا)، عن عبد الله رضي الله عنه قال: "لما نزلت {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} قلنا: يا رسول الله، أين لا يظلم نفسه؟ قال: ليس كما

تلا قول لقمان: {إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، وقال تعالى: {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَأِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ} [يونس : ١٠٦]، أي : "من المشركين بالله، الظالمى أنفسهم" (١). ولم يأت الظلم في القرآن إلا بهذا المعنى، إلا في موضع واحد في سورة الكهف ، بمعنى النقص ، كما قال تعالى {كُلَّمَا جَنَّتَيْنَ أَنْتَ أَكَلَهَا وَلَمْ تُظَلِّمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا} [الكهف : ٣٣]، أي و"لم تنقص" (٢).

القرآن

{إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦)} [البقرة : ١٦٦]

التفسير:

عند معاينتهم عذاب الآخرة يتبرأ الرؤساء المتبوعون ممن اتبعهم على الشرك، وتنقطع بينهم كل الصلات التي ارتبطوا بها في الدنيا: من القرابة، والاتباع، والدين، وغير ذلك. قوله تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا} [البقرة: ١٦٦]، أي "إذ تبرأ الرؤساء من الأتباع" (٣).

قال أبو العالية: "تبرأت القادة من الأتباع يوم القيامة إذا رأت العذاب" (٤). وروي عن الربيع (٥)، وعطاء (٦)، وقتادة (٧)، نحو ذلك.

وقد اختلف أهل التأويل في الذين عنى الله تعالى ذكره بقوله : {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ}، على أقوال (٨): أحدها: أن المعنى: "تبرأت القادة من الأتباع يوم القيامة". قاله الربيع (٩)، وعطاء (١٠)، وقتادة (١١)، العالية (١٢).

فالمتبوعون هم الجبابرة والقادة في الشرك والشر، والتابعون هم الأتباع والضعفاء والسفلة. قاله أكثر أهل التفسير (١٣).

الثاني: أنهم الشياطين تبرأوا من الإنس. قال السدي (١٤).

والراجح أن الله قد عمّ المشركين جميعا دون تخصيص بعضهم دون بعض، عليه فإن كل متبوع على الكفر يتبرأ من أتباعه حين يرون عذاب الله. -والله تعالى أعلم-.

تقولون، لم يلبسوا إيمانهم بظلم، بشرك. أولم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}.

(١) تفسير الطبري: ٢١٩/١٥.

(٢) تفسير الطبري: ٣٥٧/١٠.

(٣) صفة التفاسير: ٩٩/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٨٩): ص ٢٧٧/١.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٤١٤): ص ٢٨٧/٣.

(٦) انظر: تفسير الطبري (٢٤١٥): ص ٢٨٧/٣.

(٧) انظر: تفسير الطبري (٢٤١٣): ص ٢٨٧/٣.

(٨) انظر: تفسير الطبري: ٢٨٧/٣ - ٢٨٨.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢٤١٤): ص ٢٨٧/٣.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٤١٥): ص ٢٨٧/٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري (٢٤١٣): ص ٢٨٧/٣.

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٤٨٩): ص ٢٧٧/١.

(١٣) تفسير الثعلبي: ٣٦/٢.

(١٤) انظر: تفسير الطبري (٢٤١٦): ص ٢٨٧/٣ - ٢٨٨، وابن أبي حاتم (١٤٩١): ص ٢٧٨/١.

وقد اختلف أهل التفسير في معنى {الأسباب} [البقرة: ١٦٦]، على وجوه^(١)، أحدها: أن معناه: "الوصال الذي كان بينهم في الدنيا". قاله مجاهد^(٢)، وقتادة^(٣)، والربيع^(٤). الثاني: أن معنى {الأسباب}، "المنازل التي كانت لهم من أهل الدنيا". قاله الربيع بن أنس^(٥). الثالث: أن {الأسباب}، "الأعمال التي كانوا يعملونها في الدنيا". قاله السدي^(٦). الرابع: العهود التي كانت بينهم في الدنيا. قاله أبو روق^(٧).

وجميع المعاني السابقة تجمعها كلمة (الأسباب)، لأن كل هذه المعاني أسباب يتسبب في الدنيا بها إلى مطالب، فقطع الله منافعها في الآخرة عن الكافرين به، لأنها كانت بخلاف طاعته ورضاه، فهي منقطعة بأهلها. فلا خلال بعضهم بعضاً تفهم عند ورودهم على ربهم، ولا عبادتهم أنداهم ولا طاعتهم شياطينهم؛ ولا دافعت عنهم أرحاماً فنصرتهم من انتقام الله منهم، ولا أغنت عنهم أعمالهم، بل صارت عليهم حسرات. فكل أسباب الكفار منقطعة^(٨).

القرآن

{وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرًا مَبْنِيًّا كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)} [البقرة: ١٦٧]

التفسير:

وقال التابعون: يا ليت لنا عودة إلى الدنيا، فنعلن براءتنا من هؤلاء الرؤساء، كما أعلنوا براءتهم منّا. وكما أراهم الله شدة عذابه يوم القيامة يريهم أعمالهم الباطلة ندامات عليهم، وليسوا بخارجين من النار أبداً.

قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرًا مَبْنِيًّا كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا} [البقرة: ١٦٧]، أي: "وقال الأتباع ليت^(٩) لنا رجعة إلى الدنيا لتبرأنا منهم كما تبرأوا منا في الآخرة"^(١٠). قال أبو العالية: "فقال الأتباع: لو أن لنا كرة إلى الدنيا، فننتبرأ منهم كما تبرأوا منا"^(١١). قال قتادة: "أي: لنا رجعة إلى الدنيا"^(١٢). وروي عن الربيع^(١٣) مثل ذلك.

- (١) انظر: تفسير الطبري: ٢٨٩/٣-٢٩١.
- (٢) انظر: تفسير الطبري (٢٤١٧)، و(٢٤١٨)، و(٢٤١٩)، و(٢٤٢٠)، و(٢٤٢١)، و(٢٤٢٢): ص ٢٨٩/٣-٢٩٠.
- (٣) انظر: تفسير الطبري (٢٤٢٤)، و(٢٤٢٥): ص ٢٩٠/٣.
- (٤) انظر: تفسير الطبري (٢٤٢٦): ص ٢٩٠/٣.
- (٥) انظر: تفسير الطبري (٢٤٢٨): ص ٢٩١/٣.
- (٦) انظر: تفسير الطبري (٢٤٣٠): ص ٢٩١/٣.
- (٧) انظر: تفسير الثعلبي: ٣٦/٢.
- (٨) انظر: تفسير الطبري: ٢٩٢/٣-٢٩٣.
- (٩) إن {لو} هنا ليست شرطية؛ ولكنها للتمني؛ يعني: ليت لنا كرة فننتبرأ؛ والدليل على أنها للتمني أن الفعل نصب بعدها؛ وهو منصوب بـ«أن» المضمر بعد الفاء السببية؛ و«لو» تأتي في اللغة العربية على ثلاثة أوجه: تكون شرطية؛ وتكون للتمني؛ وتكون مصدرية؛ فـ{ لو } في قوله تعالى: {وودوا لو تكفرون} [الممتحنة: ٢] مصدرية؛ و{ لو } في قوله تعالى: {ولو شاء الله ما اقتتلوا} [البقرة: ٢٥٣] شرطية؛ { لو } في قوله تعالى: { لو أن لنا كرة فننتبرأ منهم } للتمني؛ ومثلها قوله تعالى: {فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين} [الشعراء: ١٠٢].
- (١٠) انظر: تفسير الطبري: ٢٩٣/٣. [بتصرف بسيط].
- (١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٩٩): ص ٢٧٩/١.
- (١٢) أخرجه الطبري (٢٤٣٢): ص ٢٩٤/٣.
- (١٣) انظر: تفسير الطبري (٢٤٣٣): ص ٢٩٤/٣.

"والكرة": أي: "الرجعة والعودة إلى حال قد كانت" (١)، والمراد هنا: الرجوع إلى الدنيا؛ فنتيراً منهم في الدنيا إذا رجعنا كما تبرعوا منا هنا في الآخرة؛ فنجازيهم بما جازونا به؛ لكن أنى لهم ذلك!!! فهذا التمني لا ينفعمهم" (٢).

قوله تعالى: {كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ} [البقرة: ١٦٧]، أي: "كما أراهم الله العذاب، فكذلك يُريهم أيضاً أعمالهم الخبيثة حسرات عليهم" (٣).

قال أبو العالية: "صارت أعمالهم الخبيثة حسرات عليهم يوم القيامة" (٤). وروي عن الربيع بن أنس نحو ذلك (٥).

روي أسباط عن السدي: "كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ"، زعم أنها ترفع لهم الجنة فينظرون إليها، وينظرون إلى بيوتهم فيها لو أنهم أطاعوا الله، فقال لهم: تلك مساكنكم، لو أطعتم الله. ثم تقسم بين المؤمنين فيرثونهم فذلك حين يندمون" (٦).

"والحسرة": "هي الندم مع الانكماش، والحزن؛ فهؤلاء الأتباع شعورهم بالندم، والخيبة، والخسران لا يتصور؛ فالأعمال التي عملوها لهؤلاء المتبوعين صارت - والعياذ بالله - خسارة عليهم، وندماً؛ ضاعت بها دنياهم، وأخرتهم؛ وهذا أعظم ما يكون من الحسرة" (٧).

قوله تعالى: {وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة: ١٦٧]، "أي: ليس لهم سبيل إلى الخروج من النار" (٨).

قال عكرمة: "أولئك أهلها، الذين هم أهلها" (٩).

قال ثابت بن معبد: "ما زال أهل النار يأملون الخروج منها حتى نزلت وما هم بخارجين من النار" (١٠).

القرآن

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } [البقرة : ١٦٨]

التفسير:

يا أيها الناس كلوا من رزق الله الذي أباحه لكم في الأرض، وهو الطاهر غير النجس، النافع غير الضار، ولا تتبعوا طرق الشيطان في التحليل والتحریم، والبدع والمعاصي. إنه عدو لكم ظاهر العداوة.

في سبب نزول الآية قولان:

قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ} [البقرة: ١٦٨]، "أي: ولا تقتدوا بآثار الشيطان فيما يزينه لكم من المعاصي والفواحش" (١١).

(١) تفسير القرطبي: ٢٠٦/٢.

(٢) تفسير ابن عثيمين: ٢٣٠/٢.

(٣) تفسير الطبري: ٢٩٤/٣. [بتصرف بسيط].

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٤٩٩): ص ٢٧٩/١.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ص ٢٧٩/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم: ص ٢٧٩/١.

(٧) تفسير ابن عثيمين: ٢٣١/٢.

(٨) صفوة التفاسير: ٩٩/١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٠٠): ص ٢٧٩/١.

(١٠) تفسير ابن أبي حاتم (١٥٠١): ص ٢٧٩/١. والعجاب: ٤١٦/١.

(١١) صفوة التفاسير: ١٠١/١.

قال عكرمة: "إنما سمي الشيطان: لأنه تشيطن"^(١).
 وفي معنى: {خَطَوَاتِ الشَّيْطَانِ} [البقرة: ٦٨]، أقوال:
 أحدها: أنها طاعته. قاله السدي^(٢).
 الثاني: أنها خطاياها. قاله مجاهد^(٣). وقتادة^(٤)، والضحاك^(٥).
 قال مجاهد: "خطاه، أو قال: خطاياها"^(٦).
 ووقال قتادة: "كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان"^(٧).
 الثالث: أنها نزغات الشيطان. قاله عكرمة^(٨).
 الرابع: أنها: النذور في المعاصي. قاله أبو مجلز^(٩)، وروي عن الشعبي^(١٠)، نحو ذلك.
 عن الشعبي: "في رجل، نذر أن ينحر ابنه. قال: أفتاه مسروق، قال: هي من خطوات الشيطان، وافتداه بكبش"^(١١).

عن مسروق، قال: أتى عبد الله بن مسعود بضرع وملح، فجعل يأكل فاعتزل رجل من القوم. فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم فقال لا أريده. قال: أصائم أنت؟ قال: لا. قال: فما شأنك؟ قال: حرمت أن أكل ضرعا أبدا. فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فاطعم وكفر عن يمينك"^(١٢).

روي عن أبي رافع، قال: "غضبت على امرأتي فقال: هي يوم يهودية ويوم نصرانية وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك، فأتيت عبد الله بن عمر، فقال: إنما هذه من خطوات الشيطان. وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة، وهي يومئذ أفتاه امرأة بالمدينة، وابنة عاصم بن عمر، فقالا: مثل ذلك"^(١٣).

والأولى التعميم، وعدم التخصيص بفرد أو نوع (١٥)، وهذه أقوال متقاربة المعنى صدرت من قائلها على سبيل التمثيل. والمعنى بها كلها النهي عن معصية الله، وكأنه تعالى لما أباح لهم الأكل من الحلال الطيب، نهاهم عن معاصي الله وعن التخطي إلى أكل الحرام، لأن الشيطان يلقي إلى المرء ما يجري مجرى الشبهة، فيزين بذلك ما لا يحل، فزجر الله عن ذلك (١٦).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٠٩): ص ٢٨١/١.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٤٤٣): ص ٣٠٢/٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٤٣٩)، و(٢٤٤٠): ص ٣٠١/٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٤٤١): ص ٣٠٢/٣.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٤٤٢): ص ٣٠٢/٣.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٠٥): ص ٢٨٠/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٠٨): ص ٢٨١/١.

(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٥٠٦): ص ٢٨٠/١، وانظر تفسير عبد الرزاق ٨٣/١.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٥٠٧): ص ٢٨١/١.

(١٠) هو: أبو مجلز لاحق بن سعيد السدوسي البصري، إمام تابعي ثقة مشهور بكنيته، توفي عام: ١٠٩هـ، وقيل: قبل ذلك، انظر: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم: ١٢٤/٩، تهذيب التهذيب لابن حجر: ١٧١/١١، تقريب التهذيب له أيضاً: ١٠٤٦.

(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٥٠٤): ص ٢٨٠/١.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٠٤): ص ٢٨٠/١.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٠٣): ص ٢٨٠/١.

(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٠٢): ص ٢٨٠/١.

(١٥) فتح القدير للشوكاني: ٢٤٦/١-٢٤٧.

(١٦) البحر المحيط: ٤٧٩/١.

قوله تعالى: {إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [البقرة: ١٦٨]، " أي إنه عظيم العداوة لكم وعداوته ظاهرة لا تخفى على عاقل" (١).

القرآن

{إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩)} [البقرة : ١٦٩]
التفسير:

إنما يأمركم الشيطان بكل ذنب قبيح يسوءكم، وبكل معصية بالغة القبح، وبأن تفتروا على الله الكذب من تحريم الحلال وغيره بدون علم.

قوله تعالى {إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ}، أي: إنما يأمركم الشيطان "بالإثم والمعاصي وما قبح من القول والفعل" (٢).

قال السدي: "السوء: المعصية" (٣).

{وَالسُّوءِ}: "كل ما يسوء من المعاصي الصغيرة؛ أي السيئات؛ و{الْفَحْشَاءِ} أي المعاصي الكبيرة، كالزنا؛ فهو يأمر بهذا، وبهذا؛ مع أن المعاصي الصغار تقع مكفرة بالأعمال الصالحة إذا اجتنبت الكبائر؛ لكنه يأمر بها؛ لأنه إذا فعلها الإنسان مرة بعد أخرى فإنه يفسق، ويقسو قلبه؛ ثم لا ندري أتقوى هذه الأعمال الصالحة على تكفير السيئات، أم يكون فيها خلل، ونقص يمنع من تكفيرها السيئات" (٤).

وفي تفسير {الفحشاء} [البقرة: ١٦٩]، -هاهنا- أقوال:

أحدها: الزنى . قاله السدي (٥).

الثاني: البخل. قاله عطاء (٦).

الثالث: ما لا يعرف في شريعته ولا سنة. قاله طوس (٧).

و(الفحشاء) أصله: قبح المنظر ، كما قال امرؤ القيس (٨) :

وحييد كحييد الرئم ليس بفاحش ... إذا هي نصته ولا بمعطل

ثم استعملت اللفظة فيما يقبح من المعاني. والشرع هو الذي يحسن ويقبح ، فكل ما نهت عنه الشريعة فهو من الفحشاء (٩).

القرآن

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)} [البقرة : ١٧٠]
التفسير:

(١) صفوة التفاسير: ١٠١/١.

(٢) تفسير البغوي: ١٨٠/١.

(٣) أخرجه الطبري (٢٤٤٥): ص ٣٠٣/٣، وابن أبي حاتم (١٥١٠): ص ٢٨١/١.

(٤) تفسير ابن عثيمين: ٢٣٧/٢.

(٥) أخرجه الطبري (٢٤٤٥): ص ٣٠٣/٣، وابن أبي حاتم (١٥١٠): ص ٢٨١/١.

(٦) انظر: تفسير الثعلبي: ٣٩/٢، والبحر المحيط: ٤٨٠/١.

(٧) انظر: تفسير الثعلبي: ٣٩/٢، والبحر المحيط: ٤٨٠/١.

(٨) ديوانه: ١٦، تحقق: أبو الفضل ابراهيم. والبيت من معلقته المشهورة.

(٩) انظر: تفسير القرطبي: ٢٠٩/٢-٢١٠.

وإذا قال المؤمنون ناصحين أهل الضلال: اتبعوا ما أنزل الله من القرآن والهدى، أصرُّوا على تقليد أسلافهم المشركين قائلين: لا نتبع دينكم، بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا. أيتبعون آباءهم ولو كانوا لا يعقلون عن الله شيئاً، ولا يدركون رشداً؟

وله تعالى: {قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} [البقرة: ١٧٠]، أي: قالوا: "بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا"^(١).

قال أبو العالية: "بل نتبع ما ألفينا، أي: ما وجدنا"^(٢). وروي عن قتادة^(٣)، والربيع^(٤)، نحو ذلك

و{آباءنا}: "يشمل الأدنى منهم، والأبعد؛ وجوابهم هذا باطل خطأ؛ ولهذا أبطله الله تعالى في قوله: {وَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً}"^(٥).

القرآن

{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [البقرة: ١٧١]

التفسير:

وصفة الذين كفروا وداعيتهم إلى الهدى والإيمان كصفة الراعي الذي يصيح بالبهائم ويزجرها، وهي لا تفهم معاني كلامه، وإنما تسمع النداء ودوي الصوت فقط. هؤلاء الكفار صُمُّ سُدُّوا أَسْمَاعَهُمْ عن الحق، بُكِّمُوا أُخْرَسُوا أَلْسِنَتَهُمْ عن النطق به، عُمِّي لا ترى أعينهم براهينه الباهرة، فهم لا يعملون عقولهم فيما ينفعهم.

قوله تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً} [البقرة: ١٧١]، أي: "ومثل داعي الذين كفروا"^(٦) "كمثل الراعي الذي ينادي"^(٧) بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه"^(٨).

قال مجاهد: "مثل الكافر مثل البهيمة تسمع الصوت ولا تعقل"^(٩).

قال مجاهد: "مثلٌ ضربه الله للكافر يسمع ما يقال له ولا يعقل، كمثل البهيمة تسمع النعيق ولا تعقل"^(١٠).

قال قتادة: "مثل الكافر كممثل البعير والشاة، يسمع الصوت ولا يعقل ولا يدري ما عني به"^(١١).

قال الربيع: "هو مثل الكافر، يسمع الصوت ولا يعقل ما يقال له"^(١٢).

قال عكرمة: "مثل البعير أو مثل الحمار، تدعوه فيسمع الصوت ولا يفقه ما تقول"^(١).

(١) صفة التفسير: ١٠١/١.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٥١٢): ص ٢٨١/١.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٨١/١.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٨١/١.

(٥) تفسير ابن عثيمين: ٢٤٢/٢.

(٦) تفسير البيضاوي: ١١٩/١.

(٧) تفسير ابن عثيمين: ٢٤٤/٢.

(٨) محاسن التأويل: ٤٧١/١.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢٤٥٤): ص ٣٠٩/٣.

(١٠) أخرجه الطبري (٢٤٥٥): ص ٣٠٩/٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري (٢٤٥٦)، و(٢٤٥٧): ص ٣٠٩/٣-٣١٠.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢٤٥٨): ص ٣١٠/٣.

قال ابن جريج: "سألت عطاء ثم قلت له: يقال: لا تعقل -يعني البهيمة- إلا أنها تسمع دُعاء الداعي حين ينعقُ بها، فهم كذلك لا يَعقلون وهم يسمعون. فقال: كذلك. قال: وقال مجاهد: "الذي ينعق"، الراعي "بما لا يسمع" من البهائم"^(٢).

قال السدي: "أي: لا يعقل ما يقال له، إلا أن يدعى أو ينادى به فيذهب. أما الذي ينعق فهو الراعي للغنم كما ينعق الراعي بما لا يسمع ما يقال له إلا أن يدعى أو ينادى، فكذلك محمد صلى الله عليه وسلم يدعو من لا يسمع إلا جوائز الكلام"^(٣).

قوله تعالى: {صُمُّ} [البقرة: ١٧١]، أي: "صُمُّ عن سماع الحق"^(٤).

قال الصابوني: "أي هم كالصم لا يسمعون خيراً"^(٥).

قال الماوردي: "أي: صم عن الوعظ فلا يسمعونه"^(٦).

قال قتادة: "صم عن الحق فهم لا يسمعونه"^(٧). وروي نحوه عن السدي^(٨)، وأبي مالك^(٩).

فهؤلاء "في عدم سماعهم للحق الذي دعوا إليه، كالصم الذين لا يسمعون، وهو تشبيه حالهم المعنوية في عدم سماعهم لدعوة الحق إذا نادى المنادى به بحال الأصم الذي لا يسمع شيئاً"^(١٠).

و(الصمم) في كلام العرب: الانسداد، يقال: قناة صماء إذا لم تكن مجوفة، وصممت القارورة إذا سددتها. فالأصم: من انسدت خروق مسامعه. والأبكم: الذي لا ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس. وقيل: الأخرس والأبكم واحد. ويقال: رجل أبكم وبكيم، أي أخرس بين الأخرس والبكم،^(١١) قال الشاعر^(١٢):

فليت لسانی كان نصفین منهما ... بكیم ونصف عند مجرى الكواكب

قوله تعالى: {بُكْمٌ} [البقرة: ١٧١]، أي: "بُكْمٌ لا يتفوهون بالحق"^(١٣).

فشبّه حالهم "في عدم نطقهم بالحق، واستجابتهم له بحال الابكم الذي لا يتكلم"^(١٤).

قال قتادة: "بكم عنه [أي الحق]، فهم لا ينطقون به"^(١٥).

وقال أبو مالك: "يعني خرسا عن الكلام بالإيمان، فلا يستطيعون الكلام"^(١٦).

قوله تعالى: {عُمِّيٌّ} [البقرة: ١٧١]، أي: "عُمِّيٌّ عن رؤية طريق الحق ومسلكه"^(١٧).

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤٥٠): ص ٣٠٨/٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٤٥٩): ص ٣١٠/٣.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥١٤): ص ٢٨٢/١.

(٤) تفسير ابن كثير: ٤٨٠/١.

(٥) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(٦) النكت والعيون: ٢٢١/١.

(٧) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٧٤): ص ٥٣/١، وتفسير الطبري (٢٤٦٣): ص ٣١٦/٣.

(٨) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٧٣): ص ٥٣/١، وتفسير الطبري (٢٤٦٥): ص ٣١٦/٣.

(٩) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٧٥): ص ٥٣/١.

(١٠) زهرة التفاسير: ٥٠٥/١.

(١١) انظر: اللسان معجم مقاييس اللغة مادة (بكم).

(١٢) البيت للحصين بن الحمام، ورد في معجم مقاييس اللغو: مادة (بكم)، وانظر: سيرة ابن هشام: ٩٢/١، وبكيم:

أخرس. ومجرى الكواكب: فلکها الذي تدور فيه.

(١٣) تفسير ابن كثير: ٤٨٠/١.

(١٤) زهرة التفاسير: ٥٠٥/١.

(١٥) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٧٤): ص ٥٢/١.

(١٦) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٧٥): ص ٥٣/١.

(١٧) تفسير ابن كثير: ٤٨٠/١.

إذ " شبه عدم إدراكهم الحق الذي بدت معالمه ، وظهر نوره بحال الأعمى الذي لا يبصر، قال تعالى: ﴿فَأَيُّهَا لِمَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج : ٤٦]"^(١).
قال الماوردي: أي: " عمي عن الرشد فلا يبصرونه"^(٢).

قال الثعلبي: أي: " عمي عن الهدى فلا يبصرونه"^(٣).

قال الصابوني: أي: "كالعمى لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله"^(٤).

قال الزجاج: " لأنهم في تركهم ما يبصرون من الهداية بمنزلة العمى"^(٥).

قال قتادة: " عمي عن الحق فهم لا يبصرونه"^(٦). وروي نحوه عن السدي^(٧).

والعمى : ذهاب البصر ، وقد عمي فهو أعمى ، وقوم عمي ، وأعماه الله، وتعلمى الرجل : أرى ذلك من نفسه. وعمي عليه الأمر إذا التبس ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ [القصص : ٦٦]^(٨)، وليس الغرض مما ذكرناه نفي الإدراكات عن حواسهم جملة ، وإنما الغرض فيها من جهة ما ، تقول : فلان أصم عن الخنا، كما قالوا^(٩) :

أصم عما ساءه سميع

أي: لا يسمع ما ساءه مع كونه سميعا، يضرب مثلا للرجل يتعافل عما يكره.
وقال آخر^(١٠) :

وَعَوْرَاءُ اللَّئَامِ صَمَمْتُ عَنْهَا ... وَإِنِّي لَوْ أَشَاءُ بِهَا سَمِيعُ
وقال مسكين الدارمي^(١١) :

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي خَرَجْتُ ... حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي السَّثْرُ
وَأَصَمُّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا ... سَمِعِي وَمَا بِالسَّمْعِ مِنْ وَقْرٍ
فوصف نفسه لتركه النظر والاستماع بالعمى والصمم.

وبذلك فهم صم عن سماع الحق؛ ولكن سماع غيره لا فائدة منه؛ فهو كالعدم؛ وهم بكم لا ينطقون بالحق؛ ونطقهم بغير الحق كالعدم؛ لعدم نفعه؛ وهم كذلك عمى لا يبصرون الحق؛ وإبصارهم غير الحق لا ينتفعون به^(١٢).

القرآن

(١) زهرة التفاسير: ٥٠٥/١.

(٢) النكت والعيون: ٢٢١/١.

(٣) تفسير الثعلبي: ٤٣/٢.

(٤) صفوة التفاسير: ٣١/١.

(٥) معاني القرآن: ٢٤٢/١.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٧٤)، و(١٧٦): ص ٥٢/١. ولفظه: " عمي عنه [أي الحق]، فهم لا يبصرونه".

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٧٣): ص ٥٢/١.

(٨) انظر: تفسير القرطبي: ٢١٤/١.

(٩) انظر: مجمع الأمثال، أبو هلال العسكري: ٧٦.

(١٠) حماسة الجحترى : ١٧٢. (وعوراء الكلام) ، وكانت في المخطوطة : (و عوراء اللام)، وكان الصواب ما في الحماسة. و (العوراء) ، الكلمة القبيحة ، أو التي تهوى جهلا في غير عقل ولا رشد.

(١١) أمالي المرتضى ١ : ٤٣ : ٤٤ ثم ٤٧٤ ، من قصيدة رواها وشرحها ، وخزانة الأدب ١ : ٤٦٨ ، وصواب رواية البيت الأول: (جارتى الخدر)، لأن قبيله : ما ضر جارى إذ أجاوره أن لا يكون لبيته ستر، ورواية الشطر الثاني: (سمعى ، وما بى غيره وقر) ، بغير إقواء.

(١٢) انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٠٧/٢.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) [البقرة : ١٧٢]

التفسير:

يا أيها المؤمنون كلوا من الأطعمة المستلذة الحلال التي رزقناكم، ولا تكونوا كالكفار الذين يحرمون الطيبات، ويستحلون الخبائث، واشكروا لله نعمه العظيمة عليكم بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم، إن كنتم حقاً منقادين لأمره، سامعين مطيعين له، تعبدونه وحده لا شريك له.
قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة: ١٧٢]، أي: "يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، وأقروا لله بالعبودية، وأذعنوا له بالطاعة، كلوا من المستلذات وما طاب من الرزق الحلال الذي رزقكم الله إياه"^(١).

قال الحسن: "أما إنه لم يذكر أحمركم وأصفركم ولكنه قال: تنتهون إلى حلاله"^(٢).
والأمر في قوله {كُلُوا}، هو للامتنان، والإباحة^(٣)، قال المفسرون: "هذا أمر بإباحة لا نذب، ولا إيجاب، وأراد بالطيبات: الحلالات من الحرث والنعم وما حرمه المشركون على أنفسهم منها"^(٤).
قوله تعالى: {وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [البقرة: ١٧٢]، "أي واشكروا الله على نعمه إن كنتم تخصونه بالعبادة ولا تعبدون أحداً سواه"^(٥).
قال قتادة: "كرامة أكرمكم الله بها فاشكروا الله نعمته"^(٦).

و(الشكر) في اللغة: الثناء؛ وفي الشرع: القيام بطاعة المنعم؛ وإنما فسرناها بذلك؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً}، وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله}"^(١)؛ فالشكر الذي أمر به المؤمنون بإزاء العمل الصالح الذي أمر به المرسلون؛ والقرآن يفسر بعضه بعضاً^(٧).

القرآن

{إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) [البقرة : ١٧٣]}

التفسير:

إنما حرم الله عليكم ما يضركم كالميتة التي لم تذبح بطريقة شرعية، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، والذبائح التي ذبحت لغير الله، ومن فضل الله عليكم وتيسيره أنه أباح لكم أكل هذه المحرمات عند الضرورة. فمن ألجأته الضرورة إلى أكل شيء منها، غير ظالم في أكله فوق حاجته، ولا متجاوز حدود الله فيما أبيح له، فلا ذنب عليه في ذلك. إن الله غفور لعباده، رحيم بهم.

(١) صفوة التفاسير: ١٠٢/١.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١٥١٥): ص ٢٨٢/١.

(٣) قال الرازي: "أعلم أن الأكل قد يكون واجبا، وذلك عند دفع الضرر عن النفس، وقد يكون مندوبا، وذلك أن الضيف قد يمتنع من الأكل إذا انفرد وينبسط في ذلك إذا ساعد، فهذا الأكل مندوب، وقد يكون مباحا إذا خلا عن هذه العوارض، والأصل في الشيء أن يكون خاليا عن العوارض، فلا جرم كان مسمى الأكل مباحا وإذا كان الأمر كذلك كان قوله {كُلُوا} في هذا الموضع لا يفيد الإيجاب والندب بل الإباحة. (تفسير الرازي: ١٠/٥).

(٤) التفسير البسيط: ٤٩٥/٣، وانظر: تفسير الثعلبي: ٤٣/٢.

(٥) صفوة التفاسير: ١٠٢/١.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥١٦): ص ٢٨٢/١.

(١) أخرجه مسلم ص ٨٣٨، كتاب الزكاة، باب ١٩: قبول الصدقة من الكسب الطيب، حديث رقم ٢٣٤٦ [٦٥] ١٠١٥.

(٧) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٢٤٧/٢.

قوله تعالى: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ} [البقرة: ١٧٣]، أي: " ما حرم عليكم إلا الميتة والدم ولحم الخنزير" (١).

قال الحسن: " نعم، حرم الله الميتة والدم ولحم الخنزير" (٢).

قوله تعالى: {وما أهلَّ به لغير الله} [البقرة: ١٧٣]، أي: "وما ذبح للألهة والأوثان يُسمى عليه بغير اسمه، أو قصد به غيره من الأصنام" (٣).

وذكروا في تفسير قوله تعالى: {وما أهلَّ به لغير الله} [البقرة: ١٧٣]، على وجهين:

أحدهما: أنه يعني: ما ذبح لغير الله. وهذا قول قتادة (٤)، ومجاهد (٥)، والضحاك (٦)، وعطاء (٧).
الثاني: أن معنى ذلك: ما ذكر عليه غير اسم الله. وهذا قول أبي العالية (٨)، والربيع بن أنس (٩)، وعقبة بن مسلم اللُّجبي (١٠)، وقيس بن رافع الأشجعي (١١).

قال أبو العالية: " ما ذكر عليه غير اسم الله" (١٢).

قوله تعالى: {فَمَنْ اضْطُرَّ} [البقرة: ١٧٣]، أي: فمن "ألجأته الضرورة للأكل" (١٣).

واختلف في قوله تعالى: {غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ} [البقرة: ١٧٣]، على ثلاثة أقوال:

أحدها: غير باغ على الإمام ولا عاد على الأمة بإفساد شملهم، فيدخل الباغي على الإمام وأمه والعادي: قاطع الطريق، وهو معنى قول مجاهد (١٤)، وسعيد بن جبير (١٥).

قال مجاهد: "الباغ الباغي على الأئمة" (١٦). و"العادي: المخيف للسبيل" (١٧).

قال سعيد بن جبير: "غير مستحل" (١٨).

قال سعيد بن جبير: "الذي يقطع الطريق، فلا رخصة له إذا جاع، أن يأكل الميتة وإذا عطش أن يشرب خمر" (١٩).

واعترض الإمام الطبري على هذا القول وقد ساق حجتين في ذلك (٢٠):

إحداها: أن الباغي والعادي، وإن كان كلاهما قد أتى فعلاً محرماً، فإن إتيان هذا الفعل المحرم، لا يجعل قتل أنفسهما مباحاً لهما، إذ هو محرم عليهما قبل إتيانهما ما أتيا من محارم الله عليهما.

(١) تفسير الطبري: ٣١٧/٣. [بتصرف بسيط].

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥١٧): ص ٢٨٣/١.

(٣) تفسير الطبري: ٣١٩/٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٤٦٨): ص ٣٢٠/٣.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٤٧٠): ص ٣٢٠/٣.

(٦) انظر: تفسير الطبري (٢٤٧٢): ص ٣٢٠/٣.

(٧) انظر: تفسير الطبري (٢٤٧٤): ص ٣٢٠/٣.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥١٨): ص ٢٨٣/١.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢٤٧٥): ص ٣٢١/٣.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٤٧٧): ص ٣٢١/٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري (٢٤٧٧): ص ٣٢١/٣.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥١٨): ص ٢٨٣/١.

(١٣) تفسير الطبري: ٣٢١/٣.

(١٤) انظر: تفسير الطبري (٢٤٧٩)، و(٢٤٨٠)، و(٢٤٨٤)، و(٢٤٨٥)، و(٢٤٨٦): ص ٣٢٢-٣٢٣.

(١٥) انظر: تفسير الطبري (٢٤٨١)، و(٢٤٨٢)، و(٢٤٨٣): ص ٣٢٢-٣٢٣.

(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٢٢)، (١٥٢٨): ص ٢٨٣/١، ٢٨٤.

(١٧).

(١٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٢٥): ص ٢٨٤/١.

(١٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٢٤): ص ٢٨٤/١، والطبري (٢٤٨١)، و(٢٤٨٢)، و(٢٤٨٣): ص ٣٢٢-٣٢٣.

(٢٠) انظر: تفسير الطبري: ٣٢٥/٣.

والثانية: أن الله قد رخص لكل مضطر أن يأكل مما حرم عليه، فاستثناء الباغي والعادي من رخصة الله للمضطر . لا يعد عنده تحريماً، بل هو رد إلى ما كان محرماً عليهما قبل البغي أو العدوان . ومع ذلك فإن هذا الرد إلى ما كان محرماً عليهما، وإن كان قد حرم عليهما ما كان مرخصاً لهما ولكل مضطر قبل البغي والعدوان، فإنه لا يرخص لهما قتل أنفسهما، وهو حرام عليهما قبل البغي والعدوان .

إذن، فالواجب عليهما أن يتوبا، لا أن يقتلا أنفسهما بالمجاعة، فيزدادان إثمًا إلى إثمهما، وخلافاً إلى خلافهما بالبغي والعدوان أمر الله .

والثاني : غير باغ في أكله فوق حاجته ولا عاد يعني متعدياً بأكلها وهو يجد غيرها ، وهو قول قتادة^(١)، والحسن^(٢)، وعكرمة^(٣)، والربيع^(٤) .

قال قتادة: " في أكله أن يتعدى حلالاً إلى حرام وهو يجد عنه مندوحة"^(٥) .

والثالث : غير باغ في أكلها شهوة وتلذذاً ولا عاد باستيفاء الأكل إلى حد الشبع ، وهو قول السدي^(٦) .

قال السدي: " أما العاد: فيعندي في أكله، فيأكل حتى يشبع، ولكن يأكل قوتا ما يمسك به نفسه حتى يبلغ حاجته"^(٧) .

وقال عطاء: " لا يشوي من الميتة ليشتهيها، ولا يطبخه ولا يأكل إلا العلقمة، ويحمل معه ما يبلغه الحلال فإذا بلغه ألقاه"^(٨) .

والراجح أن {الباغي}، هو الطالب لأكل الميتة من غير ضرورة؛ و {العادي} هو المتجاوز لقدر الضرورة؛ يؤيده قوله تعالى: {فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة : ٣] .

قوله تعالى: {فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ} [البقرة: ١٧٣]، "أي: فلا عقوبة عليه"^(٩) .

قال سعيد بن جبير: " في أكله حين اضطر إليه"^(١٠) .

عن مجاهد: " فمن اضطر غير باغ ولا عاد قاطعا للسبيل أو مفارقا للأئمة، أو خارجا في معصية الله، فله الرخصة. ومن خرج باغيا أو عاديا أو في معصية الله، فلا رخصة له وإن اضطر إليه"^(١١) .

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ١٧٣]، أي: إن الله: " يغفر الذنوب ويرحم العباد"^(١٢) .

قال سعيد بن جبير: " {غفور} لما أكل من الحرام، {رحيم} إذ أحل له الحرام في الاضطرار"^(١٣) .

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤٨٧): ص ٢٤٤/٣ .

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٤٨٨)، و (٢٤٨٩): ص ٢٤٤/٣ .

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٤٩٠): ص ٢٤٤/٣ .

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٤٩١): ص ٢٤٤/٣ .

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٣٠): ص ٢٨٥/١ .

(٦) انظر: تفسير الطبري (٢٤٩٣): ص ٢٤٤/٣-٤٢٥ .

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٢٩): ص ٢٨٤/١ .

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٢٧): ص ٢٨٤/١ .

(٩) تفسير ابن عثيمين: ٢٥٢/٢ .

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٣١): ص ٢٨٥/١ .

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٢٣): ص ٢٨٣/١ .

(١٢) صفوة التفاسير: ١٠٢/١ .

(١٣) تفسير ابن كثير: ٤٨٢/١ .

قال مسروق: "من اضطرَّ فلم يأكل ولم يشرب، ثم مات دخل النار. وهذا يقتضي أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة"^(١).

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤)} [البقرة: ١٧٤]

التفسير:

إن الذين يخفون ما أنزل الله في كتبه من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من الحق، ويحرصون على أخذ عوض قليل من عرض الحياة الدنيا مقابل هذا الإخفاء، هؤلاء ما يأكلون في مقابلة كتمان الحق إلا نار جهنم تتأجج في بطونهم، ولا يكلمهم الله يوم القيامة لغضبه وسخطه عليهم، ولا يطهرهم من دنس ذنوبهم وكفرهم، ولهم عذاب موجه.

سبب النزول:

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ} [البقرة: ١٧٤]، "أي إن الذين يخفون ما أنزل الله من وحيه على رسله"^(٢).

أخرج الطبري عن قتادة مرسلًا: "قوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ}، الآية كلها، هم أهل الكتاب، كتموا ما أنزل الله عليهم وبيّن لهم من الحق والهدى، من بعث محمد صلى الله عليه وسلم وأمره"^(٣)، وروي عن الربيع^(٤) والسدي^(٥) وعكرمة^(٦) وأبو العالية^(٧)، نحو ذلك. قال أبو العالية: "هم أهل الكتاب كتموا ما أنزل الله عليهم في كتابهم من الحق والهدى والإسلام وشأن محمد صلى الله عليه وسلم وبعثه"^(٨).

قوله تعالى: {وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا} [البقرة: ١٧٤]، "أي: ويأخذون بدلها عوضا حقيقا"^(٩). قال السدي: "هؤلاء هم اليهود كتموا اسم محمد صلى الله عليه وسلم، وأخذوا عليه طمعا قليلا، فهو الثمن القليل"^(١٠). وروي عن الحسن نحو ذلك^(١١).

واختلفوا في الشيء الذي كانوا يكتمونونه، وفيه قولان^(١٢):

أحدهما: أنهم كانوا يكتمون صفة محمد صلى الله عليه وسلم وبعثه والبيشارة به، وهو قول قتادة^(١٣) والسدي^(١٤) والأصم^(١٥) وأبي مسلم^(١٦).

(١) تفسير ابن كثير: ٤٨٢/١.

(٢) تفسير المراغي: ٥١/٢.

(٣) تفسير الطبري (٢٤٩٤): ص ٣٢٧/٣.

(٤) تفسير الطبري (٢٤٩٥): ص ٣٢٧/٣-٣٢٨.

(٥) تفسير الطبري (٢٤٩٦): ص ٣٢٨/٣.

(٦) تفسير الطبري (٢٤٩٧): ص ٣٢٨/٣.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٥٣٣): ص ١٨٥/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٣٣): ص ٢٨٥/١.

(٩) تفسير أبي السعود: ١٩١/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٣٤): ص ٢٨٥/١.

(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٨٥/١.

(١٢) تنظر: مفاتيح الغيب: ٢٤/٥.

(١٣) تفسير الطبري (٢٤٩٤): ص ٣٢٧/٣.

(١٤) تفسير الطبري (٢٤٩٦): ص ٣٢٨/٣.

(١٥) انظر: مفاتيح الغيب: ٢٠٤/٥.

(١٦) انظر: مفاتيح الغيب: ٢٠٤/٥.

الثاني: أنهم كتموا الأحكام، وهو قوله تعالى: {إن كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله} [التوبة: ٣٤]. قاله الحسن^(١).
قوله تعالى: {أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار} [البقرة: ١٧٤]، أي: "هؤلاء ما يأكلون في مقابلة كتمان الحق إلا نار جهنم تتأجج في بطونهم"^(٢).
قال أبو العالية: "ما أخذوا عليه من الأجر فهو نار في بطونهم"^(٣).

القرآن

{أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار (١٧٥)}

[البقرة: ١٧٥]

التفسير:

أولئك المتصفون بهذه الصفات استبدلوا الضلالة بالهدى وعذاب الله بمغفرته، فما أشد جرائعهم على النار بعملهم أعمال أهل النار!! يعجب الله من إقدامهم على ذلك، فاعجبوا -أيها الناس- من جرائعهم، ومن صبرهم على النار ومكثهم فيها. وهذا على وجه الاستهانة بهم، والاستخفاف بأمرهم.

قوله تعالى: {أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة} [البقرة: ١٧٥]، أي: "أولئك المتصفون بهذه الصفات استبدلوا الضلالة بالهدى وعذاب الله بمغفرته"^(٤).
قال أبو العالية: "اختاروا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة"^(٥). وروي عن قتادة، والربيع بن أنس، نحو ذلك"^(٦).

قوله تعالى: {فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} [البقرة: ١٧٥]، "أي: ما أشد صبرهم على نار جهنم؟"^(٧).
قال السدي: "هذا على وجه الاستهانة"^(٨).

واختلف في تفسير قوله تعالى: {فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} [البقرة: ١٧٥]، على وجوه^(٩):
أحدها: فما أجرأهم وأدومهم على العمل الذي يقرّبهم إلى النار. قاله قتادة^(١٠)، والحسن^(١١)، وسعيد بن جبير^(١٢)، والربيع^(١٣).

قال أبو العالية: "ما أصبرهم وأجرأهم على عمل أهل النار"^(١٤).
الثاني: أن المعنى: فما أعملهم بأعمال أهل النار. وهذا قول مجاهد^(١).

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٢٠٤/٥.

(٢) التفسير الميسر: ٢٦.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٣٥): ص ٢٨٦/١.

(٤) التفسير الميسر: ٢٦.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٣٧): ص ٢٨٦/١.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٨٦/١.

(٧) صفوة التفاسير: ١٠٢/١.

(٨) التفسير البسيط: ٥١٠/٣، وذكره الثعلبي: ٤٨/٢، ولم ينسبه، وكذا القرطبي ٢/ ٢٣٦، وقد أخرج الطبري عن

السدي وعطاء وابن زيد وأبي بكر بن عياش وابن زيد نحوه، انظر: تفسير الطبري: (٢٥٠٧)، و(٢٥٠٨)، و(٢٥٠٩)، و(٢٥١٠): ص ٣٣٢/٣.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ٣٣١/٣-٣٣٢، وتفسير القرطبي: ٤٨٤/١.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٥٠٠)، و(٢٥٠١): ص ٣٣١/٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري (٢٥٠٢): ص ٣٣١/٣.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢٥٠٣): ص ٣٣١/٣.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (٢٥٠٤): ص ٣٣١/٣.

(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم: ٢٨٦/١.

كما اختلفوا في إعراب {ما} التي في قوله: {فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} [البقرة: ١٧٥]، وفيه وجهان:

أحدهما: أنها تفيد الاستفهام، ومعناه: التوبيخ، أي: ما الذي صبرهم؟ وأي شيء صبرهم على النار حين تركوا الحق واتبعوا الباطل؟ فقيل هذا على وجه الاستهانة. وهذا قول السدي^(٢)، وعطاء^(٣)، وأبو العالية^(٤)، وأبي بكر بن عياش^(٥)، ويزيد بن أبي حبيب^(٦). ومعنى الآية على هذا القول: "هؤلاء الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة، فما أصبرهم على النار - والنار لا صبر عليها لأحد - حتى استبدلوا بمغفرة الله فاعتاضوها منها بدلا"^(٧).

الثاني: أنها تفيد التعجب. واختلفوا في معناه على النحو الآتي:
أولا: فقال الحسن^(٨)، وقتادة^(٩)، والربيع^(١٠): والله ما لهم عليها من صبر، ولكن ما أجرأهم على الذي يقربهم إلى النار. قال: وهذه لغة يمانية.
الثاني: "فما أصبرهم على عمل يؤديهم إلى النار لأن هؤلاء كانوا علماء، فان من عاند النبي صلى الله عليه وسلم صار من أهل النار"^(١١). حكاه ابن الجوزي إلى عكرمة والربيع^(١٢).
الثالث: قال مجاهد: "ما أعلمهم بأعمال أهل النار!"^(١٣).

وتفسير الآية على وجه التعجب: " أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة "، فما أشد جرائتهم - بفعلهم ما فعلوا من ذلك - على ما يوجب لهم النار! كما قال تعالى ذكره: {قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ} [سورة عبس: ١٧]، تعجباً من كفره بالذي خلقه وسوّى خلقه^(١٤).
والراجح - والله أعلم - أن (ما) تعجبية، والمعنى: شيء عظيم أصبرهم؛ أو ما أعظم صبرهم على النار، فلا شك بأن "انهماكهم في العمل الذي يوصلهم إلى النار المبين في الآيتين السالفتين هو مثار العجب، فسيرهم في الطريق التي يجرهم إليها، وعدم مبالاتهم بمآل أعمالهم، دليل على أنهم يطبقون الصبر عليها، وتلك حال تستحق العجب أشد العجب، وأعجب من ذلك أن يرضاها عاقل لنفسه ومثل هذا الأسلوب ما يقال لمن يتعرض لما يوجب غضب ملك من الملوك: ما أصبرك على القيد والسجن! أي إنه لا يتعرض لمثل هذا إلا من هو شديد الصبر على العذاب"^(١٥).

القرآن

- (١) انظر: تفسير الطبري (٢٥٠٥)، و(٢٥٠٦): ص ٣٣٢/٣.
- (٢) انظر: تفسير الطبري (٢٥٠٧): ص ٣٣٢/٣.
- (٣) انظر: تفسير الطبري (٢٥٠٨): ص ٣٣٢/٣.
- (٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٥٣٧): ص ٢٨٦/١.
- (٥) انظر: تفسير الطبري (٢٥٠٩): ص ٣٣٢/٣.
- (٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٥٣٧): ص ٢٨٦/١.
- (٧) انظر: تفسير الطبري: ٣٣٣/٣.
- (٨) انظر: تفسير الطبري (٢٥٠٢): ص ٣٣١/٣، وتفسير الثعلبي: ٤٨/٢، وتفسير القرطبي: ٤٨٤/١.
- (٩) انظر: تفسير الطبري (٢٥٠٠)، و(٢٥٠١): ص ٣٣١/٣، وتفسير الثعلبي: ٤٨/٢، وتفسير القرطبي: ٤٨٤/١.
- (١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٥٠٤): ص ٣٣١/٣، وتفسير الثعلبي: ٤٨/٢.
- (١١) تفسير الثعلبي: ٤٨/٢، وانظر: والحيري في "الكفاية" ١/ ١٠٩، والقرطبي ٢/ ٢١٨، وأبو حيان في "البحر المحيط" ١/ ٤٩٤.
- (١٢) انظر: زاد المسير: ٧٦/١.
- (١٣) أخرجه الطبري: (٢٥١١): ص ٣٣٣/٣.
- (١٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٣٣/٣.
- (١٥) تفسير المراغي: ٢٨٥/١.

ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦) { [البقرة : ١٧٦]

التفسير:

ذلك العذاب الذي استحقوه بسبب أن الله تعالى نزل كتبه على رسله مشتملة على الحق المبين، فكفروا به. وإن الذين اختلفوا في الكتاب فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، لفي منازعة ومفارقة بعيدة عن الرشد والصواب.

قوله تعالى: { وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ } [البقرة: ١٧٦]، "أي: إن الذين اختلفوا في الكتاب الذي نزله الله عز وجل بحق"^(١).

قال السدي: "هم اليهود والنصارى"^(٢).

قوله تعالى: { لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } [البقرة: ١٧٦]، "أي: في خلاف بعيد عن الحق والصواب"^(٣). قال السدي: "في عداوة بعيدة"^(٤).

القرآن

**{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي
الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) { [البقرة : ١٧٧]**

التفسير:

ليس الخير عند الله- تعالى- في التوجه في الصلاة إلى جهة المشرق والمغرب إن لم يكن عن أمر الله وشرعه، وإنما الخير كل الخير هو إيمان من آمن بالله وصدق به معبودًا وحده لا شريك له، وأمن بيوم البعث والجزاء، وبالملائكة جميعًا، وبالكتب المنزلة كافة، وبجميع النبيين من غير تفریق، وأعطى المال تطوعًا -مع شدة حبه- ذوي القربى، واليتامى المحتاجين الذين مات أبواهم وهم دون سن البلوغ، والمساكين الذين أرهقهم الفقر، والمسافرين المحتاجين الذين بعُدوا عن أهلهم ومالهم، والسائلين الذين اضطروا إلى السؤال لشدة حاجتهم، وأنفق في تحرير الرقيق والأسرى، وأقام الصلاة، وأدى الزكاة المفروضة، والذين يوفون بالعهد، ومن صبر في حال فقره ومرضه، وفي شدة القتال. أولئك المتصفون بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم، وأولئك هم الذين اتقوا عقاب الله فتجنبوا معاصيه.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: أخرج الطبري عن قتادة: "كانت اليهود تصلي قبل المغرب والنصارى تصلي قبل

المشرق، فنزلت: { ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب } "^(٥).

الثاني: وروي عن قتادة أيضا: " ذكر لنا أن رجلا سأل نبي الله صلى الله عليه وسلم عن البر فأنزل الله هذه الآية، وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم دعا الرجل فتلاها عليه، وقد كان الرجل قبل الفرائض إذا شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ثم مات على ذلك يُرجى له ويطمع له

(١) تفسير ابن عثيمين: ٢/٢٧١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٣٨): ص ٢٨٦/١.

(٣) صفة التفسير: ١/١٠٢.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم: ص ٢٨٧/١.

(٥) تفسير الطبري (٢٥١٨): ص ٣٣٧/٣.

في خير، فأنزل الله: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ}، وكانت اليهود توجَّهت قبل المغرب، والنصارى قبل المشرق {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} الآية^(١).
والراجح أن الآية نزلت في اليهود والنصارى، لأنه أليق بسياق الآية إذ أن الآيات قبلها مضت بتوبيخهم ولومهم. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} [البقرة: ١٧٧]، "أي ليس فعلُ الخير وعملُ الصالح محصوراً في أن يتوجه الإنسان في صلاته جهة المشرق والمغرب"^(٢).

قال أبو العالية: "كانت اليهود تقبل قبل المغرب، وكانت النصارى تقبل قبل المشرق، فقال الله: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} يقول: هذا كلام الإيمان وحقيقة العمل"^(٣)، وروي عن الحسن، والربيع بن أنس، نحو ذلك^(٤).

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} [البقرة: ١٧٧]، "أي: وإنما الخير كل الخير هو إيمان من آمن بالله وصدق به معبوداً وحده لا شريك له، وآمن بيوم البعث والجزاء وبالملائكة جميعاً، وبالكتب المنزلة كافة، وبجميع النبيين من غير تقريب"^(٥).

عن مجاهد، قوله: {وَلَكِنَّ الْبِرَّ} ما ثبت في القلوب من طاعة الله"^(٦).
عن الضحاك: " {وَلَكِنَّ الْبِرَّ} من اتقى أن تؤدوا الفرائض على وجوهها"^(٧).
عن سعيد بن جبيرة في قول الله: " {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} أنه حق"^(٨).

قوله تعالى: {وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى} [البقرة: ١٧٧]، "أي أعطى المال على محبته له ذوي قرابته"^(٩).

عن سعيد بن جبيرة: " {وَأَتَى الْمَالَ}، يعني: أعطى المال، {عَلَى حُبِّهِ}، يعني: على حبه المال، {ذَوِي الْقُرْبَى}، يعني: قرابته"^(١٠).

قوله تعالى: {وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ} [البقرة: ١٧٧]، أي وأعطى المال أيضاً لليتامى الذين فقدوا آباءهم، والمساكين الذين لا مال لهم، والمسافر المنقطع عن ماله"^(١١).
اختلف أهل العلم في صفة (ابن السبيل)، وفيه قولان:
أحدهما: أنه الضيف. قاله سعيد بن جبيرة^(١٢)، وقتادة^(١٣).

(١) تفسير الطبري (٢٥١٩): ص ٣٣٧/٣. وأخرجه وابن المنذر وعبد بن حميد (فتح القدير: ١٧٣/١) عن قتادة به مرسلًا، وسنده صحيح.

(٢) صفة التفسير: ١٠٤/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٤١): ص ٢٨٧/١.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٨٧/١.

(٥) التفسير الميسر: ٢٧.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٤٢): ص ٢٨٧/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٤٢): ص ٢٨٧/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٤٥): ص ٢٨٧/١.

(٩) صفة التفسير: ١٠٥/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٤٧)، (١٥٤٩): ص ٢٨٨/١-٢٨٩.

(١١) صفة التفسير: ١٠٥/١.

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٠٩/١.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (٢٥٣٣): ص ٣٤٥/٣، وابن أبي حاتم: ٢٨٩/١.

الثاني: أنه المسافر الذي يمر عليك. قاله أبو جعفر^(١)، ومجاهد^(٢)، وقتادة في أحد قوليه^(٣)،
والحسن^(٤)، والضحاك^(٥)، والزهري^(٦)، والربيع بن أنس^(٧)
وقوله تعالى { وَفِي الرِّقَابِ } [البقرة: ١٧٧]، "أي: وفي تخليص الأسرى والأرقاء بالفداء"^(٨).
قال سعيد بن جبير: "يعني: فكاك الرقاب"^(٩).
قوله تعالى: { وَأَقَامَ الصَّلَاةَ } [البقرة: ١٧٧]، أي: "أدام العمل بالصلاة بحدودها"^(١٠).
قال سعيد بن جبير: "يعني وأتم الصلاة المكتوبة"^(١١).
قوله تعالى: { وَآتَى الزَّكَاةَ } [البقرة: ١٧٧]، أي: "وأعطى الزكاة على ما فرضها الله عليه"^(١٢).
قال سعيد بن جبير: "يعني: الزكاة المفروضة"^(١٣). وروي عن مقاتل بن حيان^(١٤) نحو ذلك.
قوله تعالى { وَالْمُؤْمِنُونَ بَعَثَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا }، "أي ومن يوفون بالعهود ولا يخلفون الوعود"^(١٥).
قال سعيد بن جبير: "يعني: فيما بينهم وبين الناس"^(١٦).
وفي تفسير { الْيَأْسَاءِ }^(١٧) [البقرة: ١٧٧]، قولان:
أحدهما: أنه الفقر. قاله أبو العالية والحسن في أحد قوليه وسعيد بن جبير ومرة الهمداني ومجاهد
وقتادة والضحاك والربيع بن أنس والسدي^(١٨).
الثاني: أنه البلاء. قاله الحسن^(١٩).
واختلف في قوله: { الضَّرَّاءِ }^(٢٠) [البقرة: ١٧٧]، على ثلاثة أقوال:

- (١) انظر: تفسير الطبري (٢٥٣٤): ص ٣/٤٥٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٥٣٥) و (٢٥٣٦): ص ٣/٤٥٣.
(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٥٣٥)، و (٢٥٣٦): ص ٣/٤٥٣، وابن أبي حاتم (١٥٥٥): ص ١/٢٩٠.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١/٢٩٠.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١/٢٩٠.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١/٢٩٠.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١/٢٩٠.
(٨) صفة التفاسير: ١/١٠٥.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٥٨): ص ١/٢٩٠.
(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٣/٣٤٧.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٦٠): ص ١/٢٩٠.
(١٢) تفسير الطبري: ٣/٣٤٧.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٦٠): ص ١/٢٩٠.
(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١/٢٩٠.
(١٥) صفة التفاسير: ١/١٠٥.
(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٦٢): ص ١/٢٩١.
(١٧) الباء والهمزة والسين أصل واحد يدل على الشدة وما ضارعهما، فالبأس: الشدة في الحرب، يقال: رجل ذو بأس، أي: ذو شجاعة وشدة، والبؤس: الشدة والضنك في العيش، يقال: يبئس الرجل فهو بئس إذا اشتدت حاجته.
انظر: تهذيب اللغة للأزهري: ١٣/١٠٧، معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ١/٣٢٨، الصحاح للجوهري: ٣/٩٠٦-٩٠٧، لسان العرب لابن منظور: ١/١٩٩.
وانظر: الدر المصون للسمين: ١/٤٥٠، البحر المحيط لأبي حيان: ١/٤٩٧، ومن قال: من البؤس قال: المراد باليأساء: شدة الفقر، ومن قال: من البأس، قال: المراد باليأساء: شدة القتال، انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ٢/٨، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ٧٠، معالم التنزيل للبخاري: ١/١٨٨.

(١٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١/٢٩١. عزاه إليهم جميعا.

(١٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٥٦٤): ص ١/٢٩١.

أحدها: أنه السقم. قاله السدي^(٢)، وروى عن أبي العالية ومرة وأبي مالك والحسن ومجاهد والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان، والضحاك نحو ذلك^(٣).
الثاني: أنه الأمراض والجوع. قاله الحسن^(٤).
الثالث: أنه البلاء والشدة. قاله سعيد بن جبير^(٥).

وروي عن وروي عن سعيد بن جبير والحسن ومجاهد وأبي العالية وقتادة ومرة ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس وأبي مالك: "وحيين البأس؛" حين القتال"^(٦).
قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا} [البقرة: ١٧٧]؛ "أي: أهل هذه الأوصاف هم الذين صدقوا في إيمانهم"^(٧).

قال أبو العالية: "تكلّموا بكلام الإيمان وحققوا بالعمل. قال الربيع: فكان الحسن يقول: الإيمان كلام، فحقيقته العمل فإن لم يحقق القول بالعمل لم ينفعه القول"^(٨). وروي عن الربيع بن أنس نحو ذلك^(٩).

قوله تعالى: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: ١٧٧]، أي: "وأولئك هم الكاملون في التقوى"^(١٠).
قال سعيد بن جبير: "يعني: الذين فعلوا ما ذكر الله في هذه الآيات، هم الذين صدقوا يعني المتقون"^(١١).
و"التقوى": "هي اتخاذ الوقاية من عذاب الله عز وجل بفعل أو امره، واجتناب نواهيه؛ وهذا أجمع ما قيل في تعريف التقوى"^(١٢).

القرآن

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّءْ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ { (١٧٨) [البقرة : ١٧٨]
التفسير:

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه فرض الله عليكم أن تقتصوا من القاتل عمدا بقتله، بشرط المساواة والمماثلة: يُقتل الحر بمثله، والعبد بمثله، والأنثى بمثلها. فمن سامحه ولي المقتول بالعفو عن الاقتصاص منه والاكتفاء بأخذ الدية -وهي قدر مالي محدد يدفعه الجاني مقابل العفو عنه- فليلتزم الطرفان بحسن الخلق، فيطالب الولي بالدية من غير عنف، ويدفع القاتل إليه حقه بإحسان، من غير تأخير ولا نقص. ذلك العفو مع أخذ الدية تخفيف من ربكم ورحمة بكم؛ لما فيه

(١) عن قتادة قال : كنا نُحدِّث أن البأساء البؤس والفقر ، وأن الضراء السُّقم. وقد قال النبي أيوب صلى الله عليه وسلم (أَنِّي مَسْنِيَّ الضَّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) [سورة الأنبياء : ٨٣]. (تفسير الطبري: ٣٤٩/٣-٣٥٠).

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٥٦٥):ص٢٩١/١.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:٢٩١/١.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٥٦٥):ص٢٩١/١.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٥٦٥):ص٢٩١/١.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٩٢/١.

(٧) التفسير اليسيط: ٥٢٨/٣.

(٨) تفسير ابن أبي حاتم(١٥٧٠):ص٢٩٢/١.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٩٢/١.

(١٠) صفوة التفاسير: ١٠٥/١.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم: ٢٩٣/١.

(١٢) تفسير ابن عثيمين: ٢٨١/٢.

من التسهيل والانتفاع. فمن قتل القاتل بعد العفو عنه وأخذ الدية فله عذاب أليم بقتله قصاصاً في الدنيا، أو بالنار في الآخرة.

اختلف في سبب نزول الآية على أقوال:

أحدها: قال الشعبي: " نزلت في قبيلتين من قبائل العرب اقتتلتا قتال عُميَّة ، فقالوا : نقتل بعبدنا فلان ابن فلان ، وبفلانة فلان بن فلان ، فأنزل الله : {الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى} " (١). وروي عن قتادة (٢)، وعامر (٣)، ومجاهد (٤) نحو ذلك.

الثاني: قال أبو مالك: " كان بين حيين من الأنصار قتالٌ ، كان لأحدهما على الآخر الطولُ ، فكأنهم طلبوا الفضل . فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليصلح بينهم ، فنزلت هذه الآية : { الحرُّ بالحرِّ والعبدُ بالعبد والأنثى بالأنثى } ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى " (٥). وروي عن السدي (٦)، والشعبي (٧)، نحوه.

الثالث: وقال آخرون : بل ذلك أمرٌ من الله تعالى ذكره بمقاصَّة دية الحرِّ ودية العبد، ودية الذكر ودية الأنثى، في قتل العمد - إن اقتُصَّ للقتيل من القاتل، والترجع بالفضل والزيادة بين ديتي القتيل والمقتص منه، وهذا قول الربيع (٨)، والحسن (٩)، والشعبي - أيضاً (١٠).

والصواب: أن الآية نزلت في قوم بأعيانهم خاصة أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل ديات قتلهم قصاصاً بعضها من بعض، كما قاله السدي. والله أعلم.

قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ } [البقرة: ١٧٨]، " أي: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه فرض الله عليكم أن تقتصوا من القاتل عمداً بقتله، بشرط المساواة والمماثلة " (١١).

قال سعيد بن جبیر: " يعني: إذا كان عمداً " (١٢). وروي عن الحسن نحو ذلك (١٣).

قوله تعالى: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ} [البقرة: ١٧٨]؛ يعني " الحر يقتل بالحر " (١٤).

قال سعيد بن جبیر: " وذلك أن حيين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل، فكان بينهم قتلٌ وجراحات حتى قتلوا العبيد والنساء، فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا، فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر في العدة والأموال، فحلفوا ألا يرضوا، حتى يقتلوا بالعبد منا، الحر منهم، والمرأة منا، بالرجل منهم، فنزل فيهم الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى منهما منسوخة نسختها: النفس بالنفس " (١٥). وروي عن أبي مالك نحو ذلك (١٦).

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٥٥٨): ص ٣٥٨/٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٥٥٩)، و(٢٥٦٩): ص ٣٥٨/٣-٣٦٠.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٥٦١): ص ٣٦٠/٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٥٦٢): ص ٣٦٠/٣.

(٥) أخرجه الطبري (٢٥٦٥): ص ٣٦٠/٣-٣٦١.

(٦) انظر: تفسير الطبري (٢٥٦٣)، و(٢٥٦٤): ص ٣٦٠/٣-٣٦١.

(٧) انظر: تفسير الطبري (٢٥٦٦)، و(٢٥٦٧): ص ٣٦١/٣.

(٨) انظر: تفسير الطبري (٢٥٦٨): ص ٣٦١/٣-٣٦٢.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢٥٦٩): ص ٣٦٢/٣.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٥٧٠): ص ٣٦٢/٣.

(١١) التفسير الميسر: ٢٧.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٧٤): ص ٢٩٣/١.

(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٩٣/١.

(١٤) تفسير ابن عثيمين: ٢٩٦/٢.

(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٧٦): ص ٢٩٣/١-٢٩٤.

(١٦) تفسير ابن عثيمين: ٢٩٦/٢.

قال شعبة: " قلت لأبي بشر: كيف كان ذلك يعني قول الله: كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فقال: كان يقتل الرجل، يعني: بالرجل، ويترك العبد بالعبد" (٢).

قوله تعالى: {وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ} [البقرة: ١٧٨]، "أي: العبد يقتل بالعبد عن ابن جريج، قال: "سألت عطاء عن: الحر بالحر والعبد بالعبد، قال: إذا كان العبد مثل العبد" (٣).

قوله تعالى: { فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ } [البقرة: ١٧٨]: يعني: "فأي قاتل عفي له من دم أخيه شيء سقط القصاص" (٤) (٥).

وفي تفسير قوله تعالى: { فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ } [البقرة: ١٧٨]، قولان: أحدها: فمن عفي له عن القصاص منه فاتباع بمعروف وهو أن يطلب الولي الدية بمعروف ويؤدي القاتل الدية بإحسان، وهذا قول مجاهد (٦)، والحسن (٧)، والشعبي (٨)، وقتادة (٩)، والربيع (١٠)، قال مجاهد: "والعفو: الذي يعفو عن الدم ويأخذ الدية" (١٢).

الثاني: أن معنى قوله: { فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ }، بمعنى: فمن فضل له فضل، وهذا تأويل من زعم أن الآية نزلت في فريقين كانا على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قتل من كلا الفريقين قتلى فتقاصاً ديات القتلى بعضهم من بعض، فمن بقيت له بقية فليتبعها بمعروف، وليرد من عليه الفضل بإحسان، ويكون معنى: { فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ } أي فضل له قبل أخيه القاتل شيء، وهذا قول السدي (١٣).

والصواب: أن معنى قوله تعالى { فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ }، فمن صُفح له عن شيء من الواجب، على دية يأخذها منه، فاتباع بالمعروف من العافي عن الدم، الراضي بالدية من دم وليه وأداء إليه - من القاتل - ذلك بإحسان، لأنَّ معنى قوله تعالى: { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ }، إنما هو القصاص من النفوس القاتلة أو الجارحة أو الشاجّة عمداً. فكذاك (العفو) أيضاً عن ذلك (١٤).

قوله تعالى: { فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ } [البقرة: ١٧٨]، " أي فعلى العافي اتباع للقاتل بالمعروف بأن يطالبه بالدية بلا عنف ولا إرهاب" (١٥).

-
- (١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٩٤/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٧٧): ص ٢٩٤/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم: ص ٢٩٤/١.
(٤) تفسير ابن عثيمين: ٢٩٧/٢.
(٥) قال مالك - رحمه الله - في رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور، وأبو حنيفة وأصحابه والشافعي في أحد قوليه: ليس لولي الدم أن يعفو على الدية إلا برضا القاتل، وقال الباقر: له أن يعفو عليها وإن لم يرض القاتل، وذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو، منهم الحسن، وقتادة، والزهرى، وابن شبرمة، والليث، والأوزاعي، وخالفهم الباقر (تفسير ابن كثير: ٤٩٠/١).
(٦) انظر: تفسير الطبري (٢٥٧٧)، و (٢٥٧٨)، و (٢٥٨٠): ص ٣٦٧/٣-٣٦٨.
(٧) انظر: تفسير الطبري (٢٥٧٩): ص ٣٦٨/٣.
(٨) انظر: تفسير الطبري (٢٥٨١)، و (٢٥٨٢): ص ٣٦٨/٣.
(٩) انظر: تفسير الطبري (٢٥٨٣)، و (٢٥٨٤): ص ٣٦٨/٣-٣٦٩.
(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٥٨٥): ص ٣٦٩/٣.
(١١) انظر: تفسير الطبري (٢٥٨٦): ص ٣٦٩/٣.
(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢٥٧٧)، و (٢٥٧٨)، و (٢٥٨٠): ص ٣٦٧/٣-٣٦٨.
(١٣) انظر: تفسير الطبري (٢٥٩١): ص ٣٧٠/٣.
(١٤) انظر: تفسير الطبري: ٣٧١/٣.
(١٥) صفوة التفاسير: ١٠٥/١.

أي: " فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قبل الدية". روي هذا المعنى عن جابر بن زيد والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدي وعتاء الخراساني^(١).
 قوله تعالى: {ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ} [البقرة: ١٧٨]، "أي ما شرعته لكم من العفو إلى الدية تخفيف من ربكم عليكم ورحمة منه بكم"^(٢).
 عن سعيد بن جبیر: { وَرَحْمَةٌ }، يعني: ولترحموا"^(٣).
 قال قتادة: " وإنما هي رحمة رحم الله بها هذه الأمة، أطعمهم الدية، وأحلها لهم، ولم تحل لأحد قبلهم. فكان أهل التوراة إنما هو القصاص أو العفو، وليس بينهما أرش، وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو، أمروا به. فجعل الله لهذه الأمة القود والعفو والدية إن شاءوا، أحلها لهم، ولم تكن لأمة قبلهم"^(٤). وروي عن^(٥)، والربيع^(٦) نحوه.
 قوله تعالى: { فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ } [البقرة: ١٧٨] "أي فمن اعتدى على القاتل بعد قبول الدية"^(٧).
 قال مجاهد: { فَمَنْ اعْتَدَىٰ }، بعد أخذ الدية"^(٨).
 وقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم: " لا أعافي رجلا قتل بعد أخذه الدية"^(٩).
 قوله تعالى: { قَلْبُهُ عَدَابٌ أَلِيمٌ } [البقرة: ١٧٨]، أي: "فله عذاب أليم في الآخرة"^(١٠).
 واختلف في قوله تعالى: { عَدَابٌ أَلِيمٌ } [البقرة: ١٧٨]، على قولين^(١١):
 أحدهما: أنه القتل بمن قتله بعد أخذ الدية منه، وعفوه عن القصاص منه بدم وليه. وهذا قول الضحاك^(١٢)، وسعيد بن جبیر^(١٣)، وعكرمة^(١٤).
 قال الضحاك: " يُقتل، وهو {العذاب الأليم}، يقول: العذاب الموضع"^(١٥).
 الثاني: أن ذلك العذاب: عقوبة يعاقبه بها السلطان على قدر ما يرى من عقوبته. وهذا قول الحسن^(١٦).
 والصواب هو الرأي الأول، وهو قول الجمهور، "لأن جنائته لا تزيد على جناية غيره"^(١٧).

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٩٥/١.

(٢) صفة التفسير: ١/٥٠.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٨٨): ص ٢٩٦/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٥٩٧)، و (٢٥٩٩): ص ٣٧٤-٣٧٥.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٥٩٧)، و (٢٥٩٩): ص ٣٧٤-٣٧٥.

(٦) انظر: تفسير الطبري (٢٥٩٧): ص ٣٧٤/٣. ولفظه: "ليس بينهما شيء".

(٧) صفة التفسير: ١/١٠٥.

(٨) أخرجه الطبري (٢٦٠٢): ص ٣٧٦/٣.

(٩) الخبر ذكره الطبري في تفسيره (٢٦٠٣): ص ٣٧٦/٣.

وهذا الحديث مرسل. وكذلك ذكره السيوطي ١: ١٧٣، عن قتادة، ونسبه للطبري وابن المنذر فقط.

وقد روى المرفوع منه - عبد الرزاق في تفسيره، ص: ١٦، عن معمر، عن قتادة مرسلًا أيضًا.

ثم ذكر السيوطي اللفظ المرفوع، ونسبه لسمويه في فوائده، عن سمره. وقد قصر فيه جدًا، كما قصر في الجامع

الصغير: ٩٧٠١، إذ ذكره أيضًا، ونسبه للطيالسي - فقط - عن جابر، يعني جابر بن عبد الله.

(١٠) صفة التفسير: ١/١٠٥.

(١١) انظر: تفسير الطبري: ٣٧٨-٣٧٩.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢٦١٢): ص ٣٧٨/٣.

(١٣) تفسير الطبري (٢٦١٢)، و (٢٦١٣): ص ٣٧٨/٣.

(١٤) تفسير الطبري (٢٦١٤): ص ٣٧٨/٣.

(١٥) تفسير الطبري (٢٦١٢): ص ٣٧٨/٣.

(١٦) انظر: تفسير الطبري (٢٦١٦): ص ٣٧٩-٣٨٠.

(١٧) تفسير السعدي: ١/٨٤-٨٥.

القرآن

{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)} [البقرة : ١٧٩]

التفسير:

ولكم في تشريع القصاص وتنفيذه حياة آمنة -يا أصحاب العقول السليمة-؛ رجاء تقوى الله وخشيته بطاعته دائماً.

قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} [البقرة: ١٧٩]، "أي ولكم فيما شرعت من القصاص حياة"^(١).

قال أبو العالية: "جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل، فتمنعه مخافة أن يُقتل"^(٢).

وفي تفسير قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} [البقرة: ١٧٩]، ثلاثة وجوه: أحدها: إذا ذكره الظالم المعتدي، كف عن القتل فحبي، وهذا قول مجاهد^(٣)، وقتادة^(٤)، وسعيد بن جبير^(٥)، وأبي مالك^(٦)، والحسن^(٧)، والربيع بن أنس^(٨) وأبي العالية^(٩)، وأبي صالح^(١٠). الثاني: أن إيجاب القصاص على القاتل وترك التعدي إلى من ليس بقاتل حياة للنفوس، لأن القاتل إذا علم أن نفسه تؤخذ بنفس من قتله كف عن القتل فحبي أن يقتل قوداً، أو حيي المقتول أن يقتل ظلماً. وهذا معنى قول السدي^(١١)، والثوري^(١٢)، وأبي صالح^(١٣) في أحد قوليه. الثالث: أنه "يعني: بالحياة الصلاح والعدل". وهذا قول الضحاك^(١٤).

وقد نكر {الحياة}، لإفادة التعظيم والتكثير، والمعنى: "حياة كبرى، أو عظمى"^(١٥).

قوله تعالى: {يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} [البقرة: ١٧٩]، أي "يا أولي العقول"^(١٦).

قال سعيد بن جبير: "يعني: من كان له لب أو عقل يذكر القصاص فيحجزه خوف القصاص عن القتل"^(١٧). وروي عن أبي مالك والضحاك مثله^(١٨).

(١) صفوة التفسير: ١٠٥/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٩٤): ص ٢٩٧/١، وانظر: تفسير ابن كثير: ٤٩٢/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٦١٧)، و(٢٦١٨)، و(٢٦١٩)، و(٢٦٢٣): ص ٣٨٢/٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٦٢٠)، و(٢٦٢١): ص ٣٨٢/٣.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٩٧/١.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٩٧/١.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٩٧/١.

(٨) انظر: تفسير الطبري (٢٦٢٢): ص ٣٨٢/٣.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٥٩٤): ص ٢٩٧/١، وانظر: تفسير ابن كثير: ٤٩٢/١.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٦٢٥): ص ٣٨٣/٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري (٢٦٦٠): ص ٣٨٣/٣. ولفظه: "يقول: بقاء، لا يقتل إلا القاتل بجنايته"، وانظر: تفسير

ابن أبي حاتم: ٢٩٨/١.

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٩٨/١.

(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٥٩٥): ص ٢٩٨/١.

(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٩٦): ص ٢٩٨/١.

(١٥) تفسير ابن عثيمين: ٣٠٤/٢.

(١٦) تفسير الطبري: ٣٨١/٣.

(١٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٩٧): ص ٢٩٨/١.

(١٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٩٨/١.

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٧٩]، أي: "لعلكم تنزجرون فتنركون محارم الله ومآثمه"^(١).

قال سعيد بن جبير: "لكي تتقوا الدنيا مخافة القصاص"^(٢). وروى عن أبي مالك نحوه^(٣).
قال ربعة بن أبي عبد الرحمن: "يقول: لعلكم تتقون محارمكم وما نهيت بعضكم فيه عن بعض"^(٤).

والتقوى: "اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات"^(٥).

القرآن

{كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} [البقرة: ١٨٠]

التفسير:

فرض الله عليكم إذا حضر أحدكم علامات الموت ومقدماته -إن ترك مالا- الوصية بجزء من ماله للوالدين والأقربين مع مراعاة العدل؛ فلا يدع الفقير ويوصي للغني، ولا يتجاوز الثلث، وذلك حق ثابت يعمل به أهل التقوى الذين يخافون الله. وكان هذا قبل نزول آيات المواريث التي حدّد الله فيها نصيب كل وارث.

اختلف أهل العلم في ثبوت حكم هذه الآية على قولين^(٦):

أحدهما: أن العمل بها كان واجباً قبل فرض المواريث لئلا يضع الرجل ماله في البعداء طلباً للسمعة والرياء، فلما نزلت آية المواريث في تعيين المستحقين، وتقدير ما يستحقون، نسخ بها وجوب الوصية ومنعت السنة من جوازها للورثة. وهذا مذهب الجمهور من التابعين والفقهاء.
الثاني: أن حكمها كان ثابتاً في الوصية للوالدين، والأقربين حق واجب، فلما نزلت آية المواريث وفرض ميراث الأبوين نسخ بها الوصية للوالدين وكل وارث، وبقي فرض الوصية للأقربين الذين لا يرثون على حاله. وهذا قول الحسن^(٧)، وعكرمة^(٨)، وقتادة^(٩)، وطاوس^(١٠)، وجابر بن زيد^(١١)، وعلي بن أبي طلحة^(١٢)، والربيع^(١٣)، ومسلم بن يسار^(١٤)، وإياس بن معاوية^(١٥).

(١) تفسير ابن كثير: ٤٩٢/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم: ص ٢٩٨/١.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ص ٢٩٨/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم: ص ٢٩٨/١.

(٥) تفسير ابن كثير: ٤٩٢/١.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٣٨٨/٣ وما بعدها، والنكت والعيون: ٢٣٢/١، والناسخ والمنسوخ لابن الجوزي: ٢٢٩-٢٢٩/١.

(٧) انظر: تفسير الطبري (٢٦٤٤)، و(٢٦٤٥): ص ٣٨٩/٣، و(٢٦٥٤): ص ٣٩١/٣.

(٨) انظر: تفسير الطبري (٢٦٥٤): ص ٣٩١/٣.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢٦٤١): ص ٣٨٨/٣، و(٢٦٥٧): ص ٣٩١/٣.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٦٤٣): ص ٣٨٩/٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري (٢٦٥١): ص ٣٩٠-٣٩٠/٣.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢٦٤٧): ص ٣٩٠/٣.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (٢٦٤٨): ص ٣٩٠/٣.

(١٤) انظر: تفسير الطبري (٢٦٤٩): ص ٣٩٠/٣.

(١٥) انظر: تفسير الطبري (٢٦٥٠): ص ٣٩٠/٣.

ومن ثم اختلفوا في تعيين ناسخ آية: {الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ} [البقرة: ١٨٠]، وفيه ثلاثة أقوال^(١):

أحدها: أنها نسخت بآية الفرائض. قاله قتادة^(٢)، والزهري^(٣)، وابن الجوزي^(٤)، وابن البازري^(٥).
الثاني: وقيل: الحديث: "لا وصية لوارث"^(٦).

الثالث: وقيل: دلّ الإجماع على ذلك وان لم يتعين دليله^(٧).

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ لقتادة: ٣٨-٣٩، والناسخ والمنسوخ للزهري: ١٧، والمصنفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي: ٢٥، وناسخ القرآن العزيز ومنسوخه لابن البازري: ٢٥، والناسخ والمنسوخ لابن سلامة: ٤٠-٤١، والإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه لمكي: ١٤٠-١٤٤. والناسخ والمنسوخ للنحاس: ٤٨١/١.

(٢) انظر: كتابه الناسخ والمنسوخ: ٣٨-٣٩.

(٣) انظر: كتابه: الناسخ والمنسوخ: ١٧.

(٤) انظر: المصنفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ: ٢٥.

(٥) انظر: ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه: ٢٥.

(٦) انظر: الفتح: ٤٣٩/٥ وهو حديث رواه أحمد والأربعة، إذ أخرجه أحمد في مسنده-تحقيق شاكر والزين: ٦٤/١٤ رقم: ١٨٠٠١، وأبو داود في سننه: ٢٩١-٢٩٠/٣ رقم: ٢٨٧٠، والترمذي في جامعه: ٤٣٣/٤ رقم: ٢١٢٠، وقال: "حسن صحيح"، والنسائي في سننه: ٢٤٧/٦، وابن ماجة في سننه: ٩٠٥/٢ رقم: ٢٧١٣. قال الشافعي-رحمه الله- في الرسالة: ١٣٩ حول هذا الحديث: "وجدنا أهل الفتيا ومن حفظنا عنه من أهل العلم بالمغازي من قريش وغيرهم لا يختلفون في أن النبي قال عام الفتح: "لا وصية لوارث..". ويأثرونه عن كل من حفظوا عنه ممن لقوا من أهل العلم بالمغازي فكان هذا نقل عامة عن عامة وكان أقوى في بعض الأمر من نقل واحد عن واحد وكذلك وجدنا أهل العلم عليه مجمعين"، وقال الجصاص في أحكام القرآن: ١٦٥/١: "وروده من الجهات التي وصفنا عندنا في حيز التواتر لاستنفاضه وشهرته وتلقي الفقهاء إياه بالقبول"، وصححه الألباني في إرواء الغليل: ٨٧/٦ رقم: ١٦٥٥. وذهب بعض أهل العلم إلى أن الحديث بتمامه يفيد أن الناسخ هو آية الفرائض لا هذا الحديث فلفظه: "إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث"، فالذي أعطى الحق هو الله عن طريق آية الفرائض التي لم تجعل للورثة حقاً في الوصية اكتفاءً بنصيبهم الموروث، ولا نزاع في أن الله هو الذي أعطى وشرع لكن الظاهر أن الذي بين التشريع والإعطاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، انظر: مناهل العرفان للزرقاني: ٢٧٦/٢-٢٧٧.

(٧) حكى الإجماع على أنه لا وصية لوارث: الشافعي في الرسالة: ١٣٩، والأم: ١٤٣/٤، والزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ٢٥١/١، وابن الجوزي في زاد المسير: ١٨٢/١، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ٢٦٣/٢، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ٢٦٣/١، وغيرهم، وانظر: استشكالاً حول ذلك في مفاتيح الغيب للرازي: ٦٧/٥. واعلم بأن نسخ آية الوصية بآية الموارث فيه إشكال أوضحه مكي في الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه: ١٤٢ فقال: "لأن الله لما ذكر فرض الوالدين قال بعده: {مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ} فقد كان يجوز أن يثبت لهما الفرض المذكور من بعد ما يوصي لهما بنص القرآن فنسخ الوصية بآية الموارث فيه إشكال لاتصال قوله: {مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ} يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ} [النساء: ١١] بفرض الوالدين فالنسخ بالسنّة أولى إذ لا إشكال في ذلك"، وانظر: تصحيح القرطبي لذلك في الجامع لأحكام القرآن: ٢٦٣/٢. كما أن نسخ آية الوصية بالحديث فيه إشكال عند من يقول بعدم جواز نسخ القرآن بغير القرآن أو بغير السنة المتواترة على اعتبار الحديث حديث آحاد، والظاهر جواز ذلك، انظر كلاماً نفيساً في المسألة للعلامة الشنقيطي في أضواء البيان: ٢٥١/٢ و٣٦٧، ومذكورة في أصول الفقه له: ٨٦.

وانظر أيضاً: الإيضاح لمكي: ١٤١، معالم أصول الفقه عند أهل السنة للجزيري: ٢٧١. وقد نازع قوم من أهل العلم في كون آية الوصية منسوخة، كالطبري في جامع البيان: ٣٨٥/٣، والنحاس في الناسخ والمنسوخ: ٤٨٧/١، ومصطفى زيد في النسخ في القرآن الكريم: ٥٩٥/٢، والسعدي في تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٦٨، وذكره بعضهم عن جماعة من أهل العلم جاعلين لها من العام المخصوص بالوالدين والأقارب من غير الورثة على خلاف بينهم في وجوب الوصية أو نديها، وقد وصف الزرقاني في مناهل العرفان: ٢٧٦/٢ هذا القول بأنه تكلف ومشى في غير سبيل. والحق أن الوصية في غير دين أو وديعة مندوبة، فإن كانت في صدر الإسلام كذلك فلا نسخ والآية محكمة مخصوصة، وإن كانت الوصية في صدر الإسلام قبل نزول آية الفرائض واجبة كما هو ظاهر الآية والتعبير بلفظ {كتب} فالآية منسوخة، والندب إلى الوصية لغير الورثة مأخوذ من نصوص أخرى غير هذه الآية، والله أعلم. انظر: أحكام القرآن لابن العربي: ٧١/١، تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢٦٣/١، تعليق د. اللاحم على الناسخ والمنسوخ للنحاس: ٤٨٦/١، وانظر في حكم الوصية: الاستنكار لابن عبد البر: ٢٣/٧، أحكام الأحكام

وإن أوصى أحدهم بثلثه لغير قرابته، فقد اختلف قائلوا هذا القول^(١) في حكم وصيته على ثلاثة مذاهب^(٢):

أحدها: أن يرد ثلث الثلث على قرابته، ويكون ثلثا الثلث لمن أوصى له به ، وهذا قول قتادة^(٣).
الثاني: أن يرد ثلثا الثلث على قرابته ويكون ثلثا الثلث لمن أوصى له به ، وهذا قول جابر بن زيد^(٤).

الثالث: أنه يريد الثلث كله على قرابته ، وهذا قول طاوس^(٥).

واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية المواريث، وبعضهم يرى أنها في الوالدين والأقربين غير الوارثين، مع أنه لم يدل على التخصيص بذلك دليل، والأحسن في هذا أن يقال: إن هذه الوصية للوالدين والأقربين مجتمعة، ردها الله تعالى إلى العرف الجاري^(٦).

قوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ [البقرة: ١٨٠]، أي: "فرض عليكم معشر المؤمنين إذا أشرف أحدكم على الموت"^(٧).

قال الحسن: "نعم الوصية حق على كل مسلم أن يوصي إذا حضر الموت، بالمعروف غير المنكر"^(٨).

قوله تعالى: {إِنْ تَرَكَ خَيْرًا [البقرة: ١٨٠]، أي: "وقد ترك مالا"^(٩).

قال قتادة: "الخير: المال"^(١٠).

عن الضحاك: " {إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ } قال: المال. ألا ترى أنه يقول: قال شعيب لقومه: {إِنِّي أُرَاكُمُ بِخَيْرٍ} [هود: ٨٤]، يعني: الغني"^(١١).

واختلف في قدر المال الذي يجب عليه أن يوصي منه على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه ألف درهم، تأويلاً لقوله تعالى: {إِنْ تَرَكَ خَيْرًا}، أن الخير ألف درهم. وهذا قول قتادة^(١٢).

والثاني: من ألف درهم إلى خمسمائة درهم ، وهذا قول إبراهيم النخعي^(١٣).

والثالث: أنه غير مقدر وأن الوصية تجب في قليل المال وكثيره ، وهذا قول الزهري^(١٤)،

مجلز^(١)، وقد قال بذلك: الطبري^(٢)، والبيضاوي^(٣)، وابن العربي^(٤)، وغيرهم.

لابن دقيق: ٣/٤، الإفصاح لابن هبيرة: ٧٠/٢، المغني لابن قدامة: ٣٩٠/٨، نيل الأوطار للشوكاني: ٤٣/٦. وأما ما حكاه الرازي في مفاتيح الغيب: ٦٦/٥ عن أبي مسلم الأصفهاني من أن هذه الآية غير منسوخة وإنما هي مفسرة بآية المواريث والمعنى: كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والأقربين فقول عجيب مردود، والله أعلم. انظر: تفسير ابن كثير: ٢٦٣/١.

(١) أي القول الثاني.

(٢) انظر: النكت والعيون: ٢٣٢/١.

(٣) انظر: النكت والعيون: ٢٣٢/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٦٣٦): ص ٣٨٧/٣.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٦٣٩): ص ٣٨٨/٣.

(٦) تفسير السعدي: ٨٥.

(٧) تفسير المراغي: ٢٩٨/١، و صفوة التفاسير: ١٠٥/١.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٩٨): ٢٩٨/١.

(٩) صفوة التفاسير: ١٠٥/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٠٣): ٢٩٩/١.

(١١) أخرجه الطبري (٢٦٧٢): ص ٣٩٤/٣.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢٦٧٥): ص ٣٩٤/٣.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (٢٦٧٩): ص ٣٩٥/٣.

(١٤) انظر: تفسير الطبري (٢٦٨٠): ص ٣٩٦/٣.

قال الزهري: " جعل الله الوصية حقاً، مما قل منه أو كثر" (٥).
واحتجوا عليه بوجهين (٦):

الأول: أن الله تعالى أوجب الوصية فيما إذا ترك خيراً، والمال القليل خير، يدل عليه القرآن والمعقول:

أما القرآن: فقوله تعالى: {فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره} [الزلزلة: ٧ - ٨]، وأيضاً قوله تعالى: {لما أنزلت إلى من خير فقير}، وقوله: {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأُنْفِسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [البقرة: ٢٧٢].

وأما المعقول: فهو أن الخير ما ينتفع به، والمال القليل كذلك فيكون خيراً.
الحجة الثانية: أن الله تعالى اعتبر أحكام المواريث فيما يبقى من المال قل أم كثر، بدليل قوله تعالى: {للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً} [النساء: ٧] فوجب أن يكون الأمر كذلك في الوصية.
والراجح-والله أعلم- هو قول الزهري ومن وافقه من أهل التفسير، وذلك لإطلاق الآية وعدم التقييد فيها بقلّة أو كثرة، ونعم الله قليلها وكثيرها كلها خير ولا شك، فالقيل المال وكثيره يقع عليه {خير}، ولم يحّد الله ذلك بحدّ، ولا خص منه شيئاً فيجوز أن يحال ظاهر إلى باطن. فكلّ من حضرته منيته وعنده مال قلّ ذلك أو كثر، فوجبّ عليه أن يوصي منه لمن لا يرثه من أبائه وأمهاته وأقربائه الذين لا يرثونه بمعروف، كما قال الله جل ذكره وأمر به (٧).
قوله تعالى: {الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ} [البقرة: ١٨٠]، " أي وجب عليه الإيصال للوالدين والأقربين" (٨).

وقد اختلفوا في تفسير قوله تعالى: {وَالْأَقْرَبِينَ} [البقرة: ١٨٠]، على أقوال:
أحدها: أنهم الأولاد، فعلى هذا أمر الله تعالى بالوصية للوالدين والأولاد وهو قول عبد الرحمن بن زيد عن أبيه (٩)، وهو قول المفسرين (١٠).
الثاني: أن المراد من الأقربين من عدا الوالدين. وهو قول مجاهد (١١).
قال أبو العالية: " نسخ الوالدين فألحقهما بأهل الميراث، وصارت الوصية لأهل القرابة الذين لا يرثون" (١٢).

والراجع أن " {الأقربين} جمع (الأقرب)، وظاهره أنه (أفعل) تفضيل، فكل من كان أقرب إلى الميت دخل في هذا اللفظ، وأقرب ما إليه الوالدان، فصار ذلك تعميماً بعد تخصيص، فكأنهما ذكراً مرتين: توكيداً وتخصيماً على اتصال الخير إليهما، هذا مدلول ظاهر هذا اللفظ" (١٣).

(١) انظر: البحر المحيط: ١٧/٢، والنكت والعيون: ٢٣٢/١، وزاد المسير: ١٨٢/١.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٣٩٦/٣.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي: ٩٩/١.

(٤) انظر: أحكام القرآن: ٧١/١.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٦٨٠): ص ٣٩٦/٣.

(٦) انظر: مفاتيح الغيب: ٥٢/٥.

(٧) تفسير الطبري: ٣٩٦/٣.

(٨) صفة التفسير: ١٠٥/١.

(٩) انظر: مفاتيح الغيب: ٢٣٢/٥-٢٣٣، والبحر المحيط: ٢٠/٢.

(١٠) انظر: البحر المحيط: ٢٠/٢.

(١١) انظر: مفاتيح الغيب: ٢٣٢/٥-٢٣٣، والبحر المحيط: ٢٠/٢.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٠٥): ص ٣٠٠/١.

(١٣) البحر المحيط: ٢٠/٢.

قوله تعالى: {حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} [البقرة: ١٨٠]، أي: "حقاً لازماً على المتقين لله" (١).
قال سعيد بن جبیر: "يقول تلك الوصية حق على المتقين" (٢).

القرآن

{فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ١٨١]

[١٨١]

التفسير:

فمن غيّر وصية الميت بعدما سمعها منه قبل موته، فإنما الذنب على من غيّر وبدّل. إن الله سميع لوصيتكم وأقوالكم، عليم بما تخفيه صدوركم من الميل إلى الحق والعدل أو الجور والحيث، وسيجازيكم على ذلك.
قوله تعالى: {فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ} [البقرة: ١٨١]، "أي من غيّر هذه الوصية بعد ما علمها من وصي أو شاهد" (٣).

قال سعيد بن جبیر: "يقول: من بدل وصية الميت، بعد ما سمع من الميت، فلم يمض وصيته إذا كان عدلاً" (٤).
قال قتادة: "من بدل الوصية بعد ما سمعها، قال: إثم ما بدل عليه" (٥). وروي عن الحسن (٦) مثل ذلك.

قوله تعالى: {فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ} [البقرة: ١٨١]، أي: "إنما الإثم على المبدل المغير، وقد برئت منه ذمة الموصي وثبت له الأجر عند ربه" (٧).
قال سعيد بن جبیر: "فإنما إثمهم، يعني: إثم ذلك" (٨)، "على الذين يبدلونهم، يعني: الوصي، وبرئ منه الميت" (٩).
قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ١٨١]، "أي: إن الله سميع لقول الموصي، عليم بفعل الوصي" (١٠).

قال سعيد بن جبیر: "إن الله سميع عليم، يعني: الوصية للميت، عليم بها" (١١).

القرآن

{فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ١٨٢]

[١٨٢]

التفسير:

- (١) صفوة التفسير: ١٠٥/١.
- (٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٠٦): ص ٣٠٠/١.
- (٣) صفوة التفسير: ١٠٥/١.
- (٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٠٧): ص ٣٠٠/١.
- (٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٠٨): ص ٣٠٠/١.
- (٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٣٠٠/١.
- (٧) انظر: تفسير المراغي: ٣٠٠/١، وتفسير السعدي: ٨٥/١.
- (٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦١٠): ص ٣٠١/١.
- (٩) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦١٠): ص ٣٠١/١.
- (١٠) النكت والعيون: ٢٣٣/١.
- (١١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦١٠): ص ٣٠١/١.

فَمَنْ علم من موصٍ ميلاً عن الحق في وصيته على سبيل الخطأ أو العمد، فنصح الموصي وقت الوصية بما هو الأعدل، فإن لم يحصل له ذلك فأصلح بين الأطراف بتغيير الوصية؛ لتوافق الشريعة، فلا ذنب عليه في هذا الإصلاح. إن الله غفور لعباده، رحيم بهم.

سبب النزول:

قال الواحدي: "قال الكلبي: كان الأولياء والأوصياء يمشون وصية الميت بعد نزول هذه الآية وإن كانت مستغرقة للمال، فأنزل الله قوله تعالى: {فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا} أي: خشي، وقيل: علم"^(١).

وذكره الثعلبي في تفسيره، لكنه قال: "ثم نسختها هذه الآية: {فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا}"^(٢).

وروى عبد الرزاق في المصنف، عن سفيان الثوري نحوه^(٣).
قوله تعالى: {فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا} [البقرة: ١٨٢]، أي: فمن علم وتوقع وظن ميلاً في الوصية خطأ أو ميلاً فيها عمداً^(٤).

عن سعيد بن جبیر: "فمن خاف من موصٍ، يعني: من الميت"^(٥).

وفي قوله: {خَافَ} [البقرة: ١٨٢]، وجهان:

أحدهما: أنه بمعنى (خشي). وتفسير الآية: "من حَضَرَ مَرِيضًا وهو يُوصِي، فخاف أن يخطئ في وصيته فيفعل ما ليس له، أو يتعمد جوراً فيها فيأمر بما ليس له، فلا حَرَجَ عليه أن يُصلح بينه وبين ورثته، بأن يأمره بالعدل وهذا قول مجاهد"^(٦)^(٧).

الثاني: أنه بمعنى: (علم). قاله سعيد بن جبیر^(٨)، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِلَّا أَنْ يَخَافَ أَلَّا يُقِيمَا} [البقرة: ٢٢٩] أي إلا أن يعلمًا.

وتفسير الآية: أن "الميت إذا أخطأ في وصيته، أو حاف فيها متعمداً، فلا حَرَجَ على من علم ذلك أن يُعَيِّرَهُ، ويصلح بعد موته بين ورثته وبين الموصي لهم، من وليٍّ أو وصيٍّ أو واليٍّ أمر المسلمين، ويردّ الوصية إلى العدل. وهذا معنى قول قتادة^(٩)، والربيع^(١٠)^(١١).

وفي قوله تعالى: {جَنَفًا أَوْ إِثْمًا} [البقرة: ١٨٢]، تفسيران^(١٢):

أحدهما: أن الجنف: الخطأ، والإثم: العمد، وهذا قول السدي^(١٣)، والضحاك^(١٤)، ومجاهد^(١)، والربيع^(٢)، وإبراهيم^(٣)، وعطية^(٤)، وطاوس^(٥).

(١) التفسير البسيط: ٥٥١/٣.

(٢) انظر: تفسير الثعلبي: ٦٠/٢، وذكره البغوي ١/ ١٩٤.

(٣) انظر: المصنف: ٨٩/٩.

(٤) انظر: تفسير البقاعي: ٣٣٧/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم: ٣٠١/١.

(٦) تفسير مجاهد" ٩٦/١، وينظر: "تفسير الطبري" (٢٦٩١): ص ٣٩٩/٣، وعزاه في "الدر" ١/ ٣٢٠ إلى عبد بن حميد، وهذا اختيار الطبري.

(٧) التفسير البسيط: ٥٥٣/٣.

(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٦١٠): ص ٣٠١/١.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢٦٩٣): ص ٤٠٠/٣-٤٠١. ورواه عنه عبد الرزاق في "تفسيره" ١/ ٦٩، والجصاص في "أحكام القرآن" ١/ ١٧١.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٦٩٥): ص ٤٠١/٣، وذكره ابن أبي حاتم ١/ ٣٠٣.

(١١) التفسير البسيط: ٥٣٣/٣.

(١٢) انظر: النكت والعيون: ٢٣٤/١.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (٢٧١٠): ص ٤٠٦/٣.

(١٤) انظر: تفسير الطبري (٢٧٠٨): ص ٤٠٦/٣.

قال أبو العالية: "الإثم: العمد"^(٦).

قال سعيد بن جبير: " {إثمًا}، يعني: أو خطأ فلم يعدل"^(٧).

الثاني: أن الجنف الميل، والإثم أن يكون قد أثم في أثره بعضهم على بعض، وهذا قول وعطاء^(٨).
قوله تعالى: { فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ } [البقرة: ١٨٢]، أي: "فأصلح بين الموصي والموصى له فلا ذنب عليه بهذا التبديل"^(٩).

قال الربيع بن أنس: "يقول: رده الوصي إلى الحق بعد موته فلا إثم عليه"^(١٠). وروي عن سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح، نحو ذلك^(١١).

واختلف في تفسير قوله تعالى: { فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ } [البقرة: ١٨٢]، على خمسة أقوال:

أحدها: أن المعنى: فمن حضر مريضاً، وهو يوصي عند إشرافه على الموت، فخاف أن يخطئ في وصيته، فيفعل ما ليس له أو أن يتعمد جوراً فيها، فيأمر بما ليس له، فلا حرج على من حضره فسمع ذلك منه، أن يصلح بينه وبين ورثته، بأن يأمره بالعدل في وصيته، وهذا قول مجاهد^(١٢).

قال عمرو بن شربيل: "الثالث والربع، جنف"^(١٣).

الثاني: أن المعنى: فمن خاف من أوصياء الميت جنفاً في وصيته، فأصلح بين ورثته وبين الموصى لهم فيما أوصى به لهم حتى رد الوصية إلى العدل، فلا إثم عليه، وهذا قول قتادة^(١٤).

الثالث: أن تأويلها فمن خاف من موص جنفاً أو إثمًا في عطيته لورثته عند حضور أجله، فأعطى بعضاً دون بعض، فلا إثم عليه أن يصلح بين ورثته في ذلك، وهذا قول عطاء^(١٥).

الرابع: أن تأويلها فمن خاف من موص جنفاً، أو إثمًا في وصيته لغير ورثته، بما يرجع نفعه إلى ورثته فأصلح بين ورثته، فلا إثم عليه، وهذا قول طاووس^(١٦).

قال طاووس: "هو الرجل يوصي لولد ابنته"^(١٧).

الخامس: أن تأويلها فمن خاف من موص لأبائه وأقربائه جنفاً على بعضهم لبعض، فأصلح بين الآباء والأقرباء، فلا إثم عليه، وهذا قول السدي^(١٨).

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧١١): ص ٤٠٦/٣-٤٠٧.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧١٢): ص ٤٠٧/٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٧١٤): ص ٤٠٧/٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٧١٥): ص ٤٠٧/٣.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٧١٦): ص ٤٠٧/٣.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦١٧): ص ٣٠٢/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦١٦): ص ٣٠٢/١.

(٨) انظر: تفسير الطبري (٢٧٠٥)، و(٢٧٠٦)، و(٢٧٠٧)، و(٢٧٠٩): ص ٤٠٦/٣.

(٩) صفوة التفاسير: ١/١-١٠٦.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٢٠): ص ٣٠٣/١.

(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٣٠٣/١.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢٦٩٠)، و(٢٦٩١): ص ٣٩٩/٣-٤٠٠.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦١٢): ص ٣٠١/١.

(١٤) انظر: تفسير الطبري (٢٦٩٣): ص ٤٠٠/٣.

(١٥) انظر: تفسير الطبري (٢٦٩٩): ص ٤٠٢/٣.

(١٦) انظر: تفسير الطبري (٢٧٠٠)، و(٢٧٠١): ص ٤٠٣/٣.

(١٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦١٣): ص ٣٠١/١.

(١٨) انظر: تفسير الطبري (٢٧٠٢): ص ٤٠٣/٣.

والصواب في تفسير الآية، هو أن يوصي لوالديه والأقربين الذين لا يرثونه بأكثر مما يجوز له في الوصية، مما لم يأذن به الله، وذلك بأن يوصي "مما جاوز الثلث أو بالثلث كله، وفي المال قلة، وفي الورثة كثرة فلا بأس على من حضره أن يصلح بين الذين يُوصى لهم، وبين ورثة الميت، وبين الميت، بأن يأمر الميت في ذلك بالمعروف ويعرفه ما أباح الله له في ذلك وأذن له فيه من الوصية في ماله، وينهاه أن يجاوز في وصيته المعروف الذي قال الله تعالى ذكره في كتابه: "كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ"، وذلك هو "الإصلاح" الذي قال الله تعالى ذكره: "فأصلح بينهم فلا إثم عليه". وكذلك لمن كان في المال فضلاً وكثرة وفي الورثة قلة، فأراد أن يقتصر في وصيته لوالديه وأقربيه عن ثلثه، فأصلح من حضره بينه وبين ورثته وبين والديه وأقربيه الذين يريد أن يوصى لهم، بأن يأمر المريض أن يزيد في وصيته لهم، ويبلغ بها ما رخص الله فيه من الثلث. فذلك أيضاً هو من الإصلاح بينهم بالمعروف.

وإنما اخترنا هذا القول، لأن الله تعالى ذكره قال: {فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا}، يعني بذلك: فمن خاف من موصٍ أن يجنف أو يأتهم. فخوف الجنف والإثم من الموصي، إنما هو كائن قبل وقوع الجنف والإثم، فأما بعد وجوده منه، فلا وجه للخوف منه بأن يجنف أو يأتهم، بل تلك حال من قد جنف أو أثم، ولو كان ذلك معناه لقليل: فمن تبين من موصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا - أو أيقن أو علم - ولم يقل: فمن خَافَ مِنْهُ جَنَفًا^(١).

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ١٨٢]؛ أي إن الله "واسع المغفرة والرحمة لمن قصد بعمله الإصلاح"^(٢).

قال سعيد بن جبیر: "يعني: الوصي حين أصلح بين الورثة رحيم يعني: رحيمًا به خيرًا به، حيث رخص له في خلاف جور وصية الميت"^(٣).

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)}

[البقرة: ١٨٣]

التفسير:

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، فرض الله عليكم الصيام كما فرضه على الأمم قبلكم؛ لعلكم تتقون ربكم، فتجعلون بينكم وبين المعاصي وقاية بطاعته وعبادته وحده.

(١) تفسير الطبري: ٤٠٢/٣-٤٠٣. ومن ثم قال: فإن أشكل ما قلنا من ذلك على بعض الناس فقال: فما وجه الإصلاح حينئذ، والإصلاح إنما يكون بين المختلفين في الشيء؟

قيل: إن ذلك وإن كان من معاني الإصلاح، فمن الإصلاح الإصلاح بين الفريقين، فيما كان مخوفًا حدوث الاختلاف بينهم فيه، بما يؤمن معه حدوث الاختلاف. لأن "الإصلاح"، إنما هو الفعل الذي يكون معه إصلاح ذات البين، فسواء كان ذلك الفعل الذي يكون معه إصلاح ذات البين - قبل وقوع الاختلاف أو بعد وقوعه.

فإن قال قائل: فكيف قيل: "فأصلح بينهم"، ولم يجر للورثة ولا للمختلفين، أو المخوف اختلافهم، ذكر؟ قيل: بل قد جرى ذكر الذين أمر تعالى ذكره بالوصية لهم، وهم والدا الموصي وأقربوه، والذين أمروا بالوصية في قوله: "كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ"، ثم قال تعالى ذكره: "فمن خاف من موصٍ - لمن أمرته بالوصية له - جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فأصلح بينهم" - وبين من أمرته بالوصية له - "فلا إثم عليه". والإصلاح بينه وبينهم، هو إصلاح بينهم وبين ورثة الموصي. (تفسير الطبري: ٤٠٤/٣-٤٠٥).

(٢) صفوة التفاسير: ١٠٦/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٢١): ص ٣٠٣/١.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [البقرة : ١٨٣]، أي: "يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا بهما وأقروا"^(١).

قال جعفر الصادق -رضي الله عنه-: "لذة «يا» في النداء أزال تعب العبادة والعناء"^(٢).

قوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ} [البقرة : ١٨٣]، أي: "فرض عليكم الصيام"^(٣).

قال سعيد بن جبیر: "يعني: فرض عليكم"^(٤).

قوله تعالى: {كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ} [البقرة : ١٨٣]، أي: فرض عليكم صيام شهر رمضان كما فرض على الأمم قبلكم"^(٥).

واختلف في تفسير قوله تعالى: {كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ} [البقرة: ١٨٣]، وفيه ثلاثة

أقوال^(٦):

أحدها: أنهم النصارى ، وهو قول الشعبي^(٧)، والربيع^(٨)، والسدي^(٩)، والحسن^(١٠).

الثاني: أنهم أهل الكتاب ، وهو قول مجاهد^(١١). واختاره الطبري^(١٢).

الثالث: أنهم جميع الناس ، وهو قول قتادة^(١٣).

والراجح أن المعنيين في الآية هم أهل الكتاب، أما التشبيه فإنه وقع في الوقت، " وذلك أن

مَنْ كان قبلنا إنما كان فرض عليهم شهر رمضان، مثل الذي فرض علينا سواء"^(١٤). والله أعلم^(١٥).

واختلفوا في موضع التشبيه بين صومنا ، وصوم الذين من قبلنا، على قولين^(١٦):

أحدهما: أن التشبيه في حكم الصوم وصفته ، لا في عدده لأن اليهود يصومون من العتمة إلى

العتمة ، ولا يأكلون بعد النوم شيئاً ، وكان المسلمون على ذلك في أول الإسلام ، لا يأكلون بعد

النوم شيئاً حتى كان من شأن عمر بن الخطاب وأبي قيس بن صرمة ما كان ، فأجلّ الله تعالى لهم

الأكل والشرب ، وهذا قول الربيع بن أنس^(١٧).

(١) تفسير الطبري: ٤٠٩/٣.

(٢) تفسير الثعلبي: ٦١/٢.

(٣) تفسير الطبري: ٤٠٩/٣، وانظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة: ٦٦/١، معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢٥١/١،

تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ٧٣، المفردات للراغب: ٤٢٣، وغيرها.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٢١): ص ٣٠٣/١.

(٥) صفوة التفاسير: ١٠٩/١.

(٦) انظر: النكت والعيون: ٢٣٦/١.

(٧) انظر: تفسير الطبري (٢٧٢٠): ص ٤١٠/٣.

(٨) انظر: تفسير الطبري (٢٧٢٢): ص ٤١٢/٣.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢٧٢١): ص ٤١١/٣.

(١٠) انظر: تفسير الثعلبي: ٦٣/٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري (٢٧٢٣): ص ٤١٢/٣.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٤١٢/٣-٤١٣.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (٢٧٢٤): ص ٤١٢/٣.

(١٤) تفسير الطبري: ٤١٣/٣.

(١٥) وقد ذكر الرازي بأن في هذا التشبيه قولان: [مفاتيح الغيب: ٢٤٠/٥].

أحدهما: أنه عائد إلى أصل إيجاب الصوم، يعني هذه العبادة كانت مكتوبة واجبة على الأنبياء والأمم من لدن آدم إلى

عهدكم، ما أحلى الله أمة من إيجابها عليهم لا يفرضها عليكم وحدكم وفائدة هذا الكلام أن الصوم عبادة شاقة،

والشيء الشاق إذا عم سهل تحمله.

والقول الثاني: أن التشبيه يعود إلى وقت الصوم وإلى قدره، وهذا ضعيف لأن تشبيه الشيء بالشيء يقتضي

استواءهما في أمر من الأمور فاما أن يقال: إنه يقتضي الإستواء في كل الأمور فلا.

(١٦) انظر: النكت والعيون: ٢٣٦/١.

(١٧) انظر: تفسير الطبري (٢٧٢٢): ص ٤١٢/٣.

وقد روي عن النبي- صلى الله عليه وسلم- أنه قال : " بَيْنَ صَوْمِنَا وَصَوْمِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ " (١).

القول الثاني : أن التشبيه في عدد الصوم ، وفيه قولان (٢) :
أحدهما : أن النصارى كان الله فرض عليهم صيام ثلاثين يوماً كما فرض علينا ، فكان ربما وقع في القبط ، فجعلوه في الفصل بين الشتاء والصيف ، ثم كَفَرُوهُ بصوم عشرين يوماً زائدة ، ليكون تمحيصاً لذنوبهم وتكفيراً لتبديلهم ، وهذا قول الشعبي (٣).
الثاني : أنهم اليهود كان عليهم صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، إلى أن نسخ بصوم رمضان. وهذا قول الضحاك بن مزاحم (٤) ، وعطاء (٥) ، وقتادة (٦).
قوله تعالى : {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة : ١٨٣] ، " أي لتكونوا من المتقين لله ، المجتنبين لمحارمه " (٧).

قال السدي : " فتتقون من الطعام والشراب والنساء مثل ما اتقوا " (٨).

القرآن

{ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) } [البقرة : ١٨٤]

التفسير :

فرض الله عليكم صيام أيام معلومة العدد وهي أيام شهر رمضان. فمن كان منكم مريضاً يشق عليه الصوم ، أو مسافراً فله أن يفطر ، وعليه صيام عدد من أيام أخر بقدر التي أفطر فيها. وعلى الذين يتكلفون الصيام ويشق عليهم مشقة غير محتملة كالشيخ الكبير ، والمريض الذي لا يرجى شفاؤه ، فدية عن كل يوم يفطره ، وهي طعام مسكين ، فمن زاد في قدر الفدية تبرعاً منه فهو خير له ، وصيامكم خير لكم - مع تحمل المشقة - من إعطاء الفدية ، إن كنتم تعلمون الفضل العظيم للصوم عند الله تعالى.

قوله تعالى : {أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ} [البقرة : ١٨٤] ، أي : " كتب عليكم أيها الذين آمنوا الصيام أياماً معدودات " (٩).

وذكر أهل التفسير في قوله تعالى : {أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ} [البقرة : ١٨٤] ، وجهين (١٠) :
أحدهما : أنها أيام شهر رمضان التي أبانها من بعد ، وهو قول ابن أبي ليلى (١١) ، وجمهور المفسرين (١٢).

(١) صحيح مسلم (١٠٩٦) : ص ٧٧١/٢ ، وأحمد (١٧٣٠٨) : ص ١٩٧/٤ .

(٢) انظر : النكت والعيون : ٢٣٦/١ .

(٣) انظر : تفسير الطبري (٢٧٢٠) : ص ٤١٠/٣ .

(٤) انظر : تفسير ابن أبي حاتم (١٦٢٤) : ص ٣٠٤/١ .

(٥) انظر : تفسير ابن أبي حاتم : ٣٠٤/١ .

(٦) انظر : تفسير ابن أبي حاتم : ٣٠٤/١ .

(٧) صفة التفسير : ١٠٩/١ .

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٢٩) : ص ٣٠٥/١ .

(٩) تفسير الطبري : ٤١٣/٣ .

(١٠) انظر : النكت والعيون : ٢٣٧/١ .

(١١) انظر : تفسير الطبري (٢٧٣١) ، و (٢٧٣٢) : ص ٤١٥/٣ - ٤١٦ .

(١٢) انظر : النكت والعيون : ٢٣٧/١ .

الثاني : أنها صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، كانت مفروضة قبل صيام شهر رمضان ، ثم نسخت به، وهي الأيام البيض من كل شهر، وهو قول قتادة^(١)، وعطاء^(٢).

والراجح في تفسير قوله تعالى: {أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ} [البقرة: ١٨٤]، أن يقال بأنه أيام شهر رمضان، وهذا قول جمهور أهل التفسير. والله أعلم.

قوله تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ} [البقرة : ١٨٤]، " أي وعلى الذين يستطيعون صيامه مع المشقة لشيخوخة أو ضعف، إذا أفطروا عليهم فدية بقدر طعام مسكين لكل يوم"^(٣).

قال مجاهد: " يتكلفونه ولا يستطيعونه"^(٤).

واختلف في قوله تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ} [البقرة : ١٨٤]، على قولين:

أحدها: أنها وردت في أول الإسلام ، خير الله تعالى بها المطيقين للصيام من الناس كلهم بين أن يصوموا ولا يكفروا ، وبين أن يفطروا ويكفروا كل يوم بإطعام مسكين، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}، وقيل بل نسخ بقوله: {وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ}، وهذا قول الحسن^(٥)، وإبراهيم^(٦)، وعكرمة^(٧)، والشعبي^(٨)، والزهري^(٩)، وعلقمة^(١٠)، والضحاك^(١١)، وهو قول الجمهور^(١٢).

قال ابن شهاب: " كتب الله الصيام علينا، فكان من شاء اقتدى ممن يطيق الصيام من صحيح أو مريض أو مسافر، ولم يكن عليه غير ذلك. فلما أوجب الله على من شهد الشهر الصيام، فمن كان صحيحاً يطيقه وضع عنه الفدية، وكان من كان على سفر أو كان مريضاً فعدة من أيام أخر. قال: وبقيت الفدية التي كانت تُقبل قبل ذلك للكبير الذي لا يُطيق الصيام، والذي يعرض له العطش أو العلة التي لا يستطيع معها الصيام"^(١٣).

قال علقمة: " كان من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم نصف صاع مسكيناً، فنسخها: "شهر رمضان" إلى قوله: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}^(١٤).

عن إبراهيم، بنحوه - وزاد فيه، قال: "فنسختها هذه الآية، وصارت الآية الأولى للشيخ الذي لا يستطيع الصوم، يتصدق مكان كل يوم على مسكين نصف صاع"^(١٥).

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧٣٠): ص ٤١٥/٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧٢٧): ص ٤١٤/٣.

(٣) صفوة التفاسير: ١٠٩/١.

(٤) تفسير مجاهد: ٢٢٠.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٧٣٨): ص ٤٢٠/٣.

(٦) انظر: تفسير الطبري (٢٧٤٩): ص ٤٢٤/٣.

(٧) انظر: تفسير الطبري (٢٧٣٨): ص ٤٢٠/٣.

(٨) أخرجه الطبري (٢٧٤٢): ص ٤٢١/٣.

(٩) انظر: تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (١٨٣): ص ٨٤/٣.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٧٣٦): ص ٤٢٠/٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري (٢٧٥١): ص ٤٢٤/٣.

(١٢) والمعتضون على هذا الرأي احتجوا بأن من قواعد الفقهاء أن النسخ لا يقع في كلمة أو جزء من آية، لهذا لا يمكن التعويل على هذا الرأي.

(١٣) أخرجه الطبري (٢٧٤٥): ص ٤٢٢/٣.

(١٤) انظر: تفسير الطبري (٢٧٣٦): ص ٤٢٠/٣.

(١٥) انظر: تفسير الطبري (٢٧٣٧): ص ٤٢٠/٣.

عن الشعبي قال: نزلت هذه الآية: "وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ"، كان الرجل يُفطر فيتصدق عن كل يوم على مسكين طعاماً، ثم نزلت هذه الآية: {فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر}، فلم تنزل الرخصة إلا للمريض والمسافر^(١).
 عن عكرمة والحسن البصري قوله: "وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ"، فكان من شاء منهم أن يصوم صام، ومن شاء منهم أن يفدي بطعام مسكين افتدى وتم له صومه. ثم قال: {فمن شهد منكم الشهر فليصمه}، ثم استثنى من ذلك فقال: {ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر}^(٢).

عن ابن أبي ليلى قال: "دخلت على عطاء وهو يأكل في شهر رمضان، فقال: إني شيخ كبير، إن الصوم نزل، فكان من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً، حتى نزلت هذه الآية: " {فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر}، فوجب الصوم على كل أحد، إلا مريض أو مسافر أو شيخ كبير مثلي يفدي"^(٣).

الثاني: وقال بعض أهل العلم: { يُطِيقُونَهُ } أي: يطوقونه؛ أي يتكفونه، ويبلغ الطاقة منهم حتى يصبح شاقاً عليهم، ويقصد به العجز الكبير الذي لا يستطيع الصوم والمريض مرضاً مزمناً لا يبرأ منه ولا يستطيع معه الصوم فإنهما تجب عليهما الفدية ولا يكلفان بالصوم. وهذا قول سعيد بن المسيب^(٤)، والسدي^(٥).

وهذا الرأي فيه علة واضحة، وهي قلب صريح لظاهر الآية من الإثبات إلى النفي، فلا يمكن التسليم له بالقبول، ومن انتقد هذا الرأي محمد عبد^(٦).

والراجح ما قاله الجمهور، لأنه الأقرب لما ثبت عن سلمة أنها منسوخة وإن احتمل أن يكون النسخ هناك بمعنى التخصيص فكثيراً ما يطلق المتقدمون النسخ بمعناه.

واختلف في نسخ وحكم قوله تعالى: { وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ } [البقرة : ١٨٤]، وفيه ثلاثة أقوال^(٧):

أحدها: أنه كان ذلك في أول ما فرض الصوم، وكان من أطاقه من المقيمين صامه إن شاء، وإن شاء أفطره وافتدى، فأطعم لكل يوم أفطره مسكيناً، حتى نسخ ذلك، وقد قال بكونها منسوخة جمع من العلماء^(٨). وهذا قول عن علقمة^(٩)، وعكرمة^(١٠)، والحسن البصري^(١١)، والأعمش^(١٢)،

(١) أخرجه الطبري (٢٧٤٢): ص ٤٢١/٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧٣٨): ص ٤٢٠/٣.

(٣) أخرجه الطبري (٢٧٤٤): ص ٤٢٢/٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٧٦٤): ص ٤٢٩/٣.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٧٥٧): ص ٤٢٧/٣.

(٦) انظر: تفسير المنار: ١٥٧/٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ٤١٨/٣ وما بعدها.

(٨) منهم: قتادة في كتابه الناسخ والمنسوخ: ٤٠، والزهرري في كتابه: الناسخ والمنسوخ: ١٦، وابن الجوزي في:

المصنفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ: ١٧، وابن البارزي في: ناسخ القرآن ومنسوخه: ٢٥، وابن

سلامة في: الناسخ والمنسوخ: ٤٣-٤٤، والنحاس في: الناسخ والمنسوخ: ٤٩٤/١-٤٩٦، ومكي في: الإيضاح لناسخ

القرآن ومنسوخه: ١٤٩، وابن العربي في: أحكام القرآن: ٧٩/١، والزجاج في: معاني القرآن: ٢٥٢/١-٢٥٣، وابن

جرير في: جامع البيان: ٤٣٤/٣، وابن كثير في: تفسيره: ٢٦٧/١، وغيرهم. وهذا القول هو الأظهر، قال أبو حيان

في البحر المحيط: ٣٦/٢ بعد إيراده للأقوال في الآية: (والظاهر من هذه الأقوال: القول الأول، وذلك أن الله تعالى

لما ذكر فرض الصيام على المؤمنين قسمهم قسمين: متصف بمظنة المشقة وهو المريض والمسافر، فجعل حكم هذا أنه إذا أفطر لزمه القضاء، ومطبق للصوم فإن صام قضى ما عليه، وإن أفطر فدى ثم نسخ هذا الثاني).

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢٧٣٦): ص ٤٢٠/٣.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٧٣٧): ص ٤٢٠/٣.

والشعبي^(٣)، وعطاء^(٤)، وابن شهاب^(٥)، وسلمة بن الأكوع^(٦)، وإبراهيم^(٧)، وابن سيرين^(٨)، والضحاك^(٩).

الثاني: أن لقوله: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةً طَعَامٌ مَسْكِينٍ}، حُكْمًا خَاصًّا لِلشَّيْخِ الْكَبِيرِ وَالْعَجُوزِ الَّذِينَ يُطِيقَانِ الصَّوْمَ، كَانَ مَرخَصًا لهُمَا أَنْ يَفِدِيَا صَوْمَهُمَا بِطَعَامِ مَسْكِينٍ وَيَفْطُرَا، ثُمَّ نَسَخَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: {مَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}، فَلَزِمَهُمَا مِنَ الصَّوْمِ مِثْلَ الَّذِي لَزِمَ الشَّابَّ إِلَّا أَنْ يَعْجِزَا عَنِ الصَّوْمِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ الْحُكْمَ الَّذِي كَانَ لهُمَا قَبْلَ النِّسْخِ ثَابِتًا لهُمَا حِينَئِذٍ بِحَالِهِ. وَهَذَا مَذْهَبُ عَكْرَمَةَ^(١٠) - فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ - وَقَتَادَةَ^(١١)، وَالرَّبِيعَ^(١٢)، وَخَالَفَهُمُ الْأَكْثَرُونَ^(١٣).

الثالث: أنه لم ينسخ ذلك ولا شيء منه، وهو حكم مثبت من لُذُنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَقَالُوا: إِنَّمَا تَأْوِيلُ ذَلِكَ: وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ - فِي حَالِ شَبَابِهِمْ وَحَدَاتِهِمْ، وَفِي حَالِ صِحَّتِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ - إِذَا مَرَضُوا وَكَبُرُوا فَعَجَزُوا مِنَ الْكِبَرِ عَنِ الصَّوْمِ، فِدْيَةً طَعَامِ مَسْكِينٍ لِأَنَّ الْقَوْمَ كَانَ رُخْصَ لَهُمْ فِي الْإِفْطَارِ - وَهُمْ عَلَى الصَّوْمِ قَادِرُونَ - إِذَا افْتَدَوْا. وَهَذَا قَوْلُ السَّدِيِّ^(١٤)، وَسَعِيدِ بْنِ مَسِيْبٍ^(١٥).

الرابع: إنه الشيخ الكبير والمرأة العجوز اللذان قد كبرا عن الصوم، فهما يكلفان الصوم ولا يطيقانه، فلهما أن يفطرا ويطعما مكان كل يوم أفطراه مسكينًا. وقالوا: الآية ثابتة الحكم منذ أنزلت، لم تنسخ، وأنكروا قول من قال: إنها منسوخة. وهذا مروى عن عكرمة^(١٦)، وطاووس^(١٧)، والضحاك^(١٨)، وعطاء^(١٩)، وسعيد بن جبير^(٢٠).

والراجح أن قوله تعالى {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةً طَعَامٌ مَسْكِينٍ}، هو تيسير من الله تعالى على عباده وتدرج في فرض الصوم، والمعنى أن الذين يستطيعون الصوم إذا أفطروا فإن عليهم فدية، وكان هذا في أول الأمر حيث جعل الله تعالى الصيام على التخيير من شاء صام، ومن شاء

-
- (١) انظر: تفسير الطبري (٢٧٣٧): ص ٤٢٠/٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧٣٩): ص ٤٢٠/٣.
(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٧٤٢)، و(٢٧٤٣): ص ٤٢١/٣-٤٢٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٧٤٤): ص ٤٢٢/٣.
(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٧٤٥): ص ٤٢٢/٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري (٢٧٤٧): ص ٤٢٣/٣.
(٧) انظر: تفسير الطبري (٢٧٤٩): ص ٤٢٤/٣.
(٨) انظر: تفسير الطبري (٢٧٥٠): ص ٤٢٤/٣.
(٩) انظر: تفسير الطبري (٢٧٥١): ص ٤٢٤/٣.
(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٧٥٤): ص ٤٢٦/٣.
(١١) انظر: تفسير الطبري (٢٧٥٥): ص ٤٢٦/٣.
(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧٥٦): ص ٤٢٦/٣.
(١٣) كابن مسعود ومعاذ بن جبل وسلمة بن الأكوع وابن عمر وعكرمة والشعبي والزهري وعلقمة والضحاك، انظر: جامع البيان للطبري: ٤١٨/٣-٤٢٤، زاد المسير لابن الجوزي: ١٨٦/١، النكت والعيون للماوردي: ٢٣٨/١، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٦/٢، وغيرها.
(١٤) انظر: تفسير الطبري (٢٧٥٧): ص ٤٢٧/٣.
(١٥) انظر: تفسير الطبري (٢٧٦٤): ص ٤٢٩/٣.
(١٦) انظر: تفسير الطبري (٢٧٨٧): ص ٤٣٣/٣.
(١٧) انظر: تفسير الطبري (٢٧٩٠): ص ٤٣٤/٣.
(١٨) انظر: تفسير الطبري (٢٧٩١): ص ٤٣٤/٣.
(١٩) انظر: تفسير الطبري (٢٧٨٩): ص ٤٣٣/٣.
(٢٠) انظر: تفسير الطبري (٢٧٧٠): ص ٤٣٠/٣.

أفطر وفدى، فمعنى الآية: وعلى الذين يطيقون الصيام إذا أفطروا فدية، ثم نسخت^(١) هذه الآية في قول جمهور أهل العلم بقوله تعالى {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}، ويدل على هذا المعنى ما رواه البخاري عن سلمة بن الأكوع^(٢). والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: {فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ} [البقرة: ١٨٤]؛ "أي فمن زاد على القدر المذكور في الفدية فذلك خير له"^(٣).

وذكروا في قوله تعالى: {فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا} [البقرة: ١٨٤]، ثلاثة أوجه من التفسير^(٤): أحدها: فمن تطوع بأن زاد على مسكين واحد فهو خير له. وهذا قول مجاهد^(٥)، وطاووس^(٦)، والسدي^(٧)، وعطاء^(٨).

الثاني: أن يطعم المسكين الواحد أكثر من القدر الواجب. قاله مجاهد^(٩).

الثالث: فمن تطوع بأن صام مع الفدية فهو خير له. وهذا قول الزهري^(١٠)، ورواية ابن جريج عن مجاهد^(١١).

والراجح أن الله تعالى ذكره عمم بقوله: {فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا}، فلم يخص بعض معاني الخير دون بعض. فإن جمَعَ الصَّوْمَ مع الفدية من تطوُّع الخير، وزيادة مسكين على جزاء الفدية من تطوُّع الخير. وجائز أن يكون تعالى ذكره عنى بقوله: "فمن تطوع خيراً"، أي هذه المعاني تطوُّع به المفتدي من صومه، فهو خير له. لأن كل ذلك من تطوع الخير، ونوافل الفضل^(١٢). والله أعلم. قوله تعالى: {وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ} [البقرة: ١٨٤]، "أي: والصوم خير لكم من الفطر والفدية"^(١٣).

(١) قال الطبري: "إن قوله تعالى {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ}، منسوخٌ بقول الله تعالى ذكره: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}، لأن "الهاء" التي في قوله: "وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ"، من ذكر "الصيام" ومعناه: وعلى الذين يطيقون الصيام فدية طعام مسكين. فإذا كان ذلك كذلك، وكان الجميع من أهل الإسلام مجمعين على أن من كان مطيقاً من الرجال الأصحاء المقيمين غير المسافرين صوم شهر رمضان، فغير جائز له الإفطار فيه والافتداء منه بطعام مسكين - كان معلوماً أنّ الآية منسوخة، هذا، مع ما يؤيد هذا القول من الأخبار التي ذكرناها آنفاً عن معاذ بن جبل، وابن عمر، وسلمة بن الأكوع: من أنهم كانوا - بعد نزول هذه الآية على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم - في صوم شهر رمضان بالخيار بين صومه وسقوط الفدية عنهم، وبين الإفطار والافتداء من إفطاره بإطعام مسكين لكل يوم؛ وأنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت: "فمن شهد منكم الشهر فليصمه"، فألزموا فرض صومه، وبطل الخيار والفدية". (تفسير الطبري: ٤٣٤/٣-٤٣٥).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧٤٧): ص ٤٢٣/٣، والحديث رواه مسلم ١: ٣١٥، عن عمرو بن سواد العامري، عن ابن وهب، بهذا الإسناد. وكذلك رواه البيهقي ٤: ٢٠٠، من طريق بحر بن نصر، عن ابن وهب. ورواه البخاري ٨: ١٣٦، ومسلم ١: ٣١٥، والبيهقي ٤: ٢٠٠ - كلهم من حديث قتيبة بن سعيد، عن بكر بن مضر، عن عمرو بن الحارث، عن بكير. وذكره السيوطي ١: ١٧٧ - ١٧٨، وزاد نسبته للدارمي، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، وغيرهم.

(٣) صفوة التفاسير: ١٠٩/١. [بتصرف بسيط].

(٤) انظر: النكت والعيون: ٢٣٩.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٧٩٧): ص ٤٤١/٣.

(٦) انظر: تفسير الطبري (٢٧٩٨)، و(٢٧٩٩)، و(٢٨٠٠)، و(٢٨٠١)، و(٢٨٠٢): ص ٤٤١/٣-٤٤٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري (٢٨٠٤): ص ٤٤٢/٣.

(٨) انظر: تفسير الطبري (٢٨٠٣): ص ٤٤٢/٣.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢٨٠٧): ص ٤٤٣/٣.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٨٠٦): ص ٤٤٢/٣.

(١١) انظر: النكت والعيون: ٢٣٩.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٤٤٣/٣.

(١٣) صفوة التفاسير: ١٠٩/١.

قال عكرمة: "الصيام خير إن استطاع"^(١).
 وروي عن مجاهد وطاوس: "أن الصيام خير من الإطعام"^(٢).
 عن الحسن وقتادة، أنهما قالوا: "كانت: أن تصوموا على جهد، حتى لا تستطيعوا، خير لهم
 من الفدية، حتى نسخت بقوله: {فمن شهد منكم الشهر فليصمه}"^(٣).

القرآن

{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ
 الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
 الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)} [البقرة : ١٨٥]
 التفسير:

شهر رمضان الذي ابتدأ الله فيه إنزال القرآن في ليلة القدر؛ هداية للناس إلى الحق، فيه أوضح
 الدلائل على هدى الله، وعلى الفارق بين الحق والباطل. فمن حضر منكم الشهر وكان صحيحاً مقيماً
 فليصم نهاره. ويُرحَّص للمريض والمسافر في الفطر، ثم يقضيان عدد تلك الأيام. يريد الله تعالى
 بكم اليسر والسهولة في شرائعه، ولا يريد بكم العسر والمشقة، وتكملوا عدة الصيام شهراً،
 ولتختتموا الصيام بتكبير الله في عيد الفطر، ولتعظموه على هدايته لكم، ولكي تشكروا له على ما
 أنعم به عليكم من الهداية والتوفيق والتيسير.

قوله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} [البقرة : ١٨٥]؛ "أي هذه الأيام هي شهر
 رمضان الذي بدئ فيه بإنزال القرآن"^(٤).

قال الضحاك: "الذي أنزل صومه القرآن"^(٥).

قال ابن نجيب: "بلغني أنه كان ينزل من القرآن في ليلة القدر كل شيء ينزل من القرآن في تلك السنة، فينزل
 ذلك من السماء السابعة على جبريل في السماء الدنيا فلا ينزل جبريل من ذلك على محمد صلى الله
 عليه وسلم إلا بما أمره ربه تعالى"^(٦).

قوله تعالى: {هُدًى لِّلنَّاسِ} [البقرة : ١٨٥]؛ أي: "رشاداً للناس إلى سبيل الحق وقصد
 المنهج"^(٧).

عن ابن جريج: " {هدى للناس}، قال: يهتدون به"^(٨).

قوله تعالى: {وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ} [البقرة : ١٨٥]، أي: وآيات "واضحات
 مكشوفات، مما يهدى إلى الحق ويفرق بين الحق والباطل"^(٩).

قال السدي: "أما {وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ} فبينات من الحلال والحرام"^(١٠).

وفي قوله تعالى: {وَالْفُرْقَانِ} [البقرة : ١٨٥]، قولان:

- (١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٤٥): ٣٠٩/١.
- (٢) أخرجه ابن أبي حاتم: ٣٠٩/١.
- (٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٤٧): ٣١٠/١.
- (٤) انظر: تفسير المراعي: ٧٤/٢.
- (٥) تفسير ابن أبي حاتم (١٦٥١): ٣١١/١.
- (٦) تفسير ابن أبي حاتم (١٦٥٣): ٣١١/١.
- (٧) تفسير الطبري: ٤٤٨/٣.
- (٨) تفسير ابن أبي حاتم (١٦٥١): ٣١١/١.
- (٩) تفسير الكشاف: ٢٢٨/١.
- (١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٥٤): ٣١١/١.

أحدهما: أن المراد: القرآن يفرق بين الحق، والباطل. وهذا قول الجمهور.
والثاني: أن الفرقان: التوراة. قاله أبو صالح^(١).

والراجح أن {الفرقان}: "مصدر، أو اسم مصدر؛ والمراد أنه يفرق بين الحق، والباطل؛
وبين الخير، والشر؛ وبين النافع، والضار؛ وبين حزب الله، وحرب الله؛ فرقان في كل شيء؛ ولهذا
من وفق لهداية القرآن يجد الفرق العظيم في الأمور المشتبهة؛ وأما من في قلبه زيغ فتشتبه عليه
الأمور؛ فلا يفرق بين الأشياء المفترقة الواضحة"^(٢).

قوله تعالى: { فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ } [البقرة: ١٨٥]؛ "أي: فمن شهد منكم دخول
الشهر بأن لم يكن مسافراً فليصمه"^(٣).

واختلف العلماء في معنى "شهود الشهر" في قوله تعالى: { فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ }
[البقرة: ١٨٥]، على أقوال^(٤):

أحدها: أنه مقام المقيم في داره. قالوا: فمن دخل عليه شهر رمضان وهو مقيم في داره، فعليه صوم
الشهر كله، غاب بعد فساد، أو أقام فلم يبرح. وهذا قول عبيدة السلماني^(٥)، وإبراهيم^(٦)، والسدي^(٧).
فقالوا: "وإنما يفطر في السفر من دخل عليه رمضان وهو في سفر، والمعنى عندهم: من
أدركه رمضان مسافراً أفطر وعليه عدة من أيام آخر، ومن أدركه حاضراً فليصمه"^(٨).
قال عبيدة السلماني: "من كان مقيماً فليصمه، ومن أدركه ثم سافر فيه فليصمه"^(٩).
قال السدي: "فمن دخل عليه رمضان وهو مقيم في أهله فليصمه، وإن خرج فيه فليصمه،
فإنه دخل عليه وهو في أهله"^(١٠).

قال إبراهيم: "إذا أدركك رمضان فلا تسافر فيه، فإن صمت فيه يوماً أو اثنين ثم سافرت،
فلا تفطر، صمه"^(١١).

الثاني: أنه من شهد أول الشهر وآخره، فليصم ما دام مقيماً، فإن سافر أفطر. قاله أبو ميسرة^(١٢)،
ومغيرة^(١٣)، والحسن^(١٤)، وسعيد بن المسيب^(١٥)، والشعبي^(١٦)، وقتادة^(١٧)، والحكم^(١٨)، وعماد^(١٩)،
وهو قول الجمهور.

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٦٥٥): ص ٣١١/١.

(٢) تفسير ابن عثيمين: ٣٣٤/٢.

(٣) تفسير المراغي: ٧٤/٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ٤٤٩/٣ وما بعدها. وتفسير القرطبي: ٢٩٩/٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٨٢٦)، (٢٨٢٧): ص ٤٤٩/٣.

(٦) أخرجه الطبري (٢٨٣٣) ص ٤٥٠/٣.

(٧) أخرجه الطبري (٢٨٢٨) ص ٤٥٠/٣.

(٨) تفسير القرطبي: ٢٩٩/٢.

(٩) أخرجه الطبري (٢٨٣٠) ص ٤٥٠/٣.

(١٠) أخرجه الطبري (٢٨٢٨) ص ٤٥٠/٣.

(١١) أخرجه الطبري (٢٨٣٣) ص ٤٥٠/٣.

(١٢) انظر: تفسير الطبري (٢٨٣٧) - (٢٨٤٠): ص ٤٥٣/٣.

(١٣) انظر: تفسير الطبري: ٤٥٢/٣ - ٤٥٣.

(١٤) انظر: تفسير الطبري (٢٨٤٦): ص ٤٥٣/٣.

(١٥) انظر: تفسير الطبري (٢٨٤٦): ص ٤٥٣/٣.

(١٦) انظر: تفسير الطبري (٢٨٤٣): ص ٤٥٣/٣.

(١٧) انظر: تفسير الطبري: ٤٥٢/٣ - ٤٥٣.

(١٨) انظر: تفسير الطبري (٢٨٤٥): ص ٤٥٣/٣.

(١٩) انظر: تفسير الطبري (٢٨٤٥): ص ٤٥٣/٣.

عن شعبة قال: "سألت الحكمَ وحامداً، وأردت أن أسافر في رمضان فقلنا لي: اخرج. وقال حماد، قال إبراهيم: أما إذا كان العُسر، فأحبُّ إليَّ أن يقيم" (١).

الثالث: أنه يعني: فمن شهده عاقلاً بالغاً مكلفاً فليصمه، وهذا مذهب أبي حنيفة وأصحابه (٢).

والصواب هو القول الثاني، إذ عليه تدلُّ الأخبار الثابتة. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥]، "أي يريد الله بهذا الترخيص التيسير عليكم لا التعسير" (٣).

قال الضحاك: "تفطر الحامل والمرضع، والإفطار في السفر" (٤).

قال الشعبي: "إذا اختلف عليك أمران فانظر أيسرهما فإنه أقرب إلى الحق، إن الله أراد بهذه الأمة اليسر، ولم يرد بهم العسر" (٥).

حبيب بن يزيد، قال: سئل جابر بن زيد، عن الصلاة، عند القتال، فقال: يصلي الرجل راكبا وماشيا حيث كان وجهه، وذلك من تيسير الله على عباده، أنه يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر" (٦).

قوله تعالى: {وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ} [البقرة: ١٨٥]؛ "أي ولتكمّلوا عدة شهر رمضان بقضاء ما أفطرتم" (٧).

قال الربيع بن أنس: "عدة رمضان" (٨).

قوله تعالى: {وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم} [البقرة: ١٨٥]، "أي ولتحمّدوا الله على ما أرشدكم إليه من معالم الدين" (٩).

- (١) انظر: تفسير الطبري (٢٨٤٥): ص ٤٥٣/٣.
- (٢) انظر: تفسير الطبري: ٤٥٤/٣. قال الطبري: "كانوا يقولون: من دخل عليه شهر رمضان وهو صحيح عاقل بالغ فعليه صومه، فإن جنّ بعد دخوله عليه وهو بالصفة التي وصفنا، ثم أفاق بعد انقضائه، لزمه قضاء ما كان فيه من أيام الشهر مغلوباً على عقله، لأنه كان ممن شهده وهو ممن عليه فرض." قالوا: وكذلك لو دخل عليه شهر رمضان وهو مجنون، إلا أنه ممن لو كان صحيح العقل كان عليه صومه، فلن ينقض الشهر حتى صحّ وبرأ، أو أفاق قبل انقضاء الشهر بيوم أو أكثر من ذلك، فإنّ عليه قضاء صوم الشهر كله، سوى اليوم الذي صامه بعد إفاقته، لأنه ممن قد شهد الشهر. قالوا: ولو دخل عليه شهر رمضان وهو مجنون، فلم يفق حتى انقضى الشهر كله، ثم أفاق، لم يلزمه قضاء شيء منه، لأنه لم يكن ممن شهده مكلفاً صومه.
- ثم قال: وهذا تأويل لا معنى له، لأن الجنون إن كان يسقط عن من كان به فرض الصوم، من أجل فقد صاحبه عقله جميع الشهر، فقد يجب أن يكون ذلك سبيل كل من فقد عقله جميع شهر الصوم. وقد أجمع الجميع على أن من فقد عقله جميع شهر الصوم بإغماء أو برسام، (١) ثم أفاق بعد انقضاء الشهر، أن عليه قضاء الشهر كله. ولم يخالف ذلك أحدٌ يجوز الاعتراض به على الأمة. وإذا كان إجماعاً، فالواجب أن يكون سبيل كل من كان زائل العقل جميع شهر الصوم، سبيل المغمى عليه. وإذا كان ذلك كذلك، كان معلوماً أن تأويل الآية غير الذي تأويلها قائلو هذه المقالة: من أنه شهود الشهر أو بعضه مكلفاً صومه. وإذا بطل ذلك، فتأويل المتأول الذي زعم أن معناه: فمن شهد أوله مقوماً حاضراً فعليه صوم جميعه، أبطل وأفسد، لتظاهر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خرج عام الفتح من المدينة في شهر رمضان بعد ما صام بعضه، وأفطر وأمر أصحابه بالإفطار. حدثنا هناد قال، حدثنا أبو الأحوص، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: "سافر رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان من المدينة إلى مكة، حتى إذا أتى غسفان نزل به، فدعا بإناء فوضعه على يده ليراه الناس، ثم شربه". (تفسير الطبري: ٤٥٤/٣-٤٥٥).
- (٣) صفة التفسير: ١٠٩/١.
- (٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٦٢): ص ٣١٣/١.
- (٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٥٩): ص ٣١٣/١.
- (٦) أخرجه ابن أبي حاتم: ص ٣١٣/١.
- (٧) صفة التفسير: ١٠٩/١.
- (٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٦٥): ص ٣١٤/١.

قال زيد بن اسلم: "التكبير يوم الفطر"^(٢).
ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية: { وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ } حتى ذهب داود بن علي الأصبهاني الظاهري إلى وجوبه في عيد الفطر؛ لظاهر الأمر في قوله { وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ } وفي مقابلته مذهب أبي حنيفة - رحمه الله - أنه لا يُشترَع التكبير في عيد الفطر. والباقون على استحبابه، على اختلاف في تفاصيل بعض الفروع بينهم^(٣).

القرآن

{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا فَلَيْسَ سْتَجِيبُوا لِي وَلِيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يُرْشِدُونَ} [البقرة: ١٨٦]

التفسير:

وإذا سألك -أيها النبي- عبادي عني فقل لهم: إني قريب منهم، أجب دعوة الداعي إذا دعاني، فليطيعوني فيما أمرتهم به ونهيتهم عنه، وليؤمنوا بي، لعلهم يهتدون إلى مصالح دينهم ودنياهم. وفي هذه الآية إخبار منه سبحانه عن قربيه من عباده، القرب اللائق بجلاله.

اختلف في سبب نزول الآية على أقوال:

أحدها: أخرج الطبري عن الحسن قال: "سأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم النبي صلى الله عليه وسلم: أين ربنا؟ فأنزل الله تعالى ذكره: "وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجب دعوة الداع إذا دعان" الآية"^(٤). وروي عن صلب بن حكيم، عن أبيه، عن جده^(٥)، والضحاك^(٦)، نحو ذلك.

والثاني: أخرج الفريابي^(٧) والطبري عطاء: "لما نزلت: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [سورة غافر: ٦٠] قالوا: في أي ساعة؟ قال: فنزلت: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ}، إلى قوله: {لَعَلَّهُمْ يُرْشِدُونَ}"^(٨)، وروي عن السدي^(٩)، وابن صالح^(١٠)، نحو ذلك.

الثالث: وقال مجاهد: "ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ"، قالوا: إلى أين؟ فنزلت: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [سورة البقرة: ١١٥]"^(١١).

الرابع: وقال قتادة: "ذكر لنا أنه لما أنزل الله {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}، قال رجال: كيف ندعو يا نبي الله؟ فأنزل الله: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} إلى قوله: {يُرْشِدُونَ}"^(١).

(١) صفة التفسير: ١٠٩/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٦٦): ص ٣١٤/١.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: ٥٠٥/١.

(٤) تفسير الطبري (٢٩٠٥): ص ٤٨١/٣ (مرسل)، وذكره ابن حجر عن عبدالرزاق في تفسيره، ولم أجده في "تفسيره" وكذلك من قبلي عبدالحكيم محمد الأنيس محقق العجائب، وكذا أحمد شاكر، إذ قال هذا الأخير: "لم أجده في تفسير عبد الرزاق. فلعله موضوع آخر من كتبه". فهل نقله ابن حجر من تفسيره مباشرة أم اعتمد على رواية الطبري عنه؟ والله أعلم. [انظر: العجائب في بيان الأسباب: ٤٣٣/١].

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٩٠٤): ص ٤٨٠/٣، وعليه اقتصر السيوطي في "اللباب" ص ٣٣.

(٦) العجائب: ٤٣٤/١. قال ابن حجر: "وذكر ابن ظفر عن الضحاك، قال: سأل بعض الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر نحوه".

(٧) انظر: العجائب: ٤٣٣/١.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩٠٧)، و (٢٩٠٨): ص ٤٨١/٣-٤٨٢.

(٩) انظر: تفسير الطبري (٢٩٠٩): ص ٤٨٢/٣.

(١٠) انظر: تفسير الطبري (٢٩١٠): ص ٤٨٢/٣-٤٨٣.

(١١) أخرجه الطبري (٢٩١١): ص ٤٨٣/٣.

قوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة : ١٨٦]، أي: "وإذا سألك يا محمد عبادي عني : أين أنا ؟ فإنني قريبٌ منهم أسمع دُعاءهم أجيب دعوة من دعائي إذا كان عن إيمان وخشوع قلب"^(١).

قال السدي: " ليس من عبد مؤمن يدعو الله إلا استجاب له، فإن كان الذين يدعو به هو له رزق في الدنيا أعطاه إياه، وإن لم يكن له رزق في الدنيا، ذخره له إلى يوم القيامة، أو دفع، عنه به مكروها"^(٢).

قوله تعالى: {قَلْبَيْسْتَجِيبُوا لِي} [البقرة : ١٨٦] أي " فليستجيبوا لي بالطاعة"^(٣).
قال مجاهد: " فليطيعوني. الاستجابة: الطاعة"^(٤). وروي، عن ابن جريج^(٥)، والربيع بن أنس^(٦)، نحوه .

قوله تعالى: {وَلْيُؤْمِنُوا بِي} [البقرة : ١٨٦]، أي: " وليصدقوا بي فإنني قريب سريع الإجابة أجيبهم"^(٧).

عن أبي رجاء الخراساني : " {وليؤمنوا بي}، يقول : أني أستجيب لهم"^(٨).
قوله تعالى: { لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } [البقرة : ١٨٦]؛ أي: " لكي يهتدوا"^(٩).
قال الربيع: " يقول : لعلهم يهتدون"^(١٠). وروي عن أبي العالية^(١١) نحو ذلك.

نسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لمرضاته ويجعلنا من الفائزين بجناته، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

انتهى الجزء الأول من التفسير، ويليه الجزء الثاني بإذن الله، وبدأيته تفسير الآية (١٨٧) من سورة «البقرة».

(١) أخرجه الطبري(٢٩١٢):تص ٤٨٣/٣.

(٢) تفسير الطبري: ٤٨٠/٣، وصفوة التفسير: ١٠٩/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٦٦٨):ص ٣١٤/١.

(٤) تفسير الطبري: ٤٨٣/٣.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٦٧٠):ص ٣١٥/١.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٦٧٠):ص ٣١٥/١.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٦٧٠):ص ٣١٥/١.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٦٤/١.

(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٩١٦):ص ٤٨٤/٣.

(١٠) تفسير الثعلبي: ٧٥/٢.

(١١) أخرجه الطبري(٢٩١٧):ص ٤٨٥/٣.

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٦٧٢):ص ٣١٥/١.